# من أحاديث

# الأحكام والآداب

للشيخ

أحمد فرج عقيلان

رحمه الله تعالى






للشيخ

أحمد فرح عقيلان

رحمه الله تعالى



الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٦٣٢

الترقيم الدولي : ٥-٤١٠-٣٣٦-٩٩٧-٩٧٨

دار اليقين للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

المنصورة : شارع عبد السلام عارف الكردون الخارجي لسوق الجملة بجوار معارض الشريف ص . ب ٤٥٦ المنصورة ٣٥٥١١

هاتف : ٠٥٠٢٢٥٥٢٤١ جوال :٠١٠١٥٧٥٨٥٢ البريد الإلكتروني : elyakeen@hotmail.com

المكتبة : مساكن الشناوي - سور مسجد التوحيد - هاتف ٠٥٠٢٢١١٠٠٣

# المقدمـــة

الحمـد لله الـذي أرسـل محمـدًا هاديًـا
وبشيرًا وداعيًـا إلى الله بإذنـه وسراجًـا منـيرًا،
وصـلاةً وسـلامًا يليقـان بمقـام أمير الأنبيـاء،
وإمام المرسلين، ترك فينا ما إن تمسكنا بهما لـن
نضل أبدًا كتاب الله وسنة رسوله.

**وبعد**؛ فإن هذا الكتاب يعرض لعـدد كبير مـن الأحاديـث النبويـة الصـحيحة المبيِّنة لعدد من الأحكام الشرعيـة مـع شرح مستفيض واسـتنتاجات مفيـدة عسـى الله أن يجعلـه علمًا نافعًا إلى يوم القيامة.

وكتاب «من أحاديث الأحكـام والآداب» هـو مجموعـة مـن الأحاديـث الإذاعيـة تـم جمعها وصقلها بعد وفاة الشيخ أحمد فرح عقيلان -رحمه الله- التي قدَّمها في إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية.

ولقد حاولتُ وضـع الحلقـات الإذاعيـة ذات المواضيع المترابطـة في مجموعـة واحـدة حتى تكتمل الفائدة، ويتم الإلمام بأية مسألة فقهية من كافة جوانبها.

وقد بذل المؤلف -رحمه الله- جهدًا كبيرًا في تحقيـق العديـد مـن المسـائل كـي يقـدم إلى جميع القراء مهما اختلفت مستوياتهم أجوبة شافية تساعدهـم على الفهم الصحيح والسـليم لدينهم، وتعزيز دور السُّنة المطهرة كمكمِّل للقرآن الكريم؛ إذ لا يتم الدين إلا بها.

وبالرغم من أن المؤلف -رحمه الله- قـدَّم أحاديث الأحكام في برنـامج منفصـل عـن أحاديث الآداب إلا أنني رأيت أن جمعها في كتاب واحد سيسهِّل مهمـة القـارئ الكـريم؛

حيث إن الكثير من الأحاديث الشريفة تحتوي على أحكام وآداب يصعب الفصل بينها.

رحم الله الشيخ أحمد فرح عالمًا وأديبًا مجاهدًا ومحققًا خدم الإسلام، وقدَّم علمًا مفيدًا إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، والحمد لله ربِّ العالمين.

**محمد**

**نجل المؤلف**

# تقديــم

## السُّنة النبوية.. تعريفها وأهميتها:

إنَّ السُّنة النبوية والحديث الشريف تعبيران مترادفان ومعنى كل منهما باختصار كل ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو سجية خلقية أو سيرة سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها.

والسُّنة النبوية بمعناها اللُّغوي هي الطريقة، قال لبيد ﷺ من معلقته يفتخر بقبيلة عامر:

مِنْ مَعشَرٍ سَنَّت لَهُم آباؤهُم ... وَلِكُلِّ قَومٍ سُنَّةٌ وَإِمامُها

وقد وردت كلمة «السُّنة» في الحديث الشريف بمعنى الطريقة؛ ففي (صحيح مسلم) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، وفي (صحيح البخاري) من حديث أنس ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي؛ فَلَيْسَ مِنِّي».

ولقد حاول الكثير من أهل الضلال الاستهانة بالسُّنة النبوية، فتسمعه يقول كلمة كبيرة محرمة تخرج من فمه كما يقطر السمُّ من أنياب الأفاعي، يقول وهو يوهمك بحسن نواياه الخبيثة: أنا أومن بالقرآن، أما السُّنة فقد دخلها الوضع والرواية الضعيفة، ومن ثَمَّ؛ فلا لزوم لها!!

وقد استشرى هذا القول في حقبة من الزمن، فروَّج له المستشرقون، ثم جاء من العرب مَن هو أوقح من المستشرقين، فجاهر بالنيل من السنة المطهرة، وكشف قناعه عن وجه خائن وقاح، مما دعا بعض الغيورين إلى إنشاء المركز الدولي للسنة النبوية، واتخذ من القاهرة مركزًا له مهمته إعداد موسوعات متخصصة في تخريج الأحاديث وتبيين مدى صحتها.

وللسُّنة النبوية مكانة عظيمة في الإسلام؛ فهي أهم مصدر للتشريع الإسلامي بعد كتاب

الله، وقد ترك رسول الله ﷺ في أمته أمرين لن يضلوا ما تمسكوا بهما كتاب الله وسنة رسوله؛ إذ هما أمران متصلان لا ينفصلان، فكلٌّ منهما مكمِّل لدين الإسلام.

ولقد أخبر رسول الله ﷺ أنه أوتي القرآن ومثله معه، ومن ثَمَّ؛ فالمنكر للسنة النبوية المطهرة كافر، وهذا ما تقرره الحقائق الآتية:

أ- إن القرآن الكريم نفسه أسند إلى رسول الله ﷺ وظيفة تبيين القرآن بتفصيل مجمله وجلاء متشابهه، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ب- إن رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة لكلِّ من آمن بالله واليوم الآخر، وقد اقتدى به أصحابه والسلف الصالح، ونقل التابعون عن السلف سيرة الرسول الكريم وأخلاقه وشئونه، فمن لم يقتد برسول الله ﷺ فقد ارتضى أن يخرج من عقد المؤمنين بالله واليوم الآخر.

وقد يقول متقوِّل: إن التابعين الذين سجَّلوا أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وسيرته قد تزيَّدوا فيها ونقصوا منها، وعبثت ببعضهم الأهواء المذهبية والانتماءات السياسية.

فإننا نقول: إنَّ هذا الأمر إذا كان قد حدث شيء منه، فإن علماء التابعين -رحمهم الله- قد تعقبوا المتزيدين، ومحصوا الحديث الشريف، وكان الرعيل الأول ممن جنَّدوا أنفسهم لخدمة الحديث أحرص الناس على تحري الصدق ونبذ الزيادة، وقد عاشت تلك النخبة المباركة من جامعي الأحاديث في عصر واحد، وكان إمامهم هو ذلك العالم الموفق، وأعني به الإمام البخاري -رحمه الله، فلقد عاصره أولئك الأبرار الذين أرسوا قواعد جمع الحديث، وهم الإمام مسلم والأئمة أصحاب السنن، وهم على حسب الأقدمية: أبو داود سليمان السجستاني، وابن ماجه واسمه محمد بن يزيد، والترمذي واسمه محمد بن عيسى السُّلمي، والنسائي واسمه أحمد بن شعيب الخراساني، وكان يناصرهم الإمام أحمد، وسبقهم ببضع سنوات الإمام مالك بن أنس صاحب (الموطأ)، وقد عُرف جميع أولئك العلماء بتقوى الله والزهد في الدنيا، وقد جنَّدوا أنفسهم لخدمة حديث الرسول ﷺ، وكانت لهم رحلات

ومخاطرات وقصص عجيبة في جمع الحديث الشريف، مما جعلهم بحق من أعلام الأئمة المجاهدين -رحمهم الله.

ج- والحقيقة الثالثة أن رسول الله ﷺ ما أُرسل إلا ليطاع، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء: ٥٩]، وكذلك فإن من قال: أنا أعمل بالقرآن ولا أعمل بالسنة، يكون قد ناقض القرآن الكريم الذي أمر بطاعة الله والرسول، ومن ثَمَّ؛ فمنكر السنة كافرٌ.

د- إن رسول الله ﷺ صاحب سلطة تشريعية ذُكرت في القرآن الكريم، فهو يُحل ما أحل الله ويحرم ما حرمه، قال تعالى في وصف رسوله ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر: ٧].

وإذن؛ فمنكر السنة يحاول أن يهدم سلطة الرسالة التشريعية والله حافظها وهو كافر؛ لأنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

إنَّ السنة المطهرة هي التي بينت كيفية الصلاة ومناسك الحج ونصاب الزكاة، وقد التزم السنة الخلفاء الراشدون حتى لقد أحلَّ الصديق ﷺ دم مانع الزكاة، وإنَّ التآمر على السنة هو مؤامرة على الإسلام يجب الوقوف أمامها بكل حزم وقوة.

نسأل الله ﷻ أن يجعل محمدًا ﷺ إمامنا وأسوتنا في الدنيا وشفيعنا يوم القيامة.

**المؤلف**

***

# أحكام الصـــلاة وآدابهـــا

## الطهارة شرط لصحة الصلاة

لقد بُعث رسولنا محمدٌ ﷺ في بلد مقفر الجبال يتوسطه وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، وكان الماء في جملته قليلاً لا يوصل إليه إلا برشاء طويل ودلو وقربة ثقيلة تحمل مسافات طويلة، ومع كل هذه الصعوبة والمشقة في الحصول على الماء، فقد جعل الإسلام استعمال الماء للطهارة شرطًا من شروط صحة الصلاة، بمعنى أن الصلاة وهي أشرف العبادات لا تقبل إلا بالوضوء وكامل الطهارة حين يكون الماء ميسورًا.

وفي الوقت الذي نرى فيه اهتمام الإسلام بالطهارة نسمع أن إحدى راهبات النصارى افتخرت أن جسدها لم يمسسه الماء منذ طفولتها، وهي تتقرب بتلك الوساخة إلى الربِّ في زعمها.

إنَّ الطهور في شريعتنا نصف الإيمان، وقرآننا يهيب بنا أن نتحبب إلى الله بالطهارة، فيقول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويمدح عُمَّار مسجد قباء فيقول عن ذلك المسجد: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وما أجمل أن يظل المؤمن على طهارة طول النهار؛ لأنه يملك عندئذٍ تأشيرة دخول ربانية تؤهله أن يتشرف بالوقوف بين يدي الله متى شاء ليتوجه بالصلاة إليه، ويعرض حوائجه عليه، ويقف بالخضوع الشريف اللذيذ بين يديه.

ولقد كان رسول الله ﷺ يعلِّم أصحابه الطهارة كما يعلِّم الأب الواعي أبناءه وأطفاله دخول الخلاء، حتى إنه كان يعلِّمهم كيف يطهرون عوراتهم عند دخول الخلاء.

ولقد كانت الوساخة إلى عهد ليس ببعيد من الظواهر الملحوظة في الأحياء اليهودية، فكان المار بحاراتهم في فلسطين ودمشق والقاهرة وبغداد وصنعاء يعرف أنها أحياء يهودية بما يشم من روائحها الكريهة، ومن أجل ذلك حذَّرنا رسول الله ﷺ أن نتشبه باليهود في قذارة

الأفنية، فقد جاء في الحديث «إنَّ الله نظيف يحب النظافة، جواد يحب الجود، فنظِّفوا أفنيتكم ولا تَشَبَّهوا باليهود».

**وهذه بعض الأحاديث الشريفة في آداب الطهارة نوردها ثم نوضح تلك الآداب النبوية لتعرف الدنيا أن ديننا فيه من الذوق والأدب والحضارة الإنسانية الشريفة ما ينوء على الحصر:**

ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللاعنين» قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظِلتهم».

وفي سنن أبي داود والنسائي قال رسول الله ﷺ: «لا يخرج الرجلان يضربان بالغائط كاشفين عن عوراتهما يتحدثان».

وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدخل الحمام إلا بمئزر، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدخلن حليلته الحمام».

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت الستر بينها وبين ربها».

وفي مسند أحمد وصحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ عند كل صلاة.

وصحَّ أن النبي ﷺ قال: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرَّبِّ».

وقال -عليه الصلاة والسلام: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كلِّ وضوء».

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «حقٌّ على كل مسلم الغسل والطيب والسواك يوم الجمعة».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ».

وفي صحيح البخاري: «الفطرة خمس: الاختتان، والاستحداد (أي: إزالة العانة)، وقص

الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط».

وفي سنن أبي داود: قال رسول الله ﷺ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده».

ولأبي داود أيضًا: «مَنْ نَامَ وَفِي يَدِهِ غَمَرٌ (أي: ريح طعام فيه دهن)، وَلَمْ يَغْسِلْهُ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ؛ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا هريرة، قلم أظفارك؛ فإن الشيطان يعقد على ما طال منها».

وفي الأثر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفواهكم طرق من طرق ربكم فنظفوها».

**مما تقدَّم من الأحاديث الكريمة يمكن استنباط الآداب والأحكام التالية المتعلقة بالنظافة:**

**أولاً**: المسلم لا يكون إلا نظيفًا؛ لأن النظافة في شريعة دينه ومن أدب إيمانه، وإذا رأيت امرأ قذرًا فاعلم أنه لم يلتزم أوامر دينه إزاء النظافة، وإن النظافة شرط مهم من شروط صحة الصلاة، ولا يقبل الله صلاة امرئ يتيسر له استعمال الماء فلم يتوضأ.

**ثانيًا**: ولكي يكون المؤمن صورة لإسلامه الوضيء سنَّ له الإسلام أن يكون دوامًا طاهر الظاهر بالنظافة والطيب والسواك، وطاهر الباطن بالإيمان والاستقامة ومكارم الأخلاق.

**ثالثًا**: أكثر ما تصدر الروائح الكريهة من مغابن الجسد، ولذا حرص الإسلام أن يعتني المؤمن بنظافة تلك المغابن بالاستنجاء، وبالختان، وبتقليم الأظافر، وبنتف شعر الإبط، وإزالة العانة، وبتخليل الأصابع وكلِّ شعر الوجه والرأس، وبإكرام الشعر وبالسواك المستمر وبقص الشارب.

ولقد جلست إلى بعض الشباب الأجانب فلم أرتح لروائحهم بسبب ترك المغابن دون تنظيف وبخاصة الإبطين والأظافر، ولأنهم لا يستعملون الماء في الاستنجاء نهائيًا، فلا يخلو الأمر أن يعلق بملابسهم بعض الأذى.

والحقُّ أن كلا من المسلم والمسلمة حين يحافظان على الصلاة يُرى على وجوههم وضاءة

ونضارة ولا تتاح للأقدار أية فرصة أن يبدو أثرها عليها.

**رابعًا:** على المؤمن أن يحرص حرصًا شديدًا ألا تبدو له عورة ولا تنكشف له سوأة وخصوصًا في المسابح العامة التي يكون فيها اختلاط يندى له جبين الحياء.

إنَّ الحياء من شعب الإيمان، وإذا قلَّ حياء المرء فعل ما شاء، والمرأة المسلمة لا تضع ثيابها الساترة إلا في بيتها، أما أن تفعل ذلك أمام خياط أو بزاز؛ فتلك هتك ولعنة.

**خامسًا:** أجمل ما تكون النظافة والعطر يوم الجمعة لتكون مساجد المسلمين كأنها حدائق الورد القائمة، يقول الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [المائدة: ٦].

## منزلة الصلاة

يحرص المؤمن على صلاته حرصه على روحه وسلامته، وذلك لأن الصلاة هي أجلُّ العبادات بعد توحيد الله ﷻ، وأول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر.

ولأمر ما فرض الله -جلَّ وعلا- الصلاة على النبي ﷺ وهو في السماء، ودارت بين النبي الكريم وربه مداولة حول الصلاة اشترك فيها نبي الله موسى عليه السلام شيخ أنبياء بني إسرائيل إلى أن استقرت خمس صلوات في اليوم والليلة، وجعلها ربنا ﷻ على المؤمنين كتابًا موقوتًا، ولكل وقت من أوقاتها حدود لا يجوز أن يؤخر عنها أو يقدم.

إنَّ المؤمن يعتبر الصلاة قرة عينه وغذاء روحه وقربته إلى ربه وذخيرته التي يرفع الله بها درجاته ويحيط بها خطيئاته؛ ففي صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: **«عليك بكثرة السجود لله؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»**.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء**».

وفي الحديث المتفق عليه: «**مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جارٍ غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات**».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن توضأ نحو وضوئي هذا وصلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه**».

ولكي ينشأ أطفال المسلمين نشأة إسلامية طاهرة أمر النبي ﷺ أن يُنَشَّئوا على الصلاة ويتعوَّدوها من نعومة أظفارهم، فقال كما روى أبو داود في سننه: «**مروا صبيانكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**».

ومن فضائل الصلاة أنها تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وذلك لتكرارها وتقارب أوقاتها؛ ففي سنن الترمذي ومسند أحمد يقول النبي ﷺ: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم (وهو يعني لا يستفيدون من صلاتهم) عدَّ من بينهم امرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون، وذلك لأنهما لم يستفيدا من صلاتهما ما يردعهما عن كفر العشير والتمقُّت للخلق، وفي الأثر أنه قيل للنبي ﷺ: إن فلانًا يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ستمنعه صلاته**».

وقد أجمع أئمة المسلمين أن تارك الصلاة متعمدًا كافر؛ ففي مسند أحمد -رحمه الله- يقول النبي ﷺ: «**من ترك الصلاة متعمدًا؛ فقد كفر جهارًا**».

وقد كان رسول الله ﷺ يعدُّ انتظار الصلوات والصبر عليها رباطًا في سبيل الله؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط**».

ومن آداب المؤمن أن يحرص على أداء الصلاة في أول وقتها؛ ففي سنن الترمذي يقول النبي ﷺ: «**الوقت الأول من الصلاة رضوان الله، والوقت الآخر عفو الله**».

ومن أدب المصلي إذا سمع النداء أن يقول كما يقول المؤذن، ويحوقل عند الحيعلتين، ثم إذا انتهى المؤذن أن يدعو لرسول الله ﷺ بالوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود.

ولا كفارة لمن نسى صلاة أو نام عنها إلا أن يصليها إذا ذكرها، وعلى المصلي أن يؤدي الصلاة وهو خالٍ مما يشغل نفسه، فلا يصلي في حضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان، وليستحضر مخافة الله في صلاته؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء.

ومن أدب المؤمن أن يأتي الصلاة في هدوء وسكينة، وألا يركض ركضًا؛ ففي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: **«إذا نودي بالصلاة فأتوها وأنتم تمشون، وعليكم بالسكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»**.

والمؤمن يخشع في صلاته ليكون من المؤمنين المفلحين الذين هم في صلاتهم خاشعون، يصلون صلاة مودع متدبر لما يقول؛ ففي «مصابيح السُّنة» أن رسول الله ﷺ قام يصلي حتى أصبح بآية من كتاب الله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ومن الأدب أن يأخذ المؤمن زينته عند الصلاة، يقول الله -تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: ألبسوا ثيابكم النظيفة عند كلِّ صلاة.

والمؤمن يجعل مفزعه إلى الله في الكُربات فيصلي ويطيل القيام؛ ففي مسند أحمد كان -عليه الصلاة والسلام- إذا حزبه أمر صلى.

وما أجمل أن يقول في ركوعه وسجوده: **«سبوح قدوس رب الملائكة والروح»**، ويقول بين السجدتين: **«اللهم اغفر لي وارحمني وأجرني وارفعني واهدني وعافني وارزقني»**، فإذا سلم من الصلاة قال: **«اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»**.

ومن أدب الإمام إذا صلى بالناس أن يخفف؛ لأن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة، فإذا صلى وحده صلى كما يريحه، والإمام يدعو لنفسه ولمأموميه، ولا يخص نفسه بالدعاء.

هذا؛ والحرص على صلاة الفجر وصلاة العشاء من أخلاق المؤمنين؛ لأن من شهدها في جماعة كانت له براءتان: براءة من النفاق، وبراءة من الشرك.

هذا، ومن الأدب إذا زرت قومًا ألا تؤمهم، بل تترك رجلاً منهم ليؤمهم.

هذا، ومن أدب المؤمن حرصه على شهود الجمعة؛ ففي الحديث المتفق عليه: «**من ترك ثلاث جمع تهاونًا من غير عذر طبع الله -تبارك وتعالى- على قلبه**».

والمؤمن لا يحرم بيته من بركات الصلاة وطيبها، فيصلي الرواتب والنوافل في بيته، وأما المفروضة فيصليها مع جماعة المسجد.

هذا، ومن تمام الثواب أن تدعو الله في أدبار الصلوات بما ورد من مأثور الدعاء، وأن تسبح الله وتحمده وتكبره ثلاثًا وثلاثين لكل منها، وتتم ذلك بقولك: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**».

## احترام بيوت الله

احترام بيوت الله من دلائل الإيمان ومن آداب الإسلام، ولا غرو؛ فإن من احترم امرأً احترم بيته، والمسجد هو أوسع الأماكن صدرًا للمؤمنين، يرحب بالزائرين ويغمرهم بهالة من النور والسكينة تنور وجوههم وقلوبهم، وإذا كان احترام البيت من احترام صاحبه؛ فإن أولى البيوت بالاحترام هو بيت الله ﷻ، فإنه بيت أعد الله فيه للمؤمنين نزلاً وضيافة؛ لأن عمار المساجد هم ضيوف الله وأحباؤه وهم أهل الرجولة والإيمان ومخافة الله.

لقد خلع الله ﷻ على عمار المساجد صفات من الفضائل تجعلهم في مقدمة الرجال، يقول ربنا ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة: ١٨]، ويقول ﷻ: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وإنه مما يسوء المؤمن أن يرى عددًا من صغار الصبية حول معظم المساجد يزين لهم الشيطان اللعب والعربدة والضجيج قريبًا من المسجد وأثناء إقامة الصلاة، والإثم في ذلك على آبائهم؛ لأنهم لم يعلِّموهم احترام المساجد، ولا عرَّفوهم أنها أجدر بيوت الأرض بالإجلال؛ لأنها ضيافات الله لعباده الصالحين.

**وإني ملخص للقارئ الكريم سُنة الله ورسوله في احترام المساجد ورفع شأنها:**

جاء في سنن الترمذي وأبي داود أن رسول الله ﷺ أمر أن تبنى المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب. وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **«ما أمرت بتشييد المساجد لتزخرفوها كما زخرفتها اليهود والنصارى»**.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل -عليه الصلاة والسلام: **«أي البقاع أحب إلى الله؟» قال: المساجد، وأحب أهلها إلى الله أولهم دخولاً إليها وآخرهم خروجًا منها، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إليه أولهم دخولاً إليها وآخرهم خروجًا منها»**.

(ويعني رسول الله ﷺ إذا أصبحت الأسواق أكبر هم الرجل ومبلغ علمه وشغلته في بدايتها ونهايتها عن ذكر الله وعن الصلاة).

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تجعلن قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»**.

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار، وبراءة من العذاب، وبراءة من النفاق»**.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن منبري على ترعة من ترع الجنة، وما بين منبري وحجرتي روضة من رياض الجنة»**.

وقال ﷺ: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي هذا»**.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه همَّ بإحراق قوم كانوا يصلون في منازلهم ولا يصلون الجماعة، وأنه لم يرخص للأعمى في التخلف عن المسجد والجماعة مع أن بيته بعيد عن المسجد وليس له قائد.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «مَن سمع النداء وهو في المسجد فخرج من غير علة؛ فهو منافق إلا أن يريد الرجوع إليه».

وفي سنن الترمذي أنه ﷺ قال: «بشِّر المشائين في الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة».

وفي مسند أحمد: «إذا دخل أحدكم المسجد؛ فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء وأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي الملائكة عليه ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

وجاء عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قدَّم رجله اليمنى وقال: «باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي، وافتح لي أبواب رحمتك»، ويفعل مثل ذلك في خروجه إلا إن يقدم اليسرى ويقول: «وافتح لي أبواب فضلك».

وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم يوم الجمعة في مجلسه، فليتحول من مجلسه ذلك». وجاء عنه ﷺ أنه قال: «مَن جلس في مصلاه من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ستره الله من النار».

وفي سنن الترمذي ومسند أحمد قال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد أو يعتاد المسجد؛ فاشهدوا له بالإيمان»، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استأذنت أحدكم امرأته في المسجد؛ فلا يمنعها»، وقال في موضع آخر: «خير مساجد النساء بيوتهن»، وقال: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها»**.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من سمع رجلاً ينشد ضالته في المسجد؛ فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تبن لهذا»**.

وفي سنن الترمذي: **«إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك»**، وله أيضًا: أن رسول الله ﷺ نهى عن الشراء والبيع في المسجد، وأن تنشد فيه ضالة أو ينشد فيه شعر.

وفي صحيح البخاري أن عمر ﷺ سمع رجلين يرفعان صوتهما في المسجد فقال لهما: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟!

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن أكل ثومًا أو بصلاً؛ فليعتزل مسجدنا»**، وفي زيادة لمسلم: **«فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»**.

وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ نهى عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب (والحبوة أو الاحتباء أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما فيه مع ظهره ويشد عليه)، وإنما نهى الرسول الكريم عن مثل هذه الجلسة؛ لأنها تجلب النوم فتفوِّت على صاحبها سماع الخطبة، وقد ينتقض معها الوضوء. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتًا في الجنة»**.

وفي صحيح مسلم أن عمر ﷺ كان ينهى عن أن يُدخَل المسجد من باب النساء.

وروى أصحاب السنن أن رسول الله ﷺ نهى عن التحلُّق قبل الصلاة يوم الجمعة، والتحلُّق هو إقامة حلقات لطلب العلم، وفي سنن أبي داود نهى أن تدخل الحائض المسجد.

ومن تمام الفائدة أن تذكر أن رسول الله ﷺ نهى أن يتخذ المسجد ممرًا، أو أن تدخله وأنت تحمل لحمًا نيئًا، واستحب أن يصلي كل رجل في مسجد قومه، ولا يتتبع المساجد، كما نهى رسول الله ﷺ أن يسند الرجل ظهره إلى القبلة، ونهى أن يدخل المسجد أطفال غير مميزين أو مجانين خشية أن يوسخوا المسجد أو يروعوا المصلين.. ألا ما أجمل أن يعلِّم كل أب ابنه دروسًا في حقِّ المسجد واحترام المسجد وعمارة المسجد بالصلاة والذكر وحسن الأخلاق.

## آداب الصلاة

إنَّ أهم عبادة فرضها ربنا ﷻ على هذه الأمة هي الصلاة، فقد بلغ من عظمتها أنه ﷻ فرضها على نبيِّه ﷺ في السماء ليلة الإسراء والمعراج فرضًا مشافهةً لا عن طريق جبريل ﵇، وكان من عظمة الصلاة أن كان لموسى ﵇ دور في أثناء فرضيتها، وموسى ﵇ هو شيخ بني إسرائيل كما أسلفنا، ولإشراكه في الرأي معنى كبير يدل على عظمة الصلاة كما يدل على اعتراف من موسى ﵇ بأن النبوة قد ورث العرب أمانتها وبخاصة أمانة الصلاة التي هي عمود الدين.

والصلاة هي دليل الإيمان يشهد لمؤديها بالأمانة والإيمان، ويحقُّ أن يتهم تاركها بالنفاق، والصلاة أول عمل يحاسب عليه المرء يوم القيامة، فإن صلحت صلاته صلح سائر عمله، وإن لم تصلح حبط سائر عمله.

من أجل ذلك ترى المؤمن يحرص على صلاته حرصه على حياته؛ لأنه إن حفظها فقد سعد برعاية الله وحفظه، وإن ضيَّعها فقد رزئ حاضره ومستقبله.

**وإلى الأخ القارئ الكريم أسوق هذه المجموعة المباركة من الآداب التي تواكب الصلاة المقبولة إن شاء الله:**

**أولاً**: إن أهم أدب من آداب الصلاة هو الخشوع فيها، وذلك بأن يفرغ القلب أثناء الصلاة من حسابات الدنيا، ويحضر بهمته للصلاة، فإذا رأيت قلبك لا يحضر عند الصلاة ورأيت الشيطان يلهيك عن صلاتك، فضاعف جهدك في إحضار القلب؛ لأن الخشوع في الصلاة دليل الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٢].

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وركوعها وخشوعها إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله»**.

وفي سنن أبي داود: **«مَن توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما غفر له ما**

تقدم من ذنبه». وفي رواية له: «ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين يقبل بقلبه وبوجهه عليها إلا وجبت له الجنة». وفي رواية لمسلم: «فقد أوجب»، ومعنى أوجب أي فعل ما يوجب له الجنة.

**ثانيًا**: أن يكون لصلاتك حياةٌ؛ لأن من الصلاة ما يكون ميتًا، ومنها ما يكون حيًّا، والصلاة التي فيها حياة هي التي يتفهم مؤديها ما يقوله من ألفاظ الصلاة بأن يتدبر افتتاح الصلاة عند كل قوله: «الله أكبر»، فإن قول المصلي: «الله أكبر» معناه أن كل ما عدا الله في أثناء الصلاة هو ضئيل صغير، والله ﷻ أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، ومهما هوَّل الشيطان في عينيك عرضًا كبيرًا؛ فالله ﷻ أكبر.

**ثالثًا**: ومن أهم آداب الصلاة الشعور بعظمة الله واستشعار وحدانيته والاستغراق في توحيده والهيبة له؛ فالله ﷻ في غنى عن عبادة العبد، ولا يناله شيء من منافع العبادة لكن يناله التقوى منكم.

ولقد كان من السلف -رضي الله عنهم ورحمهم- من تنسيه مهابة الله نفسه في الصلاة، فقد قرأنا أن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- كان يصلي في الحِجر فسقط حَجَر منجنيق قدامه قريبًا منه حتى مزق بعض ثوبه، فما التفت ولا قطع الصلاة.

وقرأنا أن سعيد بن جبير ﷺ أصيب بمرض استوجب قطع رجله، فقطع الطبيب رجله وهو يصلي مشغولاً عن الآلام بصلاته.

وكان زين العابدين بن علي -رحمه الله- إذا توضأ اصفر لونه وسمع لقلبه أزيز، فيسأله من حوله: ماذا ألمَّ بك؟ فيقول: أتدرون من الذي سأقوم بين يديه؟!

إنَّ الصلاة فترة من الصلة بين العبد وربه، يقترب فيها العبد من ربه، وخصوصًا حين يسجد؛ حيث يصبح أقرب ما يكون إلى ربه.. فما أجمل إذ ذاك أن يذرف دمع المتاب، ويتذكر بين يدي ربه المآب، ويستغرق في ذكر الذنوب والحساب.

وقد جاء في كتاب (منهاج القاصدين) لابن قدامة المقدسي -رحمه الله- هذه العبارة التي أنقلها بتصرف بسيط لعل الله يهدينا بها إلى حقائق العبادة، وإقام الصلاة المقبولة، يقول ابن

قدامة -رحمه الله: يجب أن يكون المصلي بين رجاء الثواب ومخافة العقاب، وأن يتذكر كل شيء في صلاته، فإذا سمع نداء المؤذن؛ فليتمثل النداء للقيامة ﴿يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١-٤٢]، وإذا ستر عورته؛ فليتذكر يوم يحشر الناس إلى ربهم حفاة عراة غرلاً، يقول لهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، وليتذكر المصلي وهو يستر عوراته الظاهرة عن الخلق ليتذكر عورات باطنه وسرّه، وأنى له سترها عن خالقه الذي هو أقرب إليه من حبل وأنى الوريد، وإذا استقبل القبلة؛ فليذكر أن صرف وجهه عن الجهات كلها إلا جهة واحدة هي رحاب بيت الله، وإذن فإن عليه ألا يعنوا إلا للحي القيوم، وإذا رفع صوته بتكبير الله؛ فليحذر أن يكذب قلبه لسانه، فيقول للسان: كيف تقول: الله أكبر، وتكون الشهوات عند صاحبك أكبر؟!

ثم تدبَّر فاتحة الكتاب وكيف قسمها ربك بينه وبينك شطرين، فأنت تحمده وتمجده وتخلص له العبادة، وهو يمدك من لدنه بالعون والهداية إلى الاستقامة، ويجنبك الاعوجاج الذي يتبعه أهل الضلال والغضب.

ثم استشعر أثناء قيامك أنك قائم في خدمة ربك، وأثناء ركوعك أنك ذليل في حضرته، وعند سجودك أنك تُعفِّر وجهك وأنفك بين يدي إلهك العلي العظيم، تعفرها في تراب الخشوع مذكرًا إياهما أن أصلها من التراب، وأنهما إلى التراب عائدان، وأنه مهما شمخت أنوف وعزَّت وجوه؛ فإن وراءها يومًا تعنو فيه الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلمًا.

## أهمية الصلاة في الإسلام

لقد أثبت التاريخ عبر أحقابه المتلاحقة أن الصفوف المتراصة للصلاة هي نفسها الصفوف المتراصة للجهاد، وأن أمة محمد ﷺ التي حافظت على الصلاة حتى في ميادين قتالها هي أمة محمد التي أيدها ربها بنصره، وأنجز لها وعدها الذي قطعه في محكم آياته؛ إذ يقول

ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

ثم تطاول على المسلمين الأمد فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا في حياتهم غيًّا وضياعًا وخذلانًا، فتهافتت عليهم الأمم حين رأتهم غثاء كغثاء السيل قد أثخنهم حب الدنيا وكراهية الموت وترك العبادة والإغراق في معصية الله.

لقد بلغ من أهمية الصلاة عند الله ﷻ أن فرضها على رسوله ﷺ وهو في السماء غداة المعراج، وجعل الصوم ثلاثين يومًا في العام، والزكاة مرة واحدة في السنة، والحج مرة واحدة في العمر، بينما جعل الصلاة كتابًا موقوتًا تؤدى فيه خمس مرات في اليوم والليلة.

والحقُّ أن الصلاة أثبتت عبر التاريخ عظمة أثرها في الحرب وفي السلم؛ فقد جعلت في المسلمين أسود غاب في الحرب وخير شباب في السلم، وعلى المستوى الاجتماعي، فقد رأينا رأى العين أن المصلين من الطلاب والموظفين والشرطة والتجار والصناع هم أكثر إخلاصًا وأعظم إنتاجًا وأجل خدمةً وأروع اجتهادًا من غير المصلين، وحسبك دليلاً على عظمة الصلاة أنها عمود الدين وقرة عين رسول الله ﷺ، وأنها أول ما يستفتح به، ويجعل المصلي بعيدًا عن الفحشاء والمنكر متحليًا بأخلاق الصالحين المصلين التي ذكرها الله ﷻ في مطلع سورة المؤمنين وأوائل سورة المعارج، ولأمر ما فرض الله ﷻ الصلاة على محمد وأمته وحُمِدَ في السماء مع الملأ الأعلى ليلة معراجه، بينما فرض عليه سائر أركان الإسلام وهو بين أهل الأرض.

**وهذه بعض الأحاديث الشريفة الكريمة التي تدور حول أهمية الصلاة في الإسلام نوردها، ثم نتبعها بإلقاء الضوء على الأحكام الجليلة الواردة فيها:**

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» (أي: الأوساخ التي تتعلق بجلده) قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

وفي الصحيحين أيضًا عن عثمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتوضأ رجلٌ فيحسن وضوءه، ثم يصلي الصلاة إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة التي تليها».

وروى الشيخان أيضًا أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد أصبت

ذنبًا أو حدًّا، فقال له النبي ﷺ: «أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «ثم شهدت الصلاة معنا؟». قال: بلى يا رسول الله، قال: «فإن الله قد غفر لك حدك -أو قال: «ذنبك». ولعل رسول الله ﷺ يشير بقوله هذا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وروى النسائي وأبو داود عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ بِجَبَلٍ يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ يَخَافُ مِنِّي، فَقَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ».

وفي سنن أبي داود: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى.

وروى أيضًا أن ربيعة الأسلمي ﷺ كان يخدم رسول الله ﷺ، فقال له: «سلني». قال: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال -عليه الصلاة والسلام: «أعني على نفسك بكثرة السجود».

وفي صحيح مسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ شُهُودُ الْعِشَاءِ وَالصُّبْحِ لَا يَسْتَطِيعُونَهُمَا».

وفي رواية: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة».

وفي مسند أحمد والسنن: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

**أولاً**: من أشد المناظر إيلامًا أن ترى عددًا من الفتيان قريبًا من المساجد يرون الصلاة تقام وهم لا يلبون النداء، وقد ترى بعضهم يلعب بدراجته أو سيارته أثناء الصلاة، وربما جاهر بوقاحته فأحدث أصواتًا كريهةً مع أنه كما يبدو في سنه بالغ مكلف.

وأمثال هؤلاء يجرون على الأمة التيه والضياع، وهم كما جاء في الحديث الشريف كفار؛ لأنهم يتركون الصلاة عامدين، وسيحمل أولياء أمورهم أوزارًا؛ لأنهم لم يربوهم على العبادة وهم أبناء سبع أو عشر سنين، وأهملوهم حتى أفلت زمامهم، واسترخى لببهم، وساء أدبهم، وقد قال ربنا ﷻ منذرًا تاركي الصلاة بالويل والتيه والضياع: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

**ثانيًا**: إذا أدى المؤمن الصلاة، ووقع بعدها في ذنوب غير الكبائر؛ فإن الله ﷻ يغفر للمصلي ذلك، أما الكبائر فهي الذنوب التي يقع فيها ظلم على العباد، ولهذا فلا بدَّ أن يتنازل صاحب الحق عن حقه كي تتم المغفرة لأهل الكبائر.

**ثالثًا**: الصلاة درس إلهي في الأخلاق، تنظف المؤمن من أوضار المعاصي، وتنهاه عن كل الفحشاء؛ لأنه بالصلاة يطهر ضميره وتشرق فطرته، فينكر كل منكر، ويعرف كل معروف، ويتذكر لقاءه القريب بربه؛ فكيف عن كلِّ معاصيه؟

**رابعًا**: لا خلاف بين الأئمة في أن من ترك الصلاة عمدًا ولو فريضة واحدة حتى يخرج وقتها دون عُذر شرعي، فقد كفر وارتد، وعليه حالاً أن يعود إلى إسلامه بإقامة الصلاة والتوبة الصادقة النصوح.

**خامسًا**: بالصلاة يفرج الله الكروب، ويكشف الغمة، وقد كان رسول الله ﷺ إذا اشتد عليه الأمور فرغ إلى الله بالصلاة.

**سادسًا**: من شاء أن يطهر نفسه من النفاق، فليتعود صلاة العشاء وصلاة الصبح في جماعة، فقد كان من أوضح صفات المنافقين تكاسلهم عن صلاة العشاء وصلاة الفجر.

**سابعًا**: من المناظر الجميلة التي تعجب الله ﷻ أن يكون المرء مستغرقًا في أعمال الدنيا كراعٍ بين أغنامه في بعض الجبال أو شرطي ينظم المرور في مكان ناءٍ أو تاجر مسافر في ظلمات البر والبحر، فإذا نودي للصلاة رأيت هؤلاء يوقفون أعمالهم، ثم يؤذنون للصلاة ويقيمونها رغبًا ورهبًا لربهم، مثل هؤلاء جميعًا يمدحهم الله في ملأه الأعلى، ويشهدهم أنه غفر لهم.

## فضل المساجد وواجبها

وددت لو أن كل يعلم ابنه دروسًا بعنوان آداب المسجد كثقافة إسلامية حول تعامل الطفل والصبي مع المسجد، وأن تفعل كل أم مثل ذلك؛ فقد لاحظت أن عددًا لا يستهان به من الصبيان لا يعرفون حقوق المسجد ولا آداب المسجد، فيدخلون ركضًا ولا يراعون

النظافة، ويتصايحون وقد يتراكضون والناس محرمون للصلاة، بل إن كثيرًا من الكبار قد يتجادلون في المسجد، وقد يعلو جدلهم وقد يبصق بعض الجهلة في المسجد، وقد يكثر البعض من الكلام الدنيوي في المساجد، لذلك كان لزامًا أن نبيِّن فضل المساجد وواجبها موردين الأحاديث الواردة في هذا الصدد، ثم نتبعها -إنْ شاء الله- بما يمكن أن نستنبطه من أحكام، جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتًا في الجنة»**.

وفي الصحيحين وكتب السِّيرة ما خلاصته أن رسول الله ﷺ قال لبني النجار حين اختار موضع المسجد النبوي: **«ثامنوني بحائطكم هذا؟»** (يعني: اطلبوا ثمن بستانكم الذي سنقيم عليه المسجد). قالوا: لا، والله لا نكلف ثمنه إلا إلى الله، وشرعوا يبنون معه وكانوا يرتجزون ورسول الله معهم:

اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَهْ فَانْصُرِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

وكان -عليه الصلاة والسلام- ينقل التراب، فأراد أحدهم أن يحمل عن رسول الله ﷺ لبنته فقال له: **«اذهب فخذ غيرها، فلست أفقر مني إلى الله»**.

وقال لرجل حضرمي كان يحسن عجن الطين: **«رحم الله امرأً أحسن صنعته، الزمْ أنت هذا الشغل؛ فإني أراك تحسنه»**.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد فشق عليه فقام فحكه بيده وقال: **«ألا لا يبصقن أحدكم قبل قبلته»**.

وفي الصحيحين: **«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»**. قالت عائشة: لو رأى رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل.

وفي صحيح مسلم: **«من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك؛ فإن المساجد لم تبن لهذا»**.

وروى مالك وأصحاب السنن -رحمهم الله- أن رسول الله ﷺ نهى عن الشراء والبيع في المساجد، وأن تنشد ضالة، وأن ينشد فيها شعر، ونهى عن التحلق قبل صلاة الجمعة.

وفي صحيح البخاري أن عمر ﷺ سمع رجلين يرفعان صوتها، فأمر السائب بن يزيد أن يحضرهما ثم سألهما، فعلم أنهما من أهل الطائف فقال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

وفي سنن أبي داود: «إذا نعس أحدكم وهو في المسجد؛ فليتحول من مجلسه ذلك إلى غيره».

وفي الصحيحين من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ أذن للحبش في العيد أن يلعبوا بالدرق في المسجد.

وفي سنن أبي داود: «من أتى المسجد لشيء؛ فهو حظُّه».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وفي موطأ مالك أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد».

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ نهى أن يستقاد في المسجد، وأن تنشد فيه الأشعار، وأن تقام فيه الحدود.

وفي «المعجم الكبير» عن معاذ: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ، وَخُصُومَاتِكُمْ، وَحُدُودَكُمْ، وَشِرَاءَكُمْ، وَبَيْعَكُمْ، وَجَمِّرُوهَا يَوْمَ جَمْعِكُمْ، وَاجْعَلُوا عَلَى أَبْوَابِهَا مَطَاهِرَكُمْ».

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل من هذه الشجرة -يعني: البصل والثوم- فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس».

**مما تقدَّم يمكن أن نلخص حقوق المسجد ليعلمها كل قاصٍ ودانٍ، ويعلِّمها أبناءه، وتكون بإذن الله ثقافةً وتربيةً إسلاميةً للناشئة.**

**أولاً:** أن يسعى الأغنياء إلى بينان المساجد، ويتركوا لهم قدم صدقٍ وذكرى في الدنيا.

**ثانيًا:** إذا لزم أي عمل للمسجد أن يجند كل إنسان نفسه لخدمة المسجد، ولا يستنكف أن يكنسه، وأن يخرج منه الأقذار؛ فقد جاء أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد -أي: تكنسه- ثم ماتت وتفقدها رسول الله ﷺ، فلما علم بموتها قال: «لا حول ولا

قوة إلا بالله، هلا أعلمتموني»، ثم مشى يصلي عليها.

ومن حق المسجد ألا يحدث الإنسان فيه وساخة أو قذارة ببصاقٍ أو غيره أو رمي ورق، وبعدئذٍ فمن حق المسجد أن تدخله النساء إذا تأدبن وعرفن أدب المساجد، أما إذا كثر لغطهن؛ فمن السُّنة أن يمنعن منه، كما جاء في حديث عائشة -رضي الله عنها.

**ثالثًا:** من آداب المسجد ألا تنشد فيه ضالة، فيأتي أحدهم بصوت عالٍ، ويقول: من وجد شيئًا، فقل له: لا رد الله ضالتك عليك؛ فإن المساجد لم تبن من أجل هذا، وإنما بنيت لعبادة الله.

**رابعًا:** لا يصح في المسجد البيع والشراء والصفقات، لكن يجوز خارج المسجد؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، يعني: اطلبوا الرزق.

**خامسًا:** يكره أن ينشد الشعر في المسجد؛ لأن الشعر أكثره مفاخرة، وربما تحول إلى هجاءٍ إذا وجد شاعران، ثم إن الشعر أكثره خيال، والشعراء معظمهم كما وصفهم ربهم ﷻ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥، ٢٦].

**سادسًا:** من آداب المسجد في يوم الجمعة ألا تقام حلقات علم أو تعليم؛ لأن يوم الجمعة فيه دعوة مستجابة يسن أن ينتهزها المصلي بالدعاء وبقراءة القرآن وحده أو سماع القرآن من جاره، وفي صحيح البخاري ما أفاد أن عمر ﷺ حين سمع اثنين من المصلين يرفعان صوتيهما أراد أن يضربهما، لكنه لم يفعل عندما علم أنهما غريبان، فرفع الصوت في المسجد استحق الضرب عند عمر ﷺ.

**سابعًا:** من آداب المسجد ألا يجلس المرء فيه ناعسًا تارة يغمض عينيه، وربما ينزل من فمه سوائل وهو ينعس، فإذا أحس أحد بالنعاس فليجدد وضوءه، أو يتحول إلى مكان آخر، أما النوم في المسجد؛ فقد جاء أن الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا ينامون في المسجد على ألا يحدث في المسجد رائحة كريهة أو عرقًا أو غير ذلك، بل ينام وهو نظيف.

**ثامنًا:** سمح رسول الله ﷺ في الأعياد بلعبة حربية يتفرج عليها الناس في المسجد، ولعل ذلك تشجيع من رسول الله ﷺ على الألعاب التي فيها قوة، وما يدل على أن الإسلام دين يسر ليس فيه تشديد.

**تاسعًا:** من آداب المسجد ألا يتخذ في داخله قبر مهما كان؛ لأنه في المستقبل ستتحول أنظار الناس إليه، (كما حصل في كثير من مساجد المسلمين)؛ إذ ترى فيها مناظر هي من الشرك الأكبر والعياذ بالله.

**عاشرًا:** من آداب المسجد ألا تؤخذ فيه ثارات، وألا تقام فيه الحدود؛ لأن ذلك قد يحدث أوساخًا ودماء في المسجد.

**حادي عشر:** كان رسول الله ﷺ لا يطرد الصبيان من المسجد، وقد تحمَّل من الحسن والحسين الكثير، فقد ورد أنهما ركبا على رقبته وهو يصلي، فأطال السجود، واعتذر للناس بأن سبطيه ارتجلاه، فكره أن يقطع عليهما لعبتهما، لكن إذا ثبت أن الصبي عابث وأنه يقطع أفكار المصلين، ويحدث صياحًا وصراخًا وقذارةً، فلا بدَّ أن يحجبه أبوه عن المسجد مدة. ما أحسن أن يأتي الأطفال إلى المسجد على أن يصلوا ويقلدوا والدهم، أما أن يأتوا للعبث فلا يجوز.

**ثاني عشر:** إن من أكل بصلاً أو ثومًا فلا يقرب المسجد؛ لتكون رائحته طيبة من أجمل الروائح لا يتأذى منه الإنس ولا الملائكة.

## شروط الصلاة

هنالك فرق بين شروط الصلاة وبين أركان الصلاة؛ فالشروط هي الأمور التي لا بدَّ من توفرها قبل الشروع في تكبيرة الإحرام، أما الأركان؛ فهي الأعمال الواجبة التي يقوم بها المصلي أثناء الصلاة إلى ختامها.

**وهذه أحاديث كريمة تحدد شروط الصلاة:**

في (جامع الترمذي) قال رسول الله ﷺ: **«ما بين المشرق والمغرب قبلة»**.

وفي رواية لرزين أن النبي ﷺ لم ير الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة.

وفي سنن أبي داود من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا سَافَرَ فَأَرَادَ أَنْ يَتَطَوَّعَ اسْتَقْبَلَ بِنَاقَتِهِ الْقِبْلَةَ فَكَبَّرَ ثُمَّ صَلَّى حَيْثُ وَجَّهَهُ رِكَابُهُ.

وفي صحيح مسلم من حديث طويل لابن عمر: «**لا يقبل الله صلاة بغير طهور**».

وفي سنن أبي داود: «**إذا جاء أحدكم إلى المسجد؛ فلينظر فإن رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما**».

وروى الجماعة عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ الله ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «قُومُوا فَلْنُصَلِّ بِكُمْ». قَالَ أَنَسٌ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدِ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لَبِثَ فَنَضَحْتُهُ بِالْمَاءِ، فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَصَفَفْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ.

وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ نهى أن يُصلى في سبعة مواضع: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمام، ومعاطن الإبل، ونهى أن يصلى فوق ظهر بيت الله تعالى.

وروى أيضًا عن عدد من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: «**جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**».

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**اجعلوا في بيوتكم من صلواتكم، ولا تتخذوها قبورًا**».

وفي رواية الترمذي أن -عليه الصلاة والسلام- كان يستحب الصلاة في الحيطان، أي: البساتين.

**مما تقدّم من الأحاديث الشريفة يمكن القول: انه لا يجوز للمسلم أن يدخل الصلاة إلا إذا توفرت له أمور، وهي الشروط اللازمة لصحة الصلاة وتتلخص فيما يلي:**

**أولاً:** الطهارة التامة في الأعضاء والثياب والمكان، وذلك ليبدو المصلي نقي الظاهر كما هو نقي الباطن -إنْ شاء الله، ولتكون مساجد المسلمين وضيئة طاهرة طيبة، وما أجمل أن يضيف المصلي إلى ذلك شيئًا من الطيب، وأن يستعمل السواك؛ فقد كان رسول الله ﷺ يأخذ

زينته عند كل صلاة، ويلتزم السواك، ويحرص على طهارة ثوبه، وحسن منظره استجابةً لأمر الحق ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

ومن هنا نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في الأماكن القذرة والكريهة الرائحة كالمزبلة والمجزرة والحمام ومعاطن الإبل (أي: مباركها)، أما نهيه عن الصلاة على قارعة الطريق؛ فلكثرة ما يشغل بال المصلي عن صلاته، وأما نهيه عن الصلاة فوق ظهر بيت الله؛ فلعله تأدب مع بيت الله، وفي مقدمة الطهارة إزالة الحدث الأصغر بالوضوء والحدث الأكبر بالغسل.

**ثانيًا:** الشرط الثاني لصحة الصلاة هو استقبال القبلة وهي الكعبة المشرفة -زادها الله تشريفًا وتعظيمًا- وتوحيد القبلة في العبادة رمز لتوحيد الوجهة والكلمة والقلوب والأهداف السامية وصفوف الجهاد، وقد صلى النبي ﷺ وهو بمكة المكرمة شطر القدس والمسجد الأقصى، وفعل ذلك ستة عشر شهرًا بالمدينة المنورة حتى حقق الله أمنيته باستقلالية الإسلام، فولاه قبلة كان يحن إليها شطر المسجد الحرام، ومنذ ذلك الحين والكعبة المشرفة رمز وحدتنا وعرفات شعار تعارفنا، ومنى وجهة أمنياتنا والتضحية في سبيل الله أقصى أمانينا.

هذا، ومن جهل القبلة؛ فليسأل وليجتهد وليستعمل خبرته، فإذا اتضح له فيما بعد أنه لم يوفق إلى القبلة، فصلاته جائزة، ولا إعادة عليه، ومن صلى فانحرف بعض الشيء يمينًا أو شمالاً غير عامد؛ فلا شيء عليه، فقد كانت قبلة النبي ﷺ والمسلمين وهم بالمدينة إلى الجنوب تقريبًا مع انحراف قليل إلى الشرق، فقال ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلةٌ» دفعًا للوسواس، وإذا تأكدت من القبلة بعد دخولك في الصلاة؛ فلا يعدها من الأول يكفي أن تستدير إلى الوجهة الصحيحة، وإذا كان المصلي في سفر على راحلة أو في سفينة أو طائرة أو قطار وخشي فوات الوقت صلى حيث تتوجه به ركابه، والله عفو كريم.

**ثالثًا:** أما الشرط الثالث لصحة الصلاة؛ فهو ستر العورة تأدبًا مع الله وأدبًا وذوقًا مع العباد، وقد شاع بين كثير من الشباب والفتيات كشف العورات في الشوارع، فترى المرأة تكشف نحرها وساقيها ورقبتها وشعرها مع أن عورة المرأة جميع جسدها ما عدا الوجه والكفين، وعورة الرجل ما بين سرته وركبته، والفخذ عورة مع أن كشف الفخذ أصبح عند

بعض شباب المسلمين عادة تفرضها السراويل القصيرة وخصوصًا أثناء السباحة ولعب كرة القدم والمصارعة وغيرها، أما من لا يملك ما يستره؛ فيصلي جالسًا ولا يسجد إلا إيماءً، وربك غفور رحيم.

إنَّ المرأة المسلمة مطالبة أن تستحي من ربها؛ فلا يبدو شيء من عورتها حتى للنساء، والرَّجل المسلم أيضًا لا يكشف عورته حتى للرجال؛ إذ الحياء من الإيمان، وكأن الذي ينبذ ثوب الحياء يكشف عنه لباس التقوى والإيمان.

**رابعًا:** الشرط الرابع لصحة الصلاة هو دخول الوقت، فمن صلى صلاة قبل دخول وقتها، فصلاته باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٤]، أي أنها كتبت عليهم في أوقات محددة.

وأصحاب الأعذار ممن بهم سلس أو ريح ونحوهما لا يبدءون وضوءهم إلا بعد دخول الوقت؛ لأنه لو توضأ قبل الوقت فلربما تكاثرت عليهم نجاسة العذر قبل حلول فرضهم بوقت طويل.

هذا، وللإسلام حكمة في تحديد أوقات الصلاة؛ إذ لو لم يكن الوقت محددًا لما ضبطت الجماعة ولاضطربت اجتماعاتها المباركة، وللجماعة فضيلة عظيمة وفوائد معروفة وخصوصًا حين يجتمع الناس في مساجد الله متعارفين فيه سبحانه متحابين بجلاله.

أما النوافل؛ فليحرص المصلي أن يصليها في بيته وفي بستانه وعند إخوانه؛ لتعم بها البركة تلك الأماكن، ولكي يكون بيته محفوفًا بالرحمة، وليراه أبناؤه وأهله وهو يصلي الرواتب والنوافل في بيته، فيقتدوا به، ولعل من أجل فوائد الصلاة في البيوت وفي البساتين والبر أن الأرض تشهد للعبد أو عليه، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]، فما أجمل أن تشهد للمصلي بقاع متعددة في الأرض بأنه عَبَدَ الله عليها ووحدَّه.

**خامسًا:** وهذه ملاحظة عن كشف الرأس في الصلاة؛ ففي كثير من البلاد يعتقد بعض المصلين أن تغطية الرأس في الصلاة واجبة، وقد سألت بعض إخواننا الأتراك في تركيا: هل تصلون؟ فأخرجوا لي من جيوبهم طواقي بيضاء إشارة إلى أنهم يصلون، وصليت الجمعة في جامع محمد الفاتح في أسطمبول، فرأيت جميع المصلين يلبسون على رءوسهم طواقي، وقد يربط البعض رأسه بمنديل.

والحق أنه لا حرج أن يصلي المصلي حاسر الرأس، وحسبك أن الحاج المحرم يصلي أيام وهو حاسر، وروى ابن عساكر أن النبي ﷺ كان ربما خلع قلنسوته فجعلها سترة، حتى لقد رأى الأحناف أن حسر الرأس إن كان للخشوع؛ فهو أفضل.

والحق -والله أعلم- أن لباس الرأس أفضل؛ لأنه أقرب إلى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وغطاء الرأس أتم سمتًا ومظهرًا من حسره، ولا أرى أن ذلك يتحقق بربط الرأس بمنديل، ولكن بلبس الغطاء المعروف كالطاقية النظيفة المغطية للشعر والكوفية أو الغترة والعمامة، ونحو ذلك ما يجمل المظهر والمنظر، ويحقق الزينة المطلوبة للصلاة، والله أعلم.

## أوقات الصلوات الخمس

**هذه أحاديث حول أوقات الصلوات الخمس نوردها؛ لأن في تأخير الصلاة عن وقتها إثمًا عظيمًا، ولأن الصلاة كتابٌ موقوتٌ على المؤمنين أن يلتزموا بتوقيته ويحرص عليه.**

في صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي من حديث أبي موسى أن النبي ﷺ أتاه سائل فسأله عن مواقيت الصلاة، فلم يرد شيئًا، وأمر بلالاً فأقام الفجر حين انشق، والناس لا يكاد يعرف بعضهم بعضًا، ثم أمره فأقام الظهر حين زالت الشمس، والقائل يقول: قد انتصف النهار، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة، ثم أمره فأقام المغرب حين وقعت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، وفي اليوم التالي أخر الفجر في الغد حتى انصرف منها، والقائل يقول: قد طلعت الشمس أو كادت، ثم أخر الظهر حتى كان قريبًا من وقت العصر بالأمس، ثم أخر العصر حتى انصرف منها، والقائل يقول: قد احمرت الشمس، ثم أخر المغرب حتى كان سقوط الشفق، ثم أخر العشاء حتى كان ثلث الليل الأول، ثم أصبح فدعا السائل، فقال: الوقت بين هذين.

وفي رواية لمسلم أنه صلى العشاء إلى شطر الليل.

وفي رواية للشيخين أنه ﷺ كان أحيانًا يؤخر العشاء، وأحيانًا يعجل إذا رآهم اجتمعوا.

وروى الجماعة أن المؤمنات كن يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن، ثم ينطلقن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة، ولا يعرفهن أحد من الناس.

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس؛ فقد أدرك الصبح، ومن أدرك من العصر ركعة قبل أن تغرب الشمس؛ فقد أدرك العصر**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إن شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر؛ فأبردوا بالصلاة**».

وفي الحديث المتفق عليه: «**إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة؛ فابدءوا بالعشاء، ولا تعجل حتى تفرغ**».

وكان ابن عمر -رضي الله عنهما- يوضع له الطعام، وتقام الصلاة؛ فلا يأتيها حتى يفرغ، وإنه ليسمع قراءة الإمام.

**أولاً**: أوقات الصلوات الخمس تبدو في توقيتها حكمة بالغة؛ لأنها تبقي العبد في حالة صلة مستمرة بخالقه، وبذلك تنهاه عن الفحشاء والمنكر بسبب قرب عهده بالوقوف بين يدي خالقه.

فالمصلي لا يكاد يرى أول خيوط الفجر حتى يستقبل يومه بذكر الله والصلاة، فإذا جاء الظهر وأنهى الفترة الأولى من عمل النهار جعل نهاية عمله صلاة الظهر، فما أجملها حسن بدء وحسن مختتم، ثم تغدَّى وقال وأنهى ساعة قيلولته بدأ الفترة الثانية من عمله بالصلاة الوسطى، فإذا أقبل عليه الليل استقبلته بصلاة المغرب، ثم إذا أراد أن يختم يومه أنهاه بصلاة العشاء، فأحرز بذلك فضل البداية وحُسن الختام.

**ثانيًا**: أوقات الصلوات حدَّدها جبريل ﷺ لرسول الله ﷺ، كما يبدو في الحديث الأول؛ فقد صلى جبريل ﷺ بالنبي ﷺ أول الوقت وآخره، وجعل في الوقت تيسيرًا على الناس، ولو كان الوقت خاطفًا لفاتت فضيلة الوقت كثيرًا من المصلين.

**ثالثًا**: يبدأ وقت الظهر إذا زالت الشمس عن وسط السماء، ويمتد حتى يصير ظل كل شيء مثله، هذا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، أما في الأقطار الموغلة شمالاً وجنوبًا يقدر

الوقت متناسبًا مع توقيت الحرمين الشريفين لا بالتساوي، ولكن بالتناسب، وإذا كان الحر شديدًا استحب للإمام أن يؤخر صلاة الظهر إلى أن تنكسر شدة الحر، ويصبح للأشياء ظلالاً يمكن أن تتفيأ.

**رابعًا:** صلاة العصر هي الصلاة الوسطى عند كثير من أهل التفسير، وقد أكد رسول الله ﷺ فضلها بقوله فيما رواه ابن ماجه: «**بكروا بالصلاة في يوم الغيم؛ فإن من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على المشركين يوم الخندق، فقال: «**ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»، ويبتدئ وقتها حين يصبح ظل الشيء مثله، ويمتد إلى أن تغرب الشمس، ويبدأ وقت الكراهية حين تصفر الشمس في الأصيل، والمؤمن يحرص أن يصلي العصر والشمس لا تزال نقية بيضاء ولا يؤخرها إلى أن تصفر الشمس، لكن من صلاها والشمس صفراء أجزأته على كراهة، ففي الحديث المتفق عليه: «**من أدرك صلاة العصر قبل أن تغرب الشمس؛ فقد أدرك العصر**».

**خامسًا:** صلاة المغرب هي التي يستقبل المؤمن بها ليله، ووقتها حين تغرب الشمس ويمتد إلى أن يتلاشى الضوء المتبقي وراء الشمس، وهو الشفق الأحمر، ويستحب تعجيلها؛ لأن مدى وقتها قصير، ويكره أن تؤخر إلى أن تطلع النجوم، فقد جاء في مسند أحمد: «**لا تزال أمتي على الفطرة ما صلوا المغرب قبل طلوع النجوم**».

**سادسًا:** إذا غاب الشفق الأحمر، ولم يبق أثر لنور الشمس في السماء دخل وقت العشاء، ويمتد وقتها إلى طلوع الفجر، وإذا صُلِّيت في أول وقتها؛ فهو خير، وإذا ضمت الجماعة وصليت بعد مرور ثلث الليل أو نصفه، فلعل ذلك أفضل؛ لأنها عندئذ تكون فريضةً وقيامًا.

وصلاة العشاء هي التي يودع بها العبد المؤمن يومه، ويكره النوم قبلها والسمر بعدها لاحتمال أن يسبب ذلك ضياع العشاء أو الفجر.

**سابعًا:** أما وقت صلاة الصبح؛ فيبدأ من طلوع الفجر الصادق، ويمتد حتى طلوع الشمس، والسُّنة أن تُصلى في أول وقتها بغلس؛ لأن ذلك كان فعل النبي ﷺ، ولكن إذا

صلاها المسلم قبل طلوع الشمس، وتمكن من أداء ركعة واحدة؛ فإنها عندئذ تجزئه، والله غفور رحيم.

والخلاصة أن المؤمن دومًا تلقاه نشيطًا في أوقات صلاته يؤديها في وقتها وفي بيوت الله مع الجماعة؛ ليكون مع الذين قال الله فيهم: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨].

## أوقات الكراهة

كان رسول الله ﷺ ربما يقلِّد أهل الكتاب وأصحاب الملل السابقة إذا وجد لديهم من تراث الخير ما يستحقه الاقتباس؛ فقد رأى اليهود مثلاً يصومون يوم عاشوراء لأنه اليوم الذي نجَّا الله فيه موسى عليه السلام وقومه من آل فرعون، فقال لهم: «**نحن أولى بموسى منكم**»، وأمر بصومه، وعزم في عامه القادم أن يصوم التاسع؛ لتظل للإسلام استقلالية التشريع، ولكي لا يكون تقليدًا حذو القذة بالقذة.

ومما قلَّد النبي ﷺ فيه أهل الكتاب أن اتخذ من بيت المقدس قبلة، وصلى هو وصحبه مدة طويلة شطر القدس، ولكنه ظل يتطلع إلى هداية ربه حتى هداه الله إلى قبلة يرضاها ألا وهي المسجد الحرام، فسعد بذلك حين رأى شخصية الإسلام وقبلة المسلمين مستقلتين.

وقد حاول النبي ﷺ تقليد أهل الكتاب في شكل شعورهم، ففرَّق شعره مثلهم، ثم عاد فسدله، ومن هذا المنطلق حرص رسول الله ﷺ ألا يصلي المسلمون في الأوقات التي توافق صلاة عبَّاد الشمس، فبيَّن للمسلمين أوقاتًا تكره فيها الصلاة (أي: صلاة التطوع)؛ لتظل للإسلام شخصيته المتميزة.

**وهذه أحاديث كريمة حول أوقات الكراهة نسوقها -إنْ شاء الله، ثم نتبعها بأحكام مستنبطة منها:**

روى مسلم وأصحاب السنن -رحمهم الله- من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: ثلاث

ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن، وأن نقبر فيها موتانا، حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تميل الشمس للغروب حتى تغرب.

وفي «موطأ مالك» و«سنن النسائي» أن رسول الله ﷺ قال مشيرًا إلى عبادة الشمس: «إِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ وَمَعَهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا ارْتَفَعَتْ فَارَقَهَا ثُمَّ إِذَا اسْتَوَتْ قَارَنَهَا، فَإِذَا زَالَتْ فَارَقَهَا فَإِذَا دَنَتْ لِلْغُرُوبِ قَارَنَهَا، فَإِذَا غَرَبَتْ فَارَقَهَا».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب.

**أولاً**: كانت الشمس عبر ملايين السنين معبودة الملايين من البشر يرون فيها مصدر حياة الأرض؛ لأنها ينبوع الدفء والمطر والنور ناسين أو متجاهلين أن الذي خلقها هو الأولى بالتوحيد والعبادة.

لقد عبد المصريون القدماء الشمس وسموها (رع)، كما عبدها من بعدهم سكان ما بين النهرين وعبدها قوم بلقيس والفرس والهنود واليابانيون، وكانت تلك الشعوب ترقب حركات الشمس عند طلوعها وعند زوالها وعند غروبها، وتستعد لعبادتها عند تلك الأوقات، فجاء الإسلام داعيًا إلى صفاء التوحيد منفرًا من التشبه بالمشركين في أوقات عبادتهم، وعلَّم المسلمين الأوقات التي تكره الصلاة فيها حرصًا على استقلاليتهم في عقيدتهم الشريفة وتنقية قلوبهم من كلِّ شائبة.

**ثانيًا**: الأربعة المنهي عن الصلاة فيها أربعة أوقات على النحو التالي:

- إذا صليت الصبح؛ فلا تصلِّ بعد الفريضة، أي: صلاة حتى تطلع الشمس.
- وإذا طلعت الشمس؛ فلا تصلِّ حتى ترتفع وينتشر ضوؤها، وترتفع قدر رمح عن حافة الأفق.
- وإذا استوت الشمس في كبد السماء؛ فلا تصلِّ وانتظر حتى تميل نحو الغرب.
- وإذا صليت العصر؛ فلا تصلِّ بعدها حتى تغرب الشمس.

وقد علَّل رسول الله ﷺ كراهية الصلاة في هذه الأوقات بأن الشمس في هذه الأوقات يسجد لها الكفار أو يتأهبون للسجود لها، كما جاء في صحيح مسلم من حديث عمرو بن عنبسة ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة، فقال له: «**صلِّ صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار...**» إلخ الحديث.

**ثالثًا**: وقد اختلف الأشياخ -رحمهم الله- في الصلاة التي يكره في هذه الأوقات أهي الصلاة مطلقًا أم هي صلاة النوافل فقط؟ فذهب الحنابلة إلى تحريم النوافل في هذه الأوقات وعدم انعقادها سواء كان لها سبب أم لم يكن لها سبب إلا تحية المسجد يوم الجمعة؛ فإنها تصلى عند دخول المصلي إلى المسجد، ولو كانت الشمس مستوية في كبد السماء كذلك صلاة الجنازة، إذا خيف تعفن الميت.

ويرى جمهور العلماء أنه يجوز قضاء الفوائت بعد صلاة الصبح وصلاة العصر، فإذا فاتتك مثلاً ركعتا سُنة الفجر، فصلها بعد صلاة الفريضة، وهناك رأي مقبول لدى معظم العلماء، وهو أن النافلة التي لا سبب لها هي التي تكره في أوقات الكراهة، بل وتحرم عند الحنابلة.

أما الصلاة التي لها سبب كالفرض الفائت وتحية المسجد وسُنة الوضوء والسُّنن الراتبة إذا فاتت وركعتي الطواف وصلاة الجنازة وسجود التلاوة والصلاة المنذورة؛ فهذه كلها يمكن أن تصلى في أوقات الكراهة.

فإذا دخلت المسجد والشمس قد آذنت للغروب ووجدت بعض المصلين يصلون تحية المسجد، ورأيت آخرين جالسين لم يصلوها؛ فاعلم أن كلا منهم قد أخذ برأي من الأشياخ، ولعل ترك الصلاة في وقت الكراهة أحوط، ولدى المصلي مندوحة في الأوقات الأخرى وهي طويلة وكافية.

**رابعًا**: إذا نمت عن الوتر ثم قمت وسمعت مؤذن الفجر؛ فلا بأس أن تصلي ركعتي سنة الفجر، ثم تصلي الوتر الذي نمت عنه، والمأثور عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا طلع الفجر لا يصلي إلا ركعتي سنة الفجر، ولا يتنفل فيما بين الأذان والإقامة، لكنه يقضي هذه الفترة في الذِّكر والتسبيح.

**خامسًا**: إذا شرع المؤذن في الأذان؛ فلا تشرع أنت في صلاة نافلة أو راتبة حتى ينتهي لكي تتابعه، وتقول مثل ما يقول، وتقول بعد الأذان الدعاء المأثور: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته؛ إنك لا تخلف الميعاد**»، وإذا أقام؛ فلا تشرع في صلاة غير التي أقيمت.

إنَّ بعض المصلين إذا دخلوا لصلاة الصبح ورأوا الإمام قد بدأ الركعة الأولى شرعوا يصلون سنة الفجر، يقولون في أنفسهم: إن الإمام يطيل وسننهي الراتبة قبل أن يركع.

إنَّ هذا لا يجوز؛ فقد جاء في صحيح مسلم والسنن أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أقيمت الصلاة؛ فلا صلاة إلا المكتوبة**».

## أداء الصلاة في وقتها

**هذه بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بأداء الصلاة في وقتها وقضائها إذا مضى وقتها لعذر من نوم ونحوه نوردها ثم نتبعها -إنْ شاء الله- بما يستنبط فيها من أحكام:**

جاء في سنن أبي داود: «**مروا أولادكم** (أي: ذكورًا وإناثًا)**، وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها؛ فليصلها إذا ذكرها، فإن الله -تعالى- يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾** [طه: ١٥].

وفي صحيح مسلم وغيره ما خلاصته أن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه في غزوة، فلما ناموا أخذهم النوم، فلم يوقظهم إلا حرُّ الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء، يا بلال، قُمْ فأذِّن بالناس**»، فتوضأ فلما ارتفعت الشمس وابيضت قام فصلى بالناس جماعة ركعتي الفجر (أي: سنة الصبح)، ثم صلوا الفجر وركبوا، فقال بعضهم لبعض: فرطنا في صلاتنا، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**إنه لا تفريط في النوم، إنما التفريط في اليقظة، فإذا سها أحدكم عن صلاته؛ فليصلها حين يذكرها**».

وفي الصحيحين من حديث جابر أن عمر ﷺ جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس

وجعل يسبُّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، قال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها»، فقمنا إلى بطحان فتوضأنا، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

وفي رواية الترمذي والنسائي أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، وذهب في الليل ما شاء الله، فأمر بلالاً فأذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء.

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر، كأنما وتر أهله وماله».

**أولاً**: لا عذر أبدًا لتارك الصلاة حتى المرض والخوف والحرب والقتال فالمسلم يصلي في مرضه وفي خوفه وفي حربه، ولكلٍّ من هذه الأحوال كيفيته وتيسيره؛ فالله -تبارك وتعالى- يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر.

إن المريض قد يتيمم إذا كان الماء يؤذيه ثم هو يصلي قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا كما يريحه ويتهيأ له، وللخوف صلاة شرحت كيفيتها في سورة النساء.

والمجاهد إذا أدركته الصلاة ساعة الالتحام اكتفى منه بأن يذكر الله بكلمة التوحيد أو حتى بذكر اسم الله، كأن يقول: يا الله، يا رحمن، بنية الصلاة.

وعلى الجملة؛ فالحرص على الصلاة هو سمة المؤمنين في كافة أحوالهم؛ لأن من ترك الصلاة عمدًا فقد كفر.

**ثانيًا**: قد تفوت على المؤمن صلاة أو أكثر بسبب نوم عميق أو أمر ضروري أو حادث أو غير ذلك، وفي هذه الحال أيضًا لا يجوز إغفال الصلاة، فتؤدى حالما يتذكرها المسلم وتتهيأ ظروف إقامتها، ولا كفارة للصلاة إذا فاتت غير هذا.

**ثالثًا**: إذا لم يسمع الإنسان النداء بسبب نوم أو غيره ثم استيقظ مثلاً لصلاة الفجر بعد أن طلعت الشمس، فليستغفر الله ويثق بمغفرته ﷻ، ثم يعتبر كأنه شيئًا لم يكن، فيقوم للصلاة ويستعد لها بالغسل إذا لزم أو بالوضوء، ثم يصلي ركعتي الفجر، ويتبعهما بصلاة الفجر المفروضة، وبذلك يكون قد أدى ما عليه من المؤاخذة -إنْ شاء الله.

**رابعًا**: وإذا فاتت على المصلي أكثر من صلاة كما حدث لرسول الله ﷺ يوم الأحزاب حين اضطرته ظروف الحصار إلى ملازمة المواقع إلى ما بعد العصر، ثم توجه إلى بني قريظة ففاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب، فما كان منه إلا أن أمر الصحابة -رضوان الله عليهم- بالوضوء، وصلى الفوائت مرتبة، ثم أتبعها بالعشاء، وكان عمله ذلك تشريعًا بأن الصلاة الفائتة لا كفارة لها إلا قضاؤها.

**خامسًا**: المغمي عليه إذا أفاق بعد مرور وقت الصلاة لم يجب عليه قضاؤها، والله أعلم؛ لأن وقتها حدث وعقله غائب، وقد رفع عنه القلم، أما إذا أفاق قبل انتهاء وقت الصلاة؛ فإنه يؤديها.

**سادسًا**: إذا لم يصل المسلم في شبابه وريعان عمره وترك الصلاة تكاسلاً أو عمدًا، ثم هداه الله -جلَّ وعلا- إلى سبيل الرشاد، وبدأ يصلي حين كبر؛ فهل يقضي الصلاة عن السنوات التي ضيعها؟

**للأشياخ في هذا الأمر قولان:**

**أحدهما**: أن يحاول قضاء ما فاته، ويقسم ذلك على الأيام حتى يعتقد أنه قضى جميع ما فاته، وهذا مذهب الجمهور، ويرى ابن تيمية -رحمه الله- أن القضاء لا يجزئ في هذه الحالة؛ لأن ترك الصلاة لم يكن سهوًا أو بنوم أو نحوه، لكنه كان عمدًا، وهذا لا يكفر عنه بقضاء الصلاة، وإنما على المؤمن في هذه الحالة أن يُشمِّر عن ساعد الجد بالتوبة النصوح، والبدار إلى الأعمال الصالحة، والإكثار من النوافل، والحسنات -بإذن الله- يذهبن السيئات، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها من حقوق الله، والله -جلَّ وعلا- يقول في من تركوا الصلاة عمدًا وضيعوها: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

**سابعًا**: لقد شدَّد رسول الله ﷺ في أمر أداء الصلاة في وقتها وفي جماعة، وحسبك هذه الصيغة المخيفة في قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله**»، ومعناه أن من غفل عن صلاة العصر في وقتها وفي جماعة وهي الصلاة الوسطى، فكأنما ابتلى بقتل أهله ونهب أمواله، لا بموت عادي وخسارة عادية، ولكن باعتداء يترتب عليه النار.

# صلاة الجماعة وفضلها

الإسلام دين التوحيد وهو أيضًا دين الوحدة والتضامن والاجتماع على الخير، ومن أجل وحدة المسلمين شرع الإسلام صلاة الجماعة؛ لتثمر الصلاة صداقات في الله وحبًّا في ذاته ومرضاته.

والحقُّ أن التارك لصلاة الجماعة يخسر خسارة فادحة؛ لأنه يحرم نفسه حلاوة اللقاءات الطاهرة وروعة الإخاء المجسم الملموس؛ إذ سكان الحي الواحد إذا التزموا الجماعة أصبحوا كلهم أحبة في الله.

ولقد كنت أرى إلى عهد قريب كيف كان أفراد الجماعة في المساجد يتفقد بعضهم بعضًا، فإذا غاب أحدهم ذهبوا يسألون عنه، فإن وجدوا أن أمرًا ألم به تعاونوا لمساعدته.

وهذه الأحاديث الكريمة أوردها حول موضوع الجماعة وفضلها، ثم نستنبط منها أحكامًا مفيدةً:

في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وسوقه خمسًا وعشرين ضعفًا (وفي رواية: «بسبع وعشرين درجة»)، وذلك إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**».

وفي حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي: سئل رسول الله ﷺ عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة، فقال: «**هو في النار**».

وفي سنن أبي داود والنسائي: «**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان؛ فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**».

وفي صحيح مسلم أن رجلاً أعمى أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، وسأل أن يرخص له، فرخص له، فلما ولى دعاه: «**هل تسمع النداء؟**» قال: نعم. قال: «**فأجب**».

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة، فتقام ثم آمر برجل فيصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال معهم حُزمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**».

وفي الصحيحين أن معاذًا كان يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيصلي بقومه، فأخر النبي ﷺ ليلة العشاء، فصلى معاذ معه، ثم جاء يوم قومه فقرأ «البقرة»، فاعتزل رجل من القوم فصلى، فقيل له: نافقت يا فلان! فقال: ما نافقت، وأتى النبي ﷺ فقال: إن معاذًا يصلي ثم يرجع فيؤمنا فقرأ بسورة «البقرة»، فقال: «**يا معاذ، أفتان أنت؟ اقرأ بكذا وكذا** (يذكر سورًا قصيرة) بـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾».

وفي الصحيحين أيضًا أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: «**إني لأدخل في الصلاة أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي لما أعلم من وجد أمه من بكائه، إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة**».

وفي صحيح البخاري أن أبا بكرة انتهى إلى النبي ﷺ وهو راكع فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: «**زَادَكَ اللهُ حِرْصًا وَلاَ تَعُدْ**».

وفي سنن أبي داود عن يزيد بن عامر قال: جِئْتُ وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلاَةِ، فَجَلَسْتُ وَلَمْ أَدْخُلْ مَعَهُمْ فِي الصَّلاَةِ، فَانْصَرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَأَى يَزِيدَ جَالِسًا، فَقَالَ: «**أَلَمْ تُسْلِمْ يَا يَزِيدُ؟!**». قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَسْلَمْتُ. قَالَ: «**فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَعَ النَّاسِ فِي صَلاَتِهِمْ**». قَالَ: إِنِّي كُنْتُ قَدْ صَلَّيْتُ فِي مَنْزِلِي، وَأَنَا أَحْسِبُ أَنْ قَدْ صَلَّيْتُمْ. فَقَالَ: «**إِذَا جِئْتَ إِلَى الصَّلاَةِ، فَوَجَدْتَ النَّاسَ فَصَلِّ مَعَهُمْ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ صَلَّيْتَ تَكُنْ لَكَ نَافِلَةً وَهَذِهِ مَكْتُوبَةً**».

وفي صحيح مسلم عن أبي مسعود البدري قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «**استووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليليني منكم ذوو الأحلام والنهى**»، وكان ﷺ يقول: «**سووا صفوفكم؛ فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة**».

**أولاً**: صلاة الجماعة مؤشر من مؤشرات الإيمان، يحرص عليها المؤمنون ويستثقلها المنافقون، وقد أمرنا ﷺ أن نشهد لمن يعتادها بالإيمان استنادًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ

﴿مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

**ثانيًا:** إذا أرادت المرأة حضور الجماعة لا يمنعها وليها من ذلك، لكن صلاتها في بيتها أفضل لما يمكن أن يترتب على خروجها من فتنة.

**ثالثًا:** كلما بعد المسجد عن بيتك زاد الثواب؛ لأن من يذهب إلى بيت الله لا يريد إلا الصلاة تكتب له بكل خطوة حسنة، وتمحى عنه خطيئة، وحين أراد بنو سلمة أن يبنوا بيوتهم في جوار المسجد، ويهجروا مساكنهم القديمة نهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وذكرهم أن آثارهم أي آثار أقدامهم إلى المسجد تكتب لهم حسنات.

**رابعًا:** لا يُسعى إلى المسجد جريًا، ولكن يأتي المصلي صلاته بسكينة ووقار، وحين أسرع أبو بكرة ﷺ وركع من رهقه قبل أن ينتظم في الصف، قال له ﷺ: «**زَادَكَ اللهُ حِرْصًا وَلاَ تَعُدْ**».

**خامسًا:** يستحب للإمام أن يخفف؛ لأن في المأمومين مرضى وشيوخًا ومضطرين، ولكن يستحسن أن يطيل الإمام في الركعة الأولى؛ ليجتمع بعد سماع الإقامة أكبر عدد من المصلين، ويدركوا الركعة الأولى.

**سادسًا:** مسابقة الإمام في الصلاة إثم؛ لأن الإمام هو قائد القوم، وإنما شرعت الجماعة ليقتدي المصلون به، والمسابقة تعني الفوضى وسوء المنظر وعدم الالتزام بالنظام.

**سابعًا:** تنعقد الجماعة بإمام ومأموم، ويكون المأموم الواحد في جوار الإمام واقفًا عن يمينه، فإذا جاء مأموم آخر تقدم الإمام قليلاً أو تأخر المأمومان ليقفا خلفه، والطفل المميز يمكن أن ينضم إليه رجل، ويصليا خلف الإمام.

**ثامنًا:** يجوز أن تؤم المرأة النساء، وكذلك يجوز أن يؤم القوم الأعمى والصبي المميز، وعلى المسلم أن ينتهز الجماعة على كل حال، فيأتم ولو بمسافر أو متنفل أو متيمم أو قاعد أو بصبي إذا علم أن الصبي يميز ويقرأ القرآن، ولا تصح إمامة المعذور لصحيح، وتكره إمامة الفاسق، ولكن تنعقد الصلاة بها، ويؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بتأويله؛ فإن تساووا فأكبرهم سنًّا، ويجوز أن يؤم الرجل جماعة كلها نساء.

**تاسعًا:** يجوز أن ينتقل الإمام مأمومًا إذا كان موكلاً، وحضر الإمام الراتب، كما حدث عندما حضر رسول الله ﷺ وأبو بكر يصلي بالناس، فتأخر أبو بكر ليتقدم رسول الله ﷺ، ولكن النبي الكريم ﷺ أمره أن يظل في مكانه.

**عاشرًا:** إذا حضرت الصلاة في برد شديد أو مطر أو حضر الطعام حين أقامتها أو كنت عند إقامتها تدافع الأخبثين (البول والغائط)، جاز لك أن تؤخر الجماعة إلى أن تنتهي من شأنك.

**حادي عشر:** من صلَّى منفردًا ثم رأى جماعة يصلون استحب له أن يعيد الصلاة؛ لينال ثواب الجماعة، ويحسبها الله له نافلة.

**ثاني عشر:** يجوز أن يكون المأموم أعلى من الإمام، ويُكره أن يكون الإمام أعلى من المأمومين، ويجوز أن يكون بين الإمام والمأموم حاجزًا على أن يسمع المأموم القراءة ويدرك حركات الإمام.

**ثالث عشر:** إذا أحدث الإمام أثناء الصلاة أناب عنه من يُتم الصلاة من حيث وصل، وذهب ليتوضأ إذا وجد فُرجة.

**رابع عشر:** يكون الرجال أمام الصبيان، ويقف النساء في الخلف؛ إذ خير صفوف النساء آخرها، وإذا حضرت إلى الصلاة ووجدت الصف الذي أمامك كاملاً فاطلب من أحد المصلين أن يتعاون معك، فينضم إليك، فإذا رأيته متشددًا؛ لأنه لا يفقه الحكم فصلِّ وحدك وراء الصف، ولعل الله يبعث إليك بمن يقف إلى جانبك، وقد صلى أبو بكر وحده خلف الصف، فلم يأمره النبي ﷺ أن يعيدها، ولكنه كره ذلك.

**خامس عشر:** للصف الأول وللصفوف المتقدمة فضيلة، ويمين الصف أفضل من شماله، ويُسن سد الفُرج وتسوية الصفوف، وإذا كانت الجماعة كبيرة ولم تسمع الصفوف المتأخرة صوت الإمام جاز التبليغ؛ لتكون الصلاة منتظمة لا تخالطها الفوضى والتداخل.

## ما كان يقرأ رسول الله ﷺ بعد أم الكتاب

يتساءل كثيرٌ من المصلين: ماذا كان يقرأ المصلي من القرآن الكريم في صلاته بعد فاتحة الكتاب؟ وهل يطيل في القراءة أم يقصر؟ وماذا ينتقي من آي الذكر الحكيم للقراءة؟ وكثير من المصلين لا يعدو في قراءته قصار السور، وقد لا يتجاوز منها سورة الضحى، ولهذا رأيت أن أعرض بعض الأحاديث الشريفة حول ما كان يقرأه رسول الله ﷺ في صلاته بعد أم الكتاب سائلاً الله ﷻ أن يرزقنا الأسوة الحسنة برسوله الكريم ﷺ.

روى الجماعة عن أنس ﷺ أنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدًا منهم يقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم».

وفي الحديث المتفق عليه عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**».

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا؛ فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه**».

وفي سنن النسائي: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الغداة من الستين إلى المائة.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن السائب ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، واستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ«ق»، ونحوها، وكانت صلاته إلى تخفيف.

وروى مسلم وأصحاب السُّنن -رحمهم الله- أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة: ﴿**الم ۞ تَنزِيلُ الْكِتَابِ..**﴾ السجدة، و﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ**﴾ [الإنسان: ١]، وأنه كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة «الجمعة» و«المنافقون».

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قرأ في الصبح: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتْ**﴾ في الركعتين كلتيهما،

قال راوي الحديث: «فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ رَسُولُ الله ﷺ أَمْ قَرَأَ ذَلِكَ عَمْدًا».

ووردت في السُّنن أحاديث تفيد أن رسول الله ﷺ قرأ في الظهر والعصر بـ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و﴿السَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، وقرأ في الظهر بـ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، وفي الفجر بأطول من ذلك، وصلى فيهما بـ«لقمان» و«الذاريات» وبـ«سبح» و«الغاشية».

وروى الجماعة أنه ﷺ صلى في المغرب بـ«المرسلات»، وفي البخاري أن رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بـ«الأعراف»، وروى الجماعة عن جبير بن مطعم ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بـ«الطور»، قال: فلما بلغ قوله -تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧]، كاد قلبي يطير.

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ كان ربما يقرأ في الركعة سورتين من النظائر كـ«الرحمن» و«النجم»، و«اقتربت» و«الحاقة»، و«الطور» و«الذاريات»، و«الواقعة» و(ن) في ركعة، و«سأل سائل» و«النازعات» في ركعة، و«المطففين» و«عبس»، و«المدثر» و«المزمل»، و«هل أتى» و«القيامة»، و«عم» و«المرسلات»، و«الدخان» و«التكوير».

وروى أبو داود أن قراءة رسول الله ﷺ كانت على قدر ما يسمعه من في الحجرة وهو بالبيت.

وروي أن عمر ﷺ كان يرفع أكثر من ذلك؛ إذ روى البخاري عن عبد الله بن شداد ﷺ أنه قال: سمعت نشيج عمر (أي: بكاءه)، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وأنا في آخر الصفوف.

**أولاً:** كثير من أئمة المساجد لا يكاد المأموم يسمع منهم إلا قصار السور، وهي لا شك سور عظيمة مباركة، لكن إلزام قصار السور في الصلاة مخالف لهدى رسول الله ﷺ، حتى لقد جاء في «الموطأ» عن عمرو بن شعيب ﷺ أنه قال: ما من المفصَّل سورة صغيرة ولا كبير إلا وقد سمعت النبي ﷺ يؤم الناس بها في الصلاة المكتوبة، ولهذا كان على الأئمة أن ينوعوا في القراءة ليسمع المأمومون مواضع متنوعة من كتاب الله، فتتنوع الفائدة وتحصل البركة.

إنَّ من الأئمة من يلتزم في صلاة الجمعة بسورتي «سبح» و«الغاشية» مع أن رسول الله ﷺ كان ينوِّع فيهما، فيقرأ بـ«قاف» و«الجمعة» و«المنافقين» وغيرها.

**ثانيًا:** يتضح في الأحاديث الشريفة أن رسول الله ﷺ كان يراعي أحوال المصلين في القراءة طولاً وقصرًا ونوعًا، حتى لقد صلى الفجر في السفر بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ رحمة بالمصلين، وكان ربما يدخل الصلاة وهو ينوي أن يطيل، ثم يقطع القراءة إذا سمع بكاء طفل حتى لا يشتد عليه وَجْد أمه.

وكان لا يرهق نفسه، فإذا ألح عليه سعال مثلاً ركع ولو كان في منتصف قراءته من سور المفصل، وكان في مجموع قراءاته يميل إلى التخفيف، حتى لقد لام معاذًا ﷺ حين علم أنه قرأ بقومه سورة «البقرة» في الفجر، فقال له: «**أفتان أنت يا معاذ؟**».

**ثالثًا:** لقد كانت صلاة رسول الله ﷺ قصدًا معتدلة، وكانت قراءته واضحة تكاد تنغرس في شغاف الضمائر، وكانت كما أسلفنا متنوعة المواضع، وهذه أهم أسباب التشويق وتحبيب الصلوات إلى النفوس.

والحق أن كثيرًا من الأئمة لا يهتمون بهذه العناصر المشوقة، إما لأنهم لا يستطيعون ذلك، وإما لأنهم يغفلون عنه، وقد سمعت كثيرًا من المصلين يقولون: إن الإمام فلانًا قد حرمنا من الصلاة في المسجد القريب؛ لأنه يهمهم بالقراءة همهمة غير مفهومة، ولأن أكثر صلاته بسورٍ محدود، ولأن الخشوع غير وارد إذا صلينا معه.

إنَّ مسئولية الإمام جسيمة، وما أجمل أن تهتم الدولة بالأئمة، فتعقد لهم دورات دراسية، تعلمهم ذوق الصلاة إلى جانب أعمالها وواجباتها وسننها، وتعلمهم أحكام التلاوة وترتيل القرآن الكريم وسمت الخطابة المقنعة الممتعة المفيدة.

**رابعًا:** هنالك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن فقه الصلاة غير علم الصلاة، فرب عالم يعرف أدق دقائق الأحكام في الصلاة، ويعلم الناس أدق حركاتها، ثم إذا صلى غاب عنه فقه الصلاة وخشوعها وعظمة موقفها وجليل آثارها، فصدر عنه حركات خالية من نبض الروح وغذاء القلب وتربية النفس، وربَّ رجل يعرف مجملاً من أحكام الصلاة، لكنه حين يؤديها

يستغرق في ألفاظها ومعانيها وحركاتها استغراقًا تسمو به روحه ونفسه وأخلاقه، حتى كأن الصلاة بالنسبة إليه مدرسة إلهية، تربى المؤمنين على أروع أساليب التربية، وإذا هم في صلاتهم خاشعون، وعن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون، ولأماناتهم وعهدهم راعون، ومن عذاب ربهم مشفقون، وبيوم الدين والحساب مصدقون موقنون، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

**خامسًا**: لفت نظري في قراءة الرسول ﷺ أنه كان يقرأ ما يلامس أحوال الناس من جهاد في موسم الجهاد، وخشوع في أوقات الغفلات، وسمو أخلاقي حين تعربد المطامع، كان يقرأ في فجر يوم الجمعة «السجدة» و«هل أتى»؛ لأن موضوع كلتا السورتين واحد، وهو بداية خلق الإنسان، ثم قصة حياته بين الحسنات والسيئات وبين الإيمان والكفر، ثم خاتمته بين جنة لا تعلم نفس ما أبدعه الله من نعيمها، أو نار ذات أهوال وأغلال وسلاسل وعذاب أكبر، وقرأ في صلاة الفجر ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ في كل من الركعتين، ولم يك ساهيًا في ذلك، والله أعلم، ولكن الله أكبر، ما أروع سورة «الزلزلة» بدءًا، وما أجملها ختامًا، فقد سمعها أعرابي فرجع إلى قومه، وهو يقول: كفتني الذرتان، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧].

وانظر إلى الحديث الشريف الذي رواه جبير بن مطعم ﷺ وهو حديث يبيِّن الأثر العظيم الذي كانت قراءة رسول الله ﷺ تتركه في نفوس المأمومين، يقول جبير: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب سورة الطور، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي يطير.. الله أكبر، بارك الله تلك القلوب التي تكاد تنخلع وتطير من خشية الله ﷻ.

* * *

# الأذان

**للأذان في الإسلام قصة طريفة تتضح في الأحاديث الآتية:**

جاء في الصحيحين أن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلَاةِ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا بِلَالُ، قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ»».

وفي سنن أبي داود وفي صحيح مسلم بمعناه من حديث عمير بن أنس ﵁ أنه قال: اهتم رسول الله ﷺ بجمع الناس للصلاة، فقيل: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا، فلم يعجبه ذلك. فذكر له القُمع وهو شبّور اليهود، فلم يعجبه، فقال: «**هذا من أمر اليهود**». فذكر له الناقوس. فقال: «**هو من النصارى**». فانصرف عبد الله بن زيد الأنصاري وهو مهتم لهمِّ رسول الله ﷺ، فأُريَ الأذان في منامه، فغدا على النبي ﷺ فقال: إني لبين نائم ويقظان؛ إذ أتاني آتٍ فأراني الأذان، وكان عمر قد رآه قبل ذلك، فكتمه عشرين يومًا، ثم أخبر النبي ﷺ فقال له: «**ما منعك أن تخبرنا؟**» قال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت، فقال رسول الله ﷺ: «**قُمْ يا بلال، فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعل**».

وفي الحديث المتفق عليه: «**إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن**».

وفي صحيح مسلم: «**إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ؛ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ؛ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**».

وفي صحيح مسلم والسنن: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**».

**أولاً**: إنَّ الأذان بحق دعوة تامة ألهمها الله ﷻ أصحاب رسول الله ﷺ ليكون لدين

الإسلام نقاؤه وبشاشته، ويتجلى تمامه وكماله، وليظهر هذا الدين العظيم على الدين كله، ولو كره الكافرون، فشتَّان ما بين أن تسمع بوقًا ينفخه نافخ أو جرسًا يقرعه قارع، وبين أن تسمع ذاكرًا لله يدوي صوته: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، والأذان دعوة تامة؛ لأنها اشتملت على ما يسعد الإنسان في معاشه ومعاده، ويرشد الإنسانية إلى سبيل الهدى والحق والإيمان والفلاح.

ما أجمل أن يطرق مسامع الإنسانية بين الحين والحين هاتف باعث قوي يذكرها بكبرياء الله ووحدانيته؛ لتستشعر إخاءها وتنبذ طواغيتها، وبرسالة الله لتقتدي بأنبيائها، ثم يدعوها إلى عبادة ربها، وتُقبل على ما يحقق فلاحها في الدارين، ثم يختم بما بدأ به من تكبير الله وتوحيده.

ما أجمل أن يسمع الإنسان وهو غارق في مكابدة الدنيا صوتًا يذكِّره بأن الله ﷻ أكبر من كل كبير، وأنه مهما كبر شأن الدنيا في عين الإنسان، وكبر بعض الشر في قلبه؛ فالله ﷻ أكبر.

حقًّا إن الأذان بعظمة معانيه وروعة لحنه هو أعظم نسيج للبوق والجرس؛ لأنه صوت حي يعلن أسمى المعاني، أما ذلك فجمادان لأحدهما يُعار وللآخر رنين.

**ثانيًا**: للأذان قصة خلاصتها أن النبي ﷺ وصحبه -رضوان الله عليهم- تشاوروا في طريقة للإعلان عن الصلاة لكي يحضر الصحابة إليها في وقتها، وكانوا في ذلك الحين يجتمعون في المسجد، فإذا جاء وقت الصلاة قاموا إليها عندما يحضر عدد كبير، فأشار بعضهم أن تنصب راية في مكان مرتفع عند دخول وقت الصلاة، فإذا رآها الناس هرعوا إلى المسجد، وقال آخرون: بل ننفخ في بوق، وقال فريق ثالث: بل نقرع جرسًا، فلم تعجب هذه الآراء رسول الله ﷺ، وكان أقربها إلى نفسه الجرس مما يدل على أن النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام هي أقرب الشرائع إلى الإسلام.

وعاد الصحابة إلى بيوتهم وكلٌّ منهم يفكر في طريقة للإعلان عن الأذان، وكان من بينهم صحابي من الأنصار اسمه «عبد الله بن زيد» فرأى في منامه كأنه يحمل جرسًا، وأن رجلاً سمح الوجه لقيه، فسأله عن شأن الجرس، فقال له: نريد أن ندقه إيذانًا بدخول وقت الصلاة، فقال له: بل أدلك على خير من ذلك، وعلَّمه ألفاظ الأذان وألفاظ الإقامة، فغدا إلى

رسول الله ﷺ وأخبره برؤياه التي رآها، وهو بين النوم واليقظة؛ فسر رسول الله ﷺ بتلك الرؤيا، وأمر عبد الله أن يعلِّم بلالاً ألفاظ الأذان والإقامة، وصادف أن جاء عمر ﷺ، وأخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الرؤيا نفسها، وبذلك جاء الخير في جهتين خيرتين، ومنذ ذلك الحين والأذان شعار الصلاة وإعلانها.

**ثالثًا**: من سمع الآذان، فليقل كما يقول المؤذن، فإذا سمع «**حي على الصلاة.. حي على الفلاح**»، فيقل: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»، يشير بها أن الإقبال على العبادة وطرق دروب الفلاح إنما تمَّ بتوفيق الله وحوله، والعبد لا حول له ولا قوة، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله، وإذا سمع المؤذن في صلاة الفجر وهو يقول: الصلاة خير من النوم، فليقل: «**صدقت وبررت**»، وإذا انتهى المؤذن فليصل على رسول الله ﷺ، وليدع له بالوسيلة، وهي منزلة عالية عند الله لا ينالها إلا رسول الله ﷺ إنْ شاء الله.

والمأثور من ذلك أن يقول: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد**».

ويلاحظ أن (مقامًا محمودًا) وصفت بمعرفة مع (مقامًا) نكرة، والنكرة عند أهل اللغة لا توصف بمعرفة.

والجواب أن اللفظ ورد في القرآن الكريم منكرًا في قوله تعالى: ﴿**عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[الإسراء: ٧٩] ، وبهذا الذكر أصبح كالمعرفة فوصف بها هذا.

وللمؤذنين عند الله أجر عظيم؛ لأنهم يدعون الناس جهارًا إلى عبادة ربهم، ومن أجل هذا كان السلف يحرصون أن يؤذنوا ويتسابقون إلى الأذان لشرف ثوابه.

## أحكام الصلوات في الأحداث الطارئة

كان رسول الله ﷺ يربط ربطًا وثيقًا بين أحداث هذه الحياة وبين الصلاة، فكان إذا حزبه أمر من الأمور فزع إلى الله بالصلاة.

وكان من هديه إذا اختلط على الإنسان طرق الخير أن يصلي صلاة الاستخارة، وإذا

ألحت عليه حوائج الدنيا وضيِّق عليه الغرماء أن يصلي صلاة الحاجة، وإذا رأى كسوف الشمس أو خسوف القمر وهما آيتان من دلائل قدرة الله، يذهب إلى بيت الله ليصلي صلاة الكسوف تخوفًا أن يكون الخسوف أو الكسوف مقدمة لعذاب الله، وإذا انقطع المطر وجفت الأرض وقلت المياه يفزع إلى الله بصلاة الاستسقاء، وعلى الجملة فكل أحداث الحياة عند المسلم يلتمس تفريجها عند الله بالعبادة والصلاة.

**وهذه أحاديث كريمة توضح طائفة من أحكام الصلوات في الأحداث الطارئة:**

جاء في الصحيحين والسنن عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام فصلى بالناس فأطال القراءة، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه فأطال القراءة، وهي دون القراءة الأولى، ثم ركع فأطال الركوع، وهو دون ركوعه الأول، ثم رفع رأسه، ثم سجد سجدتين، ثم قام فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك ثم سلَّم، وقد تجلت الشمس، ثم قام فخطب الناس فقال: «**إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يريهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة**».

وفي سنن أبي داود عن أنس ﷺ أنه قال: «إن كانت الريح لتشتد فنبادر إلى المسجد مخافة أن تكون القيامة».

وروى أصحاب السنن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال يذكر استسقاء النبي ﷺ: «خرج رسول الله ﷺ مبتذلاً متواضعًا متضرعًا حتى أتى المصلى فرقى المنبر فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، ثم صلى ركعتين كما يصلي في العيد».

وروى الجماعة عن أنس ﷺ قال: «أصابت الناس سَنة على عهد رسول الله ﷺ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع لنا ربك، فرفع يديه وما نرى في السماء قَزَعَة (وهو السحاب المندق)، فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار السحاب كالجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يومنا ومن الغد حتى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي فقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه وقال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ**

وَالظِّرَابِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ».

وفي صحيح البخاري والسنن عن جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة في القرآن يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر؛ فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، قال: ويسمِّي حاجته».

وفي جامع الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى الله حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى الله وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لِيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، لاَ تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلاَّ غَفَرْتَهُ، وَلاَ هَمًّا إِلاَّ فَرَّجْتَهُ، وَلاَ حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلاَّ قَضَيْتَهَا، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»، وفي زيادة: «ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا يشَاءَ».

**أولاً:** ما أجمل أن يفزع المسلم إلى الله في كل حوائجه؛ فإنه ﷻ هو البر الرحيم والعفو الكريم والتواب الحكيم، لقد كان الناس في جاهليتهم أكثر من ينسبون الأحداث الكونية والظواهر الطبيعية إلى الجن والشياطين والأرواح الشريرة، فيفزعون إليها، ويعوذون برجال من الجن، ويتعلمون الخوف، فجاء الإسلام يعزو كل آية وظاهرة إلى الله ﷻ اللطيف الخبير والعزيز الجبار والقادر القاهر، وبهذا الاعتقاد نجد المؤمن المسلم القوي القلب لا يطأطئ هامته إلا لله الواحد القهار، ثم هو بعد ذلك لا يقيم وزنًا للشعوذة والخزعبلات لعلمه أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، ولهذا تجده في كل أمره من شدة ورخاء لا يستعين إلا به، ولا يعبد إلا إياه.

**ثانيًا:** إذا حِرْتَ في أمرٍ فادرسه من جميع جوانبه، وشاور فيه أصحاب الرأي والمعرفة

والاختصاص، فإن ظل في نفسك بقايا حيرة؛ فصلِّ صلاة الاستخارة، وهي ركعتان عاديتان من غير الفريضة، ولو كانتا تحية المسجد أو بعض السنن الرواتب تصليهما في خشوع، فإذا انتهيت توجهت إلى الله ﷻ بهذا الدعاء المأثور: **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»**.

**«اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر، (ويسمِّي حاجته) خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»**.

**ثالثًا**: إذا أذنبت ذنبًا، فقمْ فصلِّ ركعتين على نية التوبة، واستغفر الله يغفر لك.

**رابعًا**: إذا رأيت الخسوف أو الكسوف فافزع إلى المسجد، وهناك ستسمع من ينادي: «الصلاة جامعة»، ويصلي الإمام بالمصلين ركعتين، يركع في كل واحدة منهما ركوعين، ويقرأ القرآن ويطيل قبل الركوع الأول وبعد الركوع الأول، ويستمر في القراءة والدعاء حتى يتجلى القمر.

**خامسًا**: إذا انقطع المطر فصلِّ في ساحة عامة، كمصلى العيد مع الإمام ركعتي الاستسقاء وهما كركعتي العيدين يكون قبل الفاتحة تكبيرات سبع في الأولى، وخمس في الثانية، وإذا انتهى الإمام من الصلاة فسوف تراه يصعد المنبر، فيخطب الناس مرغبًا إياهم في الطاعة محذرًا لهم من المعصية؛ لأن نزول المطر وثيق الصلة بالطاعة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ثم إذا حوَّل الإمام ملابسه أي قلبها، فاقلب ملابسك؛ لتبدو متبذلاً خاشعًا، وأمِّن على دعاء الإمام وهو يستسقي ويبكي.

وهنالك لون آخر من طريقة الاستسقاء، وهو أن يدعو الأئمة في صلاة الجمعة بالدعاء المأثور، والله عنده خزائن الرحمة ينفق كيف يشاء، وقصارى القول: إن المؤمن دوامًا يكون مع الله في السراء والضراء صابرًا وشاكرًا.

# ما يمنع وما يجوز من الأعمال في الصلاة

هنالك أفعال يظن البعض أنها ممنوعة في الصلاة مع أنها جائزة، وثمة أفعال يرونها جائزة في الصلاة مع أنها ممنوعة.

**وهذه طائفة من الأحاديث الكريمة فيها ذكر لما يمتنع من الأعمال في الصلاة ولما يجوز منها:**

- جاء في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: كنا نسلم على النبي ﷺ في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلَّمنا عليه، فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا، فقال: «**إن في الصلاة لشغلاً**».

- وفي صحيح مسلم أن معاوية بن الحكم قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ؛ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمِّتونني سكت، فلما صلى النبي ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني فقال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

- وفي صحيح البخاري أن معاذ بن جبل ﷺ صلى الفجر بأهل اليمن، فقرأ في الصبح سورة النساء، فلما قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] ، قال رجل خلفه: لقد قرَّت عين أم إبراهيم، فلم يأمره معاذ بإعادة الصلاة.

- وفي الأوسط للطبراني أن النبي ﷺ تكلم في الصلاة ناسيًا، فبنى على ما صلى.

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ سئل عمن يسوي التراب حيث يسجد، قال: «**إن كنت فاعلاً فواحدة**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن عائشة -رضي الله عنها- سألت النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة، قال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**».

- وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في**

**الصلاة، لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم».**

- وفي سنن الترمذي والنسائي أن رسول الله ﷺ كان يلحظ في الصلاة يمينًا وشمالاً ولا يلوي عنقه.

- وروى البخاري أن عائشة -رضي الله عنها- كانت تكره أن يجعل المصلي يده في خاصرته، وتقول: «إن اليهود تفعله».

- وفي سنن أبي داود أن إسماعيل بن أمية سأل نافعًا عن الرجل يصلي وهو مشبك يديه فقال: «تلك صلاة المغضوب عليهم».

- وفي سنن أبي داود وجامع الترمذي أن رسول الله ﷺ صلى بقباء، فجاءته الأنصار يسلمون عليه وهو يصلي، فكان يرد عليهم مشيرًا بيده يبسطها، ويجعل بطنها إلى أسفل وظهرها إلى فوق.

- وروى أصحاب السنن عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جئت يومًا من خارج ورسول الله ﷺ يصلي في البيت والباب عليه مغلق فاستفتحت، فتقدم وفتح لي ثم رجع القهقري إلى مصلاه فأتم صلاته.

- وروى أصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: **«اقتلوا الأسودين في الصلاة: الحية والعقرب».**

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ كان يصلي وعائشة -رضي الله عنها- معترضة بينه وبين القبلة كاعتراض الجنازة.

هذا، وكثير من الناس يروي حديث رسول الله ﷺ الذي جاء في صحيح مسلم بأن الصلاة يقطعها الحمار والمرأة والكلب الأسود، وقد يرويه أمام بعض النساء فيخرج عواطفهن، وإن هذا الحديث كانت إذا سمعته عائشة -رضي الله عنها- تقول: «قُرِنَّا بدواب سوء».

وتعارضه أحاديث صحيحة منها ما رواه الجماعة أن رسول الله ﷺ صلى العصر وبين يديه كلبة وحمارة ولم يأمر برجوعهما، ولعل الحديث الأول ينهى عن الصلاة في مكان يكثر فيه مرور الحيوانات والنساء الأجنبيات وبخاصة المتبرجات، والله أعلم.

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المارُّ بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه**».

- ووردت أحاديث أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بحضور الطعام، ونهى أن يصلي المصلي وهو يدافع الأخبثين، ونهى أن يغمض عينيه في الصلاة، ونهى أن يصلي المسلم حيث تمر بين يديه كلاب أو خنازير أو يهود أو مجوس، أو أن يصلي خلف النيام والمتحلقين والمتحدثين، وأمر أن يتخذ المصلي سترة؛ فإن لم يجد فلينصب عصا، فإن لم يجد فليخط خطًّا.

- وفي سنن أبي داود والنسائي أن رسول الله ﷺ كان يبكي في الصلاة، فكأنه يسمع لصدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء.

**أولاً**: يجوز لك في الصلاة عند الحاجة أن تلتفت يمينًا وشمالاً على ألا تلوي عنقك خلف ظهرك، أما إذا كان الالتفات لغير حاجة فهو عندئذ اختلاس يختلسه الشيطان من صلاتك.

**ثانيًا**: يجوز لك في الصلاة أن تمشي مشيًا يسيرًا عند الحاجة، كما فعل رسول الله ﷺ حين فتح لعائشة الباب، وهو يصلي دون أن يتحول عن القبلة.

**ثالثًا**: ويجوز أن تحمل طفلاً وأنت تصلي، كما فعل رسول الله ﷺ حين صلى إمامًا، وهو يحمل حفيدته أمامة بنت أبي العاص يضعها إذا سجد، ويحملها إذا قام، وفي هذا العمل من الرحمة والصلة ما يعلم الدنيا كلها كيف يكون الخلق العظيم. تُرى ماذا كان شعور ابنته زينب حين رأته ﷺ في سبيل راحتها يحمل طفلتها أمامة إلى المسجد ليريح زينب، ويحتضن طفلتها في صلاته.

**رابعًا**: ويجوز للمصلي إذا سلَّم عليه مسلم أن يرد بالإشارة بيده أو برأسه أو بإصبعه.

**خامسًا**: الكلام القليل الذي له فائدة قد يعفى عنه في الصلاة، فيجوز للمأموم مثلاً أن يسبِّح منبهًا الإمام إلى خطئه، وأن يفتح عليه بالقرآن، وإذا فرضنا أن إمامًا مثلاً قرأ جهرًا في صلاة سرية، فسبَّح من خلفه من المأمومين، فلم يدرك، جاز للمأموم أن يقول عبارة موجزة جدًّا كأن يقول: «إنها العصر»، أو يقول: «القراءة سرًّا». أما المرأة؛ فتصفق للحادث ينوبها في الصلاة.

**سادسًا:** حمد الله في الصلاة إذا بُشرت بنعمة أو عطست جائز، ولكن لا تشمت العاطس وأنت في الصلاة.

**سابعًا:** يجوز لك أن تصلي وإنسان معترض أو نائم في قبلتك، والأفضل أن تتخذ بينك وبينه سترة.

**ثامنًا:** يجوز لك في الصلاة أن تبكي وتتأوه، وإذا كان ذلك من خشوع، فثوابه عظيم؛ فالعين التي تبكي من خشية الله لا تمسها النار.

**تاسعًا:** إذا رأيت حيةً أو عقربًا أو زنبارًا أو حشرة مؤذية فاقتلها، ولو أحوج أن تركض يمينًا وشمالاً، ثم عد إلى صلاتك، وأكمل من حيث توقفت.

**عاشرًا:** يجوز أن تتنحنح في الصلاة لحاجة، كما يجوز أن تقرأ من المصحف في الصلاة، كما أن انشغال القلب بالأفكار والأعمال التي ليست من الصلاة لا يفسد الصلاة.

أما مكروهات الصلاة؛ فمنها العبث بالثوب أو اليدين والرجلين لغير الحاجة، ويكره أن تقف متخصر يد أي: واضعًا يديك على خصريك.

ومن مكروهات الصلاة رفع البصر إلى السماء، وإغماض العينين، والإشارة باليدين عند السلام، والنظر إلى أمر يلهيك كصور ومجلة أمامك أو جريدة.

هذا، ويكره أن تصلي إذا حضر الطعام أو أن تصلي وأنت يزحمك البول أو الغائط أو أن تصلي والنوم يغالبك أو أن تصلي في مكان خاص من المسجد لا تبرحه.

وإذا كثرت الحركات وتجاوزت حدها في الصلاة أبطلت صلاتك، وكذلك من مبطلات الصلاة الكلام فيها، وترك ركن من أركانها أو شرط من شروطها، وتبطل الصلاة بالضحك الذي يسمع فيه الصوت. وما أجمل أن تفكر في الصلاة في معاني الأقوال وحكمة الأفعال، وما تفيده الصلاة من أخلاق وفضائل لتنهاك عن الفحشاء والمنكر.

***

# صلاة أصحاب الأعذار

**لبيان صلاة أصحاب الأعذار نذكر هنا بعض الأحاديث، ثم نتبعها بالأحكام المستنبطة من تلك الأحاديث:**

- جاء في صحيح البخاري عن عمران بن حصين ﷺ أنه قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة، فقال: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنبك**»، وفي زيادة للنسائي: «**فإن لم تستطع فمستلقيًا، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾**» [البقرة:٢٨٦].

- وفي سنن النسائي عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: رأيت النبي ﷺ يصلي متربعًا.

- وفي الصحيحين عن ابن خيثمة أن طائفة صفت مع النبي ﷺ وطائفة وجاه العدو، فصلى بالتي معه ركعة وثبت قائمًا، فأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالسًا فأتموا لأنفسهم ثم سلم.

- وفي مسند أحمد وسنن أبي داود عَنِ ابْنِ عَبْدِ الله بنِ أُنَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى خَالِدِ بْنِ سُفْيَانَ الْهُذَلِيِّ -وَكَانَ نَحْوَ عُرَنَةَ وَعَرَفَاتٍ- فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ**». قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَحَضَرَتْ صَلاَةُ الْعَصْرِ، فَقُلْتُ: إِنِّي لأَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا إِنْ أُؤَخِّرُ الصَّلاَةَ، فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي وَأَنَا أُصَلِّي أُومِئُ إِيمَاءً نَحْوَهُ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ، قَالَ لِي: «مَنْ أَنْتَ؟» قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجْمَعُ لِهَذَا الرَّجُلِ (أي: تجمع الرجال لقتال محمد)، فَجِئْتُكَ فِي ذَاكَ. قَالَ: إِنِّي لَفِي ذَاكَ، فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً حَتَّى إِذَا أَمْكَنَنِي عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي حَتَّى بَرَدَ (أي: مات).

**أولاً:** الإسلام دين اليسر أكرمنا ربنا به، وما جعل علينا منه من حَرج، وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذًا وأبا موسى حين أرسلهما إلى اليمن، فقال: «**يسِّرا ولا تُعسِّرا**»، ومن ثم فإن أصحاب الأعذار يأتون من العبادة ما استطاعوا، ويعفو عنهم ربهم فيما لا يطيقون.

يقول ربنا ﷻ وهو يتحدث عن عبادة الجهاد: **﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾** [الفتح: ١٧].

**ثانيًا:** المريض الذي يضره الماء يتمم، والذي يضره الوقوف يصلي جالسًا أو مضطجعًا أو على أي وضع يريحه، ويأتي من الركوع والسجود ما يستطيعه إيماءً أو حركة خفيفة، ويكتب له برحمة الله ومنه مثل ما يكتب لمن يصلي قائمًا وأكثر، إذا صح القصد وخلصت النية، وإذا اقتضى الأمر أن يصلي مستلقيًا جاء بجميع أعمال الصلاة إيماءً.

**ثالثًا:** المستحاضة ومن به سلس بول يتخذان الاحتياط اللازم، ويتوضآن لكل وقت، ثم لا تضرهما ولا تفسد عبادتهما بعدئذٍ النجاسة، ولو أحسا بها تتدفق الملابس.

**رابعًا:** الخائفون من الأعداء والمتوقعون لغاراتهم يقسمون أنفسهم إلى طائفتين طائفة تتسلح وتوجه الأبصار وشطر الأعداء، وطائفة أخرى تقوم فتصلي إلى القبلة، تنوي بتكبيرة الإحرام مع الإمام، وتصلي معه ركعة، حتى إذا وقف الإمام للركعة الثانية ظل واقفًا وأكملوا لأنفسهم، حتى إذا سلموا والإمام واقف انصرفوا إلى الحراسة مواجهين للأعداء، وجاء إخوانهم الذين لم يصلوا، وصلوا الركعة المتبقية مع الإمام حتى إذا جلس للتشهد قاموا هم وأكملوا الركعة الثانية، وظل الإمام في جلسة تشهده ينتظرهم، حتى إذا أتموا سجودهم وتشهدوا سلم الإمام وسلموا بتسليمه، وفي صلاة المغرب يجوز أن يصلي الإمام بالأولين ركعتين وبالتالين ركعة بنفس الطريقة التي ذكرناها، أو أن يفعل العكس فيصلي بالأولين ركعة وبالتالين ركعتين.

**خامسًا:** هنالك شكل آخر من الصلاة هو صلاة الطالب والمطلوب، فلو أن جنديًّا مسلمًا كلَّفه قائده المسلم أن يتربص لضابط من جيش الأعداء ويقتله، فتربص له ورآه فعلاً؛ فإنه عندئذ أدرك فرصة لا تعوض، وعليه أن ينتهزها وألا يحول بصره عن صيده مهما كثرت حركاته، وإذا حضرته صلاة أو أكثر، فما يجوز أن تكون الصلاة سببًا في ضياع هذه الفرصة للإسلام والمسلمين، ولهذا فإن الجندي المسلم في هذه الحالة يظل موجهًا بصره إلى العدو المطلوب، ويومئ بالصلاة إيماءً، ولا يبالي أن يكون توجهه شطر القبلة أو في أي اتجاه آخر.

ويؤدي أركان الصلاة وأقوالها وأفعالها وهو قائم يومئ إيماءً بتكبيرة الإحرام والفاتحة، ثم يومئ بالركوع والسجود ويسبح وهو قائم ويتشهد وهو قائم، ويظل كذلك مهما طال

الزمن حتى تمكنه الفرصة من عدو الله، فينفذ مأموريته الجليلة.

ومثل ذلك يحدث حينما يكون المسلم مطلوبًا يتعقبه ظالم، كما لو تعقبت دورية صهيونية أحد المجاهدين أنه عندئذ يظل مترقبًا موجهًا وجهه صوب المكان الذي يمكن أن يقبل منه الأعداء، وإذا حضرته الصلاة لم يحوِّل وجهه عن جهة الأعداء ويصلي إيماءً، ويفعل ذلك كل من يطارده عدو ظالم يريد أن يضره في نفسه أو ماله، وكل من خاف على نفسه أو ماله أو أهله من عدو أو لص أو حيوان مفترس.

وقد كانت قصة عبد الله بن أنيس ﷺ مثلاً من ذكاء المؤمن وفطنته وكيسه، فقد كلَّفه رسول الله ﷺ أن يقتل مشركًا حاقدًا اسمه «خالد بن سفيان الهذلي» كان لا يفتأ يحرض على رسول الله ﷺ، ويجمع الكافرين على قتاله.

فانبرى عبد الله بن أنيس يلاحقه ويلاحظه ويترقب حتى رآه فسلط بصره عليه، فحضرت صلاة العصر، وخاف عبد الله بن أنيس ألا يتمكن من قتله بسهولة فتطول المقاتلة وتضيع عليه الصلاة، وعندئذ صلى عبد الله العصر إيماءً بحيث لم يحوِّل وجهه عن الكافر، ولو طرفة عين، ولا يبالي أن يكون شطر القبلة أو أي جهة أخرى، حتى إذا دنا منه كلَّمه وأظهر له أنه يريد الانضمام إلى الجيش الذي كان يجمعه لقتال محمد، حتى إذا اطمأن الكافر إليه سار معه حتى انتهز منه غرة، فعاجله بضربة سيف قضت عليه.

**سادسًا**: المسافر يقصر الصلاة الرباعية، ويجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، كما يجوز الجمع في المطر، ويجوز الجمع للمريض، ومن ركب سفينة أو قطارًا أو طائرة صلى كيفما تيسر له مهما تغير اتجاه السفينة أو القطار أو الطائرة عن القبلة.

## صلاة الوتر

سئل أحد الذين أسلموا وكان من قبل نصرانيًّا: ماذا وجدت في الإسلام جديدًا بعد أن هداك الله إلى دين الحق؟ فذكر أشياء كثيرة منها صلاة الوتر.

قال: إنَّ النصرانية تذكرك الله في الأسبوع مرة حين تدخل الكنيسة يوم الأحد، أما

الإسلام فيذكِّرني ربي دون انقطاع، وإذا صليت خمس مرات في اليوم والليلة ذكرت الله في المساء وفي الصباح وعشيًا وفي الظهر وقبل الأصيل، وإذا ذكرت ربي في أي ساعة من النهار امتلأ قلبي بخشيته فابتعدت عما يغضبه، ولأن الأرض كلها مسجد في نظر الإسلام أراني أشتاق دومًا إلى أن أذكر الله في أرجاء هذا المسجد الواسع والمحراب العظيم، وإذا رأيت ملكوت السموات والأرض وما يتجلى فيهما من آياته الباهرة وحكمته القاهرة ومخلوقاته الظاهرة وأكوانه العامرة خشعت في محراب الفكر مؤمنًا بتلك القدرة القادرة.

نعم إن الإسلام دين الفكر والقرآن ميسر للذكر وأركان الإسلام كلها ما هي إلا صلات متجددات وأنوار هاديات، تنير للمؤمن طريق السعادة والهداية والأخلاق.

هذه المقدمة أسوقها لأتحدث عن صلاة كان رسول الله ﷺ يحرص عليها في الحضر والسفر، وذلك لأنها ختام مسك الحياة اليومية، ولأنها ضمان للمؤمن أن يبيت بإذن الله على طهارة، وأن يبعث إلى الله طاهرًا إذا أراد الله له أن يتوفى في منامه.

**وهذه أحاديث كريمة حول صلاة الوتر نسوقها، ثم نستخلص منها -إن شاء الله- فضل تلك الصلاة وأحكامها:**

- جاء في سنن أبي داود عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «**الوتر حقٌّ، فمن لم يوتر فليس منا**».

- وروى أصحاب السنن من حديث علي ﷺ أنه قال: «الوتر ليس بحتم كالصلاة المكتوبة، ولكن سنة رسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله وتر يحب الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن**».

- وروى مالك وأبو داود والترمذي أَنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُدْعَى الْمُخْدَجِيَّ سَمِعَ رَجُلاً بِالشَّامِ يُدْعَى أَبَا مُحَمَّدٍ، يَقُولُ: إِنَّ الْوِتْرَ وَاجِبٌ. قَالَ الْمُخْدَجِيُّ: فَرُحْتُ إِلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ عُبَادَةُ: كَذَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا**».

- وفي سنن أبي داود: «**الوتر حق على كل مسلم، فمن أحب أن يوتر بخمس فليفعل،**

**ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل**»، وفي زيادة: «**ومن أراد أن يوتر بسبع فليفعل**».

- وفي سنن أبي داود أيضًا: كان رسول الله ﷺ يوتر بأربع وثلاث وست وثلاث وثمانٍ وثلاث وعشر وثلاث، ولم يكن يوتر بأنقص من سبع، ولا بأكثر من ثلاث عشرة.

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا أردت أن تنصرف فاركع ركعة، توتر لك ما صليت**».

- وروى النسائي والترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الأُولَى بِـ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ قَالَ عِنْدَ فَرَاغِهِ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ.

- وروى الترمذي وأبو داود من حديث خارجة بن حذافة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أمدَّكم الله بصلاة هي خير لكم من حمر النعم، وهي الوتر فجعلها لكم فيما بين العشاء الآخر إلى طلوع الفجر**».

- وجاءت الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ أوتر من كل الليل من أول الليل وأوسطه وآخره فانتهى وتره إلى السحر.

- وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من خاف ألا يقوم من آخر الليل، فليوتر أوله ثم ليرقد، ومن طمع أن يقوم من آخر الليل، فإن الصلاة آخر الليل مشهودة محضورة، وذلك أفضل**».

- وفي جامع الترمذي: «**من نام عن الوتر أو نسيه، فليصله إذا ذكر أو استيقظ**».

- وفي صحيح البخاري: «**إِذَا أَوْتَرْتَ مِنْ أَوَّلِهِ، فَلَا تُوتِرْ مِنْ آخِرِهِ**»، وفي زيادة: «**لا وتران في ليلة**».

**أولاً**: صلاة الوتر سنة مؤكدة حثَّ عليها رسول الله ﷺ لما فيها من فوائد جليلة؛ إذ هي تكون في الليل حيث الصلاة مشهودة، ثم إن الإنسان ينام بعدها طاهرًا ذاكرًا، فيكون قد ختم يومه بأفضل حال.

**ثانيًا**: وقت صلاة الوتر أي ساعة من الليل من أوله إلى آخره، ومن نسيها أو نام عنها، فليصلها إذا استيقظ ولو من نهار اليوم التالي، وإذا وثقت بمشيئة الله أنك تستطيع القيام ليلاً متى شئت، فأخِّر الوتر إلى منتصف الليل أو أخِّره حيث الهدوء الساجي يوحي إليك بالخشوع، وإلا فلتكن صلاة الوتر أول الليل.

**ثالثًا**: يمتد عدد ركعات الوتر من ركعة واحدة إلى ثلاث عشرة ركعة، وقد صلى سعد بن أبي وقاص ومعاوية -رضي الله عنهما- الوتر واحدة.

**رابعًا**: كيفية صلاة الوتر مثنى مثنى، ثم تختم بواحدة، ويجوز أن تصلي الركعات حتى إذا هممت بالانتهاء تشهدت، ثم قمت لتصلي ركعة واحدة.

ووردت السُّنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان ربما يصلي سبعًا أو خمسًا لا يفصل بينهما بسلام ولا بكلام.

**خامسًا**: تقرأ في صلاة الوتر بما تشاء، وبخاصة بـ«سبح»، و«قل يا أيها الكافرون»، و«قل هو الله أحد»، وإذا صليت الركعة الأخيرة، فاقنت إما قبل الركوع، وإما بعد قولك: «سمع الله لمن حمده»، وذهبت الشافعية أنه لا قنوت في الوتر إلا في النصف الثاني من شهر رمضان المبارك.

**سادسًا**: إذا أنهيت الوتر بما تشاء بعد أن تقول: سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، لا توتر وترين في ليلة واحدة، واقض الوتر إذا فاتك، وإذا أوترت أول الليل ثم بدا لك أن تصلي في جوف الليل، فصلِّ قيام الليل مثنى مثنى ولا تعد ركعة الوتر.

**سابعًا**: قد ذهب أبو حنيفة إلى أن صلاة الوتر واجبة، والصحيح أن لا واجب في الصلوات إلا ما أوجب الله، وهي الصلوات المكتوبة، أما الوتر؛ فسنة مؤكدة حرص عليها الرسول ﷺ وأوصى بها.

**ثامنًا**: كان أبو بكر ﷺ يوتر من أول الليل وكان عمر ﷺ يوتر من آخر الليل، وروى أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «**أخذت بالحزم**»، وقال لعمر ﷺ: «**أخذت بالعزم**»، والحزم والعزم كلاهما خير بإذن الله.

## أنواع السجود

إذا أردت أن تكون قريبًا من الله ﷻ وأن تتمتع بنفحاته وتجليه، فاسجد له وسبِّحه في سجودك، فإن أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد.

ألا تراه ﷻ يعلمنا في محكم آياته أن نخلع طاعة كل طاغية، وأن نتقرب من ربنا ﷻ بالسجود لجلاله، فيقول لرسوله الكريم ﷺ في معرض ذكر أبي جهل: ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

والسجود أنواع، فمنه ركن الصلاة المعروف الذي نكرره في كل ركعة مرتين، ومنه سجود السهو، وسجود التلاوة، وسجود الشكر.

وهذه أحاديث من الهدي النبوي حول أنواع السجود نوردها ثم نستنبط ما ورد فيها من الأحكام:

- روى الجماعة أن رسول الله ﷺ قام من اثنتين من الظهر لم يجلس بينهما، فلما قضى صلاته سجد سجدتين، ثم سلَّم بعد ذلك.

- وفي صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: **«إذا شكَّ أحدكم في صلاته، فلم يدر كم صلى ثلاثًا أو أربعًا؛ فليطرح الشك، وليبن على ما استيقن، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم، فإن كان صلى خمسًا شفعن له صلاته، وإن كان صلى إتمامًا لأربع كانتا ترغيمًا للشيطان»**.

- وفي الصحيحين والسنن أن النَّبِي ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى خَشَبَةٍ فِي مُقَدَّمِ الْمَسْجِدِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَفِي الْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ، وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ فَقَالُوا: قَصُرَتِ الصَّلاَةُ. وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ كَانَ النَّبِيُّ يَدْعُوهُ ذَا الْيَدَيْنِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله، أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتْ. فَقَالَ: «لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تَقْصُرْ». قَالُوا: بَلْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «صَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ». فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ، ثُمَّ وَضَعَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ.

- وفي صحيح مسلم: **«إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا**

**ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار».**

- وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ونسجد، حتى ما يجد أحدنا مكانًا لوضع جبهته في غير وقت الصلاة.

- وفي صحيح البخاري أن عمر ﷺ قرأ يوم الجمعة على المنبر سورة النحل، حتى جاءت السجدة فنزل فسجد وسجد الناس، حتى إذا جاء السجدة قال: يا أيها الناس إنما نمرُّ بالسجود فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه ولم يسجد عمر.

- وفي سنن أبي داود وجامع الترمذي: قال أبو بكرة ﷺ: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمرُ سرورٍ أو بُشِّر به خرَّ ساجدًا شاكرًا لله تعالى.

- وفي سنن أبي داود: قال عمرو بن العاص ﷺ: أقرأني رسول الله ﷺ خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصَّل، وفي سورة الحج سجدتان.

- وروي أنه ﷺ صلّى ركعتين يوم بُشِّر برأس أبي جهل.

**أولاً**: ما أجمل أن تتذكر نعم الله الجليلة وآلاءه الجميلة، فتتوَّجه إليه بالخضوع، وتذري بين يديه الدموع، وتخر ساجدًا بين يديه، تمرغ الوجه خشوعًا لجلال وجهه الكريم، وتعنو بوجهك للحي القيوم شاكرًا لأنعمه طالبًا لمرضاته منيبًا بالتوبة إليه، إنك حينئذ تكون قريبًا جدًّا من رحاب قدسه وإشراق نوره ونفحات لطفه وقبوله.

ويبدو أن السجود للعبد لم يكن ممنوعًا في بعض الأديان السابقة، فقد سجد ليوسف ﷺ إخوته، ومن قبل سجد الملائكة لآدم ﷺ، فلما جاء الإسلام بالهدى ودين الحق عَلَّمَ المسلمين ألا يسجدوا إلا لله، وألا يعفروا جباههم الشماء إلا بين يدي عظمته وكبريائه.

**ثانيًا**: إذا تلوت القرآن الكريم فمررت على آية من آيات السجود، فمن السُّنة أن تسجد وأن يسجد بسجودك كل من يسمع قراءتك، وتكون أنت في هذه الحال إمامًا للساجدين، فإذا جلست من سجدتك جلسوا معك.

ومواضع السجود في القرآن خمسة عشر موضعًا أولها في آخر سورة «الأعراف»، وآخرها في سورة «العلق»: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

**ثالثًا**: سجود التلاوة سُنة، فمن تركه لعذر كأن يكون الموضع الذي يتلو فيه ضيقًا أو يكون على غير طهارة، وقد سجد عمر ﷺ حين تلا آية ولم يسجد حين تلاها بعد أسبوع ليدلل على أن سجود التلاوة سنة.

**رابعًا**: يقول الساجد للتلاوة: سبحان ربي الأعلى، وتردد ما كان النبي ﷺ يردده من ذكر سجود التلاوة، كما جاء في الصحيحين: «**سجد وجهي للذي خلقه -وفي رواية: وصوَّره- وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين**»، وإذا مررت بآية سجود وأنت في الصلاة، فاسجد ثم عد إلى حالك الأولى من القيام، وإذا كانت آية السجود هي آخر آية من السورة فأنت حينئذ بالخيار بين أن تسجد وبين أن تجتزئ عنها بالركوع.

**خامسًا**: إذا جاءك من يبشرك بخير من خير الدنيا أو الآخرة، فاسجد لله -تعالى- سجدة الشكر، فقد سجد رسول الله ﷺ حين بُشِّر بإسلام قبيلة همدان، وسجد كعب بن مالك حين بُشِّر بأن الله تاب عليه، ويمكن أن يقوم بدلاً من ذلك بصلاة ركعتين لله -تعالى- شكرًا على ما مَنَّ به من فضل.

**سادسًا**: سجود السهو يجبر ما يطرأ في الصلاة من سهو عن واجب، أما نسيان ركن من أركان الصلاة فيبطلها إذا لم تعده، ومع أنه ورد في سجود السهو صفتان أحدهما أن تسجد قبل التسليم إذا طرأ في الصلاة نقص، والآخر أن تسجد بعد التسليم إذا طرأ على صلاتك زيادة؛ فإنه يجزئ أن تسجد سجدتي السهو قبل التسليم على جميع الأحوال إذا طرأ على صلاتك شكٌّ أو زيادة أو نقص، جعلنا الله وإياكم من الساجدين لعظمته.

## صلاة الجمعة وفضلها

يوم الجمعة هو عيد المصلين كما أن يوم الفطر عيد الصائمين وعيد الأضحى هو عيد الحجاج، وما أجمل أن يترك الإنسان وعثاء المكابدة يوم الجمعة قبيل الزوال، فيغتسل ويتطيب ويلبس أزين ملابسه؛ ليكون جميل الظاهر وضيء الباطن، ثم يتوجه إلى المسجد الجامع بالسكينة والوقار، ويقضي وقتًا هنيئًا مباركًا في الصلاة والذكر وقراءة القرآن وتوزيع نظرات

البشاشة وشذرات الكلام الطيب على إخوانه المصلين، فإذا صعد الإمام المنبر أصغى إلى الخطبة بسمعه وقلبه، فإذا أنهى صلاته خرج قد جدَّد روحه وقوى بربه صلته؛ ليسعى في رزق الله ملتمسًا حلاله وطيباته، ما أجمل الإسلام دين وحدة وحب وتعارف وتعاطف وتراحم وسعي في حلال الرزق.

**وبعد؛ فهذه أحاديث كريمة من الهدي النبوي حول فضل الجمعة نوردها ثم نعيش في أحكامها العظيمة:**

– روى مالك وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنَ الجَنَّةِ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ مُصِيخَةٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلاَّ الجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**».

– وفي سنن أبي داود: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ -إِنْ كَانَ لَهَا- وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ المَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْرًا**».

– ولأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن ترك ثلاث جُمع تهاونًا بها طبع الله على قلبه**».

– وفي الصحيحين أن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال لمؤذنه في يوم مطير، وكان يوم جمعة: إذا قلت: أشهد أن محمدًا رسول الله، فلا تقل: حي على الصلاة، قل: صلوا في بيوتكم، فكأن الناس استنكروا ذلك، فقال: فعله من هو خير مني، إن الجمعة عزمةٌ، وإني كرهت أن أخرجكم فتمشون في الطين والدَّحض.

– ولمسلم –رحمه الله: «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسَّ الحصى فقد لغا**».

– وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**غسل الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستنَّ، ويمس طيبًا إن وجد**».

- وروى الجماعة أن عمر ﷺ كان يخطب يوم الجمعة؛ إذ دخل عثمان فناداه عمر: أية ساعة هذه؟ قال: إني شغلت اليوم، فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين، فلم أزد على أن توضأت، فقال عمر: والغسل أيضًا؟ ألم تسمعوا رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل**».

- وروى أصحاب السنن: «**مَن توضأ يوم الجمعة؛ فبها ونعمت، ومَن اغتسل؛ فالغسل أفضل**».

- وفي صحيح البخاري من حديث السائب بن يزيد ﷺ: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزَّوراء(١)، فثبت الأمر على ذلك.

- وروى البخاري: كان النبي ﷺ يصلي الجمعة حين تميل الشمس، وفي رواية: كان ﷺ إذا اشتد بكَّر بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة، يعني: الجمعة.

- وفي صحيح مسلم كان النبي ﷺ يخطب قائمًا، ثم يجلس، ثم يقوم يخطب قائمًا.

- وفي صحيح مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم.

وله أيضًا: «**إِنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلاَةَ وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**».

- وفي صحيح مسلم وسنن النسائي أن صحابيًّا اسمه «أبو رفاعة العدوي» أتى النبي ﷺ وهو يخطب، فقال: يا رسول الله، رجل غريب جاءك يسألك عن دينه، لا يدري ما دينه. قال أبو رفاعة: فأقبل عليَّ وترك خطبته، حتى انتهى إليَّ، فأتى بكرسي حسبت قوائمه حديدًا فقعد عليه، وجعل يعلِّمني مما علَّمه الله، حتى أتى الخطبة فأتم آخرها.

- وجاء في صحيح الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الجمعة بـ«الجمعة» و«المنافقين»،

---

(١) الزَّوراء: هي البعيدة.

وأنه قرأ بـ«سبح» و«الغاشية»، وأنه قرأ بـ«قاف»، وقرأ بآخر آيات في سورة «الزخرف» من قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، وهو على المنبر.

**أولاً**: الجمعة أعظم الأيام لكثرة ما حدث فيها من أحداث مباركة، ولأن فيه ساعة لا يرد فيها سائل، ولهذا يستحب في الجمعة كثرة الدعاء، والصلاة على النبي الكريم ﷺ؛ لأنك بتلك الصلاة تدعو لرسول الله ﷺ، وروى النسائي أنه يستحب في الجمعة قراءة «الكهف»، وأن الله يضيء لقارئها ما بين الجمعتين.

**ثانيًا**: يسن أن يبكِّر المصلي لصلاة الجمعة؛ ليتمكن من الإكثار من الذكر والدعاء والصلاة والقرآن، وقد شبَّه رسول الله ﷺ من يبكِّر لها في الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة (أي: ناقة رائعة)، ثم يكون من بعده كمن قرب بقرة، ثم كمن قرب كبشًا أقرن، ثم كمن قرب دجاجة، ثم كمن قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر.

**ثالثًا**: يشرع لمن يذهب لصلاة الجمعة أن يكون نظيفًا مغتسلاً متطيبًا لابسًا أحسن ملابسه، وأن يتنفل قبل الجمعة بما يقدره الله عليه من الصلاة إلا إذا صعد الإمام المنبر، فحينئذ لا صلاة ولا كلام ولا عبث بالحصا؛ لأن كل هذا يعتبر لغوًا يفسد الجمعة، وإذا جلس المصلي في انتظار الجمعة فغالبه النُّعاس، فليتحول من مجلسه أو ليصل ما تيسر له.

**رابعًا**: لا تجب الجمعة على من له عذر كعذر المطر والبرد والوحل والسفر والخوف من ظالم، وكلٌّ هؤلاء يصلون الظهر، وإذا صلوا الجمعة أجزأتهم.

**خامسًا**: وقت الجمعة هو وقت الظهر على أنه وردت أحاديث صحيحة أن رسول الله ﷺ صلى الجمعة في وقت الضحى، وتصلى الجمعة في المساجد وفي كل هاجرة أو قرية يتجمع فيها عدد من المصلين.

**سادسًا**: يجب أن يخطب الإمام في الجمعة خطبتين يجلس بينهما، ويعمل جهده أن يكون كلامه مؤثرًا؛ لأن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويجوز أن ينزل الإمام عن المنبر ليقضي أمرًا ضروريًا، كما فعل رسول الله ﷺ حين نزل ليتلافى سقوط الحسن والحسين، وحين نزل ليعلِّم الأعرابي، ويسلِّم الإمام إذا صعد المنبر، ويضمِّن خطبته حمد الله والشهادتين والصلاة على رسول

الله ﷺ، ويجملها بالقرآن والموعظة الحسنة، ويخطب قائمًا، ويجلس جلسة خفيفة بين الخطبتين، ويقصِّر الخطبة؛ لأن كثرة الكلام ينسي بعضها بعضًا، ويرفع صوته في الخطبة مع وضوح النبرات.

**سابعًا:** ينصت المصلون للخطبة إنصاتًا تامًّا، ولا يجوز أن يردوا على مُسلِّم أو مُشمِّت أو غيرهما.

## آداب الجمعة

إنَّ يوم الجمعة كما يبدو من اسمه هو يوم اجتماع المسلمين، وهو يوم سرور وأنس ولقاء، كما أنه يوم الوضاءة والطهارة والطيب والنظافة، إلى جانب هذا فهو فرصة إعلامية وعلمية معًا يجتمع فيها المسلمون حول خطبائهم؛ ليستمعوا من العلم ما ينوِّر بصائرهم، ومن الأحداث ما ينبِّه ضمائرهم، ومن أجل ذلك كان للجمعة آداب ذكرت في الكتاب الكريم والسُّنة المطهرة، وإني إذ أعرض لها هنا، أسأل الله لي وللإخوة القراء أن يرزقنا أدب الإسلام وأسوة النبي الكريم ﷺ.

- جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**غسل الجمعة واجب على كل محتلم والسِّواك، وأن يمس من الطيب ما يقدر عليه**».

- وفي صحيح البخاري أن عمر ﷺ كان قائمًا في الخطبة يوم الجمعة؛ إذ دخل عثمان ﷺ فناداه عمر: أي ساعة هذه (يذكره بأنه متأخر)؟ فقال: إني شغلت فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت الأذان، فلم أزد أن توضأت. فقال عمر: والوضوء أيضًا؟! وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل.

- وفي سنن أبي داود والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة، منها ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله شيئًا إلا آتاه الله إياه؛ فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة؛ فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه**».

– وفي سنن النسائي: «مَن قرأ سورة «الكهف» يوم الجمعة أضاء الله له من النور ما بين الجُمعتين».

– وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «مَن اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح (أي: مبكرًا)، فكأنما قرَّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرَّب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

– وفي سنن أبي داود والنسائي أن رجلاً جاء يوم الجمعة يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب، فقال له رسول الله ﷺ: «اجلسْ فقد آذيت وآنيت» أي: تأخرت.

– وفي الصحيحين أن رجلاً دخل يوم الجمعة، فجلس ورسول الله ﷺ يخطب، فقال له: «صليت؟» قال: لا، قال له: «فصلِّ ركعتين».

– وفي سنن أبي داود والترمذي ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو في المسجد؛ فليتحول من مجلسه ذلك إلى غيره».

– وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم».

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك ثلاث جمع تهاونًا ختم الله على قلبه».

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل عن المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما».

– وفي صحيح مسلم أن أبا رفاعة العدوي قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه. فأقبل عليَّ وترك خطبته، حتى انتهى إليَّ فأتى بكرسي من خشب قوائمه حديد فقعد عليه، وجعل يعلِّمني مما علَّمه الله -تعالى، ثم أتى الخطبة فأتم آخرها.

**أولاً:** قد ترى شرذمة من الناس لا يهتمون بصلاة الجمعة، وقد تفوتهم أحيانًا بسبب عدم الاكتراث، والأنكى أن بعضهم قد يكون مسكنه قريبًا من المسجد الجامع، لكنه ملقي في بيته كالمخلف عن الجهاد الشريف، لا يستحي من وجه ربه، ولا يخاف عواقب ذنبه، فلا عجب أن يرين على قلبه ران الآثام كالقطران، ثم يطبع الله على قلبه، فلا ينفذ إليه شعاع الإيمان.

إنَّ الذي يتخلف عن صلاة الجمعة وهو قادر عليها ومكلف بها يجمع إلى جانب معصية الله قلة الحياء والخروج على إجماع المسلمين والانسحاب من ميادين الطهر والوضاءة والجمال والنظافة والعلم، ليظل جيفة نتنة لا طهر ولا وضاءة ولا جمال لها ولا نظافة.

**ثانيًا: على ضوء ما ذكرنا من أحاديث النبي ﷺ على المسلم الموفق أن يلتزم الآداب الآتية في الجمعة:**

– كثرة الدعاء والاستغفار يوم الجمعة لعل الدعاء يصادف ساعة الإجابة، فيتقبله الله الذي لا يتقبل إلا من المتقين.

– الغسل والسِّواك والطيب ولبس أجمل ما لدى المسلم من الثياب؛ لأن الجمعة عيد المصلين.

– ألا يتخطى الرقاب أثناء دخوله، ولا يفرق بين اثنين إلا أن يكون بينهما ثغرة.

– أن يصلي ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس، ولو كان الإمام يخطب وأن يخففهما.

– أن يجلس منصتًا محضرًا قلبه متدبرًا لكلام الخطيب؛ لأن اللغو يبطل الجمعة، وكذلك الحركات والعبث التي لا لزوم لها.

– أن يقرأ سورة «الكهف» ويتدبر القصص الأربع الرائعة التي وردت فيها، وهي قصة أهل الكهف كنموذج للتضحية في سبيل الله، وقصة الغني والفقير كنموذج لعاقبة بطر النعمة، وقصة موسى والعبد الصالح كنموذج لتواضع طالب العلم، وقصة ذي القرنين كنموذج للحاكم الصالح الذي يحكم بالعدل ويسعى لراحة الأمة.

– أن يكثر من الصلاة على النبي الكريم ﷺ يوم الجمعة اعترافًا بما تحمَّله في سبيل الله، ومن أجل أمته من متاعب وتضحيات.

- أن يكثر من الأعمال الصالحة والصدقات يوم الجمعة، وأن تكون صدقته خارج المسجد؛ لأن السؤال في المسجد منكر.

- ألا يؤذي المصلين بأي رائحة غير طيبة كرائحة البصل والثوم أو فم لم يعتن بنظافته.

- ألا يفرد يوم الجمعة بصوم تطوع؛ لأنه يوم ضيافات ولقاءات وصلة رحم وإطعام مساكين.

**ثالثًا**: ينبغي على خطباء الجوامع ألا يضيِّعوا هذه الفرصة الإعلامية الثمينة، فيخطبوا في المأمومين خطبًا ضعيفةً متهالكةً لا مغزى لها، أو يجعلوا الخطبة محاضرة مملولة؛ إذ العبرة في الخطبة أن يكون موضوعها مما يهم المسلمين، وأن تكون رائعة الأسلوب فيها إمتاع للمشاعر وفيها إقناع بالفضائل.

***

# أعياد المسلمين

قدم رسول الله ﷺ المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: «**قد أبدلكم الله خيرًا منهما يوم الفطر ويوم الأضحى**»، هذا حديث شريف رواه النسائي في سننه عن أنس ﷺ، ورويت لهذا الحديث زيادة ذكرها صاحب (فتح الباري) أن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: «**لَتَعْلَمُ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**».

وما أجمل كلمة سمحة وصفًا للملة المحمدية وصفًا لدين الله الذي بعث به محمدًا ﷺ، فالسمح من الرجال الجواد الذي يعطي بسخاء نفس، والسمح أيضًا السهل المتساهل الذي لا يتشدد ولا يقسو في معاملته، وبهذا المفهوم الحكيم يكون دين الإسلام دين السماحة واليسر والسهولة؛ لقوله تعالى: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨]، وحسبك أن رسول الله ﷺ بعث مبشرًا ونذيرًا، فجاء وصفه بالبشارة قبل وصفه بالنذارة، وحسبك أن دعا على المتنطعين المتشددين، وأمر الدعاة من أصحابه أن يبشروا ولا ينفروا، وأن ييسروا ولا يعسروا.

والعيدان في الإسلام كما وصفهما رسول الله ﷺ مظهر اليسر في الإسلام، ودليل الفسحة في الملة السمحة السهلة.

إنَّ رسول الله ﷺ لم يلغ يومي اللعب اللذين تعودهما أهل المدينة، لكنه ربطهما بركنين من أركان الإسلام، وجعل عيد الفطر بعد الصوم؛ ليكون فرحةً للصائمين واستبشارًا منهم بالعتق والقبول والرحمة والمغفرة والنجاة من النار، كما جعل عيد الأضحى في ختام أركان الحج؛ ليكون فرحةً للحاج واستبشارًا منه على ما هداهم ﷻ، وأنه قد رحم غربته وتقبل حجه، وفي كلا العيدين يكبِّر المسلمون الرب على ما هداهم وما منَّ به عليهم من نعمة الإيمان والإسلام.

إنَّ للمصلين عيدًا هو يوم الجمعة من كل أسبوع، فيه يجتمعون ويتصافحون ويسمعون الخطبة، وبهذا تكون العبادات في الإسلام لها أعيادها، وحق للمسلمين أن يفرحوا بما هداهم

الله إليه من العبادات المقبولة إنْ شاء الله.

أما الزكاة وهي أيضًا عبادة رئيسية وركن من أركان الإسلام؛ فهي نفسها عيد؛ لأن ثمرة الأعياد كلها هي البذل في سبيل الله وإعطاء السائل والمحروم والفقير والمسكين.

إنَّ من يلجأ في أمور الدعوة إلى التشدد والتنطع والتزام التخويف ورمي العصاة بألقاب الكفر أقول: إن مثل هذا منفر، قد يكون ضرره أكثر من نفعه، وقد يكون الذي يفتنهم وينفرهم بأسلوبه أكثر من الذين يهتدون على يديه.

إنَّ العيد في الإسلام يوم سرور وراحة وأكل وشرب ولقاءات، لكنه في الوقت نفسه يوم تواصل وتراحم وإحسان وصدقات، ولعل زكاة الفطر في عيد الفطر وذبح الأضاحي والفديات في عيد الأضحى، إنما شرعها لينعم المسلمون أغنياؤهم وفقراؤهم برزق الله والحلال الطيب من فضل الله الكريم.

إنَّ يوم العيد هو يوم تضامن بالقلوب والقوى، يتذكر فيه المسلم إخوانه في مشارق الأرض ومغاربها، يتذكر آلامهم وما يعانون من ظلم وفقر واضطهاد، ثم لا يقر له قرار حتى يقرن الأحاسيس بالعمل، فيخف لنجدة كل ملهوف، ويسارع لنصرة كل مظلوم، ويهب لإطعام كل جائع، وبهذا يكون لعيد المسلمين معنى عظيم يستحقون معه أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

**وإلى الأخ القارئ الكريم بعض أحكام وحِكم تتعلق بالعيد لعل أن يكون في التزامها وتفهمها تتويجاً لما منَّ الله به علينا من الصيام والقيام والحج:**

**أولاً**: من آداب العيد أن يلبس المسلم في يومه أجمل ثيابه، ويغتسل قبل غدوه إلى المصلى، ويتطيب ليظهر المصلى في يوم عيد المسلمين كأنه مروج الربيع المتفتحة، لا ترى منه إلا المنظر الجميل، ولا تشم منه إلا الشذا العطر، وليقول غير المسلمين حين يرون مظاهر العيد: ما أجمل هذا الدين! وما أجمل أتباعه ومجتمعه!

لقد كان رسول الله ﷺ يلبس بُرْدَ حِبَرَةٍ في كلِّ عيد، وبُرد الحبرة من أفخر البرود اليمانية.

**ثانيًا**: من سنن العيد التكبير شكرًا لله على ما رزق الأمة من إقامة الدين القيم، قال الله

تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وجمهور العلماء على أن التكبير سُنة مستحبة أثرت عن السلف الصالح، وأن التكبير في عيد الفطر يكون عند خروجك إلى الصلاة، وإلى أن يبدأ الإمام في الخطبة، وأما التكبير في عيد الأضحى فيكون مطلقًا، أي: في غير أوقات الصلوات من اليوم الأول من ذي الحجة إلى يوم عرفة، تكبِّر الله في بيتك وسوقك، وحيثما رأيت غفلة من قوم، ثم يتحول التكبير مقيدًا بأوقات الصلوات من صبح يوم عرفة إلى عصر آخر يوم من أيام التشريق، بهذا قال معظم أئمة المذاهب.

**ثالثًا:** في صباح عيد الفطر وقبل خروجك إلى صلاته كُلْ أي شيء مما يرزقك الله من حلال الرزق، لكي تشعر بنعمة الله وحكمته محلا ومحرمًا، لقد كنت بالأمس تحرم نفسك من الأكل في الصباح استجابةً لأمر الله، واليوم أنت تتمتع بالحلال من رزقه استجابةً للمحلل المحرِّم لا إله إلا هو.

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ثمرات، ويأكلهن وترًا، أما في الأضحى فكان لا يأكل حتى يرجع، فيأكل من أضحيته.

**رابعًا:** تؤدى صلاة العيد في مُصَلَّى العيد لتكون أجمع للمسلمين؛ إذ لو صلى كل أهل مسجد في مسجدهم لأشبهت صلاة الجمعة، والمصلى يجمع عددًا أكبر، فتتجلى وحدة المسلمين وقوتهم وكثرة عددهم ونشاطهم وفرحتهم، ويكون العيد عرض قوة وحضارة.

وما أجمل أن يكون في الأعياد عروض عسكرية يطلع فيها المسلمون على قوة الدولة الإسلامية، وهي عادة كان يفعلها كثير من الخلفاء.

قال الشاعر البحتري في قصيدته الرائية التي هنَّأ فيها الخليفة المتوكل -رحمه الله-:

**أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب يصان الدين فيه وينصر**

**خامسًا:** الألعاب التي تظهر فيها القوة والشجاعة مباحة في العيد كألعاب القوى واللعب بالسلاح في غير ضرر، والعرضات بالسيوف، فقد لعب الأحباش بالدرق في المسجد، وكان رسول الله ﷺ يشجِّعهم، وأمنا عائشة -رضي الله عنها- تتفرج عليهم متوارية

خلف رسول الله ﷺ.

ولا بأس أن يأخذ المسلم عائلته ذكورًا وإناثًا ليتفرجوا على ألا يحصل أي اختلاط مما لا يقره الإسلام، فلقد كان رسول الله ﷺ يخرج نساءه وبناته إلى المصلى، وحتى البكر والحائض تخرجان، ولا تشهد الحائض الصلاة، ولكنها تسمع الدعاء وتؤمن عليه وتكبر.

**سادسًا**: وقت صلاة العيد بعد أن ترتفع الشمس قرابة طول رمح في الأضحى وفي الفطر، ولا تسبقها أي نافلة؛ لأنها تكون عندئذٍ في وقت الكراهة، وليس لها أذان ولا أي نداء أو إقامة.

**سابعًا**: للعيد خطبة بعد صلاة العيد، وعلى الخطباء أن ينتهزوا هذا الجمع العظيم فيجعلوا خطبهم غاية في البلاغة والتأثير، وألا يموتوا على الناس حماستهم بالكلام العادي والمعاد وغير المؤثر، فيضيِّعوا بذلك فرصة عظيمة.

**ثامنًا**: العمل الصالح في يوم العيد مطلوب من صِلة للرحم وإطعام للفقراء والجيران، وتهنئة للأصحاب بأن يصافحهم، ويقول لهم: تقبَّل الله منا ومنكم، وما أجمل أن يتفقد الغني حوائج أطفال الفقراء من جيرانه؛ لينعموا بما ينعم به ولده، ولتمتلئ قلوبهم حبًّا للمحسن.

أسأل الله -تعالى- أن يعيد لأمتنا عزها ونصرها، وأن يرفع مقته وغضبه عنها، ويبدلها بضياعها هدى وبضعفها قوة، والحمد لله أولاً وآخرًا.

* * *

## الوسوسة في العبادة

هذا بحث مهم نقدِّمه ونحن نتحدَّث عن العبادة؛ لأنه كثيرًا ما يفسد العبادة ويحوِّلها فتنة ومشكلة، إنه الوسوسة في العبادة، وهي داء يسيطر به الشيطان على الجهلة من المتعبدين فيشقيهم ويرديهم، ويلبس عليهم دينهم وعبادتهم.

أذكر أني صليتُ في المسجد الحرام وصلى إلى جواري شابٌّ، فلما تشهد سمعته يتوقف عند الشهادة ويتعتع ويعيدها عدة مرات، ولما أتم صلاته سألته: لماذا تلك الإعادات وذلك الرهق؟ فقال: لأن حركة إصبعي عند الشهادة لا توافق قسميها، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: المفروض إذا قلت: (لا إله) أن أخفضها إلى أسفل، وعند الشهادة يتسلط عليَّ الوسواس، فيخيل لي أني لم أتقن الحركة فأعيدها.

وصلى إلى جواري شابٌّ آخر، فأعاد التشهد ثلاث مرات، ولما سألته قال لي: إذا أكملت التشهد أوقع الشيطان في روعي أنني لم أضبطه فأعيده.

وصلى رجل معي فأعاد نية الإحرام ثلاث مرات قبل أن يكبِّر.

ورأيت رجلاً يتوضأ عدة مرات في جلسة واحدة، ويبذر في الماء تبذيرًا شديدًا، ولما سألته قال: أحس أن نقطًا صغيرة من البول تنزل عقب كل وضوء.

وولغ ذات مرة كلبٌ في إناء رجل، فذهب يسأل أحد المنسوبين إلى الفقه فقال له: إن ذلك الكلب لا بدَّ أنه بعد أن ولغ في الإناء تجول في أنحاء البيت ينفض أنفه وفمه على الأبواب وحبال الغسيل، فعليك أن تتفقد كل ذلك وتطهره بالتراب والماء، وكان يكفي عن ذلك كله لو أنه هراق الماء من الإناء وغسله سبعًا إحداها بالتراب.

**وهذه بعض آثار في مقاومة الوسوسة نوردها ثم نتبعها باستنباط أحكام تتعلق بهذا الداء الوبيل، وقد اقتبست كثيرًا في هذا البحث من كتاب (العبادة في الإسلام) لشيخنا الدكتور «يوسف القرضاوي» جزاه الله خيرًا:**

- جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وطئ أحدكم بنعليه الأذى، فإن

**التراب له طهور»**، وفي لفظ: **«من وطئ الأذى بخفه؛ فطهورها التراب»**.

- وجاء عنه ﷺ أنه كان إذا استنجى نضح على سراويله ماءً ليقطع على الوسواس طريق الوسوسة.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- ربما صلى في مرابض الغنم، وقال: **«الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»**.

- وكانت الكلاب تقفز إلى داخل مسجد النبي ﷺ، وربما تبول فلا يوسوس الصحابة من ذلك؛ لأن الصحابة -رضوان الله عليهم- لم يكن منهم موسوس.

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ صلى بالناس، وهو يحمل أميمة بنت أبي العاص وهي طفلة، والطفل كما هو معلوم عرضة أن يكون في ثيابه الداخلية نجاسة.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يلبس الثياب التي كان ينسجها المشركون ويصلي فيها، ولا يسأل عن طهارة ناسجها.

- ولما قدم عمر ﷺ إلى الشام استعار ثوب نصراني فلبسه وصلى فيه، إلى أن رقعوا له ثوبه وغسلوه، وتوضأ ﷺ من جرة نصرانية.

- وجاء في سنن أبي داود وابن ماجه أن جماعة من الصحابة خرجوا في سفر فأصاب أحدهم حجرٌ شجَّه في رأسه، ثم احتلم الرجل فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، ولما علم رسول الله ﷺ غضب وقال: **«قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقه، ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده»**.

- وفي مسند أحمد أن النبي ﷺ كان ربما قبَّل بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ.

- وفي الصحيحين أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كنت أنام بين يدي النبي ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني، فقبضتهما.

- وأفتى كثيرٌ من الأئمة ومنهم الإمام أحمد ومالك أن المصلي إذا كان على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة، ولم يكن عالمًا بها أو كان عالمًا بها ولكنه نسيها؛ فصلاته صحيحة ولا إعادة عليه.

**أولاً**: الموسوس إنسان وضع نفسه طائعًا مختارًا تحت أوامر الشيطان الوسواس الخناس، فهو لا يكاد يأمره حتى يطيع، والموسوس خاسر مهما دفعه الشيطان إلى إطالة العبادة وتكرارها، وذلك لأنه لا يعيدها ابتغاء مرضاة الله، ولكنه استجابة لوسوسة الشيطان.

ولقد خالطتُ المتصوفةَ فوجدت كثيرًا من متعبديهم يستعبدهم الشيطان بالوسوسة حتى يجعلهم في كبد دائم وإرهاق، وترى بعضهم بعدئذ يُجنُّ من الوسوسة فيسمُّونه «مجذوبًا»، وهو في الحقيقة موسوس استبدت به الوسوسة حتى أوردته الجنون.

**ثانيًا**: أكبر علاج للوسوسة هو العودة إلى المنابع الأولى للإسلام؛ حيث البساطة التي لا تعقيد فيها ولا تكلف، حين كان رسول الله ﷺ ربما يتوضأ بمدٍّ من الماء، أي: ما مقداره كأسان، وقد يغتسل بثلاثة أضعاف ذلك فقط، وحين كان الأعرابي يقضي يومًا أو يومين أو أسبوعًا عند رسول الله ﷺ، فيعود لتعليم قبيلته أصول الدين وقواعده وكيفية العبادة جميعها من وضوء وصلاة وصوم وزكاة وحج.

**ثالثًا**: أن يسأل عن أمور دينه أهل الذكر والعلم الصحيح لا أن يلجأ إلى أهل التكلف والتعقيد والسطحية، وأن يصرف كل اهتمامه إلى الأمور الرئيسية لا أن يتركها ليتعمق ويتنطع في الدقائق.

إنَّ الجهر مثلاً بنية الإحرام ربما ضيَّعت على بعض الشافعية فضيلة موافقة الإمام في تلك التكبيرة، وهو يجهر بالنية يردد: أصلي لله العظيم أربع ركعات فرض الظهر الحاضر مستقبلاً الكعبة مقتديًا بهذا الإمام... إلى آخر ذلك. مع أن النية محلها القلب، وكلُّ هذا الكلام مفهوم في القلب دون أن ينطق به؛ لأن كل مصلٍّ حضر إلى المسجد قبل الظهر إنما جاء ليصلي الظهر أربع ركعات موليًا شطر القبلة مقتديًا بإمام المسجد؛ فلماذا هذا الشرح المسبب للوسوسة.

**رابعًا**: على المتعبد لله ألا يستنكف عن الأخذ بالرخص كالمسح على الخفين والجوربين

وكالجمع والقصر والمسح على الجبيرة والأخذ بالأيسر اقتداءً برسول الله ﷺ الذي ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، والذي أوصى صاحبيه اليمانيين، فقال: «يسرا ولا تعسرا».

**خامسًا**: إذا وسوس إليك الشيطان في الصلاة، فخيل لك أن ريحًا أو بولاً يخرج منك، أو قال لك: نسيت ركنًا من أركان الوضوء، فلا تشغل بالك في الصلاة بالتفكير الطويل الذي يضيِّع الخشوع، وابعد الأفكار من ذهنك، وتفرَّغ للتفكير في الصلاة، وتعوَّد أن تهمل وساوس الشيطان؛ لأنه خناس يخنس ويختفي بذكر الله ﷻ.

* * *

# باب في الأموال والزكاة والمعاملات والحقوق آدابها وأحكامها

## (الدين المعاملة)

اهتم الإسلام بما يدور بين المؤمنين من تعامُل في البيع والشراء والإجارة والضمان والمساقاة والمزارعة والشركة حتى لقد جاء في الأثر: «الدين المعاملة»، ومعناه أن أعظم ما يكشف دين المرء سلوكه في معاملاته، بحيث لا يدخل ظلم ولا ابتزاز ولا احتكار، وقديمًا سأل عمر ﷺ رجلاً: ألا تعرف فلانًا؟ فقال: بلى. قال: هل عاملته بالدينار والدرهم؟ قال: لا. قال: إذن أنت لا تعرفه. إن رجلاً يصلي في اليوم ألف ركعة من النافلة، ثم يغش في المعاملة ويقسو ويبتز ويحتكر ويتحايل لأكل الحرام، أقول: إن رجلاً يفعل فعلاً قد يفضله رجل رقيق القلب لين المعاملة رحيم بالمسلمين، حتى ولو كان الثاني لا يصلي إلا المكتوبة والراتبة.

**ومن هنا؛ فإني أقدم إلى الإخوة المسلمين هذه الطائفة من آداب المعاملات إذا التزموها رُجي لهم كل خير بإذن الله، وصرف عنهم كل سوء منقلب في المال والأهل والولد:**

**أولاً:** أن يميل المسلم في تعامله إلى التسامح والرفق والعفاف لتسود في المسلمين روح المحبة والإخاء، وليشعر كلٌّ من المتعاملين أن المؤمنين في تعاملهم إخوة، وما أجمل المعاملة حين تشعر أنك إنما تتعامل مع أخيك، يقول النبي ﷺ: «**إذا أراد الله بقوم نماء رزقهم السماحة والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعًا** (أي: نقصًا في الرزق) **فتح عليهم باب خيانة**»، وفي الأثر: «**بارك الله على سهل البيع، سهل الشراء، سهل القضاء، سهل الاقتضاء**»، وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**رحم الله امرأ سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا تقاضى دينه**»، وفي سنن ابن ماجه يقول النبي ﷺ: «**إذا وزنتم فأرجحوا**».

وإذا رأيت أخاك سمحًا فلا تكن جشعًا منتهزًا لكرمه، وخُذْ ما لا يخجله، بل ما تطيب به

نفسه، فقد جاء في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ دخل حائطًا** (أي: بستانًا)؛ **فليأكل ولا يتخذ خُبنةً** (ما يحمله الإنسان في حضنه أو تحت إبطه)».

إنَّ من الناس مَن تتعامل معه فتشعر أنه يعطف عليك وينصح لك ويراعيك ويدعو لك، ومنهم من يتعامل معك وكأنه عدوك يود لو يأخذ منك سلعتك دونها مقابل، وإذا أخذ منك عربونًا أكله عليك بنفس مطمئنة للشبهة، مع أن النبي ﷺ نهى عن بيع العربون، أي: أن تأكل عربون أخيك إذا عدل عن الشراء.

**ثانيًا**: أن يبتعد عن آفات المعاملة، وهي الخيانة والغش والاحتكار والظلم وكثرة الحلف، يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».

وفي سنن أبي داود: «**إنَّ الله تعالى يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر، فإذا خانه خرجت من بينهما**».

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**مَن غش؛ فليس مني**»، وفي رواية البخاري: «**مَن غشنا؛ فليس منا**».

إنَّ المعاملة الكريمة يعتبرها ربنا عبادة مقبولة، ترفع منازل صاحبها في مدارج السالكين، حتى إن بعض التجار وهو يكسب مجتهدًا في رزقه، يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه: «**التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة**».

وقد نهى الإسلام عن احتكار الطعام؛ لأن فيه تربصًا بالمسلمين أن يحتاجوا ويجوعوا، كما أن فيه قسوة قلب تقطع أرحام المسلمين، ومن هنا نهى النبي ﷺ عن الاحتكار نهيًا صارمًا شديدًا، جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ**».

وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس والجذام**».

وفي مسند أحمد أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً؛ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَبَرِئَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللهِ تَعَالَى**».

وقد مرَّ النبي ﷺ بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج إلى بطون الأسواق، وحيث تنظر الأبصار إليها، ولكن حين اقترح بعض المسلمين أن يُسعِّرها غضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا وقال: «**إنما السعر إلى الله يرفعه إذا شاء، ويخفضه إذا شاء**».

وقد شاهدتُ بعيني دولاً تتدخل في أسعار الناس؛ حيث تنضج زراعتهم ويتسلمونها ليبيعوها على هواهم في تسعيرها، فيخربون بذلك بيوت المزارعين، ويضيعون تعبهم، حتى إن كثيرًا منهم تركوا الزراعة بسبب ذلك الإجحاف المحرم.

**ثالثًا:** احترام حقوق العباد مع المحافظة على كرامتهم، فالمؤمن يقضي دينه بطيب نفس، ويدعو للمقرض بحسن الثواب وكريم العوض عالمًا أن حق أخيه مقدس عند الله، حتى لقد كان رسول الله ﷺ ربما لا يصلي على الميت إذا اتضح أن عليه دينًا حتى يقضى دينه. قال رسول الله ﷺ: «**الدين قبل الوصية**»، وهذا يعني أنه لو أن مؤمنًا أوصى ببناء مسجد وكان عليه ديون، فإن الشرع يبدأ بالدين فيقضيه ثم الوصية بعد ذلك.

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه**».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن خياركم أحسنكم قضاءً**»، أي: أولئك الذين حين يسددون الدين يبدون طيب نفس وكرمًا وبشاشة، ويحاولون أن يكون ما يدفعونه أنظف وأجمل وأكثر مما أخذوه.

**رابعًا:** من أدب التعامل أن يشكرك من تعامل معك، ويثني عليك لصدقك وحسن أدائك، وألا تنتهز احتياجه فتبخسه سلعته، فلقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطرين، وعن بيع الخداع، وما أجمل أن تنظر أخاك في عسرته، وتتجاوز عن بعض حقك عليه، وألا تماطل إذا تيسرت أمورك وألا تسجنه إذا كان معسرًا؛ ففي «مصابيح السُّنة»: «**ليس من عبد مسلم يقضي عن أخيه دينه إلا فكَّ الله رهانه يوم القيامة**»، وفي «مسند الديلمي»: «**اتقوا دعوة المعسر**»، وأن تجعل القرض حسنًا خاليًا من مصالح الدنيا، بل تحتسب الأجر عند الله؛ ففي صحيح مسلم: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**».

# الحرص على طهارة الكسب

من آداب المؤمن أن يحرص أشد الحرص على طهارة كسبه ونظافة يده ووضاءة رزقه، فلا يسمح بأي حال من الأحوال أن يخالط ماله سحت من رشوة أو اختلاس أو سرقة أو استغلال نفوذ.

إنَّ بعض ضعاف النفوس قد يسول له شيطانه أن مال الدولة حلال لأي مواطن مع أن مال الدولة شأنه كسائر المال حرام على الغال والمرتشي، ولقد كان سلفنا الصالح يحرصون على أموال بيت المال أشد من حرصهم على أموالهم، وكان عمر ﷺ يقول: إنني لو أعلم أن جنديًا يسرق بسقي الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر، وقصة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- معروفة حين دخل عليه رجل وهو يكتب على ضوء سراج، فلما جلس الرجل قال لعمر: جئت أكلمك في شأن ضيعتكم بحلوان، فما كان من أمير المؤمنين -رحمه الله- إلا أن أطفأ السراج، وقال للرجل: الآن حدثني لقد أطفأت السراج؛ لأن زيته من بيت مال المسلمين، وقد كنت أكتب بعض شئونهم، فلما جئت تحدثني عن مال يخصني لم أجد لي حقًا في زيت السراج؛ لأنك تحدثني عن شئوني.. هكذا كان سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم.

لقد حدَّثني بعض موظفي الدولة ممن يعملون في بعض الشئون المالية كالمناقصات أنهم يلقون بلاءً كبيرًا وامتحانًا شديدًا لشدة ما تعصف من حلولهم رياح الرشوة والغلول، والغلول معناه الاختلاس، وأما بعضهم قد يعود إلى بيته، فيجد خادمًا لأحد الموسرين من ذوي المصالح يقدم له مفتاح سيارة فخمة واقفة على باب بيته، وهو يقول له: يسلم عليك سيدي، ويقول لك: هذه هدية متواضعة، وينظر الموظف إلى سيارته القديمة، فيقوم في نفسه صراع، فزوجته تحب الجديد من السيارات والغالي من الفرش والرياش، وقد ظهرت لزملائه نعمة حتى بدت بيوتهم، وكأنها مروج الربيع في هالة من الزخرف؛ فكيف يتماسك في هذا الجو المهول على أني رأيت رأى العين بعض ذوي الاستقامة رفض إغراءات الحرام، ورضي بقسم الله فلم يقبل أن يطعم أهله سحتًا، ومن ثم بارك الله سعيه ونفعه في صحته وولده، وجعل له من أمره يسرًا.

جاءني ذات يوم مقاول من معارفنا فصلي معي في المسجد، واعترف لي بعد الصلاة أن السحت يدخل رزقه؛ لأن كثيرًا من أعماله لا تسير في طريقها إلا إذا لجأ إلى طرق ملتوية، وبدون ذلك قد يحتاج ويستدين، وهو يريد أن يدخل طرقه المتلوية في باب الضرورات كمن اضطر في مخمصة، والحق أن الضروريات تقاس بقدرها، ولقد كان أشياخنا لا يعتبرون ضرورة إلا ما هدد الإنسان في صحته وحياته وولده.

ولقد تنبأ رسولنا ﷺ أنه زمانًا سوف يظل المسلمين يصبح القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، ويدخل فيه الربا كل بيت أو يدخل في البيت غبار الربا على الأقل.

ولقد كان رسولنا ﷺ يتشدد كثيرًا في أمر الغلول، والغلول معناه أن يختلس المرء من مال غيره وكل إليه حفظه، فقد روى الإمام مالك والإمام أحمد وأصحاب السُّنن أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي بخيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**صلوا على صاحبكم**» فتغيَّرت وجوه الناس لذلك، فقال: «**إنَّ صاحبكم غلَّ في سبيل الله**»، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزًا من خرز يهود لا يساوي درهمين.

وفي صحيح مسلم عن عمر ﷺ قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد، حتى مروا على رجل، فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «**كَلاَّ إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٍ**» (أي: من أجل عباءة اختلسها)، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ**». قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ «أَلاَ إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ الْمُؤْمِنُونَ»، وهو يعني أن الشهيد الذي يدخل الجنة هو المؤمن الذي يمنعه إيمانه من الغلول والحرام.

وفي الحديث الذي رواه الطبراني عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لم تغل أمتي لم يقم لها عدو أبدًا**»، ومعنى الحديث أن أمة محمد ﷺ إذا سَلِمَ مقاتلوها من الاختلاس والحرام لم يستطع عدو أن يقف في وجهها يوم معركة.

ولقد صوَّر القرآن الكريم أهل الاختلاس في صورة مضحكة مبكية، فقال ﷻ: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٦١]، ومعنى الآية الكريمة

أن المختلس يُؤتى له يوم القيامة بما اختلسه، سواء أكان بعيرًا أو شاةً أو عنزًا، فيعلق في رقبته، وفسَّر النبي ﷺ مقصود الآية في حديثه الكريم الذي رواه الشيخان -رحمهما الله- أنه قال: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي. فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ[1]، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ».

وفي سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن جاء يوم القيامة بريئًا من ثلاث دخل الجنة: الكبر، والغلول، والدين».

وفي الحديث الذي رواه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَتَمَ غَالاً؛ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»، ومعناه أن الذي تستر على مختلس أو مرتشٍ؛ فهو مثله.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ الله بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

## (١) الحث على العمل والنهي عن التسول

من آداب المؤمن أنك لا تراه إلا ساعيًا أو عاملاً أو مكتسبًا أو محترفًا، ولا يمكن أن تلقاه منغمسًا في بطالة أو كسل أو قعود أو فراغ يحوجه إلى الناس.

المؤمن لا يكون إلا عاملاً دءوبًا ونشيطًا مبكرًا يعجب خلطاءه بدأبه وأدبه ونشاطه

---

(١) الصامت: ما لا نطق له كالذهب والفضة.

وتبكيره؛ لأن ربنا ﷻ أشاد بالعامل المخلص المحسن لعمله، فقال ﷻ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وأجاب مَن يدعونه ويكثرون الدعاء، فقال لهم سبحانه: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، مشيرًا بذلك إلى أن الدعاء وحده لا يكفي إذا لم يقترن بالعمل، بل لقد أمر رسول الله ﷺ أن يهيب بالناس للعمل الجليل المفيد الذي يحمده الله ورسوله والمؤمنون، فقال جلَّ من قائل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وفي الأثر: «البطالة تقسي القلب»، ولحكمة إلهية كان أنبياء الله ﷺ يحترفون، فكان منهم الراعي والنجار والخياط والحدَّاد.

المؤمن لا يستكبر عن عمل شريف يعف به نفسه ويصون ماء وجهه، فلقد مرَّ عليٌّ ﷺ على يهودي ينزع من بئر بدلو، وكان جائعًا، فلم يلجأ إلى المسألة لكنه عرض عليه أن يساعده، فقال له اليهودي: كل دلو تنزعه بتمرة، وعمل ﷺ فأكل من كسب يده، وحمل معه ما أطعم منه أهله.

إنَّ أي حرفةٍ مهما هانت هي أشرف من المسألة والشحاذة، وإن ماسح الأحذية أشرف ألف مرة من الشحاذ مهما استحدث الشحاذ من أساليب واصطنع من أكاذيب، وفي هذا يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «لأَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ حَبْلاً فَيَحْتَطِبَ بِهِ، ثُمَّ يَجِيء فَيَضَعَهُ فِي السُّوقِ فَيَبِيعَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْنِي بِهِ فَيُنْفِقَهُ عَلَى نَفْسِه خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ».

إنَّ من يتقن حرفة من الحرف النافعة يأمن بفضل الله ومشيئته من الفقر؛ لأنه حيثما حل يحتاجه الناس في تجارة أو سباكة أو زراعة أو طب، وقديمًا قيل: حرفة في اليد أمان من الفقر، ويقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد: «إنَّ الله يحب العبد المحترف، ومن كدَّ على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله».

إنَّ طلب الرزق الحلال شرف يدعو إليه ربنا ﷻ؛ إذ يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني والبيهقي: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»، وأوضح هذه العبارة بقوله في الحديث الذي رواه الطبراني أيضًا: «إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لا تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَلا الصِّيَامُ وَلا الْحَجُّ وَلا الْعُمْرَةُ»، قَالُوا: فَمَا يُكَفِّرُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْهُمُومُ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ».

وفي عظمة ثواب الساعي في رزقه يقول رسول الله ﷺ: **«مَن أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له»**، ورأى رسول الله ﷺ يد سعد بن معاذ وقد خشنت وتشققت من أعمال الزراعة، فقال: **«هذه يد يحبها الله ورسوله»**، لكن النبي ﷺ نصح المؤمن في سعيه أن يطلب رزقه في كرامة وبدون تكالب، وألا يلجأ إلى الرزق الحرام ومعاصي الله إذا أبطأ عليه الحلال، وفي هذا يقول النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- في الحديث الذي رواه البزار والحاكم: **«إن روح القدس نفخ في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله؛ فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»**.

والمؤمن لا يرضى أن يكون كَلاً على أحبابه وإخوانه، لكنه أبدًا يجد ويسعى ليأكل من كسب يديه، وهذا ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين حين وصلوا إلى إخوانهم الأنصار بيثرب، فعرض عليهم الأنصار أن يشاطروهم أموالهم، لكنهم رفضوا ذلك ونزلوا إلى أسواق المسلمين يمشون في مناكب الأرض، ويبتغون من فضل الله، كما أمرهم نبيُّهم ﷺ؛ إذ يقول في الحديث الذي رواه البخاري: **«ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده»**، وفي مسند أحمد: **«أفضل الكسب بيع مبرور، وعمل الرجل بيده»**.

وقد قرأنا في السيرة أن النبي ﷺ آخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، فقال سعد لعبد الرحمن: إني رجل ذو مال، ولي أكثر من زوجة أريد أن أقسم مالي، فأعطيك أحسن شطريه، وأطلق إحدى زوجتي لتتزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في مالك وزوجتيك، دلني على السوق.

وحين يحترف المؤمن تجد في عمله النصح والأمانة، كما تجد فيه التبكير والغدو النشيط متبعًا في أدبه هذا قول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: **«خير الكسب كسب يدي عامل إذا نصح»**، وفي معجم الطبراني: **«باكروا طلب الرزق والحوائج؛ فإن الغدو بركة ونجاح»**، وفي مسند أحمد أن النبي ﷺ قال: **«الصُّبحة -أي: نومة الصبح- تمنع الرزق»**، وقال ﷺ: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»**.

والمؤمن في سعيه يتحرى نفع نفسه ونفع الإنسانية، فتراه حريصًا على أن يخدم أمته

بسعيه، ففي الحديث الذي رواه أحمد: «**إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها؛ فله بذلك أجر**».

ثم إنه إذا زرع نوى أن ينفع بزرعه كثيرًا من مخلوقات الله متبعًا بذلك هدي رسولنا ﷺ؛ إذ يقول: «**مَن غرس غرسًا أو زرع زرعًا، فأكل منه إنسانٌ أو سبعٌ أو دابةٌ أو طيرٌ؛ فهو له صدقة**».

والمؤمن في تجارته يكون ذكيًا؛ لأن التجارة حين تنتهز فرصها وتستغل مواسمها تأتي بكسب وفير؛ ففي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بالتجارة؛ فإن فيها تسعة أعشار الرزق**»، وروي أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل ومعه ثوب يبيعه، وكان الرجل طويلاً والثوب قصيرًا، فقال النبي ﷺ للرجل: «**اجلس فإنه أنفق لسلعتك**»، وذلك لأن الرجل الطويل حين يجلس يبدو الثواب الذي بيده طويلاً، أما حين يقف فيبدو الثوب الذي في يده وكأنه ثوب طفل.

هذا، ويلتزم المؤمن في سعيه أن يطرق أبواب النشاط الإنساني، فيحرث ويزرع ويصنع ويتاجر ويعدن ويصطاد لكي يستقيم لوطنه كل دروب النشاط الاقتصادي؛ لأن الله أودع البركة في هذه الأرض، وقدَّر فيها أقواتها، قال الله -تعالى- يتحدث عن خلق الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:١٠].

وعلى الجملة؛ فإنه أعظم آداب المؤمن أنه يسعى جاهدًا ليكون جديرًا بتلك الخلافة السامية التي شرَّف بها الله الإنسان حين جعله في الأرض خليفة.

### (٢) الحث على العمل والنهي عن التسول

الحمد لله الذي جعل العزة والكرامة لعباده المؤمنين، وأشهد أن لا إله إلا الله، قال في محكم كتابه: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٦]، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الدنيا ورحمة العالمين، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه السادة المجاهدين، وعلى كل من سار على هديه وعمل بسنته وحكم بشرعه إلى يوم الدين.

قد يرى في ساحات القيامة رجال ونساء رءوسهم جماجم ليس عليها لحمٌ، يبدون في منظر قبيح لم يرضه الله لهم، لكن ارتضوه لأنفسهم، هؤلاء قوم حثهم الله ورسوله على العمل الشريف والكسب الحلال فأبوا إلا أن يحترفوا المسألة، واتخذوا حرفتهم الشحاذة المذلة، فلم تزل المسألة بهم حتى جفَّ ماء الحياء في وجوههم، وصوَّح[1] اللحم في قسماتهم، وهاهم يلقون ربهم وما في وجه أحدهم مزعة لحم.

ولقد أخبرهم رسول الله ﷺ بهذه المصيبة، فقال في الحديث المتفق عليه: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم**»، لكنهم فضَّلوا البطالة البليدة والراحة المتهنة المضيمة حين رأوا أن العمل الشريف يتطلب الهمة والدأب والبكور والنشاط المتوكل على الله، ورأوا نفوسهم تافهة صغيرة وهممهم مهترئة حقيرة، فساقتهم نفوسهم إلى حمأة الشحاذة؛ ليعيشوا كذباب الموائد أو الطفيليات على الدوحة الزكية تمتص عصارتها، وتقضي على نضارتها، ثم لا تلبث أن تورثها تشوهًا وتعفنًا.

حقًّا إن أهل المسألة هم للمجتمع تشويه، وهم للكرامة مسخ، وهم في ميزان التربية نماذج من السلوك المعوج.

إنَّ دين الإسلام يجعل العمل عبادة من أحسن العبادات، فالساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وفي مسند أحمد: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يحب العبد المحترف، ومَن كدَّ على عياله، كان كالمجاهد في سبيل الله ﷻ**».

وفي الحديث الذي رواه الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لا تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَلا الصِّيَامُ وَلا الْحَجُّ وَلا الْعُمْرَةُ**»، قَالُوا: فَمَا يُكَفِّرُهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْهُمُومُ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ**».

ولا غرو؛ فإن أروع المثل العليا في الرحمة والإيثار والإنسانية أن يخرج العبد مقتحمًا موجات الحر والقر في ظلمات الليالي أو ساعات الهجير الحارة، وقلبه ممتلئ همًّا ليعف زوجه أو والديه أو أطفاله عن مسألة الناس، وليسعدهم بنوم هانئ في فرشهم الدفيئة، وهو يرى

(١) صوَّح: يبس حتى تشقق.

تعبه من أجلهم راحة للضمير وعملاً صالحًا يقربه إلى الله زلفى.

إنَّ الإسلام الحنيف جعل من أهدافه السامية صون الكرامة الإنسانية، وهو يرى أن العمل الشريف مهما كان مرهقًا هو أشرف ألف مرة من الوقوف بين يدي عبد وقفة مسألة سواء أعطاه بعدها أو منعه، فما أشرف أن يطلب العبد من المعبود! وما أحقر أن يحتاج العبد للعبد، وإذ ذاك يعطي الذلة!!

إنَّ العمل بالمسحاة وقطع الأخشاب وحمل الحجارة في الشمس الحارة.. كلُّ هذه أشرف من أن يقف العبد وقفة مسألة؛ لأن هذه أمورٌ تثقل الجسد، أما الوقوف الذليل فأمر يرهق الروح والجسد والعقل والقلب، وما أهون متاعب الأجساد إذا أغنت عن أوزار القلوب!!

روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ بايع أصحابه وكانوا في حدود سبعة إلى تسعة، فكان من ضمن ما بايعهم عليه ألا يسألوا الناس شيئًا، فالتزموا بذلك البيع، وحرصوا عليه حتى لقد كان أحدهم يسقط منه سوطه، فينزل عن دابته ولا يطلب من أي من المارة أن يناوله إياه.

لقد أهاب الإسلام برسوله ﷺ أن يدعو أمته إلى العمل، فأرسلها مدوية يقول فيها لعباده: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وما أشرف العمل حين تعمله، والله ﷻ يرقبه هو ورسوله والمؤمنون.

لقد كان داود نبي الله عليه السلام حدادًا يأكل قوته من صهر الحديد وعمل السابغات والجفان، وكان زكريا عليه السلام نجارًا، وهي حرفة يتردد بعض أبناء الأسر في احترافها، وكان نوح عليه السلام نجارًا أيضًا، وكان إدريس عليه السلام خياطًا، وكان محمد -عليه الصلاة والسلام- راعي غنم، ثم أجيرًا ثم تاجرًا، وكان عثمان رضي الله عنه تاجرًا، وكان علي رضي الله عنه يأكل من كدِّ يده عاملاً.

وعلى الجملة؛ فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ ذوي حرف، حتى إن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان جزارًا.

ومن آداب السعي في الرزق أن يتقرب العبد إلى الله، ويتعبد به له، وينوي أن يستعين بكسبه على طاعة الله والإنفاق في الصالحات، قال -عليه الصلاة والسلام- فيما رواه

الطبراني: «**طلب الحلال فريضة بعد الفريضة**».

ومن آداب كسب المعيشة أن يطلب بعزة نفس وإجمال في الطلب؛ ففي الحديث الذي رواه البزار والحاكم: «**اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله؛ فإن ما عند الله لا يدرك إلا بطاعته**».

ومن آداب الكسب ألا يحقر المؤمن مهنته، بل يتقرب إلى الله بالإخلاص فيها؛ لأن كل المهن شريفة، ويحتاج إليها المجتمع المسلم، ولقد كان رسول الله ﷺ يحب اليد التي اخشوشنت من العمل، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَن أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا ذنبه**».

وقرأنا في السيرة أن رسول الله ﷺ التقى بسعد بن معاذ سيد الأوس ﷺ، وكان -عليه الصلاة والسلام- يحبه؛ لأنه من مؤسسي الإسلام بالمدينة، فمدَّ رسول الله ﷺ يده إلى سعد يريد أن يصافحه، فلاحظ أنه يستر عنه يديه فقال: «**ما شأنك؟**» فقال: كرهت أن أؤذيك بخشونتها، نحن أهل نخل وفلاحة تتشقق أيدينا وتخشن، فأمسك رسول الله ﷺ بيدي سعد ابن معاذ ذلك الصحابي العامل وقبَّل راحتيها، وهو يقول: «**هذه يد يحبها الله ورسوله**»، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الديلمي: «**إنَّ الله تعالى يحبُّ أن يرى عبده تعبًا في طلب الحلال**».

ومن آداب السعي التبكير إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا صليتم الفجر؛ فلا تناموا عن طلب أرزاقكم**»، ويقول: «**باكروا في طلب الرزق والحوائج؛ فإن الغدو بركة ونجاح**».

هذا، ولعل أشرف الكسب في نظر الإسلام هو عمل العامل بيده؛ لأن العمال في الأمة هم طاقتها البناءة، يقول الرسول الكريم ﷺ: «**أفضل الكسب بيع مبرور وعمل الرجل بيده**»، ويقول فيما رواه الإمام أحمد: «**خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ**».

ومن آداب الكسب أن يتحرى فيه الحلال، وألا يخالطه السحت، قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري: «**أشدُّ الناس حسرة يوم القيامة: رجل كسب مالاً من غير حله، فدخل به النار**»، وقال فيما رواه أبو داود: «**لا يعجبنك امرؤ كسب مالاً من حرام؛ فإنه إن أنفقه وتصدق**

**به لم يقبل منه، وإن تركه لم يبارك له فيه، وإن بقي منه شيء كان زاده إلى النار».**

وفي سنن ابن ماجه حادثة طريفة تدلُّ على حرص النبي ﷺ على العمل لضمان الكرامة، فقد جاء إلى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار يطلب منه صدقة فقال: «**أما في بيتك شيءٌ؟**» قال: بلى حِلْسٌ[1] نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء. قال: «**ائتني بهما**»، فأتاه بهما فأخذها رسول الله ﷺ، ثم قال: «**من يشتري هذين؟**» فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: «**من يزيد على درهم؟**» يعيدها مرتين أو ثلاثًا، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشتر بأحدهما طعامًا، فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُومًا** (أي: فأسًا صغيرة لقطع الخشب) **فأتني به**»، ففعل فأخذه رسول الله ﷺ فشدَّ فيه عودًا (أي: ركَّب له عصًا) وقال: «**احتطب ولا أراك خمسة عشر يومًا**»، فجعل يحتطب ويبيع، فرجع وقد أصاب عشرة دراهم.

والمهم أنه حل قضية الرجل بأن دله على حرفة شريفة، ثم قال له: «**هذا خيرٌ لك من أن تجيء والمسألة نُكتةٌ في وجهك يوم القيامة**».

## فضل الإنفاق في سبيل الله

إنَّ من أجمل الصفات التي نناجي ربنا ﷻ بها صفة الكريم، فأكثر ما يردد المرء من صفات الله إذا قام أو قعد أو توجه إلى عمله أو توجه لنيته أن يهتف بهذا الاسم الحلو الذي يملأ القلب المؤمن بالأمل والتفاؤل (يا كريم)، ولهذا فالنفس الإنسانية تهش للكرم وتحب من يولي الجميل ويسدي صنائع المعروف، بينما تبغض البخيل المنتن الذي يعيش حياته فقيرًا وهو من أصحاب الملايين، وشقيًا ومن حوله وسائل السعادة.

الكرم من صفات الله تعالى، وصفات الله -تعالى- نوعان: نوع يحب ربنا أن يتحلى به كالرحمة والكرم والعفو والمغفرة والحلم والرأفة، ولا بأس أن يسمِّي المسلم ابنه كريمًا أو حليمًا أو رءوفًا، فقد وصف الله نبيَّه ﷺ بأنه رءوف رحيم.

---

(١) الحِلسُ: نوع من الفراش، وهو كساء رقيق يوضع تحت برذعة الدابة لكي لا تؤذي ظهرها.

أما النوع الثاني من صفات الله، فما يجوز للعبد أن يتسمَّى بها أو ينازع الله فيها كالمهيمن والجبار والمتكبر والمصور والقدوس والخالق وعلام الغيوب.

إنَّ الكرم من الصفات التي ارتضاها ربنا لنفسه ولعباده، فالله ﷻ كريمٌ يحب الكرم والكرماء، ولو تصورت الكرم إنسانًا ما تصورت إلا أجمل صورة في الدنيا وسامةً وطيبًا ووضاءةً وسحرًا وحبًّا وإعزازًا، ولو أردت أن أرسم للبخل صورة لاستحضرت أشد الصور قبحًا ونتنًا ووحشيةً وكراهيةً ونجاسةً.

وما أجمل قول رسول الله ﷺ: «إن الله جوادٌ يحب الجود»، وجميل قول أبي الطيب:

وَكُلُّ اِمرِئٍ يولي الجَميلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكانٍ يُنبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

ومن الشعر الصادق قوله:

فَأَحسَنُ وَجهٍ في الوَرى وَجهُ مُحسِنٍ وَأَيمَنُ كَفٍّ فيهِمُ كَفُّ مُنعِمِ

وأجمل ما يكون الكرم إذا اقترن بالبشاشة وحب الخير والترحيب بالضيف، كما أن أقبح ما يكون البخل إذا اقترن باللؤم وجمود الشعور وسقوط المروءة، وقد رسم أحد الشعراء صورة حسية للبخيل وهو يختلق أعذارًا كريهة لبخله، فشبَّهه برجل شديد السواد له عينان شديدتا الزرقة:

وَلِلبَخيلِ عَلى أَموالِهِ عِلَلٌ زُرقُ العُيونِ عَلَيها أَوجُهٌ سودُ

ولقد قرأنا من صفات رسول الله ﷺ أنه كان أعظم الناس كرمًا، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ»، أي: لا يجوز للضيف أن يطيل الإقامة عند مضيفه إلى أن يضيق عليه، وفي سنن أبي داود وابن ماجه: «لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَصْبَحَ بِفِنَائِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ دَيْنٌ، إِنْ شَاءَ اقْتَضَى، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ»، وفي سنن أبي داود: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ الضَّيْفُ مَحْرُومًا، فَإِنَّ نَصْرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقِرَى لَيْلَةٍ مِنْ زَرْعِهِ وَمَالِهِ»، وللأصبهاني: «الملائكة تصلي على أحدكم مادامت مائدته موضوعة»، وفي مسند أحمد: «لا خير فيمن لا يضيف».

والحقُّ أن حرص الإسلام على الإنفاق في طرق الخير هو أمر يدهش العقول، وقد قرأنا في الصحيحين والسُّنن حديثًا طويلاً وددت لو يقرأه كل موسر وذي نعم؛ لأنه مروِّع حقًّا لكل من يبخل بحق الله في ماله، يقول من ضمنه رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

وفي رواية في الصحيحين: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ (يَعْنِي: شِدْقَيْهِ) ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»، ثُمَّ تَلاَ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وإنه لمن أغرب الغرائب في هذه الأيام أن تقوم مسابقة جادة وخطيرة في مجال التبرع والكرم والتضحية بالمال بين الغرب واليهود.

العرب المسلمون أساس الكرم وخير أمة أخرجت للناس والأمة الوسط التي تشهد على الناس يوم القيامة، تدخل في منافسة وسباق في التضحيات يهتف بها دين الإسلام وشرف المقدسات وشعب غصب المجرمون بيوته وأمواله، والطرف الثاني في السباق شعب وصفه الله بالحقارة وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ولعنهم على ألسنة أنبيائهم، احترفوا الربا واشتهروا بالبخل وقتل الأنبياء والصالحين، يناصرون طغمة من المجرمين اغتصبوا الديار، ومسحوا التراث والآثار، وعاثوا في مساجد الإسلام يهدمونها، ثم تكون نتيجة السباق أن يبعث اليهود إلى دولتهم الظالمة بآلاف الملايين، ثم يتمخض حَمْلُنا عن دراهم متبوعة بمَنٍّ وأذى ترسل إلى الفدائيين تارة وتمنع تارة.

إنه أمر لا يقبله العقل أن يستجيب لنداء الباطل صنَّاع الفساد وتجار الأعراض، وأن يصم أحفاد الغر الميامين آذانهم عن هتاف سلفهم وداعي شرفهم، يذهب الجاني اليهودي إلى تاجر صهيوني في أصقاع الدنيا، فيقول له التاجر: اطلب ما تشاء فداءً لدولة إسرائيل التي أعدَّها رمز الدين اليهودي، ويقصد جامع التبرعات المسلم تاجرًا عربيًّا مسلمًا ليكسو أخاه في

برد المخيم أو يسلح أخاه في القمم الوعرة، فيمتقع لون التاجر الغني ويتململ حتى يخشى عليه الإغماء، وتدور عيناه كالذي يغشى عليه من الموت ثم يسرع في شكوى من كساد الأحوال واختفاء المال وجمود الأسواق وانقطاع الأرزاق، فيعود من عنده وهو يتوقع أن يرى عددًا من كبار التجار يشحذون على أبواب الديار.

يا للعجب أتباع أجل دين يحث على الكرم تجف وجوههم وأيديهم غداة المروءات وشرف التضحيات وأحفاد شيلوك من عبَّاد المال يجندون كل أموالهم ليدعموا اغتصابهم وباطلهم وعدوانهم وجرائمهم في ديارنا.

اللهم إنا نعوذ بك من زيغ العقول وسيطرة الهوى وغرور الدنيا، اللهم كما أكرمتنا بالإسلام فأكرمنا بأخلاق المسلم، وكما هديتنا للإيمان فامنحنا نوره وهدايته.

## السعي إلى طلب الرزق من طرقه المشروعة

اعترضني ذات يوم في السوق شابٌّ جلد مفتول الذراعين، وحكى لي قصة محبوكة خلاصتها أنه غريب وابن سبيل، وأنه ضاعت دراهمه فاحتاج أجرة الطريق، وطلب مني صدقة ليتمكن من العودة إلى بلده.

ولم أجاوزه إلا بخطوات وإذا شيخ طاعن في السن قد بسط على الأرض بساطين صغيرين جلس على أحدهما وعرض على الثاني ليمونًا للبيع وهو ينادي بصوت قد نالت منه السنون: الليمون جديد.. الليمون طيب، والناس يمرون به فمن مشترٍ ومن مساوم، وهو جاد في إعفاف نفسه وعياله عن سؤال الناس، والله ﷻ لا يضيع عمل عامل.

ومضيت عن المشهدين أفكر في الشاب القاعد السائل، وفي الشيخ النشيط العفيف العامل، كيف أحال الأول شبابه وقوته هوانًا ومذلةً وقعودًا ومسألةً، وكيف أحال الشيخ ضعفه وشيخوخته عملاً وإنتاجًا وسعيًا شريفًا وتوكلا منتجًا.

لقد سقى الأول مجتمعه بكسله كأس الهوان، وأنهل الثاني مجتمعه عصر القوة والحياة،

لقد جمع السعي والتوكل فنفع وانتفع في حين جمع الأول الكسل المحتال فتعس وانتكس.

تذكرت حينئذٍ موقف الإسلام الحنيف من السعي في طلب الرزق الحلال وما أعده للساعي على عياله من الكرامة وخصوصًا إذا كان في عائلته والدان ضعيفان أو أرملةٌ أو مسكين أو بنات أو أطفال.. تذكرت احترام الإسلام للعمل المنتج واحتقاره للكسل المتهالك، فأكدت حكمة الحكيم العليم الذي نادى في عباده في محكم كتابه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].. وتذكرت عظمة الإسلام الذي أبى على المسلم المسألة، وجعل أشرف كسب الرجل من عمل يده الذي يعف به نفسه ويصون كرامته عن تفضل العبيد.

**وقد رأيت أن أوجه إلى رجال الأعمال وعمار الأسواق وأصحاب المؤسسات ليلتزموا بهذه الآداب حتى يزكوا كسبهم ويطيب ممشاهم ويرضى ربهم:**

**أولاً**: المهارة في العمل وإتقانه شرف سواء أكان صناعة أو زراعة أو تجارة أو إدارة أعمال، فالله -تعالى- يحب إذا عمل العبد عملاً أن يتقنه، ولقد كان المهاجرون مع رسول الله ﷺ إلى المدينة تجارًا بارعين، فلم يلبثوا حتى عركوا السوق، وخاضوا ميادين العمل، فتفوقوا على كثير من إخوانهم الأنصار، ولقد قال أحدهما وهو عبد الرحمن بن عوف ؓ يصف مقدار ما فتح الله عليه من مهارة في السعي: لو رفعت حجرًا عن الأرض لظننت أن أجد تحته ذهبًا.

وكان سعد بن أبي وقاص ؓ ماهرًا جدًّا في صنع النبال وبريها، فأقبل أهل المدينة على نباله يفضلونها، وجمع إلى صنعته تلك تجارة، فكان من كبار أغنياء الصحابة.

وكان عثمان بن عفان ؓ تاجرًا ماهرًا موفقًا يعرف متى يشتري ومتى يبيع، ويعرف السلع الرائجة، فأكل مالاً حلالاً مباركًا.

وكذلك كان طلحة والزبير -رضي الله عنهما- من كبار الموسرين، ومن قبلهما كان أبو بكر ؓ متقنًا لتجارة البز (الملابس).

وكان عمر ؓ ذا صوت جهوري استغله في الدلالة، فكان ميسور الحال، وكان يعجب بصاحب الحرفة، ويحتقر من لا عمل له، ولا غرو فقد عرف ؓ موقف رسول الله ﷺ من العمل والاحتراف؛ حيث قال -عليه الصلاة والسلام: «**من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له**»، وقال: «**إنَّ الله يحبُّ العبد المحترف**».

ولقد كانت غالبية العشرة المبشرين بالجنة -رضوان الله عليهم- من الأغنياء، وقد نصروا الدعوة بأموالهم وأنفسهم، وأثبتوا للدنيا أن دين الإسلام دين القوة والعمل والسعي مصداقًا لقول نبيِّهم ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

وكان كثير من قادة المسلمين محترفين، فقد كان عمرو بن العاص ﷺ جزارًا، غير أننا يجب ألا ننسى أن رسول الله ﷺ كان راعي غنم ثم تاجرًا، وهو القدوة للأمة كلها، وكان كثير من الأنبياء لهم حرف معروفة كإدريس وزكريا وداود ويوسف -عليهم السلام.

**ثانيًا**: من آداب السعي إلى الرزق البكور؛ لأن وقت الصباح من أمتع الأوقات وأجملها وأبعثها للنشاط، وقد دعا رسول الله ﷺ أن يبارك الله لأمته في بكورها، وفي الأثر: «**باكروا الغدو في طلب الرزق، فإن الغدو بركة ونجاح**»، وفي مسند أحمد: «**نوم الصُّبحة يمنع الرزق**»، وفي «سنن البيهقي» أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: «**يا بنية، قومي اشهدي رزق ربك، ولا تكوني من الغافلين؛ فإن الله ﷻ يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس**»، وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن النوم قبل طلوع الشمس.

ومن المؤسف أن هذا الأمر شاع في الناس وكثيرًا ما ضيعت نومة الصبح المواعيد وفرص الرزق، وما أجمل أن يبكر الشباب المسلم إلى العمل وإلى الجهاد وإلى كل أنواع النشاط؛ ليبارك الله قوته وصحته.

ولقد قرأت أن غاز الأوزون وهو غاز يغلف الجو ويصدُّ الله ﷻ به الإشعاعات الضارة عن الأرض، وقرأت أن استنشاق هذا الغاز شفاء بإذن الله للصدر، وأن هذا الغاز ينزل إلى الأرض في الفترة من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، فإذا أحس بحرِّ الشمس صعد إلى أعالي الجو، وقرأت للأسف أن هذا الغاز يستفيد منه غير المسلمين أكثر من المسلمين؛ لأن معظم الغربيين يقومون إلى أعمالهم وممارسة رياضاتهم قبل طلوع الشمس، بينما الكثير من المسلمين ينامون عن صلاتهم إلى ما بعد ارتفاع الشمس، من أجل ذلك كانت صلاة الفجر بركةً وصحةً ورزقًا وثوابًا عظيمًا، وكان مضيعها فاقدًا لكل هذه المواهب الإلهية.

**ثالثًا**: من آداب السعي في طلب الرزق ألا يلهيه عن ذكر الله وعن الصلوات وعمارة المساجد، فقد وصف الحق -جلَّ وعلا- رجال الأعمال الصالحين بقوله: ﴿**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ**

تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وفي الحديث الشريف: «ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى».

ومن آداب السعي ألا تغرق في تحقيق شهوات البطن والفرج ولو امتلأت خزائنك، حتى لا تكون ممن تخاطبهم الملائكة وهم يُعرضون على النار كما ذكر القرآن الكريم بقولهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ولقد كان سلفنا ﷺ لا يسرفون في الشهوات على غناهم؛ فقد روي أن السيدة عائشة - رضي الله عنها- وزَّعت سبعين ألف درهم وهي ترقع ثوبها، ونسيت أن تبقي لنفسها ما تشتري به عشاء.

ومن آداب الكسب ألا يستعبد المال صاحبه، فيصبح المال أكبر هم المرء ومبلغ علمه ومولاه دون ربه، ولقد دعا رسول الله ﷺ على من يستعبده المال فقال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ»، يدعو عليه إذا دخلت جسمه شوكة ألا يستطيع انتقاشها، أي: إخراجها.

ومن آداب السعي أن يطلب الرزق بعزة نفس ودون تذلل؛ لأن الأمور تجري بمقادير، وكذلك من آداب الكسب ألا يقترن بالحرص اللئيم والشح المطاع؛ لأن الله كريم يحب الكريم، ويخلف عليه ما جاء به، وقد جاء من حديث رواه الإمام أحمد: «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى، وَلاَ آبَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا مَالاً تَلَفًا».

ومن آداب الساعي أن يحاول جهده ألا تدخل بطون آل بيته وإخوانه أي سحت، وأن يجعل طعمته حلالاً؛ ليحبه الله ويستجيب دعاءه، وعليه أن يحوِّل كل درهم يكتسبه إلى حسنات تقربه إلى الله، وذلك أمر يسير على من يسره الله له، فمن أصحاب الأموال الطائلة من يصل بماله وإنفاقه إلى أعلى الدرجات، كما فعل عثمان بن عفان ﷺ حين جهَّز جيش المسلمين في غزوة تبوك، يقول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ

الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[النور: ٣٦- ٣٨].

## روح التكافل والتلاحم في المجتمع المسلم

من أجمل آداب المجتمع المسلم روح التكافل التي تنتظم كلَّ أفراده، فترى كل مؤمن يحسُّ كأنه كافل لأخيه متضامن معه في سرائه وضرائه وفي سلمه وحربه وفي أمنه وخوفه، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»، وهذا الحديث يشتمل على تصوير رائع الإبداع لا يحتاج إلى شرح ولا إيضاح.

وانظر هنا إلى الصورة المتألقة البلاغة في تصوير التكافل في أمة محمد ﷺ؛ حيث يقول -عليه الصلاة والسلام- في الحديث المتفق عليه: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه ليمثل لأمته كيف يكون التلاحم في المجتمع المسلم.

ويؤكد الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- حقيقة التكافل الممزوج بالحب والإيثار، فيقول في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

ويتجلى تكافل الأمة الإسلامية في مظاهر تبهج النفس المؤمنة وتسر القلوب والعيون حين ترى تناصح الأمة في كل ميادين الخير، وترى تعاونها على البر والتقوى كما ترى كرمًا وتضحيةً وإيثارًا يستحيل أن تراها في أي مجتمع آخر، مصداقًا لقول الحق -جلَّ وعلا- يصف الأنصار -رضوان الله عليهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن نتكافل في سياستنا، فنسالم من يسالم الإسلام، ونعادي من يعاديه، وأن يصدر حكام المسلمين في كل أرجاء الدنيا عن سياسة واحدة هي أن كل عدو

يقاتل المسلمين في دينهم، ويخرجهم من ديارهم، ويظاهر على إخراجهم -لا يجوز أن يؤمن شره، ولا أن يتخذ صديقًا أو وليًّا، بل لا بدَّ من قتال هذا العدو حتى يكف عن الكيد للمسلمين. إنَّ أي عدو يعلن حربًا على أي دولة إسلامية يصبح عدوًّا لكل مسلم، ويحوِّل الجهاد من فرض كفاية إلى فرض عين.

إنَّ أمة الإسلام أمة صادقة الوحدة عظيمة التضامن، والمسلمون جميعًا كما وصفهم نبيُّهم ﷺ تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، فقد قرأنا أن أم هانئ بنت أبي طالب -رضي الله عنها- أجارت مشركًا يوم الفتح، فمر أحد الجنود المسلمين وأراد أن يقتل المشرك، فقالت له أم هانئ: هو في ذمتي، وقد أجرته، ولما عرض الأمر على رسول الله ﷺ قال: «**لقد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»، ونفَّذ النبي الكريم ﷺ إجارة المرأة المسلمة؛ لأن المجتمع المسلم كله متكافل.

وكما يتكافل المجتمع المسلم في سياسته يتكافل في الدفاع عن حوزته، وتتحول كل الجيوش الإسلامية في الشدائد إلى جيش واحد يقاتل كله لحماية حِمى الإسلام، ولتكون كلمة الله هي العليا.

لقد كان أعداء الإسلام عبر التاريخ يهاجمون الإسلام وديار المسلمين على حين غرة منهم، كما حدث في الهجمتين المغولية والصليبية وفي العدوان الاستعماري وفي الهجمة الصهيونية اللئيمة، لكن أمة الإسلام تصحو من الغفلة وتنتبه من الغرة، وإذا العدو الذي ظنَّ ظن السوء يرى كيده مرتدًا في نحره وتدبيره تدميرًا عليه.

انقسم المسلمون إبان هجمة المغول إلى سنيين يتزعمهم الخليفة العباسي، وإلى شيعة يؤلبهم الوزير ابن العلقمي، وخان الوزير الخليفة فتسبب في مصرعه، ودخل المغول من ثغرة الانقسام فدمروا الحضارة الإسلامية، وأحرقوا كتب العلم، ومارسوا ألوان القتل، لكن هاتفًا من ضمير الزمن ومن حجب الغيب ظلَّ يهتف بأمة محمد ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وإذا التفرق بأمر الله وحدة، وإذا غطرسة المغول وجموعهم وجيوشهم الجرارة تتحطم كلها على صخرة عين جالوت، وإذا هتاف الحق المنتصر يصم آذان المغول وهو يشعل العزيمة المؤمنة بهتافه القوي: (وإسلاماه)، وقبيل ذلك انتهز الصليبيون انقسام الدولة الإسلامية إلى مقاطعات ودويلات، فانهالوا على أمة الإسلام كالسيل الجارف، وأعملوا السيوف في الرقاب حتى سال المسجد الأقصى بدماء المسلمين، لكن روح التكافل في أمة محمد ﷺ لم يزل يرفع

معنوياتها بعماد الدين، وينور طريقها بنور الدين، ويصلح شأنها بصلاح الدين، وإذا غطرسة الفرنجة تطير هباء في حطين، وتصير سرابًا في ميناء عكا، وإذا الكفر يولي مطأطئًا ومن ورائه تناصر المسلمين يطيح به إلى الأبد.

واليوم جاء دور اليهود وتألق الإعجاز النبوي الذي بشَّرنا أن كيدهم ولؤمهم ودولتهم ستتحطم كلها على عزائمنا وتطيح على سيوفنا، ويحاولون الاختباء فلا تواريهم أرض ولا جبل، وتتبرأ من نتنهم ورجسهم الأحجار والأشجار، فتدلُّ المسلمين على مخابئهم؛ ليريحوا الدنيا من خستهم ومكرهم ودسائسهم.

وكما يتكافل المسلمون في الحرب والسياسة يتكافلون أيضًا في الرزق والاقتصاد والرخاء والسلام، فلا ترى في المجتمع المسلم شقيًا ولا محرومًا، بل تراهم في ظلال الرخاء هانئين وتحت أعلام السعادة إخوانًا متكافلين متكاتفين، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ وهو يحث على الإيثار والكرم والأخلاق في الحديث المتفق عليه: «**طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة**»، وفي رواية لمسلم: «**طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية**».

لقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن نعود بما يزيد من أرزاقنا على إخواننا المحتاجين، فقال فيما رواه مسلم: «**من كان عنده فضل زاد؛ فليعد به على من لا زاد له، ومن كان عنده فضل ظهر؛ فليعد به على من لا ظهر له**»، ثم ما زال يذكر من أصناف المال حتى ظنَّ الصحابة أنه لا حق لأحد أن يمسك الزيادة في الشدائد، وفي الحديث المتفق عليه يقول رسول الله ﷺ في الحث على التكافل: «**من مات وعليه صوم؛ فليصم عنه وليه**»، ومرَّ رسول الله ﷺ على عليٍّ ﷺ وهو يدعو لنفسه ويقول: اللهم ارحمني، فضرب بيده المباركة بين منكبي علي وقال: «**أعمم ولا تخص؛ فإنَّ بين الخصوص والعموم كما بين السماء والأرض**».

**وبعد**، فإن الهزائم التي تلاحقنا في هذه الأيام إنما حاقت بنا؛ لأن روح التكافل زالت من سياستنا ومن جيوشنا ومن اقتصادنا، فرب عدوٍّ كافر يعتدي على ساحة الإسلام وله من المسلمين أنصار وأعوان، ورب بلد إسلامي جائع وإخوانه المسلمين ينفقون أموالهم على إبليس، ولو أن المسلمين كانوا يدًا واحدة على من سواهم لما استطاع العدو أن ينال منهم نيلاً،

ولكنا -نحن المسلمين- في هذه الأيام ينطبق علينا قول الشاعر:

وأعــرق خلــق الله في الـــذل أمـــةٌ تُضـام ومنهــا للـــذي ضـامها جنــد

## فضل العطف على الفقراء والضعفاء

من الناس من إذا رأى بائسًا فقيرًا قابله بالاشمئزاز ونظر إليه في ازدراء وأوعز إلى حشمه وتابعيه أن يطردوه بأي وسيلة، ومن الناس من يعامل الناس على حسب تقواهم، فيحترم كل تقي ولو لم يملك من حطام الدنيا شيئًا، ويحتقر كل كفور ظالم ولو ملك كنوز قارون.

رُبَّ فقير تدفعه عن بابك وتطرده من أعتابك يكون يوم القيامة من أهل الشفاعة عند الله، ورُبَّ غني تضيق الخزائن بأمواله لا يقام له يوم القيامة وزن، وتراه يكبُّ على وجهه في جهنم في زمرة إمامه قارون.

ولقد كان رسول الله ﷺ يستنزل من عند الله نصره ببركة المؤمنين الضعفاء، ويقول لأصحابه: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟!» نعم فلرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره، ولرب مترف يتمرغ في حلل الاستبراق لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة ازدراءً لشأنه واحتقارًا لحطامه.

نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير ﷺ مقبلاً لابسًا جلد كبش لشدة فقره، فقال رسول الله ﷺ: «هذا رجلٌ أحب الله ورسوله»، وذكر من حوله من أصحابه ﷺ بما كان يتنعم به مصعب ﷺ من حلل وعطور، وكيف ضحَّى ذلك الصحابي الجليل بكل الأموال والمتع في مرضاة ربه ونصرة رسوله، لقد كان جلد الكبش أحب إلى الله ورسوله من آلاف الحلل؛ لأن الله ﷻ لا ينظر إلى الصور والمظاهر، لكنه ينظر إلى القلوب والأعمال.

لقد كانت بعثة محمد ﷺ وجميع الرسل من قبله بشرى للمستضعفين بالنصر وللظالمين بالدمار، يقول ربنا ﷻ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

لقد كان رسول الله ﷺ صدرًا حنونًا لجميع الفقراء والضعفاء والأرامل والأيتام والشيوخ والعجائز، وما أجمل ما عبر عنه أمير الشعراء -رحمه الله- وهو يذكر هذه الحقيقة:

أَنصَفتَ أَهلَ الفَقرِ مِن أَهلِ الغِنى ... فَالكُلُّ في حَقِّ الحَياةِ سَواءُ
فَلَوَ أَنَّ إِنسانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً ... ما اِختارَ إِلّا دينَكَ الفُقَراءُ

روى البخاري ومسلم في صحيحيها أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره**» (ولا يقصد رسول الله ﷺ أن يذل لأعداء الله فقد يكون على ضعفه أسدًا كاسرًا على الظالمين)، ثم أضاف -عليه الصلاة والسلام- قائلاً: «**ألا أخبركم بأهل النار كل عتل[1] جواظ[2] مستكبر**».

وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**».

وفي الحديث المتفق عليه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، فافتقدها رسول الله ﷺ، فقالوا: ماتت (ويبدو أن الصحابة لم يرو موت امرأة أمة سوداء يستحق أن يخبروا به رسول الله ﷺ)، فلما أخبروه بموتها قال: «**أفلا كنتم آذنتموني**» (أي: أخبرتموني بموتها)، وقال: «**دلوني على قبرها**»، فدلوه عليه.

وقد أوصى ربنا ﷻ بالضعفاء فقال: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ**﴾ [الضحى: ٩، ١٠]، ووصف الكافر أنه يهين اليتيم ويدفعه بيديه ليبعده عن مجلسه وبيته، فقال ﷻ: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**﴾ [الماعون: ١، ٢].

وفي صحيح مسلم أن كبار الكفار من قريش طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطرد الفقراء المستضعفين من مجلسه خشية أن يؤذوا المشركين بمنظرهم، فنزل قوله -تعالى: ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) العتل: أي الغليظ الذي لا يألف ولا يؤلف.
(٢) الجواظ: الجشع البخيل.

وروى الإمام مسلم -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ أشار بالسبابة والوسطى، وقال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**»، وفي رواية: «**كالقائم الذي لا يفتر، والصائم الذي لا يفطر**».

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه رجلٌ يبدو عليه أثر الغنى والنعيم، فسأل -عليه الصلاة والسلام- رجلاً جالسًا عنده: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: هذا رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن يزوج، وإن شفع أن يشفع. فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرَّ رجل آخر، فقال رسول الله ﷺ لجليسه: «**هل تعرف هذا؟**» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوصي بالبنات: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن كن له سترًا من النار**».

وللقزويني أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلك على أفضل الصدقة؟ ابنتك مردودة إليك** (أي: تركها زوجها فعادت إلى والديها) **ليس لها كاسب سواك**».

وروى الترمذي وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن؛ فله الجنة**».

وأشاد رسول الله ﷺ بالأرملة تتخصص في تربية أولادها، فيبدو أثر التعب في وجهها وصحتها، فقال ﷺ: «**أنا وامرأة سعفاء[1] الخدين آمت زوجًا، فحبست نفسها على يتاماها، أنا وإياها في الجنة كهاتين، وأومأ بالوسطى والسبابة**».

وفي مسند أحمد أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له -عليه الصلاة والسلام: «**امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**».

ولقد كان رسول الله ﷺ عظيم العطف على الأيتام يقدر ما فقدوه من عطف أحب

---

(١) أي: لوحت الشمس خديها لكثرة ما تشتغل.

الناس إليهم، وكان يكثر أن يمسح على وجه اليتيم ويجامله، ورأته عائشة يومًا يرفع طفلاً ويمسح وجهه بيده ووجهه مترب، فقالت له: يا رسول الله، تفعل هذا لطفل مترب الوجه، فقال لها: «**يا عائشة، إنه يتيم، إنه يتيم**»، وجاء في «المعجم الأوسط» للطبراني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه**»، وللترمذي من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَبَضَ يَتِيمًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ** (أي: ضمه إلى أولاده ليأكل) **أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ الْبَتَّةَ إِلاَّ أَنْ يَعْمَلَ ذَنْبًا لاَ يُغْفَرُ لَهُ**».

## أهــل المعـــــــروف

من آداب المؤمن أنك لا تراه إلا في محيط المعروف وفي آفاق الإحسان، فهو على كافة أحواله من مفاتيح الخير ومن مغالق الشر، إذا تكلم شفع، وإذا علا قدره نفع، ترى لسانه كأنه نظائم الدرر، وترى يديه كأنها سواكب المطر، ثم هو أبدًا بشوش وصول للأرحام، تجارته الكلام الطيب، وطموحه العمل الصالح، إنَّ أيسر وسعك بمعروفه ماله، وإن أعسر أرضاك بعذوبة روحه، كأنما عناه رسول الله ﷺ قال: «**طوبى لعبدٍ جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر**».

كأني بهذا المؤمن المحسن الجميل وقد ساد في ساحة القيامة جميل القسمات، كما كان في الدنيا والناس يأخذون بحجزته، ويطلبون معروفه فيشفع بأمر الله، ويقضي الحوائج برضاء الله، ولا غرو فقد قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأول من يدخل الجنة هم أهل المعروف**».

مثل هذا المؤمن تجده كريمًا على الله يربأ الله ﷻ بوجهه المتألق أن يهان؛ لأنه كان في الدنيا يربأ بوجوه الفقراء أن يذلها الخيبة، بل كان قاصدوه يخرجون من رحابه مجبورة خواطرهم متألقة قسماتهم مقضية حوائجهم، فلا عجب إذا جبر الله في القيامة خاطره، ونوَّر قسماته، وقضى حوائجه؛ إذ الجزاء عنده ﷻ من جنس العمل.

جاء في الحديث الشريف الذي ذكره الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**أكرم الناس على**

**الله رجل نظر إلى امرئ هو دونه فقضى حاجته**»، وفي سنن أبي داود وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا أَقَالَهُ اللهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

إنَّ كلمة المعروف كلمة تحبها النفوس وتعشقها القلوب، فالمعروف هو ما تعارفت القلوب المؤمنة على حسنه وجماله ومنفعته، والمنكر هو ما أنكرته القلوب المؤمنة لرداءته ومضرته، ومن أجل ذلك فإن الله لا يضيِّع من المعروف شيئًا.

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»، وفي مسند أحمد «**إن من المعروف أن تفرغ دلوك في إناء أخيك**».

هذا والمعروف مقبول ومحترم عند الله حتى ولو صنعته إلى غني أو فاجر، فقد جاء في مسند الربيع أن رسول الله ﷺ قال: «**رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع الخير إلى كل برٍّ وفاجر**»، ومن ثم فالمؤمن يحرص كل الحرص ألا يضيع فرصة سانحة للمعروف، وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن فُتح له باب خير فلينتهزه؛ فإنه لا يدري متى يغلق عنه**».

هذا، ومن أجل أنواع الشفاعة هو الشفاعة عند سلطان يصعب الوصول إليه، روى البزار أن رسول الله ﷺ قال: «**من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغه ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تزول الأقدام**».

إنَّ الإنسانية كلها عائلة واحدة تكفل الله ﷻ برزقها، والمؤمن حين يسعى في الخير قد ينال خيره العائلة كلها بما فيها من مؤمن وكافر ومن بر وفاجر، والله ربنا لا يضيع عمل عامل، يقول النبي الكريم ﷺ فيما رواه أبو يعلى: «**الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»، وفي مسند أحمد: «**إن الخير لا يأتي إلا بالخير**».

ولقد كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على صنع المعروف، وكان يقول: «**الخير كثير، وقليل فاعله**».

وكان يحثُّ على صنائع المعروف في كلِّ وقت من أوقات العمر، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي والبزار: «**نَامُوا فَإِذَا انْتَبَهْتُمْ فَأَحْسِنُوا**»، ومعنى الحديث مادمتم أيقاظًا، فجندوا أنفسكم للمعروف والإحسان.

هذا، والمؤمن حين تكون عنده زيادة من زاد أو ركائب؛ فإنه لا يحبسها، ولكن يعود بها على من لا ظهر له ومن لا زاد له.

ولعل من أعظم درجات المحسنين ومن أجل مدارج السالكين أن يجهد المؤمن نفسه في حوائج الناس وخدمتهم، روى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله عبادًا اختصهم الناس، يفزع إليهم الناس في حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عذاب الله»**.

ومن أدب المؤمن أنه إذا صنع إليه معروف أن يقول للمحسن: **«جزاك الله خيرًا»**، ففي سنن النسائي والترمذي يقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»**.

ولعل من أجمل الآداب إذا صنع إليك معروف أن تحدِّث عنه وتذكره؛ لأنك إن ذكرته شكرت صاحبه، فكتبك الله من الشاكرين، أما إذا لم تحدِّث عنه وتذكره وتتحدث بنعمة المنعم عندئذ تغفل عن الشكر وتفقد ثواب الشاكرين.

هذا، ومن الناس من إذا صنع معروفًا منَّ واستكبر، بل وإن منهم من يحب أن يمدحه الناس بإحسان لم يفعله، فتراه بخيلاً ويحب أن يقال: جوادًا، وتراه قاعدًا ويحب أن يقال: مجاهدًا، فمثل هذا لا ينجو من عذاب الله يوم القيامة، يقول الله ﷻ: **﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [آل عمران: ١٨٨]، ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الديلمي: **«أشد الناس عذابًا يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيرًا ولا خير فيه»**.

هذا، وقد حبا الله ﷻ صاحب المعروف جمالاً من نوع خاص حتى ولو كان ذا صورة متواضعة، ومن ثم ترى وجهه حسنًا لما فيه من التهلل للمعروف والفرحة بالضيوف، يقول النبي ﷺ: **«التمسوا الخير عند حسان الوجوه»**.

ومن آداب المؤمن إذا لم يؤته الله خيرًا يتصدق به أن يدل على الخير؛ لأن الدال على الخير كفاعله، فإذا سأله سائل مسألة علمية مثلاً وكان لا يعرفها دله على من يعرفها، وإذا سأله من يريد الزواج عن زوجة صالحة دله على أهل الدين، وإذا سئل عن أي خير دلَّ عليه ونصح.

وعلى المؤمن أن يعذر إذا سأل فلم يعط؛ لأن الله هو قاضي الحاجات، وما العبد إلا وسيلة، قال الشيخ محمد بن واسع للأمير مسلم بن قتيبة: إني أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك، فإن أذن الله فيها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن فيها لم تقضها وعذرناك.

وعلى العبد ألا يسأل إلحاحًا وألا يسأل ما لا يستطاع، وأن يدعو صادقًا مخلصًا لمن يساعده ويقضي حوائجه.

## أدب التعامُل مع المال

من آداب المؤمن أن يتعامل مع المال وفقًا للقواعد الكريمة التي أرسى الله عليها بنيان الاقتصاد الإسلامي، وهو اقتصاد -بفضل الله- يخلو من كل سوء أو مفارقة، ويحقق كل عدل وإحسان ومحبة، ويمكن أن يلخص الاقتصاد الإسلامي في ألفاظ قليلة خلاصتها أن يكون الكسب حرًّا على أن يخلو من أي ظلم أو ابتزاز أو كذب أو نصب أو احتيال أو احتكار أو غش، وأن تؤدي من الكسب الحلال كل الحقوق التي فرضها الله في المال، ولهذا يكون المؤمن ملتزمًا بأدب المال الصالح، فلا يكسب إلا حلالاً طيبًا، ولا يقبل المال الخبيث الحرام.

**وهنا بعض آداب كريمة إسلامية يلتزمها المؤمن في كسبه وإنفاقه وتعامله ليطيب بإذن الله كسبه ويبارك سعيه:**

**أولاً:** أن يجتهد في السعي ويعمل بكل جهده ومهارته وإمكاناته لتحصيل المال كي ينفع نفسه ومن يعول؛ لأن اليد العليا خير من اليد السلفى، والمؤمن القوي الغني خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، مع أنه في كلٍّ خيرًا، لكن القوي الغني يستطيع أن يخدم الإسلام والمجتمع الإسلامي والجيش المسلم بقوته وماله، وهذا ما لا يستطيعه الفقير الضعيف، وفي الحديث الصحيح يقول رسول الله ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**».

وقد كره الإسلام للمؤمن المسألة، وحثَّ المسلم على السعي لتحقيق العفاف، ففي الحديث الصحيح: «**من يستغن يغنيه الله، ومن يستعفف يعفه الله**».

والحفاظ على المال من سنن الإسلام؛ «**فمن قتل دون ماله فهو شهيد، كمن قتل دون عرضه ودينه**».

**ثانيًا:** أن يؤدي الحق المعلوم من ماله بإخلاص وطيبة نفس خاليًا من المن والأذى ومن الرياء والسمعة؛ لأن هذا مما يحبط العمل ويعصف بثوابه، ولا يحسبن المؤمن أنه لا حق في ماله إلا الزكاة، فالزكاة هي الحد الأدنى الذي به يعصم المرء دمه، لكن الثابت عند أهل العلم أن في مال المسلم حقوقًا غير الزكاة، فإذا تحقق للحاكم المسلم أن الزكاة لا تكفي لسد حاجات الفقراء جاز له أن يأخذ من أموال الناس ما يكفي لسد حاجات المعوزين وصون وجوههم وكرامتهم.

وهذا هو مفهوم الحديث الذي رواه الطبراني عن عليٍّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إلا إذا جاعوا وعروا مما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله محاسبهم يوم القيامة حسابًا شديدًا، ومعذبهم عذابًا نكرًا**». ومعنى الحديث أن المجتمع المسلم إذا كثر فيه الجياع والعراة والمعوزون؛ فإن هذا لا يحدث إلا بجرائم الأغنياء من ابتزاز وإغراق في الترف وإسراف ينظمهم في سلك الشياطين، وعندئذ يعذبهم الله عذابًا أليمًا، ويحاسبهم حسابًا شديدًا، وفي الحديث الكريم أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس على ذمتي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم**».

يقول ابن حزم في «المحلى»: «إنَّ الله فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إذا لم تكفهم الزكوات، فيقام لهم ما يأكلون من القوت الضروري، ومن اللباس الذي يقيهم البرد والحر، والمسكن الذي يقيهم من المطر والشمس ويسترهم عن عيون المارة.

وقد قرن الله -تعالى- إطعام المسكين وسد جوعته بركن الصلاة، فقال -تعالى: ﴿**إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٤].

وفي سورة البلد ما يوحي أن الله يقيم في القيامة عقبة تحول بين الناس والجنة، فلا يقتحمها إلا كل كريم متصدق رءوف القلب، يعتق الرقاب ويطعم في المجاعات ذوي القربى من الأيتام، ويطعم المساكين الذين تربت وجوههم من الفقر، قال تعالى: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ [البلد: ١١- ١٦].

والإسلام لا يسمح في الشدائد والمآزق والسفر المهلك أن يكون عند المسلم فضل ظهر أي عدة ركائب، وفي السفر من يمشي مجهدًا على قدميه لا ظهر عنده، قال عمر ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء -أي: الزائد منها عن احتياجهم- وقسمتها على فقراء المهاجرين».

وفي حال الضرورات التي تشرف بالمرء على الخطر يجوز للفقير أن يأخذ من الزائد من مال الغني ما يسد ضرورته، بل أن يقاتل إذا منع من ذلك، فإن قتل الفقير الجائع اقتص من الغني، وإذا قتل الغني فإلى لعن الله، والمؤمن حين يحدق الخطر بدينه وحماه يتجلى عطاؤه ومنافسته في ميدان الشرف والجهاد في سبيل الله؛ ففي غزوة العسرة تبرع عثمان ﷺ بثلاثمائة بعير بأحمالها، فابتسم رسول الله ﷺ وهو يقول: «**اللهم لقد أعذر عثمان**».

والمؤمن مطالب أن يبسط يده في الخيرات وصنائع المعروف بالليل والنهار سرًّا وعلانية منتظرًا مثوبة الله العظيمة التي ذكرها في قوله ﷻ: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١].

وحين يدهم العدو الكافر ديار الإسلام ولا يكون في خزينة الدولة ما يكفي لشراء السلاح والعتاد وأقوات الجند، فإن الحاكم المسلم يفرض على الأغنياء ما تحتاج إليه المعركة، ولو استغرقت أموال الأغنياء كلها على ألا يصرف من هذا المال شيء على غير الجهاد.

وحين أراد السلطان قطز -رحمه الله- قتال التتار احتاج إلى الأموال، فأفتى له العلماء ومنهم عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر السنجاري وغيرهما من العلماء بأنه يجوز له أن يجمع من الأغنياء ما يعين على الجهاد وشراء السلاح، على أن يرد أمراء المماليك حلي نسائهم الباهظ الثمن إلى بيت المال، ولا يستعملوا نفوذهم في تخبئة أموالهم، والمؤمن بعد هذا يكرم ضيفه ويفتح بستانه للجائع، ولا يمنع ماعونه (أي: زكاته وعونه)، ويساعد من يعولهم في الزواج ليعفهم ويسعف بماله المشرف على الهلاك.

وعلى الجملة؛ فإن المؤمن حين يكرمه الله بالغنى يحول ماله بركة على المسلمين وإسعادًا لهم وقوة لمجتمعهم وعزًّا وشرفًا ونصرًا للإسلام والمسلمين.

## الزكاة وأهميتها في الإسلام

التربية الإسلامية تقوم على تهذيب غرائز النفس لا على إنكارها وعدم الاعتراف بها، وغريزة حب التملك وحرية التملك يوليها الإسلام عناية عظيمة ويقف منها الموقف الوسط الذي تتميز به الشريعة الإسلامية.

والإسلام يصون الملكية الفردية ويقدسها ويعتبر العدوان عليها جريمة تستحق القصاص، لكنه إلى جانب ذلك يأبى أن يخالط الملكية الفردية سحتٌ أو ربًا أو ابتزاز أو احتكار أو رشوة أو غلول، كما يشترط أن يكون في مال المسلم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم، وقد وصف ربنا ﷻ الزكاة بأنها تربية إسلامية تطهِّر النفس وتزكيها وتسمو بها عن غرائز الحرص والشح والطمع، وهي غرائز يَسفُل معها الإنسان إلى دركات سفلى تجعله متحجر القلب جامد العواطف قبيح الظلم، ولعل هذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

**وهذه بعض أحاديث الأحكام المتعلقة بأهمية الزكاة في الدين الإسلامي والمجتمع المسلم:**

- جاء في الصحيحين والسُّنن من حديث معاذ بن جبل ﷺ حين أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ** (يعني: بتوحيد الله والصلاة)، **فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ** (وفي رواية: ليس بينها) **وَبَيْنَ الله حِجَابٌ**».

- وجاء في الصحيحين والسُّنن وكتب السيرة أنه لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر ما معناه: كيف تقاتل الناس وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، ويقيمون الصلاة، فقال أبو بكر ﷺ: «والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها»، فلما

رأى عمر ﷺ أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال عرف أنه الحق.

وثبت في كتب السيرة أن الصديق ﷺ قاتل مانعي الزكاة واستباح دماءهم وأموالهم حتى ثابوا إلى هذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

- وجاء في جامع الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أديت زكاة مالك؛ فقد أديت ما عليك**».

- وفي الحديث المتفق عليه: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**».

- وفي صحيح مسلم: «**مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لاَ يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلاَّ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ قَطُّ وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَسْتَنُّ عَلَيْهِ بِقَوَائِمِهَا وَأَخْفَافِهَا وَلاَ صَاحِبِ بَقَرٍ لاَ يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلاَّ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطِحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِقَوَائِمِهَا، وَلاَ صَاحِبِ غَنَمٍ لاَ يَفْعَلُ فِيهَا حَقَّهَا إِلاَّ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ مَا كَانَتْ وَقَعَدَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَنْطِحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا لَيْسَ فِيهَا جَمَّاءُ وَلاَ مُنْكَسِرٌ قَرْنُهَا، وَلاَ صَاحِبِ كَنْزٍ لاَ يَفْعَلُ فِيهِ حَقَّهُ إِلاَّ جَاءَ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ[1] يَتْبَعُهُ فَاتِحًا فَاهُ، فَإِذَا أَتَاهُ فَرَّ مِنْهُ فَيُنَادِيهِ: خُذْ كَنْزَكَ الَّذِي خَبَأْتَهُ فَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ، فَإِذَا رَأَى أَنْ لاَ بُدَّ مِنْهُ سَلَكَ يَدَهُ فِي فِيهِ فَيَقْضَمُهَا قَضْمَ الْفَحْلِ**».

- وفي «الأوسط» للطبراني: قال رسول الله ﷺ: «**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**».

- وروى الترمذي من حديث أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِي ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**». قَالَ: «**مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً، فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ اللهُ عِزًّا، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**».

---

(١) أي: حية قرعاء.

- وجاء في سنن أبي داود والنسائي ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**من منعها**- أي الزكاة- **فإنا آخذوها منه وشطر ماله غرمة من غرمات ربنا تبارك وتعالى لا يحل لآل محمد منها شيء**».

**أولاً**: شرع الله الزكاة وجعلها ركنًا من أركان الإسلام؛ لأن المسلمين متكافلون في الله، ولأن المجتمع الإسلامي نموذج للمجتمع الفاضل المتآخي المتعاون على الخير، وقد بحث كثيرٌ من العلماء المسلمين عظمة الزكاة، وما يمكن أن تحقق من إسعاد المجتمع وتوفير أسباب النصر للأمة، وخرجوا من ذلك بإحصائيات مذهلة وتوجيهات في غاية الفائدة.

**ثانيًا**: تصرف الزكاة في الأوجه الثمانية الواردة في الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦٠].

ويستطيع الحاكم المسلم أن يستثمر ما يدخل خزانة الدولة منها في إعداد المجاهدين في سبيل الله والإنفاق عليهم وعلى أسرهم وتعليم أبنائهم وفي شراء الأسلحة وصناعتها، وقد حسب أحد رجال الاقتصاد الإسلامي زكاة الأموال في العالم الإسلامي فوجد أنها تكفي أن تمحو كلمة (الفقر) من قاموس الأمة الإسلامية، ثم إنها بعدئذٍ لبناء جيش إسلامي من المجاهدين مجهز بأعظم الأسلحة، بحيث يظل دومًا تحت السلاح واقفًا للكفر ومؤامراته بالمرصاد.

**ثالثًا**: الزكاة ليست تفضلاً من مؤديها، لكنها حق عليه يؤديه في طرقه المعلومة، وإذا منع الغني الزكاة وكثر المال لقي من الله ﷻ أشد العقاب يوم يتحول كنزه من الذهب والفضة نارًا يكوى بها وجهه وجبهته وظهره، أو يتحول أفعى هائلة تقضم يده كما يقضم الفحل الهائج من الإبل يد من يستثيره فيكسرها.

أما من يدفعها كاملة طيبة بها نفسه؛ فإن له وعدًا من الله ورسوله أن يعوضه ربنا خيرًا بحيث لا ينقص ماله بالزكاة، وبحيث يزكو ماله وينمو ويطهر؛ لأن للفعل (زكا) معاني منها: نما وازداد، ومنها: طهر وأصبح وضاءً.

رابعًا: إذا منع المسلم الزكاة جاز للحاكم المسلم أن يأخذها منه بالقوة، وأن يصادر نصف ماله لبيت المال الإسلامي عقوبة لمانعها من جنس عمله؛ فقد أعماه حب المال عن واجب الدين، فكانت عقوبته أن يؤخذ منه هذا المال الذي أورثه شحًا ممقوتًا أنساه أركان دينه.

خامسًا: تجب الزكاة على كلِّ مسلم حرٍّ يملك نصابًا، ويخرجها ولي الصبي والمجنون من مالهما، ومن كان عليه دين مالي لله أو للعباد لم تجب عليه الزكاة إلا بفضل من ماله بعد قضاء دينه، ومن مات وعليه زكاة وجبت في ماله، وكانت لها الأولوية على كلِّ الدائنين وعلى الوصية وحق الورثة، ويستحب أن يدعو من يتسلم الزكاة لمخرجها سواء كان متسلمها من قبل الحاكم المسلم أو من المستحقين للزكاة.

ومن الأدب الإسلامي ألا يمد المسلم الذي أغناه الله يده ليأخذ الزكاة؛ لأنه عندئذ يأخذ أوساخ الناس، ومن أحوج نفسه أحوجه الله.

إنَّ المؤمن القوي المكتسب لا ترضى له كرامة الإسلام أن يفتح على نفسه باب المسألة ولو لم يملك إلا أقل الكفاف.

## نصاب الزكاة

في هذه الأيام تكاد الزكاة تكون واجبة على معظم المسلمين بدءً من أصحاب الملايين إلى أصحاب الدراهم المعدودة وفي هذا رفع لمعنويات ذوي الإمكانيات المحدودة حين يرى نفسه مساهمًا في بناء موارد الدولة الإسلامية، ولو بمبلغ زهيد.

إنَّ المبلغ الزَّهيد قد يحوله كرم الله الواسع إلى مثل جبل أحد، وذلك حين تخلص النوايا ويتحقق الإخلاص، ومن مَلَك مقدار خمسة وثمانين جرامًا من الذهب أو خمسمائة وتسعين جرامًا من الفضة وقدره العلماء بثلاثة آلاف ريال؛ فقد مَلك نصابًا وعليه زكاة.

وعلى هذا؛ فالمجتمع الإسلامي تبنيه جهود متضافرة على الخير، ويساهم فيه كل أبنائه كلٌّ بجهده، وهذه أحاديث في قيمة الزكاة نوردها ثم نوضح -إنْ شاء الله- ما اشتملت عليه من أحكام:

- جاء في سنن أبي داود عن علي ﷺ مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول، ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيء في الذهب حتى يكون لك عشرون دينارًا، فما زاد فبحساب ذلك، وليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول.

- وفي الحديث المتفق عليه: **«ليس فيما دون خمس أواقٍ صدقة، ولا فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»**.

- وروى مالك -رحمه الله- أن يهود خيبر جمعوا لعبد الله بن رواحة ﷺ حليًا، فقالوا: هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم، وكان رسول الله ﷺ قد أرسله لتقدير دخلهم من زراعتهم، فقال لهم وهو يرد الرشوة: يا معشر اليهود، إنكم لمن أبغض خلق الله إلى الله، وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم من الرشوة فإنه سحت، وإنا لا نأكله، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

وفي صحيح البخاري أن معاذًا ﷺ قال لأهل اليمن: «ائتوني بعرض ثياب خميص أو لبيس في الصدقة مكان الشعير والذرة أهون عليكم وخيرًا لأصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة».

وروى أصحاب السُّنن أن امرأة أتت النبي ﷺ بابنة لها وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب فقال: أتعطين زكاة هذا؟ فقالت: لا. قال: أيسرك أن يسورك الله بهما سوارين من نار؟ فخلعتهما فألقتهما إلى النبي ﷺ وقالت: هما لله ورسوله.

وروى مالك -رحمه الله- أن عائشة -رضي الله عنها- كانت تلي بنات أخيها محمد يتامى في حجرها، ولهن الحلي فلا تزكيه، وأن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كان يحلي بناته وجواريه الذهب ثم لا يخرج من حليهن الزكاة.

**أولاً**: الزكاة في هذه الأيام في كل ما يملكه الإنسان من النقود؛ لأن الناس في أيامنا هذه يبيعون الزروع والثمار، فتتحول إلى مال ويتاجرون بالإبل عن طريق إطعامها الأعلاف المختلفة، ولم تعد هناك سائمة تأكل طول العام من كلأ الأرض النابت من ماء السماء إلا قليلاً، ومن ثم فمعظم الإبل والغنم التي يملكها الناس في زماننا هذا هي أقرب إلى عروض التجارة.

لقد كان الناس فيما مضى لا يبيعون الخضر من حقولهم، بل كانوا يتصدقون بها ويهدونها للجيران، ولم يكونوا يبيعون الألبان وغيرها من مستخرجات الأنعام، بل كانوا يوزعونها بعد أخذ حاجتهم، أما في أيامنا هذه فكل شيء يباع ويتحول نقودًا، ولهذا فمعظم الزكاة الآن هي إما نقود أو عروض تجارة، وفيما عدا بعض قطعان من الإبل والغنم في البادية يرعاها الرعاة، فإنك لا تجد تلك المظاهر القديمة للبداوة التي كان عيشها معتمدًا بالكامل على أنعامها السائمة، ومن ثم فسوف يكون معظم الحديث حول زكاة النقود وعروض التجارة.

**ثانيًا:** إذا بلغ ما يملكه الفرد ثلاثين ريالاً فما فوق، فعليه إخراج زكاته، وطريقة حساب الزكاة سهلة جدًّا وهي أن تقسم النقود على أربعين، ويكون الناتج هو الزكاة المطلوبة. مثلاً إذا كان عندك ثلاثون ريالاً فاقسمها على أربعين يكون الناتج ثلاثة أرباع الريال، وهو قيمة الزكاة المطلوبة على مبلغك، وإذا بلغ مالك مائة ريال فاقسمه على أربعين يكون الناتج ريالين ونصف، وهذا هو قيمة الزكاة، وبمثل هذه الطريقة اقسم الألف على أربعين تجد زكاتها خمسة وعشرين ريالاً، واقسم مائة ألف على أربعين تجد زكاتها ألفين وخمسمائة ريال، وزكاة المليون من الريالات بمثل هذه الحسابات هي خمسة وعشرون ألفًا، يخرجها المسلم طيبة بها نفسه ثم يعطيها لواحد أو أكثر من الأصناف الثمانية التي تستحق الزكاة كما جاءت في الآية الكريمة من سورة التوبة.

**ثالثًا:** زكاة الزروع والثمار تؤدى يوم حصادها أو قطافها ويُسنُّ أن يحصد المزارع زرعه نهارًا، ويقطف الفلاح ثماره نهارًا ليراه الفقراء ويحضروا ليأخذوا حقهم، والزكاة في هذا الحال هي عُشر المحصول إن كان سقيه بماء المطر فقط، ونصف العشر إذا سقي بالأجر.

**رابعًا:** زكاة الحلي اختلف فيها الأشياخ -رحمهم الله- تبعًا للأحاديث التي أوردناها حول هذا الموضوع، فمنهم من قال: لا زكاة في الحلي مطلقًا، ومنهم من قال: بل يزكي الحلي مهما كان قليلاً أو كثيرًا إذا بلغ النصاب، ومنهم من قال: الحلي المعد للبس، والذي يكون بالقدر المعقول لا يزكى، وإذا تجاوز ذلك زكي.

والحق أن الأحوط والأسلم هو أن تزكي المرأة المسلمة ما يرزقها ربها من الحلي كل عام وضمان -إنْ شاء الله- أن الزكاة لن تنقص من ذهبها شيئًا، بل على العكس فإنه ينمو ويزداد ويزكو ويطهر.

**خامسًا:** يزكى المال إذا حال عليه الحول وفي حال الموظفين وذوي الرواتب والتجاره التي تتغير دخولهم كل يوم ربحًا وخسارةً يحدد لإخراج الزكاة وقت معين من العام كالعشر الأواخر من رمضان مثلاً أو أي موعد مناسب، ثم يحسب المال الموجود كله سواء ما يحسب بالأمس أو ما كسب قبل أقل من عام، وهذا الحساب في صالح الفقراء لكنه لا مناص منه من أجل ضبط الحساب في سهولة ويسر.

**سادسًا:** عمال الزكاة وموظفوها يجب أن يكونوا في غاية من العفة والنزاهة ونظافة اليد والضمير أسوة بأصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا يمقتون الرشوة والغلول، حتى إن اليهود أنفسهم لم يسعهم إلا الإعجاب بعبد الله بن رواحة ﷺ، فقالوا حين رفض ذهبهم ورشوتهم: بهذا قامت السموات والأرض، إنما يستقيم بشيوع العدل والتقوى والالتزام بالحلال.

**سابعًا:** أخذ معاذ ﷺ من أهل اليمن زكاة حبوبهم ثيابًا كانوا يصنعونها بدلاً من الشعير والذرة تبعًا لمصلحة المسلمين وراحة للمزكي، وإلى هذا استند نفر من العلماء الذين أجازوا دفع قيمة زكاة الحبوب نقدًا إذا كان هذا في صالح الفقراء.

## أحكام متفرقة حول الزكاة

- جاء في سنن أبي داود عن أبي بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ بعثه مصدقًا (أي: عاملاً على الزكاة يجمعها)، فقال لرجل وجبت عليه بنت مخاض: إنها صدقتك (أي: هي القدر المطلوب منك)، فقال الرجل: ذلك لا لبن فيه ولا ظهر (يعني أن بنت المخاض[1] لا تصلح للركوب ولا تنتج لبنًا)، ولكن هذه ناقة عظيمة سمينة، فأبى أُبيٌّ قبولها (لأنها أكثر بكثير من الواجب) إلا يعرضها على النبي ﷺ، فخرجا حتى عرضها الرجل على النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك الذي عليك (يعني بنت مخاض)، فإن تطوَّعت بخير آجرك الله فيه وقبلناه منك، ثم أمر النبي ﷺ بقبضها ودعا له بالبركة.

---

(١) بنت المخاض من الإبل هي التي سنها سنة واحدة وبدأت في الثانية.

- وروى أبو داود والترمذي عن عتاب بن أسيد ﷺ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرص العنب كما تخرص النخل (أي: تقدر)، ونأخذ زكاته زبيبًا كما نأخذ زكاة النخل تمرًا.

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**الْعَجْمَاءُ عَقْلُهَا جُبَارٌ، وَالْبِئْرُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدِنُ جُبَارٌ، وَفِي الرِّكَازِ الْخُمُسُ**».

- وفي جامع الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**ألا من ولى يتيمًا له مال فلتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة**».

- وفي سنن النسائي: «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سوي**».

- وفي مسند أحمد: «**لا صدقة إلا عن ظهر غنى**».

- وروى أصحاب السُّنن عن سهل بن حنيف ﷺ أن رسول الله ﷺ «**نهى عن لونين من التمر: الجعرور ولون الحبيق**»، وهي أنواع رديئة من التمور.

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد**».

**وهذه بعض الأحكام المستنبطة من الأحاديث الكريمة:**

**أولاً**: يُستحبُ لدافع الزكاة ألا يقتصر على الواجب منها فقط بل يزيد، فقد قبل النبي ﷺ الناقة العظيمة السمينة بدلاً من بنت المخاض، ودعا لصاحبها ويعتبر الزائد هذا صدقة مقبولة -إنْ شاء الله- تعالى مع خلوص النوايا.

**ثانيًا**: المزارعون وأصحاب المزارع الذين يزرعون الخضر والخيار والقثاء والبطيخ وسائر البقول كما يكون لديهم العنب والنخيل والقمح وغيرها يخرجون الزكاة مما يمكن حفظه واختزانه منها كالنخل تؤخذ زكاته تمرًا، والعنب تؤخذ زكاته زبيبًا بعد تقديره، أما الخضار التي تتلف بسرعة فلا زكاة فيها، لكن يتصدقون منها ويبيعون، وما يباع منها يدخله ثمنه في النصاب، وعندئذٍ تكون زكاته من ثمنه إذا حال عليه الحول.

**ثالثًا**: من ولى مال يتيم، فمن المشروع له أن يستثمره ويتاجر فيه كما يتاجر بماله؛ لأنه إن بقي دفعت زكاته كل سنة، وهو ثابت بدون نماء، ويعامل اليتيم إذا استثمر ماله كشريك والولي مؤتمن، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

**رابعًا:** من كان معه نقود، ولكن عليه دين لم تجب عليه الزكاة إلا إذا كانت نقوده أكثر من دينه، وبلغت نصابًا وحال عليها الحول؛ لأن الزكاة لا تكون إلا عن ظهر غنى، وإذا زاد عليه الدين ولم تنهض نقوده لسداده وألح عليه الغرماء جاز أن تعطى له الزكاة؛ لأنه عندئذٍ يكون من الغارمين، فلو أن مسلمًا له رأسمال قليل يتاجر به ثم ركبته ديون وألح الغرماء عليه ولم ينهض ماله للوفاء بالدين جاز أن يُعطى من الزكاة ولا إثم عليه إذا قبلها.

**خامسًا:** لا يجوز إن تصرف الزكاة لشابٍّ قوي قادر على الكسب إلا إذا تعطل عن العمل لسبب خارج عن إرادته دون تكاسل منه؛ لأن الإسلام دين العمل والقوة والكسب المشروع، كما لا يجوز أن يأكل من الزكاة آل بيت رسول الله ﷺ، فمن صحَّ لديه نسبه أنه ينتسب إلى آل بيت النبي ﷺ وجب عليه ألا يمد يده للزكاة؛ لأن شرف نسبه يحتم عليه أن يعمل ويدأب ويكسب عيشه بعمله كما كان يصنع علي ؓ وآل البيت.

**سادسًا:** وممن لا يجوز أن يعطوا من الزكاة الزوجة والأب والجد وإن علا والابن والابنة وإن نزل؛ لأنك تعولهم شرعًا، أما الأخوات والإخوة والأقارب الآخرون فيجوز أن تعطيهم من صدقتك، وهي عندئذٍ صدقة وصلة، كما أن غير المسلم لا يعطى من الزكاة، ولهذا فإن من يتبرع لبعض المشروعات الخيرية في بلاد الأجانب لا يجوز أن يعتبر تبرعه من الزكاة؛ لأن الزكاة لا تعطى لغير المسلم، وإن كان يجوز أن يعطي من الصدقة (صدقة التطوع).

**سابعًا:** لا يجوز للمسلم أن يعمد إلى رديء ماله فيخرجه زكاة، كأن يخرج الحشف من ثمره، وهو ما ورد في الحديث باسم الجعرور ولون الحبيق، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٢٦٧]، والمعنى: لا تنفقوا من الرديء الذي لو أعطي لكم لما أخذتموه إلا عن تهاون وإغضاء.

**ثامنًا:** من وجد ركازًا (يعني: نقودًا ذهبيةً أو كنزًا) مدفونًا في أرض لم يتعب في استخراجه ولا في صهره وتصنيعه، بل وجده من دفن القدماء وجب أن يدفع المال إلى بيت مال المسلمين، أما المعدن الذي يستخرج من الأرض كالذهب الخام والحديد الخام، فهو لصاحب الأرض؛ لأنه يتعب في استخراجه.

أما إذا وجد في أرضه صرة نقود يتضح أنها عتيقة؛ فهذه يغلب أن تكون قد سقطت من صاحبها أو دفنها ليعود إليها، وهي حينئذٍ لُقطة يجب أن يعلن عنها، ويجري عليها أحكام اللقطة.

**تاسعًا**: إذا أخرجت زكاتك فتحرَّ أن تعطيها أهل الصلاح والتقوى، ومن ينفقونها في غير معصية وطلاب العلم والعائلات المستورة التي لا تريق ماء وجهها في السؤال، وتحسبهم أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا.

## بعضٌ من آداب الصدقة والزكاة

**هذه بعض الأحاديث الكريمة في آداب الصدقة والزكاة يُرجى بالتزامها -إنْ شاء الله- أن يتقبل الله من المزكي والمتصدق، وأن يعصم القلوب من النفاق والرياء والسمعة:**

- جاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ سئل: أي الصدقة أفضل؟ قال: «**جهد المقل، وابدأ بمن تعول**».

- وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ أهدي إليه ضبٌّ، فلم يأكله، فقالت عائشة -رضي الله عنها: ألا نطعمه المساكين؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تطعموهم ما لا تأكلون**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقص مال من صدقة**».

- وفي صحيح مسلم أيضًا: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**».

- وفي الصحيحين: «**قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا**

يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ؛ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ؛ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

- وفي صحيح البخاري: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله**».

- وفي سنن أبي داود أن رجلاً جاء لرسول الله ﷺ بمثل البيضة من ذهب فقال: يا رسول الله، أصبت هذا من معدن فخذها، فهي صدقة ما أملك غيرها. فأعرض عنه ﷺ ثم جاء من قبل يمينه فأعرض عنه، ثم من يساره فأعرض عنه، ثم من خلفه فأخذها منه ﷺ وحذفها به، فلو أصابته لأوجعته وقال: «**يأتي أحدكم بجميع ما يملك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى**».

- وفي الصحيحين أن زوجة عبد الله بن مسعود وامرأة من الأنصار سألتا رسول الله ﷺ إن كان يجوز أن تتصدقا على زوجيهما الفقيرين (أي من الزكاة)، فقال رسول الله ﷺ: «**لكما أجران: أجر القرابة وأجر الصلة**».

- وروى الجماعة أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمي افتلتت نفسها (أي: ماتت فجأة) وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إنْ تصدقت عنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

- وجاء في الصحيحين والسُّنن ما خلاصته أن أبا طلحة الأنصاري ﷺ قرأ قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قال لرسول الله ﷺ: إن أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**ربح البيع، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، وكانت بيرحاء بستانًا مستقبل المسجد عذب الماء طيب النخل، وكان يدخله رسول الله ﷺ ويشرب من مائه الطيب.

**أولاً**: من آداب الصدقة والزكاة أن تعطى للأقرب فالأقرب من الإخوة والأعمام والأخوال ثم الجيران وأفراد الحمولة، ففي الأثر: «**لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة**

**محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم».**

**ثانيًا:** يجوز للمزكي أن يظهر زكاته إذا كان يريد بإظهارها حث المسلمين على الإحسان، وأن يسن في مجتمعه سُنة حسنة، ولكن الأفضل إخفاء الصدقة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقد جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله بما فعلت يمينه**».

**ثالثًا:** ومن آداب الزكاة جهد المقل، فرُبّ رجل ضعيف الحال ينفق ريالاً فيكون عند الله خيرًا من ألف ريال، وذلك مع توفر الإخلاص والصدق.

إنَّ أصحاب الأموال القليلة يجب أن يعوِّدوا أنفسهم على الصدقة والزكاة والإحسان لتظل طبائعهم زكية بالكرم وصنائع الخير.

**رابعًا:** ومن آداب الزكاة أن تطيب بها النفس، فيخرجها المسلم من أطيب ماله ويخرجها واثقًا بأن الله سيخلفها عليه ويخرجها وهو سعيد بما هيأ الله له من صنائع الخير ومعتقدًا أنها أعظم فائدة وأجل نفعًا من ماله الذي بقي له؛ لأن ما عند العبد ينفد وما عند الله باقٍ.

**خامسًا:** على الزوجة أن تعتبر زوجها أقرب المقربين إليها، وإذا افتقر أو أصابه غرم أو دين سارعت إلى إعطائه من مالها أو من زكاتها ما يفك إصره ويفرج كربته.

**سادسًا:** إذا فتح مجال العطاء لمستحقين أو لمشروع خير فعلى أول المتبرعين أن يرسم القدوة الحسنة فيعظم العطاء؛ لأن حملة التبرعات إذا بدأت بتبرع هزيل ظل العطاء هزيلاً.

**سابعًا:** على المسلم أن يتحرى في صدقته مستحقها من الصالحين وطلاب العلم والمغتربين له، وإذا بذل جهده في التحري ثم علم أن صدقته وقعت في يد غير مستحق، فعليه أن يحمد الله، وليس عليه شيء ما دام قد بذل جهده، مثل ذلك المحسن الذي أراد إخفاء زكاته بليل، فوقعت في أيدي غير مستحقيها من لص وزانية وغني.

**ثامنًا:** ومن آداب الزكاة ألا يتصدق المزكي والمتصدق بكل ماله؛ لأن هذا العمل

يناقض الحزم، ولأن الأمر الإلهي الحكيم في تقدير الزكاة والصدقة هو أعظم من اجتهادات العبيد، وقد نهى ﷺ عن أن يتصدق الإنسان بكل ماله حتى لا يتكفف الناس ويمد يده إليهم.

وقال لسعد ﷺ حين استشاره أن يتصدق بماله: **«الثلث والثلث كثير»**، وحذف قطعة الذهب التي أحضرها صاحبها عليه، وكانت كل ما يملك ولو أصابته لآذته، ونهاه أن يتصدق بها ما دامت هي كل ما يملك.

**التاسع:** أن يتفقد في صدقته وزكاته والديه وأرحامه وموتاه؛ لأن كل ما يفعله الحي من أجل موتاه من الصدقة والدعاء والصوم والحج والزكاة يصل إليهم، والعاقل يتعهده والديه في حياتها بالبر بعد موتها بالدعاء والصدقة وسداد ديون الله وديون العباد عليها.

هذا، ومن أهم آداب الصدقة والزكاة ألا يتبعها المن والأذى؛ لأن ذلك يبطل الأعمال وهو كالإعصار الخارق ينزل بالحديقة الغناء فيدمرها.

## (١) آداب البيع والتجارة

البيع والتجارة في الإسلام من مصادر الرزق الشريف الحلال، قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لقد كان العشرة المبشرون بالجنة معظمهم تجارًا فرزقهم الله -تبارك وتعالى- بالأمانة وصدق المعاملة مالاً حلالاً أنفقوه في سبيل الله وأعزوا به الدين.

ولقد رسم الإسلام الكريم للتاجر المسلم فضائل من القول والعمل بها يطيب الكسب وتتضاعف البركة ويتطهر المال من السحت، وليس في الدنيا أشرف من التاجر المسلم إذا اتبع هذه الفضائل والتزم بحدود ما رسمت له الشريعة الغراء.

روى الترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء»**.

**وإلى الأخ البائع هذه الطائفة من آداب البيع والتجارة كما ترسمها الشريعة الغراء:**

١- ذكر الله أثناء البيع حيث تكون الغفلات في السوق؛ لأن ذكر الله يوقظ القلوب إلى التقوى

والتزام الحلال، جاء في الحديث الشريف: «ذكر الله في الغافلين بمنزلة الله في الفارين»، وفي زيادة في الموطأ: «كغصن أخضر في شجر يابس»، والذكر الوارد أن يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير».

٢- ومن آداب البيع والتجارة ألا تملأ الحسابات والحرص والجشع رأس الإنسان، وذلك بأن يعلم أن رزقه يأتيه ويلاحقه، وأن الحرص الشديد لا يزيد صاحبه إلا وسواسًا وهلعًا.

إنَّ رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفسًا لا تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل واتركوا ما حرم»، وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من نفس لا تشبع، وفي الصحيحين: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ».

٣- ومن آداب البيع والتجارة التزام الحلال والبعد عن الحرام؛ لأن الحرام يمحق الرزق ولا يستجاب معه دعاء، وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ «ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له».

٤- ومن آداب التاجر المسلم أنه لا يكتفي باجتناب الحرام بل يجتنب ما فيه شبهة، قال عليه الصلاة والسلام كما جاء في الصحيحين: «الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: «لولا أني أخاف أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها».

وفي صحيح البخاري من حديث عائشة -رضي الله عنها- قصة أبي بكر والغلام الذي جاء له بطعام فأكله ﷺ، ثم عرف أن الطعام فيه شبهة، فأدخل يده في فمه فقاء كل شيء في بطنه وقال: «والله لو لم تخرج إلا بروحي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به».

٥- ومن آداب البيع والتجارة السماحة في البيع والشراء وطلب الدين وأدائه، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى».

وفي صحيح مسلم: «أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، قال: يا رب آتيتني مالاً، فكنت أبايع الناس وكان من خلقي الجواز (أي: التجاوز)، فكنت أيسر على الموسر وأنظرُ المعسر، فقال الله - تعالى: «أنا أحق منك بذلك، تجاوزوا عن عبدي».

٦- ومن آداب التاجر المسلم أنه يقيل النادم، فإذا اشترى منه إنسان شيئًا فندم على شرائه لأي سبب وجيه، فإنه يقبل ردَّه ويقيل عثرة أخيه، ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «من أقال مسلمًا بيعته أقال الله عثرته يوم القيامة».

فكثير من التجار إذا باعك شيئًا لا يقبل ردَّه لأي سبب، وكثير تجدهم سمحاء يقبلونه ويعطونك نقودك كاملة، فلا يسعك عندئذٍ إلا أن تدعو لهم بدوام النعمة وتعاقب البركة.

٧- وفاء الكيل والميزان واجتناب التطفيف، وهو أمر عظيم تلمس عظمته في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]؛ إذ المتدبر للآية يلمس أن السماء والميزان بينهما في العبارة صلة، وهذا معناه أن إقامة ميزان العدالة في الأرض يعدل في عظمته السماء أو أن السماء يستقيم أمرها مع الأرض ما دام قسطاس العدالة مستقيمًا.

روى ابن ماجه في سننه أن النبي ﷺ حين قدم المدينة وجد أهلها من أخبث الناس كيلاً كأنما هم قوم شعيب، فأنزل الله ﷻ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ لاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففون: ١-٦].

ومن حديث طويل رواه ابن ماجه: «ما نقص قوم الميزان إلا أخذوا بالسنين (أي: القحط) وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم».

٨- ومن آداب البيع والتجارة في الإسلام اجتناب الغش، فقد جاء في صحيح مسلم:

«من غش فليس منا» ، ومن الغش التدليس، وهو إخفاء عيب في المبيع، ومنه وضع الجيد فوق الصندوق والفاسد أسفل لإخفائه، ومنه خلط اللبن بالماء والسمن الجيد بالرديء، إن الدين النصيحة والغاش لم ينصح فهو إذن قد فرط في دينه.

٩- ومن الأدب الإسلامي في التجارة اجتناب الاحتكار وهو أن ينتهز التاجر انقطاع صنف من الضروريات من السوق كالطعام الضروري والملابس اللازمة، فيعمل على إخفائها حتى إذا اشتدت الحاجة إليها باعها بأسعار لا رحمة فيها ولا عطف، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «مَن احتكر طعامًا؛ فهو خاطئ»، وفي مسند أحمد: «مَن احتكر طعامًا أربعين يومًا؛ فقد برئ من الله، وبرئ الله منه»، وفي سنن ابن ماجه: «المحتكرُ ملعونٌ».

٩- ومن صفات المؤمن إذا باع أو تاجر أن يلتزم الصدق، وأن يتجنب اليمين الغموس، وأن يؤدي حق الله بالزكاة والصدقة وصلة الرحم، ألا فما أجمل أسواق المسلمين! وما أحلى معاملتهم لو التزم تجارهم بأدب البيع والتجارة، كما بيَّنه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ التاجر إذا كان فيه أربع خصال طاب كسبه: إذا اشترى لم يندم، وإذا باع لم يمدح، ولم يدلس في البيع، ولم يحلف فيما بين ذلك».

## ( ٢ ) من آداب البيع والتجارة

**هذه أحاديث شريفة حول آداب البيع يأخذ بها كل تاجر هداه الله إلى الحلال وجمَّل سلوكه بالتقوى، وأراد له سعادة المعاش والمعاد:**

- في الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن حمى الله محارمه».

- وفي جامع الترمذي قال رسول الله ﷺ: «لا بيع في سوقنا إلا من تفقه في الدين».

- وروى البخاري -رحمه الله- أن غلامًا لأبي بكر ﷺ أحضر له طعامًا فأكل منه لقمةً، فعلم من الغلام أن هذا الطعام أخذه الغلام مكافأة من رجل على كهانة تكهنها له، فأدخل أبو

بكر إصبعه في حلقه حتى قاء كل ما في بطنه، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»**.

- وروى أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**.

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال للناس وهم في السوق: **«إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا إلا من اتقى الله وبرّ وصدق»**.

- وروى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ قال: **«يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والحلف والكذب فشوبوه بالصدقة»**.

- وروى الشيخان أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب»**.

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«رحم الله امرأ سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»**.

- وجاء من طرق متعددة أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع النجاسات وما لم يقبض وما لم يبد صلاحه والمحاقلة والمخاضرة والمزابنة (بيع ما لا يعلم بمعلوم المقدار) إلا العرايا، وعن بيع القيان (المغنيات)، وعن بيع حبل الحبكة، وعن بيع الحيوان باللحم، كما نهى عن إخفاء العيب والخداع والنجش في البيع، ونهى عليه الصلاة والسلام عن كل بيع يحدث فيه غموض أو تغرير كبيوع الجاهلية الخداعة، مثل بيع الحصاة والملابسة والمنابذة والحاضر للبادي وتلقي الركبان.

**أولاً**: إن التجارة من أشرف الكسب إذا وفّق الله صاحبها فجنبها الشبهات والحرام؛ ففي سنن ابن ماجه: **«التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»**، وفي رواية الترمذي: **«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»**، وقد كان معظم العشرة المبشرين بالجنة من أصحاب رسول الله ﷺ تجارًا، وحسبك أن رسول الله ﷺ وخلفاءه الراشدين عملوا في التجارة.

**ثانيًا**: جاء في الأثر أن التاجر إذا تحرى أربعة أمور طاب كسبه: إذا باع لم يمدح سلعته

ويبالغ في مدحها، وإذا اشترى لم يذم سلعة أخيه البائع، ويزعم أنها رخصت، وأن فيها عيوبًا كثيرة، وأن يتجنب اليمين الغموس وكثرة الحلف حتى لا ينطبق عليه ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وأخيرًا، على التاجر ألا يدلس، وذلك بأن يخفي عيب البضاعة أو الثمن، فإذا باع سيارة مثلاً وعلم أن أدواتها الداخلية فيها خراب كشفه لأخيه المشتري.

**ثالثًا:** إذا اشتبهت على التاجر أمورٌ بين الحلال والحرام، فعليه أن يتوقف عن الشبهة؛ لأنه إذا تجرأ على الشبهات فلا بد أن يتجرأ على الحرام، وإذا عوَّد نفسه على اتقاء الشبهات كان عليه سهلاً أن يقرع نفسه عن الحرام.

**رابعًا:** يرفض الإسلام كل بيع فيه غموض أو تدليس أو اعتماد على المصادفة والحظ، ويشترط في المبيع والثمن تمام الوضوح، كما ينهى عن بيع الأشياء المحرمة والنجاسات، ولقد كان أهل الجاهلية يتعاملون ببيوع فيها غرر أي تغرير بالمشتري، فيبيعون ما لا يوجد في أيديهم كجمل آبق، ويبيعون طعامًا لم يقبضوه ولم يصل إلى مكة مثلاً أو المدينة، كما يبيعون ما تحمله الإبل والغنم في بطونها، وقد يبيعك كومة بكومة دون كيل أو وزن، وربما باعوا التمر قبل صلاحه وهو في رءوس النخل، وقد تذهب إلى التاجر تشتري منه ثوبًا فيقول لك: خذ هذه الحصاة، وارم بها على الثياب، فإذا أصابت أي ثوب فهو عليك بكذا أو يقول لك: إذا مددت يدك على ثوب فلمسته أو نبذته من بين الثياب فقد لزمك شراؤه بكذا، ونهى كذلك أن يعمل الحاضر سمسارًا للبادي مخافة أن يغرر بالبدوي أو أن يتلقى تجار المدينة ركبان البدو قبل دخولهم المدينة، فيشتروا منهم بضائعهم خشية أن يُخدع البدوي وخشية أن تحتكر هذه السلع، نعم لقد اشترط الإسلام أن ينزل البدو ببضاعتهم لتتوفر السلعة، وترخص أقوات المسلمين.

**خامسًا:** ومن الآداب التي يراعيها التاجر المسلم ألا يغضب من خيار المجلس أو خيار الشرط أو خيار العيب، فإذا باع أخاه المسلم بضاعة ثم فكَّر المشتري فرجع عن الشراء قبل المفارقة وانفضاض مجلس العقد، فما يجوز للبائع أن يغضب أو يُسمع المشتري أي فاحش من القول، وكذلك إذا اشترط المشتري على البائع أن يكون له حقٌّ في رد المبيع في خلال وقت

معين، وكذلك إذا باع أخاه المسلم بيضًا فثبت فساده أو سيارة فاتضح أنها خربة من داخل آلتها أو باعه مثلاً تفاحًا على أنه حلو فثبت أنه حامض.. في كل هذه الحالات وما شبهها ينفذ خيار العيب، وعلى التاجر أن يقبل بضاعته دون عرقلة أو تعقيد أو نقص من الثمن.

**سادسًا:** ومن آداب التاجر المسلم أنه يتفقه في دينه ليعرف الحلال فيتحراه، ويعرف الحرام فيتجنبه، ولا بأس أن يدرس من يريد التجارة في كلية التجارة أو العلوم الإدارية ليصبح ماهرًا في عمله على أن يأخذ منها ما يوافق الشريعة السمحة، ويترك ما يخالفها، فلقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ماهرين في التجارة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ﷺ أجمعين، فكان أن جمعوا أموالاً من حلال التجارة كانت فيما بعد قوةً للإسلام وعونًا للمجاهدين، واليد العليا في الإسلام خير وأحب إلى الله من اليد السفلى.

**سابعًا:** وعلى التاجر المسلم أن يحترم عهده ويحفظ عقده، فلا يبيع السلعة لأكثر من مشترٍ، ولا يعود في كلامه، وعليه أن يصبر على المعسر جهد طاقته، وإذا باع بثمن آجل فما يجوز له أن ينتهز شراءً لمضطر، فبيع السيارة مثلاً نقدًا بثلاثين ومؤجلاً بستين على أن البيع بثمن مؤجل يزيد على النقد أمر جائز، ولكن لا يجوز أن يتحوَّل ابتزازًا، وإذا اشترى من أخيه المضطر بيتًا مثلاً فما يجوز له أن يبخسه لاحتياجه، وعليه أن يوفي الكيل والميزان، وأن يتحرى بيع المقيد واجتناب الحرام، فلا يبيع عنبًا وهو يعلم أن المشتري يعصره خمرًا، ولا يبيع مسروقًا، ولا يبيع سلاحًا للصوص أو مثيري فتن، ولا يبيع مخدرات وغيرها من المواد الضارة بالمجتمع، ولا يبيع عند صلاة الجمعة؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، ولا يبيع ماءً للعطاش، وإذا باع أخاه المسلم سلعة ثم اتضح للمشتري أنها غير لازمة له، وأنها ستفسد عنده أو لا يستعملها؛ فالمستحب أن يريح أخاه من كسادها، ففي الحديث الشريف: «**مَن أقال مسلمًا أقال الله عثرته يوم القيامة**».

***

## فضل الأمانة والحث عليها

الحمد لله الذي أمرنا بأداء الأمانات، وأشهد أن لا إله إلا الله حرم الخيانة وجعلها من الموبقات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين والصادق الوعد الأمين، اللهم أكرمنا بحبه، واكتب لنا شفاعته وكريم جيرته يوم الدين.

المؤمن لا يمكن أن يكون خائنًا؛ لأن الإيمان والأمانة مشتقان من أصل واحد، ولقد كان الطابع المميز للسلف الصالح -رضوان الله عليهم- هو أمانتهم؛ فرسولنا ﷺ كان يُلقب بالأمين قبل البعثة، ولقد ربَّى أصحابه على تلك الفضيلة فكانوا بحق قدوة الأمناء.

جاء في كتب التاريخ أن الجنود المسلمين حين أورثهم الله ﷻ ديار كسرى وفتح عليهم المدائن عثروا في قصره على كنوز من الجواهر والأموال والأثاث لا تنهض لثمنها الدراهم، وكانوا رضوان الله عليهم فقراء محتاجين لا يكاد أحدهم يحظى بجديد الثياب ولا بلذيذ الطعام، ومع هذا أقبلوا يحمل كل منهم ما غنمه، وقد نزع من قلبه شهوة العرض الأدنى، وملأ نفسه بالقناعة والرضا، فما عُرف عنهم الغلول ولا الطمع ولا الحرص المردي، ولما أرسلوا تاج كسرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تأمل روعة جواهره وذهبه، وقال: إن قومًا سلَّموا هذا إلى بيت المال لهم أمناء حق أمناء، فقال له الجندي الذي أحضر التاج: لقد أمنت فأمن جندك، وهي جملة عظيمة حقًّا لأن القيادة الأمينة المؤمنة يتحول بها الأجناد كلهم أمناء مؤمنين.

ولقد قرأت في سيرة الراشد عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- قصة ما قرأت مثلها في الأمانة في كل تاريخ الدنيا، كان -رحمه الله- ذات ليلة سهران يكتب حسابات من أموال المؤمنين وحسابات لبيت مال المسلمين، فدخل عليه رجل قادم من مصر وشرع يحدثه عن بستانهم الذي في حلوان، وحالما بدأ الرجل كلامه أطفأ عمر أمير المؤمنين السِّراج وقال للزائر: إن الزيت الذي في السراج هو من زيت بيت المال، وكنت قبل مقدمك أكتب في شئون بيت المال، فلما دخلت شرعت تحدثني في أمور ضيعتنا فأطفأت السراج؛ لأنه لا حق لنا في زيته.

الله أكبر!! حين تبلغ الأمانة في المؤمن هذا المبلغ الهائل! إن في هذا لدرسًا قاسيًا لكل أولئك الذين يتخوضون في مال الله بغير حق، ولست أحب أن أقصر معنى الأمانة على رد الودائع لأصحابها، فهذا هو مظهر واحد فقط وهو في الحق مظهر مهم ودليل من أدلة الأمانة والإيمان، لكن الأمانة عمومًا أوسع مدلولاً من هذا؛ فالإيمان أمانة والإسلام أمانة والحكم أمانة والمسئولية أمانة ورعية المرء أمانة والمشورة أمانة والسير أمانة والمجالس أمانة والعبادة أمانة، والسمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً، وإن أحق الأمانات بالأداء أمانات الله ﷻ لا بدَّ من أدى أمانة الله سَهُلَ عليه أن يؤدي أمانات العباد؛ إذ هي فرع لذلك الأصل العظيم.

وإذا كانت الأمانة من أوضح دلائل الإيمان، فإن الخيانة هي من أوضح خصال النفاق.

- ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»**. وفي الحديث إشارة نبوية دقيقة هي أن المنافق قد يصلي وقد يصوم، ولكن ديننا يصرف الاهتمام إلى خصائص لا يجدي معها صلاة ولا صوم ولا تقبل معها عمل صالح ألا وهي الخيانة إذا اجتمع إليها الكذب والخلف، وأن هذه الخصائص لا تكون إلا من منطلق العقيدة الفاسدة والنفاق المردي الذي يؤدي بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار.

- وفي مسند أحمد وسنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **«أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك، ولا تخن مَن خانك»**، وفي الأثر: **«لا إيمان لمن لا أمانة له»**.

- وقد كان رسول الله ﷺ يخشى أن تُرفع الأمانة من الأرض، ففي الحديث المتفق عليه عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنة»**. ثم تحدَّث عليه الصلاة والسلام أن الأمانة ترفع، فيصبح الناس يتابعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة.

- وفي حديث طويل رواه البخاري -رحمه الله- عن عبد الله بن الزبير أن الزبير بن العوام ﷺ كان إذا أتاه رجل ليودع عنده أمانة يقول له: لا تجعلها أمانة، ولكن اعتبرها سلفًا؛ لأني أخشى أن تضيع (والسلف يظل لازمًا ولو ضاع)، ثم يستثمر الأموال، فلما مات شرع ابنه عبد الله يسدد ديونه، ولم يقسم الميراث بين الورثة إلا بعد أربع سنين بركة أمانته وحرصه

على أموال الناس، فسدد عبد الله ديونه كلها من ثمن أرض اشتراها يقال لها: الغابة، وكان مجموع تركته خمسين مليونًا ومائتي ألف درهم.

**أولاً**: الأمانة أكبر مقياس للإيمان، فإذا رأيت إنسانًا يحرص على أداء الأمانات ويحافظ عليها ويصونها، فاعلم أنه مؤمن، أما الخائن فهو منافق، وإن صام النهار وقام الليل، وقديمًا سأل عمر ﷺ رجلاً عن رجل، فقال له: أتعرفِ فلانًا؟ قال: نعم. قال عمر: هل عاملته بالدينار والدرهم؟ قال: لا. قال: إذن لا تعرفه، لعلك رأيته قائمًا يتركع في المسجد. نعم ليس بالعبادة الجوفاء يحرز المرء مراتب الأمناء؛ لأن لب العبادة هو تحقيق الإيمان والأمانة مشتقة من الإيمان.

**ثانيًا**: مشروعات الدولة أمانة عظيمة؛ لأنها إنما تعتمد وتنفذ لمصلحة المسلمين، فإذا حصل في مناقصاتها تلاعب واتفق بعض المتعاملين فيها على اختلاس مال من اعتماداتها، فتلك خيانة لأن المنفذين سينقصون من مواصفات الجودة ليحققوا لأنفسهم ولشركائهم مرابحهم الحرام، ومن هنا تخرج المرافق مغشوشة، وقد تشقق المباني وتتصدع الجسور وتنهار الطرقات وتتعجر المجاري بسبب هذا الغلول الحرام، وهذا بلا شك خيانة، والمتلبسون بهذا لا شكَّ خونة.

**ثالثًا**: خلق الله -تعالى- الناس أمناء، وزاد القرآن والرُّسل بصيرتهم بالأمانة، ولكن الشهوات والأهواء وحب المال وإغراءات الشيطان.. كلُّ هذه تغري ضعاف النفوس وضعاف الإيمان بتضييع الأمانة، وكلما تقدم الزمن زاد نفوذ الخونة، فيكون من آثار ذلك أن ترفع الأمانة من الأرض، وفي هذا إيذان بشر مستطير.

**رابعًا**: لله عند العبد أمانات سيسأله عنها وعن أدائها يوم الحساب، فالأسرة أمانة في رقبة عائلها، وكل من ضيَّع تربية أولاده فهو خائن، والوظيفة أمانة وإذا قصَّر الموظف في أدائها، فهو خائن، والسمع والبصر والذكاء أمانات إذا استعملها العبد في المعاصي، فهو عند الله خائن، والله ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨].

## آداب اليمين والحلف

## النهي عن كثرة الحَلِف

إذا رأيت امرأ يكثر الحلف، فاعلم أنه مهين؛ لأنه ما لجأ إلى الحلف إلا لإحساسه بأن الناس يكذّبونه ويستهينون بقوله ولا يكنون احترامًا لآرائه أو أخباره، ولهذا قرن الله ﷻ الحلف بالمهانة في وصفه لأحد أعدائه، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠].

إنَّ الإنسان المحترم لا يحلف ولا يرى داعيًا للحلف؛ لأنه واثق بما يقول وواثق أن من يستمعه يصدقه، ولأنه يعلم أن الحلاف لا بدَّ أن يغريه الحلف برذائل أخرى، ومن هنا عدَّد القرآن الكريم صفات ورذائل تقترن بالحلف، فقال ﷻ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١- ١٣]، وأعوذ بالله من هذه الصفات إنها فعلاً خلاصةٌ للإثم والعدوان والغلظة والإفساد.

والغريب أن التجار الأجانب من غير المسلمين لا يحلفون ولا يعرفون الحلف حتى ولو باعك سلعة بألف ألف في حين ترى تاجرًا يذكر الله قد باعك سلعة بدرهم يحلف عليها عدة أيمان.

إنَّ الحلف بلا شك عقدة نفسية، ولا يمكن أن يصدر إلا ممن يعاني من مركب نقص، ولهذا ربأ الله بعباده المؤمنين عن هذا النقص، فقال لنا ﷻ في سورة المائدة: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

- في مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ التجار هم الفجار»، قالوا: يا رسول الله، أليس قد أحلَّ الله البيع. قال: «بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون».

- وفي سنن النسائي: «أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير، والمختال، والشيخ الزاني».

- وفي الصحيحين: «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب».

- وفي صحيح مسلم: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف على امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان**»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٧٧].

- وفي سنن أبي داود ومعناه لابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يقتطع أحد مالاً بيمين إلا لقي الله وهو أجذم**».

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس**»، وهي اليمين التي يقتطع بها مال امرئ مسلم.

- وفي الأثر: «**اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع**» (أي: خرابًا).

- وفي سنن أبي داود: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ مَصْبُورَةٍ** (المصبور هو المحبوس للقتل) **كَاذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ بِوَجْهِهِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفضون أن يحلفوا ولو كانوا على حق حتى لقد روى الطبراني أن جبير بن مطعم افتدى يمينه بعشرة آلاف، وأن الأشعث بن قيس افتدى يمينه بسبعين ألفًا.

**وبعد؛ فهذه أحاديث مستنبطة من حديث رسول الله ﷺ حول الحلف واليمين:**

**أولاً**: إذا أراد حالف أن يحلف لا يحلف إلا بالله أو ببعض أسمائه الحسنى أو صفاته العلا، ولا يحلف بالطلاق ولا بشرفه ولا بأبيه؛ لأن من حلف بغير الله فقد أشرك والمعصية أهون من الشرك.

**ثانيًا**: المسلم المحترم يحفظ يمينه اعتقادًا منه أن الحلف ولو كان صادقًا لا يخلو أن ينال من كرامة المرء، ولهذا كان بعض السلف ربما افتدى من يمينه بمال كثير عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [المائدة: ٨٩].

**ثالثًا**: يصبح الحلف من الكبائر إذا قصد الحالف بيمينه أن يأكل حرامًا لا حق له فيه؛ لأنه حينئذٍ سخَّر دينه لدنياه وامتهن نفسه وسفهها حين فضل العرض الأدنى على عقيدته مع

أن كل خسارة غير الدين تهون.

**رابعًا:** الحلف من عقد النقص ومركباته، وقد لاحظ علماء النفس أن الحلاف لا بدَّ وأن يعاني من خصال أخرى ترافق الحلف وفي مقدمتها الصغار والمهانة والهمز والإفساد والنميمة.

**خامسًا:** كثيرًا ما يتعامل اثنان وربما كتبا بالحق صكًّا، فيضيع الصك من صاحب الصك ويبلغ الأمر الذي عليه الحق فيفرح بذلك ويظن أن ضياع الصك يضيع الحق، وقد يغريه ذلك أن ينكر، ومن ثم أن يحلف، وعندئذٍ يغضب الله عليه غضبة تحرمه من رؤية وجه الله يوم القيامة، حتى إن المنتقم الجبار لشدة غضبه على الحالف الظالم لا ينظر إليه ولا يكلمه، ثم يأمر به يُصلى عذابًا مؤلمًا؛ لأنه آلم صاحبه الذي تعامل معه في الدنيا وغصَّه حين أكل حقه جهارًا، ومن هنا فإن اليمين الغموس عدَّت من الكبائر لما يترتب عليها من إفساد للمجتمعات تضيع معه الحقوق.

**سادسًا:** وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الذين استعملوا الأيمان الكاذبة لأكل حقوق العباد قد خربت بيوتهم ومات أولادهم ولقوا نتيجة ظلمهم في أغلى أموالهم وأعز أولادهم، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع**».

ولقد رأيت بنفسي قومًا حلفوا على باطل ليأكلوا أموال الناس بذلك الباطل، فخلت منهم الديار وحلَّ بساحتهم الدمار، وما أغنى عنهم الحرام من الله شيئًا، ومن ثـمَّ؛ فإن من أفدح الخسائر أن ينخدع المرء، فيبيع شرف دينه ويتاجر بيمينه ويجعل من اسم الله ﷻ سلعة للبيع والشراء، لذلك كان على التاجر المسلم أن يربأ بشرفه ورزقه عن الحلف؛ لأن كثرة الحلف تنال من الشرف، وقد تؤثر في رزق التاجر فتدخل فيه الشبهات.

إنَّ على التاجر المسلم إذا باع إلا يحلف على جودة البضاعة، وإذا اشترى ألا يذم بضاعة غيره، وعليه ألا يستعمل الأيمان في ترويج سلعته، وعندئذٍ يطيب كسبه ويبارك الله في رزقه وذريته، ثم لا يزال الله يرفع قدره حتى تراه بصدقه وأمانته مع الصديقين والشهداء يوم القيامة.

**سابعًا:** إنَّ هنالك نقطة دقيقة جدًّا في أمر اليمين، وهي أن الحالف ظلمًا وزورًا والمتخذ

من الحلف الكاذب وسيلة لهضم الحقوق قد يفتح المجال للشك في أمه أنها قد فرّطت في عرضها لغير أبيه، فقد وصف الحق ﷻ الحلاف الظالم أنه زنيم (أي: ابن زنا)، والآية وإن فسِّرت بأنها في الوليد بن المغيرة، فإن العموم وارد يدركه أهل البلاغة.

## أحكام اليمين والحلف

كثيرون في أيامنا هذه من يلجئون إلى الأيمان فيحلفون أو ينذرون إذا ما وقعوا في ضائقة، واليمين والنذر لهما أحكام وآداب والمؤمن مطالب باتباع سنة رسول الله ﷺ من أحكام وآداب امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

**وهذه أحاديث في أحكام اليمين نوردها ثم نتبعها بالأحكام المستنبطة منها:**

– روى البخاري ومسلم من حديث الأشعث بن قيس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف يمينًا يقتطع بها مال مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان**»، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

– وفي سنن أبي داود: «**لا يقتطع أحد مالاً بيمين إلا لقي الله وهو أجذم**».

– وفي صحيح مسلم وموطأ مالك: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرَّم الله عليه الجنة، وأوجب عليه النار**». قالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**».

– ولأبي داود أن رسول الله ﷺ قال لرجل حلَّفه: «**احلف بالذي لا إله إلا هو ما له** (أي: للمدعي) **عندك شيء**».

– وروى البخاري وأصحاب السُّنن أن أكثر ما كان رسول الله ﷺ تحلفوا: «**لا ومقلب القلوب**»، وروى أنه كان يحلف: «**لا والذي نفس أبي القاسم بيده**».

– وللنسائي أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنذرون وتشركون وتقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يقولوا: «**ما شاء الله، ثم شئت**»، ويقولوا: «**ورب الكعبة**».

– وللترمذي: «مَن حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك».

– ولأبي داود والنسائي: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالأنداد، ولا تلحفوا بالله إلا وأنتم صادقون».

– ولأبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف بالأمانة؛ فليس منا».

– وله وللنسائي: «من حلف قال: إني بريء من الإسلام، فإن كان كاذبًا فهو كما قال، وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا».

– وفي الصحيحين والسُّنن: «إذا حلف أحدكم على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فليكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير».

– وفي صحيح البخاري عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: «أنزلت الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] في قول الرجل: لا والله، وبلى والله.

– ولمالك –رحمه الله: « مَنْ حَلَفَ بِيَمِينٍ فَوَكَّدَهَا ثُمَّ حَنِثَ؛ فَعَلَيْهِ عِتْقُ رَقَبَةٍ، أَوْ كِسْوَةُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ، وَمَنْ حَلَفَ بِيَمِينٍ فَلَمْ يُوَكِّدْهَا، ثُمَّ حَنِثَ؛ فَعَلَيْهِ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدٌّ مِنْ حِنْطَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ».

وروى النسائي عن سعد ﷺ أنه كان حديث عهد بالإسلام فحلف باللات والعزى، فقال له أصحابه: ما نراك إلا قد كفرت، ثم لقي النبي ﷺ فأخبره فقال له: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَتَعَوَّذْ بِالله مِنْ الشَّيْطَانِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَا تَعُدْ لَهُ».

**أولاً**: كثرة الحلف منقصة وسقوط في المروءة، وقد ذم الله ﷻ كل حلاف مهين، قال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، واليمين هي أن تؤكد أمرًا بـ«واو القسم» متلوًا باسم من أسماء الله ﷻ أو صفة من صفاته، واليمين والحلف والإيلاء والقسم كلها بمعنى واحد.

**ثانيًا**: اليمين يجب أن تكون باسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته، كقولك: وجلاله وعزته وكبريائه، والحلف بغير الله شرك كمن يقسم بأبيه أو بشرفه أو بمخلوق من خلقه، ويجوز أن تحلف بالمصحف؛ لأنه كلام الله والكلام صفة من صفات الله.

ومن قال في يمينه: أكون خارجًا من دين الإسلام؛ فهو آثم سواء أبر بقسمه أو فجر، وبعض الأشياخ يعده يمينًا كفارته كفارة يمين، وبعضهم يراه معصية تزول بالتوبة والحسنات، ومن حلف بغير الله من وليّ أو نبي أو ملك لا ينعقد يمينه، وعليه بالتوبة والاستغفار والحسنات.

**ثالثًا:** اليمين واللغو هو ما تعوَّده بعض الناس أثناء كلامه من قوله: لا والله، ولا بالله، وهو لا يقصد التوكيد ولا يجب بها شيء، قال تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

أما يمين الغموس، فهي التي يحلفها الحالف كاذبًا ليأكل بها حقًّا، وقد عدَّها رسول الله ﷺ من الكبائر، فقد جاء في صحيح البخاري: «**الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس لا كفارة لها إلا التوبة والاستغفار، ورد الحق إلى أهله والإقلاع عنها**».

**رابعًا:** إذا حلفت على شيء فيه معصية أو قطيعة رحم أو تحريم لما أحل الله كأن تقول: والله لن أكلم فلانًا أبد الدهر، والله لن تزور زوجتي أمها بعد اليوم، والله لا أدخل بيت أختي، والله لن أعمل معروفًا مع قريب لي؛ فالحنث في هذه الحال أمر لا بدَّ منه، وعليك أن تكفر عن يمينك وتعود إلى الحق والخير؛ لأنك إن نفذَّت يمينك تلك كنت آثمًا، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

**خامسًا:** إذا ألحقت اليمين بالمشيئة، فإنها لا تنعقد، ولا كفارة فيها إلا إذا صحبتها نية سوء، كأن تحلف لإنسان بأن تصحبه معك في سفر فيها خير، وتقول في نفسك: إن شاء الله لتتحلل من اليمين، وتحرمه من الفائدة، فمثل هذا اليمين لا تحلل بكلمة المشيئة؛ لأنها تحايل لخديعة مسلم.

**سادسًا:** كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، وتحرير الرقبة في هذه الأيام قد لا يكون ممكنًا لعدم وجودها، ولكن الكلمة تبقى خالدة؛ لأنها تبيِّن المقاصد النبيلة للإسلام من احترام الحرية وتكريم الإنسان بتحريره من الرق.

والإطعام يكون من أوسط ما يطعم الإنسان أهله، فإن كان ممن يأكلون من أطايب الطعام في اللحم والحلوى والخبز الجيد، فعليه أن يطعم الفقراء من مثل ما يأكل، يقول مالك -رحمه الله: إنَّ المدَّ إنما يجزئ في بلادنا، وأما البلدان الأخرى فلأهلها عيش غير عيشنا، ويشترط الفقهاء أن يكون المساكين من المسلمين ما عدا أبا حنيفة، فهو لا يرى بأسًا أن يكون

بينهم من فقراء أهل الذمة، ولا يجيز مالك والشافعي وأحمد أن تخرج القيمة من النقود، وأجاز ذلك أبو حنيفة، ويجوز أن تطعم مسكينًا واحدًا لمدة عشرة أيام، كما يجوز أن تعمد إلى عائلة فقيرة من أيتام أو أرامل أو معوزين فتعطيهم طعام عشرة مساكين إذا تعذر عليك أن تجمع المساكين في بيتك كما يحدث هذه الأيام.

وأما الكسوة فعليك أن تكسو الفقير ما يستطيع أن يمشي به في الشارع، فتستطيع مثلاً أن تشتري لكل مسكين ثوبًا جاهزًا، وإذا زدت على ذلك سروالاً؛ فهذا أفضل، وإن أكملتها بقميص داخلي، فذلك خير وأبقى.

**سابعًا**: عند عدم الاستطاعة يصوم الحالف ثلاثة أيام، فإن كان مريضًا لا يستطيع الصوم فعليه أن ينوي الصوم إذا شفاه الله، وإذا مات على تلك النية عفا الله عنه، ولا يشترط أن تكون متتابعة، ويجوز لمن أراد الكفارة أن يبدأ في العدول عن يمينه قبل إخراج الكفَّارة، فإذا كان حلف أن يقاطع بيت أخيه، فلا بأس أن يزوره قبل إتمام الصوم.

**ثامنًا**: الحلف بالطلاق والحرام الذي يقع كثيرًا عندما يحضر ضيوف أو في حالات الغضب والخلافات الحادة، كأن يقول للضيف: احلف بالطلاق أن تأكل ذبيحتك أو يقول: عليه الطلاق أو الحرام ألا يذوق طعامًا من بيت أخيه أو يقول لزوجته: عليه الطلاق لن تذهبي لبيت أبيك، ومثل هذه الأيمان لا يقصد بها تحريم الزوجة، ولكن يقصد بها تأكيد لفعل أمر أو تركه، ولهذا يرى الأشياخ -رحمهم الله- أنها معصية؛ إذ هي حلف بغير الله، ويرون كفارتها التوبة والاستغفار والإقلاع عنها وإتباعها بالحسنات، وأن الطلاق لا يقع، ومن الأشياخ من يوقع تلك الأيمان تأديبًا لصاحبها والحزم في ترك تلك هذه الأيمان؛ لأنها ضارة.

## بعضٌ من أحكام المعاملات المتعلقة بالشركات

من أعظم الدلائل على صدق النبوة المحمدية أنه -عليه الصلاة والسلام- وهو النبي الأمي خلَّف تراثًا من الأحكام العظيمة التي شملت كل شاردة وواردة من أمور الحياة. فمحمدٌ ﷺ الذي ما كان يقرأ قبل النبوة من كتاب ولا يخطه بيمينه علَّم الدنيا جميع الأحكام

التي تنظِّم شئون المجتمع من معاملات وأحوال شخصية وعبادات وعلاقات سياسية وأقضية وأخلاق اجتماعية وذبائح وأطعمة وحقوق وواجبات، وعلى الجملة فقد خلَّف وراءه منهجًا إسلاميًّا أكمله الله وأتم به النعمة على أمة محمد ﷺ.

**وهذه بعض أحاديث الأحكام المتعلقة بالمعاملات، والمعاملات هي ما يتعامل به الناس من بيع وشراء ومساقاة ومزارعة وشركات وحوالات وكفالات ودعاوي قضائية وغير ذلك، ونبدأ بالشركات؛ لأنها أمر شاع في هذه الأيام حتى إنه ليندر أن ترى تاجرًا أو صانعًا أو زراعيًّا يعمل دونما شريك، نعم إن الاقتصاد العالمي في أيامنا هذه تُسيِّره شركات:**

- روى أبو داود -رحمه الله- من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله -تعالى- يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما**»، وزاد رزين في صحيحه: «**ودخل الشيطان**».

- وفي سنن أبي داود والنسائي أن ابن مسعود ﷺ قال: اشتركت أنا وعمار وسعد فيما نصيب يوم بدر، فجاء سعد بأسيرين ولم أجئ أنا وعمار بشيء.

- وفي صحيح البخاري -رحمه الله- ما معناه أن صحابيًّا اسمه عبد الله بن هشام أخذته أمه إلى النبي ﷺ وهو صبي ليبايع، فلقيه في الطريق عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، فقالا له: أشركنا فيما تناله من رسول الله ﷺ، فلما كان عند النبي الكريم ﷺ لم يبايعه النبي لصغر سنه، وإنما مسح على رأسه ودعا له بالبركة، فظل يذكر الشركة التي وعد بها ابن عمر وابن الزبير، وكان كلَّما اشترى طعامًا ولقياه قالا له: أشركنا في البركة التي في طعامك والتي دعا لك بها رسول الله ﷺ.

- وفي سنن أبي داود -رحمه الله- عن السائب بن أبي السائب ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فجعل الصحابة يُثنون عليَّ ويذكرونني، فقال رسول الله ﷺ: «**أنا أعلمكم به**»، فقلت: صدقت بأبي أنت وأمي، كنت شريكي، فنعم الشريك كنت، لا تداري ولا تماري.

**أولاً**: الشركة هي اتفاق اثنين أو أكثر أن يتعاونوا في الكسب، ويتقاسموا الربح بشروط معينة يرتضيها الطرفان أو الأطراف حسب ما ينصُّ عليه عقد الاتفاق.

**ثانيًا**: الشركة عند الله أمر مقدَّس حين تسوده الأمانة أما إذا خالطه الغلول أو الغش أو الخيانة، فإذ ذاك تخرج بركة الله من ذلك الخير ليحل الشيطان وألاعيبه.

وما أجمل الصورة البلاغية في الحديث القدسي؛ إذ يقول ربنا ﷻ فيما يرويه عنه رسول الكريم ﷺ: «**أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما، ودخل الشيطان**».

**ثالثًا**: أعرف من يعرف الإنسان شريكه؛ لأن الشريك يكشف لأخيه خلفيات معاملاته ومدى حرصه على الحلال ومدى نقاء ذمته ولا غرو، فالدين المعاملة، وقديمًا سأل عمرُ رجلاً: أتعرف فلانًا؟ قال: نعم. فقال له: هل عاملته بالدينار والدرهم؟ قال: لا. قال: إذن أنت لا تعرفه، لعلك رأيته يتركع في المسجد.

وإلى هذا يشير حديث السائب بن أبي السَّائب حين أثنى عليه الصحابة، فقال رسول الله ﷺ: «**أنا أعرف به منكم**»، فقال ﷺ: صدقت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كنت شريكي فنعم الشريك، وكنت لا تداري ولا تماري.

نعم إن أدقَّ شهادة وأصدقها يمكن أن تتعرف بها على رجل هي تلك التي يشهد له بها شريكه.

**رابعًا**: الشركات أنواع: فمنها شركة العنان، وشركة الأبدان، وشركة الوجوه، كلها جائزة إذا خلت من الإجحاف في الشروط، والشركاء على شروطهم.

والغريب أن بعض الأئمة أجازوا بعضها ولم يجيزوا الآخر، فالمالكية لم يجيزوا شركة الوجوه؛ لأنها كما يقولون: بلا رأس مال، وهي تعتمد على الاسم والسمعة التجارية دون دفع أموال، والشافعية لم يجيزوا شركة الوجوه ولا شركة الأبدان بنفس الحجة، وذلك لأن شركة الأبدان هي اشتراك الرجلين أو الرجال فيما يكسبه كل منهم بعمل يده، لكن في هذا كله حجرًا على أمر مشروع لم ترد نصوص بتحريمه، وحديث ابن مسعود ﷺ يبيح الشركة في الجهد وكسب اليد؛ لأنه اشترك هو وعمار وسعد ﷺ صبيحة بدر فيما ستناله أيديهم من مغانم يغتنمونها في العدو، ولهذا فالتقييدات التي اشترطها بعض الأئمة يعوزها الدليل الواضح البيِّن.

**خامسًا:** ومن الشركة أن تدفع سيارتك أو دابتك إلى سائق ليعمل عليها، ويكون لكل منكما نصيب، ومثلها لو جهزت دكانًا بكل ما يحتاجه من أثاث ولوازم وزينة، ثم سلَّمتها إلى خياط أو حلاق أو سباك على نصيب محدد من الربح بحيث لا تجحف صاحب الملك والاسم بشريكه، وكذلك لو جهَّز مركبًا وشباكًا، ودفع بها إلى صياد ماهر على نصيب محدد أو نسبة من الربح كان ذلك جائزًا.

أما من يُحضر العامل ولا يهيىء له أي خدمة ثم يطلقه ليكتسب ويأخذ منه نسبة من كسبه، فذلك -والله أعلم- حرام؛ لأنه بهذا العمل خالف أوامر الحاكم المسلم، واستغل اضطرار أخيه في ابتزاز بعض كسبه.

وعلى الجملة؛ فالعبرة بالشركة في الإسلام ممارسة الأعمال النافعة والتزام الحلال، وألا يبغي أحد الخلطاء على شركائه بغير حق، وألا يكون في الشروط إجحاف، وأن تكون الشروط واضحة لا لبس فيها، وأن تتم الشركة عن تراض لم يكتنفه اضطرار أو انتهاز أو استغلال.

**سادسًا:** شركات التأمين في معظم عقودها غدر واحتيال وبخاصة ما يعرف بالتأمين على الحياة وأكثر من يستفيد من شركات التأمين العالمية اليهود.

## أخلاق الدائن والمدين

كلُّ مؤمن معرَّض أن يستدين؛ لأن الحياة شكول والدهر قُلَّب، وهناك ملمات تجبر المرء أن يقترض لأداء حق أو إكرام ضيف أو سداد رمق، لكن للمؤمن أدبًا رفيعًا في هذا النوع من التعامل، فتراه إذا تداين لا يماطل، وإذا داين لا يضيق، ولا شك أن الدين بلاء شديد؛ فهو همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار، ومن ثمَّ؛ فالمؤمن لا يلجأ إليه إلا في قمة احتياجاته وأشد ضروراته.

ولقد قرأنا في سيرة القائد القرشي المسلم عقبة بن نافع -رحمه الله- أنه جمع أولاده إبان وفاته، فأوصاهم وصية حكمية جاء فيها: «وأوصيكم ألا تداينوا، ولو لبستم العباء، فإن الدَّين ذلٌّ بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم».

ولذا؛ فالمؤمن يسعى جاهدًا للكسب الشريف الحلال والعمل الذي لا يعرف الكلال؛ لأن وعثاء العمل تزول في آخر النهار، وتحدث للعامل راحة عند نومه، وحين ينام المتعب يجد فعلاً حلاوة النوم، أما إذا لجأ للدين؛ فالنوم عندئذ مشرد، والفكر عندئذ مبدد.

إنَّ من الناس من لا يبالي بالديون فهو يستدين لأتفه الأسباب كأنها الدين هواية محببة، ثم هو يلبس للدائنين جلد تمساح فلا يبالي بحقوقهم ولا يأبه بإهانتهم، وربها حصل لديه مال يوفي به لكنه مماطل ويسوِّف حتى ينفق المال في غير طائل، ثم يستنيم للذل وإهانة الكرامة، فينتحل أعذارًا مضحكات مبكيات.

ولقد كان رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث الذي رواه النسائي يقول: «**أعوذ بالله من الكفر والدين**»، فقال له أحد أصحابه: يا رسول الله، أتعدل الكفر بالدين؟ قال: «**نعم**».

وفي الأثر: إذا أراد الله أن يذل عبدًا وضع الدين في عنقه.

وجاء في مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها**»، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**الدَّين**».

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ فَارَقَ الرُّوحُ الْجَسَدَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلاَثٍ: الْكَنْزِ وَالْغُلُولِ وَالدَّيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، والكنز جمع المال دون أداء زكاته، والغلول معناه الاختلاس.

والمؤمن إذا استدان دينًا لم ينسه في ليله أو نهاره، وعقد نيته على السداد والوفاء وعندئذٍ يعينه الله ويقدره؛ ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله**».

إنَّ المؤمن يعتبر المدين الذي لا ينوي الوفاء سارقًا؛ لأن نفسه اطمأنت لأكل الحقوق، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «**أَيُّمَا رَجُلٍ يَدِينُ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَلا يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللهَ سَارِقًا**».

وكان رسول الله ﷺ يتشدد جدًّا في أمر الدين حتى لقد بلغ من ذلك أن أعلن الشهيد يكفر الله كل ذنوبه إلا الدين، وذلك لحرص رسول الله ﷺ أن تكون أمته أمة زكية وضيئة لا

تضيع فيها الحقوق، فلقد جاء في الحديث الذي رواه النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ**».

وقد بيَّن رسول الله ﷺ أن ثمة مواقف ربما يعذر المؤمن إذا استدان، فقد جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الدَّيْنَ يُقْضَى مِنْ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا مَاتَ إِلَّا مَنْ يَدِينُ فِي ثَلَاثِ خِلَالٍ: الرَّجُلُ تَضْعُفُ قُوَّتُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ** (أي: لا يجد سلاحًا وركوبة ليغزو)، **فَيَسْتَدِينُ يَتَقَوَّى بِهِ لِعَدُوِّ اللهِ وَعَدُوِّهِ، وَرَجُلٌ يَمُوتُ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ لَا يَجِدُ مَا يُكَفِّنُهُ وَيُوَارِيهِ إِلَّا بِدَيْنٍ، وَرَجُلٌ خَافَ اللهَ عَلَى نَفْسِهِ الْعُزْبَةَ فَيَنْكِحُ خَشْيَةً عَلَى دِينِهِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْضِي عَنْ هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وروى أبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ شهد دفن رجل من المسلمين، فقال بعد دفنه: «**ها هنا رجل من بني فلان؟**»، وذكر جماعة الميت، فلم يجبه أحد، فكررها ثلاثًا، وإذا رجل يقول: أنا يا رسول الله. فقال له النبي ﷺ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي فِي الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، أَمَا إِنِّي لَمْ أُنَوِّهْ بِكُمْ إِلاَّ خَيْرًا، إِنَّ صَاحِبَكُمْ مَأْسُورٌ بِدَيْنِهِ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَافْدُوهُ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَأَسْلِمُوهُ إِلَى عَذَابِ اللهِ**»، فقال رجل: عليَّ دينه، فقضاه.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه**»، ومعناه أن نفس المؤمن مرهونة لا يفك قيدها إلا إذا سدَّ دينه.

وقد روي عن رسول الله ﷺ في أكثر من موضع في السُّنة أنه كان إذا دعي للصلاة على مؤمن ميت يسأل قبل أن ينوي: «**هل عليه دين؟**» فإذا قيل: نعم أمسك عن الصلاة، وقال: «**صلوا على صاحبكم. إن جبريل نهاني أن أصلي على مَن عليه دين**». وهذا يشير إلى قداسة حقوق العباد في المجتمع المسلم.

هذا المؤمن حين يرزقه الله ما يوفي به دينه لا يمكن أن يكون مماطلاً يكتم المال، ويسوف في أداء دينه؛ ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ**»، ومعناه إذا حوَّلك أخوك المدين على رجل لديه مال لتستوفي دينك منه فاقبل

الحوالة تيسيرًا على أخيك، وذلك لأن الله يبغض الغني الظالم المنكر للحق، ولأن الأمة التي تضيع فيها الحقوق هي أمة نجسة، يقول رسول الله ﷺ: «مَا قَدَّسَ اللهُ أُمَّةً لا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا الْحَقَّ مِنْ قَوِيِّها غَيْرَ مُتَعْتَعٍ» أي: بدون أن يلقى تعبًا وقلقًا.

هذا، وما أجمل أن يدعو المؤمن المدين ربه بهذا الدعاء المأثور إذا ألحت عليه ديون: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ».

## القرض الحسن وآداب أدائه

القرض الحسن من أعظم القربات إلى الله ﷻ؛ لأنه بإذن الله يفرج كربة المعسر ويقضي لبانة المضطر ويدخل بيت المهموم كما يدخل النور حالك الظلمة فيضيء جوانب القلوب الحزينة بأنوار الرخاء والفرج، ولهذا حثَّ ربنا ﷻ على القرض الحسن في كثير من مواضع القرآن، والقرض الحسن هو الذي يبذله صاحبه ابتغاء مرضاة الله على نية التيسير على المعسر دون انتظار لمنفعة عاجلة أو زيادة في رأس المال.

**وهذه أحاديث شريفة حول القرض أو الدين وحول آداب قضائه:**

- جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن رجلاً لم يعمل خيرًا قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خُذْ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، فلما هلك قال الله له: هل عملت خيرًا قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام.. (وذكر القصة)، فقال له الله ﷻ: «قد تجاوزت عنك»**».

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن سره أن ينجيه الله من كُرب يوم القيامة؛ فلينفس عن معسر أو يضع عنه**».

- وفي صحيح مسلم باختصار من حديث طويل أن أبا اليسر ﷺ كان له على رجل دين،

فذهب إلى أهل المدين، وقال: «ثَمَّ هو؟ قالوا: لا، فخرج ابن للمدين فسأله أبو اليسر: أين أبوك؟ فقال: سمع صوتك فدخل أريكة أمي. فعاد أبو اليسر يطرق الباب ويقول للمدين: اخرج فقد علمت من ابنك أنك في البيت، فخرج الرجل وقال: أنا والله أحدثك ولا أكذبك، خشيت أن أحدثك فأكذب أو أعدك فأخلف، وقد صحبت رسول الله ﷺ وأنا والله معسر، فقال له أبو اليسر: آلله أنك معسر؟ فقال: الله. فأعطاه صحيفة الدين وأمره أن يمحوها وقال له: أنت في حِل. فقال الرجل: سمعت رسول الله ﷺ بأذني ورأيته بعيني وهو يقول: «**من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله**».

– وفي حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبًا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلت: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة**».

– وفي الصحيحين أن رجلاً كان له على النبي ﷺ سِنٌّ من الإبل فجاءه يتقاضاه، فقال: «**أعطوه**»، فطلبوا له مثل سنه، فلم يجدوا إلا سنًّا فوقها، فقال: «**أعطوه**»، فقال الرجل: أوفيتني وفى اللهُ بك. فقال ﷺ: «**إن خيركم أحسنكم قضاءً**».

– وفي الصحيحين أن كعب بن مالك ﷺ تقاضى رجلاً دينًا في المسجد، فارتفعت أصواتها حتى سمعها رسول الله ﷺ، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته، فنادى: «**يا كعب**»، قال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك، قال كعب: قد فعلتُ يا رسول الله، فقال للرجل الآخر: قُمْ فاقضه.

– وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ**».

– وفي سنن أبي داود والنسائي وأحمد أن رسول الله ﷺ كان لا يصلي على رجل مات وعليه دين، فأتي بميت، فقال: «**أعليه دين؟**» قالوا: نعم ديناران. قال: «**صلوا على صاحبكم**»، فقال أبو قتادة: هما عليَّ يا رسول الله، فصلى عليه.

– وفي سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلاً قُتِلَ فِي سَبِيلِ**

اللهِ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مَا دَخَلَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ دَيْنُهُ».

**أولاً**: الدين من أشد مصائب الأحرار وهو همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار، وقديمًا قيل: لا هم إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع العين، وكان رسول الله ﷺ يتعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال، وإن من أعظم صنائع المعروف أن تأتي إلى مسلم قد أثقلته الديون فتقضها عنه، ثم تنظره حتى يمن الله عليه بالميسَّر ويسدد الدين على راحته وحسب إمكانه، وإن مثل هذه الصنيعة أمان لصاحبها من كرب القيامة.

**ثانيًا**: كل قرض جر منفعة فهو ربا، فإذا أسلفت أخاك فأهدى إليك هدية أو أرسل ابنه ليشتغل لك مجانًا، أو قال لك: لقد ربحت نقودك عندي، وهذا بعض الربح؛ فكلُّ ذلك لا يجوز أخذه، وما يكون لك أن تسترد إلا مبلغك دون أي زيادة، ويجوز لك أن تسترده ناقصًا، فتضع عن المدين إذا رأيت استمرار ضيقته، كما جاء في خبر كعب بن مالك ﷺ حين أمره رسول الله ﷺ أن يضع عن غريمه نصف الدين وأمر الغريم بأداء الباقي، وبناء على هذا الحديث يجوز لصاحب الدين أن يقول للمستقرض: إذا أوفيتني في خلال شهر مثلاً، فيكفي منك نصف القرض (والقِرض بكسر القاف لغة في القرض)، وقد يتصدق المقرض بدينه فيكون له أجر عظيم، قال -تعالى- يذكر الدين: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

**ثالثًا**: من آداب وفاء القرض أو الدين أن تردَّه مع كلمة شكر، كأن تقول للمقرض: «جزاك الله خيرًا»، وكتب لك حسن المثوبة، وإذا أقرضك ثوبًا فرددت عليه أحسن من ثوبه فلا بأس اقتداءً برسول الله ﷺ حين استقرض سنًّا من الإبل فوفى بأحسن منها.

ومن الآداب أن تبادر إلى وفاء القرض حالما يحصل لديك، وألا تماطل فتصبح ظالمًا؛ لأن مطل الغني ظلم.

ومن آداب اقتضاء القرض إذا أحالك المقترض على غني أن تقبل الحوالة، وتطالب الغني الذي حُوِّلت عليه، كما إن أعظم أدب من آداب القرض أن تقصد به وجه الله، وألا تتبعه أي منٍّ أو أذى.

**رابعًا:** سداد الدين من أهم ما يحرص عليه المسلم حتى لا يفاجئه الموت وهو مدين فتظل ذمته غير برئية، وقد رأيت كثيرًا من الناس يؤجل أداء الدين مع أن لديه نقودًا كثيرةً، وما درى صاحبنا أنه قد يظل في قبره مرهونًا بدينه حتى تقضى عنه، وأن الدين قد يؤجل دخول الجنة حتى ولو كان المدين شهيدًا، نسأل الله ﷻ أن يقضي عنا دين الدنيا والآخرة.

## الرَّهــــن... أحكامه وآدابه

الإسلام يحرص علي أموال الناس ويحرِّم أن تؤكل بغير حق أو أن تغتصب أو تبتز، وفي كل أنواع المعاملات يحرص الإسلام أن يتقي كل من المتعاملين ربه في مال أخيه، كما شرع أن يكتب الدين مهما كان صغيرًا أو كبيرًا في صك، ويذكر في الصك قيمة الدين وأجله حتى لا يكون نسيان واختلاف حول القيمة أو حول موعد السداد، وشرع أن يشهد على الدين رجلان أو رجل وامرأتان لزيادة التوثيق، وقال ﷻ في حكمة ذلك: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أي أن كتابة الدين في صك موثق بالشهود تحقق العدل وتصحح الشهادة أن يقع فيها خطأ وتمحو الشك الذي قد يطرأ بسبب طول المدة.

وإذا لم تتهيأ الظروف للكتابة رهن المدين عند الدائن رهنًا مقبوضةً كحيوان أو قطعة حلي ليطمئن الدائن على ماله، والرهن مشروع فما يجوز للمدين إذا طلب منه الدائن رهنًا أن يغضب؛ إذ من حق صاحب المال أن يحافظ على ماله بشتى الوسائل.

**وهذه أحاديث شريفة حول الرهن نوردها ثم نستنبط الأحكام المتعلقة بها:**

- جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا وَلَبَنُ الدَّرِّ يُشْرَبُ بِنَفَقَتِهِ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا، وَعَلَى الَّذِي يَرْكَبُ وَيَشْرَبُ النَّفَقَةُ**». وفي زيادة: «**الرَّهْنُ لَهُ غُنْمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ**».

- وفي موطأ مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يغلق الرهن**».

-وفي الحديث المتفق عليه قالت عائشة -رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ اشترى طعامًا

من يهودي إلى أجل ورهنه درعًا، وفي رواية: إن رسول الله ﷺ طلب من يهودي سلف شعير، فقال اليهودي: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأمين في الأرض أمين في السماء، ولو ائتمنتني لأديت، اذهبوا إليه بدرعي».

**الأحكام المتعلقة بالرهن:**

**أولاً**: الرهن لغةً: الحبس، يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، أي: محبوسة لا يطلق سراحها إلا كسبها وعملها، وشرعًا: أن تسلم صاحب الدين الذي عليك مالاً أو حيوانًا ينتفع به إلى أن يرزقك الله سداد الدين، والرهن جائز، فإذا أسلفك إنسان مالاً وطلب منك أن تطمئنه على ماله برهن من ذهب أو فضة أو نعجة أو بقرة جاز ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

**ثانيًا**: الرهن نوعان: نوع ينتفع به وينمو ويزداد كناقة أو بقرة أو نعجة أو عنز أو فرس، ونوع لا نماء له كقطعة ذهب، والنوع الأول من الرهن يجوز للمرتهن أن ينتفع به، فيركب الفرس والناقة، أو يحلب النعجة والبقرة، وإذا ولدت هذه الحيوانات فأولادها للمرتهن في مقابل إطعامها والتعب عليها، وضمانها في حال تلفها (والغرم بالغنم)، أما إذا كان الرهن مما لا نماء له ولا منفعة فما يجوز للمرتهن أن يتصرَّف فيه، بل عليه أن يحفظه، ويعتبر في هذه الحال أمينًا عليه فلا يغرمه إذا تلف أو ضاع إلا إذا ثبت تقصيره، وإذا انتفع المرتهن بالرهن الذي لا يتطلب العناية والإطعام والإنفاق كان ذلك ربًا، فإذا كان لديك مثلاً رهنُ ذهب أو فضة فما يجوز لك أن تؤجرها لتتحلى بها النساء في الأعراس؛ لأن هذا إذ ذاك يكون ربًا، وكلُّ قرض جر منفعة؛ فهو ربا.

**ثالثًا**: إذا انتهت مدة الدين وأجله، فهل يجوز للمرتهن أن يبيع الرهن، ويسترد دينه ويعيد ما تبقى من ثمن الرهن إلى مالكه أو يطالبه بما يفضل له إذا كانت قيمة الرهن أقل من الدين؟ ففي هذا الأمر خلاف، فالحديث الشريف الذي في موطأ مالك يقول: «لاَ يَغْلَقُ الرَّهْنُ» لم يقدر راهنه على تخليصه من يد المرتهن في الموعد المشروط، فصار ملكًا للمرتهن، وقد كان العرب في الجاهلية إذا ارتهنوا رهنًا من المدين ثم لم يستطع السداد يستولون على الرهن، ويعتبرون أن ملكية الرهن قد آلت لصاحب الدين، روى معاوية بن عبد الله بن

جعفر أن رجلاً رهن دارًا بالمدينة إلى أجل مسمى، فلما انقضى الأجل قال الذي ارتهن: منزلي- أي: أصبحت الدار المرهونة ملكي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يغلق الرهن من صاحبه، له غنمه وعليه غرمه**».

وعلى صاحب الدين في هذه الحال أن يصبر وينتفع بالرهن إلى أن يستطيع الراهن السداد، ولا يجوز للمرتهن أن يضع يده على الرهن متملكًا، ولكن يتدخل الحاكم ويجبر المدين أن يسدَّ دينه، فإن أبى أو لم يستطع تصرَّف الحاكم المسلم وباع الرهن، فإن زاد ثمنه على قيمة الدين أعطى الزائد لصاحب الرهن، وإن نقص عاد على المدين بالباقي.

**رابعًا**: إذا رهنت أخاك بيتًا ثم سددته نصف دينه مثلاً، فما يجوز لك أن تسترد نصف البيت في مقابل سداد نصف الدين، وإنما يتبقى البيت مرهونًا إلى أن تسدد باقي الدين أو يبرئك الدائن.

هذا، ولعل من تمام المروءة ألا يطلب المسلم من أخيه رهنًا إذا عرف أنه أمين ودين ونظيف اليد، فيكتفي عندئذ بأمانته، ويكتب عليه صكًّا، وفي هذه الحال يكون قد ائتمن أخاه بدلاً من أن يرهقه برهن، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وردًّا على هذه الثقة على المدين أن يتحلى بأعظم الأمانة، وأن يبادر في أقرب فرصة إلى رد الأمانة إلى صاحبها، ونعني بها السلفة التي تسلَّفها.

**خامسًا**: يدعو الإسلام المسلمين إلى تسهيل المعاملات في غير ما إهمال أو تفريط، فالكاتب عليه أن يكتب إذا قصده أخوه، وعليه أن يكتب بالحق، والشاهد إذا دعي للشهادة فعليه ألا يأبى، وقد لوحظ أن بعض كتَّاب العدل معقدين، وأن منهم ميسرين، والسُّنة التيسير؛ لأن مَن سهَّل أمور المسلمين سهَّل الله أمره.

***

## أحكام بيع العربون والتسعير والاحتكار

هذه أحاديث نبوية كريمة حول ثلاث مسائل من أمور البيع يكثر شيوعها في المجتمع ألا وهي بيع العربون، وحكم التسعير، وحكم الاحتكار:

- روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يبعْ في سوقنا إلا من تفقه في الدين»**.

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»**، ثم ذكر في الحديث الآخر: الرجل أشعث أغبر يمد يده إلى السماء، يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام؛ فأني يستجاب لذلك.

- وروى ابن ماجه أن النبي ﷺ نهى عن بيع العربون.

- وروى الإمام أحمد عن نافع عن عبد الله بن الحارث أنه اشترى لعمر دار السجن بمكة من صفوان بن أمية بأربعة آلاف درهم، فإن رضي عمر كان البيع نافذًا، وإن لم يرض فلصفوان أربعمائة درهم.

- وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من احتكر طعامًا؛ فهو خاطئ»**.

- وفي سنن ابن ماجه: **«الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون»**.

- وفي جامع رزين: **«بئس العبد المحتكر إنْ سمع برخص ساءه، وإنْ سمع بغلاء فرح»**.

- وللقزويني: **«من احتكر على المسلمين طعامًا ضربه الله بالجذام والإفلاس»**.

- وفي سنن أبي داود أن رجلاً جاء فقال: يا رسول الله، سعِّر، فقال: **«بل أدعو»**، ثم جاءه آخر فقال: يا رسول الله، سعِّر، فقال: **«بل الله يخفض ويرفع، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة»**.

- وللترمذي وأبي داود: قالوا: يا رسول الله ﷺ، غلا السعر فسعِّر لنا، فقال: **«إن الله هو القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال»**.

**أولاً**: جميع المعاملات التي يدخل فيها المؤمن لا ينبغي أن يخالطها السحت والحرام،

فالحرام ممحقة للبركة، مفسدة للذرية، والحرام لا يكتب له عند الله قبول، ولا يستجاب لصاحبه دعاء، فمن أراد أن تطهر طويته وتصلح ذريته وتقبل حسناته ويستجاب دعوته؛ فعليه بالكسب الطيب الحلال الخالي من التدليس والغش والغلول والرشوة والاختلاس، ومن ثم كان على المؤمن الذي يتصدر المعاملات أن يتفقه في دينه ليعرف حدَّه ويقف عنده.

**ثانيًا:** بيع العربون ومثله الإجارة بالعربون هو أن يعجبك المبيع أو العقار المؤجر فتوافق على الشراء أو الإجارة، وتدفع مبلغًا من المال ربطًا للاتفاقية، وكلمة العُربون والعَربون عربية ذكرها صاحب «لسان العرب»، ومعناها الإعطاء.

وقد ذهب عدد من العلماء من بينهم الإمام أحمد أن العربون يضيع على المستأجر أو المشتري إذا عدل عن الشراء أو الإجارة، واستند في ذلك إلى أن صفوان بن أمية باع لعمر ﷺ دارًا بمكة لتكون سجنًا واشترط إذا ارتضاها عمر أن يدفع ثمنها أربعة آلاف درهم، وإذا أراد فسخ الاتفاقية أن يدفع أربعمائة درهم لصفوان.

وذهب بعض الأشياخ أن العربون يرد على صاحبه آخذًا بالحديث الذي رواه ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع العربون.

وهنالك رأي وسط بين الرأيين وخير الأمور الوسط، وهو أن المشتري أو المستأجر الذي دفع عربونًا إذا عدل عن الاتفاقية لعذر مقبول، فالأفضل أن يرد عليه البائع أو المؤجر عربونه، فمثلاً إذا أستأجر أحد الموظفين شقة ودفع للمكتب أو لصاحبها عربونًا، ثم فوجئ بنقله إلى بلد آخر أو وجد أن أحد أصدقائه استأجر له شقة ودفع الأجرة وأبرم العقد، فإذ ذاك يحسن بالبائع أو المؤجر أن يرد على أخيه عربونه عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؛ لأن دافع العربون يتألم ولا تطيب به نفسه إذا ضاع عربونه في ظرف من الضرورة وبخاصة إذا كان فقيرًا.

ومثل ذلك إذا استأجر أحد الناس دكانًا ليتخذه متجرًا أو مطعمًا، وجعل مدة العقد سنة، لكنه بعد أن عمل شهرًا أو شهرين خسر، وأراد ترك المحل حتى لا تتفاقم الخسارة، فهنالك يحسن بأخيه الذي أجره الدكان ألا يلزمه بذلك النص من العقد، ويكتفي بالمدة التي استعمل فيها الدكان، وأجره عند الله، وهذا الأمر من قبيل الفضل لا من قبيل الإلزام وإلا فالشرع

يعطيه الحق أن ينفذ شروط العقد؛ لأن العقود في الشرع محترمة، والمؤمنون على شروطهم.

**ثالثًا**: الاحتكار هو أن يقوم تاجر بتخزين قوت من أقوات المسلمين ليشح هذا القوت في السوق فيغلى حتى إذا تضاعف سعره أخرج المحتكر ما عنده من القوت المخزَّن وباعه بثمن عالٍ، ولا يكون الاحتكار المحرم إلا في الطعام والسلع الضرورية، فإذا احتكر عطورًا أو لعبًا أو أقمشة غالية ثمينة، فلا ينطبق عليه اسم محتكر.

والحقُّ أن المحتكر لطعام تجتمع فيه صفات يكرهها الله ورسوله: منها الأنانية التي لا تبالي بمصالح الناس، ومنها الشح الذي يأبى على صاحبه التضحية، ويزين له الحرص، ومنها قسوة القلب التي تتأثر بجوع الناس واحتياج أطفالهم للطعام واللباس، ولهذا جاءت الأحاديث المنفرة من الاحتكار مخيفة حقًّا، فالمحتكر بريء من الله، والله بريء منه، والمحتكر ملعون مطرود من رحمة الله، يبتليه الله بالفقر والجذام، كلُّ ذلك لأنه نزع من قلبه الرحمة والإيثار، وخزَّن من أقوات المسلمين ليغنى ويبني لنفسه ثروة على أشلاء حرمانهم.

**رابعًا**: تسعير المواد في السوق من قبل الحاكم الأصل فيه أنه لا يجوز؛ لأن التاجر حرٌّ في ماله إذا لم تضر حريته بمصالح المسلمين، ولأن التسعير قد يخفي السلعة من السوق، فإذا خلا السوق منها غلت أكثر من ذي قبل، وإذا لم تسعر الأشياء، فإن التنافس بين التجار قد يرخصها؛ إذ هنالك من التجار من يقنع بالقليل.

على أن الحاكم المسلم يمكنه أن يحدد الأسعار كما يرى بعض الشافعية والإمام مالك إذا رأى من التجار تلاعبًا وتعديًا وعبثًا بمصالح العباد، فعندئذٍ يستشير النصحاء، ويسعر ضمانًا لمصلحة المسلمين.

***

# الوصية
## حكمها وحكمتها واستحقاقها وشروطها

هذا الأمر الذي نبحث أحكامه هو من أهم الأمور التي تهم المسلم في معاشه ومعاده، وذلك لأن موعد الموت ومكانه مما لا يعمله إلا الله، وقد يفجأ الموت المؤمن فيتعب ورثته في البحث عن حقوق العباد، ومن ثم كان موضوع الوصية أمرًا حيويًّا يحرص عليه كل مؤمن.

وهذه بعض الأحاديث الكريمة في موضوع الوصية حكمها وحكمتها واستحقاقها وشروطها:

– روى الجماعة عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: **«ما حقُّ امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين -وفي رواية: ثلاث- ليالٍ إلا ووصيته مكتوبة عنده»**.

– وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض فقال: **«أوصيت؟»** قلت: نعم، قال: **«بكم؟»** قلت: بمالي كله في سبيل الله. قال: **«فما تركت لولدك؟»**. قلت: هم أغنياء بخير. قال: **«أوصِ بالعشر»**، فما زلت أناقصه حتى قال: **«أوصِ بالثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»**.

– وفي الصحيحين أن ابن عباس كان يقول في الوصية: لو غضَّ الناس في الثلث إلى الرُّبع؛ لأن النبي ﷺ قال لسعد: **«الثلث والثلث كثير»**.

– وفي سنن أبي داود والترمذي ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»**.

– وروى البخاري عن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- ما خلاصته أن أباه الزبير كان إذا أودعه الناس أمانة تصرف فيها واشترى بها عقارًا، وذلك لكي يغرم الأمانة على كل حال، ويردها إلى صاحبها، فلما قتل ﷺ حسبت ديونه التي عليه وإذا هي ألف ألف ومائتا ألف (يعني: مليونين ومائتي ألف درهم)، وحسبت تركته وقيمة العقارات وإذا هي ببركة

نيته وأمانته خمسون ألف ألف ومائتا ألف (يعني: خمسين مليونًا ومائتي ألف درهم) فأدى عبد الله جميع ديون أبيه بناء على وصيته، ولم يقسم بقية التركة على الورثة إلا بعد أربع سنين؛ ليتأكد أنه لم يبق على أبيه حق لإنسان.

- وروى أبو داود والنسائي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت، فيضاران في الوصية فتجب لهما النار**»، ثم قرأ أبو هريرة ﷺ قوله -تعالى: ﴿**مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ**﴾ [النساء: ١٢].

- وفي سنن ابن ماجه: «**مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ، وَمَاتَ عَلَى تُقًى وَشَهَادَةٍ، وَمَاتَ مَغْفُورًا لَهُ**».

**أولاً**: الوصية هي أن يهب الإنسان لغيره هبة على أن يملكها الموصي له بعد موت الموصي، وحكم الوصية يتراوح فمنها الواجبة والمستحبة والحرام، فالواجبة تكون إذا كان على الموصي دين لا يعلمه غيره، أو كانت عليه حقوق لله أو للعباد، أو كانت عنده أمانة لا يعلم مكانها إلا هو.

أما الوصية المستحبة؛ فهي التي تكون لبعض الصالحين من أقارب الموصي ومن فقراء طلاب العلم والمتعففين.

وأما الوصية الحرام؛ فهي التي تحتوي على إضرار بأصحاب الحقوق، أو أن يوصي بمعصية كإنشاء مصنع خمر أو بناء دار لهو.

**ثانيًا**: على المؤمن أن يحرص حرصًا شديدًا على كتابه وصيته بحيث تكون جاهزة إذا جاء الأجل، وما أجمل أن يبدأ باسم الله والثناء عليه، والحث على العمل الصالح، وفي الصيغ التي كتبها الصحابة هذه الصيغة التي رواها عبد الرزاق عن أنس ﷺ أن الصحابة كانوا يكتبون في صدور وصاياهم: «بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أوصي به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن الساعة لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله، ويصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله أن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصي به إبراهيم بنيه

ويعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]».

**ثالثًا:** على الموصي أن يتقي الله في وصيته فربَّ وصية كانت لصاحبها نجاه من النار، ورب وصية أحبطت عمل ستين عامًا وأهوت بصاحبها إلى النار، وقد شاع في بلاد الغرب في هذه الأيام أنواع من الوصايا الهزيلة كأن يوصي بكلِّ ماله إلى قطط أو كلاب أو قردة، ولكن ليس بعد الكفر ذنب، أما المؤمن فيتقي الله في كل حرف من حروف وصيته؛ لأنه يوصي للصالحين وللفقراء المتعففين من ذوي القربى واليتامى المساكين، وقد يوصي بصدقات جارية تنفعه بعد المهات، كبناء مسجد أو استنباط ماء لأبناء السبيل، أو طباعة مصحف وتوزيعه، أو وقف لطلاب العلم؛ فتكون وصيته نورًا بين يديه يوم القيامة.

**رابعًا:** إذا مات المؤمن وجب على ورثته أول شيء أن يسددوا ديونه من حقوق العباد وحقوق الله، ثم يقرءون وصيته وينفذونها بعد سداد الديون، ثم يقسِّمون ما تبقى من تركته على الورثة والأرحام والعصبات، كما فرض الله أن تقسم مما قلَّ من التركة أو كثر نصيبًا مفروضًا، وعليهم أن يتصدقوا من التركة أثناء قسمتها حتى ولو لم يوص أبوهم بذلك؛ لأن ما يقدمه الابن لله على نية أن يكون الثواب لأبيه يصل بإذن الله وبخاصة الصدقة والدعاء، كما يجوز للابن أن يحج عن أبيه، ويصوم عنه؛ فهذه ديون الله، ودين الله أحقُّ أن يقضى.

**خامسًا:** لقد شدَّد رسول الله ﷺ في أمر الوصية، ولكنه -عليه الصلاة والسلام- مات ولم يوص، ولم يكن ذلك تناقضًا؛ فقد عرف الصحابة جميعًا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يترك مالاً.

**سادسًا:** لا وصية لوارث؛ لأن الله ﷻ فرض من عليا سمواته لكلِّ وارث نصيبًا مفروضًا، والوصية للوارث خروج على فرائض الله، ومن أوصى لأحد ورثته بشيء لم يلزم الورثة أن ينفذوا الوصية للوارث إلا إذا كان الموصي قد أخذ موافقتهم في حياته وأقنعهم بظروف ذلك الوارث من تكاليف لطلب العلم أو كبر حجم العائلة، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

# الرِّبـــــا

إذا كان يوم القيامة شوهد بعض الناس في ساحاتها كأنهم مجانين يتخبطهم الشيطان، فإذا سئل عنهم قيل: هؤلاء هم المرابون في الدنيا، أغفلوا عقولهم فيها حين تخلوا عن الرحمة والضمير، فسلبهم الله عقولهم في الآخرة.

إنَّ جميع الأديان السماوية حرَّمت الربا واعتبرته سقوطًا في مروءة المرابي، وحثت على القرض الحسن الذي يقصد به تفريج كربة المعسر دون أن يجرَّ القرض للمقرض أية منفعة، وليكون ذلك القرض المبارك خالصًا لوجه الله الكريم، وقد جاء في الحديث الشريف أن القرض الحسن قد يكون أعظم ثوابًا من الصَّدقة، وذلك لأن القرض لا يعطى إلا لمحتاج واقع في كربة مالية، أما الصدقة فقد تقع في يد متسول لا يحتاج إليها.

**وهذه بعض الأحاديث الكريمة التي تدور حول داء الربا وهو داء اجتماعي كان وما يزال يجر على الإنسانية ويلات، ويوقع بينها عداوات، ويورط الشعوب والحكومات في أزمات، ومن أجل ذلك تشدد الإسلام في الرِّبا حتى لقد جاء عن النبي ﷺ أنه قرن المرابي بمن يقترف الفاحشة، ولعن كل من له صلة بالربا:**

- جاء في «صحيح مسلم» عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ لعن أكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه.

- وفي سنن أبي داود والنسائي عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا قال رسول الله ﷺ: **«ليأتينَّ على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره»**.

- وفي الحديث المتفق عليه: **«الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلاً بِمِثْلٍ يَدًا بِيَدٍ؛ فَمَنْ زَادَ فَقَدْ أَرْبَى»**.

- ولمسلم -رحمه الله- من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: **«فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»**.

وروى أصحاب السنن أن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كنت أبيع الإبل بالبقيع،

فأبيع بالدنانير فآخذ مكانها الورق، وأبيع بالورق فآخذ مكانها الدنانير، فأتيت النبي ﷺ فقال: «**لا بأس به بالقيمة**».

**أولاً**: الربا في اصطلاح الفقهاء هو أن تأخذ أكثر من رأس مالك الذي داينته أخاك، وهو من أسوأ الأدواء الاجتماعية، ولهذا تشدد الشرع الإسلامي في أمر الربا والمرابين والمتصلين بعلمية الربا من كاتب وشاهد ومؤكل، وقد حرَّمه الإسلام لما يترتب عليه من توحش الإنسانية ومن تنكرها لصنائع الخير ومن عداء وحقد وبغضاء يتركها الربا بين المتعاملين به، كما حرَّمه لأنه يعلِّم صاحبه الكسل؛ لأن المرابي بأخذ الربا وزيادة رأس المال دونما تعب يذكر على عكس البيع الذي لا يأتي ربحه إلا بغدو ورواح وتنقُّل، ثم إن الربا كان وما زال وسيلة اليهود في التسلط والاستعمار والابتزاز.

وأخيرًا؛ فإن الربا يمحو من المجتمع رحمة العبد للعبد وما يتحلى به الأغنياء الصالحون من صنائع المعروف وإغاثة الملهوف.

**ثانيًا**: توقع رسول الله ﷺ انتشار الربا، وهو الذي ينطق بوحي يوحى، ولا ينطق عن الهوى، وقد حصل في هذه الأيام أن انتشر الربا على صور مختلفة، فمن لم يأكل الربا أصابه من بخاره، وإن كثيرًا من أموال الأغنياء المسلمين تودع في المصارف الربوية، إما لتستثمر أو لتحفظ، وفي كل الأحوال نسأل الله السلامة من الحرام.

**ثالثًا**: الربا نوعان: ربا النسيئة وربا الفضل، فربا النسيئة أن تعطي أخاك نقودًا وتتقاضى منه أكثر من رأس مالك في مقابل صبرك عليه، فتعطيه مثلاً عشرة آلاف ريال، وتكتب عليه خمسة عشر ألف ريال في مقابل نسيئة الدين، أي: تأجيله.

وأما ربا الفضل؛ فهو أن تبيع طعامًا أو نقودًا مع الزيادة، وإنما خص النقود والطعام؛ لأن هذين الأمرين هما قوام تعامل الناس وحياتهم، فمن بادل أخاه مثلاً قلادة ذهب بأساور ذهب، فالشرط عندئذ أن يكون البدل مثلاً بمثل سواءً بسواء، وأن يتم التسلم والتسليم في نفس مجلس العقد، وهذا هو المقصود بقوله ﷺ: «هاء وهاء»، وفي حالة عزمك أن تشتري ذهبًا بذهب أحسن من ذهبك فلا بدَّ أولاً أن تبيع ذهبك بثمن محدد، ثم تشتري الذهب

الجديد بالسعر الذي تتراضى أنت والبائع عليه.

وكذلك إذا أردت أن تشتري تمرًا جيدًا بتمر رديء أو تشتري نوعًا من الرطب الغالي بنوع أرخص منه؛ فعليك في كلِّ هذه الأحوال أن تبيع تمرك أو رطبك، ثم إذا حصل الثمن في يدك اشتريت ما تريده من النوع الذي تريده بما تتفقان عليه من سعر.

ومن البيوع المحرمة أن تبيع أخاك سلعة بثمن معين، ثم تعود فتشتريها نفسها منه، وفي وقت قصير بسعر أقل من الذي دفعته.

أخرج مالك بن أنس في «الموطأ» أن امرأة من همدان اسمها العالية بنت أيفع دخلت على عائشة -رضي الله عنها- فسمعت امرأة تقول لأم المؤمنين -رضي الله عنها: إني بعت غلامًا من زوجي زيد بن أرقم بثمانمائة درهم نسيئة، ثم اشتريته منه بستمائة نقدًا، فقالت عائشة -رضي الله عنها: بئس ما شريت، وبئس ما اشتريت، أبلغي زيد بن أرقم أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب.

**رابعًا**: سألني بعض الإخوة أنهم كانوا أيام جهالتهم يودعون أموالهم في المصارف الربوية، وأن بعضهم قد حصل من ذلك على ربح وفير لو جمعه لبلغ مئات الآلاف؛ فماذا يفعل بذلك المال لكي يقبل الله توبته؟

والجواب: هو ما ذكره ربنا ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رءوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، ولكنه هنا لا يريد الزيادة إلى المصرف؛ لأن في هذا شر أكبر؛ إذ المال حينئذ سيظل مسخرًا في الربا.

وإذن، فعلى الأخ السائل أن يوزع المال على الفقراء والمحتاجين، فإن قال: إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيبًا، أجبناه بأن هنالك قاعدة شرعية تنص على أنه يختار أهون الشرين، ولعل الله ﷻ برد الربا على المحتاجين والتخلص من سحته يغفر ذنب المخطئ، ولو لم يثبه على صدقته بالخبيث، والله ﷻ لا يظلم مثقال ذرة، وهو يغفر ويقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، وهو التواب الرحيم.

***

## حقوق الإنسان وكرامته

تنادي الهيئات الدولية في هذه الأيام بحقوق الإنسان وكرامته، لكن كل نداء تصدره يطير أدراج الرياح، وترى كثيرًا من الدول لا كرامة عندها لمواطنيها ولا حقوق لإنسانها ولا سكانها، أعرف دولاً كممت أفواه الأحرار وصادرت الأداء والأفكار، وأبت عليها طبائع الاستبداد أن تسمع إلى رأي مصلح أو تستند برأي مفكر، وإذا دعا فيها داعية إلى النور والحق والهدى سحقه لصوص الشعوب وعربدوا من حوله بشتى التهم، فقالوا: رجعي أفكار وذئب استعمار وعدو الشعب، وما نقموا منه إلا أنه صدع بالحق ونطق بالصدق، وسأل الظالم عن أفعاله، ونهى المستبد عن طغيانه.

ولقد رأيت بعيني دولاً تسلط على مواطنيها لصوص ليل ينزعون المواطن من بين أطفاله ويذهبون به إلى حيث لا يدري به أحد وما له من تهمة إلا أنه إنسان مؤمن شريف، وأنه رفض عبادة طاعون لا إنسانية لديه ولا إيمان ولا شرف.

ولقد رأيت دولاً كبرى نصَّبَتْ من نفسها وصيةً علي حقوق الإنسان وهي في داخلها تعج بالعنصرية والفساد وتتخذ من دول الأرض وشعوبها مناطق نفوذ تسرق أقواتها وتنغص حياتها وتدوس كل مثقف حر بدباباتها، ولربما غزت شعبًا وأحرقت بلاده بتهمة أنه رفض السير في فلك مبادئها الحقيرة وسياستها المجرمة، وفي غمار حمأة آسنة من الدجل والنفاق والكذب تتحطم حياة الشعوب وحريتها على صخرة شهوات المجرمين ونزوات الغاصبين، والحق أن من يتأمل أحوال العباد ويسير في كثير من البلاد يرى حضارة العصر في وادٍ وسعادة الناس في وادٍ.

إنَّ دين الإسلام هو الذي علَّم الدنيا كلها كرامة الإنسان وقداسة دمه وماله وعرضه، فقد علَّم الدنيا أن الإنسانية عائلة واحدة، خلقها ربنا لتتعارف وتتعاون، وأفضل هذه العائلة أنفعها لأفرادها، وأكرمهم اتقاهم لله، وأقربهم إلى الخير والمعروف، وأبعدهم عن الأذى والشر والفساد، يقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

﴿وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ حيث يخاطب الله ﷻ جميع البشر، ويذكرهم أنهم إخوة لأم وأب، وحثهم على توثيق وشائج التعاون والصداقة فيما بينهم.

وفي خطبة الوداع وجَّه رسول الله ﷺ الكلام إلى الناس فقال: «**أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**».

ويبيِّن القرآن الكريم حرمة الدماء وفداحة جريمة القتل، ويذكر قصة رجل من المسلمين سرق واتهم يهوديًّا بتلك السرقة، وكاد ينجح في تزويره ويوقع البريء تحت طائلة القصاص لولا أن أنزل الله وحيه ببراءة اليهودي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٨]، والخائنون هنا هم الذين اقترفوا الجريمة ورموا بها اليهودي، ثم يمضي القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، ومعناها استغفر الله لذنبك؛ لأنك أحسنت ظنك بالمسلم الذي سرق، وكدت تعاقب اليهودي البريء، ويختم القرآن الكريم هذه الواقعة بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝ هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ۝ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

وقد قرأنا في كتب السيرة أن اليهودي حين نزلت براءته في كتاب الله من السماء قال: إن دينًا ينصف يهوديًّا من المسلم، وينزل براءة اليهودي من السماء أحق أن يُتبع، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ولما أراد بعض أهل الأديان من البلاد التي فتحها المسلمون أن يبقوا على أديانهم لم يسفك الإسلام دماءهم، وكان كل ما فعله معهم أن أعفاهم من الجندية في مقابل جزية خفيفة، واعتبرهم ذميين لهم من الحقوق ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وأوصى المسلمين ببرهم والإقساط إليهم ما داموا لا يخونون المسلمين، ولا يتآمرون مع أعدائهم عليهم.

وحين قدم وفد نصارى نجران استقبلهم النبي ﷺ أجمل استقبال، وكان يحمل لهم الطعام على كتفه، وسمح لهم بأداء صلواتهم في المسجد قائلاً لهم: **«إلهنا وإلهكم واحد»**، ثم جادلهم بالتي هي أحسن، ودعاهم في أمر التوحيد إلى كلمة سواء يلتزم بها المسلمون والنصارى، وهي ألا يعبد الطرفان إلا الله إلهًا واحدًا، وألا يتخذوا من دونه إلهًا.

وما عُرف عن رسول الله ﷺ أنه قتل رسولاً من الرسل الذين كان يستقبلهم من أهل الكتاب والمشركين والمجوس في حين أن كسرى قتل رسول النبي ﷺ، وفعل مسيلمة مثل ذلك.

وقد أشاد النبي ﷺ بكرامة الإنسان، ونهى عن ضرب الوجه الإنساني؛ لأنه صورة لأبينا آدم، ونهى عن أن يلعن إنسان بعد قتله أو قصاصه أو أن يمثل بجسده، كما نهى عن المثلة ولو بكلب عقور، وما عُرف أنه فجع امرأة من الأسرى بولدها أو فرَّق بينهما، وكان أكرم الناس منتصرًا، أعتق رقاب كل مشركي مكة حين خاطبهم قائلاً: **«أذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

وقد تعلَّم المسلمون من قرآنهم أن الإنسان هو أقدس ما خلق الله، وأن الله أسجد الملائكة للإنسان إعلانًا لكرامته، وأن ربنا ﷻ جعل الأرض للإنسان نزلاً وضيافةً، وخلقها في يومين وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فتمت بذلك أربعة أيام، ثم خلق السموات كلها في يومين فقط، وحسبك بهذا دليلاً على كرامة الإنسان عند ربه، قال تعالى: **﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** [فصلت: ٩- ١٢].

## الاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع

لعل أوضح دليل على حضارة مجتمع من المجتمعات هو شيوع الاحترام المتبادل بين أفراده، فإذا زرت بلدًا أو شعبًا فوجدت بين أهله تقديرًا متبادلاً واحترامًا صادقًا؛ فاعلم أن هذا المجتمع متحضر حقًّا، وإذا رأيت مجتمعًا يسوده السفه والهمز واللمز والاستهزاء والحط من الكرامات؛ فاعلم أنه مجتمع همجي لم ينل من الحضارة الحقيقية نصيبًا.

- إذا رأيت شابًّا يهزأ بشيخ ويعيب مشيته أو ثيابه أو احديداب ظهره؛ فاعلم أن ذلك الشاب همجي غير متحضر، ولو لبس على جلده الحرير ورفل في المركب الوثير.

- وإذا رأيت مجموعة من الشباب ينصحهم ناصح فيمدون إليه ألسنتهم أو ينفضون إليه رءوسهم أو يتهامزون من حوله ويتلامزون؛ فاعلم أن هؤلاء الفتية لم ينالوا نصيبًا من الأدب والحضارة.

- وإذا رأيت امرأةً تستقبل ضيفاتها باستعلاء وتكلف وغرور بالمظهر وتصنفهن حسب الفقر والغنى، فتتظاهر للغنية وتزدري الفقيرة؛ فاعلم أن هذه امرأة همجية تنقصها الحضارة الحقيقية.

لقد علَّمنا رسول الله ﷺ دروسًا ساميةً في تقدير الناس واحترام كلٍّ على منزلته وخلقه، فكان -عليه الصلاة والسلام- ينزل الناس منازلهم، ويشعر كل صحابي من أصحابه أن له في قلبه الكبير منزلة خاصة، حتى لقد كان -عليه الصلاة والسلام- أغنى عليهم من كلِّ نفيس وأعز عليهم من كلِّ عزيزٍ، حتى لقد قال أحدهم ﷺ: «عندما وارينا رسول الله ﷺ ورجعنا إلى بيوتنا أحسسنا كأنها فقد كل منا قلبه».

ولقد كان الطابع السائد في مجتمع السلف -رضوان الله عليهم- الاحترام المتبادل وعلاقة الإخاء، وتلك أسمى علاقات الإنسان بأخيه، وأصدق أدلة الحب والاحترام.

- روى مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**».

– وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أقام الحد على شارب خمر فقال بعض القوم يخاطب المذنب: أخزاك الله، فقال –عليه الصلاة والسلام: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان**».

– وفي الحديث المتفق عليه أن امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجد «أي: تكنسه»، فسأل عنها رسول الله ﷺ، فقالوا: ماتت، قال: «**أفلا كنتم آذنتموني** (أي: خبرتموني)؟ وكأنهم كانوا قد استصغروا أمرها أن يخبروه بموتها، فقال: «**دلوني على قبرها**»، فدلوه فصلى عليها.

– وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره**».

– وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر ﷺ: «**لأن كنت أغضبتهم – يتحدث عن سلمان وصهيب وبلال ونفر من المستضعفين– فلقد أغضبت الله ورسوله**».

– وروى مسلم أن نفرًا من المشركين اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يطرد من مجلسه العبيد والمستضعفين، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الأنعام: ٥٢].

– وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**».

– وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أكرم شابٌّ شيخًا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنِّه**».

– وروى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**».

– وروى الترمذي أن شيخًا جاء يريد النبي ﷺ فأبطأ القوم أن يوسعوا له فقال ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**».

– وروى أبو داود أن عائشة –رضي الله عنها– مرَّ بها سائل فأعطته كسرةً، ومرَّ بها أحد وعليه ثياب وله هيئة فأقعدته فأكل، فقيل لها في ذلك فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**أنزلوا الناس منازلهم**».

- وروى أن جرير بن عبد الله ﷺ دخل مجلس رسول الله ﷺ، فرأى البيت مملوءً، فرمى إليه رسول الله ﷺ بردائه أو بإزاره، وقال: «اجلس على هذا»، فأخذه وقبّله وضمه إليه وقال: أكرمك الله يا رسول الله كما أكرمتني.

- وفي الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ أن الرسول ﷺ كان إذا مرَّ على صبيان سلَّم عليهم، وصح أنه قال لأم هانئ بنت أبي طالب عندما زارت بيته مرحبًا بأم هانئ وسألته أن يجير رجلاً؛ لأنها أجارته فقال لها: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، وصح أن رسول الله ﷺ مرَّ في المسجد يومًا وعصبة من النساء قعود، فسلَّم عليهن، وفي رواية: «فألوى بيده بالتسليم».

**أولاً**: الكلمة الحلوة تأسر القلوب، وقد شبَّه ربنا ﷻ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة الثابتة الأصول الساحقة الفروع التي تثمر في كلِّ حين، وتصل فائدتها إلى يوم القيامة، فمن شاء أن يتزود بالأصدقاء والمحبين؛ فليسع الناس بالكلم الطيب والخلق الحسن والوجه البشوش.

**ثانيًا**: كان -عليه الصلاة والسلام- يحترم أصحابه أعظم الاحترام، ويبدأهم بالتحية والسَّلام، وكان لكلٍّ منهم في نفسه مقام معلوم ألم تره، وهو يودِّع عمر ﷺ حين توجه عمر للحج ودعَّه وهو يقول له: «**يا أخي، لا تنسنا من دعائك**».

وسمَّى أبا بكر بـ«الصديق»، وعمر بـ«الفاروق»، وأبا عبيدة بـ«أمين الأمة»، وخالدًا بـ«سيف الله المسلول»، ثم ألم تره -عليه الصلاة والسلام- يحترم كل مسلم ولا يحقر أي فقير أو مستضعف.

**ثالثًا**: في بعض أوساط الطلاب والشباب يكثر هؤلاء الناشئة أن يتشاتموا أو يتباذئوا مع أن أوامر دينهم الحنيف تنهى عن البذاء والسباب حتى ولو لمشرك ميت أو لصنم جماد، يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

**رابعًا**: المسلم يعطي كل ذي علاقة حقه من الاحترام والكلم الطيب، فللوالدين والأرحام احترام، وللجار احترام من نوع مميز، ولليتيم الضعيف احترام خاص، ولسادة

القوم احترامهم على قدر منازلهم، ولسان المؤمن كأزهار الربيع جمالاً مبهجًا شذا عطرًا طيبًا، فإذا رأيت في مجتمعات الأجانب كلامًا طيبًا واحترامًا مهذبًا، ورأيت في مجتمعاتنا بعض بذاء وسباب وعدم تقدير؛ فاعلم أن القوم عملوا بآداب ديننا، وأنا نبذناه ظهريًا.

## ما يجب على المسلم إزاء مجتمعه وإخوانه

إذا انتظم أي إنسان في سلك الإسلام أصبح عضوًا عاملاً في مجتمع فاضل كريم متعاون على الخير، تشيع فيه الرحمة والمحبة والتعاون على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبمجرد أن يرضى المرء بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً تفرض عليه واجبات، وتصبح له حقوق إزاء كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وقد فصلت هذه الواجبات في الكتاب والسُّنة.

**وهذه أحاديث كريمة تبحث الحقوق والواجبات التي تترتب على كلِّ مسلم إزاء جميع إخوانه في المجتمع الإسلامي المبارك:**

- وروى الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قيل: يا رسول الله، أنصره مظلومًا؛ فكيف أنصره ظالمًا؟! قال: تحجزه عن الظلم أو تمنعه عن الظلم؛ فإن ذلك نصره»**.

- وفي سنن أبي داود من حديث جابر وأبي طلحة: **«ما من مسلم يخذل مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينقص فيه من عرضه وينتهك فيه حرمته إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته»**.

- وفي جامع الترمذي: **«من ذبَّ عن عرض أخيه ردَّ الله النار عن وجهه يوم القيامة»**.

- ولأبي داود من حديث واثلة: قلت: يا رسول الله، ما العصبية؟ قال: **«أن تعين قومك على الظلم»**.

- وروى الشيخان وأصحاب السنن عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال:

«للمؤمن على المؤمن ست خصال: يعوده إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد».

- وفي جامع الترمذي: «إذا اشتريت لحمًا فأكثر مرقته واغرف لجارك منه».

وله أيضًا: «إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذى فليُمِطه عنه».

وللترمذي أيضًا: «الدين النصيحة».

وروى الشيخان من حديث أبي موسى ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضًا».

**أولاً:** المجتمع الإسلامي مجتمع نبيلٌ متحضر يقوم على العدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والظلم، وأهم خصائص المجتمع الإسلامي خلوه من الظلم؛ لأنه قرين الكفر والشرك ونقيض الأمن والإيمان، وقد حرَّمه الله -تبارك وتعالى- على نفسه، وحرَّمه على عباده، وطلب منهم عباده أن يقوموا لله بالقسط، ويقيموا شهادة الحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، ولا شكَّ أن أكبر مشكلات الإنسانية عبر تاريخها هي ظلم الأقوياء، ومن ثم فمجتمع الإسلام هو النموذج الإلهي للمجتمع المتحاب السعيد الفاضل.

**ثانيًا:** المسلم بفضل الله -تعالى- قد تمتلئ صفحاته بالحسنات وهو لا يدري؛ لأن دعوت صالحات كثيرات تصل مشارق الأرض ومغاربها، وهو لا يدري فيكتبها ربنا ﷻ لعبده الصالح ويستجيبها بمنه وكرمه، إذا صلى مسلم في أي صقع من أصقاع الدنيا؛ فإنه يدعو لنفسه ولجميع المسلمين، والله سبحانه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه، لذا فالمجتمع الإسلامي -بفضل الله- سعيد بأخوة الإسلام التي تدعوك أن تدعو لأخيك بظهر الغيب، وما أحسن أن يدعو المسلم لجميع إخوانه المسلمين كلما دعا لنفسه ولوالديه ولآل بيته.

**ثالثًا:** أول حقوق أخيك المسلم عليك أن تنصره إذا اعتدى عليه معتدٍ فانتقص من عرضه أو انتهك من حرمته وكرامته، كما تنصره أيضًا إذا رأيته ظالمًا معتديًا فترشده إلى العدل وتحجزه عن الظلم، وتمنعه من العدوان؛ فتكون بذلك قد باعدت بينه وبين النار، وأي نصر أعظم من هذا؟!

إن الإسلام يكره الظلم ولا يرضاه للمؤمن، بل ولا يرضاه لغير المسلم من الذميين، فإذا اعتدى مسلم على كافر من أهل الذمة أوجب عليك الإسلام أن تنصر أخاك المسلم بردعه عن الظلم وحجزه عن الاعتداء.

**رابعًا**: إذا كان مسلم يتقاعص عن مناصرة أخيه المسلم ويتخلى عنه وهو يُظلم، فإن الله ﷻ سوف يخذله إذا ظُلِمَ، ومن ثَمَّ فما يجوز بحال من الأحوال إذا اعتدت أمة كافرة على دولة مسلمة أن تقف الدول الإسلامية الأخرى موقف المتفرج، بل يُشرع أن تهبَّ هبة رجل واحد لدحر الكفار عن ديار الإسلام، وبهذه الخاصة تظل أمة محمد ﷺ متماسكة كالصخرة العاتية أمام العواصف والتحديات.

**خامسًا**: ومن حق كل مسلم على أخيه المسلم أن ينصح له أي أن يخلص في إرشاده إلى الخير، فالدين النصيحة، والمؤمن مرآة أخيه يكمل نقصه، والنصيحة في الأمة الإسلامية يجب أن تكون شاملة لجميع أفراد الأمة الإسلامية، فتنصح للفقراء وللأغنياء كما تنصح لأئمة المسلمين وعامتهم، ومن النصيحة إذا كنت عالمًا أو متعلمًا ألا تبخل على أخيك المسلم بعلمك وخصوصًا إذا سألك عن أحكام دينه أو استعانك في مادة من دراسته، وبذلك يكون المجتمع مجتمعًا متناصحًا، شعاره الإخلاص وصدق العاطفة والحب الخالص لوجه الله، وبهذه الميزة يتجلى وجه المجتمع الإسلامي ظاهرًا مقدسًا وضاءً تشيع فيه الصراحة والصدق.

**سادسًا**: من حق أخيك المسلم في مشارق الأرض ومغاربها عليك أن تحبه في الله، وتتقرب إلى الله بحبه، ولقد حثَّ الإسلام جميع أفراد المجتمع المسلم أن يتحابوا ويفشوا في سبيل هذه المحبة السلام ويطعموا الطعام، وفي هذا أوصاهم رسولهم -عليه الصلاة والسلام- فقال: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»، ثم أوصاهم أن يحققوا المحبة بإفشاء السلام، ورغَّبهم -عليه الصلاة والسلام- في خصلة المحبة في الله، وأعلن أن المتحابين بجلاله يكونون على منابر من نوره في ظل عرش الرحمن.

**سابعًا**: ومن أجل دوام هذا الوداد أوصى رسول الله ﷺ كل مسلم أن يظهر المشاعر النبيلة إزاء أخيه المسلم في كل مناسبة، فيشاركه أفراحه وأحزانه ويتألم لألمه، ولو كان في أقصى بقاع الأرض، ويفرح لفرحه مهما باعدت بينهما الأزمان والأمكنة.

وإذا كان أخوك المسلم قريبًا منك، فعليك أن تكون دومًا مراعيًا لشأنه، تعوده إذا مرض لينسى بِوَنَسِكَ آلامه، وتحترمه ميتًا فتشهد جنازته، وتعاون في شأن حمله ودفنه، ثم إذا دعاك إلى طعام أو وليمة فلبِّ دعوته؛ لأن مجاملته بالأكل في بيته توثق الصلات، وحيثما لقيك أخوك المسلم فسلِّم عليه، وإذا سلَّم عليك هو مبتدًا فحيه بأحسن من تحيته، وإذا عطس على مسمع منك فحمد الله فشمته وادع له بالرحمة؛ ليدعو هو لك بدوره بالهداية وصلاح البال.

كلُّ هذه الأعمال الطيبة توثق عرى المحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي، فيصبحون كما ورد في الحديث الصحيح المتفق عليه: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**».

هذا، وما أجمل الملاحظتين اللتين وردتا في حديث الترمذي، وهما أن يكثر المسلم المرقة إذا طبخ لحمًا، ويتعهد جيرانه وخصوصًا إذا كانوا فقراء؛ لأن للحم نكهة إذا طُبخ قد يشمها أطفال الجيران، فما أجمل أن يغرف الجار لجاره، فيشفي بذلك شوق أطفاله إلى اللحم.

أما الملاحظة الثانية؛ فهي أنك إذا لقيت أخاك المسلم فربما تجد في وجهه أو تحت أنفه وحول فمه أو على بعض ملابسه أذى لم يتمكن من رؤيته، فكنْ حينئذٍ مرآة لأخيك، ونبِّهه للأذى أو أزله بنفسك، وبذلك تريه من نفسه ما لا يرى، ويقابلك هو بشكر وامتنان عميقين.

## حقُّ المسلم على المسلم

هذا الحديث الشريف يشتمل على آداب وأحكام معًا، وهو حديث صحيح رواه الإمام مسلم -رحمه الله- في صحيحه، وإني مورده إن شاء الله، فمتبعه بإشارات عابرة للآداب وشرح مفصل للأحكام.

قال رسول الله ﷺ: «**حقُّ المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصحه، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**».

هذه هي حقوق المسلم الذي لا تربطك به إلا رابطة الإسلام، فإذا كان من ذوي الأرحام أضيفت إليها حقوق الرحم، وإذا أصبح هذا المسلم جارًا لك أضيفت لحقوقه حقوق الجار، والإسلام حين رسم تلك الحقوق إنما هدف إلى إعلاء بنيان الإخاء الإسلامي؛ ليظل صرح

الإسلام شامخًا متماسكًا، لا تنال منه المؤامرات الكافرة وحبائل المكائد الغادرة.

**وهذه بعض الأحكام تتعلق بوصايا هذا الحديث الجامع الكريم:**

**أولاً:** أفعال الأمر الواردة في هذا الحديث ستة، وهي (سلِّم عليه، وأجبه، وانصحه، وشمته، وعده، واتبعه)، وبين الأشياخ خلاف: هل هذه الأوامر واجبة أم هي سنة أم أن بعضها واجب وبعضها فرض كفاية، وبعضها مندوب؟

والحق أن المتدبر لأهداف الإسلام الكريمة ومقاصده الجليلة النبيلة يذهب مع من يعتبرها واجبة؛ لأنها كلها وسائل للتحاب والألفة والتآخي، وتلك تحتل من الإسلام منزلة جليلة، حتى لقد عدها الأشياخ أهداف العبادات وأركان الإسلام؛ فالصلاة والزكاة والصوم والحج ما شرعت إلا الحج لهدفين كبيرين هما تحقيق التوحيد خالصًا لله وحده، وتوحيد الكلمة تحت راية الإخاء، ومن هنا فإني آخذ برأي من يعتبر الأوامر الواردة في هذا الحديث واجبة.

إذا لقيت أخاك المسلم فسلِّم عليه، وقد قال كثير من العلماء أن البدء بالسلام سنة وأن رده فريضة، ولكن الذي ورد في الصحيحين في أمر السلام والابتداء به قد يستشف منه الوجوب، قال رسول الله ﷺ: **«ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»**، وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **«تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ»**.

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، فكأنك تقول حينما تسلم عليه: أنت في حفظ الله الملك القدوس السلام، أو أنت في مأمن وسلام، وأقل السلام: السلام عليكم، والأفضل أن تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقد جاء في الحديث أن السلام عليكم بعشر حسنات، فإذا أضيف إليها (ورحمة الله) كانت بعشرين، وإذا أضيف إليها (وبركاته) أصبحت ثلاثين، ويسلم المسلم على أخيه المسلم إذا لقيه كما يسلم عليه إذا فارقه، وفي الأثر: **«إذا قعد أحدكم فليسلم، وإذا قام فليسلم، وليست الأولى بأحق من الثانية»**.

وإذن فإذا لقيت أخاك المسلم فقلْ له: السلام عليكم، وإذا هممت بمفارقته فقلْ له: السلام عليكم؛ ففي حديث أبي داود: **«إذا لقى أحدكم صاحبه، فليسلم عليه؛ فإن حال بينهما**

**شجرة أو جدار ثم لقيه فليسلم عليه»**.

**ثانيًا**: وقوله ﷺ: «**وإذا دعاك فأجبه**»؛ فهو من باب الآداب، ومن المعروف أن العيش والملح، وإذا أكله الرجل من بيت أخيه يوثق القلوب، وكان ﷺ إذا دعي ولو إلى كراع أجاب، وحكم إجابة الدعوة أنه سنة مؤكدة، ويزداد التوكيد حتى يصل إلى الوجوب إذا كانت الدعوة لوليمة عرس، وذلك لأن مشاركة أخيك في أفراحه تنمي أواصر المحبة والإخاء.

**ثالثًا**: وقوله ﷺ: «**وإذا استنصحك فانصحه**» يُحمل على الوجوب؛ لأن الدين النصيحة، ومن الواجب على المسلم إذا طلب أخوه نصيحته أن ينصحه إياها خالصة مخلصة لوجه الله.

**رابعًا**: أما عيادة المريض واتباع الجنائز؛ فهما -والله أعلم- أدبان واجبان، فإذا مرض أخوك المسلم فعده، وإذا مرت عليك جنازته فاتبعه سواء أكنت تعرفه أم لا، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص حرصًا شديدًا على عيادة المريض واتباع الجنائز، وقد عاد رسول الله ﷺ خادمًا له ذميًّا من أهل الكتاب، فأسلم ببركة تلك العيادة.

**خامسًا**: وأما تشميت العاطس إذا حمد الله؛ فقد ذهب فريق من الأشياخ إلى وجوبه حملاً على حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ: «**إذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقًّا على كل مسلم يسمعه أن يقول: يرحمك الله**»، وإذا تكرر العطس لم يزد المشمت على ثلاث، ويقول المشمت للعاطس: يرحمك الله، ويرد العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم، و يلحقها بقوله: يغفر الله ولنا ولكم، هذا ويحمد العاطس ربه؛ لأن العطاس يعقبه بعض الانتعاش؛ حيث يقذف العاطس خارجًا ما تجمع في رأسه من الأبخرة الزائدة والمحتقنة، ومن أدب العطس أن يضع العاطس يديه على وجهه حتى لا ينتشر رذاذ العطس من حوله.

## احترام المسلم لأخيه ورحمته به

من آداب المؤمن أن يملئ قلبه حبًّا واحترامًا ورحمةً وتمنيات طيبة لجميع المسلمين، وأن يعامل كل مسلم وكأنه أخوه؛ فلا يسمح بإهانته ولا يرضى بغمط حقه، ولا يسلمه لظالم يدوس حرمته.

نعم إن الإسلام يطالب كل مسلم أن يعظم حرمات المسلمين، ويخفض لهم جناحه، وإذا ألمت بأخيه المسلم ملمة نصره وهب إلى نجدته، وكان في حاجته؛ لأن كل مسلم آمن بالله وأدى فرائضه يصبح في ذمة الله، ويكتب من حزبه، والله ﷻ يعتبر المؤمنين أحباءه، ويجعل لهم في القلوب ودًّا وإجلالاً، حتى لقد قال رسول الله ﷺ: «**لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن**».

لقد شاهدت بعض الموظفين إذا دخل عليه المراجعون من ذوي الحاجات جعل أكبر همه قضاء حوائجهم وتسهيل أمرهم ويقبل على معاملاتهم يسهلها ويكمل نقصها، ويرشد إلى أقرب الطرق لإنجازها، فينصرفون من مكتبه شاكرين خلقه الكريم وأصله النبيل.

وشاهدت من الموظفين من ينهر المراجع ولا يبالي بإحساسه ولا يرقب فيه أخوة ولا ذمة، وربما عرقل معاملته من أجل أمر تافه.

ولقد رأيت أصحاب المعاملات ربما انتظروا ساعة أو أكثر من أجل أن يكتب كلمات قليلة، ثم إن الموظف يقوم عن مقعد عمله فيغيب طويلاً وتتعطل المصالح، ونسى هذا الغافل في غمرة الغطرسة أنه يتعامل مع إخوته وأنه يهينهم ويدوس حرمة إخاء عقدها ربنا من فوق سبع سموات، حين قال في محكم آياته: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

إنَّ مَن يحتقر المسلمين؛ فقد قطع أرحامًا أمر الله أن توصل، وتجاهل إخاءً أمر الله أن يحترم، وحرم نفسه من لذة الصلة والمعروف، ويخشى أن يحيط به وعيد الله المرهب في قوله تعالى: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾** [محمد: ٢٢، ٢٣].

إنَّ الإخاء الإسلامي مصدره عزة وأيّة عزة أعظم من شعور المؤمن أنه له ألف مليون من الإخوان يدعون له ويحبونه ويفرحون لفرحه ويحنون لنصرته ويتعطشون لنجدته، ولقد كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على كرامة المسلم وصون حرمته واحترام شعوره، فقد جاء في صحيح الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**».

إنَّ المؤمن حين يصلي الصبح يدخل في ذمة الله، فإذا جاءك في حاجة فخدمته من أجل ذمة الله؛ فكأنما ترعى ذمام ربك، أما إن أهنته بدلاً من معونته؛ فذلك أمر خطير، فقد جاء في صحيح الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى صلاة الصبح؛ فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**».

ولأنك -يا أخي المسلم- لا تحب أن يحقرك أحد أو يُخيِّب رجاءَك أو يهين مشاعرك؛ فاحرص ألا تفعل شيئًا من هذا لإخوانك، لكي يكمل بالله إيمانك؛ فقد جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، وفي الحديث المتفق عليه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضًا، وشبَّك بين أصابعه**»، وفي الصحيحين: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

وقد عدَّ رسول الله ﷺ للمسلم حقوقًا، ودعانا أن نؤديها وهي رد السلام، وعيادة المريض، وإجابة الدعوة، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، والنصح له، وألا تؤذيه بقتار قدرك إلا أن تغرف له، وإذا اشتريت لأولادك حلوى أو أشياء مسلية مما يثير أعصاب الأطفال؛ فلا ترين أولاد جارك إلا أن تشركهم مع أولادك في الأكل أو اللعب، وإذا اطلعت على عورة من عورات أخيك فاسترها وانصحه في رفق ولين؛ فقد جاء في صحيح الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يستر عبدٌ عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**».

هذا ومن آداب المؤمن أن يحاول جهده تفريج كربة المكروب، وأن يكون دائمًا في عون أخيه؛ ليكون الله في عونه.

هذا ومن آداب المؤمن أيضًا إذا كان ذا جاهٍ أن يشفع لأخيه خيرًا عند المسئولين بجاهه؛ لأن الله يثيب من يبذل جاهه كما يثيب من يبذل ماله، يقول الله تعالى: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥]، وما أجمل قول أبي تمام:

**وَإِذا اِمرُؤٌ أَسدى إِلَيكَ صَنيعَةً ... مِن جاهِهِ فَكَأَنَّها مِن مالِهِ**

إنَّ جلساء الحكام عليهم أمام الله واجب كبير، وهو أن يشغلوا ألسنتهم بالكلم الطيب،

وأوقاتهم بالعمل الصالح، ألا يغتابوا في حضور المسئولين، وأن يقولوا كلمة الحق حتى لا تضيع الحقوق بسبب فساد البطانة.

ولقد كان رسول الله ﷺ إذا جاءه مرتكب خطيئة أو طالب حاجة قال لجلسائه: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيِّه ما شاء**».

وفي صحيح البخاري أن صحابية اسمها «بريرة» اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ تطلب الطلاق منه، فقال لها النبي الكريم: «**لو راجعته**»، فقالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «**إنما أنا أشفع**» قالت: لا حاجة لي فيه. يعني رأت أن رسول الله ﷺ يشفع في الأمر ولا يأمر حين إذن أبدت رأيها صراحةً.

هذا، ومن آداب المسلم إزاء إخوانه إذا مرَّ على متخاصمين أو مقتتلين أن يصلح بينهما، وإذا رأى أحدهما يريد أن يبغي على أخيه إما لقوته أو نفوذه؛ فعليه أن ينضم إلى المظلوم ويردع الظالم بالقوة.

هذا، والمؤمن يكون أبدًا عظيم الاحترام والعطف على الضعفاء؛ لأن هؤلاء لهم كرامات عند الله، ففي الحديث: «**إنما ترزقون بضعفائكم**»، ولـ«**رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره**»، ولهذا فإن من أعظم آداب المؤمن أن يملأ قلبه عطفًا على كلِّ يتيم وسائل ومحروم، وأن يغمر بالإحسان بناته وأرحامه وخصوصًا أولئك الضعفاء والفقراء منهم؛ ففي الحديث المتفق عليه أن امرأة سوداء كانت تكنس المسجد، ثم ماتت -رضي الله عنها- ولم يدر رسول الله ﷺ بموتها، ثم ذهب رسول الله ﷺ فلما أعلموا بموتها، قال: «**أفلا آذنتموني**»، ثم ذهب إلى قبرها، وصلى عليها تعظيمًا لحرمة الله الذي عبدته، وفعلت الخير من أجله، وما أجمل قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ**﴾ [الحج: ٣٠].

* * *

## احترام المسلم لأخيه المسلم

إذا رأيت إنسانًا يحبه الناس ويحمدون شمائله ويثنون خيرًا على كرم أخلاقه وبشاشة وجهه وحسن استقباله؛ فاعلم أن الله ﷻ يحبه، وأن جبريل ﵇ وأهل السماء يحبونه، وأن الله قد وضع له القبول في السماء والأرض.

وإذا رأيت إنسانًا يمقته المسلمون ويذكرونه بقبيح الخصال وظلم العباد وتعسير الأمور وتعطيل المصالح وعبوس الوجه؛ فاعلم أن الله من عليا سمواته يبغضه، وأن جبريل وأهل السماء يبغضونه، وأنه قد وضعت له البغضاء في الأرض والسماء، ولا غرو فرأي المؤمنين من رأي الله، ورؤيتهم من رؤية الله، وللرأي العام المؤمن تقدير من الله ورسوله، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وإني رأيت موظفي الدولة والمسئولين عن مصالح العباد ينقسمون إزاء هذا الأمر قسمين، رأيتهما بنفسي وبلوتهما في من حولي؛ فمنهم إذا راجعتهم في معاملة أو مصلحة استقبلك في بشاشة وغمرك بالنصيحة، وسهَّل لك الشكليات، وسلك بك أيسر الطرق، وأمر بها لتصل إلى طلبك في يسر وتيسير، فتنصرف من لدنه وأنت تدعو له ولوالديه ولكل من ساهم بتربيته.

ومنهم مَن إذا تقدمت إليه في موضوع لم يكد يرفع إليك رأسه، وتراه لا يقطع شيئًا من سمت أهوائه يضع رجلاً على رجلٍ، وسيجارة في الفم، والهاتف على أذنه يخاطب به بعض بطانته حول سهرة الليلة وتمشية النزهة، حتى إذا أحس بطول وقوفك تناول طلبك، فقرأه في سآمة، وفكَّر في كلِّ العراقيل، فاختار منها ما يعجبه، وإذا استعطفته قال لك: هذا هو النظام، هل نكسر التعليمات من أجلك، لقد عطَّلتنا، فلتمضِ لسبيلك لنفرغ لغيرك.

وما زلت أذكر أن هؤلاء كانوا أمهر الناس في تعقيد المصالح وتعطيل المراجعين، وكان يؤخِّر عليَّ وعلى غيري إنجاز معاملاتنا، وشاء الله أن يحتاج إليَّ في تعليم ولده، ولشدة ما كانت دهشتي حين ثبت لي أن الرجل يستطيع حل أي مشكلة، وكنت إذا راجعته في موضوع

قدَّم إليَّ بعض الشراب، ولم يطلب مني أية إضافة، وكنت قبل تلك المعرفة أراجعه في الأمر نفسه فلا يقضيه إلا بعد عدة رحلات يريني أثناءها مر العذاب.

جاء في الصحيحين عن سهيل بن صالح ﷺ قال: كنا بعرفة فمرَّ عمر بن عبد العزيز، وهو أمير الموسم، فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبت إني أرى الله يحب عمر بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس، قال: بأبيك أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»**.

إنَّ من أعظم آداب المسلم أدب المودة حتى تراه وإخوانه المسلمين كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص، وترى لكلِّ مسلم في قلبه احترامًا ورحمةً وشفقةً وتقديرًا.

إنَّ حب الناس منزلة لا يرقى إليها إلا الأبرار، وهي أبقى على الدهر من مُلك سليمان ﷺ وأجل ما يدخره ويحرص عليه إنسان، وما أجمل ما قال حافظ إبراهيم -رحمه الله- في رثاء البارودي؛ إذ يقول:

**مُلكُ القُلوبِ وَأَنتَ المُستَقِلُّ بِهِ ... أَبقى عَلى الدَّهرِ مِن مُلكِ اِبنِ داودِ**

- جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**.

- وفي الحديث المتفق عليه: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**.

- وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أحب الرجل أخاه؛ فليخبره أنه يحبه»**.

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله»**.

- ودعا رسول الله ﷺ بهذا الدعاء: **«اللهم مَن ولي من أمر المسلمين شيئًا فيسَّر عليهم فيسِّر عليه، ومَن ولي من أمر المسلمين شيئًا فعسَّر عليهم فعسِّر عليه»**.

- ولشدة حب الرسول ﷺ للمسلمين كان يخشى أن يحرك أحدهم سلاحه من غير قصد

فيصيب مسلمًا خطًا، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ؛ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا -أَوْ قَالَ: فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ- أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ**».

- وكان رسول الله ﷺ أرأف الخلق بالمسلمين، وكان يصعب عليه تعبهم كما وصفه ربه بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: صعب عليه عنتكم أي: تعبكم، فقد جاء في الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «**إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه؛ فليطول ما شاء**».

- وفي الصحيحين أنه ﷺ كَانَ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ.

- وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي (أي: أخففها) كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**».

- ومن صفات المؤمن التي رسمها رسول الله ﷺ في الأحاديث الصحيحة أنه لا يحقر المسلم ولا يظلمه ولا يخذله، والموظف الذي يعقد مصالح المسلمين يفعل كل هذا؛ لأنه يظلمهم ويخذلهم ويحتقرهم حين يطيل وقوفهم بين يديه كأنهم عبيد أبيه.

- ومن صفات المسلم في احترام أخيه المسلم أنه ينفِّس كربته، ويقضي حوائجه، ولا يخونه، ولا يكذب عليه، ويصون عرضه ودمه وماله، ولا يلجأ إلى مناجشته أو حسده أو مقاطعته، ولا يخطب على خِطبته، ولا يبيع على بيعه، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وأن ينصره ظالمًا أو مظلومًا، وإذا رآه متلبسًا بمعصية في غير مجاهرة أن يستره ويرشده في غير قسوة، ففي الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ: «**إذا زنت الأمة فتبين زناها** (يعني: بحمل أو مشاهدة) **فليجلدها الحد** (أي: خمسين جلدة)، **ولا يثرِّب عليها** (أي: تعيرها بذنبها)، **ثم إذا زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرِّب عليها، ثم إذا زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر**»، وأمره ببيعها له حكمة وهي عدم اقتناء أهل المعصية في بيته لكي لا يفسد عليه أهل بيته.

وكان رسول الله ﷺ يرى أن قضاء حاجة المسلم والمشي له أفضل من صلاة النافلة والاعتكاف لها؛ فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**لأن يمشي أحدكم في حاجة أخيه خيرٌ له من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين**».

وكان -عليه الصلاة والسلام- كما جاء في الحديث المتفق عليه إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ، فَقَالَ: «**اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ**».

ما أجمل أن تشيع في المجتمع المسلم رحمة العبد للعبد ونبذ الكراهية والحقد وصيانة الحرمان، فتلك هي دعائم المحبة وبواعث القوة والوحدة، يقول الله ﷻ: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

## الشفقة والتراحم

من أعظم آداب المؤمن تلك الشفقة التي تعمر قلبه بالمشاعر النبيلة والعواطف الجليلة، وهي شفقة تعم كل مخلوقات الله، وتنتظم الإنسان والطير والبهائم، وكل ذي كبد رطبة، إنها شفقة يغرسها الإسلام في قلب المؤمن ثم لا تزال تزكو وتزداد كلما تلا المؤمن آيات قرآنه العظيم وأخلاق رسوله الكريم.

وأعظم ما تكون شفقة المؤمن على الضعفاء من خلق الله كالأرامل والأيتام والمصابين والمعوقين، وإذا قيل: إن المؤمن يقسو على الكفار ولا يشفق عليهم، وأن دينه يأمره أن يشتد على الكفار؛ فاعلم أن تلك الشدة ما هي في الحقيقة إلا شفقة عليهم؛ لأن القسوة على الكافر إنما هي وسيلة لإنقاذه من الكفر، والمؤمن حين يقسو على الكافر لا يشفي بقسوته ثأرًا ولا يطفئ حقدًا، وإنما هو يرجو الله أن يهدي كل عاصٍ، ويصلح كل مفسد، وحالما يسلم ذلك الكافر ويهتدي ذلك العاصي ينعطف المؤمن إليه ويحبه أخًا في الله، ويرى ماله وعرضه وكل حرمته مقدسة مصونة، ومجمل القول المؤمن: إن المؤمن إنما يحارب الكافر ليحمله على تقوى الله وطاعته ومخافته ليعود إلى سعادة الإيمان، ويبتعد عن شقاء الكفر.

إنَّ رسولنا ﷺ علَّمنا وعلَّم الدنيا كلها رحمة العبد للعبد ونبذ الكراهية والحقد، وأوصانا برحمة كل خلق من خلق الله تعالى؛ لأن الخلق كلهم عباد الله، وخير خلق الله أعظمهم رحمة بخلقه، يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله**».

وكنت من صغري أعشق حديثًا لرسول الله ﷺ، وأعلِّم الطلاب أن يحفظوه، ويتمثل به في كتابتهم لما راعني من أسلوبه البديع وفكره الرفيع، وهو الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**».

وروى الشيخان أن الأقرع بن حابس وكان أعرابيًّا جافيًا قال لرسول الله ﷺ: إنكم تقبلون صبيانكم وما نقبلهم، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**».

ولم تقتصر رحمته ﷺ على الإنسان، فقد أوصانا بكلِّ حي من الأحياء ذي كبد رطبة، فقد روى ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً أضجع شاةً ليذبحها، وطفق يحِد شفرته، فقال للرجل: «**أتريد أن تميتها مرتين**»، وفي رواية: «**أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها**».

وفي سنن النسائي أن النبي ﷺ قال: «**ما من إنسان يقتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عنها يوم القيامة**»، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «**حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي بها**».

وفي سنن النسائي أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن قتل عصفورًا عبثًا إلا عجَّ** (رفع صوته بالصياح) **إلى الله يوم القيامة، يقول: يا ربِّ، إن فلانًا قتلني عبثًا، ولم يقتلني منفعة**».

ورأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: «**ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلاً**».

ونهى -عليه الصلاة والسلام- أن يتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرمى بالسهام، أي: تتعلم عليه الرماية، وقال: «**لعن الله من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا**».

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ

فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ، فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا».

وَرَأَى ﷺ قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حرَّقها أصحابه فَقَالَ: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟». قالوا: نَحْنُ. قَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ».

ودخل -عليه الصلاة والسلام- دار قوم فوجد جملاً ناحل الجسم، ويبدو أن الحيوانات لها في الناس فراسة، فقد أقبل الجمل على رسول الله ﷺ، وأدنى إليه جرانه (باطن العنق من البعير)، فقال لأهل البيت: «اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِه الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً».

وحرَّم رسول الله ﷺ تعذيب القطط والكلاب قبل أن تنشأ جمعيات الرفق بالحيوان بألف وأربعمائة سنة، فقال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة، حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي الحديث المتفق عليه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلاً رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ».

وشدَّد رسول الله ﷺ في أمر تعذيب المملوك والخادم، قال أبو مسعود البدري ﷺ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلاَمًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ».

وكان أبو ذر ﷺ إذا اشترى لنفسه حلة اشترى لخادمه مثلها، ويردد قول رسول الله ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

وفي سنن أبي داود أن آخر ما قاله رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وفي سنن الترمذي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن خادمي يسيء ويظلم، أفأضربه؟ فقال رسول الله ﷺ: «تعفو عنه كل يوم سبعين مرة».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا».

وللترمذي أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ نَشَرَ اللهُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَأَدْخَلَهُ جَنَّتَهُ: رِفْقٌ بِالضَّعِيفِ، وَشَفَقَةٌ عَلَى الْوَالِدَيْنِ، وَإِحْسَانٌ إِلَى الْمَمْلُوكِ».

ومن شفقته ﷺ أنه نهى عن الضرب في الوجه، ووسم الحيوان على الوجه، والكي في الوجه.

**وبعد**؛ فما أجمل قوله تعالى في وصفه لرسالة محمد ﷺ؛ إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

# حقوق الإنسان

يحرص الإسلام على الأسرة المسلمة؛ لأنها وحدة المجتمع ونواته، وما المجتمع إلا مجموعة من الأسر ذات الخصائص المشتركة، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع كله، ومن أجل هذا تبدأ التربية الإسلامية بالفرد ثم بالأسرة ثم تكون التربية الاجتماعية، وأفراد الأسرة الواحدة هم الأرحام بدءًا بالوالدين والإخوة والأخوات وأبنائهم، ثم يأتي الأعمام والأخوال، ثم الأقرب فالأقرب.

وقد أوصى ديننا الكريم بالرحم أن تُبرَّ ويُحسنَ إليها وتوصل ليكون تماسك الأسرة مقدمة لتماسك المجتمع ولتكون روح المودة والإحسان داخل الأسرة بداية موفقة لشيوع المحبة والبر في كلِّ المجتمع الإسلامي الوضيء النظيف.

**وهذه بعض الأحاديث الشريفة التي تعالج آداب التعامل مع الأرحام، نسوقها ثم نتبعها إنْ شاء الله بخلاصة لتلك الآداب:**

- وفي صحيح مسلم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد».

- وفي سنن أبي داود جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، فقال: «فارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما».

– وفي سنن ابن ماجه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال: «هما جنتك ونارك».

– وفي مسند أحمد من حديث مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ أنه جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَرَدْتُ الْغَزْوَ وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ». قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: «الْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا». ثُمَّ الثَّانِيَةَ ثُمَّ الثَّالِثَةَ فِي مَقَاعِدَ شَتَّى كَمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ.

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره؛ فليصل رحمه».

– وفي مسند أحمد من حديث عائشة –رضي الله عنها: «صلة الرحم وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار».

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «الرحم متعلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله».

– وفي الصحيحين أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله –تعالى– خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال ﷻ: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلا، قال: فذلك لك». ثم تلا –عليه الصلاة والسلام– قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣].

– وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها».

– وفي صحيح مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ (أي: الرماد الحار)، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ».

– وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «أسرع الخير ثوابًا البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة العقوق وقطيعة الرحم».

**أولاً**: عند غير المسلمين وخصوصًا في بلاد العرب لم يعد لإكرام الأرحام أي معني في نظر الكثيرين، فالأب قد لا يرى ابنه، والأم قد لا يتعرف عليها ولدها، وقد استفحل هذا الأمر بعد تشريعهم في اتخاذ العشيقات وشيوع الفاحشة، وقد أحدث هذا في المجتمعات تمزقًا وضياعًا وانهيارًا أخلاقيًا، وأصبحنا نقرأ هذا في صحافتهم أن آباء تخلصوا من أطفالهم وقتلوا أسرهم بعد أن يئسوا من رحمة الله.

أما في شريعتنا المباركة السمحة؛ فالصلة بفضل الله تظل بين الأب وابنه وابنته وبين الأم وأولادها وبين الإخوة والأخوات والأقارب، تظل طول الحياة زاكية مباركة، تتفيأ ظلال الرحمة والبر والإحسان والحب الصادق.

ومن ثَمَّ ظلَّ المجتمع الإسلامي واحة أمن وشاطئ سلامة حين تحولت المجتمعات الكافرة إلى غابات موحشة تموج بالذعر والأخطار.

**ثانيًا**: من آداب التعامل مع الأرحام أن يعرف كل منهم حق الآخر عليه، فلكل من الأب والأم والزوجة والابن والبنت وللأخ والأخت وللعمة والخالة وللعم والخال، أقول لكل من هؤلاء حقوق ذكرها الشرع الشريف، وعلى المسلم أن يؤدي لكل من هؤلاء حقه كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويقوم على المتابعة والتنفيذ الأب الذي هو راعي الأسرة مستجيبًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

ومن تلك الآداب أن يقوم الوالدان بحق التربية كراعيين مسئولين، ويقوم الأبناء برد الجميل العظيم لهما بالبر والإحسان والإكرام لهما في الحياة وبعد المهات.

ومن آداب التعامل مع الرحم أن تصل الأرحام وإن قطعوك؛ لأن الواصل الحقيقي للرحم هو الذي يصل الرحم التي تقطعه، أما من يصل الرحم التي تصله فذلك هو سلوك المعاملة بالمثل، ويكون مع الأرحام ومع غيرهم.

ومن تلك الآداب أن تحرص على بناء الأسرة وتعتبره حمى مقدسًا، فلا ترضى أن يمس كرامة أسرتك أي سوء، وتحرص على سلامة أعراضها وشرفها؛ لأنه لا يرضي بالسوء في عرض أسرته إلا الديوث الذي لا يريح ريح الجنة.

ومن تلك الآداب أن تعين أقاربك على التزام الحق، وألا تحول الصلة إلى عصبية تتجاهل العدالة، وأن تهتم بدين أرحامك أكثر مما تهتم بمصالحهم الدنيوية لتظل الأسرة كالبلد الطيب الذي يخرج نباته المبارك بإذن الله.

ومن تلك الآداب أن تبدأ في البر والمعروف بمن تعول ثم بالأقرب فالأقرب؛ ففي الأثر أن الله ﷻ لا يقبل صدقة رجل منعها ابن عمه، ومن شاع له في الناس بأنه طيب ويشتكي في الوقت نفسه من أرحامه، فذلك في الغالب لا يخلو من النفاق، هذا وعلى من يدعو ربه أن يتفقد بالدعاء أرحامه من الوالدين والذرية والإخوة والأخوات.

* * *

## نظرة الإسلام الإنسانية للتعامل مع الآخرين

من آداب المؤمن أن نظرته واسعة لا تنحصر في دائرة ذاته ولا ترسب في وعاء شهواته، فهو يبدأ بنفسه ويثني بمن يعول، لكنه يشعر على كافة أحواله أن عليه حقوقًا للغير، ثم لا تزال نفسه الكريمة اللوامة تذكره تلك الحقوق، وتحدوه إلى أدائها حتى يعطي كل ذي حق حقه، فالإسلام يعتبر الإنسانية عائلة واحدة؛ إذ إن الخلق عيال الله، وأفضل الناس أنفعهم لعياله، والإنسانية وإن تقسمت شعوبًا وقبائل فهم جميعًا منحدرون من أب واحد وأم واحدة، وعليهم أن يتعارفوا والتعارف لا بدَّ أن تعقبه صداقة وتعاون وإكرام.

ولقد أمرنا ربنا أن نوحِّده أولاً، وهذا هو حقه على عبيده، ثم أمرنا حالاً بعد ذلك بأداء الحقوق لذوي الحقوق من والدين وأقرباء وضعفاء وجيران، وما أجمل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وانظر إلى ختام الآية وما تحمله من دلالة حكمية مفادها أن مَن لا يعترف بحقوق مَن حوله، فهو المتغرطس الذي حرم نفسه من حب الله، وما يترتب على حبه -تبارك وتعالى- من مواهب ومكارم يسعد بها العبد في الدارين.

لقد قرأنا في السُّنة النبوية المطهرة ما لو اطلع عليه أهل الحضارات لدهشوا من هذا الفيض الغامر من صنائع الإحسان ورحمة الإنسان بالإنسان.

**وإني موردٌ هنا من أقوال رسولنا الكريم ﷺ وأفعاله ما يرسم للدنيا كلها منهج الهدى والحق والعدل والإحسان:**

- جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك**».

وفي صنائع المعروف والحث على الاستكثار منها يقول رسول الله ﷺ: «**أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة**»، ومعنى هذا أن المؤمن الذي هداه الله لقضاء حوائج العباد وصنع المعروف مع كل إنسان يكرمه الله يوم القيامة، فيعطيه منزلة رفيعة في المحشر حتى إن الناس ليقصدونه في حوائجهم، فيقضيها لهم كما كان يفعل في أيام الدنيا، بل إن الإسلام ليفرض على كل مسلم حقوقًا لإخوانه المسلمين إنْ لم يؤديها فقد قصَّر في جنب الله، يقول النبي ﷺ: «**خمس من حق المسلم: رد التحية، وإجابة الدعوة، وشهود الجنازة، وعيادة المريض، وتشميت العاطس إذا حمد الله**».

وفي السماحة والصفح والتجاوز عن المعسر يقول رسول الله ﷺ: «**كان رجل يداين الناس، ويقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا، فلقي ربه فتجاوز عنه**».

وقد ورد في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ رأى جنازة مقبلة من بعيد، فقام -عليه الصلاة والسلام- احترامًا للموت، كمظهر من مظاهر القهر الإلهي للعباد، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، فقال رسول الله ﷺ: «**أليست نفسًا؟**»، يعني بذلك أليس إنسانًا من بني آدم ينتمي إلى الأسرة الإنسانية.

وفي رحمة العبد للعبد يقول رسول الله ﷺ: «**مَن فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين الأحبة يوم القيامة**»، ويجعل الرحمة عامة لكل خلائق الأرض من إنسان وحيوان وطير، فيقول -عليه الصلاة والسلام: «**ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**».

وفي صحيح البخاري وسنن أبي داود أن غلامًا يهوديًا كان يخدم رسول الله ﷺ، فمرض،

فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلمْ»، وكان أبو الغلام عنده فنظر الغلام إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم الغلام، فخرج رسول الله ﷺ، وهو يقول: **«الحمد لله الذي أنقذه من النار»**.

وفي السُّنة النبوية المطهرة ما يفيد أن المؤمن يجب أن تمتد رحمته إلى الحيوان؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**.

– والإنسان في الإسلام أخو الإنسان مهما كان فارق النسب والغنى، ويحقق المسلم هذه النظرة الإسلامية باحترامه كل مسلم، واجتناب إهانته؛ ففي صحيح مسلم عن سويد بن مقرن ﷺ (وسويد هذا هو أخو النعمان بن مقرن شهيد نهاوند)، قال ما خلاصته: إن أخاهم الأصغر لطم جارية لهم كانت تخدمهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يعتقوا تلك الجارية مع أنهم كانوا سبعة إخوة ولا خادم لهم سواها.

– وفي صحيح مسلم عن أبي مسعود البدري ﷺ قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: **«اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»**، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقَالَ: **«أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ»**.

– وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ، فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»**.

– وفي صحيح مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»**.

– ومن كرامة بني آدم أن رسول الله ﷺ نهى عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه، وأوجه الكلام حول الوسم في الوجه إلى الإخوة السودانيين ليتركوا هذه العادة التي يبدو أنها من بقايا عادات بالية كافرة.

– وروى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال -عليه

الصلاة والسلام: «لعن الله من وسمه».

- ونهى رسول الله ﷺ أن تفجع الطير بفرخها، بل لقد أمر أن ترد عليها فرخها.

- ورأى عمر ﷺ يهوديًّا هرمًا يسأل على أبواب المساجد، فسأله: لماذا تسأل الناس؟ فقال: السن والجزية، فقال له: ما أنصفناك، وأمر له من بيت مال المسلمين بما يصلح من شأنه ويصون كرامته.

- وأنكر رسول الله ﷺ على امرأة من الأنصار حين لعنت ناقتها، ونهى أن يسبَّ الديك.

واشتد رسول الله في أمر من يسبُّ غلامه لما يرى من قدرته عليه، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**من قذف مملوكه بالزِّنا أقيم عليه الحد يوم القيامة**».

وقد نهى الله ﷻ عن سباب المشركين وآلهتهم حتى لا يسبوا الله عدوًا بغير علم.

ونهى رسول الله ﷺ عن ذلك يوم بدر حين أقبل أحد المسلمين يلعن أصحاب القليب، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**دعوا السباب؛ فإنه يؤذي الأحياء، ولا يصل إلى الموتى، والبذاء لا يأتي بخير**»، «**ليس المؤمن بطعان ولا لعان، ولا فاحش ولا بذيء**».

## حقُّ الجـــار

نستطيع أن نسمِّي أيامنا هذه أو عصرنا هذا «عصر الشكوى»؛ لأن الشكوى هي طابع العلاقات الاجتماعية والعائلية، تسأل الأب عن أبنائه فيشكو تفلتهم من المسئولية وتقصيرهم في الواجبات الأسرية، وتسأل الأبناء عن أبيهم فيشكون لك جموده على العادة ونقده لحديثهم وإخلاده لأفكار رجعية، ومثل هذا القول تسمعه إذا سألت زوج عن زوجته أو أستاذ عن طلابه أو موظف عن مراجعيه، وأكثر ما تتجلى الشكوى إذا ما سألت جار عن جاره هناك تسمع العجب العجاب، وترى النعيم وقد تحول إلى عذاب.

إنَّ أمتع ما يمتعك في معيشتك جار مهذب مسعف على الزمن، يقيل العثار، ويحترم الجوار، ويخف للعون، ويغيث في اللهفة؛ إنه عندئذ أخو لك لم تلده أمك، بل هو أحيانًا أهم من الأخ الشقيق، وأغلى من أصدق صديق؛ لأنك تراه في كل لحظة كرصيد الذهب يغيثك

ساعة الحاجة، فكم من جار مرض مثلاً فلم يدر أخوه الشقيق بمرضه إلا بعد بضعة أيام، بينما علم جاره بمرضه بعد بضع ثوان، فخف لنجدته، وأوصله إلى الإسعاف بسيارته، ولازمه حتى زال بأسه وطابت نفسه، بينما لم يدرِ شقيقه بعلته إلا بعد أن عاد إلى بيته واسترد كامل صحته، مثل هذا الجار لا يوازن بجوهر ولا ذهب ولا بمال ولا نسب؛ لأنه نعمة جزيلة، ومنحة من الله جليلة.

والجار في هذه الأيام إما خير دائم وإما شر مستطير؛ لأن البيوت في أيامنا هذه ليست خيام أو بيوت شعر ينقضها الإنسان في ساعة، ويتحول بها إلى جيرة جديدة.

ومن هنا كان الجار إما نعيمًا دائمًا يبهج النفوس أو علة باطنية تصدع الرءوس، فالبيت في هذه الأيام حديدي الأساس والتحول عنه غرم لا يطاق، وفي صحيح ابن حبان أن رسول الله ﷺ كان يدعو ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ**».

وتبدأ خلافات الجيران تافهة كالشرارة الضئيلة كشجار بين طفلين أو جدال بين امرأتين ثم لا تلبث أن تثور النار من مستصغر الشرر، وإذا مقاطعة تتحول إلى عداء مرير وخصام خطير وأكثر ما يهيج العداء أن يفزع الكبير لابنه الصغير ظالمًا أو مظلومًا ويصدق الرجل زوجته محقة أو مبطلة هنالك تنقلب النعمة إلى نقمة، ويتحول الإخاء إلى بلاء.

ولو أن المسلمين عرضوا أدواءهم وهمومهم على الإسلام لوجدوا فيه شفاء لما في الصدور وحلاً لكل الأمور وعلاجًا لكل المعضلات؛ لأن هذا الدين السماوي الجليل نظَّم العلاقات الاجتماعية تنظيمًا حكيمًا، وحدَّد لجميع الخلطاء واجباتهم وحقوقهم بحيث يكون نبعها الخلق والضمير، ومردها الدين والإيمان.

لقد أوصى الإسلام بالجار سواء أكان كتابيًّا أو مسلمًا أو أجنبيًّا أو قريبًا أو كان صاحبًا بالجنب جاورك وقتًا محدودًا في سفر لجهاد أو تجارة.

**وقد رسم الإسلام سنن حكيمة لعلائق الجيران لو اتبعوها لما بكى باكٍ، ولما شكى شاكٍ:**

– ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليحسن إلى جاره».

– وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»، أي: شروره وأذاه وغدراته.

– وللطحاوي أن رسول الله ﷺ قال: «كل أربعين دار جيران من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله».

– وفي الحديث الذي رواه الطبراني توجيهات نبوية كريمة لأسس الجيرة؛ إذ يقول -عليه الصلاة والسلام- عَنْ حق الجار: «إِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَّعْتَهُ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنْ أَعْوَزَ سَتَرْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ، وَلا تَرْفَعْ بناءَكَ فَوْقَ بنائِهِ فَتَسُدَّ عَلَيْهِ الرِّيحَ، وَلا تُؤْذِهِ بِرِيحِ قِدْرِكَ إِلا أَنْ تَغرِفَ لَهُ مِنْهَا».

– وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْجَارُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ».

وفي الأثر: «الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل».

هذا، ومن أدب الجار المسلم أن يعتبر أسرة جاره من ضمن عرضه وحماه، وأن يشركهم في العسر، ويعف عن مالهم في الميسرة، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني في «المعجم الكبير»: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ».

وقديمًا قال الشاعر المسلم يصف علائقه الشريفة بجاره وعرض جاره:

داري ودار الجار واحدة ... وإليه قبلي تنزل القدرُ

ما ضر جارًا لي أجاوره ... ألا يكون لبابه سِتْرُ

أعمى إذا ما جارتي برزت ... حتى يواري جارتي الخدرُ

ويبدأ المسلم في الإحسان إلى جيرانه بالأقرب فالأقرب، وفي صحيح البخاري أن عائشة -رضي الله عنها- سألت رسول الله ﷺ قائلةً: يا رسول الله، إن لي جارتين، فإلى أيهما أهدي؟

فقال -عليه الصلاة والسلام: «إلى أقربهما منكِ بابًا».

وسبب ذلك أن الأقرب منهما بابًا، ربما يرى أولاده ما كنت أحضرته إلى بيتك من رزق الله، فتتعلق به نفوسهم.

والإحسان إلى الجار عادة عربية قديمة أقرها القرآن وأوصى بها جبريل عليه السلام وأتم بها نبيُّنا ﷺ مكارم الأخلاق، وكان من أفظع التهم في الجاهلية أن يتهم المرء بالشبع مع جوع جيرانه، فمن أوجع الهجاء قول الشاعر في قوم:

يبيتــون في المشْــتَى مِــلاء بطــونهم ... وجــاراتُهُمْ غَرْثــى يَبِــتْنَ خمائصًــا

وإنما ذكر المشتى؛ لأن الناس في برد الشتاء يقبلون على الطعام حين يقل اللبن في الضروع، ويختفي من البرد الكلأ والزروع، فما أكبر حجم اللؤم حين يملأ المرء بطنه وجاراته وأطفالهن جوعى، يبتن الليل طاويات جياعًا، يقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

## حقوق الضيف

يحرص الإسلام أن تشيع بين أتباعه الألفة، وأن تنزع من بينهم الكلفة، وأن يعتبر كل مسلم أخاه المسلم أخا له بكل معاني الإخاء من حب وإيثار ومؤانسة وكرم ضيافة، ومن ثم فقد رغَّب الإسلام في الكرم وما يتبعه من بشاشة وحسن مقابلة، ونفَّر من الشُّح وما يتبعه من تجهم وسوء لقاء، وأباح الإسلام للأقارب والأصدقاء أن يأكل بعضهم من بيوت بعض بدون استئذان، فلو أن صديقًا مسلمًا قدم على صديق حميم له من إخوانه المسلمين، فوجد البيت خاليًا؛ لأن أهل البيت مثلاً عند جيرانهم، ثم وجد أن الباب لم يقفل، فإن الصديق عندئذ يجوز له أن يفتح الباب، ويدخل إلى المجلس في أدب وأمانة، وإذا وجد في المجلس طعامًا وشرابًا أكل وشرب، وكأنه صاحب بيت، يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن

تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

والحقُّ أن الحبَّ يزكو والمودة تتألق حين يرى المسلم صديقًا صالحًا له قد دخل بيته وهو غائب، فأكل وشرب واستراح، ثم غادر البيت وقد ترك وريقة يسلِّم فيها ويشكره ويدعو له.

لقد دعانا الإسلام إلى السماحة والكرم وإطعام الطعام وسلوك طريق الكرام ابتغاء مرضاته ورجاء رضائه.

إنَّ الكرم دليل الإيمان؛ لأن الكريم يثق دائمًا بما عند الله، ويعتقد أن خزائن الله ملأى، وأن يده مبسوطة، أما البخيل فأقل ما يوصف به أنه يائس مما في يد الله معتقد أن خزائن الله قد نفذت، وأن ما عنده بعيد لا ينال ولا يوصل إليه.

وقد آلمني أن المسلمين الكرام أحفاد الصحابة قد دخلوا في مسابقة الكرم مع اليهود البخلاء الأذلة، فقدم اليهود لدعم باطلهم أضعاف ما قدمه العرب المسلمون لدعم حقهم.

**وإني موردٌ هنا بعض الأحاديث حول الكرم والضيافة والأكل، ثم إني متبعها إنْ شاء الله بما يستنبط منها:**

– جاء في صحيح الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لاَ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**».

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليصل رحمه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو ليصمت**».

– وفي صحيح مسلم قصة ضيف رسول الله ﷺ حين قدم عليه، فلم يجد عند زوجاته إلا

الماء، فتطوع رجل من الأنصار وأخذ معه ضيف رسول الله فلم يجد عند زوجته إلا بمقدار ما يعشي أولاده، فقال لزوجته: علليهم بشيء، فإذا أرادوا العشاء فنوميهم، فإذا دخل الضيف فأطفئي السراج، فقعدوا وأكل الضيف وهو يتوهم أنهم يأكلون وباتوا هم وأبناؤهم طاوين، وفي الصباح قال رسول الله ﷺ للأنصاري: لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة، ونزل قوله تعالى في هذه المناسبة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ».

- وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا خير فيمن لا يضيف».

وفي مسند أحمد أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء شرًّا أن يحتقر ما قرب إليه»، وفي الصحيح: «نعم الإدام الخلُّ».

- وجاء في الأحاديث الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعه، وقوله: «الخير أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير»، وقوله كذلك: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا». وفي الأثر: «إن الله يحب الذي تتكاثر الأيدي على إنائه».

**هذا، وقد عدَّد الأشياخ آداب الضيافة والأكل، وهذا بعض ما ذكروه كما جاء في «مختصر القاصدين» لابن قدامة المقدسي -رحمه الله:**

من ذلك غسل اليدين قبل الأكل، وألا يملأ الآكل معدته، بل يترك فراغًا للشراب والنفس، وأن يرضى بما يتيسر ولا يذم أي طعام، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على مائدته، وأن يبدأ باسم الله، ويصغر اللقمة، وأن يمضغها جيدًا، ولا يمد يده إلى لقمة أخرى حتى يبلع الأولى، وأن يأكل مما يليه، وإذا وقعت لقمة أخذها، وألا ينفخ في الطعام الحار، وألا يضع قشر الفاكهة أو نوى الرطب في نفس وعاء الفاكهة أو الرطب، وألا يشرب قائمًا، وأن يأكل كل ما في صحنه الخاص به حتى لا تكبَّ البقية، وأن يلعق أصابعه بعد الأكل، وأن يحمد الله في آخره؛ لأن الله يرضى من العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله.

ومن الآداب ألا يكون أول من يمد يده إلى الطعام، ويستحب أن يتحدث المجتمعون على الطعام أحاديث جميلة، ولو بأثمان أسلحتهم؛ لأن ذلك يعطي فترات لراحة المعدة، وأن يؤثر بعض الآكلين بعضًا باللقمة الطيبة، وأن يظهر الضيف السرور، ويتجنب الانقباض والخجل.

ومن آداب الطعام ألا يفعل أفعالاً يستقذرها الآخرون؛ كأن ينفض يده في الإناء، ولا يقرب رأسه إلى القصعة وهو يأكل، وإذا أراد أن يخرج من فمه شيئًا ولى وجهه عن الطعام والآكلين، وألقى به حيث لا يُرى.

كذلك من آداب الأكل ألا يظل مراقبًا للضيوف أثناء أكلهم حتى لا يخجلهم، وإذا أكل جزءًا من لقمة؛ فلا يغمس بقيتها في المرقة، ويستحب أن تقدم الطعام بنفسك إلى ضيوفك وتظهر لهم السرور والغبطة؛ فقد روي عن الإمام عليٍّ ﷺ قوله: «لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليَّ من أن أعتق رقبة».

ومن آداب الضيف ألا يقترح على المضيف طعامًا معينًا إلا إذا فرضه طبيب أو عرف الضيف أن مضيفه يسر باقتراحه، وإذا خيره المضيف أن يصنع له أحد طعامين اختار الأيسر.

ومن آداب كرم الضيافة أن تقصد بكرمك وجه الله، وأن تدعو الأتقياء، وتتجنب دعوة الفساق، ولو كانوا ذوي جاه ومنصب وغنى، وألا تخلط كرمك بالرياء والنفاق وطلب السمعة؛ فذلك يضيِّع أجر الكرم، وإذا دعيت إلى طعام عند أخيك فأجب، وبخاصة إذا كانت وليمة عرس حتى ولو كنت صائمًا متنفلاً؛ لأن إجابتك تسرُّ أخاك، وتكمل فرحه.

ومن آداب تقديم الطعام تعجيله؛ لأن انتظار المائدة شاق، وألا تعجل برفع الطعام حتى ينتهي آخر الضيوف، وأن تقدم من الطعام قدر الكفاية بلا تقليل ولا إسراف، وأن تعزل من الطعام لأهل بيتك وأطفالك.

أما الضيف؛ فيجب أن يظهر الشكر والرضا والسرور حتى ولو رأى تقصيرًا في واجبه.

***

## حقوق العمال

في هذه الأيام تعج الديار بعدد لا يستهان به من العمال والأجراء والخدم يستقدم معظمهم من الخارج، ويعملون في مجالات شتى، فمنهم مزارعون ودعاة وخادمات بيوت، ومنهم سائقون وأصحاب صناعات وحرف، ومنهم باعة في الأسواق وعمال نظافة مع شركات الصيانة، وكلهم بفضل الله يخدمون المواطنين ويتقاضون أجورهم في مقابل عمل حلال.

والحقُّ أن هؤلاء جميعًا هم في حماية الدولة؛ لأن القوانين التي سنتها الدولة في إدارات العمل تضمن حق العمال وأصحاب الأعمال، ومن قبل ذلك نظَّم الدين الإسلامي علاقات العامل بمستخدمه، وأوضح الحقوق والواجبات المترتبة على كل منهما.

**وإني ذاكرٌ الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها كل من الأجير والمستأجر أو العامل وصاحب العمل أو الخادم والمستخدم لكي يبارك الله لكل منهما في عمله وفي كسبه:**

**أولاً**: كل من العامل وصاحب العمل يعتبر نعمة لأخيه، فالعامل يخدم رب العمل ويريحه من كثير من مسئولياته وأعبائه، وصاحب العمل يدفع له أجرته فينفق منها على عياله ويعف بها نفسه ويصون ماء وجهه، وكل منهما في الحقيقة يخدم الآخر، وقديمًا قال الشاعر:

**الناس للناس من بدو وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدموا**

وعلى كلٍّ من العامل وصاحب العمل أن يعتبر أخاه نعمة من الله أنعمها عليه، فيشكر صاحب العمل أخاه لما يوفر عليه من وقت ومشقة، ويشكر العامل أخاه؛ لأنه أوجد له عملاً ووظفه في وظيفة شريفة.

والعمل شرف مهما كان نوعه؛ لأن العامل يؤدي عمله بشرف وأمانة ويتقاضى أجره في عزة وكرامة، ومن هنا فإن كلا من الطرفين يجب أن يتعاملا باحترام متبادل، فلا يحقر رب العمل خادمه، ولا يعصي الخادم مستخدمه؛ إذ إن كل منهما أخ للآخر، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ** (أي: خدامكم) **جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ**

**كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ؛ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ»**.

**ثانيًا:** لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يستعلي المخدوم على خادمه فيهينه أو يشتمه أو يرفع صوته عليه بدون ذنب أو يضربه؛ لأن الناس كلهم لآدم، والتفاضُل بالتقوى، ولَرُبَّ خادمٍ مؤمن قائم بشعائر دينه يكون أفضل عند الله من سيده، ولربما يدخل صاحب العمل الجنةَ يوم القيامة بشفاعة خادمه إذا هو أحسن إليه وعطف عليه، والله يؤتي فضله من يشاء.

جاء في الصحيحين عن المعرور بن سويد ﷺ أنه رأى أبا ذر ﷺ عليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها، فسأله عن ذلك، فذكر أبو ذر أنه سابَّ رجلاً فعيَّره بأمه، فقال له النبي ﷺ: **«إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**، ويبدو أن ذلك الغلام هو المسبوب كان خادمًا لأبي ذر.

**ثالثًا:** إذا أحضر لك خادمك حلوى أو طعام يشتهيه فأعطيه منه، ولا تتركه يتفرج عليك وأنت تأكل وحدك؛ إذ ربما ينظر إليه وهو مشتاق إلى ذلك الطعام؛ فقد جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه؛ فليناوله لقمة أو لقمتين»**.

**رابعًا:** إن أجرة الأجير عند الله -تعالى- مقدسة لا يجوز أن تؤكل أو تنقص، وعلى صاحب العمل أن يحدد للأجير أجره قبل أن يستخدمه حتى يكون الأمر واضحًا لا يحتمل التأويل، فقد جاء في سنن النسائي أن رسول الله ﷺ نهى عن استئجار الأجير حتى تبين له أجره.

هذا، وقد أولع بعض أصحاب الأعمال أن يؤجل دفع أجرة الأجير حتى يتراكم له عنده شهر، وفي أثناء ذلك يحتاج الأجير فلا يعطى شيئًا من أجره، وأخيرًا إذا تجمع للأجير مبلغ حسن وسوس الشيطان لمستأجره أن ينقص الأجر أو يساوم عليه أو يأكله أو يقول للأجير: أتنازل عن كفالتك في مقابل أن تتنازل عن أجرك وحقوق خدمتك، ومن أصحاب العمل من يكون مجرمًا فيستغل نفوذه ويرحِّل الأجير ليضيِّع عليه أجره، فقد جاء في مسند أبي يعلى أن رسول الله ﷺ قال: **«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»**، وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«ظلم الأجير أجره من الكبائر»**.

**خامسًا**: إذا سقط من يد الخادم إناء أو شيء ذو ثمن فانكسر، فما يجوز أن يعاقب الخادم أو يهان به أو يغرم إلا إذا كان هذا الأمر يتكرر منه باستهانة مقصودة، فيوجه عندئذ في حزم ورفق، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تضربوا إياءكم على كسر إنائكم؛ فإن لها أجالاً كآجال الناس**».

وقد كان لسلفنا الصالح في هذه الفضيلة مواقف عظيمة فكان علي بن الحسين (زين العابدين) رحمه الله- مثلاً في الحلم عن الخدم، حتى كان يعتق الخادم إذا أتلف شيئًا وتخوف العقاب، فقد روي أنه كان له خادمًا (عبد) سيئ الخلق، فاقتراح عليه بعض إخوانه أن يبيعه ليستريح من سوء خلقه، فقال -رحمه الله: لن أبيعه مهما غلا ثمنه؛ لأني أتعلم عليه الحلم والصبر.

**سادسًا**: هذا ومن آداب صاحب العمل أن يزور عماله وينصحهم ويوصيهم بتقوى الله ومكارم الأخلاق، وأن يرسل إليهم بطعام المناسبات؛ فإنهم عندئذ يحبونه ويدعون له ويسمعون كلامه، وما أجمل أن يخفف عنهم العمل في رمضان، ويخرج عنهم زكاة الفطر، ويقدم لهم في العيد هدية لأولادهم؛ فإنهم عندئذ يدعون له، ودعاء المسلم لأخيه بظاهر الغيب مقبول إنْ شاء الله.

**سابعًا**: هذا، ولا يفوتني أن أنبِّه العمال والأجراء بدورهم، فأقول لهم: إنَّ العمل شرف وأن أداءه على وجهه الأتم هو مطلب من مطالب الدين، فالعامل مؤتمن على العمل في غياب صاحبه وحضوره، والله تعالى يحب إذا عمل الإنسان عملاً أن يتقنه، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله؛ فله أجره مرتين**»، وقال أبو هريرة: والذي نفس أبي هريرة بيده، لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك.

هذا، ولا يجوز للمسلم إذا رأى أجيرًا مخلصًا متقنًا لعمله أن يغريه بترك مستخدمه ويفسده عليه بزيادة أجر أو نحوه، فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي: «**من خبب (أي: أفسد) خادمًا على أهله؛ فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها؛ فليس منا**».

***

## الإصلاح بين المتخاصمين

إنَّ أعظم القضاة توفيقًا هو الذي يعمل كل جهده في الإصلاح بين المتخاصمين عنده، وما أجمل أن يخرج كل المتخاصمين من عند القاضي متصالحين، فالصلح سيد الأحكام وهو جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً، وفي هذا يقول الله -تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وفي سورة «الحجرات»: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحتى في قضايا الدماء تجد القاضي الموفق يسر الصلح ويدعو إليه، وذلك لأن فصل القضاء يورث الضغائن بينما الصلح يرضي الطرفين، فيخرج المتخاصمان وكل منهما يحمد للآخر تسامحه.

قال عمر ﷺ: «ردوا الخصوم حتى يصطلحوا؛ فإن فصل القضاء (يعني: الحكم الصارم) يورث بينهم الضغائن».

**وهذه بعض الأحاديث الكريمة نوردها ثم نستنبط ما اشتمل عليه من أحكام:**

- في صحيح البخاري ما خلاصته أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا سنة الحديبية فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فعقد مع قريش صلحًا يقضي بأن يعود هو وصحبه هذا العام دون أن يعتمروا، ثم يعودوا فيعتمروا في العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا إلا سيوفًا، ولا يقيم إلا ما أحبوا، فاعتمر في العام المقبل فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثًا أمروه أن يخرج فخرج.

- وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- قالت عن قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: ١٢٨]: نزلت في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، فتقوله له: امسكني ولا تطلقني ثم تزوج غيري، وأنت في حل من النفقة عليَّ والقسمة لي (أي: في الليالي)، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

- وفي صحيح البخاري أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر النبي ﷺ، فقال: «**اذهبوا بنا نصلح بينهم**».

- وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً، والمسلمون على شروطهم إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً**».

- وروي الجماعة ما خلاصته أن أحد الأنصار خاصم الزبير في قناة ماء تمر في بستانيهم، فذهبا إلى رسول الله ﷺ فقال للزبير: «**اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك**»، فغضب الأنصاري وقال لرسول الله ﷺ: إن كان ابن عمتك، فتلوَّن وجه النبي ﷺ وقال للزبير: «**اسق يا زبير، ثم احبس الماء، حتى يرجع إلى الجَدْرِ**»، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

**أولاً**: من أهم خصائص الإسلام وأهدافه تحقيق المحبة والتآلف والإخاء بين المسلمين، ومن أجل ذلك فرض أركان الإسلام وجنَّدها لتجمع المسلمين وتوحدهم وتشيع بينهم الإخاء الصادق، ومن المعروف أن أي متخاصمين في حق أو جناية يدخل بينهما الشيطان، فيوعز القلوب ويشحن الصدور بالحقد والكراهية، وما يفتأ يتصيد بينهما في الماء العكر حتى يطمس في قلبيهما كل معاني الأخوة والمحبة، ويحل محلها العداوة والبغضاء، ومن أجل ذلك شرع الصلح بين المسلمين، وفضله على الحكم الصارم الذي لا هوادة فيه ولا عفو.

**ثانيًا**: لاحظ المفسرون أن آية سورة «النساء» التي تذكر الصلح جاء في سياقها ذم الشح، وفي هذا إشارة أن أشد شيء يثير البغضاء ويخرب جهود المصلحين هو الشح، والشح معناه البخل الممزوج بالأنانية؛ لأن الصلح عادة يتطلب من المتخاصمين أن يتنازل عن بعض حقه من أجل فض الخصام، وإن أكثر ما يخرب جهود المصلحين هو زوال روح الإيثار والكرم من بين المتخاصمين، فيتشبث كل منهما برأيه، وقد تسمع أحدهما وهو يحلف بالله ألا يتنازل عن ريال واحد، وفي ظرف حادٍّ من هذا النوع يصبح الصلح أمرًا عسيرًا جدًّا.

**ثالثًا**: في صحيح البخاري عن جابر ﷺ أَنَّ أَبَاهُ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَاشْتَدَّ

الْغُرَمَاءُ (أي: أصحاب الديون) فِي حُقُوقِهِمْ، قال جابر: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا تَمْرَ حَائِطِي (أي: بستاني)، وَيُحَلِّلُوا أَبِي فَأَبَوْا، فَلَمْ يُعْطِهِمِ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطِي، وَقَالَ: «سَنَغْدُو عَلَيْكَ». فَغَدَا عَلَيْنَا حِينَ أَصْبَحَ، فَطَافَ فِي النَّخْلِ، وَدَعَا فِي ثَمَرِهَا بِالْبَرَكَةِ، فَجَدَدْتُهَا فَقَضَيْتُهُمْ، وَبَقِيَ لَنَا مِنْ تَمْرِهَا.

وفي رواية: أن أَبَاهُ تُوُفِّيَ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ ثَلاَثِينَ وَسْقًا (والوسق مكيال يعادل الخمسين كيلو جرامًا) لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَاسْتَنْظَرَهُ جَابِرٌ، فَأَبَى أَنْ يُنْظِرَهُ (أي: يصبر عليه)، فَكَلَّمَ جَابِرٌ رَسُولَ الله ﷺ لِيَشْفَعَ لَهُ إِلَيْهِ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَلَّمَ الْيَهُودِيَّ لِيَأْخُذَ ثَمَرَ نَخْلِهِ بِالَّذِي لَهُ فَأَبَى، فَدَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ النَّخْلَ، فَمَشَى فِيهَا ثُمَّ قَالَ لِجَابِرٍ: «جُدَّ لَهُ فَأَوْفِ لَهُ الَّذِي لَهُ». فَجَدَّهُ بَعْدَ مَا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَوْفَاهُ ثَلاَثِينَ وَسْقًا، وَفَضَلَتْ لَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسْقًا، فَجَاءَ جَابِرٌ رَسُولَ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِالَّذِي كَانَ، فَوَجَدَهُ يُصَلِّي الْعَصْرَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُ بِالْفَضْلِ، فَقَالَ: «أَخْبِرْ ذَلِكَ ابْنَ الْخَطَّابِ»، فَذَهَبَ جَابِرٌ إِلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ عَلِمْتُ حِينَ مَشَى فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ لَيُبَارَكَنَّ فِيهَا.

**رابعًا:** يجوز للمصلح أن يشفع شفاعة حسنة في إسقاط جزء من الحق، ولا يكون في ذلك أثم على المصلح، بل هو حسنات إنْ شاء الله، يقول الله تعالى: **﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾** [النساء: ٨٥].

فلو أن متخاصمين تخاصما حول دين قديم لأحدهما على الآخر، فتدخل المصلحون وقالوا للدائن: إن أخاك معسر فاكتف منه بنصف الدين، ثم أرحه في الباقي، فرضي بذلك كلا الطرفين كان هذا الحكم صلحًا، ولا إثم في الضغط على الدائن؛ لأن ما يتجاوز عنه في حقه لأخيه يجعله الله صدقة في ميزان حسناته.

**خامسًا:** حقوق العباد هي التي تتصالح، إما حق الله فلا صلح عنه، فلو صالح الزاني أو السارق أو شارب الخمر من أمسكه ليرفع أمره إلى الحاكم على مال ليطلق سراحه، فإن الصلح لا يجوز، وتعتبر أخذ العوض في هذه الحال رشوة، وكذلك لا يجوز للمدعى عليه أن يصالح الشهود كي لا يشهدوا عليه، فإذا فعل وقع عليه وعلى شهوده إثم كبير، قال الله تعالى: **﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٨٣].

# أحكام العقيقة

**هذه بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بأحكام العقيقة نوردها ثم نتبعها -إنْ شاء الله - بأحكام يكثر السؤال عنها:**

- روى أصحاب السنن -رحمهم الله- عن سمرة بن جندب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ غلام رهين بعقيقته، يذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه ويسمَّى**».

- وفي سنن أبي داود قال رسول الله ﷺ قال: «**عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة، لا يضركم ذكرانًا كنا (أي: الذبائح) أو إناثًا**».

- وروى أصحاب السنن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين كبشًا كبشًا، ولأبي داود: «**كبشين كبشين**»، وزاد البزار والموصلي عن عائشة: «**اذبحوا على اسمه، وقولوا: بسم الله، والله أكبر، اللهم منك وإليك، هذه عقيقة فلان**».

- وفي «المعجم الكبير» للطبراني أن رسول الله ﷺ أذَّن في أذنيهما، وزاد رزين: وقرأ في أذن الحسن سورة الإخلاص، وحنَّكه بتمرة.

- وفي جامع الترمذي أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة -رضي الله عنها: «**احلقي رأسه، وتصدقي بزنة شعره فضة**»، فوزناه فكان وزنه درهم أو بعض درهم.

- وروى مالك -رحمه الله- أن فاطمة -رضي الله عنها- وزنت شعر الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم، وتصدقت بزنة ذلك فضة.

- وروى البزار والطبراني أن النبي ﷺ عقَّ عن نفسه بعد أن بعث نبيًّا.

- وكان العرب في الجاهلية يذبحون أول نتاج تنتجه الإبل ويسمونه «الفَرَع»، كما يذبحون في شهر رجب ويسمونها «الْعَتِيرَة»، ويقدمونها لطواغيتهم، فلما جاء الإسلام ذكر له الفرع والعتيرة، فأقر رسول الله ﷺ كل ذبح يذبح لله نسكًا، يذبح في رجب وغيره، وقال في الفرع: «**الْفَرَعُ حَقٌّ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ حَتَّى يَكُونَ شُغْزُبًّا ابْنَ مَخَاضٍ، أَوِ ابْنَ لَبُونٍ، فَتَحْمِلَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ تُعْطِيَهُ أَرْمَلَةً خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذْبَحَهُ يَلْصَقُ لَحْمُهُ بِوَبَرِهِ وَتُكْفِئُ إِنَاءَكَ وَتُوَلِّهِ نَاقَتَكَ**».

**وهذه بعض الأحكام المستنبطة من بعض الأحاديث الشريفة السابقة:**

**أولاً**: العقيقة هي الذبيحة التي تذبح للمولود، ومن معاني العقيقة الشعر الذي يخرج على رأس المولود من بطن أمه، ولعلها سمِّيت العقيقة؛ لأن هذا الشعر يقص ويتصدق بوزنه ذهب أو فضة يوم العقيقة، وهذه الذبيحة مظهر الشكر الله على ما أنعم به من الذرية، وهي أيضًا مظهر فرحة بالقادم الجديد، ثم هي مظهر أمل ورجاء في الله تعالى أن يجعله ببركة النسك مباركًا.

**ثانيًا**: العقيقة سنة مؤكدة، وهي تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود أو في الرابع عشر أو في الحادي والعشرين، على حسب اليسر والسهولة لاجتماع الناس والأرحام للطعام، وهي شاتان مكافأتان (أي: متقاربتان في السن) عن الغلام، وشاة عن الجارية، ولا مانع أن تكون الذبيحة ذكر أو أنثى، وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين شاة شاة أو كبشًا كبشًا، ويبدو -والله أعلم- أن الشاة الواحدة تجزئ عن الذكر، لكن الشاتين أمر مستحب، واشترط بعض الأئمة في العقيقة شروط الأضحية من حيث جودتها وكمال جسمها.

**ثالثًا**: قوله ﷺ: «**كل غلام رهين أو مرتهن بعقيقته**» إنما هو لتوكيد سنتيها، فالرجل القادر الموسر إذا لم يعق عن مولوده، كأنما ترك ولده مرهونًا بلا فكاك، وهذا يقوي رأي الظاهرية بأن العقيقة واجبة، لكن جمهور العلماء يرى أنها سنة.

**رابعًا**: إذا بلغ الطفل أسبوعًا استحب أن يحلق شعره، ويسمَّى، ومن السُّنة تجميل الاسم بتحميده أو تعبيده أو اختياره اختيارًا جميل المعنى.

**خامسًا**: حين ولادة المولود يستحب أن يؤذن في أذنه اليمنى، ويقام في اليسرى، وجاء أن النبي ﷺ قرأ في أذن الحسن سورة الإخلاص، وروي في الحديث الشريف ما يفيد أن من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى لم تؤذه تابعته من الجن.

**سادسًا**: إذا لم يعش المولود سبعة أيام، فلا يعق عنه، والله أعلم؛ لأن العقيقة تكون عادة في سابع يوم من الولادة.

**سابعًا:** كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يرى الناس يثقبون أذن الطفلة لكي يسهل تعليق القرط، فلا ينكر ذلك، ولهذا أجازه الأشياخ للأنثى دون الذكر.

**ثامنًا:** توزع العقيقة كما توزع الأضحية بين الأكل والإهداء والصدقة، وما يفعله بعض الناس في هذه الأيام من طبخ العقيقة ودعوة ضيوف وجيران لأكلها؛ فهو يحتاج إلى تعديل وذلك بأن يتحرى دعوة بعض المحتاجين؛ ليكون في العقيقة إحسان يورث البركة.

**تاسعًا:** ورد في سنن البيهقي أن النبي ﷺ عقَّ عن نفسه بعد البعثة، وأنكر النووي الحديث وقال ببطلانه، والحق أنه لا داعي لهذا الإنكار؛ لأنه كل إحسان وخير مطلوب، وإذا كان إنسان ولد في ظروف ضيقة وأسرة فقيرة، فلم يعقوا عنه لجهل أو احتياج؛ فإنه إذا عقَّ عن نفسه يكون ملتمسًا الإحسان والبركة، والله أعلم.

**عاشرًا:** جاء أن النبي ﷺ كان يحنك المولود بتمرة، بمعنى أنه من التمرة ما يلينه، ثم يضعه في فم الطفل، وفي هذا فائدة بإذن الله وخصوصًا إذا سمي وهو يحنكه.

**الحادي عشر:** يستحب لمن يذبح العقيقة أن يذكر اسم المولود، فيقول أولاً: «بسم الله، الله أكبر، اللهم منك وإليك، هذه عقيقة فلان»، ويقطعها من المفاصل دون كسر العظم تفاؤلاً بتمام خلق المولود.

أسأل الله أن يشيع في أمتنا مناسبات السعادة والبركة والإحسان، وأن يبارك لنا في أزواجنا وذريتنا، ويجعلنا وإياهم للمتقين إمامًا.

## أحكام النذر

**يكثر الناس الأسئلة عن النذر، وإني ذاكرٌ هنا بعض ما ورد في النذر من أحاديث، فمتبعها إنْ شاء الله بشرح ما اشتملت عليه من أحكام:**

- روى الإمام مسلم -رحمه الله- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تنذروا؛ فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يستخرج به من البخيل**».

- وفي رواية: «**إِنَّ النَّذْرَ لاَ يُقَرِّبُ مِنِ ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يَكُنِ اللهُ قَدَّرَهُ لَهُ، وَلَكِنِ النَّذْرُ يُوَافِقُ**

الْقَدَرَ، فَيُخْرَجُ بِذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَمْ يَكُنِ الْبَخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ».

- وفي «المعجم الكبير» الطبراني عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ نهى عن النذر، وأمر بالوفاء به.

- وفي سنن أبي داود أن رجلاً قام يوم الفتح فقال: يا رسول الله، إني نذرت إنْ فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس، فقال له رسول الله ﷺ: «صلِّ هنا»، ثم أعاد عليه فقال: «صلِّ هنا»، ثم أعاد عليه فقال: «فشأنك إذن».

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يخطب؛ إذ هو برجل قائم، فسأل عنه، فقيل: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ويصوم ولا يفطر، ولا يستظل ولا يتكلم، فقال -عليه الصلاة والسلام: «مروه فليستظل، وليقعد، وليتكلم، وليتم صيامه».

- وروى الشيخان وأصحاب السنن أن أختًا لعقبة بن عامر -رضي الله عنهما- نذرت أن تمشي إلي بيت الله حافية، فاستفتى أخوها عقبة رسول الله ﷺ في نذرها، فقال -عليه الصلاة والسلام: «لتمشِ ولتركب»، وفي رواية: «فلتحج راكبة، ولتكفر عن يمينها».

- وفي سنن أبي داود عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لاَ يَمِينَ عَلَيْكَ، وَلاَ نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ الرَّبِّ وَفي قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَفِيمَا لاَ تَمْلِكُ».

- وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب ﷺ أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: إني نذرت إنْ انصرفت من غزوتك هذه سالمًا غانمًا أن أضرب على رأسك بالدف، فقال: «إنْ كنت نذرت فأوفِ بنذرك، وإلا فلا».

- وروى مالك -رحمه الله- أن أختًا لأبي بكر -رضي الله عنهما- جعلت على نفسها (نذرًا) مشيًا إلى مسجد قباء فماتت ولم تقضه، فأفتى ابن عباس -رضي الله عنهما- ابنتها أن تمشي عنها.

- ولمالك أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ نَذْرًا لَمْ يُسَمِّهِ فَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ، وَمَنْ نَذَرَ نَذْرًا فِي مَعْصِيَةٍ فَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ، وَمَنْ نَذَرَ نَذْرًا لاَ يُطِيقُهُ فَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ، وَمَنْ نَذَرَ نَذْرًا أَطَاقَهُ فَلْيَفِ بِهِ».

**وهذه أحكام مستقاة من الأحاديث الشريفة:**

**أولاً**: النذر هو أن يفرض العبد على نفسه عبادة أو قربة لا تلزمه في أصل الشرع كأن يذبح لله إذا شفي مريضه أو يتصدق بصدقة إذا عاد غائبه وهكذا، والأصل في النذر أن توفيه إذا كان في طاعة الله، أما إذا كان فيه معصية فلا يوفي به، كأن ينذر رجل ألا يدخل بيت شقيقته أو نحو ذلك.

**ثانيًا**: إذا كان النذر مرهقًا لا يستطيع الناذر تحمُّله فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وعلى الناذر أن في هذه الحال أن يكفِّر كفارة يمين.

**ثالثًا**: النذر لا يكون إلا لله؛ لأنه عبادة، ومن نذر لغير الله فنذره باطل.

**رابعًا**: من نذر صومًا مشروعًا (يعني في غير الأيام التي يحرم الصوم فيها)، ثم عجز عن الوفاء بنذره لكبر سنه أو لمرضه؛ فعليه كفارة يمين، والأفضل أن يطعم عن كل يوم نذر صومه مسكينًا.

**خامسًا**: من نذر أن ينفق كل ماله سمِّي نذره «نذر لجاج»، وعليه كفارة يمين، ويرى بعض الأشياخ أن يتصدق بثلثه.

**سادسًا**: من مات وعليه نذر صيام صام عنه وليه، روى ابن ماجه أن امرأة سألت النبي ﷺ فقالت: إن أمي توفيت وعليها نذر صيام، فقال: «**ليصم عنها الولي**».

**سابعًا**: النذر وإن كان يجب الوفاء به إلا أنه مكروه، ولا يستحسن أن يكثر الإنسان من النذور؛ لأن النذر لا يرد مقدَّرًا، ولأن الناذر قد يشعر أنه قد أرهق نفسه بهذا النذر متأثرًا بالظروف الطبيعة التي مرَّ بها.

**ثامنًا**: إذا نذر الناذر شيئًا مباحًا كتلك التي نذرت أن تضرب الدف فوق رأس رسول الله ﷺ إذا ما رجع من الغزو، فمثل هذا النذر لا بأس أن يوفى، وإذا حالت ظروف دون تنفيذه، فلا حرج إن شاء الله؛ لأنه ليس نذر عبادة أو قربة.

**تاسعًا**: في بعض البلاد العربية ينذر بعض الجهلة للأموات كأن يقدم إلى مقام الولي الفلاني شمعًا وزينًا وفرشًا وزخارف، وهذا جهالة جهلاء وضلالة عمياء وشرك بالله ﷻ،

وقد سبق أن قلنا: إن النذر عبادة، والعبادة لا تصرف إلا لربنا -جلَّ ثناؤه.

**عاشرًا:** النذر عبادة قديمة ورد ذكرها في كتاب الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

ثم جاء الإسلام، فأخذ من النذر أحسنه فهذَّب طريقته وجعله للعبادة والقربة، ونهى أن ينذر الإنسان ما يرهقه أو ما لا يملكه أو ينذر شيئًا في معصية والإسلام بأمر الوفاء بالنذر، لكنه كما أسلفنا يكره للمؤمن أن يربط نفسه بالنذور، قال -تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٣]، ووصف ﷺ الأبرار في قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

# أحكام الأضحية

الإسلام دين البر والإحسان وصنائع الخير، ومن أبر البر في الإسلام إطعام المساكين، فالكفارات في الإسلام كلها بر وإطعام وعتق رقاب، فمن لم يستطع فصيام، إذا أفطر الصائم الذي لا يطيق الصوم أبدًا أطعم عن كلِّ يوم مسكينًا، وإذا ظاهر الرجل من زوجته أطعم ستين مسكينًا إذا لم يتهيأ له عتق رقبة، ولم يكن بمقدوره الصيام، وإذا أغفل الحاج أي واجب جبره بدم أو طعام مساكين.

وعلى الجملة؛ فالإسلام مبني على الإخاء والتعاون على الخير وصنائع الإحسان، وقد رغَّب الإسلام في الجود وخصوصًا في أيام المجاعات حتى لقد جاء في كتاب الله في سورة البلد أن عقبة عظيمة تعترض الناس في القيامة لا يستطيع اقتحامها إلا من فكَّ رقبة أو أطعم مسكينًا فقيرًا أو يتيمًا من ذوي قرباه في ظروف ضيق ومجاعة، يقول الله -تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٢-١٥].

وفي مناسبات الأفراح والأعياد يدعو الإسلام إلى الإطعام؛ ليفرح المسلمون جميعهم، فإذا تزوج المسلم أولم لعرسه وليمة، وإذا ولد له ولد عقَّ له عقيقة، وإذا احتفل المسلمون بعيدهم الأضحى ذبحوا الأضاحي يأكلون منها ويهدون ويتصدقون، وقد أكثر المسلمون السؤال عن أحكام الأضحية.

**وإني مورد هنا بعض الأحاديث المتعلقة بتلك الأحكام، فمتبعها إن شاء الله بشرح لها:**

- روى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: أقام النبي ﷺ بالمدينة عشر سنوات يضحي (أي: في كل عام).

- وروى الترمذي والنسائي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فحضر الأضحى فاشتركنا في البقرة سبعة، وفي الناقة عشرة.

ولهما من حديث أبي أيوب ﷺ: ما كنا نضحي بالمدينة إلا بالشاة الواحدة، يذبحها الرجل عنه وعن أهل بيته، ثم تباهى الناس بعدُ فصارت مباهاة.

- وروى الترمذي أن أحد الصحابة حلب غنمًا جذعانًا إلى المدينة قرب الأضحى، فكسدت عليه، فلقي أبا هريرة فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نعم أو نعمت الأضحية الجذع من الضأن**»، قَالَ: فَانْتَهَبَهُ النَّاسُ.

- وروى مالك وأصحاب السُّنن -رحمهم الله- أن النبي ﷺ قال: «**لاَ يُضَحَّى بِالْعَرْجَاءِ بَيِّنٌ ظَلَعُهَا، وَلاَ بِالْعَوْرَاءِ بَيِّنٌ عَوَرُهَا، وَلاَ بِالْمَرِيضَةِ بَيِّنٌ مَرَضُهَا، وَلاَ بِالْعَجْفَاءِ الَّتِي لاَ تُنْقِي**».

- ولأحمد وأصحاب السُّنن أن البراء بن عازب ﷺ قال: ضَحَّى خَالٌ لِي يُقَالُ لَهُ: أَبُو بُرْدَةَ قَبْلَ الصَّلاَةِ (أي: صلاة عيد الأضحى)، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عِنْدِي دَاجِنًا جَذَعَةً مِنَ الْمَعْزِ، فَقَالَ: «**اذْبَحْهَا وَلاَ تَصْلُحُ لِغَيْرِكَ**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلاَةِ، فَإِنَّمَا يَذْبَحُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَقَدْ تَمَّ نُسُكُهُ، وَأَصَابَ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ**».

- وروى أحمد والبزار أن النبي ﷺ أتي بكبشين أملحين، وقال في ذبح أحدهما: «**اللهم إن هذا عن محمد وآل محمد**»، وقال في ذبح الآخر: «**هذا عمن لم يضح من أمتي**».

- وروى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث، وفي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ رخص بعد إذن في الأكل في ثلاث.

- وروي أن النبي ﷺ أمر بناته أن يضحين بأيديهن، ووضع القدم على صفحة الذبيحة، والتكبير والتسمية عند الذبح.

- وروى مسلم وأصحاب السُّنن -رحمهم الله- عن أم سلمة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ، فَإِذَا أُهِلَّ هِلاَلُ ذِي الْحِجَّةِ، فَلاَ يَأْخُذَنَّ مِنْ شَعْرِهِ وَلاَ مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حَتَّى يُضَحِّي**».

**أولاً**: الأضحية سُنة مؤكدة حافظ عليها ﷺ كل سنة، وقال -عليه الصلاة والسلام: «**إن على كل بيت في كل سنة أضحية**»، ويكفي في الأضحية الجذع من الضأن، وهو ما بلغ ستة أشهر فما فوق، والثني من الماعز، وتجزئ البقرة عن سبعة، والبدنة (أي: الناقة) والجمل عن عشرة، والأضحية بإذن الله بركة وصدقة مقبولة يغفر الله بها الذنوب، ومن ثَمَّ فلا يجوز أن تكون مباهاة، ولا تسن الأضحية للمعسر، ولا أن يستدين ثمنها.

**ثانيًا**: تجزئ الأضحية عن جميع أهل البيت، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ حين ذبح كبشين جيدين، فقال في الأول: «**اللهم إن هذا منك وإليك اللهم، إن هذا عن محمد وآل محمد، بسم الله الله أكبر**»، وقال وهو يذبح الآخر: «**اللهم إن هذا عمن لم يضح من أمتي**».

**ثالثًا**: لا يجوز أن تعمد أي رديء الذبائح فتذبحه؛ لأن الله ﷻ أمرنا أن ننفق من الطيب، فلا يجوز أن تضحي بمريضة ظاهرة المرض، ولا بعوراء واضحة العور، ولا بعرجاء بينة الظلع (أي: العرج)، ولا بمهزولة ليس في عظامها مخ، والعضباء هي التي ذهب أكثر قرونها وأذنيها، ولا بالهتماء، ولا بالتي زالت القشرة الحافظة لقرنها، ولا بالعمياء، ولا بالتي لا تأكل، ولا بالجرباء.

**رابعًا**: يكون وقت ذبح الأضحية بعد صلاة عيد الأضحى، وإذا ذبحها قبل الصلاة؛ فهي مجرد لحم ليس له مثل بركة الأضحية، وعليه ذبح أخرى إذا أراد البركة والثواب، ويجوز الذبح في يوم العيد وفي ثلاثة أيام التشريق.

**خامسًا**: يأكل المضحي من أضحيته ويهدي ويتصدق، ويرى الأئمة -رحمهم الله- أن يأكل المضحي ثلث الأضحية، ويهدي ثلثها، ويتصدق بثلثها، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل من لحم الأضحية بثلثها، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل من لحم الأضحية بعد مرور ثلاثة أيام على ذبحها، ثم لما كثرت الأضاحي ووسع الله على المسلمين أجاز رسول الله ﷺ أن تؤكل بعد أكثر من تلك المدة وتقدر وتدخر.

**سادسًا**: من كان يجيد الذبح فليذبح بيده كما فعل رسول الله ﷺ، ومن لا يحسن الذبح يشهد أضحية؛ لأنها نسك تتنزل له البركة والثواب.

**سابعًا**: من أراد أن يضحي ونوى ذلك، فمن السُّنة ألا يقص شعره أو أظافره من الأول من ذي الحجة، أما الامتشاط والطيب وغيرهما؛ فلا يمتنع منهما في العشر، والله أعلم.

* * *

# كتاب الصيام

تقلُّب الأيام والليالي من أعظم العبر ومن أروع مظاهر الحكمة ودلائل القدرة، يقول ربنا ﷻ: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، وكما فضَّل الله بعض الناس على بعض، فقد فضَّل بعض الليالي وبعض الأيام على بعض، وإنما جاء ذلك التفضيل؛ لأن تلك الأيام الفاضلة والليالي المباركة شهدت أحداثًا جليلة جاء فيها الحق بنوره وزهق فيها الباطل بشروره، وربما كان فضلها بسبب ما ينزل فيها ربنا من الآيات، ويسوق فيها من الرحمات، وقد كان رسول الله ﷺ يقابل تلك الأوقات بحفاوة بالغة، فيصوم ويكثر في بعضها من الذكر والخشوع وصلة الرحم والعمل الصالح.

إنَّ الأيام والليالي كلها آيات قدرة ومظاهر حكمة ذكرها ربنا ﷻ في الآية المباركة: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]، وقد ذكر الله بعد هذه الآية الكريمة كتاب الأعمال فقال: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وذلك لأن الأيام والليالي فرص الأعمال، والناس في هذا بين منتهز لتلك الفرص والمواسم وبين مفرط فيها، ومن ثمَّ؛ فالأيام والليالي لها حصيلة لخصَّها الحقُّ ﷻ في قوله في نفس السياق: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

وإذن فالأيام والليالي كلها آيات قدرة ومظاهر عظمة وفرص عمل، فحين سمَّى ربنا ﷻ يوم السابع عشر من رمضان (يوم الفرقان) وفضله، فإنما كان ذلك لأنه يوم التقى الجمعان يوم التقى الحق والباطل في أول مواجهة، فخر الباطل صريعًا تحت سنابك خيل الجمع المؤمن، وبهذا الحدث العظيم استحق يوم بدر أن يشاد به في محكم الآيات.

**وهذه بعض الأحاديث الكريمة التي ذكر فيها بعض الليالي الجليلة والأيام المباركة نذكرها، ثم نتبعها إن شاء الله بما يستقبلها المؤمنون به من الآداب:**

- جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضان وأتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر».

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ (يعني: العشر الأوائل من ذي الحجة) أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ». قَالُوا: وَلاَ الْجِهَادُ، قَالَ: «وَلاَ الْجِهَادُ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ».

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ».

- وفي صحيح مسلم والسُّنن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَرْفَعُهُ، قَالَ: سُئِلَ أَيُّ الصَّلاَةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَيُّ الصِّيَامِ أَفْضَلُ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ؟ فَقَالَ: «أَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلاَةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ صِيَامُ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كَانَ أَمَرَ بِصِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ، وكان يومًا تستر فيه الكعبة.

- وفي صحيح مسلم أنه حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، هذا يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال: «فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ». فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

- وروى الجماعة من حديث عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «مَا رَأَيْتُهُ (تعني: النبي ﷺ) فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ».

- وفي سنن النسائي أن أسامة ﷺ سأل رسول الله ﷺ: لَمْ أَرَكَ تَصُومُ مِنْ شَهْرٍ مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ؟ قَالَ: «ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ يُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».

هذا، وقد أمر رسول الله ﷺ بتحري ليلة القدر؛ حيث نزل القرآن الكريم في الليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان.

- وفي سنن الترمذي والنسائي أن رسول الله ﷺ كان يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس.

- وفي سنن أبي داود والنسائي أن رسول الله ﷺ كان يأمر بصوم البيض (من كل شهر):

ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة، وقال: «**هو كهيئة الدهر**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سأل عن صوم الإثنين فقال: «**ذلك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل عليَّ فيه**».

- ووردت الأحاديث الكريمة بأن رسول الله ﷺ نهى عن صوم العيدين وأيام التشريق ويوم الشك ويوم عرفة للحاج، وأن يختص يوم الجمعة بصوم.

**أولاً**: ذكر رسول الله ﷺ مزيدًا من الفضل بست عشرة ليلة وتسعة عشر يومًا تشجيعًا لأمته أن يتخذوا منها مواسم عبادة؛ لأن الربح أكثر ما يكون في الموسم، فمن هذه الليالي الوتر في العشر الأواخر من رمضان، وليلة بدر، وأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيد.

ومن الأيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، وعشر ذي الحجة، وأيام التشريق، وذكر يوم الإثنين، ويوم الخميس، وأيام البيض من كل شهر.

**ثانيًا**: إنَّ أعظم احتفاء بهذه الليالي والأيام والمباركات هو أن يستكثر فيها العبد المؤمن من الأعمال الصالحة والحسنات، وبخاصة الصوم (ماعدا العيدين وأيام التشريق)، وإطعام الطعام، وتفقد الموتى بالإحسان، وصلة الرحم.

**ثالثًا**: ومن الاحتفاء بهذه الأوقات المباركة أن نتذكر فيها ما وقع من أحداث، فنتذكر في ليلة القدر نزول القرآن، وفي يوم عرفة منظر الحجيج، وفي صبيحة بدر يوم الفرقان، وفي الإثنين والخميس رفع أعمال العباد إلى الله، وفي السابع والعشرين من رجب ليلة الإسراء، وفي يوم عاشوراء احترام دين الإسلام لكلِّ الأنبياء.

**رابعًا**: تجديد الإيمان ومضاعفة النوافل والدعاء والإقبال على الله في هذه الأيام والليالي، كلُّ ذلك من أعظم مقاصد الإسلام؛ لأن غفلات قد تطرأ على المسلم، فيكون له من هذه الأيام والليالي يقظات وتذكار وصقال لران القلب؛ لأن الإيمان عند أهل السُّنة يزيد وينقص.

وما أجمل أن يتخذ المؤمن هذه المواسم المباركة فرصًا لتجديد الإيمان والتعرض لنفحات ربنا الكريم الوهاب.

## فضل الصوم ومنزلة رمضان

يقبل علينا شهر الصيام المبارك مرة كل عام ونحن أحوج ما نكون إليه وأفقر ما نكون إلى دروسه وآدابه، يظلنا الصوم بدروس الصبر ونحن أحوج ما نكون إلى المصابرة في معركة الحياة والموت، ويهل علينا بدروس المحبة والوحدة، ونحن نعاني من الشمل الشتيت والجهد الممزقة والانقسام البغيض، ويطلع الصوم علينا بدروس الجهاد، وقد أطاح العدو بألوية ودنس المقدسات وطمس القلوب بالوهن ويشرفنا شهر الصوم بالقرآن وهو شرف أمتنا وموقظ غفلتنا وباعث عزائمنا وفهمنا وقوتنا.

فيا مرحبًا برمضان حبيب الصالحين، وروح المتقين، وهداية الحائرين، وذكرى منازل الوحي الأمين، ففي مثل هذه الليالي المباركة والمناسبة القدسية بات الناس يغطون في ظلمات الجهالة ونعرات الجاهلية وسواد الثارات، باتوا على شفا حفرة من نار جهنم تدفعهم إليها الأصنام، باتوا على أحلام الغارة الظالمة والغزو الحرام والسلب والنهب والسبي، ثم صحوا في إحدى ليالي رمضان في ليلة مباركة ميمونة السحر وضيئة النجوم، وإذا نبي كريم وقرآن عظيم ونور يملأ القلوب والربوع وصفحة هي أمجد صفحات تاريخنا خط فيها قضاء الله الحكيم أنبل مجد يزينه التوحيد وأسمى شرف يشرفه العدل وأبهى كتاب يعلم الرحمة والمحبة والإحسان ويدعو بهديه إلى دار السلام.

ألا ما أجمل شهر الصوم عيدًا يوقظنا على أنوار كتابنا وعلى سنة نبينا وعلى تاريخ سلفنا الصالحين على أيامهم أحلى التحيات وأزكى السلام.

ما أجدر المسلمين في أيامنا هذه أيام أن يستقبلوا شهر رمضان وأن يحتفوا بأيامه ولياليه ويحتفلوا بغدواته وأماسيه ويستقبلوه بيقظة أوابة وقلوب توابة لعل الله -تعالى- يمحو بصحوة الضمائر غفلات أحد عشر شهرًا ويستجيب بإخلاص القلوب دعاء المؤمنين.

نحن في هذه الأيام أحوج ما نكون إلى نفحة من الله يستجيب بها دعاءنا ويكشف بها غمتنا ويفرج بها كربتنا؛ لأن القتل مستحر في أهلنا، ولأن العدو يعبث في مقدساتنا وزروعنا وثمارنا، ولأن الشيطان جاس خلال أمتنا فزرع فيها الشقاق وصرفها عن طموحات المتقين

إلى شهوات الغافلين، ورمضان موسم القبول والصائم لا ترد دعوته، فعسى أن يكتب ربنا لأمة محمد في هذا الشهر القرآني المبارك نصرًا مؤزرًا تقربه أعين المؤمنين، وتسخن به عيون الكافرين والمنافقين واليهود والصليبيين والشيوعيين.

لقد لاحظ أشياخنا المفسرون أن آيات الصوم في سورة البقرة أربع آيات كريمات لكنهم لاحظوا أن بين الآية الثالثة والرابعة آية تبدو وكأنها غريبة عن موضوع الصوم وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والحقُّ أن لهذه الآية الكريمة علاقة حميمة بالصوم؛ إذ فيها إشارة حكيمة إلى أن الصوم الخالص المحتسب يكون مقرونًا بإجابة الدعاء إنْ شاء الله، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ (أي: الملك الصالح الذي ينشر العدل في رعيته)، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

هذا؛ وإني شارح للقارئ الكريم -إن شاء الله- معنى قوله ﷺ فيما يروي عن ربه في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان وسائر الجماعة: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ». وهذا الحديث المبارك الكريم من أصح ما روي عن رسول الله ﷺ، وفيه خمس إشارات كريمات جديرة أن يقف عندها ويتدبرها الصائم.

**أولاً**: من الحسنات ما يكتب ثوابه الملك الموكل بالحسنات، فكتب الحسنة بعشر أمثالها إلى عشرين وثلاثين حتى إذا وصل الجزاء إلى سبعمائة ضعف انتهت صلاحية الملك وسلطته ووكل الأمر بعدئذ إلى الله ﷻ، وإذ ذاك يرزق صاحبها ويثيبه بغير حساب، ولا غرو فالله ﷻ لا يتعاظم جوده شيء، قال الله تعالى في عُمَّار المساجد وفيمن لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨].

والصائم هو من هؤلاء الذين يرزقهم الله بغير حساب، والسبب في هذا أن الصائم يترك طعامه وشرابه من أجل الله، وإلا فما الذي يمنعه إذا غلق على نفسه الأبواب أن يأكل ويشرب ثم يقول: إنه صائم.

الصوم بين العبد وربه، ولهذا فالجزاء والثواب بين العبد وربه لا يكتبها الملك وإنما يقدرها الله، وحسبك بعطاء الواهب الرزاق الكريم المتعال، ولنضرب لهذا الأمر مثالاً أن أحد الملوك العادلين مرَّ على جنود يحرسون ثغرات مقابل العدو، فوجدهم نائمين ومرَّ بعدئذٍ على جندي يقظ وقد أرسل عبر الخط نظرة كنظرة الصقر، وكان الملك متنكرًا فسأله: لماذا لم تسترح في البرد والرياح وتجلس إلى موقدك وتنم قليلاً، فقال في غير تكلف: كيف أخون الأمانة وقد ائتمني مليكي على أمن البلاد، فأمر الملك له بجائزة على إخلاصه بظهر الغيب، فلما ذهب ليتسلمها من وزارة المالية قيل له: إن جائزتك من الملك نفسه، وقد أمر أن يترك له تقديرها.

لا شكَّ أن الجائزة حين يقدرها الملك نفسه تفوق جائزة روتينية يقدرها الوزير، فما بالك بجائزة يقدرها ملك الملوك الذي لا تساوي عنده الدنيا وما فيها جناح بعوضة؟!

**ثانيًا:** إن العمل حين يكون مخلصًا لوجه الرب الكريم يكون جزاؤه من يد الله الكريم، وهذا سر تفاوت الحسنات وثوابها؛ إذ يمتد ثوابها من عشرة أمثال إلى سبعمائة ضعف إلى عطاء بغير حساب.. إن الجزاء يتناسب مع الإخلاص.

**ثالثًا:** إذا تغيرت رائحة فم الصائم بسبب فراغ المعدة، فليعلم أن هذا التغير ليس عيبًا وإنما هو عند الله شرف وعلو منزلة.. إن الرائحة المتغيرة في فم الصائم أكرم عند الله من فم مضمخ بالمسك إذا كان ذلك الفم المضمخ مشغولاً بالغيبة والفساد واللغو، لكن الحديث لا يعني أن تهمل نظافة فمك طول النهار، فقد أجاز بعض الأشياخ للصائم السواك طول النهار؛ لأن فم الصائم حبيب إلى الله بما يعمره من القرآن والذكر حتى ولو لم يكن له خلوف.

**رابعًا:** ورمضان قبل إذ وبعد شهر جهاد وانتصارات كان قادة الإسلام -رحمهم الله- يتعمدون خوض المعارك الحاسمة فيه.

**خامسًا:** ورمضان شهر إخلاص في العمل وتفانٍ في أدائه، وليس شهر نوم وتكاسل وتأخر عن الدوام كما يفعل بعض الموظفين، يعطل مصالح الناس متحججًا بالصيام.

## موسم القبول

ليس الصوم مجرد انقطاع عن الطعام الشراب والشهوة لكن الصوم آداب وأخلاق وفضائل، وهذه بعض الأحاديث الكريمة في آداب الصوم نوردها ثم نوضح ما اشتملت عليه من الآداب.

- جاء في الصحيحين والسنن أن رسول الله ﷺ قال: «**تسحروا فإن في السحور بركة**».

- وفي صحيح مسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**».

- وفي سنن أبي داود والنسائي عن العرباض بن سارية ﷺ أنه قال: دعاني رسول الله ﷺ إلى السحور في رمضان فقال:«**هلم إلى الغداء المبارك**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**».

- وفي مسند أحمد: «**إن أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطرًا**».

- وروى أصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر؛ فإنه بركة، فإن لم يجد تمرًا فالماء؛ فإنه طهور**».

- وكان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم يكن تمرات حسا حسوات من ماء.

- وروى أصحاب السُّنن -رحمهم الله: «**مَن فطر صائمًا، فله مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء**».

- وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**الصائم إذا أكل عنده المفاطير صلت عليه الملائكة**».

– وروى البخاري وأصحاب السنن –رحمهم الله– أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».

– وفي سنن ابن ماجه والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**».

– وفي صحيح البخاري: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

– وفي سنن أبي داود وابن ماجه أن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين، فمن أداها قبل الصلاة (أي: صلاة العيد) فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات.

– وفي الصحيحين: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر.

**أولاً**: للصيام آداب يهدي الله إليها أحباءه ليزكوا بها عملهم، ويكمل بها صومهم، وليتقبل بتقواهم وعبادتهم ولا غرو فهو القائل سبحانه في محكم كتابه: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

وهذه بعض آداب يلتزم بها الصائم الموفق وأول هذه الآداب مكارم الأخلاق، فالصائم يمشي في الناس كأنه الملاك كل ما لديه الكَلِم الطيب والعمل الصالح، لا سلطان للشيطان عليه؛ لأن الشيطان إنما ينفذ إلى القلوب من دروب الشهوات، والصائم قد سدَّ على الشيطان دروبه، وقطع عليه وسائله وأسبابه، والتخلي عن شهوات النفس يحول الإنسان روحانيًا ملائكيًا ربانيًا، ومن هذا المنطلق يباهي ربنا ﷻ ملائكته بعبده الصائم.

**ثانيًا**: الجود والكرم وصنائع المعروف في رمضان وخصوصًا إطعام الطعام للصائمين والمحتاجين تشبهًا برسول الله ﷺ الذي كان يتخذ من رمضان موسمًا للعطاء ويقول: «**من فطر صائمًا فله مثل أجره**».

**ثالثًا**: ترك الرفث واللغو والجدل والمهاترة؛ لأن اللسان يكب الناس على مناخرهم في جهنم، وحتى حين يبتلي الصائم بسفيه يسابه ويشاتمه، فإنه يلتزم كلمة التقوى؛ لأنه أحق بها، ولأنه بصيامه أصبح أهلاً لها.

**رابعًا**: قراءة القرآن؛ لأن رمضان هو شهر القرآن، وقد كان بعض السلف لا يفارق القرآن شفاههم في رمضان إلا عند الطعام أو قضاء الحاجة، وروي عن الشافعي -رحمه الله- أنه قرأ القرآن في أحد الرمضانات ستين مرة؛ إذ كان يقرأه مرة بالليل ومرة بالنهار، ولا غرو فالقرآن شافع لأهله يوم القيامة، وهو ربيع قلوب المؤمنين، ومؤنس وحشتهم في الدنيا وفي القبر وعلى الصراط وإلى الجنة.

**خامسًا**: ومن آداب الصيام تعجيل الفطر؛ لأن في ذلك احترامًا للصوم وجلوسًا عند المائدة لفترة قصيرة يستغفر فيها العبد، ويذكر نعمة ربه ويشكرها حتى إذا غابت الشمس أقبل يأكل أو يشرب وهو يذكر الله ويشكر آلاءه، ويقول: «**ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إنْ شاء الله**».

إنَّ الذين لا يعبئون بالفطر ويؤخرونه وهم غافلون في خارج بيوتهم مع اللاهين هؤلاء لم يحترموا الصوم ولا قدروه حق قدره.

**سادسًا**: ومن آداب الصيام تأخير السحور، وهذا عكس ما يفعله بعض الغافلين في أيامنا هذه؛ إذ تجد الكثيرين من الصائمين يقضون الليل في اللهو واللعب، حتى إذا كان بعد منتصف الليل أكلوا وناموا عن صلاة الفجر، أما من يقلل من السهر ويؤجل السحور إلى ساعة قبل الفجر؛ فهذا هو الذي أثنى عليه رسول الله ﷺ؛ لأنه يغنم في كل ليلة غنمًا عظيمًا ألا وهو صلاة الفجر.

**سابعًا**: الإكثار من الدعاء عند إفطاره؛ لأن الصائم مستجاب الدعوة بإذن الله، ومن ثم فالصائم ينتهز الفرصة ليملأ حياته بالذكر والدعاء متطلعًا أن يستجيب الله له رغائب الدارين.

**ثامنًا**: إحياء ليلة القدر المباركة التي شرفت بإنزال القرآن فيها، والتي فيها تتنزل

الملائكة احتفاءً بمناسبة نزول القرآن، ويكون على رأس الملائكة جبريل عليه السلام روح الله وأمين السماء.

**تاسعًا:** هذا ومن أهم آداب الصوم على المستوى الاجتماعي أن يتحاب المسلمون ويتآلفوا ويستشعروا الوحدة المباركة تحت لواء الإسلام حين ينتظمون جميعًا في سلك عبادة شريفة تفرض عليهم أن يجوعوا مع بعضهم ويأكلوا كذلك ويقوموا لربهم في الليل، وفي هذا ما يجعل المجتمع الإسلامي جميلاً وضيئًا تسوده المحبة والوحدة والسعادة والإخاء.

**عاشرًا:** ومن آداب الصيام أن يقوم الصائم في ليله ببعض الصلوات، فيصلي التراويح حيث يستمع من إمامه إلى القرآن مرتلاً يشنف الآذان والقلوب، ويجتمع بإخوانه المصلين الصائمين في رحاب بيت الله.

هذا، والويل كل الويل لمن يعصي الله في موسم الطاعة، فإن مثل هذا قد استحق أن يدعو عليه رسول الله ﷺ وهو يرقي المنبر؛ لأنه ضيَّع فرصة المغفرة، فأدرك رمضان ولم يؤد واجبه، ففاتته بذلك مغفرة الله.

## من فضائل الصيام

إذا كان ربنا ﷻ قد فرض الزكاة طُهرة للمال ونموًا له، فقد فرض الصوم طُهرة للجسد وتكريمًا له، إذا ماج السعي بالغفلات طهرته الصدقة، وإذا اضطرب الجسم بالشهوات جمله الصيام، وإذا كانت الزكاة تعلم الأخلاق والمروءات؛ فإن الصوم يعلم العبد تقوى الله وخشيته في السر والعلن، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

لقد لاحظ المفسرون أن الله -جلَّ وعلا- ذكر الصوم في أربع آيات كريمات من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... الآية﴾ [البقرة: ١٣٨] إلى أن ختم الآية الرابعة بقوله -تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، لكن الله ﷻ ذكر قبل الآية الرابعة آية تبدو وكأنها ليست في موضوع الصوم، وإنما هي تتعلق بقبول الدعاء ألا وهي قوله -جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والحق أن هذه الآية الكريمة ليست خارجة عن موضوع الصيام لكنها إشارة إلى أن الصائم المحتسب المخلص يستجيب الله دعاءه حين يرى صدق الإخلاص في هذه العبادة الجليلة حين يرى عبده وقد تألقت شفافيته بالصيام والقيام وصرف في طاعة الله وعبادته أوقات الشهوة والشراب والطعام وسما عن تراب الأرض إلى حيث مدارج الملائكة الكرام، هنالك يصبح الصائم قريبًا من نفحات ربه الملك القدوس السلام، وهي منزلة الحب الإلهي التي ذكر الله فيها عبده المحب له، فقال عنه ﷻ: ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعانني لأعيننه، ولا غرو فالعبد المخلص المؤمن المحتسب يتحبب إلى ربه بالعبادة المخلصة، فإذا أحبه ربه الرحيم جعله عبدًا ربانيًا، ينظر بنور الله، ويسمع بسمع الله، ويبطش بقدرة الله، ويمشي بتوجيه الله، فيكون عندئذٍ بإذن الله مقضي الحوائج مستجاب الدعاء مقربًا في أصحاب القربى والكرامة.

وإذن فآية الدعاء المقبول حين وردت ضمن آيات الصيام لم تكن بعيدة عن موضوع الصوم، ولكنه تتويج لآمال الصائمين وبشرى لهم بقبول الدعاء وتحقيق الرجاء ومنازل السعداء ومقامات الأتقياء.

وإذا كان ربنا ﷻ قد فرض علينا أن نجوع بأمره فذلك ليحثنا على إطعام البائس ورحمه الفقير، وما أجمل الجوع حين يذكرنا بالفقراء لنسد جوعاتهم، وقد قيل ليوسف ﷺ: أتجوع وأنت على خزائن الأرض؟! فقال: **«إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع»**.

ألا ما أعظم لطف الله وهو يشبعنا لنحمده ونشكره، وما أعظم حكمته الباهرة حين يجيعنا ليوقظ عقولنا من نومة الشهوات الغافلة ويثير نفوسنا من مراقد أهوائها.

لقد نوَّع لنا ﷻ في مرامي العبادة وأهدافها، ففرض علينا الصيام نؤديه من أبداننا، وفرض علينا الزكاة نؤديها من أموالنا، وفرض الحج جامعًا لنفقة حلال من المال وجهد مبارك من البدن، وهو في كلِّ هذا يربينا على عين الإسلام تربية عالية توصلنا بعون الله إلى

مراتب التقوى التي هي رأس الحكمة.

فلا غرو أن افتتح الله آيات الصيام بثمار التقوى، وختمها كذلك بحكمة التقوى ورأس الحكمة مخافة الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ثم لما ذكر مسك ختام الصوم قال -جلَّ من قائل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكأن الصائم بفضل الله ورحمته له سبح مبارك طول نهاره وطول ليله في أجواء علوية وضاءة طهور، نفحها وشذاها طاعة الله وروحها وريحانها تقوى الله.

ألا ما أعظم فضل الله حين شرفنا بتكاليف العبادة من أموالنا وأبداننا، كلفنا بها وهو عنا وعنها غني حميد، كلفنا بهم وهي والله نعمة في الدنيا والآخرة، ننعم منها في الدنيا بسعادة الطائعين وهناءة السالكين وسكينة المحبين، وننعم منها في الآخرة بثواب الشاكرين وأجر الصابرين ودار المتقين، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله تعالى: يابن آدم ما نصفتني، أتحبب إليك بالنعم، وتتمقت إليَّ بالمعاصي، خيري إليك نازل، وشرك إليَّ صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك في كلِّ يوم وليلة بعمل قبيح**».

**وبعد**؛ فإن الصيام عبادة ذات رونق وجمال وذات نظام ووحدة، ففي العالم اليوم ألف مليون من المسلمين، لله ما أجملهم وما أجمل نظامهم وما أقواهم وما أوثق وحدتهم حين ينظمهم في سلك عبادة الله نظام واحد، فيجوعون معًا ويأكلون معًا ويقومون لله بالقرآن، ويحدون مشارق أنوارهم بالآذان، ويكون لهم على الخير إجماع رائع يخيف الأعداء.

**إنَّ الخارج على هذا النظام البديع الجليل والمجاهد بالإفطار في ديار الإسلام أقل ما يوصف به ثلاث صفات:**

**أولها**: أنه عديم الرجولة خالٍ من خصائص الرجال الذين لا تلهيهم الدنيا عن ذكر الله وطاعته، فإنَّ الصوم يحتاج من صفات الرجال إلى الصبر والعزيمة وقهر الشيطان، والمفطر المتعمد أعيته طريق الرجولة، فسلك طريق السقوط والسفالة وبلادة الحس.

**والصفة الثانية التي ينوء بها المفطر المتعمد**: أنه وقح خارج على إجماع الأمة مخرب لنظامهم ومظهر وحدتها، وحين يتجلى ربه عليه ليغفر له ويقبل توبته ويغسل حوبته يجده

طوع يدي الشيطان، وكأنه يقول لربه بلسان حاله: أنت تريد أن تغفر لي وترحمني وتعتقني من النار، وأنا لا أريد عطاءك ولا أقبل حباءك.

**أما الصفة الثالثة التي يجاهد بها المفطر التعمد:** فهي أنه كافر بالإيمان؛ لأن الصوم ركن من أركان الإسلام وتركه عمدًا كفر، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «**من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقض عنه صوم الدهر كله وإن صامه**».

إنَّ أي أب أو أم يتغاضى عن الابن في هذا الأمر إنما يدخلان ولدهما النار بتدبير أيديهما، وإن الأم الصالحة لا يمكن أن تمكن ابنها من صنع طعام لنفسه أو لزملائه في نهار رمضان، نعوذ بالله من ضلال السعي وحبوط العمل، ونسأله تعالى صلاح النية.

## من آداب الصيام

**هذه بعض آداب الصيام، وهي آداب إذا حرص عليها الصائم زكا صومه وضوعف أجره، وكان بمشيئة الله في المقبولين العتقاء والمباركين السعداء، واستحق أن يفاخر الله به ملائكته في السماء.**

**أولاً:** أن يستشعر المسلم قدر رمضان عند الله ومنزلته بين الشهور، وأنه شهر القرآن وشهر الصيام وشهر الرحمة والمغفرة والعتق من النار، ومن ثم يكون استقباله هذا الشهر الكريم مناسبًا لبركته وفضله؛ إذ من العيب أن يلقاك ربنا برحمته وتستقبله أنت بقسوتك، ومن العار أن يمد لك يد التوبة والمغفرة، فتردها بالمعصية والآثام، ينزل ربنا ﷻ في كل ليلة من ليالي رمضان نزولاً يليق بجلاله فينادي: يا عبادي هل مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ فكيف يكون الأمر إذا عرض الله على عبده هذه العروض السخية، فوجد ذلك العبد عاكفًا على المعاصي مستعبدًا للشهوات ممعنًا في الشرور كأنه يقول لربه: أنت تريد أن تغفر لي وترحمني وتعتقني من النار، وأنا لا أريد مغفرة ولا رحمة ولا عتقًا، وحسبي أن أتبع نفسي هواها وشهواتها، وأستهلك كل الطيبات في الحياة الغانية.

**ثانيًا:** أن يضاعف من كرمه ويضاعف من مكارم أخلاقه، فهذان هما أصدق دليلين على أن الصوم مؤثر ومقبول ومبارك.. إن كرم الصائم هو البرهان على أنه أحس مرارة الجوع

والحرمان، ففتح قلبه ويديه للجائع والمحروم، ولقد كان رسول الله ﷺ أجود الناس في كرمه، وكان أكرم ما يكون في رمضان حين يقرئه جبريل عليه السلام القرآن بأن الصوم درس في الكرم وهو أيضًا درس في المكارم، ولأن القرآن أحسن الحديث يهدي للتي هي أقوم، ويهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام، ويشفي به صدور المؤمنين من كلِّ هوى قبيح ومن كل شح مطاع، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا يصخب؛ فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائمٌ**».

وهذا يعني أن الصوم عبادة وأخلاق، وهو ركن من أركان الإسلام، وهو درس في مكارم الأخلاق، وإذا كان بعض الجهلة يصوم عن الطعام الحلال ويفطر في أثناء ذلك على الكلام الحرام، فذلك هو الذي سفه حكمة الصوم وجهل حقيقة العبادة، ففي الحديث الصحيح: «**مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».

نعم إنَّ على المؤمن أن يري ربه جل جلاله أثر عبادة الصوم في أخلاقه وبخاصة في جوده على الفقراء والصائمين؛ لأن من فطر صائمًا فله مثل أجره لا ينقص هذا من أجر الصائم شيئًا.

**ثالثًا**: ومن آداب الصيام تعهد القرآن الكريم بالترتيل والتدبر؛ لأن رمضان شهر القرآن وهو مناسبة مباركة لتلاوته والعيش في ظلاله، فلقد كان من سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- من لا يفتر لسانه في رمضان عن الذكر وتلاوة القرآن، وما أجمل أن يختم الصائم القرآن عشر مرات أو على الأقل ثلاث مرات، والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي كلما تكرر يحلو، وما أجمل ذلك الوصف الرفيع الذي وصف به رسول الله ﷺ كتاب الله، فقد روى الترمذي أن الْحَارِثَ رضي الله عنه قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلاَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الأَحَادِيثِ؟ قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ. فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ الله الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ**

تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ولقد قرأنا عن الإمام الشافعي -رحمه الله- أنه لشدة شغفه بالقرآن كان ربما ختم القرآن في ليلة، وربما أتمه في نهار، وأنه في بعض أشهر رمضان كان يقرأ القرآن ستين مرة، مرة في الليل ومرة في النهار.

ومن المجرَّب أن حملة القرآن من أهل الصلاح يرعاهم الله، فلا يكشف لهم سترًا ولا يحوجهم إلى غير وجهه الكريم، وتراه يفرج عنهم كل كرب، وينجيهم من كل مصيبة.

**رابعًا:** ومن آداب الصيام تعجيل الفطر وتأخير السحور، وفي هذين الأمرين حكمة بالغة؛ لأن تعجيل الفطر معناه أن تجلس على مائدة إفطارك قبل الغروب، وتنظر إلى الطعام الذي تشتهيه، ولكنك لا تقربه امتثالاً لأمر الله، ثم إنك تستغفر أثناء ذلك وتحمد الله على ما رزقك.. في كل هذا دليل على اهتمامك بالصوم وفرحتك بنعمة الإفطار، أما من يقول لزملائه قبيل الغروب: هيا نسلي الصوم بالخروج من البيت وركوب السيارة، فلن يتمكن من تعجيل الإفطار، وقد لا ينال أجر الاستغفار، وقد تفوته جماعة المغرب.

وأما تأخير السحور؛ فحكمته أجل وذلك لأن الصائم يأكل ويشرب، وهو قريب من الفجر، فيقوم في يوم صومه على العبادة، ثم إن الصائم يكسب صلاة الفجر إذا أخر السحور، أما أولئك الذين يسهرون طوال الليل حتى إذا لم يبق بينهم وبين الفجر إلا وقت قليل غلبهم النوم فناموا، فأولئك تخبث في النهار بطونهم ونفوسهم وتضيع عليهم صلاة الفجر، وقد مرد بعض الناس أن يسهروا في رمضان طول الليل على اللهو والسمر ولعب الورق حتى إذا أقبل عليهم النهار أصبحوا كسالى في وظائفهم عصبيين على مراجعيهم، وقد علمت أن بعض الشباب اللاهي يسهرون الليل في رمضان، وينامون معظم النهار، وهذا سلوك لا يحقق حكمة الصوم؛ لأن الليل كله يكون عندهم أكلاً وشربًا، ولأن النهار كله يكون عندهم نومًا وغفلة، فأي صوم هذا؟!

**خامسًا**: ومن آداب الصوم أن يقترن بصلاة القيام أو التراويح، والتراويح صلاة جميلة يجتمع فيها المسلمون والمسلمات في مساجد الله، فيقومون لرب العالمين ويمتعون أسماعهم بتلاوة الذكر الحكيم، ويلتقون في بيوت الله على محبة الله، وحسبك بهذا عظيم أجر وراحة نفس وتواصل قلوب.

والتراويح تتراوح ما بين أربع تسليمات (أي: ثماني ركعات)، وقد أوصلها عمر ﷺ إلى عشر تسليمات (أي: عشرين ركعة)، وهي فرصة جميلة لاستعادة القرآن والاستمتاع بتلاوة الإمام، وسمِّيت التراويح؛ لأن المصلين يصلون جزء منها، ثم يرتاحون وهكذا.

هذا، ورمضان فرصة ذهبية لأن ينال الصائم عتق رقبته من النار؛ لأنه يضاعف من بر والديه وصلة رحمه وإكرام ضيفه وإخوانه.

نسأل الله أن يجعل رمضان دائمًا فرصة لعتق رقابنا ورقاب والدينا من النار.

## من أحكام الصوم وفضائله

(١)

**هذه بعض دروس وأحكام تتعلق بالصوم وشهر الصوم أسوقها إلى الإخوة الصائمين لعلهم إذا أخذوا بها أن يحظوا بتمام الوصول وكمال القبول إنْ شاء الله.**

**أولاً**: شهر رمضان هو أعظم شهور المسلمين وأجلها قدرًا عند الله؛ لأن ليلة واحدة من لياليه خير عند الله من بضع وثمانين سنة، وهي ليلة القدر؛ حيث بات الناس في إحدى لياليه يغطون في عمايات الشرك وضلالات الأصنام وسواد الثارات وجحيم الغارات حتى إذا أصبحوا في ذلك الصباح المبارك إذا صبح جديد وخير عتيد ونبي عظيم وقرآن كريم وتاريخ مشرف يفتح بين يدي حياة المؤمنين صفحة مشرقة من العدل والرحمة والإحسان وكل الكمال الإنساني فينقلهم من حياة على حافة الهاوية إلى حياة فردوسية خالدة باقية، من حياة تخلو من كل ذكر وسؤدد إلى حياة من الشرف المخلد، من حياة يسودها القتل والظلم إلى حياة رفرفت على الدنيا برايات الرحمة والمحبة والإخاء.

وما دام هذا قدر رمضان؛ فما أجدرنا أن نحتفي به فنصومه مخلصين محتسبين ونقومه على

قدم الخضوع خاشعين ونفرح بمقدمه فرحة الآملين المستبشرين.

**ثانيًا**: الصوم قهر للشيطان؛ لأن أعظم أسلحة الشيطان هي شهوات البطن والنفس، وفي تربة الشهوات تزدهر دِمَنُ الشيطان، ولكن حين يأتي الصوم بتهذيب النفوس وتنقية القلوب تبور عندئذ سوق الشيطان وتتحطم غراس شره حين تقحل أرضه، وتنحاز كل القلوب إلى الصالحات، ولهذا كان رمضان موسم بركة غامرة، تنهل في أوائله سحائب الرحمة، وتهب في أواسطه نفحات المغفرة، وتتلاحق في أواخره مكارم الله بعتق الرقاب وفتح الأبواب ومكافئات الأحيان.

ومن هنا كان الصالحون من سلفنا -رضوان الله عليهم- يحبون رمضان ويشتاقون إليه ويستقبلونه بما يليق به من إنابة إلى الله وإقلاع عن معاصيه وتلاوة لقرآنه، حتى لقد قرأنا أن بعض الأمة من سلفنا كان ربما قرأ القرآن في رمضان ستين مرة، يقرأه مرة بالنهار ومرة بالليل، فتظل حياته عطرة وضيئة بنور الإيمان وعبير القرآن.

**ثالثًا**: هذا ومن سنن الصوم التي تجمله وتجمل به الصحة السحور المتأخر والفطور المعجَّل؛ ففي الحديث الصحيح: «**لا تزال أمتي بخير ما عَجَّلوا الفطر**».

إنَّ تعجيل الفطر دليل على اهتمام الصائم بصومه وجلوسه عند الطعام قبيل الغروب يتأمله، ويحمد ربه على أن رزقه إياه من غير حول للعبد ولا قوة، وبهذا تكبر نعم الله في عين عبده، ثم إن نظرة إلى الطعام وهو يشتهيه ولا يمد يده إليه هو تعظيم لأمر الله، ووقوف عند شرعه، والتزام دقيق بأمره ونهيه.

أما السحور؛ ففيه بركة كبيرة وخصوصًا إذا جاء متأخرًا ليس بينه وبين صلاة الفجر إلا وقت قليل؛ لأنه عندئذٍ يكون عونًا على صلاة الفجر وصيام النهار في نشاط وصحة وقدرة على قراءة القرآن وعبادة الرحمن.

أما ما شاع في هذه الأيام من سهر ولهو ولعب ورق حتى إذا لم يبق للفجر إلا وقت قليل ملئوا البطون، واستلقوا على الأرض كالأخشاب الملقاة، فتلك عادات تقر لها عين الشيطان ويغضب منها الرحمن، بل هي ضياع الصلوات واتباع الشهوات.

**رابعًا:** ومن كمال الصوم مضاعفة الجود في رمضان، فقد كان عليه الصلاة والسلام أسبق من الريح في جوده في شهر رمضان، وذلك كأثر للقرآن في قلبه حين كان جبريل عليه السلام يقرئه القرآن، فيتحول في جوه كالريح المرسلة بالبشرى بأمر الله.

إنَّ فعل المعروف في رمضان والإكثار من الصدقة اقتداءً برسول ﷺ.. كلُّ هذه من أسباب الرضا والقبول ومن أسباب نجاح المقاصد وتحقيق منافع الصوم العظيمة، وما أجمل أن يعتكف الصائم في ليالي رمضان، فيلجأ إلى خلوة يأتنس فيها بصلاته وقراءة قرآنه وعبادته لربه عبادة مخلصة من أهواء النفس ونزوات الرأس لتكون العبادة بين العبد وربه.

**خامسًا:** وللصوم ثلاث مراتب: أولها أن يمسك الصائم عن الطعام والشراب والشهوة، وثانيها أن يكف بصره عن كل نظرة محرمة، ولسانه عن كل كلمة نابية، ويده عن أن تمتد إلى حرام، ورجله أن تسير إلى معصية، وسمعه أن يستمع إلى زور أو فساد أو نميمة، وجوارحه أن تقارف أي أثم من الآثام.

أما المرتبة العليا من مراتب الصوم؛ فهي التي يتحلى بها كبار الأبرار وصفوة الأخيار، وهي صوم القلب عن كل همَّة دنيئة ومقصد وضيع وفكر ساقط يبعد المؤمن عن طموحات السالكين، واستسلام النفس إلى الله بالكلية بحيث تنصرف عما سواه ولا ترجو إلا إياه.

والمؤمن يحرص على ساحة صومه أن تستبيحها وسوسة الشيطان، ويصون حماها عن كل بهتان؛ ففي الحديث الشريف الذي رواه البخاري -رحمه الله- يقول النبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».

**سادسًا:** ومما يرضي الله من الصائم أن يفطر عنده الصائمون؛ ففي سنن ابن ماجه والترمذي يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ الصائم تصلي عليه الملائكة إذا أكل عنده حتى يفرغوا**»، وروى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن فطَّر صائمًا كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيءٌ**».

**سابعًا:** هذا ولا يهجمن الصائم على طعام الإفطار كأنه الجمل الجائع، ولا يعمد إلى الأطعمة الثقيلة يحشو بها بطنه حالما يحين الإفطار، فقد كان رسول الله ﷺ وصحبه الكرام

يفطرون على ما تيسر من تمرة أو شربة ماء، فيحمدون الله على أن ابتلت عروقهم وذهب ظمأهم، حتى إذا انتهوا من صلاة المغرب ارتاحت معداتهم فأكلوا ما قسم الله لهم.

## من أحكام الصوم وفضائله

(٢)

كان السلف الصالح -رضوان الله عليهم- يصومون رمضان لا يتخلف منهم إلا ذو عذر واضح كمريض أو مسافر، قال الحافظ الذهبي -رحمه الله: كانوا يرون أن من ترك صوم رمضان دونها عذر، فهو شر من الزاني ومدمن الخمر، بل لقد كانوا يشكون في إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال، روى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «**من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة رخَّصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر كله**».

والحقُّ أن أي شاب أو كهل يفطر عامدًا دون عذر شرعي هو كافر خارج عن إجماع الصالحين وسلوك المتقين، وأقل ما يوصف به المفطر المتعمد أنه وقح صفيق لا يحترم أوامر الله ولا يحترم الأمة المؤمنة وإجماعها، ثم إنه بعد ذلك جبان ضعيف تنقصه الشجاعة وتعوزه السيطرة على النفس والشهوة.

**وهذه بعض أحكام تتعلق بالصوم:**

**أولاً**: ربما تختلف المطالع في أنحاء الوطن الإسلامي، وقد كان السَّلف يصومون كلٌّ على رؤيته ومطلعه، لما جاء في صحيح مسلم أن أحد الصحابة واسمه «كريب» قال: قدمت من الشام واستهل عليَّ هلال رمضان وأنا بالشام، فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر، فسألني ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية، فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، فقلت: ألا تكفيني برؤية معاوية وصيامه؟ فقال: لا، هكذا أمر رسول الله ﷺ.

**ثانيًا**: للصوم ركنان: النية وتكون في ليالي رمضان، ولا يشترط فيها التلفظ باللسان؛ لأن موضع النية القلب. أما الركن الثاني فهو الإمساك عن جميع المفطرات من الفجر إلى

غروب الشمس، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ومن أمسك بخيطين أحدهما أبيض والآخر أسود، وظل يأكل ويشرب حتى أدرك لونيهما فهو مخطئ، وإنما المقصود بالخيط الأبيض بياض النهار والخيط الأسود بقايا سواد الليل. ففي الحديث المتفق عليه أن عدي بن حاتم ﷺ عمد إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض ووضعهما تحت وسادته وجعل ينظر في الليل إلى كل منهما، فلا يتبين له شيء، فلما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال له: «**إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار**».

**ثالثًا**: الذين يرخص لهم في الفطر ثلاثة أنواع: نوع تجب عليه الفدية فقط، ونوع يجب عليه القضاء فقط، ونوع يجب عليه القضاء والفدية، فالذين يجب عليهم الفدية هم الذين يطيقونه أي يتحملونه في مشقة شديدة كالشيخ الكبير والمريض الذي لا يرجى برؤه، فمثل هذين قد لا يحصل له وقت ملائم للقضاء، ولهذا يطعمان عن كل يوم مسكينًا.

وقد سألني صياد سمك بأنه يلقى في عمله صعوبة شديدة، ولا يستطيع ترك السعي في رمضان؛ لأن الصيد مصدر رزقه الوحيد، ومثل هذا والله أعلم يفطر، ويحاول القضاء كلما سنحت له الفرصة؛ فإن لم تسنح أطعم عن كل يوم مسكينًا، ومثله الذين يقضون نهارهم في قطع الحجارة أو أعمال البناء الشاقة في الحر، فهؤلاء يدخلون في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، على أن ينتهزوا كما أسلفت أي فرصة فراغ تسنح لهم فيقضوا.

والحبلى والمرضع اللتان تقضيان الحياة بين الحمل والرضاعة ولا يصير لديهما وقت للقضاء قد يدخلان في هذا لما رواه الإمام مالك -رحمه الله- أن ابن عمر -رضي الله عنهما- سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها، فقال: تفطر وتطعم عن كل يوم مسكينًا، وما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان يقول لأم ولد له حبلى: أنت بمنزلة الذين لا يطيقونه، فعليك الفداء.

أما الحامل والمرضع اللتان تجدان وقتًا للقضاء في فترات؛ فعليهما القضاء إذا خافتا على نفسيهما؛ لأنهما عندئذٍ بمثابة المريض، وعليهما القضاء والكفارة إذا خافتا على ولديهما.

وأما المريض الذي يرجى شفاؤه والمسافر؛ فعليهما قضاء عدة أيام أخر.

وقد اختلف الأشياخ في أمر المسافر: هل من الأفضل أن يصوم أو يأخذ بالرخصة، ولعل أوسط رأي هو ما ذهب إليه أبو حنيفة والشافعي ومالك بأن الصيام أفضل لمن قوي عليه، وأن الفطر أفضل لمن لم يقو عليه، فالمسافر مثلاً بالطائرة لمدة ساعة أو ساعتين، والمسافر في سيارة مكيفة وقتًا غير طويل يجوز لهما أن يفطرا متمتعين بالرخصة التي هي من مظاهر رحمة الله، ولكن ما دام أن القضاء واجب عليهما، فلعلهما أن يصوما مع الناس أفضل لأن ذلك أهون من أن يقضا وحدهما عندما يكون معظم الناس مفطرين، وإذا كان المؤمنون في جهاد أو مقبلين على معركة، فالفطر أفضل ليتقووا به على قتال عدوهم.

**رابعًا**: القطرة والكحل والحقنة والمضمضة في غير مبالغة والاستنشاق والسواك طوال يوم الصوم.. كلُّ هذه لا تفطر إنْ شاء الله، ومثل ذلك القُبلة لمن قدر على ضبط نفسه والحجامة وشم الروائح الطيبة والبخور المتصاعد ولو دخل الفم والأنف؛ لأن تلك الأمور مما يشيع بين الناس، ولو كانت تفطِّر لوجب على رسول الله ﷺ أن يبيِّن حكمها.

يضاف إلى ذلك ما أفتى به أهل العلم حديثًا وهو أن بخاخ الربو لا يفطر إنْ شاء الله إذا اضطر إليه المريض.

**خامسًا**: من احتلم نهار رمضان وهو صائم، فلا شيء عليه؛ لأن النائم مرفوع عنه القلم، أما الذي يجامع متعمدًا، فعليه كفارة مغلظة، وهي على الترتيب عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينًا، ففي الحديث المتفق عليه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: هلكت يا رسول الله!! قال: «**وما أهلكك؟**» قال: وقعت على امرأتي في رمضان، فقال عليه الصلاة والسلام: «**هل تجد ما تعتق رقبة؟**» قال: لا. قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**» قال: لا. قال: «**فهل تجد ما تطعم ستين مسكينًا؟**» قال: لا، ثم جلس، فأتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر (والعرق مكيال يسع حوالي ثلاثين كيلو جرامًا)، فقال ﷺ للرجل: «**تصدق بهذا**». قال: فهل على أفقر منا، فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا؟! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «**اذهب فأطعمه أهلك**».

يا لسماحة الإسلام، كيف تدرج في اليسر حتى استفاد المذنب أخيرًا من ذنبه، وذلك لأنه

ذنب ليس فيه ظلم للناس!!

**سادسًا:** لا ينقض الصيام إلا الأكل والشرب والقيء المتعمد والجماع والحيض والنفاس والاستمناء المتعمد، أما من أكل أو شرب ناسيًا فذلك رزق قد ساقه الله إليه.

## من أحكام الصوم وفضائله

**(٣)**

من فضائل الصوم العظمى أن ربنا ﷻ أضافه إلى نفسه، وأسند مثوبته إلى جوده وكرمه، فقال الله ﷻ فيما يرويه عنه نبيه في الحديث القدسي: «**كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**»، ومعنى هذا الحديث أن ثواب الصوم لا يقدره الملكان الكريمان اللذان يكتبان الأعمال، وإنما يُترك ثواب الصوم لله ﷻ أكرم الأكرمين.

وإنما جعل الله ثواب الصائم من يده الكريمة؛ لأن الصيام بين العبد وربه، والصائم قد يخلو في بيته وقتًا طويلاً وفي إمكانه عندئذٍ أن يأكل ويشرب ويحقق شهوته لكنه لا يفعل ذلك حتى في أخص خلواته؛ لأنه يعلم أنه إذا غاب العباد فالله ﷻ حاضر، وإذا غفل الخلائق فالله شاهد ناظر إليه، وأنه أقرب إلى العبد من حبل الوريد، ومن ثم لا تخفى عليه خافية ولا تعزبُ عن علمه غائبة، والثواب تعذب حين يكون من يد الله الفياضة السخاء لا تقاس إليه تقديرات الملائكة، ومن المعلوم أن قيمة المثوبة ومقدار الجزاء يتوقفان على خلوص العبادة من كل شائبة شرك، فكلما عظم إخلاص العبادة لوجه الله الكريم عظم ثوابها حتى يكون بغير حساب، وهذا ما يحدث بخصوص الصبر والصوم والصدقة الخفية، يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]، وبعد هذه الآية الكريمة المبشرة يذكر ربنا ﷻ إخلاص العبادة لله ليتحقق ذلك الثواب العظيم، فيقول مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: ١١]، إلى أن يقول جلَّ من قائل: ﴿**قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۞ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ**﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].

ومن أجل هذا الإخلاص في عبادة الصوم استحق الصائم أن يباهي الله به ملائكته؛ لأنه

ترك الطعام والشراب والشهوة احتسابًا لوجه ربه الكريم وإخلاصًا وخوفًا من مقامه العظيم، وفي الحديث الشريف ما يفيد أن الله ﷻ يباهي ملائكته بعبده الصائم، فيقول للملائكة: «**انظروا عبدي، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**».

أما الإشارة إلى خلوف فم الصائم وأنه أطيب عند الله من ريح المسك، فتلك إشارة إلى أن الصائم حبيب الله، كل شيء منه جميل وطيب، حتى ولو كنت رائحة أنفاسه المتغيرة من قلة الطعام، فالعبرة عند الله ﷻ بحقائق النفوس لا بمظاهر الأجسام.

وإن فم الصائم الذي يقضي نهاره في الصيام المحتسب وتلاوة القرآن أجمل ألف مرة من ألف فم مضمخ بالعطر، إذا كانت تلك الأفواه مدنسة لفاحش القول وفساد الغيبة وضرر النميمة وساقط اللغو.

ومن الطبيعي أن يكرم الله الصائم؛ لأن الصائم كرم نفسه حين طرد الشيطان من حياته وأقفل في وجهه أبواب قلبه، ولا غرو؛ فمداخله إلى القلوب إنما هي من أبواب الشهوات، والصائم حين يعتزل شهواته يترك الشيطان خاسئًا ذليلاً مسلوب الحول والقوة، نعم إن الشيطان يتحسر في شهر رمضان حين يرى الصوم وقد حطم الشهوات على صخرة الصبر، وهذا ما عناه الحديث الشريف الذي رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين**».

وفي الحديث الذي رواه النسائي -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاكم شهر رمضان شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين**».

ولأن موسم الصوم عاطر الأجواء وضيء الشذا والأنداء، فإن الله ﷻ يرضى فيه عن المؤمنين الصائمين بما يزينهم من الصوم والدعاء والقيام والاعتكاف، فيشملهم بنفحاته المعطاء، ويتجلى عليهم بتجليات الرضا، فيتقبل دعوات الصائمين حين تصعد من أفواههم الطاهرة كأنها أنفاس مجامر النَّد الخالص؛ ففي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا**

**فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».**

وفي عبير هذه التجليات ترى سوق العفو والرحمة والمغفرة قد راجت حين ينزل ربنا ﷻ كل ليلة من ليالي رمضان، فينادي عباده الصائمين إلى جمال رحابه وواسع أبوابه؛ حيث الرحمة والمغفرة والعتق من النار، فقد جاء أنه في ليالي رمضان ينادي منادٍ من السماء كل ليلة: «**يا باغي الخير يمم وأبشر، ويا باغي الشر أقصر وأبصر، هل مستغفر يغفر له؟ هل تائب يتوب الله عليه؟ هل من داعٍ يستجاب له؟ هل من سائل يعطى سُؤله، ولله كل ليلة عند كل فطر عتقاء من النار**».

**وبعد**؛ فإن رمضان يظلنا هذا العام ونحن أحوج ما نكون إلى نصر الله وفرجه القريب؛ إذ دهمنا ظلام الضياع وعاثت في أقداسنا غوادر الذئاب وتلاحقت علينا بذنوبنا النوائب وتداعت علينا الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وتجبر من حولنا أعداء الله ورسوله، فما أحوجنا أن نتوجه إلى الله في أيامه المباركات، ونتعرض إلى نفحاته الكريمات، فنضاعف من طاعاتنا ونقلع عن سيئاتنا وخطايانا لكي يرنا الله في تجلياته ونحن على خير حال.

إنَّ معصية الله -تعالى- في شهر رمضان تحمل مع الإثم وقاحة شيطانية؛ إذ كيف يمد الله يده إلى العباد يناشدهم التوبة ويعدهم واسع المغفرة، فيجدهم على حال سيئة من ترك العبادات واتباع الشهوات.

أخي المسلم!! إياك أن يدعوك الله إلى رحاب مغفرته، فيلقاك عاكفًا على معصيته، فكلنا فقير إلى رحمته، فهو الولي الحميد ذو العرش المجيد الفعال لما يريد.

اللهم اجعلنا وآباءنا وجميع المسلمين من عتقائك وأصفيائك والفائزين بقبولك ورضوانك.

***

## العشر الأواخر من رمضان وفضلها

يضاعف السعداء من عبادتهم في العشر الأواخر من رمضان، فيطلبون القيام ويتعهدون القرآن، ويرون الله في شهر القرآن من أنفسهم مناظر جميلة مباركة من حسن التوجه إليه، وجميل التوكل عليه متهزين البقية الباقية من أيام رمضان المباركات ليملئوا صحائفهم بالباقات الصالحات، ويستحقوا بذلك أن يكونوا من عتقاء الله في هذا الشهر المبارك الكريم.

وهذه بعض أمور يكون فيها مجال للتساؤل في العشر الأواخر من رمضان:

**أولاً**: حين يشعر التاجر بقرب انتهاء الموسم تجده يتحين فرص المكاسب؛ لأن الفرصة إذا ضاعت لا تعود أبدًا، ولهذا يحيي الناس ليالي رمضان، ويلتمسون فيها ليله القدر التي أنزل فيها القرآن، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر، وكان عليه الصلاة والسلام يعتكف في العشر الأواخر من رمضان ليتفرغ لعبادة الله بعيدًا عن مشاغل الحياة.

**ثانيًا**: ليلة القدر إنما سمِّيت بهذا الاسم لعظمة قدرها عند الله، وقد تركها رسول الله ﷺ دون تحديد صارم لها؛ لأنه لو فعل ذلك لاكتفى الناس بإحياء ليلة واحدة، لكنه كان يتحرها في الوتر من العشر الأواخر من رمضان؛ ليكسب الناس أكبر قدر من العبادة والقيام.

وإنما كان لهذه الليلة كرامتها؛ لأن الله شرَّفها بنزول القرآن الكريم فيها، وحسبك بهذا الشرف العظيم لتلك الليلة العظيمة سنا وسناءً، وببركة القرآن الكريم يغفر الله فيها الذنوب، يقول رسول الله ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وهي أسمى من أن يطلب العبد فيها ذهبًا وفضةً وأعراضًا دنيوية زائلة، وإنما على من يدركها أن يدعو فيها بجوامع الدعاء وأسماه وأشرفه، ففي الحديث الذي رواه الترمذي أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلةٍ ليلة القدر؟ ما أقول فيها؟ فقال: «**قُولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**».

ما أجمل أن تدعو الله أن يجعلك من أهل القرآن الذين يتلونه ويعملون به وتنشرح

صدورهم به وتزداد قلوبهم إيمانًا بآياته وتنير به بصائرهم وأبصارهم وقبورهم وأعمالهم.

**ثالثًا:** تعوَّد الناس أن يخرجوا زكاة أموالهم في العشر الأواخر من رمضان، كما تعوَّدوا أن يخرجوا زكاة الفطر قبل صلاة العيد بيوم أو يومين، وزكاة المال وزكاة الفطر مصرفهما واحد، وهذا يعني أن مستحق زكاة الفطر هو نفسه مستحق زكاة المال.

هذا، ولا يجوز للمستغني عن الزكاة والصدقة أن يمد يده إليها، فالزكاة لا تجوز على مستغنٍ عنها ولا على القوي المكتسب، وعلى أمثال هذين أن يتركوها للفقراء والمساكين والغارمين والمجاهدين.

هذا، ولن تجد ذا كرامة يقبل الزكاة؛ لأنها أوساخ الناس، ومن يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، أما الذي يرخص ماء وجهه في الدنيا؛ فإن الله يحرمه ماء وجهه ونضرة وجهه في الآخرة، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ؛ إذ يقول: «**لا تزال المسألة بالرجل حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم**»، يعني أن وجهه يتحول إلى جمجمة ناشفة لكثرة ما باع من ماء وجهه وأرخص من حر كرامته، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع**».

**رابعًا:** هذا وقد يكون لبعض الأغنياء عددًا ممن يلازمونهم ويقومون لهم ببعض أعمال من حراسة أو مراسلة أو خدمات لعائلاتهم أو مرافقتهم في صيدهم أو غير ذلك، وأقول: إن هؤلاء ليسوا من مصارف الزكاة؛ لأنهم يكونون في الغالب أقوياء مكتسبين ذوي بيع وشراء وعمائر وبيوت، وما يجوز لسيدهم الذي يرافقونه أن يعطيهم من الزكاة، بل هو يكرمهم من ماله بما عوَّدهم عليه من عادات إلا إذا وقع أحدهم في غرم أو جريرة، فعندئذٍ يدخل في الغارمين، ويجوز أن يعطى من الزكاة.

الزكاة تصرف لمصارفها وتعطى للذين ذكرهم الله في محكم آياته، أما حين يوزِّع الغني المال على من يمدحونه بالشِّعر، ويتملقونه بلغو الحديث، ويسهرونه في الليالي، ويقومون بالدعاية لعطائه ومعروفه؛ فهذا يعد في باب الكرم والشهامة والضيافة والمروءة ينفقه الغني من جيبه، ولا يجوز اعتباره من الزكاة.

كما أن ذبائح الضيوف وكثيرًا من أبواب المعروف هي فضائل يحب الله أهلها ولا

يضيمهم، لكنها لا تدخل في ركن الإسلام المتعلق بزكاة المال.

وهنالك ملاحظة حول فئة من الناس ممن يقتنون ثيابًا وسخة يلبسونها في رمضان يجلسون بها على قوراع الطرق وأبواب المساجد يستجدون رغم غناهم، فيشوهون وجه المجتمع، ويضيعون الفرصة على الفقير الحقيقي باحترافهم الذلة والصغار المهين، فالغني غني النفس والقلب، وليس غني الشاه والبعير والدينار والدرهم، وفي الحديث الشريف: «**الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء**»، وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والطمع؛ فإنه هو الفقر الحاضر**»، والدنيا كما هو معروف لا تشبع، فقد جاء في صحيح البخاري: «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**».

**خامسًا:** أخي الصائم ما دمت تودِّع شهر البركات، فاربأ بنفسك أن تقف على غير باب الله، اجعل توجهك إليه، واجعل توكلك عليه، ولا تشرئب بعنقك إلى عطايا العبد، بل استغن بفضل الله عمن سواه، وما دام رمضان قد آذن بانتهاء، فاكسب أوقاته الغالية، واستمتع بسويعاته الثمينة، وأحيي بطاعة الله لياليه، فالعبرة بالخواتيم.

نسأل الله أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أعمارنا آخرها، وخير أيامنا يوم نلقاه.

لقد كان السلف الصالح -رضوان الله عليهم- يبكون رمضان حين يؤذن بانتهاء، ويسألون الله أن يشهدهم إياه ليعوضوا ما حصل من تقصير إزاءه.

وهنا لا بدَّ أن نذكر أن رمضان لم يكن عند أصحاب رسول الله ﷺ شهر استلقاء واسترخاء ونوم طويل، بل لقد كان عبر تاريخنا شهر جهاد وانتصار وتضحيات، وحسبنا أن غزوة بدر كانت في رمضان، وهي التي سمَّاها الله ﷻ يوم الفرقان، وكذلك كانت غزوة فتح مكة في رمضان، وكأن الله ﷻ أراد بحكمته البالغة أن يبدأ النصر ويختتمه في رمضان؛ ليعلم المؤمنين أن النصر لا يكون بالبطون المليئة بأصناف الطعام، ولكن بالقلوب العامرة بصدق الإيمان، وقد كان صلاح الدين -رحمه الله- كثيرًا ما يتحرى أن يبدأ القتال في رمضان راجيًا من الله أن تصيبه دعوات الصائمين، ودعوة الصائم بإذن الله مستجابة.

* * *

# كتاب الحج

## الإسلام والحج:

الحمد لله الذي جعل الحج معتمر الإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله أكرمنا باتباع محمد - عليه الصلاة والسلام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خير داعٍ إلى الهدى والسلام، اللهم صلِّ على محمد كلما عمر بيت الله بوفوده الكرام.

لقد جاء الإسلام والعرب يحجون على بقايا من ملة إبراهيم كانوا يطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويقفون في عرفات، ويفيضون إلى مزدلفة ومنى، وفي أثناء ذلك يبيعون ويشترون وينظمون وينثرون ويتنافرون ويتفاخرون.

ولقد أقر الإسلام كل طيب ونبذ كل خبيث، فقد أقر الطواف والسعي والوقوف والإفاضة، ولكنه نقى الحج من شوائب الشرك والعادات الجاهلية، وعلَّم المسلمين مناسكهم كريمة نظيفة طاهرة وضيئة.

**أولاً**: كان العرب إذا طافوا بالبيت أو صلوا عنده جعلوا صلاتهم ودعاء طوافهم صفيرًا وتصفيقًا، فلما جاء الإسلام أبدلهم بالصفير والتصفيق ذكرًا ودعاءً وخشوعًا لله، وتوجهًا إليه ﷻ أن يمن عليهم بحسنة الدنيا والآخرة، وجعل الصلاة تكبيرًا وتسبيحًا ودعاءً، يقول الله تعالى يصف طواف المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، والمكاء والتصدية هما الصفير والتصفيق، لذا منع الإسلام الصفير والتصفيق؛ لأنهما غوغائية وفوضى تفتحان وتمنعان المجال للغو والعبث، التفكير الهادئ السليم.

**ثانيًا**: كان على الحاج في الجاهلية أن يطوف بثوبٍ يحصل عليه من أهل مكة، ولا يجوز أن يطوف بثوبه العادي، وكانت قريش والحُمس وهم القبائل التي تسكن مكة يبتزون الحجاج فيغالون في أثمان تلك الأثواب، وكان في شرعة الحج عندهم أن من لم يحصل على ثوب من ثياب أهل مكة، فعليه أن يطوف بالبيت عريان، وكان منظرًا مزريًا أن ترى حول بيت الله الحرام رجالاً ونساءً يطوفون بالبيت عراة، فلما جاء الإسلام أعلن أن في إمكان الحاج

أن يطوف بأي ثوب، وعلى الوفود أن تأخذ زينتها (أي: أن تلبس أحسن ثيابها عند الطواف)، أما ثياب أهل مكة التي كانوا ملزمين بارتدائها، فإنه لا حاجة لهم بها خصوصًا وقد كان كثير منها يكون ممزقًا، ومع ذلك يباع بثمن باهظ، يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ويتساءل في نفس السياق فاضحًا حيل سدنة الشرك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وفي الحجة التي كان أميرها أبو بكر ﷺ نادى عليٌّ ﷺ: ألا يطوفن بالبيت عريان، وتحطمت بهذا الأمر النبوي عادة خرافية شوهت وجه الحج الجميل الجليل.

**ثالثًا**: كان كثيرٌ من الحجاج يحضرون الموسم بدون زاد معتمدين على الشحاذة والاستجداء والتطفل، فجاء الإسلام ليفرض الحج على المستطيع والقادر على زاده ونفقته وراحلته، ونادى في الناس بقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، ومعنى الآية أن على الوفود أن توفر لنفسها الزاد وألا تنسى بعد ذلك أن ثمة زادًا آخر أسمى من زاد الدنيا ألا وهو زاد التقوى وطاعة الله ومخافته، وبهذا التشريع الحكيم خلا الموسم من مواكب العالة والشحاذين.

والحقُّ أن هذا الأمر الإلهي الحكيم يلزمنا تنفيذه في هذه الأيام؛ لأن كثيرًا من الحجاج إما بدافع الشوق أو بدافع المصلحة قد يحضرون الموسم بدون استطاعه تمكنهم من السكن الحسن والعيش الكريم بلا إسراف ولا تقتير والتنقلات بين المشاعر، فترى آلافًا مؤلفة من المتسولين على قوارع الطريق يفترسون الأرصفة ويزحمون المرور ويسدون الطرقات، وقد يشتغل بعضهم بالنشل والاحتيال ومعصية الله.

**رابعًا**: وكان لقريش مكان خاص يفيضون منه لا يفيض منه غيرهم، فرأى الإسلام في هذا نوعًا من الطبقية التي تتنافى مع المساواة في الإسلام؛ إذ الناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي فيهم على أعجمي إلا بالتقوى، فشرع الإسلام أن المفاض واحد لقريش وغيرها، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

**خامسًا**: وكان العرب إذا قضوا مناسكهم أقاموا حلقات الشعر والمفاخرة بالآباء،

فيلقي الشعراء قصائد المنافرات التي تشيد بهال القبيلة ونفرها وأيامها، وربما أقيمت خيمة عالية لحكم يحتكم إليه الشعراء كالنابغة الذبياني فيفاضل بين القصائد، ويفضل بعض الشعراء الوشاء، فمنع الإسلام المفاخرة والمنافرة واستبدل بذكر الآباء ذكر الله تعالى، يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠- ٢٠٣].

**سادسًا:** كان العرب يذبحون في الحج عند الأصنام، ويطوفون حول الكعبة بين الأصنام، ويسعون بين الصفا والمروة بين صنمين إساف ونائلة، فحطم الإسلام تلك الخرافة المهينة للعقل، وصرف العبادة لله وحده، وجعل الذبح محرمًا في أي مكان به صنم أو ذبح فيه لصنم، وجعل للسعي معنى خارجًا عن إساف ونائلة، وصرفه إلى أنه المكان الذي ركضت فيه أم إسماعيل باحثة عن الفرج، وإذا الفرج مسرعًا من عند الله متجليًا في عين زمزم التي فاض فيها الري والبركة على العباد، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

نعم لا أصنام بعد اليوم ولا نسك إلا في المكان الذي ذبح فيه إبراهيم ﷺ ذلك الكبش العظيم الذي فدى الله به إسماعيل ﷺ بعد أن صدَّق الرؤيا، ونجح في البلاء، وأثبت أن ولاءه للحبيب الأعظم ﷻ أعظم من حبه لصفيه وفلذة كبده الذي بلغ معه السعي وساعده في بناء البيت.

**سابعًا:** كان بعض سادة العرب يستغلون الموسم في زواج الجميلات يبحثون عنهن في الحاجات من بنات الزعماء وشيوخ القبائل، فمنع الإسلام عقد النكاح أثناء الإحرام ليتفرغ الحاج لعبادة الله وأداء المناسك بدلاً من أن يشغل نفسه بالنكاح والزواج.

وبهذه الأوامر العظيمة السامية الحكيمة صفا الحج من كلِّ الشوائب وأصبح ملتقى مباركًا تجتمع فيه وفود الله باخعة بعيوبها مستغفرة لذنوبها ذارفة لدموع التوبة بين يدي غافر الذنب وقابل التوب، تسأله الجنة وتستجير به من النار.

ألا ما أعظم الإسلام مدرسة إلهية تعلم الدنيا كلها دروس الإخاء والمحبة والعدل والمساواة، الله أكبر كلما عنت تلك الوجوه المباركة للحي القيوم غير آبهة بفوارق الجاه وحواجز المنصب والنسب وكنوز الفضة والذهب.. الله أكبر كلما خفقت على رءوسهم أعلام الإخاء مكتوبًا عليها بمداد الصدق: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الله أكبر كلما سالت بطاح مكة بتلك الكتل البشرية مقبلة على رحاب الله ترجو توبته ومغفرته، ثم انقلبت إلى أهلها وهي ترجو من ربها نفحات القبول وعتق الرقاب وحسن الثواب.

## حكمة الحج

منذ آلاف السنين أمر ربنا ﷻ نبيَّه وخليله إبراهيم ﷺ أن يؤذِّن في الناس بالحج، فصعد على الصفا والمروة ونادى بأعلى صوته: ألا إن الله فرض عليكم الحج فحجوا، فأسمع الله نداءه جميع الناس، فأقبل السعداء يلبون ذلك النداء الكريم رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

وظلَّ ذلك النداء مجلجلاً مُهيبًا بالمؤمنين أن يؤموا بيت الله ليبتغوا من فضله ورضوانه، وليعظموا حرماته وشعائره حنفاء لله غير مشركين به، وليذكروا اسم الله وهم ينحرون ويذبحون هديهم وقلائدهم ليطعموا منها البائس الفقير، ثم ليطعموا القانع والمعتر شاكرين الله على ما سخر للإنسانية من تلك النعم، يقول الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

وظلَّ الحج وسيظل بمشيئة الله مؤتمر المؤمنين الأعظم ومجتمع المسلمين الأسنى، يجتمعون فيه ليحققوا لأنفسهم منافع المعاش والمعاد، وليكون دينهم دوحة الأمن يتفيأ ظلالها ركب العباد، وليظل بيت الله الحرام مثابةً للناس وأمنًا، يرون من آياته البينات فيتخذوا منه مصلى.

ولقد لاحظ أشياخنا المفسرون حول آيات الحج ملاحظة دقيقة خلاصتها أن آيات الحج وردت في ثلاث سور، وهي سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة الحج، ففي سورة البقرة ذكر الله -تعالى- بناء البيت ودعاء إبراهيم، ثم أتبعه بآيات حول صفاء التوحيد والخلوص من الشرك، وأن التوحيد هو وصية أنبياء الله منذ كانت النبوة، كما ذكر الحج في سورة البقرة في موضع آخر بعد ذكر الجهاد وقتل المشركين ورد عدوانهم وبذل المال في سبيل الله، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ۞ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۞ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ الله وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣- ١٩٥].

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ لا يعني ما يفهمه كثير من الناس: لا تعرضوا أنفسكم للقتل والموت، فهذا المفهوم لا موضع له هنا، ولكن المعنى الحقيقي هو ما فهمه أصحاب الرسول الله ﷺ، ومعناه: لا تتركوا الجهاد بأنفسكم وأموالكم، فينتصر عليكم العدو ويستحوذ على دياركم ويدمر دينكم ويهلككم.

أما آيات الحج التي وردت في «آل عمران» فيتبعها ربنا بحثّ المسلمين على وحدة الصف والاعتصام بالله والحذر من مؤامرات اليهود والأعداء بتدمير وحدة الصف، يقول الله تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وبعدها بآيتين يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِالله فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٠- ١٠٣].

وأما في سورة «الحج»؛ فقد بدأ الله السورة بذكر مشهد مروع تقشعر منه القلوب، يقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]، وبعد أن ذكر آيات الحج والأضاحي أتبعها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ

﴿يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۞ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٨، ٣٩]، ثم ختم ﷻ سورة الحج حاثًا على الجهاد وإقام الصلاة والاعتصام بالله، يقول تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

**وخرج الأشياخ من هذه الدراسة المقارنة بأن الحج إنما شرَّعه الله ليحقق عدة أمور:**

**أولاً:** أن يثير في المسلمين روح الجهاد والتضحية في سبيل الله، وينتهز الموسم لإنقاذ المسلمين في كل مكان من الاضطهاد والفتنة، وأن توضع الخطط لقتال الأعداء عامة وقتال أولئك الذين يلوننا من الكفار خاصة.

**ثانيًا:** أن يتخذ الحج درسًا في الأخلاق والفضائل ودورة تربوية أخلاقية لا رفث فيها ولا فسوف ولا جدال ولا مجال فيها لأي عبث بالأمن تحقيقًا لقوله تعالى وهو يصف المسجد الحرام: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [الحج: ٢٨].

**ثالثًا:** أن يسعى الدعاة في الموسم بكل جهدهم لتثبيت عقيدة التوحيد وبيانها ونشرها وتصفيتها من كل شائبة؛ لأن التوحيد هو عماد الأمر ودعوة كل الرسل، وهو حق الله على العبيد في مقابل غفرانه ورضوانه وجنته.

**رابعًا:** أن يحاول كل حاج في الموسم ربط نفسه بأوامر الأخوة مع كل حاج في الموسم العظيم؛ لتحقيق الوحدة الإسلامية، وغرس الإخاء تحت ظلال الإيمان؛ إذ بهذا الإخاء تكون الوحدة ويكون النصر.

**خامسًا:** أن تحقق الوفود حكمة الحج التي لخصها الحق ﷻ في ثلاث كلمات ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]. وقد لاحظ أشياخنا المفسرون أن كلمة (منافع) جاءت نكرة ليراد بها كل المنافع بأنواعها، وجاءت على صيغة منتهى الجموع إشارة إلى تعددها وكثرتها.

**سادسًا:** أن يشعر كل حاج أنه أقبل من دياره تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم ؈،

وما دام مدعوًا إلى رحاب الله فليقدر قدر الداع ﷺ، وليسلك على مستوى الدعوة والنداء، وليتذكر في كل مشعر ما كان فيه من كلمات ومواقف، فيذكر في مقام إبراهيم ﷺ موقف ذلك الشيخ الجليل وهو يرفع قواعد البيت، يعاونه ولده الغالي الذي بلغ معه السعي، وليتذكر في زمزم ساعة الفرج التي أعقبت لهفة الوالدة الوالهة وهي تركض بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم ليتذكر عند الجمرات وفي المنحر ذلك البلاء العظيم الذي ابتلي به إبراهيم ﷺ حين رأى في المنام أنه يذبح صفيه، فصدق الرؤيا وأسلم أمره لله وتل ذلك الغالي للجبين، فما هي إلا لحظات وإذا الفرج القريب وإذا الفداء الغالي ذبح عظيم من نعم الجنة، ألا ما أجمل الحج مهب نفحات ومنزل رحمات ومسرح ذكريات وتعارفًا على عرفات وفوزًا في منى بأحلى الأمنيات.

## (١) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

منذ آلاف السنين قام سيدنا إبراهيم ﷺ على الصفا وأذن في الناس بالحج مستجيبًا لأمر الله، فأسمع الله نداءه كل أهل الدنيا، وأقبل السعداء يهتفون لبيك اللهم لبيك، ومنذ ذلك الوقت والناس يأتون من مشارق الأرض ومغاربها رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

لقد كان الحج وما زال مؤتمر الإنسانية الأعظم يجمعها في رحاب القبلة، ويسير بها إلى المناسك في مواكب النور والتوبة والقبول، ويكوِّن منها وحدة متماسكة تسد على الشيطان دروبه وتفضح أساليبه وعيوبه، ففي مؤتمر الحج الأكبر يتجلى لعينيك أعظم هدفين من أهداف الإسلام ألا وهما تحقيق كلمة التوحيد وتحقيق وحدة الكلمة.

الله أكبر تنبعث كلمة التوحيد من ملايين الأفواه الوضيئة تارة بلفظها الصحيح وتارة بمعانيها الشريفة المتعددة لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

الله أكبر كم ترتكس الشياطين وهي ترى وساوسها تتحطم في مشاعر الحج على صخرة الإخاء الإلهي العظيم حين تحاول مهاجمة الصفوف الربانية فلا ترى فيها ثغرة من ثغرات

الشهوات ولا طريقًا من طرق المعاصي.

هنالك ترى بعينيك حربًا غير متكافئة بين مواكب الإيمان وليها ومولاها الله المهيمن العزيز الجبار وبين فلول الشيطان مذعورة تلوذ بإبليس، فيحطم آمالها بإجابته المستخذية، والتي وردت في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ويزيد في حسراتهم حين يعلن ضعفه بين أنصاره وعباده فيتبرأ من شركهم وعبادتهم له كما ورد في الآية الكريمة: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هنالك ترى الشيطان في المشاعر المقدسة وهو يرى كرم التواب وعتق الرقاب وإخاء المؤمنين الأحباب، فيتذكر حماية الله للمؤمنين وولايته للمتقين وقولته العظيمة الخالدة لأي شيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

لا غرو أن تعود وفود الرحمن وضيوفه وقد عقلوا آيات ربهم واستوعبوا وصايا رسولهم وتمثلوا كتاب الله يناديهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠٣].

لقد درَّب الحج ضيوف الرحمن تدريبًا عمليًّا على اتخاذ كلمة التوحيد سبيلاً إلى وحدة الكلمة، وذلك ما كان يحرص عليه رسول الله ﷺ حين أوقع أحد اليهود بين بعض شباب الأنصار من الأوس والخزرج، فهاجت نفوسهم وتحركت الفتنة لولا أن أقبل رسول الله ﷺ يذكرهم أن التفرق كفر ويقول لهم: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، وروى الترمذي أن عمر ﷺ أنه قال وهو يخطب في الجابية: إنَّ رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال: «من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة؛ فليزم الجماعة».

ألا ما أعظم الإسلام مدرسة إلهية عليا تعلِّم كل بني آدم دروسًا نظريةً وعمليةً، فإذا كنا

نتعلم في كتاب الله وسنة رسوله نظريات المحبة والرحمة والمساواة وصنائع الخير والمعروف، فإننا نتعلم في الحج وسائر العبادات دروسًا تطبيقية لهذه النظريات حين تبدو لعينيك آلاف الآلاف من المؤمنين وقد سالت بهم بطاح مكة سيلاً مباركًا، وقد عنت وجوههم للحي القيوم، واستشعر كلٌّ منهم أن كل مؤمن على وجه الأرض هو أخوه، فلله موقفهم المبارك المقدس وقد أزالوا من بينهم فوارق الجاه والنسب وحواجز الغنى والنسب وكنوز الفضة والذهب، ولم يعد يملأ فكرهم إلا دروس الإيمان تعلم الخليقة كلها رحمة العبد للعبد ونبذ الحسد والحقد والانتظام في سلك أخوة الإيمان؛ حيث ترفرف على ضيوف الرحمن أعلام الهدى ودين الحق مكتوبًا عليها بمداد الصدق: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

لقد كان رسولنا ﷺ أحرص شيء على وحدتنا لنرد عن حمى ديننا هجمة الكفر التي لن يقر لها قرار حتى تردنا عن ديننا إنْ استطاعت ولن تستطيع بعون الله، قال رسول الله ﷺ: «**يد الله على الجماعة**»، وروى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قام في الصحابة فقال: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة (يعني المسلمين) ستفترق إلى ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه**».

وما أكثر ما وصانا ربنا ﷻ بلزوم الجماعة ونبذ الشذوذ، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ولرسول الله ﷺ في هذا المجال عبارات فيها من روعة الإيجاز وسمو التصوير ما يسحر اللباب، فمن ذلك قوله: «**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»، وقوله: «**مَن شذَّ شذَّ في النار**»، وقوله: «**إنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**»، وقوله: «**عليكم بالجماعة، فإن الله لم يجمع أمتي إلا على الهدى**».

ولقد كان تخطيط الكفار لئيمًا خبيثًا حين جعلوا شعارهم في معركتهم معنا: «**فرق تسد**»، فكان من نتائج ذلك الخصام والانقسام ما نعانيه في هذه الأيام من ضياع على دروب الخلافات مما أثخن الأمة وأطاح بالطاقة، وجعل بأس المسلمين بينهم، وقد جاء الحج أبلغ رد على تلك السياسة الكافرة؛ لأن كل ركن من أركانه وكل واجب من واجباته درس في وحدة

الكلمة والاعتصام بحبل الله المتين، وحسبك أن تلقي نظرة على أهل عرفات لترى أجل مجتمع وأعظم مؤتمر يشرفه سمو القصد وتعظمه أعلام الإخاء في الله.. ألا ما أعظم الحج ردًّا بليغًا على مكائد الكفرة ومظهرًا صادقًا لعظمة الإسلام.

## (٢) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

كان رسول الله ﷺ يتخوف علينا أمورًا خطيرةً، ويحذرنا أن نقلد الأمم السابقة التي غيَّرت شرائعها وحرقت كتبها وفقدت دينها، حذَّرنا عليه الصلاة والسلام أن نبالغ في حب الدنيا، وحذرنا من كراهية الموت ومن العزوف عن الجهاد، وحذرنا من إقبال الدنيا علينا خشية أن نتنافسها فتفتننا كما فتنت الأمم الغابرة، وحذرنا أن تستبدل بصراط الله طرقًا تبتعد بنا عن الجادة وتضل بنا عن سبيل الله، وحذرنا من فتنة الدنيا وفتنة النساء، ولا غرو فرسولنا ﷺ كان في حبنا كما وصفه ربه ﷻ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وليس أدل على صدق النبوة المحمدية من أن كل ما حذرنا منه نبينا ﷺ قد تحقق وبدا للعيان كأنه فلق الصبح، فقد تنافسنا على الدنيا حتى فتنتنا، وجعلناها غاية فكرهنا من أجلها الموت، وأخلدنا إلى الحرص المردي والشح المطاع، ثم كان ما حذرنا منه من الانقسام والجري وراء المضلين وإغواء الشياطين والملحدين حتى تركنا جادة الصراط المستقيم، واتبعنا السبل المضللة فتفرقت بنا عن صراط الله، وأخيرًا وقعنا في حبائل الشهوات عامة والنساء خاصة، فأسأنا بذلك استخلافنا وما أنعم به ربنا علينا، فأصابنا الوهن بمعاصينا وصرنا غثاء كغثاء السيل، وتحقق ما خوفنا منه رسولنا ﷺ حين تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

ولقد لفت نظري في الحج أنه درس إلهي عظيم في محاربة الانقسام وفي تحدي الشيطان وفي غرس الإخاء الإسلامي والمحبة الأخوية حتى إن الحاج الموفق ليعود وفي قلبه كل معاني الصفاء والإخاء والحب والخالص لأمة محمد ﷺ والحنين الصادق لأقطارها والتفكير الجاد في إغاثة كل مصاب منها وكشف كل غمة عنها وحمل راية الجهاد لإنقاذ أرجاءها ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، ولتظل كلمة الذين كفروا السفلى.

إنَّ جميع أعمال الحج مظاهر وحدة الإسلامية ودروس أخوة ربانية ومنافع دنيوية وأخروية.

وإني ملقٍ هنا ضوءًا على رجم إبليس؛ لأنه المنسك الذي ينسكه الناس ومعظمهم غافل عن حكمته، وذلك لما يكتنفه من زحام قد تزهق فيه الأرواح.. كثيرون من الحجاج يرجمون الشيطان ويكبرون على كل حصاة ترجم لكن الخطر من حولهم يستحوذ على خواطرهم فينسيهم حكمة الرجم.

لقد تعرض الشيطان لسيدنا إبراهيم الخليل ﷺ عندما توجَّه إلى منى ليصدِّق الرؤيا ويَصْدُقَ الوعد مع ربه، وكان الشيطان يبدو لإبراهيم ﷺ تارة في ثياب الواعظين الناصحين وتارة في ثياب المهددين المتحدين، لكن إبراهيم ﷺ رجم الشيطان وهزمه غير عابئ بوعده ووعيده.

إنَّ رمي الجمار معناه قطع كل علاقة مع إبليس، وقطع العلاقات مع الشيطان معناه حرب معلنة على الشهوات؛ إذ جو الشهوات هو أنسب جو لوساوس الشيطان ومكائده.

لقد أضل إبليس أبانا آدم وزوجه حين نصب لهما حبائل الشهوات، ولم يزل بهما حتى أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباساهما، فهتك ستراهما وأراهما سوءاتهما، وظل منذ حسده لآدم ﷺ يقف لابن آدم على دروب الضلال يهاجمه من قبل شهواته، ويرديه من ثغرة أهوائه.

وما أكثر ما حذرنا ربنا من هذا العدو الحاقد اللئيم، يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ومعنى هذا أن الشياطين حلفاء للكافرين يتعاونون معهم على إضلال الإنسانية.

لقد رجم إبراهيم ﷺ الشيطان فخنس وتوارى وانطلق خليل الله ليذبح صفيه وحبيبه في سبيل مرضاة حبيبه الأكبر، فعلمنا بذلك ﷺ أن نقطع كل علاقة مع الشيطان، ونجعل حبنا وولاءنا للرحمن.

إنَّ المؤمن إذا رجم الشيطان هتف مع كلِّ حصاة: الله أكبر، ليصك بها سمع إبليس بأنه مهما كبرت في عين ابن آدم الشهوات وتكبر على جانبيها أنصار للهوى، فالله أكبر ورضاؤه

أجل وأعظم، ولعل أعظم منفعة من منافع الحج أن يعود الحاج وقد صفع الشيطان ورجمه وأعلن له بعد اليوم أن ليس له سلطان ولا ولاية ولا طاعة على المؤمن.

وبالمناسبة؛ فإن لإبليس على ابن آدم تلبيسات وحيل وأساليب عجيبة؛ إذ كثيرًا ما يتمثل للإنسان في صورة ناصح أمين شفيق يدعوه إلى العمل الصالح، ثم لا يزال يُسوِّلُ ويُملي له حتى يوقعه في هاوية قاتلة، حتى إذا رآه في قعرها قهقه ساخرًا منه وقال له: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد أورد ابن الجوزي -رحمه الله- في كتابه (تلبيس إبليس) قصة فيها مغزى عظيم، ولعل فيها -إن شاء الله- عصمة من الشيطان؛ لأنها تكشف أساليبه وحيله، وقد رويت القصة عن عمرو بن رفاعة ﷺ عن رسول الله ﷺ، وخلاصتها أن راهبًا من بني إسرائيل كان أعبد أهل زمانه وأبعدهم عن الحرام، وكان في زمانه ثلاثة إخوة صالحين، ولهم أخت صالحة مثلهم، فَطُلب ثلاثتهم للجهاد وتحيروا أين يؤَمِّنونَ أختهم، واستقر رأيهم أن يسكنوها في بيت مجاور لصومعة الراهب، ويستأمنوه في قضاء حوائجها، ورفض العابد واستعاذ بالله، ولكنهم أقنعوه بأن يضع لها الطعام عند باب الصومعة، ويقفل من خلفه الباب، فرضي وظل على ذلك مرة حتى جاءه الشيطان أول مرة فقال له: إن هذه المرأة تنتقل من باب بيتها إلى باب صومعتك لتأخذ طعامها، فما ضر لو خرجت من الصومعة ووضعت لها الطعام عند باب بيتها، فتوفر عليها الخروج إلى الشارع الذي قد يعرضها للخطر فأطاعه العابد؛ لأن كلامه يبدو كلام ناصح، ثم لم يلبث أن أغراه بأن يدخل لها الطعام في بيتها حتى لا يراها الناس وهي تدخل الطعام من خارج البيت، ففعل العابد ذلك ثم أعاد إليه الشيطان فأغراه أن يكلمها ويؤنسها؛ لأن صدرها ضائق بغياب إخوانها، ثم لم يلبث أن أغراه بالجلوس إليها وتعليمها، فلما تحقق الاختلاط والخلوة ثارت في العابد شهوة الحرام، ثم كانت خلوات والشيطان ثالثهم، ثم كانت الطامة الكبرى نتيجة خلو الرجل بالمرأة الأجنبية، فحملت المرأة وولدت طفلاً، وهنا تبيَّن للرجل هول الفضيحة، فَسوَّلَ له الشيطان له أن يقتل الطفل، ولما بدا حزن الأم سَوَّل الشيطان للعابد أن يقتلها ليطمس الجريمة فقلتها ودفنها بجوار ابنها، وأقام عليهما قبرًا.

فلما رجع إخوتها نعاها لهم، وطفق يبكيها ويحمد سيرتها ويترحم عليها فصدقوه، ولكن بعد أيام وسوس لهم الشيطان أنه قتلها، فأخذوا يفتشون حول الصومعة، وإذا حفرة أخرى فلما نبشوها إذا جثة المرأة وجثة وليدها، وقد بدت آثار القتل فاعترف العابد بجريمته، ولما سِيقَ ليصلب جاءه الشيطان وقال سيق له: أكفر بربك، وأشهد أني ألهك أنجيك من القتل، ففعل العابد كما أمره الشيطان عندئذٍ قال له إبليس: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦- ١٧].

## (٣) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

حين يذوق المسلم حلاوة الإيمان ويصبح عبدًا صادق العبودية كل همه إرضاء سيده الأكرم ووصال حبيبه الأعظم ﷺ، ثم لا يزال يتقرب إلى مولاه بصنوف من القربات حتى يكتبه المولى في سجل أحبائه، وينظمه في سلك أوليائه، وحين ينال ذلك الشرف الرفيع يصبح سهل الوصول إلى كريم الرحاب، فتفتح له جميع الأبواب، ثم لا يلبث أن يمده ربه بروح من روحه وقوة من قوته، وإذا هو عبد رباني ينظر بنور الله، ويسمع بسمع الله، ويبطش بيد الله، ويمشي برجل الله، وعند هذه المنزلة من مدارج السلوك ومنازل السعادة يستجيب له ربه كلما دعاه، ويمده بالعون كلما استعانه، وهنا يحظى بقرب الرحمن ويستمتع بحلاوة الإيمان.

ولقد تدبرت أركان الإسلام الحكيمة وأوامره العظيمة فوجدتها مناهج تربية روحية توصل المؤمن إلى محبة الله وولايته ليحظى بوعد الله في قوله الكريم: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

والحقُّ أن الحج على وجه الخصوص ما هو إلا تدريب سلوكي رفيع ينظم الحاج في سلك وفود الله منذ خروجه من بيته إلى أن يعود إلى بيته، ويأخذ بيده إلى حيث مقامات الأبرار ومنازل المصطفين الأخيار، وهذا شرح ما عنيناه وتفصيل ما أجملناه.

**أولاً**: حالما ينوي المسلم أداء فريضة الحج يدخل في دورة تثقيفية دراسية وأخلاقية معًا

ويفرض عليه الحج منهجًا أخلاقيًا في كل أقواله وأعماله، فهو يبدأ أول ما يبدأ بتوبة إلى ربه نصوح من كل ذنب، ويشرع في قضاء ديونه إنْ كان عليه دين ويرد مظالم من ظلمهم أو يستبيحهم ويستسمحهم، ويرد الأمانات إلى من استودعوه إياها، ويعد نفقة الحج وزيادة عليها إن أمكنه ذلك ليتمكن من الصدقة ويترك لعياله من النفقة ما يكفيهم أثناء غيابه ليعفهم عن الحاجة والمسألة، وإذا كان موسرًا أنفق على الفقراء في بلده وفي مكة والمشاعر؛ لأن النفقة في الحج كالنفقة في الجهاد سواءً بسواء، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف**». هذا إلى أن الصدقة يدفع الله بها البلاء، ويكتب لصاحبها سلامة العودة ويلطف به ويقيه -بإذن الله- مصارع السوء.

**ثانيًا**: ثم يحرص أن يستصحب معه ما يجمل منظره ورائحته وشكله ويحقق طهارته ونظافته من سواك ومشط ومرآة وصابون جيد وطيب، يجود منها على رفقاه، وما أجمل أن يزيد في الطعام ليطعم السائق ومن لم يحضر طعامًا، فعليه أن يراعي السائق ويحسن إليه وخصوصًا إذا كان السائق هو صاحب السيارة، وعليه ألا يكثر من المتاع فيثقل عليها ويحتل مساحة كبيرة من حجمها. قال رجل لعبد الله بن المبارك -رحمه الله: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان بمكة، فقال له: أمهلني حتى أستأذن الجمال.

**ثالثًا**: فإذا توجَّه في سفره المبارك حفظ لسانه بحيث لا يصدر إلا عن الكلم الطيب وحفظ جوارحه بحيث لا تصدر إلا عن عمل صالح ليصعد إلى الله كلامه ويرفع إلى الكريم عمله، فيكثر من تلاوة آيات كريمة تذكره مكارم الأخلاق، يقول الله ﷻ: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي أثناء ذلك يكون قد اختار رفقاء صالحين يعينونه على الصلوات وبخاصة صلاة الفجر ويؤنسونه في سفره بالخلق الكريم والكلام المفيد والذكر والقرآن والعلم، ثم يختار هو ورفاقه من بينهم أميرًا عليهم يكون أكثرهم حلمًا وأوسعهم فقهًا وعلمًا وأرفقهم بالركب والصحب، وعلى الركب أن يطيع أميره كما على الأمير أن يرفق بكل فرد من الصحاب؛ لأن السفر يكشف معدن النفس، وقد قيل: إذا كان الإنسان طيب في السفر، فهو في الإقامة

أطيب، ومن أثنى عليه رفاقه في السفر فهو كريم الأصل والنفس.

وعلى الحاج أن يودع إخوانه وصحبه وآل بيته ويطلب منهم الدعاء كما يطلبونه منه، ويقول لهم ويقولون له عند الوداع: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، وما أجمل أن يأخذ معه كتبًا من الأدعية المأثورة يدعو بها في المناسك والمشاعر؛ لأن الإنسان قد ينسى كثيرًا من الأدعية فتعينه هذه الكتب على أن يظل وقته مملوء بالدعاء المقبول -إنْ شاء الله.

وفي أثناء طريقه كلها يذكر ربه عند كلِّ معلم من معالمها من جبل أو وادٍ أو مدينة أو قرية، وفي كل وقت من ليله ونهاره، وفي صبحه ومسائه، وفي غدوه وآصاله، متأملاً كل معلم وكل وقت، متصورًا فيها أنها كلها شواهد وحدانية ودلائل قدرة.

**رابعًا**: وعليه أن يتذكر قداسة رحلته في كل آونة ونبل هدفه، فيلبي تلبية الخاشع المطيع والسائل الملتمس قائلاً كما قال رسول الله ﷺ: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**»، وليعلم الحاج أن حجه ليس أمرًا سهلاً فهو ركن من أركان الإسلام، وأنه بالحج يكمل دينه وإيمانه، وأن هذا الحج يثبت إيمانه وتوحيده ويحرسه من مزالق الكفر. قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي: «**من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام فلم يحج، فلا عليه أن يموت يهوديًّا أو نصرانيًّا**». ذلك أن الله يقول: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧]، وفي الأثر: «**إن الله ﷻ يغفر لكل وفده، وقد قيل ما حجوا حتى أذن لهم، وما أذن لهم حتى غفر لهم**».

**خامسًا**: على الحاج أن يعرف كرامة منزلته عند الله، وأن يكون على مستوى الإكرام؛ إذ من العيب وسقوط المروءة أن يتحبب الله إليك بالنِّعم وتتمقت إليه بالمعاصي، ومن الغش اللئيم أن ترى ربك يباهي الملائكة بالحجيج وأنت تفعل فعل الشياطين، نعم إن من لؤم الطبع أن يحترمك الغني الحميد المنتقم الجبار وأنت تقابله وأنت العبد الضعيف بالاستهانة لأوامره ونواهيه والاستهتار بنعمه وآياديه.

**سادسًا**: الحاج يعلم أن كل مشعر من المشاعر له عند الله بركة وقداسة، فعليه أن يعرف سبب قداسة كل مشعر ليتمثل تلك القداسة كلما زار تلك الأماكن المباركة، وعليه أن يعلم أن

المسجد الحرام هو مثابة المسلمين وأمنهم ورمز وحدتهم على قبلتهم، وأن له ولزواره وعماره تشريفًا عند الله، وأن العبد مؤاخذ في الحرم حتى على نواياه ومجرد إرادته، فمن نوى في الحرم إثمًا أو ظلمًا ولم يفعله، فإنه يؤاخذ على ذلك وتعتبر مجرد النية جرمًا، لما لذلك المكان الطاهر من حرمة وقداسة عند الله.

**سابعًا**: وإذا كتب الله للحاج زيارة المدينة المنورة، فعليه أن يعتبر ذلك نعمة من ربه، وأن يتخذ من الزيارة فرصة يستعرض فيها صبر الرسول الكريم ﷺ وخلقه العظيم، وإذا تجول في معالم المدينة الكريمة فرأى جبل أحد والخندق تذكر تضحية رسول الله ﷺ بنفسه وماله ووطنه في سبيل الله، ويدعو له بأن يصلي الله عليه، ويبعثه مقامًا محمودًا، ويجزيه خير ما يجزي نبي كريم مجاهد عن أمته.

## (٤) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

إنَّ أكره ما يكرهه إبليس وأعوانه آثار الأنبياء والأماكن المقدسة، وذلك لأن هذه الأماكن الكريمة شهدت ذات يوم انتصار الأنبياء على الكافرين وظهور دين الله على كل دين، ثم هي لا تزال مهوى قلوب الصالحين وقبلة أنظار المؤمنين.

ومن أجل هذه الحقيقة ركَّز الكفر حقده على البلاد الإسلامية ليعيث في أقداسها ويدنس برجسه مساجدها معتقدًا أنه بهذا التدمير اللئيم يصرف المؤمنين عن دينهم ويشتت آراءهم ويفسد عليهم قلوبهم، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يردهم إلى دين الكفر.

ولقد قرأنا في كتب التاريخ مؤامرات الكفر على مسجد المدينة والحجرة النبوية المقدسة الطاهرة حتى إذا جاء العصر الحديث صبَّ الكفر جام غضبه على المسجد الأقصى مدعيًا أنه هيكل سليمان، ولما آنس من المسلمين ضعفًا وشتاتًا حجَّمَ هجمته الشرسة على الأرض المقدسة المباركة فقهر أهلها ومزقهم في بقاع الأرض ليخلو بالمسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ وأولى القبلتين فيحرقه أحيانًا وينجسه بالمعاصي أحيانًا أخرى، وكما حوَّل الحقد الصليبي المسجد الأقصى إبان الحروب الصليبية إلى إسطبلات ومرابط خيل ومخازن أسلحة، فقد حوَّله الحقد الصهيوني والصليبي في هذه الأيام إلى حفريات، وفتحوه لكل فاسق وفاسقة

ولكل مجرم ومجرمة يقترفون فيه المعاصي، ويحتقرون فيه تراث الإيمان ونُسَخَ القرآن، وما كان من ذنب للمسجد الأقصى والشعب المسلم من حوله إلا أنهم حافظوا على دينهم وتراثهم وأخلاقهم رغم أنف الاستعمار الإنجليزي المجرم والكيد اليهودي الخطير، حتى إذا فرغ الكفر من المسجد الأقصى واستولى عليه توجَّه إلى باقي ديار المسلمين؛ ليعيث فيها فسادًا فأوقد نار الحروب بين المسلمين ليبتز ثرواتهم ويفرق طاقاتهم ويمزق قدراتهم.

وهذا هو نفس ما فعله إبليس مع أبوينا آدم وحواء، فبعد أن أخرجهما من جنتهما بالقدس لاحقهما إلى جزيرة العرب؛ حيث طاردهما بالمكائد وسنَّ في أبنائهما سنن القتل والمعاصي، ولم يزل كذلك حتى عسكر لإبراهيم عليه السلام في الأماكن المقدسة وبثَّ حبائله من حوله ليصرفه عن إيمانه بربه وصدق ولائه وحبه.

إنَّ تخريب المسجد الأقصى وحرقه وهدم أساسه تهديد وإرهاص بالتآمر على الحرمين الشريفين، ومن هنا فعلى كل المؤمنين بالله وبخاصة حجاج بيت الله الحرام أن يتخذوا من لقائهم العظيم في رحاب البيت الحرام والمسجد النبوي فرصة ذهبية للرد على الكفر بضربة قاصمة كتلك التي تلقاها في بدر والأحزاب والفتح والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت.

إنَّ على الحجاج أن يتذكروا وهم في منازل الوحي الشريف مكائد الكفر وحبائله ومخططاته وأهدافه تلك التي حذرنا ربنا منها، فقال جلَّ من قائل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إنَّ الكفار لن يقر لهم قرار ولن تهدأ لهم ثائرة حتى يردونا عن الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، وما دامت نوايا الكفر قد افتضحت وأعلن عن مخططه الإجرامي الرامي إلى سحق الإسلام من النيل إلى الفرات، فإن على المسلمين والقادة بخاصة أن يجعل أعظم بند في جدول حجهم لقاءات

حافلة على مستوى القادة والشعوب يبحثون فيها دحر الكفر عن مقدسات الإسلام وإنقاذ المسجد الأقصى من براثن الأعداء اللئام، وما أجمل أن تكون اجتماعات القادة المسلمين في بيت الله الحرام أو في مسجد النبي -عليه الصلاة والسلام، وليس في هذا بدعة؛ لأن رايات الفتوح كان معقدها في المسجد طيلة العهد النبوي وعهود الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم.

وحين يجتمع القادة المسلمون في الحرمين الشريفين على نوايا الإخلاص والصدق وعلى كلمة الدين والحق، فإن غيرة الإيمان تثور في عزائمهم؛ لأن منظر الحرمين يذكرهم كيف جمع الإسلام شتات العرب وبعث فيهم روحًا من قوة الله بعد أن كانوا في الجاهلية أشتاتًا وأوزاعًا يضرب بعضها رقاب بعض.

ولقد أثبت التاريخ عبر حقبه المتتالية أن العرب لم يقدر على توحيدهم إلا الإسلام، وأن أي مبدأ غير الإسلام لم يزدهم إلا عداءً وشتاتًا، ثم إن اجتماعهم في المسجد يحيطهم بسور شامخ من أمجاد الإسلام وفتوحاته وأخلاقه، فتتقارب القلوب التي تآمر الكفر عليها، فمزق إخاءها وصفاءها، ليحطم على صخر التناحر قوتها ووحدتها.

إنَّ مؤتمر الحج الأكبر مخيف للشيطان، فما رُؤِيَ الشيطان أذل ولا أخزى ولا أضعف منه في يوم عرفة وفي لقاءات المؤمنين؛ لأنه يرى ضعف حيلته وانهيار قوته واندحار جنده في وجه ذلك السد الأعظم من عزائم الإيمان وطاقات المؤمنين وعظمة الإخاء.

وإذا كان ربنا ﷻ قد شرع الحج للمؤمنين ليشهدوا منافع لهم، فإن أعظم منفعة يمكن أن يحققها الحج لأمتنا في هذه الأيام هي أن يتخذ قادتهم من الوسائل ما يرفع فيهم أعلام الجهاد، ويبرم لأمتهم أمر الرشاد، ويمحو من صفوفهم أهل النفاق والإفساد ليقاتلوا الكفار كافة كما يقاتلوننا كافة، مبتدئين جهادنا بالذين يلوننا منهم ألا وهم اليهود وأعوانهم من الصليبيين، مستجيبين لنداء الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

إنَّ العدو يعاملنا بغلظة ونراه عيانًا يخطط لاغتصاب أوطان الإسلام وقتل عقيدته،

فلماذا لا نستفيد من حجنا وحدة الكلمة تحت لواء الجهاد، وننتهز مؤتمر الملايين من المسلمين وقادتهم لنلقن اليهود درسًا بأن إسلامنا الذي أعزنا الله به أول مرة قادر على جمعنا وتأليف قلوبنا في معركة اليوم لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولتكون العزة كما أخبرنا ربنا لله ولرسوله وللمؤمنين.

## العلاقة الوثيقة بين الحج والجهاد

لاحظ المفسرون لسورة البقرة أن الله ﷻ ذكر صوم رمضان في خمس آيات كريمات ثم أتبعها بآيتين، أولاهما تحذر من الرشوة والغش والغلول وأكل الحرام، والثانية تعلِّمنا أن نضبط أوقاتنا في صومنا وحجنا وتعاملنا، وأن نتعامل مع الناس في وضوح وصراحة بلا لبس ولا عوج ولا التواء، وهاتان الآيتان ليستا بعيدتين من الصيام؛ لأن الصيام والأخلاق متلازمان، ثم مضى القرآن الكريم ليتحدث عن الحج فذكر الحج في ثمان آيات، ولكنه قبل أن ذكر الحج تحدَّث عن الجهاد في سبيل الله وقتال المشركين في شدة جارفة وخصوصًا إذا كانوا هم البادئين بالعدوان.

وتساءل المفسرون: لماذا اتخذ القرآن هذا الترتيب، فذكر الصوم ثم أتبعه بخلاصة للأخلاق، وذكر الجهاد بعدئذ وأتبعه بذكر الحج؟ ولماذا لم يتحدَّث القرآن عن الحج بعد الصوم مباشرةً، فيوالي بين ركني الإسلام، وبهذا يكون السياق منسقًا ومنسجمًا؟!

والحقُّ أن إثبات آيات الجهاد بين الصوم والحج فيه إشارة عظمية البلاغة، وتعد في علم المعاني في قمة البلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين؛ لأنه لو ذكر الحج بعد الصوم وذكر الجهاد بعدئذٍ لفهم المستمع أو القارئ أن الجهاد عمل مستقل عن الصوم والحج، وليس هذا هو المقصود؛ لأن الجهاد هذا الثمرة العظمى للعبادة، فالصوم من دروس الجهاد وتدريب عليه والحج كذلك تدريب على الجهاد وهو مقدمة له وإعداد.

ومن هنا فالسياق بهذه الطريقة هو في أعلى قمة الاتساق والتنسيق والانسجام؛ لأن توسط الجهاد بين الصوم والحج يوحي بأن الجهاد هو سنام الإسلام وذروته، وأنه الهدف

المنشود من كل العبادات، وأن الصلاة والصوم والزكاة والحج ذات وظيفة واحدة ألا وهي تدريب الأمة المسلمة على التضحيات والوحدة الأخوية القوية تحت لواء الجهاد المخلص الذي هدفه أن تكون كلمة الله هي العليا.

إنَّ كُلا من الجهاد والحج رحلتان إلى الله ﷻ فالحاج والمجاهد شعارهما واحد، ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وكلاهما ملبٍّ لنداء الله -تعالى- ومضحٍّ في سبيله ﷻ، ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذه الحقيقة حين قال فيما رواه البخاري: «**أفضل الجهاد حج مبرور**»، وقال فيما رواه أحمد: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل بسبعمائة ضعف**».

ومن هنا؛ فإن الحاج الموفق المقبول -إنْ شاء الله- هو الذي اتخذ من حجه مدرسة لتلقي دروس الجهاد والتدرب على عظيم التضحيات وقهر دواعي الشهوات، وبهذا يحقق الحجيج ما عناه ربهم -جلَّ ثناؤه- في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

لقد قرن رسول الله ﷺ بين الحج والجهاد في كثير من أحاديثه، فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمان بالله**». قيل: ثم أيّ؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم أي؟ فقال: «**حج مبرور**».

وفي صحيح البخاري أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لكن أفضل الجهاد حج مبرور**».

وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله، دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم**».

وفي الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة؛ إذ وقع عن راحلته فأوقصته، أي: دقت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه بثوبه ولا تخمروا رأسه ولا تحنطوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا**».

ولم تكن مصادفة أن ذكر النبي ﷺ المسجد الأقصى في معرض الحج، ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وجبت له الجنة**».

وواضح أن في الحديث إشارة بأن على المسلمين أن يعرفوا تلك الرابطة المقدسة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ومن ثَمَّ أن يعملوا بكل قوتهم لحفظه كخط دفاعي قوي أمام الحرمين الشريفين.

وقد ذكر رسول الله ﷺ المسجد الأقصى، فقال كما جاء في سنن البيهقي: «**النعم المصلى في أرض المحشر والمنشر، وليأتينَّ على الناس زمان ولقيد سوط خير له من الدنيا جميعًا**»، وهو يعني عليه الصلاة والسلام بأن الأرض حول بيت المقدس سوف تصبح غالية أغلى من الدنيا جميعًا، ويزدحم الناس حول القدس بحيث تصبح رؤيتها أُمنية.

إنَّ هذه النصوص الكريمة تشير إلى أن ثمة علاقة قوية واضحة بين الحج والجهاد والمسجد الأقصى، والحقُّ أن الحج والجهاد والمسجد الأقصى أنوار من مشكاة واضحة إذا ذكر واحد منها ذكر الآخر، وكأن المسلمين مطالبون في كلِّ حج أن يطمئنوا على المسجد الأقصى.

ويبدو من سياق الأحاديث نبوءة كريمة بأن الكفر سيجعل المسجد الأقصى هدفًا لهجومه وعدوانه، وأن الصليبية والصهيونية لن يقر لهما قرار حتى تدمرا المسجد الأقصى، وذلك ما حدث في الحروب الصليبية قديمًا ومكائد الصهيونية وغدرها حديثًا.

وما دام الحج والجهاد متلازمين، فما أعظم أن يكون حج المسلمين مقدمة لخوض جهادهم في سبيل الله، وقد رأينا كيف اقترن الحج بالجهاد في أحاديث رسول الله ﷺ، ولا غرو فالحج جهاد؛ لأن فيه منذ اللحظة الأولى بعد نيته إحرامًا يُحرم فيه الحاج على نفسه الزينة، ويتوجه إلى رحاب ربه أشعث أغبر، ثم إن فيه الإتقان في سبيل الله، وفيه الرحلة الخالصة إلى الله، وفيه رياضية للنفس على تحمل المشاق والزحام، وفيه إخلاص النية لله وقطع علائق الشيطان وسد ذرائعه وفي مقدمتها الهوى والشهوات.

والحج بعد هذا وقبله مكارم أخلاق ووحدة أحباب وصدق عقيدة، وتلك أمور عظيمة أهملناها فخسرنا فيها معارك الشرف، وشهد كل المراقبين السياسيين والعسكريين أن هزائمنا كانت أخلاقية وعقيدية؛ لأن السلاح لم يكن ينقصنا أثناء القتال، ولكن الشيء العظيم الذي أعوزنا أثناء القتال كان العقيدة الصادقة التي هي أقدر قوة على توحيد صفنا وحراسة أخلاقنا.

# شرف المؤتمرات بشرف أهدافها

إنما يكون شرف المؤتمرات بشرف أهدافها، فلرب اجتماع تحفه الملائكة بأجنحة الرضا، ولرب مؤتمر تعمره الشياطين، وبهذا المقياس يكون أشرف مؤتمر تشهده الكرة الأرضية، بل وتشهده ملائكة السماء وهو موسم الحج؛ لأن أهداف الحج بفضل الله هي أسمى الأهداف، وكيف لا وقد حددها ربنا ﷻ في محكم كتابه فقال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

ومضى الحق ﷻ بعد ذلك يبيِّن أن من أهداف الحج أن نطعم البائس الفقير، بل وأن نطعم القانع والمعتر، وأن نعظم حرمات الله وشعائره ونشكره ﷻ على ما وهب لنا من نعمه.

وعلى الجملة، فحجاج بيت الله الحرام قد اجتمعوا في رحاب بيته لتحقيق توحيد الله وتوحيد كلمة المسلمين وتحقيق المساواة وبذل المعروف وتعظيم الحرمات والمشاعر والتشاور في كلِّ ما يعود على المسلمين من منفعة.

إنهم لم يجتمعوا لاستعباد الناس واستعمار بلادهم ومصادرة أموالهم وحرياتهم لذا كان مؤتمر الحج الأكبر هو أشرف اجتماع تشهده الإنسانية على كوكب الأرض.

إنَّ الحجاج وفود الله وفدوا على أكرم كريم وأنزلوا حوائجهم بخير مسئول وأعظم مجيب وطابوا وطاب ممشاهم وبوركت رحلتهم بأسمى الأهداف والنوايا.

**أولاً**: أما وقد انتهى ضيوف الرحمن من أداء مناسكهم وقضوا تفثهم وأوفوا نذروهم وطافوا بالبيت العتيق، فإني أوجه إليهم كلامًا مودعًا مواكبهم المباركة وقل لمثلهم أن يودع ومذكرًا لهم؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين.

**أخي الحاج**: إذا أردت أن تعرف هل قُبِلَ حجك وكرمت عند الله وفادتك، فانظر ما تركته رحلة الحج في نفسك، وتسأل: هل تعلمت مخافة الله على كل أحوالك؟ وهل تعودت التزام الحق ولو على نفسك؟ وهل ملأت قلبك بحب الله ورسوله والمؤمنين؟ وهل علمك الحج أن تضحي في سبيل الله وتتحمل الآلام في مرضاته؟ وأخيرًا هل قل حرصك على الدنيا وشحك بها فلم تجعلها بعد اليوم أكبر همك ومبلغ علمك، إذا كانت الإجابة عن هذه

بالإيجاب، فلتفرح بفضل الله ورحمته؛ لأن هذا أفضل الكسب وأعظم الخير.

**ثانيًا**: تذكر مشاعر الحج التي زرتها واستحضر صورتها في شغاف ضميرك؛ لأنها نعم الموقظ للمشاعر والمذكر بالفضائل، وكيف لا وهذه المشاعر هي سجلات أمجاد وربوع أخلاق جليلة ومسارح ذكريات نبيلة.. إنَّ البيت الحرام الذي حججت إليه وطفت حول كعبته وصليت في غالي رحابه هو أول بيت لله تشرف بالعبادة الجماعية لربِّ هذا الكون ﷻ.

الله أكبر!! كم هفت إليه قلوب الصالحين، وحَطَّتْ في رحابه قوافل المؤمنين، وعبقت مغانيه بشذى الدعاء، ترسله أفواه وضيئة طاهرة، كلمًا طيبًا يصعد إلى الله كأنه بخور الفردوس منبعث من نوافح الرضا والقبول؟!

الله أكبر!! كم نضحت من حوله دموع التائبين، وترددت في جنباته زفرات الأوابين؟!

**ثالثًا**: وتذكر أخي الحاج مسعاك بين الصفا والمروة وما بينهما من مسافة طويلة وأنك سعيتها على أرض مبلطة مظللة مطمئن غير والهٍ ولا مروع، لكن أمك هاجر ركضت أشواطها السبعة على أرض وعرة وهي مروعة على ابنها الظمآن المشرف على الموت، لكنها رغم ذلك كانت مؤمنة واثقة برحمته مؤملة فرجه القريب، فتجد فرحتها حين نزل الفرج من عند الله ونبع الماء من تحت قدم الوليد المبارك، فأروى العباد وعمَّر البلاد.

تذكر -يا أخي- درس السماء للأرض بأن الكريم ﷻ لا يخيِّب قاصديه ولا يرد سائليه، وأنه إذا أمر فأمره الحق وقضاؤه الحكمة والعدل.

لقد كانت هجرة تلك الأم ووليدها مأساة في ظاهرها، ولكنها حين علمت أنها بأمر الله أيقنت أنه ﷻ لن يضيعها وطفلها، فكان أن عمرت مكة وارتوى أهلها، وقدر للوليد الذي أشرف على الهلاك أن يكون جد محمد ﷺ، وللأم الوالهة أن تصبح جدة أشرف الخلق ﷺ وإمام الدنيا وصاحب الشفاعة العظمى، فيا لها من حكمة باهرة وقدرة قادرة، ورواية ماجدة خالدة أولها شيخ يسكن صاحبته وطفله بوادٍ غير ذي زرع، وختامها خاتم الأنبياء منحدرًا من أشرف الأصلاب وأطهر الأرحام.

**رابعًا**: الأسوة -يا أخي الحاج- لا يلتمسها أمثالك في شرقي يلحد في آيات ربه ولا غربي غارق في مستنقع ذنبه.. إنَّ قدوة المؤمن -يا أخي- هو رسول الله ﷺ الذي قصَّ الله

عليه أنباء الرسل ثم قال له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، واقتدى بهم رسول الله ﷺ، فجمع في أخلاقه كل فضائل الرسل، واجتمع له في كتاب كل مناقب الكتب المنزلة، فكان أكرم رسل الله، وكان الكتاب الذي أنزل عليه مهيمن على كلِّ الكتب السماوية، وأمرنا ربنا ﷻ أن نجعل محمدًا ﷺ أسوتنا، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أمرنا ﷻ أن نتأسى بإبراهيم حنيفًا، ومعنى كلمة (حنيفًا) أنه كان مقيمًا وجهه للدين القيم غير ملتفت لأي شرك، ولا غرو فمحمد ﷺ بعث بملة إبراهيم الذي سمّانا بالمسلمين من قبل، وإبراهيم خليل الرحمن كان أشبه الرسل بمحمد ﷺ، فلا عجب أن يأمرنا ربنا بالاقتداء بإبراهيم، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فما أجمل أن تعود -يا أخي الحاج- وقد أعرضت عن كلِّ تقاليد الكفار واتبعت سبيل الحنفاء والأبرار.

**خامسًا:** وأخيرًا تذكر -يا أخي الحاج العائد- أن أمتنا الآن تعيش مرحلة ضياع انتهزتها قوى الشر، فتداعت علينا كما تتداعى الأكلة على قصعتها، ودنست تراثنا وعاثت في أقداسنا، ونحن كثير، ولكننا غثاء كغثاء السيل، لما ابتلينا به من الوهن الذي أوقعنا في حب الفانية وكراهية الموت، والربوع الغاليات التي زرتها شهدت أعظم نماذج الجهاد والتضحية متمثلة في جهاد محمد ﷺ، ذلك الذي علَّم الدنيا كلها روائع الصبر والاحتساب واحتمال الأذى، كذلك تذكرك بجهاد إبراهيم عليه السلام ذلك الذي همَّ في مرضاة ربه أن يذبح ولده الحبيب وصفيه البر المطيع، وحسبك أن تعلم أنه تله للجبين حتى لا يرى أثناء الذبح وجهه الحبيب الوسيم، فيعطف عليه ويكف عن ذبحه، ثم لما أدنى عنقه من السكين تذكر أن هذا الغالي سيكون كفنه صعبًا إذا ذبحه بملابسه، فخلع عنه القميص حتى لا يتلوث الكفن بالدم، ونظر بين قدميه ليضع القميص وإذا ذبح عظيم وفداء كريم وهاتف يهتف به أن يا إبراهيم قد صدَّقْتَ الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين.

## (١) آداب السفر

في هذه الأيام المباركات تكثر الأسفار لقرب الموسم المبارك ومقدم الحجيج، ومن أجل ذلك خصصت هذه الحلقة لآداب السفر كما ورد في كلام النبي ﷺ وفي سيرته وسنته لعل الله يبارك للمسلمين في أسفارهم ويحفظهم في حلهم وترحالهم، ويحميهم من الأسفار الآثمة والنوايا القاصرة.

**أولاً**: من آداب السفر أن يختار المسافر رفقة كريمة يعينونه على العبادة، ويوقظونه لصلاة الفجر، ويساعدونه إذا اعتل، أما من يسافر وحده فلا يلومن إلا نفسه إذا تجهمت له الطريق ولم يجد في الشدائد عون الصديق، قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده**».

وروى أبو داود والترمذي النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب**»، وهو يعني أن الراكب والراكبين يعرضان أنفسهما لمخاطر الطريق، وربما أصيبوا ففتنتهم الشياطين، أما حين يكون المسافرون ثلاثة من الرفقة، فهم عندئذٍ ركب أي قافلة مباركة متعاونة على الخير.

**ثانيًا**: يجب أن يكون للقافلة أمير مؤمن حكيم رفيق عادل؛ لأن قوم بلا قائد يكونون نهب للخلافات والغوغائية وشتات الرأي والجدل، فالإسلام دين الانضباط والنظام والتعاون.

**ثالثًا**: من آداب المرأة المسلمة ألا تسافر إلا مع ذي محرم، وألا تخالط الرجال أو تخلو بهم مهما طال السفر وبعدت الشقة، يقول رسول الله ﷺ: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم**». فقال رجل: يا رسول الله، إنَّ امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال له الرسول الكريم: «**انطلق، فحج مع امرأتك**».

**رابعًا:** وعلى المسافر أن يعتني بصحته ليقوى على وعثاء السفر، فعليه ألا يصوم في السفر وحالًا يقضي مأموريته عليه أن يعود إلى أهله لينعم في كنفهم ويستريح من متاعب السفر.

**خامسًا:** وعلى المسافر أن يطلب الدعاء من أهله ومن الصالحين، ففي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ كان يأتيه العازمون على السفر فيدعو لهم ويقول: «**زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسَّر لك الخير حيثما كنت**».

**سادسًا:** وعلى المسافر أن يداوم الذكر والعبادة في السفر، وأن يشغل لسانه بذكر الله، كلما تقلبت به الطريق بين سهل ووعر ومرتفع ومنخفض، وفي الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد**»، وإذا رجع قالهن وزاد قوله: «**آيبون تائبون لربنا حامدون**».

**سابعًا:** وينبغي على المسافر أن يجلس إلى العلماء قبيل سفره، ويطلب إرشادهم ووصاياهم؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني، فقال له: «**عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف**»، فلما ولى الرجل قال ﷺ: «**اللهم اطو له البعد، وهوِّن عليه السفر**».

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة أن يقولوا: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [هود: ٤١]، ثم يتلو قوله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الزمر: ٦٧]».

**ثامنًا:** هذا، والمسافر المؤمن يكثر الدعاء لنفسه ولأهله ولإخوانه؛ لأن دعوة المسافر تستجاب بإذن الله لما يعانيه من بُعده عن أهله وتعبه وانكسار قلبه، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «**ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**».

**تاسعًا:** وعلى المؤمن قبل سفره أن يزور أعزاءه ليودعهم ويودعوه ويقولوا له: «**نستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»، وهو الدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ للمسافرين من أصحابه ولجيش المسلمين.

**عاشرًا:** وإذا كتب الله للمسافر سلامة العودة، فعليه ألا يطرق أهله ليلاً حتى لا يزعجهم ويشتت نومهم، ولكن يطرقهم بالغداء أو بعد العصر، ثم عليه إذا وصل أن يبدأ بالمسجد قبل أن يدخل بيته فيصلي فيه ركعتين.

**حادي عشر:** وإنَّ من أهم آداب السفر أن يصحب المؤمن في قلبه أطهر النوايا، فيجعل سفره لله أو لما يرضي الله من الرزق الحلال أو زيارة الصالحين أو الحج أو العمرة لينال بصدق نيته مثوبة الله وكريم أجره؛ إذ الأعمال بالنيات، ولكلِّ امرئ ما نوى.

**ثاني عشر:** إن من يسافرون في الصيف طلبًا للجو المعتدل والمنتجع السياحي يحملون في أعناقهم أمانة الله ألا يخالطوا العصاة ولا يوردوا أماكن الفاحشة، ولا يتجولوا بأولادهم وبناتهم في مواطن الريبة والمعصية، عاملين بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦]، وقول رسول الله ﷺ: «**كلكم راعٍ مسئول عن رعيته**».

## (٢) آداب السفر

السفر نشاط إنساني قد لا يستغني عنه إنسان، وهو في الوقت نفسه ضرورة حيوية قد يفرضها طلب العلم أو الرزق أو صلة الرحم، وقد ندب ربنا ﷻ إلى السفر الذي يوسع الأفق ويفيد الاعتبار، قال جلَّ من قائل: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الأنعام: ١١]، وقد كرَّر ﷻ الحث على السفر في القرآن في بضع عشرة آية كريمة بصيغ متنوعة، كقوله ﷻ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ [محمد: ١٠]، وقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الروم: ٩]، وقوله: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الروم: ٤٢]، والسبب أن السفر يطلع الإنسان على المزيد من ملكوت الله، فيزيده بذلك يقينًا وإيمانًا، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٥].

والسفر إذا كان لطلب الحلال من الرزق أو المفيد من العلم، أو الجهاد في سبيل الله، أو زيارة الصالحين، أو توسيع الأفق والاعتبار.. كان عملاً صالحًا يجعل المسافر ذا منزلة عند الله تستجاب دعوته، ويكتب إذا توفاه الله مع الشهداء.

**وهذه بعض الأحاديث الكريمة في آداب السفر نسوقها لكلِّ مسلم تعوَّد السفر أو يستعد له:**

١- قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**».

٢- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن الناس يعلمون ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده**».

٣- وروى الإمام مالك وأبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب**».

٤- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خرج ثلاثةٌ في سفر فليؤمروا أحدهم**».

٥- وفي صحيح الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ نهى من ينام ليلاً وهو مسافر أن يبيت في الطريق؛ لأنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل، وألا يعدوا المنازل.

٦- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة وليس معها ذو محرم**».

٧- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ نهى عن ركوب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو؛ لأن تحت البحر نارًا.

٨- وذكر البخاري أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد من سفر وخرج إليه صبية من أهل بيته أردف بعضهم بين يديه وبعضهم خلفه.

٩- وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ مرَّ على قوم وهم وقوف على دواب ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله**».

١٠- وفي صحيح الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد من السفر وأشرف على

المدينة قال: «آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ».

١١- وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا»، ولأحمد أيضًا: «ما من خارج يخرج من بيته إلا ببابه رايتان: راية بيد ملك وراية بيد شيطان، فإذا خرج لما يحب الله ﷻ اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإذا خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته».

١٢- وجاء أن رسول الله ﷺ قال: «ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعها عندهم حين يريد سفرًا»، وأن رسول الله ﷺ كان يودِّع إخوانه إذا سافر ويقول لمن يخلف: «استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»، وقد يقول: «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك».

١٣- وروى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال لعمر وهو يودِّعه: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»، وكان عمر ﷺ يقول كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا.

١٤- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال».

**أولاً:** السفر سلاح ذو حدين، فيكون بعض السفر ثوابًا وقربى إلى الله، ويكون بعضه إثمًا وبعدًا عن الله، ولذا كان أول أدب السفر أن يكون سفرًا مفيدًا في طلب العلم أو الرزق أو عمل الخير، ومن سافر على نية معصية الله كما يفعل في هذه الأيام بعض من لا خلاق لهم، فرفيقه الشيطان ومصيره الخسارة والخذلان، إنَّ الذي يسافر ليعصي الله إذا أتته مصيبة الموت مات ملعونًا؛ لأن المعاصي تنقص الإيمان وتلطخ القلوب بران الذنوب.

**ثانيًا:** ومن آداب السفر هذه المجموعة من الفضائل التي تجعله بأمر الله سفرًا مباركًا:

فمن ذلك أن يرد من أراد السفر مظالم الناس، ويقضي ديونه، ويودِّع الأهل والأصدقاء،

ويطلب منهم صالح الدعاء، ومن ذلك أن يختار الرفقة الصالحين في السفر؛ لأن المرء قوي بأخيه، ولأن الرفقة الصالحة تعين على الخير، وتحمي بإذن الله من الشر، ومنها أن يكثر الأدعية في كلِّ أحوال السفر، فيدعو بالأدعية المأثورة عند الركوب، وإذا أدركه الليل، أو نزل منزلاً، وإذا أشرف على قرية، أو أدركه السحر، وإذا علا شرفًا أو هبط واديًا أو ركب سفينة، ومنها أن يستصحب معه ما يفيده كالأدوية والضمادات والسواك والمشط والمرآة، وما يحدد القبلة، وأن يزوِّد ببعض الطعام وعذب الشراب.

ومن آداب السفر أن يؤدي الصلوات ويتحرى أوقاتها، ولا بأس أن يقصر ويجمع واثقًا بعطاء الله وعفوه.

ومن آداب السفر إذا أقام المسافر ليلاً أن يبتعد عن الطريق وعن الجحور، وأن يحذر الأفاعي والهوام، وإذا كان المسافرون جماعة؛ فعليهم أن يؤمروا أحدهم حتى لا يضيع وقتهم بالجدال.

ومن آداب السفر ألا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، وألا تخلو فيه بأجنبي.

ومن آداب السفر أيضًا أن يكرم ركوبته ويتفقدها بما يصلح شأنها سواءً أكانت حيوانًا أو سيارة.

ومنها أن يصلي ركعتين قبل السفر مباشرةً ويدعو الله ﷻ بالتسهيل وبدعاء السفر الوارد في الصحيح.

وإذا عاد من السفر واستقبله الصبية أن يركبهم في سيارته، ويرحب بهم ويفرحهم، وألا يطرق أهله بليل؛ لأن ذلك يفوِّت على الصبية فرحتهم، ولا يتيح لزوجته أن تصلح من شأنها، ولعل أعظم آداب السفر الابتعاد عن معصية الله، والإكثار من فعل الخير.

* * *

## آداب الحج

الحج دورة دراسية دينية وعلمية وأخلاقية ينتظم فيها الصالحون، فيخرجون منها بإذن الله وقد اكتسبوا منافع لا تحصى، وقد سبق أن أسلفنا أن أركان الإسلام جميعها لها ثلاثة أهداف كبرى إذا تحققت كانت العبادة ذات حياة وروح، وإذا لم تحصل هذه الأهداف تحولت العبادة جسدًا ميتًا بلا روح، وتلك الأهداف هي تحقيق كلمة التوحيد وتأكيد وحدة الكلمة وغرس مكارم الأخلاق.

إنَّ كلا من الصلاة والصوم والزكاة والحج توحيد لله وتحقيق لكلمة لا إله إلا الله، ثم هي جمع كلمة المسلمين حول شعار الإخاء والرحمة والمحبة والوحدة، وهي بعدئذٍ دروس إخلاص تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعود الصبر، وتطهر النفوس من البخل.

أما الحج الذي نحن بصدده؛ فهو كما وصفه ربنا ﷻ موسم أخلاق، يقول ﷻ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ﴾ [البقرة: ١٩٧].

**وهذه أحاديث كريمة في آداب الحج نسوقها لإخواننا الحجاج سائلين الله لنا ولهم الرحمة والسلامة والقبول والعتق من النار:**

- وروى الإمام أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله.. الدرهم بسبعمائة ضعف**».

- وجاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**إذا خرج الحاج حاجًّا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز (أي: الركاب)، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك ناداه منادي من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور**».

- وفي الصحيحين: «**إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**».

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**».

- وفي صحيح رزين أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: عليَّ حجة الإسلام، وعليَّ دين، فقال له رسول الله ﷺ: «**اقضِ دينك**».

- وفي سنن النسائي وابن ماجه: «**الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروا غفر لهم**».

- وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله ﷻ يباهي بالحاج الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا من كلِّ فجٍّ عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم**».

**أولاً**: كان العرب في الجاهلية يحجون؛ لأنهم كانوا على بقية محرفة من ملة إبراهيم، ولكن طريقتهم في الحج كانت صورة مشوهة، فكان طوافهم حول البيت الحرام صفيرًا وتصفيقًا، فجاء الإسلام وجعل الطواف ذكر ودعاء وخشوع.

وكان سدنة البيت يفرضون على الحاج أن يلبس لطوافه ثوب من ثياب الحمس (أي: قريش وسكان مكة)، وإن لم يحصل على ثوب؛ فعليه أن يطوف عاريًا، فكان بعض الحجاج من رجال ونساء ربما يطوفون حول البيت عراة في منظر لا يرضي الله تعالى، فجاء الإسلام وألغى ذلك المنظر القبيح، فقال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١]، واستنكر فعل الجاهلية بالعري أثناء الطواف، فقال ﷻ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]، ونادى عليٌّ ﷺ في حجة أبي بكر ألا يطوفن بعد اليوم بالبيت عريان.

وكان كثيرٌ من شباب الجاهلية إذا حجوا لم يلتزموا بوقار هذه العبادة وفضائلها، فكانوا يرفثون ويفسقون ويتجادلون ويتنافرون ويتفاخرون بقبائلهم، فجاء الإسلام الحنيف يصف تلك العبادة ويغسل وجهها ليصبح وضيئًا جميلاً، فكان قوله تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومما أصلحه الإسلام من مفاسد فعل الجاهلية في الحج؛ حيث إنه حثَّ الحاج على أن يتزود ما يكفيه من زاد، وألا يعتمد في رحلة حجه على التسول والاستجداء كما كان يفعل كثير من الحجاج؛ إذ يحضرون إلى مكة بلا زاد معتمدين على الشحاذة، فقال تعالى: ﴿**وَمَا**

﴿تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: اجمعوا بين زاد البدن من طعام وشراب وزاد الروح من تقوى وعبادة.

ومما أصلحه الإسلام من أفعال الجاهلية أن ألغى المنافرة والتفاخر بالآباء، وأحل محلها ذكر الله وتعظيمه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وكان لقريش مكان خاص يفيضون منه من عرفات، فمحا الإسلام تلك الأرستقراطية، وقال لهم الله في محكم آياته: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠].

**ثانيًا**: ومن آداب مَنْ أراد الحج أن يَتجرَّد للخدمة في خشوع وإخلاص، وألا يغلو في التأنق والزينة، وأن يحج من مال حلال ونفقة طيبة، وينبذ من قلبه كل رياء وسمعة وتفاخر، ثم عليه أن يتذكر بأعمال الحج ومناسكه وأماكنه ما كان من سيرة إبراهيم عليه السلام وآل بيته، فإذا توجه إلى الحج ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ليقيموا الصلاة، وكيف أطاع أمر ربه، فلم يتساءل أو يجادل، واستسلم لأمر الله؛ إذ يترك طفله وزوجته وهما أغلى الناس ممتثلاً لأمر ربه.

ثم إذا أحرم وتجرَّد من ثيابه تذكَّر كفنه ومبعثه إلى ربه؛ إذ يقول تعالى للخليقة يوم الحشر: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

وإذا لبَّى جعل تلبيته استجابة لأذان إبراهيم عليه السلام بالحج؛ إذ قال له ربه ﷻ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وإذا طاف بالبيت تذكر أنه أول بيت وضع للناس مخصصًا لعبادة الله -تعالى- وذكره، وكيف اندثر فرفع إبراهيم وإسماعيل قواعده بسواعدهما المؤمنة على التقوى وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وإذا صلى بمقام إبراهيم عليه السلام تذكر جلده وهو شيخ على عملية البناء والمشقة في سبيل الله وهو يبني مع ابنه بيت الله المعمور ويرفع قواعده، وأثناء طوافه بالبيت يتذكر أن يجعل

مركز السعي ومنطلق التوجه رحاب الله ﷻ، فإذا سعى تذكر ما تحملته أم إسماعيل -رضي الله عنها- من رهب وخوف ورهق وحزن وهي تركض تلتمس الري لوليدها، وتتحمل ركض تلك المسافة إرضاءً لله الذي جعل خاتمة سعيها ذلك الفرج والفرح.

وإذا شرب من ماء زمزم تصوَّر أن ذلك الماء كان مظهر رحمة الله واستجابة لتضرع أم إسماعيل، فهو بإذن الله شفاء وهو لما شرب له.

وإذا وقف بعرفة تذكر الموقف بين يدي الله يوم تعنوا الوجوه له، وتخر الجباه، ثم إذا رمى الجمار بـ«منى» تذكر أنها تحدٍّ للشيطان وإهانة له وقطع علائقه ورد على مكائده ووساوسه.

## أهداف الحج

حين ذكر الله ﷻ حكمة الحج لخصها في إيجاز بليغ، فقال ﷻ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨]، وقد جاءت كلمة «منافع» جمعًا على صيغة منتهى الجموع، وجاءت نكرة لتفيد الشمول والعموم، وبذلك يكون معنى الآية الكريمة ليحضروا في الحج فيحققوا جميع المنافع التي تصلح شأن المسلمين في معاشهم ومعادهم، في أنفسهم ومجتمعهم، وفي حربهم وسلمهم، وفي سرائهم وضرائهم.

إنَّ بعض الحجاج إذا حدثك عن حجته أدركت من حديثه أنه عاد بحصيلة ضخمة من المغامرات، كيف زاحم حتى شقَّ طريقه إلى الكعبة وقبَّل الحجر، وكيف ناضل حتى حصل على ضعف مضاعف من الطعام والثلج والماء، وكيف كافح كفاح المغاوير، فاقتحم المطاف والطائفين، وترك بعضهم يموج في بعض، ويمضي فيحدثك عن مهارته في احتجاز فراغ حول خيمته، وما كان له من انتصار في مجادلته، وكيف أفحم المناظرين وأسكت المناقشين إلى آخر تلك المغامرات التي لم تخلُ من مشاغبة وشدة وعنف ضاعت معها فضائل الكرم والإيثار واللين والرفق وروح الحب والتعاون على الخير.

وهذه بعض كلمات ومواقف الرسول ﷺ تشتمل على ما يمكن أن يحققه الحج من منافع لأمة محمد ﷺ.

- جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**، وفي الصحيحين أيضًا: **«الحج المبرور (أي: الخالي من المعاصي واللغو) ليس له ثواب إلا الجنة»**.

- وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله»**.

- وفي صحيح مسلم من الحديث الطويل الذي وُصِفَتْ فيه حجة رسول الله ﷺ أنه خطب المسلمين في مواقف مختلفة من المشاعر، ففي يوم عرفة خطبهم بمسجد نمرة قبل صلاتي الظهر والعصر اللتين صلاهما قصرًا وجمعًا هناك، وخطبهم قبل ذلك عند الكعبة يوم السابع من ذي الحجة بعد صلاة الظهر، كما خطبهم يوم النحر، ثم خطبهم خطبة رابعة يوم الثاني عشر من ذي الحجة.

- ومن حديث لجابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«هذا البيت دعامة الإسلام، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونًا على الله إنْ قبضه أن يدخله الجنة وإنْ رده بأجر وغنيمة»**.

- هذا، وقد كان رسول الله ﷺ كما جاء في أحاديث متفرقة طيلة وقوفه في عرفة محافظًا على الطهارة الكاملة مستقبلاً القبلة معظم الوقت يكثر من الدعاء والاستغفار والذكر يدعو لنفسه ولغيره من المسلمين بما شاء من أمر الدنيا والدين يقرن كل هذا برفع اليدين إلى الله وبحضور القلب وخشية الله، وكان يكثر من قول: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وكان ذكر الله والثناء عليه ربما شغلاه عن الدعاء واثقًا من أن الله ﷻ هو أعلم بحوائج العبد من العبد نفسه، ويقول في هذا فيما يرويه عن ربه: **«إذا شغل عبدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**.

- وفي سنن أبي داود والأدب المفرد للبخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه»**.

- وروى أصحاب السير والحديث أن النبي ﷺ أرسل عليًّا ﷺ في الحجة التي كان أميرها أبو بكر ﷺ فأعلن على رءوس الأشهاد أنه لا يحج بعد ذلك العام مشرك، وألا يطوف بالبيت

عريان، وأعلن أن كل مشرك لديه مهلة أربعة أشهر ليعود إلى مأمنه في قومه، ثم لا يكون له بعد ذلك عهد رسول الله، ثم قرأ على الناس سورة «التوبة» التي ركَّزت على قتال المشركين وفضحت المنافقين واتسمت بالقوة وخلعت قلوب الأعداء.

- وذكرت الأحاديث الصحيحة والسير ما جاء من أعمال النبي ﷺ في حجة الوداع، وكيف علم الناس مناسكهم وبيَّن في خطبة الوداع الأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي المتكافل من العدل والمساواة والخير.

**أولاً**: من أعظم آداب الحج أن يحاول كل حاج غاية جهده تحقيق المنافع الكبرى التي ذكرها ربنا سبحانه للحج على كل المستويات الأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية في إطار من الإيمان والعمل الصالح.

**ثانيًا**: لا يجوز أن يمر مؤتمر الحج الأعظم وهو الذي يضم الملايين من المؤمنين وقادتهم دون أن يبحث قضايا المسلمين، وكيف لا وهو أشرف مؤتمرات الأرض وأكثرها عددًا وأطهرها رجالاً، ويقيني أن الدولة المضيفة لوفود الحج تهيئ كل الظروف للقاء القادة والمسئولين والوفود ليكون أمرهم شورى بينهم، وليشهدوا منافع لهم، وليوحدوا تحت لواء الإيمان صفوفهم.

**ثالثًا**: من المعروف أن رسول الله ﷺ كان عظيم الحنين إلى مكة والمسجد الحرام خاصة، وكان يحلم برؤيتها وزيارة مسجدها ويقلب وجهه في السماء، ويسأل الله ألا يحرمه من ترابها الغالي، ولما أتم الله له فتحها كان أكبر همه أن يحقق منافع الحج فيها ويزيد مسجدها وعماره تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا.

ولقد تمت على عهد رسول الله ﷺ حجتان الأولى بإمارة أبي بكرؓ، والثانية حجة الوداع التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه، وقد حقق ﷺ فيهما أكبر قدر من منافع الحج حين أرسل عليًّاؓ في آثار أبي بكر وتحت إمرته ليعلن موقف الإسلام الصريح من المشركين والمنافقين، وليؤذنهم بحرب من الله ورسوله، وليضع حدًّا لعهودهم ومواثيقهم حالما تنتهي مدتها، وليطهر المسجد الحرام من المناظر المؤذية كالتعري أثناء الطواف والتصفيق والصفير حول الكعبة، أما في حجة النبي ﷺ وهي حجة الوداع فقد خطب عليه الصلاة والسلام خطبته

التي رسمت لأمه محمد طريق الفوز والنصر والسعادة ومنهج العدل والمساواة والإحسان.

إلى جانب ثلاث خطب أخرى في ثلاث مناسبات كريمة علَّم الناس فيها مناسكهم بالقدوة الحية والتدريب العملي.

**رابعًا**: وما دامت الحكمة الكبرى من الحج هي توحيد الصف الإسلامي في ظلال التوحيد الخالص والإخاء المؤمن والأخلاق الفاضلة، فما أجمل أن يعود الحاج برصيد ضخم من مواقف الإحسان وصنائع المعروف ومعاونة الضعفاء، وأن يسأل عن أحوال إخوته المسلمين في شتى أقطارهم، ويتعرف إلى معاناتهم لتظل أمتنا كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

## أثر الحج في نفوس الحجاج

الحجاج في هذه الأيام المباركات قد انتهوا من أداء مناسكهم وقضوا تفثهم ووفوا نذورهم وطافوا بالبيت العتيق ومضت وفودهم الكريمة في طريق العودة المباركة واثقة بكرم الله وعطائه ومثوبته وحسن جزائه.

أسأل الله أن يجعل حجهم مبرورًا وسعيهم مشكورًا، وأن يرعى إيابهم ولا يصرمهم أحقابهم.

وما دام الحجيج هم وفد الله فهم إذن الله أكرم وفود الأرض؛ لأنهم وفدوا على أكرم كريم ورفعوا دعائهم إلى خير مسئول وأعظم مجيب، فطابت رحلتهم بأسمى الأهداف، لا يبتغون إلا رضاه ولا يطلبون إلا رحمته وهداه، وأملنا في الله أن يستقبلهم في الآخرة مع المتقين المقبولين الذين يقول الله فيهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقد رأيت أن أوجه الكلام في هذه الحلقة إلى ضيوف الرحمن مودعًا لمواكبهم وقل لمثلهم أن يودع، ومذكرًا لهم لأن الذكرى تنفع أمثالهم المتقين.

**أولاً**: إذا أردت -يا أخي الحاج- أن تعرف مقدار القبول لحجك، فانظر ما تركته رحلة الحج في نفسك، واسألها دومًا: هل تعلمت مخافة الله على كل أحوالك؟ وهل تعوَّدت التزام

الحق في كل أقوالك وأعمالك؟ وهل ملأت قلبك بحب الله ورسوله والمؤمنين؟ وهل قل حرصك على الدنيا، فلم تجعلها من اليوم أكبر همك ومبلغ علمك؟ وأخيرًا هل تعلمت من دروس الحج أن تضحي في سبيل الله، وتتطلع في شوق إلى الجهاد في سبيله ونصرة دينه وكتابه وبذل كل غالٍ لإعلاء كلمته؟

فإذا آنست من نفسك استفادة من أيام الله فلتفرح بفضل الله وبرحمته؛ لأنها عندئذٍ أمارة القبول من الله وعلامة الرضا والكرامة، وتلك أجل ما يدخره الإنسان، وأبقى على الدهر من ملك سليمان؛ لأن الحياة الدنيا تموت غدًا والحياة الآخرة لا تموت أبدًا.

**ثانيًا:** مشاعر الحج التي زرتها وصليت فيها وأسمعتها ذكر الله هي -يا أخي الحاج- سجلات أمجاد ومرابع أخلاق ومسارح ذكريات؛ فالبيت الحرام هو أول بيت من بيوت الله تشرف بالعبادة الجماعية لرب هذا الكون، والتقت من حوله قوافل المؤمنين، وهفت إليه قلوب الصالحين، وجاءته وفود الله رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق.

الله أكبر!! كم لانت صخوره لذكر الله، وخشعت أرجاءه لهتاف الأولياء، وازدان واديه بقسمات التائبين، وعبقت مغانيه بشذا الدعاء منبعثًا من أفواه وضيئة طاهرة يرفع الله منها الكلم الطيب إلى سمائه، كما تفوح نوافح المسك والعود من مجامرها المطهرة.

الله أكبر كم غسلت أرجاءه دموع التائبين، وكم ترددت في جنباته زفرات الأوابين.

**ثالثًا:** وإذا مر بخيالك طيف الصفا والمروة وما بينهما من مسعى طويل، فتذكر أمنا هاجر -رضي الله عنها- والهة على وليدها مشرفًا على الموت واثقة بربها ومؤملة في وجهه الكريم أن يفرِّج الكرب ويسوق الفرج القريب، فيا لفرحها حين نزل الفرج من عند الله بسقي الناس من تحت قدم الوليد المبارك ﷺ. هنالك كان درس السماء إلى الأرض بأن الكريم لا يخيِّب قاصديه ولا يرد سائليه، وأنه إذا أمر فأمره الحق وقضاؤه الحكمة.

لقد كانت هجرة تلك الوالدة وابنها مأساة في ظاهرها ولكنها حين علمت أنها بأمر الله أيقنت أنه لن يضيعها وطفلها، وكذلك كان حين عمرت مكة بماء زمزم وقُدِّر للوليد الذي أشرف على الهلاك أن يكون جد محمد ﷺ، وللأم الوالهة في بيئة العمل والظمأ أن تصبح جدة محمد ﷺ صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة.

فيا لها من حكمة باهرة!! ويا لها من قدرة قادرة!! ويا لها من رواية ماجدة خالدة، أولها شيخ يسكن طفله الوحيد وزوجته البرة بوادٍ قاحل غير ذي زرع، وختامها خاتم الأنبياء وسيد الرسل الكرام منحدرًا من أشرف الأصلاب وأطهر الأرحام.

**رابعًا:** والأسوة -يا أخي الحاج- لا يلتمسها مثلك من شرقي ينكر وجود ربه أو غربي غارق في مستنقع ذنبه. إن قدوة المؤمن أنبياء الله كما قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام: ٩٠]، وكما أمرنا القرآن أن نجعل محمدًا ﷺ أسوتنا فقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم عليه السلام حنيفًا يبرأ من كل شرك ومشرك، يقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤]، ولا غرو فمحمد ﷺ جاء بملة إبراهيم عليه السلام وهو الذي سمَّانا المسلمين من قبل، والحق أن إبراهيم عليه السلام كان أشبه الرسل بمحمد ﷺ كما أخبرنا نبيُّنا في حديث الإسراء والمعراج.

وما أجمل أن يعود حجاج بيت الله حرام فيجعلوا أول أعمالهم نبذ تقاليد الكفار ومبادئهم، ويرسموا لأنفسهم أشرف أسوتين في أبينا إبراهيم عليه السلام وفي رسولنا محمد ﷺ.

**خامسًا:** نحن الآن -يا أخي الحاج- نعيش مرحلة من الضياع تتداعى علينا وعلى ديارنا وأقداسنا الأمم، ونحن كثير، ولكن حب الدنيا وكراهية الموت جعلتنا غثاء كغثاء السيل، والربوع المباركة الحبيبة التي زرتها هي منازل الوحي على نبيين من أعظم أولى العزم أبيك إبراهيم عليه السلام ورسولك محمد ﷺ، وهما أعظم نماذج التضحيات؛ فتضحيات محمد ﷺ في نشر الدعوة وأداء الأمانة والدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيل الله أمور قد علمت معظمها، وأما تضحيات إبراهيم عليه السلام فحسبك أن تتصوره في «منى» يتلُّ صفيه للجبين ويدني من عنقه السكين، وقد أسلم الذابح والذبيح لربِّ العالمين، ويتذكر إبراهيم عليه السلام أن قميص إسماعيل عليه السلام سيكون كفنه، فيخلع عنه القميص كي لا يتلوث الكفن بالدم، وينظر بين قدميه ليضع القميص وإذا ذبح عظيم وفداء كريم وهاتف رحيم يناديه: ﴿**يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

فاجعلْ -يا أخي الحاج- إبراهيم أسوتك في التضحيات لتنقذ بالجهاد أقداسك التي

تعبث فيها قطعان المجرمين ومسجدك الأقصى الذي تدنس طهره سنابك خيول الكفر والكافرين.

## مسئولية الحاج بعد عودته إلى دياره

إذا كانت أعمال الحج وموسمه ومناسكه قد انتهت، وفروضه وواجباته قد كملت وتمت؛ فإن الحاج العائد الموفق تبدأ مسئوليته المقدسة بعد انتهاء حجه وبعد عودته إلى وطنه سالمًا غانمًا إنْ شاء الله.

لقد حضر الحاج دورة مباركة في العبادة والعلم والعمل والأخلاق، وأتاح له الحج أن يخالط إخوانه المسلمين من كلِّ حدب وصوب، وتخرَّج من الدَّورة الإيمانية -بفضل الله تعالى- بحصيلة من العلم النافع والعمل الصالح، وما بقي عليه الآن إلا أن يبلِّغ ما سمعه ويعلِّم ما تعلمه، ويحقق الأهداف والمنافع التي من أجلها فرض الله هذا الركن من أركان الإسلام والعظيمة.

لقد رأى الحاج بأم عينيه أن ثلاثة أمور من أحوال المسلمين هي التي أغرقتهم في حمأة الضياع، ومزقتهم في شتى البقاع، وتعبدت قلوبهم لرخيص المتاع، وجعلتهم غثاء كغثاء السيل، وأوهنت عزائهم بحب الدنيا وكراهية الموت.. هذه الأدواء الثلاثة هي انحراف العقيدة، وتمزق الوحدة، وغياب المنهج الإسلامي في التربية، ولا أغالي إذا قلت بأن الأمر الأول هو بيت الداء وأساس البلاء؛ لأن العقيدة الإسلامية إذا صُحِّحَتْ في القلوب غرست فيها كل الفضائل وعصمتها بإذن الله من كل المفاسد، وإذ ذاك تنضوي القلوب تحت لواء الوحدة المؤمنة والفضائل الإسلامية.

ولذا، فإن وفود الله مطالبة بعد حجها أن تبدأ مرحلة التنفيذ وتطبق العلم على العمل، وتبتدئ بتصحيح العقيدة بحيث ترسم في سلوكها عقيدة صحيحة ثم تأمر به وتتواصى بنشره.

**وإني مورد هنا بعض الأحاديث الكريمة في أهمية هذا الأمر سائلاً الله لي ولضيوف الرحمن ولجميع المسلمين إيمانًا لا يخالطه شك، وعملاً لا يحيطه رياء، وثباتًا على كلمة التوحيد والقول الثابت في الدنيا والآخرة:**

- جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ للهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ مَاتَ وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ».

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ».

- وروى الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى: من كان أشرك في عمله لله أحدًا؛ فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

**أولاً**: أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده هي نعمة الإيمان؛ لأن الإيمان تقبل به الأعمال وتغفر به الذنوب، وبغيره لا تقبل حسنة، ومن هنا كان المؤمن أحرص على دينه منه على حياته، فهو يدعو الله ألا يجعل مصيبته في دينه، ويفضل أن يلقى في النار على أن يترك دينه.

**ثانيًا**: التوحيد في الإسلام هو ألا تشرك بعبادة الله أحدًا، ولو كان رسولاً عظيمًا أو نبيًّا جليلاً أو ملكًا مقربًا؛ لأن الله هو الواحد الأحد له الحمد وكل ما سواه عبد، وإن من أحقر مظاهر الجهل أن ترى إنسانًا يطوف بقبر يبتغي عنده الخير والرزق ناسيًا عظمة ربه وخضوع الخلائق في حجرات جبروته.

**ثالثًا**: حين تصفو العقيدة في قلوب المؤمنين تصنع منهم على عين الله رجالاً فيهم كل فضائل النفس؛ لأن الإيمان إذا خلص حقّق في المؤمن الشجاعة التي لا تعرف الخوف والتضحية التي لا تبالي بكل بذل، والجهاد الذي يجعل المؤمن يقهر عشرة من عبّاد الشيطان، ويهوّن في عينيه الحياة الفانية، كما يعلمه ألا يحني جبهته إلا لرب السماء موقنًا أن أجله في الكتاب وأن رزقه في السماء.

**رابعًا**: يقوم بنيان الإسلام على التوحيد، فمن أخلص التوحيد والعمل لله كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، ومن أدخل على أعماله الشرك حبطت وطارت هباءً كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ومن هنا فرُبَّ متصدقٍ بريال واحد يجده عند الله كجبل أحد، ورُبَّ متبرعٍ بالملايين لا يرى لها أثرًا في الميزان.

**خامسًا**: إنَّ ثواب الأعمال عند الله يتفاوت على حسب إخلاصها لوجهه الكريم، فأدنى ثواب الحسنة عشرة أمثالها، ويزيد الثواب إلى سبعمائة ضعف، فإذا ارتقى العبد في مدارج أهل السلوك حتى أصبح عبدًا ربانيًّا يعبد الله كأنه يراه، فهنالك يرزقه بغير حساب، وفي كتاب الله بشرى لأهل التوحيد والاستقامة الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، يعني أخلصوا توحيدهم من كل شوائب الشرك، وسلكوا في حياتهم طريق الفضائل والتقوى لهم بشرى بأن الله ﷻ لا يكتفي في إكرامهم بنعم الجنة، ولكن يدعوهم إلى رحابه، ويعد لهم ضيافة هي أعظم من كل نعيم الجنة؛ لأنه يمتعهم فيها بأجل ما يدعيه ويتمناه أهل الجنان حين يزيل ما بينه وبينهم من الحجب ويريهم ﷻ وجهه الكريم.

**سادسًا**: حين يصفو التوحيد من كلِّ شركٍ يصبح للأعمال نورُ من نور الله -تعالى- فيرى في ساحات القيامة قومًا يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم يقودهم إلى الجنة، وينور لهم سبل السلام وطرق الهداية، وأثناء مشيهم في النور يقولون مبتهجين: ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا إنك على كلِّ شيء قدير، وتقول لهم الملائكة الكرام: بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم.

أما الذين دنسوا أعمالهم بالنفاق والشرك فتراهم في الآخرة يتخبطون في ظلام دامس

كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له في نور.

هذه الحقيقة أشار لها القرآن الكريم في سورة «النور» حين ذكر أن الله -تعالى- هو نور السموات والأرض، وذكر بعد ذلك رجالاً أخلصوا دينهم وتوحيدهم لله، وعمَّروا بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه؛ فسبَّحوه فيها بالغدو والآصال ولم يلههم تجارة ولا بيع عن ذكره، فجزاهم ﷻ أحسن ما عملوا، وزادهم من فضله بغير حساب.

وأما أهل النفاق والشرك فذكر أنهم يحشرون عميًا وبكمًا وصمًّا كما كانوا عميانًا عن الإيمان في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢].

وذكر سبحانه في سورة «الحديد» أن أولئك المنافقين يستجدون من المؤمنين قبسًا من نورهم ويذكرونهم روابط القربى، فما يشعرون إلا بسور قد ضرب بينهم وبين المؤمنين باطنه الرحمة فيه حيث المؤمنون، وظاهره فيه العذاب حيث الكافرون.

## أحكام في ذبح البهائم

إذا أردت أن تذبح ذبيحةً فاعلم أن الإسلام يأمرك في هذا المقام بالرأفة والرحمة ويثيبك عليهما، كما يأمرك أن تتبع الطريقة الصحيحة الزاكية التي بها ينقى اللحم وتجعله نظيفًا، ثم هو يأمرك أن تذكر نعمة الله وتشكره على ما سخَّر للإنسان ورزقه من بهيمة الأنعام، كما أمرك أن تذكر اسم الله على ذبيحتك لتنالها باسم الله البركة والخير.

**وهذه أحاديث شريفة تتعلق بذبح الحيوان نذكرها ثم نتبعها بإيضاح لتلك الأحكام:**

- روى الإمام مسلم وأصحاب السُّنن عن شداد بن أوس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد شفرته وليرح ذبيحته»**.

- وروي أن رسول الله ﷺ أمر بأن تحد الشِّفار[1]، وأن توارى عن البهائم وقال: «**إذا ذبح فليجهز**»، وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَن نسى التسمية فلا بأس، ومَن تعمد فلا تؤكل**»، أي أن من يترك التسمية متعمدًا أو يذكر اسم غير الله؛ فإن ذبيحته لا تؤكل.

- وفي سنن أبي داود وجامع الترمذي عن أبي واقد ﷺ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ووجد أهلها يجبون أسنمة الإبل، ويقطعون إليات الغنم ويأكلون ذلك، فقال: «**ما يقطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة**».

- وفي سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من إنسان يقتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عنها**، قيل: يا رسول الله! وما حقها؟ قال: «**يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي بها**».

- وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: «ما أعجزك مما في يدك من البهائم؛ فهو كالصيد».

وقال في بعير تردى في بئر: «ذكه من حيث قدرت، وإذا قطع الرأس مع ابتداء الذبح من الحلق فلا بأس ولا يتعمد، فإن ذبح من القفا لم تؤكل سواء قطع الرأس أم لم يقطع».

- وروى أبو داود أن النبي ﷺ نهى عن شريطة الشيطان، وهي الذبيحة تحز جلد رقبتها فقط وتقطعه دون الأوداج ثم تتركها حتى تموت.

- وروى مالك -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا نُحِرَتِ النَّاقَةُ فَذَكَاةُ مَا فِي بَطْنِهَا فِي ذَكَاتِهَا إِذَا كَانَ قَدْ تَمَّ خَلْقُهُ وَنَبَتَ شَعَرُهُ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ذُبِحَ حَتَّى يَخْرُجَ الدَّمُ مِنْ جَوْفِهِ**».

- وفي صحيح البخاري عن كعب بن مالك ﷺ أن جارية لهم كانت ترعى غنمًا، فأبصرت بشاة موتًا، فكسرت حجرًا فذبحتها، فسأل النبي ﷺ فأمره بأكلها.

- وروى مالك -رحمه الله- أن ابن عباس -رضي الله عنهما- سئل عن ذبائح النصارى؟ فقال: «لا بأس بها».

---

(١) الشفار: السكاكين.

- وروى الطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ مرَّ على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «**أفلا قبل هذا!! أوتريد أن تميتها موتتين؟!**».

**أولاً**: لا يجوز أكل ذبيحة إلا إذا ذبحت ذبحًا شرعيًّا، ومن هنا فالموقوذة والمتردية والنطيحة والتي أكل السبع بعضها ونبذ البعض الآخر.. كلُّ هذه حرام أكلها، إلا إذا أدركت وفيها روح فذبحت وتحركت بعد ذبحها وسال جميع دمها إلا ما يتخلف في العروق.

**ثانيًا**: كلُّ ذبيحة يذكر عليها عند ذبحها اسم غير اسم الله حرام أكلها، وهذا أمر يجب أن يتأكد منه في التعامُّل باللحوم المستوردة، فما يجوز أكل تلك الذبائح إلا إذا تأكد المرء أنها ذكيت ذكاة عند شرعية، وأنها لم يذكر عند ذبحها اسم غير اسم الله، أما حين يتوفر هذان الشرطان -وأعني الذكاة الشرعية وعدم الإهلاك باسم غير اسم الله- فهي عندئذٍ حلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

**ثالثًا**: إذا نفرت بهيمة كجمل مثلاً أو ثور أو تردت في بئر فلم تستطع ذبحها جاز لك أن تذكها في غير الرقبة بأن تمد لها آلة حادة فتنحرها أو تجرحها جرحًا عميقًا في الفخذ أو غيره أو تطلق عليها سهمًا (وتسمِّي في جميع الأحوال) لكي تتخلص من الدم، ثم عند الوصول إليها تذبحها من الرقبة ليتسرب ما يمكن أن يكون قد تخلف من دمها، ومثل ذلك ما نمسكه عليك الصقر أو الجارح المكلب؛ فإنك تذكر اسم الله عند إطلاق الجارح ثم تذكي ما يعود به من صيد جريح، وعندئذٍ يكون حلالاً بإذن الله.

**رابعًا**: الرفق بالحيوان المذبوح مطلب شرعي، فالشفرة تكون حادة مرهفة حتى يستريح الحيوان في أقصر وقت، وعلى الذابح أن يريح ذبيحته فيضجعها على جانبها الأيمن، وألا يجعل الذبح على دفعات، بل يقطع جلد الرقبة من جهة الحلق، ويصل إلى الأوداج فيقطعها في سرعة حتى لا تتألم الذبيحة بكثرة الحزِّ بأداة كالة قد تخنقها خنقًا.

على أنه يجوز في الضرورات أن تذبح بحد حجر أو حافة حادة إذا خشيت موتها قبل تذكيتها، ولا يجوز ذبح الذبيحة إلا من مقدمة رقبتها فما يلي الحلق، فإن ذبحها من فوق الرقبة لم يجز أكلها.

**خامسًا**: إذا ذبحت بهيمة في بطنها جنينها فذكاتها ذكات جنينها على أنه لا يؤكل جنينها إذا كان صغيرًا جدًّا، أما إذا نضج في البطن ونبت شعره، فإنك حين تخرجه تذبحه من رقبته، ويجوز أن يؤكل مع أنه ذبح ميتًا؛ لأن ذكاة أمه هي ذكاته.

**سادسًا**: من المستحب ألا تسن السكين على مرأى ومسمع من البهيمة التي ستذبح؛ لأنك بذلك تروعها قبل موتها، ولهذا أنكر النبي ﷺ على الرجل الذي كان واضعًا رجله على صفحة الشاة وقد طفق يشحذ السكين وهي تنظر إليه، وقال له: «**هلا فعلت ذلك قبل هذا**».

**سابعًا**: من السُّنة أن تسمِّي الله إذا ذبحت وتكبِّره فتقول: باسم الله والله أكبر، وإذا نسيت التسمية فلا بأس إنْ شاء الله، أما مَن تعمَّد ترك التسمية استنكافًا أو كفرًا؛ فلا تؤكل ذبيحته.

**ثامنًا**: إذا قطع جزء من بهيمة وهي حية كفخذها أو إليتها أو سنام البعير، فما يجوز أكل هذه الأشياء؛ لأن ما يقطع من البهيمة وهي حية يعتبر ميتة.

وقد علمت أن بعض مَن يخصون الدواب قد يأكل الخصية إذا أخرجها، وهذا لا يجوز؛ لأنها تعتبر في حكم الميتة أكلها حرام، وكذلك فإن بعض الناس يقطعون إلية البهيمة من الغنم وهي صغيرة ليتوزع الشحم على جميع جسدها، فيجتمع لديهم كمية كبيرة من إليات الأغنام وقد يستغلونها ويبيعونها كزيوت حيوانية وهذا حرامٌ.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتطهرين الذين يتحرون الطيبات، وينفرون من الخبائث.

* * *

# كتاب الحدود والقصاص

## حَدُّ الخمـــر

كلما دعا داعٍ إلى تطبيق الشريعة الإسلامية رأى من حوله حناجر صارخةً وعقائر مرفوعةً وضجيجًا لاغيًا يدعو بالثبور فيقول: هل تعني أن نقفل كل مسرح ومرقص؟ وهل نقفل كل محال الخمر ومقاهيها وحاناتها الليلية والنهارية؟ وهل نلغي ثلاثة أرباع البرامج الإذاعية والتليفزيونية؟ وهل نفرض على النساء الحجاب؟ وأهم من كل هذا هل نطبِّق رجم الزانية والزاني؟ وقطع يد السارق والسارقة؟ وضرب شارب الخمر بالعصا والأحذية؟

نعم إن الدعاة المسلمين قد ابتلوا عبر العصور بسدنة الفساد الخائفين على الرقص العاري أن ينهار فنه، وعلى محال الخمر أن يتغرَّق نداماها، وعلى البرامج المائعة المضلة في الرائي أن تتحطم مراهقها، وعلى كل سارق وزانٍ وسكير أن يؤلمهم القصاص.

إن هؤلاء الطواغيت لا يخافون على الأمن أن تعصف به الخمر والسرقة والزنا، ولا على الشرف أن يحطمه التبرج والسفور والتكشف، ولا على المجتمع أن يعصف به الفساد.

لقد دأب دعاة الفساد وأدعياء الحضارة الحديثة على تشويه دعوات الإصلاح واتهام دعاتها بالرجعية والتخلف والوقوف في وجوههم بحجة التمشي مع روح العصر، وفي هذا يقول الشاعر:

كلما قام مصلح يفضح الظلم ... تصدى له قطيع العبيد
فترى الكفر حانقًا وترى ... الأذناب يفدونه برأس الشهيد

ومن أجل هذه الحقيقة المؤلمة رأيت أن أبدأ بأحاديث الأحكام الواردة حول الحدود والقصاص؛ لأن القصاص حياة المجتمعات ودعامة الأمن وخير للمؤمنين، كما قال رسول الله ﷺ: «إِقَامَةُ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فِي بِلادِ اللهِ ﷻ»؛ لأنه لا فائدة من المطر والخصب والزروع والثمار إذا عمَّ البلاد الخوف والترويع وانتشر القتل والسرقة والغصب والابتزاز.

**وإني مثبتٌ هنا أحاديث تدور حول الخمر فمُتْبِعُها -إنْ شاء الله- بملاحظات مهمة حول هذا الداء الوبيل الذي يعصف بأمانة الله العظمى ألا وهي العقل، فتخل به ضوابط الأخلاق والضمير، ويكون الفجور والإجرام:**

روى الترمذي عن أنس ﷺ قال: «**لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَوَاهِبَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا**».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها: «**كل شراب أسكر فهو حرام، كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفَرق؛ فملء الكف منه حرام**». والفَرق: مكيال يتسع من الخير حوالي سبعة كيلو غرامات.

وفي مسند أحمد: «**إن الله حرَّم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام**». والكوبة معناها: النرد أو طاولة الزهر، والغبيراء: شراب يتخذ من الذرة وهو مسكر.

وروى الجماعة من خطبة لعمر ﷺ: «**إنه نزل تحريم الخمر وهي خمسة أنواع من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير**»، وذلك إذا تغيَّر أصلها.

ولأحمد وابن ماجه: «**لتستحلنَّ طائفة من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه**».

وفي رواية لابن ماجه: «**لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها**».

وفي صحيح البخاري: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ**».

وفي البخاري ومسلم: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

وفي سنن أبي داود من حديث أبي الدرداء: «**إن الله أنزل الداء والدواء، فجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام**».

وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ نهى طارق بن سويد الجعفي عن الخمر فقال: إنما

أصنعها للدواء، فقال: «**إنه ليس بدواء ولكنه داء**».

على أن بعض الفقهاء أجاز التداوي بالخمر إذا نصح بذلك طبيب مسلم وبشرط عدم وجود دواء من الحلال يقوم مقام الحرام، وألا تؤخذ للنشوة، وألا يتجاوز الحد المطلوب، والضرورة تقدر بقدرها.

وفي مسند أحمد: «**من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة، فإن مات مات كافرًا، وإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال**»، فسأله السائل: وما طينة الخبال؟ قال: «**هي صديد أهل النار**».

وفي «المعجم الكبير» للطبراني: «**الخمر أم الخبائث (الخمر أم الفواحش)، ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته**».

وفي صحيح مسلم: عن جابر أن رجلاً من اليمن سأل رسول الله ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يُقال له: «المزر»، فقال رسول الله ﷺ: «**أمسكرٌ هو؟**» قال: نعم، فقال: «**كل مسكر حرام**».

ومثل ذلك ما رواه البخاري: من حديث أبي موسى أنه سأل رسول الله ﷺ عن شرابين كانوا يصنعونهما باليمن المزر وهو في الذرة والشعير، والبتع وهو من العسل، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كل مسكر حرام**».

وفي سنن أبي داود والنسائي: من حديث علي ﷺ: ونهى رسول الله ﷺ عن الجُعَّة (وهي نبيذ الشعير ويسمونه البيرة).

وفي سنن النسائي: عن أبي موسى ﷺ: «**ما أبالي شربت الخمر أو عبدت هذه السَّارية دون الله**».

وفي سنن أبي داود: أن رجلاً من اليمن سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديدًا، وإنا نتخذ شرابًا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وبرد بلادنا. قال رسول الله ﷺ: «**هل يسكر؟**» قال: نعم، قال: «**فاجتنبوه**». قال: إن الناس غير تاركيه. قال: «**فإن لم يتركوه فقاتلوهم**».

وبعد؛ فالخمر هي كل مسكر سواء أكان سائلاً أو صلبًا أو غازًا، وسميت الخمر؛ لأنها تخمِّر العقل، أي: تغطيه كما يغطي الخمار وجه المرأة.

وحكم شرب الخمر أنه حرام، ويقام على شارب الخمر حدُّ السُّكر سواء تعاطاه شرابًا كـ(الوسكي والبراندي والروم والجنّ والبيرة) أو (تعاطى الحشيش والأفيون).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ الحشيشة حرام يحد شاربها كما يحد شارب الخمر؛ لأنها تفسد العقل وتحوِّل شاربها ديوثًا متخنثًا، وحكم الحبوب والأقراص المخدرة حكم الخمر؛ لأنها تخدِّر.

وقد أورد الدكتور محمد علي البار وهو طبيب وداعية بحثًا طبيًّا ضافيًا تظهر الخسارة الفادحة التي يبتلى بها المدمن في صحته وعقله وأعصابه، وعرض إلى علاقة الخمر بالجريمة، وكيف أنهما متلازمان، وكيف أن الكونجرس الأمريكي حرَّم الخمر حين رأى مضارها بالأمن لكنه عاد إلى إباحتها حين شاعت الأوكار السرية للخمر ولم تستطع الحكومة منع الناس منها، وأورد إحصائية عن أثر الخمور في الاقتصاد حيث أظهرت تلك الإحصائية أن خسارة الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧١م بلغت ثلاثين ألف مليون دولار بسبب الخمور؛ حيث كان هنالك خسارة في الإنتاج بسبب شرب العاملين للخمر قبل حضورهم إلى أعمالهم وتدني أدائهم وفداحة خسائرهم من جراء معالجة المدمنين وحوادث المرور والجرائم الناتجة عن السُّكر.

وحدُّ الخمر أن يجلد شاربها أربعين جلدة، وهذا فِعْلُ النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ، أما عمر فجلد ثمانين جلدة وكتب إلى خالد وأبي عبيدة بالشام بذلك.

وإلى الرأي الأول ذهب أبو حنيفة ومالك ولأحمد في قول، وأما الرأي الثاني فذهب إليه الشافعي وأحمد في أحد قوليه، ويبدو أن الأمر في الأربعين والثمانين متروك للحاكم المسلم الذي يعرف أثر العقوبة في الأشخاص ومدى تقويمها لهم.

نسأل الله أن يحبِّب إلينا كل طيِّب، ويكرِّه إلينا كل خبيث، وأن يزيدنا يقينًا بشريعتنا الغراء.

# حدُّ السرقة

إن قطع يد السارق حدٌّ من حدود الله، وهو قصاص عادل من جنس العمل، وذلك لأن يد السارق تتحول إلى أداة مجرمة خائنة كل همها أن تتسلل إلى أرزاق العباد فتحوزها حرامًا صرفًا بغير حق، وهي في سبيل الوصول إلى الحرام لا تبالي أن تبطش وتثخن وتقتل.

إن يد السارق يدٌ كسلانة عن السعي الشريف لا يروقها أن تحرث أو تزرع أو تحتطب أو تحمل ثقلاً، لكنها تخطط إلى الغنى عن طريق الخوف والترويع والعبث بالأمن، فتأتي إلى بيت آمن يجمع ربُّه رزقه بعرق جبينه حتى إذا اجتمع لذلك الكادح قدرٌ حسنٌ من قوت عياله ووضعه في حرزٍ أمين تسللت تلك اليد الملعونة فامتدت إلى ثمرة الكدح وقوت العيال فأخذته في خِسَّة، لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية، والويل كل الويل لأهل البيت إذا استيقظوا فقد يموت عائلهم وعدد منهم بسلاح حادٍّ محرم تمتد به يد السارق الملعونة.

والغريب أن تقرأ ممن ينتمون إلى الإسلام يجادلون في المحسوس ويغالطون في الواقع، وتسمع من أحدهم أنه في قطع يد السارق قسوةٌ وحرمان المجتمع من يد كان يمكن أن تنتج وتعمل لصالح البلد، وقديمًا تساءل أبو العلاء سؤالاً إذا صحت نسبته إليه، فهو تغابٍ ملحد مستهتر فقال:

يَدٌ بِخَمسِ مِئينَ عَسجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بالُها قُطِعَت في رُبعِ دينارِ
تَناقُضٌ ما لنا إلا السُّكوتُ لَهُ ... وَأَن نَعوذَ بِمَولانا مِنَ النّارِ

إنه يتعجب أن تكون دية اليد إذا قُطعت ظلمًا خمسمائة دينار، وأن تقطع إذا سرقت ربع دينار، وهو تساؤل من نزغات الشيطان، ومن ثم فقد ردَّ عليه شاعر مؤمن فقال يجيبه بقولة صدق:

عِزُّ الأمانةِ أغلاها وَأَرْخصها ... قُبحُ الخِيانةِ فافْهمْ حِكمةَ الْباري

نعم إن اليد الأمينة المنتجة الصناع المجندة لصنائع الخير لا توازن أبدًا بيد خائنة كسلانة عن الخير نشيطة في الأجرام، وما أعظم الشريعة الإسلامية حين غالت باليد الأمينة

واستهانت باليد الخائنة، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

إنَّ أعدل قصاص لليد الآثمة التي جنَّدت عملها لإيذاء الأمة هو أن يستريح الناس من تلك اليد فتقطع وتدفن في الأرض ليدفن معها الشرّ والخوف والترويع، وليكون في قطعها حياة سعيدة وأمن ورخاء، وإني موردٌ هنا أحاديث كريمة توضح طائفةً من الأحكام المختلفة المتعلقة بالسارق:

**أولاً**: حدُّ السرقة أوجزته الآية الكريم من سورة «المائدة» ثم فصلته السيرة النبوية المطهرة كما هي الحال في التكاليف الشرعية حين أوجزت الآيات الكريمات أمور العبادات، ثم جاءت السنة المطهرة فكانت تفصيلاً وتبيانًا، والآية التي أوجزت حد السرقة هي قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

**ثانيًا**: السبب في تشديد عقوبة السارق أكثر من عقوبة المختلس للمال والنَّهاب أن هذه الأخيرة يسهل إقامة البينة عليها عند الاستدعاء إلى ولي الأمر، أما السرقة فيصعب إثباتها، ثم إن السرقة يمكن أن يتبعها في كثير من الأحوال قتلٌ وجراحات إذا اكتشف السارق متلبسًا، وكذلك فالترويع المترتب على السرقة لا يكاد يوصف حين يتفقد الإنسان ماله فيجده قد أخذ من حرزه.

**ثالثًا**: الشفاعة للسارق الذي تثبت عليه السرقة حرام وهلاك؛ فقد كانت امرأة قرشية مخزومية تستعير متاع الناس وتجحده وثبت عليها ذلك شرعًا، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها، فكلَّم أهلها أسامة بن زيد ﷺ أن يشفع فيها، وكان رسول الله ﷺ غضب وقال له: «**أتشفع في حد من حدود الله ﷻ؟**»، ثم قام رسول الله ﷺ خطيبًا فكان مما قال: «**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه -وفي رواية: أقاموا عليه الحد- والذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»، ثم قطع يد القرشية المخزومية وفي رواية أقاموا عليه الحد.

**رابعًا**: قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم: «**لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدًا**»، ورواية النسائي: «**لا تقطع اليد فيما دون ثمن المجن**». قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار، وربع الدينار كان يصرف بثلاثة دراهم.

وهنالك احتياطات أخرى يؤخذ بها قبل القصاص وهي: أن تكون السرقة من حرز، ويختلف الحرز باختلاف المسروق؛ فحرز المال حفظه في مكان من صندوق في داخل الغرفة أو خزانة، وحرز الغنم حظيرتها، أما سرقة ما لا حرز له كما لو وجد في صحن الدار أو خروف في الشارع؛ فليس فيه قطع، كما أنه لا قطع على من سرق طعامًا وهو محتاج جدًّا ليسد رمقه، وقد ألغى عمر ﷺ حدَّ سرقة الطعام عام الرمادة لشدة القحط.

ولا قطع فيمن سرق ثمرًا في شجرة واختلف العلماء في قطع من يسرق المصحف وكتب العلم، أما الطرار الذي يسمَّى (النشال) وهو الذي يسرق النقود بخفة من جيوب أصحابها؛ فيُقطع، كما أنه لا يقام الحد إلا إذا اشتكى المسروق منه إلى الحاكم مطالبًا السارق بماله أما إذا أرضى السارق المسروق منه قبل رفع الأمر لولي الأمر، فإذ ذاك لا قطع.

هذا، ولا يقام حد السرقة إلا إذا كان السارق بالغًا عاقلاً كما لا يقطع من سرق من مال أبيه أو أمه، وفي السُّنة درء الحد بالشبهة، ففي كتاب الخراج عن عائشة -رضي الله عنها: ادرءوا الحدود عن المسلمين بالشبهات ما استطعتم، فإذا وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة.

**خامسًا**: أثبت الواقع أن حبس السارق كما يفعل أهل القوانين الوضعية لم يفد في استئصال هذه الجريمة، فمئات من السارقين في بلاد الكفر حبسوا مرارًا وعادوا للسرقة مرارًا، والخير هو ما شرعه الله تعالى.

**سادسًا**: تقطع يد السارق اليمنى؛ لأنها هي القوية التي استعملها أكثر من أختها، ويكون القطع من مفصل الكف، فإذا سرق ثانية تقطع رجله، فإذا عاد تقطع يده الثانية، ويجب أن يحسم (أي: يوقف) الدَّم بعد قطع اليد بطريقة ناجحة، فقد روى الدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه ابن حبان أن رسول الله ﷺ أتى بسارقٍ قد سرق شملة، فقالوا: يا رسول الله، هذا قد سرق، فقال رسول الله ﷺ: «ما إخاله سرق (يعني: لا أظنه)، فقال السارق: بلى يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«اذهبوا به فاقطعوه، ثم احْسِمُوه ثم ائتوني به»**، فقُطِعَ فأتي به، فقال: **«تُبْ إلى الله»**، قال: قد تبت إلى الله، فقال: **«تاب الله عليك»**.

أما تعليق يد السارق في عنقه فالحديث الوارد فيها ضعيف.

# حـــدُّ الزِّنـــا

يعترف الإسلام بأثر الغريزة الجنسية ولا ينكر أهميتها وقوتها، لكن الإسلام لا يعترف بفوضى الجنس ولا باختلاط الأنساب ولا بتشتت الولاء الأسري، فالإسلام ينظِّم الغريزة الجنسية ولا يرضى لها أن تلغى بالتبتل والرَّهبانية، ومن ثم فهو يشجِّع الزواج، ولا يرضى أيضًا المخادنة بين الرجل والمرأة والعلاقات المشبوهة التي لا ترتبط بالحلال ولا تساهم في جمع شمل الأسرة.

من أجل ذلك حرَّم الإسلام جريمة الزنا وجعلها من الكبائر وجعل حدَّ الزنا شديدًا يبدأ بمائة جلدة قاسية، ويكون أقصاه رجم الزاني المحصن والزانية المحصنة حتى الموت.

**وإني مورد هنا أحاديث من سنة رسول الله ﷺ تدور حول الزنا وعقوبة الزاني:**

**أولاً:** في كلِّ يوم تجلو الأيام روائع من حكمة التشريع الإسلامي الحكيم العادل النبيل، فما حرَّم الإسلام شيئًا إلا أثبت خبثه وضرره، ولا أحل شيئًا إلا أثبت طيبه ونفعه، ولقد حرَّم الإسلام الزنا؛ لأنه أخطر سبب مباشر للأمراض الخطيرة المخجلة المعدية كالزهري والسيلان وتقرح الأعضاء التناسلي، وهي أمراض سهلة العدوى، ولربما يعدي شاذٌّ واحد من الأسرة الفاضلة جميع أفراد أسرته، وحرِّم الزنا؛ لأن كثيرًا من جرائم القتل تحدث بسببه؛ إذ كل حُرٍّ له غَيرة على حرماته، وحُرِّم الزنا؛ لأنه يقطع أواصر الزوجية الشريفة، ويعصف بولاء الزوجين فيتشرد بذلك الأولاد، ثم إن الزنا يضيِّع الأنساب، فيربِّي الرجل في بيته غير ولده، والزنا قبل هذا وبعده عملية حيوانية محضة لا هدف لها إلا إشباع النزوات على حساب الشرف.

**ثانيًا:** إن باستطاعتنا أن نسمِّي المرحلة الراهنة من هذا القرن أنها مرحلة الفوضى الجنسية فقد استفحلت في الغرب وصُدِّرت إلى الشرق، وهي الآن تنذر الأجيال بالدمار، وحسبك أن أوروبا كلها الآن ومناطق واسعة من الشرق تعاني من أمراض فتَّاكة إحداها الإيدز بسبب فوضى الغريزة الجنسية، وقد كان الإسلام وما زال ينبوع الحكمة حين حرَّم هذه الجريمة القذرة فغلَّظ عقوبتها، بل لقد حرَّم الذرائع الموصلة إليها كالنظرة والاختلاط

وحفلات الرقص وارتياد دور اللهو والاستماع إلى الغناء الرخيص.

**ثالثًا:** الإسلام لا يحبذ كثرة التلوُّك في جريمة الزنا، ويحبذ أن يستر الإنسان جريمته ويتوب مفضلاً ذلك على الاعتراف، وقد صعَّب الإسلام البينة التي تثبت الزنا؛ ليظل المجتمع الإسلامي بعيدًا عن إشاعات الفاحشة، فما تثبت جريمة الزنا إلا بأربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا الجريمة في غاية الوضوح، فإن حدث في شهاداتهم اختلاف وتناقض طبق القاضي عليهم حدَّ القذف، فجلد كل واحدٍ من الشهود ثمانين جلدة، بل إن القاضي نفسه يملك أن يقول للمتهم بالزنا المعترف به: أزنيت؟ قل: لا. ويملك أن يسأل الشهود: لماذا تحريتم وراء أخيكم ونظرتم إلى الجريمة في تدقيق؟ فإن قالوا: إن المنظر قد أعجبهم فله أن يتهمهم بالفسوق، ويرد شهادتهم ويجلدهم، وإن اتضح له أنهم أرادوا بالشهادة محاربة المنكر فعندئذ يأخذ بشهادتهم.

**رابعًا:** إنَّ أسلوب الآية الكريمة التي حرَّمت الزنا وذكرت حده أسلوب في غاية الشدة والغضب، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

انظر كيف يأمر ربنا ﷻ ألا نرأف بالزانية والزاني أثناء قصاصهما، وكيف يعُد القسوة عليهما دليلاً على الإيمان بالله واليوم الآخر، وكيف يسن أن يعاقبا علنًا وعلى ملأ من المؤمنين؛ ليكونا نكالاً وموعظة للمتقين، ولعل سبب الشدة هو فداحة الجريمة وفظاعة مضارها، ولأنها تثبت بالبينة على مجاهر وقح بحيث رآه أربعة شهود وعدول، ورأوا شكل الجريمة واضحًا أشد الوضوح.

**خامسًا:** حدُّ الزنا كما ورد في الكتاب والسنة فهو كما يلي: بالنسبة للبكر الذي لم يسبق له الزواج أن يُجلد مائة جلدة ويغرب عن بلده عامًا؛ لقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم: «**خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ**»، ومعنى تغريب البكر عن بلده أن يبتعد عن مسرح جريمته وملابساتها حتى لا يعاوده الشيطان.

ثم لكي ينسى الناس جريمته فلا يكثرون الكلام فيها حين يعود، ولا خلاف بين الأئمة

في الجلد لوروده في القرآن، أما التغريب فقال بوجوبه الجمهور، وقال أبو حنيفة: «لا يضم التغريب إلى الجلد إلا إذا رأى الحاكم المسلم فيه مصلحة»، وإذا غربت المرأة انضم إليها ذو محرم يرافقها مدة السنة.

وأما حدُّ المحصنة الزانية والمحصن الزاني؛ فهو الرجم حتى الموت، ويلاحظ أن العقوبة من جنس العمل؛ لأن اللذة الحرام يجب أن تزال بالألم الشديد الذي يُنسي صاحبه اللذة.

ومن أحاديث الأحكام الواردة في باب حد الزّنا ما رواه البخاري: أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنا ولم يحصن بنفي عام وإقامة الحد عليه، وفي صحيح البخاري ومسلم: أن رسول الله ﷺ أَتَاه رَجُلٌ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَنَادَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِّ، إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ردد عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَه: «أَبِكَ جُنُونٌ؟». قَالَ: لاَ. قَالَ «فَهَلْ أَحْصَنْتَ؟». قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ».

وفي الحديث حثٌ على أن يستر المذنب نفسه لعل الله يتوب عليه، وفيه أن كلمة «نعم» تعتبر اعترافًا، وفيه حث للقضاة ألا يعجلوا بتلقف الاعتراف بدليل أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أعرض عن الرجل أربع مرات وسأله بعدئذ إنْ كان به جنون.

وروى الشيخان أن عمر ﷺ خطب فقال: إن الله -تعالى- بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا، وإني خشيت إنْ طال زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله -تعالى. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله -تعالى.

وأخرج أحمد أن فيما أنزل الله من القرآن: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا، فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةُ بِمَا قَضَيَا مِنَ اللَّذَّةِ»، وأن هذه الآية كانت في سورة «الأحزاب» فنسخت لفظًا وبقيت حكمًا بفعل الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام.

هذا، ويعتبر المطلق والمطلقة والأرمل والأرملة يعتبرون محصنين.

***

# حدُّ القتـــل

لعل أبشع جريمة على وجه الأرض هي قتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ومنذ تولى قابيل كبره وسنَّ سُنة القتل تجهم وجه الإنسانية، وعربد فيها الخوف، ولم تستطع الحضارات المتعاقبة إيقاف سفك الدماء، وحسبك أن الحضارة الحديثة التي تتفاخر بعلم غزا الفضاء وفكر رسم منهج الأمن العالمي والسلام العالمي وخصص لهما مجلسًا.

هذه الحضارة قد حطمت على صخرة العلم الحديث راية الأمن، وها نحن نرى في كلِّ يوم دماءً بريئة تسفك بأيدي أدعياء الحضارة مستخدمين في ذلك مخترعات العلم الحديث، ومن أجل فظاعة هذه الجريمة تشدد الإسلام في عقوبتها حتى إن الذي يقترفها ولو خطأً فلا بدَّ أن يحتمل غرمًا وكفارة من صيام يطهر قلبه من سوادها.

وقد ورد في سورة «النساء» آية مروعة حقًّا كأنها البركان المتفجر، فيها من العنف ما لم نقرأ قبله في غيرها من كتاب الله ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

**وإني مورد هنا بعض الأحاديث التي تلقي ضوءًا على أحكام هذه الجريمة المنكرة:**

أولاً: في سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا**».

وفي جامع الترمذي: «**لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار**».

وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**».

وفي الصحيحين والسنن أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ**

فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «كان بِرَجُلٍ جراحٌ فقتل نفسه، فقال الله تعالى: بدرني عبدي بنفسه؛ فحرَّمت عليه الجنة».

ولأبي داود من حديث شريح الخزاعي: «مَن أصيب بقتل أو خبل (الخبل هو الجرح أو قطع عضو في أعضائه)؛ فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة (أي: إذا أراد العدوان ومجاوزة الحد وقتل الأبرياء)، فخذوا على يديه، ومَن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم».

ولأبي داود من حديث ابن عباس: «كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدِّية، فقال الله -تعالى- لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى...﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية.

ولأبي داود والنسائي: «مَنْ قُتِلَ فِي عِمِّيًّا فِي رَمْيٍ يَكُونُ بَيْنَهُمْ بِحِجَارَةٍ أَوْ قَالَ: بِسِيَاطٍ أَوْ ضَرْبٍ بِعَصًا فَهُوَ خَطأٌ، وَعَقْلُهُ عَقْلُ الْخَطأِ، وَمَنْ قُتِلَ عَمْدًا فَهُوَ قَوَدٌ، وَعَقْلُهُ عَقْلُ الْقَوَدِ».

ولأصحاب السنن: «مَن قتل عبده قتلناه، ومَن جدع عبده جدعناه».

وفي صحيح البخاري: أن غلامًا قتل غيلة، فقال عمر ﷺ: «لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعًا».

**ثانيًا: هذه بعض الأحكام الخاصة بهذه الجريمة والمستفادة من الأحاديث:**

أ- الحفاظ على النفس وعلى الدماء من أعظم أهداف الشريعة الإسلامية؛ إذ الدم الإنساني له عند الله حرمته، ولا يجوز سفكه بأي حال إلا بحق الله وحق الإسلام، وفي الحديث الشريف من خطبة رسول الله ﷺ يوم عرفة: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم بحرمة -وفي رواية: كحرمة- يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

وإنه لمما يؤسف له في تاريخنا الحديث أن دماءً كثيرةً سفكت وما كان ذنب أصحابها إلا أنهم دعوا إلى الخير وتطبيق شريعة الله وأحكام الدين الحنيف.

إنَّ الإسلام لا يكتفي بصيانة دم المسلم، بل إن دم غير المسلم من المعاهَدين والذِّميين

مَصونٌ أيضًا؛ ففي صحيح البخاري: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا».

ب- الانتحار جريمة منكرة؛ لأنه مظهر اليأس من رحمة الله، ومن ثم فإن قاتل نفسه في الإثم والفظاعة كقاتل غيره.

ج- شرع الله القصاص في القتل؛ لأن في القصاص حياة للمجتمعات وازدهارًا للخيرات وصونًا للأمن والرخاء، لكن الإسلام شرع الديات العادية والمغلظة وقبل العفو من الولي الأقرب؛ ليظل الفضل والمعروف بين أمة محمد إلى يوم القيامة، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومعنى الآية الكريمة إذا عفا مسلم عن مسلم في قصاص كأن يقبل الدية ممن قتل متعمدًا، فعلى العافي أن يتبع عفوه بالمعروف وعلى المعفو عنه أن يؤدي ما طلب منه في ملاطفة وإحسان وإظهار للندم واحترام شديد للعافين، وإذا عفا العافي وتم الوفاق، فما يجوز له بعدئذ أن يعدل عن العفو ويعتدي على المعفو عنه.

د- القتل ثلاثة أنواع: وهي عمدٌ، وشبه عمدٍ، وخطأ؛ فالقتل العمد ما كان عن سبق إصرار وتخطيط حين يبيِّت القاتل خطة القتل ويسلِّح نفسه بسلاح قاتل، ثم يقتل المجني عليه بتلك الآلة الحادة، ومثل ذلك إذا أخذ آلة غير حادة كعصا أو سوط ونحوهما وتربص للمجني عليه فظلَّ يضربه حتى تأكد من قتله؛ فذلك أيضًا عمدًا.

وكما لو ضرب المجني عليه وهو مريض أو طفل أو كرَّر الضرب في مقتل، فكل هذا قتل عمد، وذلك لانعقاد النية على القتل.

وهذا القتل يترتب عليه القصاص إلا إذا عفا ولي الدم، كما يترتب عليه الإثم والكفارة والحرمان من الميراث من مال القتيل.

ومن القتل العمد الإحراق بالنار، والإغراق بالماء، والإلقاء من شاهق، والخنق، وحبس الإنسان إلى أن يموت جوعًا، وكذلك تقديمه لحيوان مفترس، وإذا شهد شهود شهادة زور

على إنسان، فتسببوا في قتله ظلمًا؛ فهو قتل عمد، وكذلك لو دسَّ رجلٌ لرجل سمًّا فأكله فمات.

أما القتل شبه العمد؛ فهو أن يحمل إنسان آلة غير قاتلة ثم ينوي أن يضرب إنسانًا لا أن يقتله فيهوي عليه بحجر أو عصا أو سوط، فيموت المجني عليه؛ فهذا يسمَّى قتل شبه عمد؛ لأن المقصود كان الضرب فحصل القتل، وفي هذا النوع من القتل دية مغلظة وإثم وكفارة.

ويبقى قتل الخطأ وهو أن يقصد الإنسان أمرًا مباحًا، فيترتب عليه قتل كأن يرمي صيدًا فيصيب إنسانًا، وكأن يحفر بئرًا فيقع فيها إنسان، ومثل ذلك أن يحدث القتل من صبي أو مجنون، وهذا القتل فيه الدية والصيام شهرين متتابعين.

هـ- تثبت جريمة القتل بالاعتراف أو بشاهدين عدلين، ويقتل القاتل بالطريقة التي قتل بها إلا إذا طال تعذيبه، فإذ ذاك يجهز عليه بالسيف، ويقيم الحد السلطان المسلم.

و- إذا أمسك رجلٌ رجلاً فقتله رجلٌ آخر؛ فإنه يقتل الماسك والقاتل، ويكون القصاص إذا حضر أولياء الدم وكانوا بالغين.

ز- إذا كان القاتل امرأة حاملاً أمهلت حتى تضع جنينها، وإذا قتل القاتل في الحرم جاز قتله في الحرم، أما إذا قتل خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم فقتل يُقتل في الحرم؛ لأنه محدث لا حماية له، وقيل: بل يحاصر حتى يخرج من الحرم.

***

## التعزيــــر

هنالك من الذنوب ما لا يصل إلى جرائم الحدود ولا تجب فيه كفارة، كالسِّباب الذي يقع بين متشاحنين إن لم يصل إلى القذف بالزنا، وكأن يقبِّل رجل امرأة أجنبية، وكأن يتشبه شابٌّ بالنساء، ومثل ذلك السرقة التي لا قطع فيها والتجارة بمسكر، وشبيه بذلك معاكسة بعض الشباب الفاسق للنساء في الشوارع، وسوق بعض السفهاء سياراتهم بطريقة مؤذية وخطيرة، وما يحدث من بعض الطلاب السفهاء من تكسير لبعض أثاث المدرسة أو سفاهة وقلة أدب إزاء بعض المعلمين.

إنَّ كل هذه الجرائم لا تصل أن يقام على مقترفها حد السرقة أو شرب الخمر، لكن يكون فيها تأديب يُسمَّى في الشرع «التعزير»، والأصل في مشروعية التعزير ما روي من أقوال لرسول الله ﷺ وتصرفات للخلفاء الراشدين ﷺ.

**وإني مورد هنا ما جاء حول التعزير من أحاديث فمتبعه -إنْ شاء الله- بالأحكام المستمدة من تلك الآثار، وقد أفدنا كثيرًا في هذا الموضوع من كتاب «فقه السُّنة» لشيخنا «سيد سابق» جزاه الله خيرًا.**

روى أصحاب السنن -رحمهم الله- أن النبي ﷺ حبس في التهمة، أي: أنه كان يحبس المتهم حبسًا احتياطيًّا حتى تثبت براءته. (وهذا الأمر تعزير؛ لأنه لا يدخل في الحدود الموجبة للقصاص).

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجلدوا فوق عشرة أسواط ألا في حد من حدود الله تعالى**».

وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بِمُخَنَّثٍ قَدْ خَضَبَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ بِالْحِنَّاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَالُ هَذَا؟». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله، يَتَشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ. فَأُمِرَ بِهِ فَنُفِيَ إِلَى النَّقِيعِ (نَاحِيَةٌ عَنِ الْمَدِينَةِ)، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَلاَ نَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ: «**إِنِّي نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ**».

وروى أحمد وأبو داود والنسائي أن النبي ﷺ عاقب من مَنَعَ الزكاة بأخذ نصف ماله، وقال: «**مَن أعطاها مؤتجرًا فله أجرها، ومن منعها فإنا آخذوها، وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا**».

هذا وكان عمر ﷺ يعزِّر ويؤدِّب، ويضرب بالعصا، ويحلق الرأس، وينفي، وكان ربما حرق حوانيت الخمارين، وقد اتخذ سجنًا يُعزِّر فيه أصحاب الجنح بالحبس، وضرب نائحة حتى بدا شعرها.

وفي التعزير يقول النبي ﷺ فيما رواه أبو داود والنسائي وأحمد: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلاَّ الْحُدُودَ»، يعني بذلك أن يُراعى عند التعزير ماضي الإنسان في عبادته وكرمه ومكارم أخلاقه.

**وهذه بعض الأحكام المتعلقة بالتعزير:**

١- الحاكم المسلم أو مَن يقوم مقامه من والٍ أو قاضٍ أو مسئولٍ عن الأمن هم الذين يقومون بعملية التعزير والتأديب، ولا يجوز أن يقوم بالتعزير غيرهم إلا تنفيذًا لأمر الإمام.

والحاكم المسلم هو الذي يقدِّر مقدار التعزير؛ إذ التعزير يتفاوت حسب تكرار الذنب وسلوك المذنب ونوع الذنب، فإذا كُلِّف شرطي مثلاً بإحضار إنسان للمسئولين فما يجوز للشرطي أن يبدأ عليه أو يضربه أو يزجره أو يهينه إلا إذا كان من قبيل الدفاع عن النفس في حالة امتناع المطلوب من امتثال الأمر.

ولقد كان بعض الشُّرطة في وقت من الأوقات يتجاوز مسئوليته؛ ليظهر سطوته فيضرب أو يهين أو يبذأ أو يسب الحرمات ظنًّا منه أن ذلك يغرس له هيبة، وما دري أن المتهم قد يكون بريئًا، وأن أعماله هذه سوف تعرضه لانتقام الله منه في الدنيا والآخرة.

إنَّ الذي يقوم بالتعزير أو يأمر به هو المسئول ويملك أن يزيد فيه وينقص بالسياسة الشرعية المرتكزة على المصلحة العامة وإزالة المنكر في المجتمع الإسلامي.

٢- التعزير درجات على حسب نوع الذنب والسلوك الماضي للمذنب وسوابقه، فقد يكتفى فيه بالوعظ والإرشاد، وقد يتطور إلى التوبيخ فالضرب والقيد والحبس والنفي، وقد يكون بعزل الموظف عن وظيفته إذا ثبت أنه استعان بوظيفته على الظلم، وقد يصل التعزير إلى القتل إذا اقتنع الحاكم المسلم أن مصلحة المسلمين في ذلك.

ولا يجوز أن يكون التعزير بحلق لحيته، ولا بتخريب داره، ولا بقلع الأشجار وحرق الزروع والثمار.

٣- الشفاعة في التعزير جائزة، ولكن لا تجوز الشفاعة في أي حدٍّ من حدود الله -تعالى، فيجوز لمن عرف خيرًا عن متهم في غير الحدود أن يذهب إلى المسئولين، فيشهد أن المتهم ممن يعتادون المساجد، وأن الأمر كبوة جواد وزلة شيطانية، وأن المتهم لن يعود -إنْ شاء الله تعالى، وأنه ابن قوم صالحين سيساهمون في تقويمه، وهكذا.

٤- إذا تكرر الذنب الموجب للتعزير أو إذا استفحلت خطورته جاز للإمام المسلم العادل أن يزيد الحد المقدر للعقوبة على أن يكون في ذلك خاليًا من شهوة التشفي أو الانتقام، وأن يخلو في تطبيق الحكم من المصلحة الشخصية، وأن يقصد في تثقيل العقوبة تنقية المجتمع الإسلامي من الفساد.

فيجوز مثلاً للحاكم المسلم أن يجعل عقوبة الطالب الذي يعيث في المدرسة فسادًا ويعرقل العملية التربوية الشريفة، ويستمر في ذلك رغم التعامل معه بالأساليب التربوية.

أقول: يجوز للحاكم أن يأمر بجلده على مرأى من زملائه، ثم بطرده من المدرسة، فإذا استمر شرُّه حُبِسَ حتى يصلح.

ويجوز للحاكم المسلم أن يأمر بمصادرة السيارات التي يسيء السفهاء سوقها، وبيعها ورصد ثمنها لمشروعات الخير، كما يجوز له أن يأمر بحبس من يتكرر منه التفحيط في وقاحة مدة قد تصل عدة أشهر.

وإذا شاع تعاطي حبوب الخبال في المجتمع، فيجوز للحاكم المسلم أن يعاقب تاجر الحبوب أو المخدرات أو الخمور بعقوبات تتدرج في الجلد إلى السجن إلى المصادرة، وقد يوصل الحاكم تلك العقوبة عند استفحال الشر إلى الإعدام إذا رأى قوةً ونفوذًا وتحديًا من تجار المخدرات والحبوب والمسكرات أو إذا رأى أن المجتمع الإسلامي قد ينهار بسبب شيوع المسكرات والمخدرات.

٥- يجوز للأب أن يعزر ولده القاصر ضمن الحدود التربوية، كأن يضربه ضربًا غير مؤذٍ ولا مبرِّح على ترك الصلاة، بينما لا يجوز للأب أن يعزر ولده البالغ لما يترتب على ذلك في ضرر أو جراح لأحدهما أو كليهما، وعلى الأب في هذه الحالة أن يترك تعزير ولده للمسئولين.

هذا ويجوز للأستاذ المربي المعروف بحسن أخلاقه أن يعزر تلميذه ضمن الحدود التربوية، كما يجوز للزوج أن يعزر زوجته، وإذا لم يسرف المعزِّر من هؤلاء أو يتجاوز الحد، فلا ضمان عليه إذا حدث للمعزَّر ضرر، كأن يوبخ زوجته فيغشى عليها وتسقط فتجرح.

والعبرة في التعزير أولاً وأخيرًا تربية المذنب وإصلاحه، وتنقية المجتمع المسلم وفلاحه.

## ما هو دون القتل من الجروح وإتلاف الأعضاء

ربما يتقاتل رجلان أو امرأتان أو يقاتل قومٌ قومًا، فتكون بينهم جراحات وإصابات، وقد تسقط أسنان وتفقأ أعين وتجدع آذان، وتكون جراح بليغةً أو سطحيةً، وقد جعل الإسلام لكل إصابة فيما دون القتل قصاصًا أو دية مناسبة.

وكان رسول الله ﷺ يرغب في العفو ويجمله، ولكن حين كان يصر صاحب الحق؛ فإن النبي الكريم لا يسعه إلا أن ينفِّذ القصاص أو الدية.

وإني موردٌ هنا -إنْ شاء الله- أحاديث فيما هو دون النفس من الجراحات وإتلاف الأعضاء، فذاكرٌ بعدها أحكام القصاص فيما هو دون القتل.

- جاء في الحديث المتفق عليه أَنَّ رَجُلاً عَضَّ يَدَ رَجُلٍ، فَنَزَعَ (أي: المعضوض) يَدَهُ مِنْ فَمِهِ، فَوَقَعَتْ ثَنِيَّتَاهُ (أي: سنتاه الأماميتان)، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **«يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ، لاَ دِيَةَ لَكَ»**، أي: لا دية للسنتين اللتين سقطتا.

وفي رواية أن الذي سقطت ثنيتاه قال لرسول الله ﷺ بعد أن أدلى بحجته: أطالب بالقصاص، فقال له رسول الله ﷺ: **«مَا تَأْمُرُنِي؟! تَأْمُرُنِي أَنْ آمُرَهُ أَنْ يَدَعَ يَدَهُ فِي فِيكَ تَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ، ادْفَعْ يَدَكَ حَتَّى يَعَضَّهَا ثُمَّ انْتَزِعْهَا»**.

- وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن أن الرُّبيع بنت النضر عمة أنس بن مالك كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش (أي: الدية) فأبوا، فأتوا النبي ﷺ فأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص.

وجاء في بقية الحديث أن أنس بن النضر أخا الرُّبيع أقسم ألا يقتص من الرُّبيع، وأن الله هدى أهل الجارية فعفوا، وسر رسول الله ﷺ بالعفو، وقال: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**».

- وروى الطبراني في «المعجم الكبير» أن رسول الله ﷺ وهو يسوي صفوف الصلاة طعن رجلاً في بطنه بقضيب أو سواك، فقال: أوجعتني فأقدني (أي: اسمح لي أن اقتص منك)، فأعطاه العود الذي كان معه فقال: «**استقد**»، فقبَّل بطنه، ثم قال: «بل أعفو لعلك أن تشفع لي بها يوم القيامة».

- وروى أبو داود والنسائي عن أنس أنه قال: «ما رأيت النبيَّ ﷺ رُفع إليه شيءٌ فيه قصاصٌ إلا أمر فيه بالعفو».

وروى الترمذي من حديث سعيد بن أحمد أن رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ دَقَّ سِنَّ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لِمُعَاوِيَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ هَذَا دَقَّ سِنِّي. قَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ. وَأَلَحَّ الآخَرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَبْرَمَهُ فَلَمْ يُرْضِهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: شَأْنَكَ بِصَاحِبِكَ. وَأَبُو الدَّرْدَاءِ جَالِسٌ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ فِي جَسَدِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً**».

قَالَ الأَنْصَارِيُّ: أَأَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. قَالَ: فَإِنِّي أَذَرُهَا لَهُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ: لاَ جَرَمَ لاَ أُخَيِّبُكَ. فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ.

**من هذه الأحاديث يمكن استنباط بعض الأحكام المتعلقة بقصاص الجروح والأعضاء والأطراف:**

**أولاً**: القصاص حكم عادل، فرضه ربنا ﷻ على أمة محمدٍ ﷺ وعلى الأمم الأولى، قال الله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [المائدة: ٤٥]. وهذا كله في العمد أما الخطأ ففيه الدية، ويشترط في الجاني لإقامة القصاص عليه البلوغ والعقل والتعمُّد.

**ثانيًا:** العضو الذي يصاب نوعان: نوعٌ يمكنُ أن يفصل من موضعه دون أن تحدث أثناء فصله زيادة، كفقء العين وجدع الأذن، ونزع الضرس، أو قطع الأطراف من مفاصلها كالكوع والمرفق والرجل، وهذا النوع يجري عليه القصاص.

ونوعٌ آخر لا تسهل فيه المماثلة، مثل كسر العظم، ومعظم الجراحات، وكسر الأضلاع؛ فتلك لا يمكن تنفيذ القصاص فيها لاحتمال الزيادة في الضرر، ولهذا تُقدَّر في هذه الأمور الدية.

وكذلك يجوز القصاص في اللطمة والضربة بخيزرانة أو عصا على أن يكون القصاص في نفس الموضع.

**ثالثًا:** دية الأعضاء نوعان: إذا كان العضو واحدًا في الجسد كالأنف واللسان؛ فديته دية كاملة كدية النفس، وإن كان العضو له نظير كالعين والأذن والشفة واليد والرجل وثدي المرأة؛ فديته نصف دية النفس.

وإذا فقئت العين السليمة للأعور؛ فديتها دية نفس كاملة، وإذا أتلف شعر اللحية أو شعر الرأس أو شعر الحاجبين أو شعر الأهداب أو الحاجبين؛ فديتها دية نفس كاملة، وفي الشاربين خلاف، والجراحات يصعب فيها القصاص ما عدا الجائفة، وهي التي نفذت إلى الجوف؛ ففيها القصاص، ويقضي في الجراحات ومدى خطورتها حكم عدل.

**رابعًا:** لا تكون الدية إلا بعد البُرء من الكسر أو الجراح؛ لأن الجرح أو الكسر ربما يتطور فإما أن يشفى بسرعة، وإما أن يترتب عليه ضرر بما يجاوره، وفي كلتا الحالتين يكون الانتظار مفيدًا، وتزيد الدية إذا سرى الجرح وانتشر، ولهذا لا تؤخذ الدية حتى يتم الشفاء كما أنه لا يجري قصاص ما دون النفس في برد شديد أو حر شديد، ويؤخر الموعد مخافة أن يموت الجاني، فقد روى أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ أن رجلاً طعن آخر بقرن في ركبته. فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني (أي: اقتص لي)، فقال رسول الله ﷺ: **«حتى تبرأ»**. ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال: أقدني، فأقاده، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، عرجت (أي: أن ضربة القرن سببت عاهة دائمة)، فقال رسول الله ﷺ: **«قد نهيتك**

**فعصيتني، فأبعدك الله، وبطل عرجُك»** أي: سقطت ديته.

**خامسًا**: الحاكم المسلم هو الذي يمكّن ولي أمر الدم من القصاص أو ينفذه برجال الأمن، ولا يجوز للمجني عليه أن ينتقم لنفسه دون رفع الأمر إلى الحاكم؛ لأن ذلك يحدث الفوضى، ويديم العداوات والثارات.

إنَّ حكم القصاص حين يصدر من القضاء وينفذه الحاكم -يجعل أهل الدم راضين، ويجعل أهل المقتص منه مقتنعين؛ لأن مخاصمة الحاكم العادل صعبة، والحكم حكم الله، أما إذا تربص المجني عليه بالجاني واقتص منه وحده دون الرجوع إلى الحاكم؛ فإن ذلك لا يوقف سيل الدم والعداوة.

**سادسًا**: إذا قبل المجني عليه دية جرحه أو عضوه عن رضا وقناعة، ثم ندم على ذلك، وعاد إلى الانتقام -اعتبر مجرمًا واقتص منه؛ لأن قبوله للدية معناه أن استوفى حقه، والدية شرع، فما يكون له بعد ذلك أن يعتدي، وإلا كان ممن قال الله فيهم: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٧٨].

**سابعًا**: القصاص يسقط بالعفو والصلح، كما يسقط إذا مات الجاني لكن تقدر الدية في الحالة الأخيرة ويتحملها أولياء الجاني؛ لأن الجناية ظلت معلقة في رقبته وذمته، وعلى أولياء الجاني أن يبرءوا ذمته في حال موته. وقال بعض الأشياخ: بل يسقط القصاص بموت الجاني، ولا يجب دية على ورثته.

**ثامنًا**: إذا سبَّ رجلٌ رجلاً وأقزع عليه؛ فيجوز للمسبوب أن يقتص ممن سبه، قال -تعالى: ﴿**لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٨]، ويستحسن للمعتدى عليه في هذه الحالة أن يعفو؛ لأن أكثر السباب يكون كذبًا وافتراءً على الحرمات، ولا يجب أن ترد المعصية بمعصية على أنه إذا اقتص وسبَّ الذي سبَّه ولم يقل فيه إلا حقًّا جاز ذلك.

**تاسعًا**: العفو هو سيد الأحكام، وقد كان ﷺ يرغب فيه، فإذا عفا أصحاب الحق؛ فعلى المعفو عنه أن يعترف بفضلهم، ويحاول ردَّ جميلهم، قال -تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**

فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٨].

## القسـامة

القسامة حكم يأخذ به القضاة المسلمون إذا وقعت جريمة قتل، ولم يكن على القاتل شهود، وكانت ثمة قرائن قوية تشير إلى القاتل، وقد كانت القسامة معروفة في الجاهلية فأقرها الإسلام، وذلك لشدة اهتمامه بالحفاظ على الحياة والنفس البريئة.

**وهذه أحاديث كريمة تدور حول القسامة نوردها ثم نتبعها -إنْ شاء الله- بأحكامها:**

روى مسلم والنسائي عن جماعة من الصحابة أن القسامة كانت في الجاهلية فأقرها النبي ﷺ على ما كانت عليه في الجاهلية، وقضى بها بين ناس من الأنصار في قتيل ادعوه على يهود خيبر.

وروى الشيخان وأصحاب السنن -أورد خلاصته بمعناه- أن عبد الله بن سهل وجد مقتولاً في داخل حصون خيبر، فاتهم أخوه وولده عبد الرحمن اليهود بقتله، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**ألكم شاهدان يشهدان على قتل صاحبكم؟**» قالوا: يا رسول الله، لم يكن ثَمَّ أحد من المسلمين، وإنما هم يهود، وقد يجترئون على أعظم من هذا (يعني أن اليهود إذا لم يقاصصوا فسوف يعيدونها مرارًا)، وإنما أصبح قتيلاً على أبوابهم. فقال رسول الله ﷺ لأولياء القتيل: «**أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم؟**» قالوا: لا نحلف على شيء لم نره، قال: «**أتقبلون قسامة خمسين في اليهود؟**» قالوا: كيف نقبل أيمانهم وهم يهود، فدفع النبي ﷺ ديته من بيت المال، وذلك بعد أن استحلف اليهود خمسين يمينًا، وروى أبو داود -رحمه الله- حديثًا عن أبي قلابة أنكر أن يكون رسول الله ﷺ قد حكم بالقسامة.

**وهذه بعض الأحكام المتعلقة بالقسامة:**

**أولاً:** القسامة هي أن يقسم خمسون من حمولة القاتل بأن صاحبهم لم يقتل، وإذ ذاك يبرأ

الذي دارت حوله التهمة، وقد كان معمولاً بها في الجاهلية، فأقرها الإسلام؛ لشدة حرصه على الدماء أن تسفك ظلمًا.

**ثانيًا**: اختلف العلماء في القضاء بالقسامة؛ فذهب الأئمة الأربعة أن الحكم بالقسامة مشروع؛ لأن الكثير في القتلة يتحرون الخلوات عند اقتراف جريمة القتل، فإذا علموا أن التهمة لا ترد عنهم وعن قبيلتهم إلا بأن يحلف خمسون ببراءة صاحبهم، فإذ ذاك يحجم القتلة عن القتل؛ لأن الشرع لا يتركهم، بل يعاقب قبيلتهم، وقال بعض الأئمة: لا يؤخذ بالقسامة؛ لأنها تحلِّف أولياء القاتل على شيء لم يروه، والإسلام لا يجبر الإنسان أن يحلف على ما لا يعلم.

**ثالثًا**: القصة التي رواها البخاري -رحمه الله- عن ابن عباس حول القسامة في الجاهلية تتلخص في أن رجلاً من أحد بطون قريش استأجر رجلاً من بني هاشم لكي يعينه في إبله، فلما نزلوا منزلاً أرادوا أن يعقلوا الإبل حتى لا تشرد، فنقضت العقل عقالاً، فغضب صاحب الإبل، وحذف الهاشمي بعصا فأصابته، وكان في تلك الضربة أجله.

وحاول القاتل كتمان الأمر لكن أحد المسافرين مرَّ على الهاشمي، وهو يجود بروحه، فقال له الهاشمي: أحملك أمانة إذا جئت الموسم أن تنادي في بني هاشم، وتسأل عن أبي طالب وتخبره أن القرشي الذي استأجرني هو الذي قتلني، وفعلاً وصل المسافر إلى مكة ليشهد الموسم، فسأل عن أبي طالب وبلَّغه الرسالة الشفوية التي حملها من القتيل الهاشمي.

فاستدعى أبو طالب الرجل القرشي وقال له: اختر منا واحدة من ثلاث: إنْ شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله، وإن شئت أن تؤدي مائة من الإبل، فإن أبيت قتلناك؛ لأنك قتلت صاحبنا، فأتى قومه، وكانت العصبية الجاهلية على أشدها فقالوا: نحلف ونبرِّئك، فحلف ثمانية وأربعون، وأعفى أبو طالب واحدًا بشفاعة أمه الهاشمية، واشترى رجلٌ يمينه بأن دفع بعيرين؛ لأنه واحد من الخمسين، والدية مائة بعير.

قال ابن عباس ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، ما حال الحول ومن الثمانية وأربعين عينٌ تطرف»، أي: أن الله ﷻ دمَّرهم فماتوا في ذلك العام.

**رابعًا**: إن القسامة عند جمهور العلماء مشروعة؛ لأن الحديث الوارد فيها متفق عليه،

والحق أن على الحاكم المسلم إذا وقعت جريمة قتل ولم يعرف فيها القاتل أن يبث أعوانه من رجال الأمن، ويجري تحقيقًا دقيقًا، فإذا أشارت الأصابع إلى إنسان معين حوَّل الحاكم التحقيق ليشمل أقاربه، فإذا أصر القاتل على الإنكار ركَّز الحاكم على حمولته؛ لأنهم لا بدَّ بإذن الله أن يكون منهم صالحون يستنكرون جريمة القتل، ويأبون أن يحلفوا ليزكوا فاسقًا أو قاتلاً.

والسر كما هو معلوم يصعب كتمانه، وكثيرًا ما يكون القاتل قد أفلت منه كلام لبعض خواصه، ولهذا فيستحسن أن يكون من بين الحالفين زوجته بعد أن تخوف عاقبة شهادة الزور، أما حين يطمئن المجرمون أن جريمة القتل لا تجد اهتمامًا ولا تحقيقًا ولا تحليفًا؛ فإنها إذ ذاك تهون عندهم، فيقتلون في الخلوات، ثم لا يكون عليهم شهود ولا بينات.

## ما لا ضمان فيه من المخالفات والجنايات

روى الشيخان وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال: «**الْعَجْمَاءُ عَقْلُهَا جُبَارٌ، وَالْبِئْرُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدِنُ جُبَارٌ، وَفِي الرِّكَازِ الْخُمُسُ**».

وفي رواية: «**الْعَجْمَاءُ جُرْحُهَا جُبَارٌ، وَالْبِئْرُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدِنُ جُبَارٌ، وَفِي الرِّكَازِ الْخُمُسُ**»، وجاء في زيادة: «**وَالنَّارُ جُبَارٌ**».

هذا الحديث الصحيح المتفق عليه يوضح ما لا ضمان فيه من المخالفات والجنايات، وكلمة «**جبار**» معناها الهدر الذي لا ضمان فيه، فقوله ﷺ: «**العجماء عقلها**»، وفي رواية: «**جرحها جبار**» معناه أن الدابة إذا جنت جناية كأن رفست إنسانًا فجرحته لا دية له، ولا يلزم صاحبها أن يدفع أرش ما جنته دابته.

وقد جمع الشيخ «سيد سابق» -جزاه الله خيرًا- ما لا ضمان فيه معتمدًا على هذا الحديث، وإني ملخص -إنْ شاء الله- تلك الأحكام:

**أولاً**: إذا انفلتت دابة فرفست آدميًّا أو أتلفت زرعًا؛ فلا ضمان على صاحبها إلا إذا كان صاحبها يعلم أنها شموسٌ رفوس، وخرجت بتقصير منه؛ فعندئذ يضمن صاحبها ما تتلفه.

وإذا ركب الدابة صاحبها أو غيره فأصابت زرعًا أو آدميًا؛ ضمن الراكب ما تصيبه؛ لأن الضرر كان يمكن أن يتجنبه الراكب، وإذا ركب إنسان دابةً فوقع عنها فجرح أو مات؛ فلا ضمان على صاحبها.

**ثانيًا**: من كان له كلب عقور فأطلق فأصاب إنسانًا؛ ضمن صاحب الكلب ما أتلفه، أما إذا لم يكن عقورًا؛ فلا ضمان عليه.

**ثالثًا**: من عادة بعض أصحاب الأغنام والأبقار أن يطلقوها في النهار عامدين وهم يعلمون أن الشوارع مغروسة بالأشجار، وأن الأطفال منتشرون في الشوارع، وأن من المحتمل جدًّا أن تأكل الغنم الشجر الذي يجمِّل الشوارع، أو ينطح بعضها صغار الأطفال.

إن ما تتلفه الأغنام والأبقار في هذه الحالة يغرمه صاحبها؛ لأنه يخرجها عامدًا كي يستريح منها، وهو يعلم أنها تؤذي الحرث والنسل.

**رابعًا**: الطيور الداجنة والنحل والحمام لا يضمن صاحبها ما تتلفه، وكذلك صاحب الهر إلا إذا كان الهر معروفًا بتسلطه على دجاج الناس يأكلها ويفتك بها.

**خامسًا**: إذا عضَّ إنسانٌ إنسانًا فنزع المعضوض يده بقوة، فانخلعت بعض أسنان العاض، فلا ضمان على المعضوض؛ لأنه إنما نزع يده دفاعًا عن النفس، ولتجنب الألم الشديد.

**سادسًا**: إذا ألبس عينه شقًّا أو ثقبًا في حائط جاره أو باب أي مسلم لكي ينظر إلى حريمه وعوراته، فقذف صاحب البيت بحصاة أو سهم، ففقأت عين المختلس، فلا دية على صاحب البيت؛ لأنه دفاع عن حرماته وتأديب لهاتك الحرمات؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ**».

**سابعًا**: مَن قتل إنسانًا دفاعًا عن عرضه أو ماله أو دينه؛ فلا ضمان عليه ولا قصاص ولا دية ما دام الأمر دفاعًا عن حرمات الله، وما دام يتخوف أن يعاجله لص العرض أو المال أو الدين يضربه، أما إذا استطاع أن يسيطر على اللص دون قتله ويسلمه للحاكم فذلك هو المطلوب.

وكذلك إذا دخل بيته فوجد رجلاً عند زوجته أو إحدى محارمه في وضع فاضح، فأخذته غضبة لله ﷻ ثم لعرضه، فقتله أو قتلهما معًا، فذلك عند كثير من الأئمة لا ضمان فيه.

**ثامنًا**: إذا غرقت سفينة قوم فمات من فيها أو بعضهم؛ فلا ضمان على أصحاب السفينة ما داموا قد اتخذوا كافة الاحتياطات اللازمة والخبرة المطلوبة.

**تاسعًا**: إذا مات مريض على إثر علاج الطبيب بعقار أو عملية؛ فلا ضمان على الطبيب إنْ كان من أهل العلم والخبرة بفنه، أما إذا كان متطببًا أو مدعيًا أو مشعوذًا؛ فهو عندئذٍ غارم وضامن.

**عاشرًا**: معنى قوله ﷺ: «**والمعدن جبار**» معناه إذا كلَّف شخصٌ شخصًا أن ينقب في ملكه عن معدن كرخام أو ذهب أو فضة، فانهار المنجم على مَن ينقبون فيه؛ لم يلزم صاحب الملك شيء من الديات أو تعويض المصابين مقابل إصاباتهم إلا إذا كان ذلك شرطًا في عقد.

**أحد عشر**: إذا حفر إنسانٌ بئرًا في بستان بعيدًا عن طريق الناس أو حفر وراء عمارته خزانًا بعيدًا عن الطريق، فوقع فيه حيوان أو إنسان لم يلزم صاحب البئر أو الخزان شيء، أما إذا حفرها في طريق مطروق وقصَّر في تغطيتها؛ فإنه يضمن.

**ثاني عشر**: إذا سقط جدار لإنسان على مارة، فأصابهم؛ فلا ضمان عليه إلا إذا كان قد نبِّه عليه بأن حائطه خطر، وأن عليه هدمه أو ترميمه فقصَّر وسوَّف حتى حدثت الخسارة.

**ثالث عشر**: إذا أوقد إنسانٌ في بيته نارًا، فتطاير شرر أو ثارت عاصفة نقلت بعض النار دونما تقصير من صاحبها في المعالجة والإخماد؛ كان جُبارًا ما تتلفه النار، وما يترتب عليها من حريقه.

وعلى الجملة؛ فإن الإسلام لا يلزم في الجنايات إلا ما كان باختيار الفاعل أو بتقصير منه.

* * *

# حكم الخوض في أعراض المسلمين

لقد أراد الإسلام للمجتمع المسلم المؤمن أن يكون مجتمعًا وضيئًا طهورًا متألق السنا عبق الشذا، يجمِّله الكلم الطيب، ويسمو به العمل الصالح، وتُحترم فيه الأعراض، وتُصان فيه الحرمات، ويُمنع فيه الخوض في الأعراض والحكم بالشبهات والرّجم بالظنون، يقول ربنا ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

ومن أجل هذا حرَّم الإسلام على المسلم أن يذكر أية امرأة بكلام يثير الشبهات حول شرفها أو سمعتها، وفرض عقوبة رادعة لكل من يرمي المحصنات، وهي عقوبة مهينة ذات شقين: أحدهما جسمي وهو جلد القاذف ثمانين جلدة، والثاني معنوي وهو إسقاط عدالة القاذف، وعدم الأخذ بشهادته، وفي هذا مهانة لا يرتضيها الأحرار ويفر منها الأبرار.

ولقد عدَّ الإسلام قذف المحصنات من الكبائر الموبقات، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ومن هنا؛ فالمؤمن يأخذ دوامًا بأدب الإسلام وأخلاق القرآن، فيصون لسانه عن الخوض في أعراض إخوانه سواء أكان بالتلميح أو التصريح أو التعريض.

ولقد توعد ربنا بالعذاب الأليم مَن يروِّج أخبار الفاحشة أو يؤذي المؤمنين بثرثرة لسانه في أعراضهم، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ولقد جعل الله ﷻ تهمة الزنا أمرًا صعبًا لكي لا يشغل المسلمون ألسنتهم بتلك السيرة، وبذلك ينصرف المسلمون عن تتبع العورات وقذف المسلمات إلى ما هو أجدى وأفضل، بل إن القاضي إذا جاءه أربعة رجال، وشهدوا أنهم شاهدوا جريمة زنا بأعينهم -يملك أن

يناقش أحدهم فيقول له: لماذا أطلت النظر إلى وضع المتفاحشين؟ فإذا اتضح أنه إنما فعل ذلك استجمالاً للمنظر -وجَّه إليه القاضي تهمة الفسوق، فردَّ شهادته، ثم أمر بجلده هو وزملاؤه الثلاثة ثمانين جلدة لكل واحد منهم.

إنَّ المجتمع المسلم أسمى من أن يتشاغل بقيل الفاحشة وقالها؛ لأن للمسلم رسالة عظيمة تربأ بقائلها عن السفاسف وتسمو به إلى المعالي، وفي طلب العلم وذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف مندوحة عن لغو الكلام وإثم الغيبة ورمي الأعراض.

إنَّ المؤمن يلجأ إلى حسن الظن بالمسلمين، ولا يتعقب الظنون السيئة، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢]، ويا لجمال كلمة ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ في هذا السياق؛ إذ هي تعني أن ظن المؤمن بأخيه يجب أن يكون كظنه بنفسه.

وقد بلغ من إنكار الإسلام لجريمة القذف والرجم بالظنون أنه منع التعريض بشبهة القذف، بل وعاقب على التعريض، كما عاقب على التصريح. فلو أن مسلمًا تخاصم مع أخيه المسلم فعرَّض بعرضه؛ فإنه يجلد بتعريضه كما يجلد بتصريحه، وعلى سبيل المثال لو أن مسلمين تسابّا، فقال أحدهما لأخيه معرضًا: «أنت تعلم أن أمي ليست زانية»، يعرِّض بأم أخيه؛ فإنه يجلد ثمانين جلدة، وكما لو قال له: «يقول الناس: إن أمك من الشريفات»، أو قال له: «لا تتكلم فالكل يعرف أختك أو زوجتك».

وإنما فعل الإسلام ذلك ووقف ذلك الموقف الشديد إنكارًا منه للبذاءة وخبث الكلام الذي به تتنافر القلوب وتفور الدماء.

إنَّ المؤمن يلتزم إزاء القذف أدبًا إسلاميًّا، وهو أن يحرص على سمعة المسلمين وأعراضهم، كما يحرص على سمعته وعرضه؛ لأن المؤمنين إخوة، كرامتهم واحدة وأعراضهم مصونة.

وما أجمل ما قال الإمام الشافعي -رحمه الله:

إذا رُمتَ أن تَحيا سَليمًا مِن الرَّدى ... وَدينُكَ مَوفورٌ وَعِرضُكَ صَيِّنُ

فَـلا يَـنطِقَن مِنـكَ اللِّسـانُ بِسَـوأَةٍ فَكُلُّـكَ سَـوءاتٌ وَلِلنـاسِ أَلسُـنُ
وَعَينـاكَ إِن أَبـدَت إِلَيـكَ مَعائِبًـا فَـدَعها وَقُـل يـا عَـينُ لِلنـاسِ أَعـيُنُ

إنَّ الخوض في الأعراض من أبرز صفات المنافقين؛ فقد تلقف منافقو المدينة حديث الإفك، وتولى زعيم المنافقين كبر الترويج، وفي هذا يقول ربنا ﷻ يفضح شرذمة المنافقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

نعم لقد كان ترويج المنافقين للإفك خيرًا للمؤمنين؛ لأنه كشف في المنافقين وجوهًا شوهاء، يقبحها سمّ الحقد، ويجول فيها غسلين الخيانة والزور.

لقد تشدد الإسلام في أمر القذف؛ لأن سمعة المسلم والمسلمة، وعِرضهما عند الله غاليان عزيزان، وأي خدش للعرض قد يعصف بكلِّ حياة الإنسان، ومن هذا المنطلق حرص الإسلام على أعراض المسلمين والمسلمات أن تتناولها الألسنة بلا دليل قاطع.

والإسلام قبل هذا وبعده دين انضباطي نظامي في أمر القصاص، لا يسمح للإنسان أن يقتص لنفسه، بل الحاكم هو الذي يوقع القصاص بعد أن يصدر الشرع الشريف حكمه مدعمًا بالبينات الساطعة والأدلة الصادقة، فلو أن رجلاً رأى امرأته في وضع فاضح مع رجل أجنبي لم يجز له أن يقتل أحدهما أو كليهما، بل لا بدَّ من الرجوع إلى الشرع الشريف، والشرع بعدئذٍ إما أن يوقع على الفاعلين القصاص إذا اعترفا، وإما أن يجري بين الزوجين ملاعنة، ثم يفرق بينهما فراقًا تسقط معه الحقوق الزوجية، ولا يكون بعده رجعة أبدًا. إنَّ دين الإسلام يحرص على الأعراض؛ لأن عرض الحر والحرة كالزجاجة لا يجب كسرها.

نسأل الله -تعالى- أن يزكي قلوبنا وألسنتنا عن كلِّ خوض في أعراض المسلمين، وأن ينقي فروجنا وأعراضنا وأعراض المسلمين من كلِّ ريبة تنال من وضاءتها ليظل مجتمعنا المسلم جميلاً بالكلم الطيب والعمل الصالح.

***

# حكم الخلوة بالمرأة الأجنبية

من آداب المؤمن أن يفرَّ من مخالطة النساء الأجنبيات فراره من الوباء؛ لأن الفتنة والفاحشة والبلاء أكثر ما يأتي من الاختلاط، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو يا رسول الله (يعني: ما رأيك في أقرباء الزوج، كأخيه وابن أخيه وابن عمه؟)، فقال رسول الله ﷺ: «**الحمو الموت**»، يعني أن البلاء أكثره يأتي من أقارب الزوج، وذلك لأنهم ربما دخلوا على الزوجة بحكم قرابتهم لزوجها، ثم إذا هم والمرأة في خلوة، فيكون الشيطان ثالثهم، والخلوة هي أول خطوة نحو الفاحشة، والحق أن ثمة فتنتين هما أعظم ما يخشى المسلم على نفسه ألا وهما فتنة المرأة وفتنة المال الحرام، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»، وفي الحديث الذي رواه الشيخان يقول رسول الله ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**».

ولعل من الأحداث ذات العبرة أن رجلاً تزوج امرأة، فكانت معه على خير حال من الطاعة والأدب وأداء الفرائض، وبعد مدة قدم إليه أخوه الشاب من القرية ليدخل الجامعة، وكان أخوه أيضًا شابًا صالحًا متدينًا، فلما قبل أخوه في الجامعة استشارني أن يسكنه عنده في نفس بيته، وقال لي: بيتي أحسن من السكن الجامعي؛ لأنه يعينه على الدراسة، ويبعده عن مخالطة رفقاء السوء. فنصحته ألا يقدم على تلك الخطوة المشئومة؛ لأن ذلك الأمر سيسهِّل عليه الخلوة بزوجة أخيه، فقال لي: لكنها بفضل الله مصلية صالحة وهو أيضًا مصلٍّ صالح. قلت له: ولكن الشيطان يكون في الخلوة ثالثهما، وحسبك بالشيطان حين يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ويجلب عليه بخيله ورجاله، فيعده ويمنيه ويستنفره بصوته ويشاركه بوسوسته.

ثم غاب عني الرجل مدة من الزمن، وإذا هو ذات يوم في بيتي حزينًا كاسف البال متغير الحال، فعلمت منه أنه طلَّق زوجته الصالحة بعد أن ارتاب من تصرفها مع أخيه الصالح،

وهنا قلت له: إن أمر الله فوق الاجتهاد، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولقد أمرنا الله أن نمنع زوجاتنا من الاختلاط ولو بأحمائها لكنك جعلت لنفسك الخيرة، وأنت تعلم أن حكم الله فوق كل حكم، وأن حكمته البالغة فوق كلِّ حكمة.

واعلم أنه لا أحد أعظم غيرة من الله على حرماته وحدوده، فقد روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: **«لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**، وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ ردَّ رجلاً من الغزو حين علم أن زوجته تحج وحدها دون محرم، وقال له: **«اذهب وحج مع امرأتك»**.

ومن آداب المؤمن حيال المرأة أن يعتبر كل نساء المؤمنين عرضًا له، وإذا عرض له الشيطان بإغراء تذكر ابنته وزوجته وأخته وعمته، وقديمًا قالت العرب: كلُّ ذات صدار خالة، يعني أن كل امرأة يجب أن تعتبرها خالة لك في حرمتها والعفاف عنها.

ومن آداب المسلم إزاء النساء أن يتجنب الجلسات المختلطة التي يجتمع فيها الرجال والنساء بحجة أن الجميع أصدقاء، فيجلسون وقد بدت من بعض النساء ركبهن وعوراتهن، ويقول لك كل مخدوع من أولئك الرجال: أنا واثق بامرأتي، ثم لا يكاد يمضي على تلك الجلسات وقت حتى ترى العلائق الشيطانية؛ لأن الشيطان يجمِّل الحرام، وكم من رجل تعلق بامرأة قبيحة وزوجته أجمل منها بكثير.

ومن آداب المؤمن إذا مشى في الأسواق أن يغض بصره، وإذا وقعت منه نظرة مفاجئة، فليرد بصره؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لمن سأله عن نظر الفجأة: **«اصرف بصرك»**.

هذا، وحري بالمؤمن أن يصون عينيه عن العورات مهما كانت، وأن يصون عورته أن تُرى؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»**.

هذا، ومن آداب المؤمن أن يسدَّ كل الذرائع والوسائل الموصلة إلى الفاحشة من نظر

العينين وسماع الأذنين وكلام اللسان وأحلام القلب، فكل هذه ذرائع للفاحشة أوصى الإسلام بسدها؛ ففي الصحيحين والرواية لمسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدركٌ ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه**».

هذا، ومن آداب المسلم المؤمن أن يعتبر بما يحدث للزناة من البلاء والمرض والاحتقار والفضيحة وسقوط المروءة، يقول النبي ﷺ: «**إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله**». وفي سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**الزنا يورث الفقر**».

ولفداحة جريمة الزنا أغلظ الإسلام عقوبتها، فجعل عقوبة الأعزب الجلد والتغريب، وجعل عقوبة المحصن القتل رجمًا، وفي الآية الكريمة ما يبين شدة نقمة الله على الزانية والزاني حين جعل عقوبتهما علنية، وأمر أن يكون الضرب شديدًا سواء أكان جلدًا أو رجمًا بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النور: ٢].

هذا، ومن أدب المؤمن إزاء فتنة النساء ألا يسافر إلى بلاد الكفر إلا للضرورة القصوى كعلاج مثلاً أو معاملة لا يجزى فيها غير صاحبها أو طلب للعلم؛ لأن تقاليد الآخرين غير تقاليد المسلمين، والفاحشة في بعض بلاد الكفر ملقاة على قارعة الطريق، وإذا كانت الهجرة من ديار الكفر فرضًا على المؤمن؛ فكيف يهجر المسلم دار الإسلام، ويعلق رأسه بديار الكفر؟!

وبكلمة موجزة؛ فإن المؤمن يحذر الاختلاط ويحتقر دعاته؛ لأن أعظم أسباب الفاحشة هو الاختلاط، وكلُّ من دعا إلى اختلاط الرجال بالنساء في معمل أو جامعة، فذلك الهدام الذي أعمل في أمته معول الفساد.

* * *

# من أحاديث الآداب

## أحكام الجهاد وآدابه

### التضحية في سبيل العقيدة (الجهاد)

**الحمد لله الذي صدق وعده، وأشهد أن لا إله إلا الله أعز جنده، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله خاتم الأنبياء فلا نبي بعده، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا أنصار الله وجنده.**

لقد أتاحت لي دراسة التاريخ أن اطَّلع على نماذج ومواقف من البطولات العربية والعالمية، فما وجدت أعظم ولا أخلد من مواقف الشجاعة التي قرأناها في سير أبطال الإسلام، وهذا أمر لا غرابة فيه؛ لأن العقيدة حين تشربها النفوس تنضح على كلِّ أفعالها وأقوالها ومواقفها، وعندئذٍ تكتسب كل هذه صبغة العقيدة وتنهل من معينها، وتصدر عن روحها وطبيعتها.

والعقيدة الإسلامية تربِّي المؤمن على عقيدة التوحيد، وتعلِّمه حبَّ الله ورسوله والمؤمنين، ثم هي تغرس فيها اعتقادًا راسخًا أن المؤمن مصنوع على عين الله مكتوب في حزبه، ومن ثم فحياته وعبادته وصحته ومواهبه لا بدَّ أن تجند لخدمة دين الله الذي هو دين الهدى والحق والعدل والإحسان ودين الكرم والتضحية وصنائع الخير.

إنَّ شجاعة المؤمن تنصهر في بوتقة عقيدته، فتخرج بإذن الله شجاعة من طراز رفيع فيها الإقدام الجارف الذي لا يعرف الخوف وفيها الشرف الرفيع وفيها الوفاء الذي لا يعرف العذر، ومن هنا رأينا تاريخ الإسلام دروسًا في كل خصائص العظمة الإنسانية يتتلمذ عليها كل من شاء أن يكون عظيمًا.

**وإني مورد هنا قطرات من بحر تلك السيرة الماجدة العطرة أقدمها لشجعان الدنيا ليتعلموا منها كيف تتحول النفس الإنسانية طاقة جبارة لا تنهض لقوتها قوى البشر:**

- جاء في كتب السيرة أن صبيان المؤمنين في المدنية كانوا يتسابقون إلى الجهاد، ويتمنى

كل منهم أن يرافق رسول الله ﷺ، فلما كان يوم أحد ردَّ النبي ﷺ سبعة من الصبيان رآهم صغار السن، فخشي عليهم ألا ينهضوا لسطوات الكبار الصناديد، وكان من بين أولئك الصبية «رافع بن خديج» و«سمرة بن جندب» -رضي الله عنهما، فتقدم رافع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، أنا صغيرٌ ولكني أجيد الرماية، وقلَّ أن أخطأ لي سهم، فامتحنه رسول الله ﷺ في الرماية، فرأى منه مهارة عجيبة، فأجازه إلى القتال، ففرح رافع ﷺ فرحةً كاد معها يطير، وهنا غار منه سمرة بن جندب ﷺ ورجع من المسجد حزينًا، واشتكى إلى زوج أمه فقال: إن رسول الله ﷺ قد أجاز رافع بن خديج ليقاتل في أحد، وردني مع أني أصرع رافعًا، وقد تصارعنا مرات فصرعته، فلما كان اليوم التالي أخبر عمُّ سمرة بن جندب رسول الله ﷺ بشكوى سمرة، وأنه متألم لأنه حجب عن القتال في أحد، وأخر رافع بن خديج مع أنه يستطيع أن يصرع رافعًا. فدعا رسول الله ﷺ رافعًا وسمرة وأمرهما أن يتصارعا فلما تصارعا صرع سمرة بن جندب رافع بن خديج، فأجاز رسول الله ﷺ سمرة للقتال في أحد؛ حيث أبليا -رضي الله عنهما- بلاءً حسنًا، ألا ما أعظم أن تكون طموحات الشباب كطموحات سمرة بن جندب ورافع بن خديج، لا أن تكون في شريط أو سيارة ولهو حرام.

- أما الموقف الثاني من مواقف البطولات الخالدة، فقد وقفه صحابي اسمه «سماك بن خرشة»، ولقبه أبو دجانة وهو من بني ساعدة من الأنصار، وكان أيضًا في أحد، في ذلك الموقف قام رسول الله ﷺ وبيده سيف صارم فقال: «**من يأخذه هذا السيف بحقه؟**» قيل: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**أن يقاتل به من يأخذه حتى ينثني**». قال أبو دجانة: أنا يا رسول الله، وتناول السيف ثم عقد على رأسه عصابة حمراء، وكانت عصابة مشهورة إذا لبسها أبو دجانة عرف الناس في وجهه الشر والقتال، واندفع كالصاعقة المدمرة، فما لقي أحدًا قِبله إلا قتله حتى لقد قال بعض من شهده: رأيت إنسانًا يَحمش الناس حَمشًا كأنه الوحش، قال أبو دجانة: ومضيت أثخن المشركين حتى اعترضني فارس ملثم، فسمعت منه صوت امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أقتل به امرأة، ثم رأيت على البعد فارسًا يقتل كل من يلقاه من المسلمين، حتى إذا تلاقينا تبادلنا ضربتين فخرَّ صريعًا، ثم رأيت مشركًا يقال له: عبد الله بن حميد بن زهير يصيح بأعلى صوته: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا، فقلت له: بل أدلك على

نفسي، وكررت عليه كالصقر فعقرت فرسه، فلما طاح علوته بالسيف، وكم كان سروري حين رأيت رسول الله ﷺ ينظر إليَّ حين ضربته، وهو يقول: «**اللهم ارض عن ابن خرشة كما أنا عنه راضٍ**»، ولما رأى المشركين وقد أحاطوا برسول الله ﷺ يرشقونه بالنبال من كلِّ الجهات ترس نفسه دون رسول الله ﷺ كي لا تصيبه السهام، وكانت تقع عليه وهو لا يتحرك، مفدِّيًا رسول الله ﷺ بحياته، فنعم الفدائي ونعم المُقْتَدَى، ونعم البطولة حين تصدر عن منابع الإيمان الصافية.

- أما الموقف الثالث؛ فقد وقفه أبو قتادة الأنصاري ﷺ يوم أبلى أعظم البلاء في أحد، فأصابه سهم في إحدى عينيه، فلم يفقأها، ولكن العين خرجت على هيئة كرة معلقة بعرق قوي، وفكَّر ﷺ أن يقطع العرق حتى لا تحول بينه وبين القتال، ولكنه صبر ﷺ حتى وصل رسول الله ﷺ، وكانت معجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام أن ردَّها إلى مكانها، ومسح عليها بريقه المبارك، ثم عصبها وربط فوقها فشفى الله أبا قتادة، وكانت عينه هذه المصابة بعدئذٍ لا ترمد، وبالمناسبة بعد خمس وتسعين عامًا من هذا الحادث تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فجاءه زعماء القبائل بعضهم يهنئ وبعضهم يفاخر، وكان من بين الوفود أحد أبناء أبي قتادة الأنصاري ﷺ، فأنشد رحمه الله:

**أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فرُدَّت بكف المصطفى أحسن الرَّد**

**فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسْنها عينا ويا حسن ما رد**

فأقبل عمر بن عبد العزيز على ابن أبي قتادة وقال: لعمر الحق هذا هو الفخر، ولم يعبأ بما فاخر به زعماء القبائل حتى سمع اسم أبي قتادة، فتذكر تلك السيرة العطرة الحافلة، بصدق الإيمان والتضحية في سبيل الله.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٠- ١٢١].

# آداب الجهاد

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمه، وأشهد أن لا إله إلا الله، رفع بالمجاهدين رايته وأعلا كلمته، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله جعل الجهاد سنام أمره وذروته، اللهم صلِّ على محمد وأكرم بشفاعته أمته.

إنَّ أجَلَّ موقف في حياة المؤمن، وأسمى مقام يقومه هو موقفه وهو يقاتل أعداء الله ومقامه وهو يقدِّم روحه وحياته لله، وذلك لأن الجهاد سنام الإسلام وعموده، وهو ذخر العمر وخلوده، وفي هذه الديار مجال واسع لدروب التضحية وطرق الجهاد، فالجيش والحرس الوطني والأمن العام كلها ميادين للجهاد إذا صدق المواطن هجرته وأخلص نيته، ولأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، فقد ربأ الله بالشهداء عن الموت؛ لأن الكريم ﷻ لا يرضيه أن يكافئ من بذل حياته لله بأن يميته، وإذن فليظل الشهيد حيًّا عند ربه يُرزق ويتمتع بالجنة، وساكنها لا يسمَّى ميتًا.

**ومن أجل جلال الموقف وعظمة التضحية كان على المجاهد أن يتحلى في جهاده بآداب ينال بها الشهادة ويحقق ثواب التضحية:**

**أولاً**: أن يكون خروجه للجهاد خالصًا مخلصًا لوجه الله، فلا يكون لرتبة ينالها أو مغانم يحققها أو دعاية يشتهر بها أو بطولة تنسب إليه وينسب إليها.

إنَّ الصحابي الذي قتل رستم في القادسية تملكه الفرح أول الأمر، فصاح: قتلت رستم وربِّ الكعبة، ولكنه تذكر خلوص العبادة من الشرك فاختفى ولم يشعر به أحد، ومن الثابت في الحديث الصحيح أن الله ﷻ يُسعِّر النار بعالم ومتصدق وشهيد، فيقول للشهيد الذي نال اللقب في الدنيا: لقد قاتلت ليقال: شجاع، فقد قيل، ثم يأمر به فيلقى في النار.

وفي تفسير قوله تعالى في سورة «محمد»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، قال الأشياخ: إن معناها لا تضيعوا صالحات أعمالكم وحسناتكم بالتفاخر والرياء والسمعة، فتلك ماحقة للعمل.

وقرأنا في تاريخ الإسلام أن مَسلمةَ بن عبد الملك غزا غزوة غرب الأناضول، فحاصر

حصنًا شديد الحصانة، فهجم رماة الروم على المسلمين يرشقونهم بوابل من النبال حتى استشهد من جيش المسلمين عدد كبير، ولما استمر القتل في المسلمين رأى الجنود رجلاً من الجيش يهجم على ثغرة من ثغرات الحصن وبيده فأس ضخمة، فلم يزل يضرب بفأسه والنبال تتساقط من حوله، وهو لا يبالي حتى فتح ثغرة كبيرة وانطلق منها بفأسه وسلاحه كالصاعقة، واستحكم يقتل الكفار بالسيف وبالفأس وبالسهام حتى وصل باب الحصن وفتحه، وكان النصر والفتح على يدي ذلك الفدائي.

واختفى -رحمه الله- فلم يدر عنه أحد، وكان مسلمة -رحمه الله- قائدًا صالحًا متواضعًا يحب المجاهدين المحتسبين، فأرسل مناديًا ينادي: إن مسلمة يناشد الله صاحب النَّقب أن يقابله في خيمته، وبعد أن هدأت الأمور استيأس مسلمة من لقاء البطل جلس القائد وحوله أعوانه، وإذا رجل يستأذن للدخول عليه فأذن له، فقال: لا أستطيع خطابك إلا بيني وبينك، فخلا به القائد فقال الرجل: أنا أعرف صاحب النقب، ولكنه اشترط قبل أن أخبرك أن تعاهده على ثلاثة أمور: ألا تسأله عن اسمه، وألا تتعقبه لتعرف مكانه، وألا تخبر عنه أحدًا حتى لا ينقص ثوابه بثناء الناس، فعاهد مسلمة الرجل على كل ما طلب، فقال الرجل وكان ملثمًا: أنا صاحب النقب، وخرج في الحال فلم يستطع مسلمة أن يفعل شيئًا، لكنه كان إذا صلّى دعا الله أن يحشره مع صاحب النقب.

**ثانيًا:** أن يسلك الشهيد من اللحظة الأولى سلوك الخائف من ذنبه المتوكل على ربه، فيفتح مع الله ﷻ صفحة جديدة نظيفة من المعاصي وضيئة بالعزيمة الصادقة والجراءة الصامدة، يقول ربنا -جلَّ وعلا: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وعلى المجاهد أن يؤمن أن النصر من عند الله يورثه عباده الصالحين وخلصاءه المؤمنين، يقول الله -تعالى- في سورة «الروم»: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكتب عمر ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ وهو بالقادسية ما معناه: «اعلم أن ذنوب الجيش أخطر عليهم من عدوهم؛ لأننا إنما ننتصر على العدو بذنوب عدونا ومعصيتهم لله، فإذا استوينا وإياهم في المعصية ظل لهم فضل القوة».

**ثالثًا**: ومن آداب المجاهد ألا يخاف الموت، وأن يعلم من قرارة يقينه أن الأجل في كتاب، وهو أجل محدد ومسمى إذا جاء لا يؤخَّر، وأن المجاهد في سبيل الله يرجو رحمة ربه ويدخل الجنة في لحظة استشهاده، ومن ثم فليس بينه وبين مرضاة الله ورضوانه وجنته إلا أن يقبل، فيستريح من مكابدة الحياة، وينعم بدار الخلود والبقاء، إنَّ هذا الإحساس هو الذي جعل آباءنا وسلفنا في معاركهم كأنهم صواعق الموت على رءوس الأعداء.

وكان العشرون الصابرون المحتسبون يغلبون مائتين، ولقد قرأنا في فتوحات الإسلام أن جيش خالد في اليرموك لم يزد في أي وقت على أربعين ألفًا، وأن الروم هاجموهم بمائة وعشرين ألفًا، لكن المؤمنين كانوا يعلمون أن النصر مع الصبر والإيمان والاحتساب، كانوا يفقهون مرامي قول ربهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فكانوا إذا رأوا كثرة الأعداء وشراستهم رددوا ما ذكره الله عن أسلافهم المجاهدين: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، وانظر في هذه الآية الكريمة تلك الدرجة العظيمة في مدارج السالكين، إنهم يقدمون أرواحهم لله ربهم وهم خائفون من ذنوبهم مستغفرون لإسرافهم في أمرهم عالمين أن الخطايا تجر الهزائم ما لم يغفرها ربنا تبارك وتعالى.

**رابعًا**: أن يلتزم المجاهد بالوصايا التي كان يوصيها رسول الله ﷺ للمجاهدين، فقد كان إذا ودَّعهم كما جاء في سنن أبي داود يقول: «**بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا** (أي: لا يختلس أحدكم أي حُطام كبيرًا كان أم صغيرًا)، **ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا كبيرًا**»، وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ نهى أن يلقى السم في بلاد العدو، وينطبق على هذا الأسلحة الكيماوية السَّامة.. هكذا فليكن قتال الشرفاء ومنهاج الحرب الشريفة الذي حطمه اليهود ببغضائهم والنصارى بتعصبهم.

روى البخاري أن النبي ﷺ ائتمن على بعض ثقله (أي: أمتعته) رجلاً يقال له: كركرة، فمات فقال عليه الصلاة والسلام: «هو في النار»، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها (أي: اختلسها).

**خامسًا**: أن يبعد من أهدافه أي عصبية أو انقياد أعمى، فلا يقاتل إلا تحت راية الجماعة

المنيرة بالوحدة والإيمان مبتعدًا عن شعارات التفرقة وهتافات الغوغائية، قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي: **«من قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتل فقتلةٌ جاهليةٌ»**.

**سادسًا:** ألا يفر من الزحف مهما كانت الأسباب؛ لأن الفرار من الزحف من الكبائر، والفار من الزحف جبان لئيم فضل روحه على أرواح إخوانه، قال عليه الصلاة والسلام: **«ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»**.

**سابعًا:** أن يتفقد ديونه فيوفيها قبل توجهه إلى القتال، ففي صحيح مسلم: **«يغفر الله للشهيد كل شيء إلا الدين»**.

أسأل الله لي وللإخوة القراء ولجميع المسلمين أن يحيينا بمعرفته ويكرمنا بالشهادة في سبيله.

بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

## الجهاد والشهادة وأحكامهما

إنَّ ذروة الإسلام وقمة العمل الصالح الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة في مرضاته، ولعل سبب هذه المنزلة التي بوأها ربنا المجاهدين والشهداء أن تضحية المجاهد أشرف التضحيات وأجلها، فما أغلى على الإنسان من نفسه؟! وكيف لا ومن أجل الحفاظ عليها يكون كفاحه وحرصه وكدحه وادخاره ويقظته وسهره، وحين يحمل المرء هذه العزيزة الغالية على راحته فيرخصها في رضا ربه ويقدمها هدية متواضعة لخالقه ويبيعها لربه الكريم المتفضل ليشتري بها جنته، أقول: حين يفعل هذا يكون عند الله ﷻ أجدر الناس بالمكافأة الجزيلة والعطاء الجليل، فلا غرو إذا كافأ الله -جلَّ وعلا- الشهيد بحياة لا تموت أبدًا؛ لأن الجزاء

عند الله ﷻ يكون من جنس العمل، وما دام الشهيد قد قدَّم لله حياته فجزاؤه عند ربه حياة دائمة في جنة رضوانه؛ إذ تنتقل روحه ساعة مفارقتها جسمه إلى الجنة، ولا تمر بها تمر به الأرواح الأخرى من حياة البرزخ في القبر.

**وهذه أحاديث شريفة حول الجهاد والشهادة وأحكامهما نوردها ثم نتبعها -إنْ شاء الله - بتفصيل لتلك الأحكام:**

- روى مسلم -رحمه الله- من حديث سليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا وقي من فتنة القبر، ونما له عمله إلى يوم القيامة**».

- وروى أصحاب السُّنن عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن قاتل في سبيل الله مقدار ما تحلب الناقة ناقة وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل في سبيل الله صادقًا من نفسه ثم مات أو قتل** (يعني في غير المعركة) **كان له أجر شهيد، ومن جرح جرحًا في سبيل الله أو نكب نكبة، فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك، ومن خرج به خراج في سبيل الله** (أي: خرج مجاهدًا فلم يقتل)**، فإن عليه طابع الشهداء** (أي: يأخذ هيئة الشهيد وسمته وثكله ويجزى بجزائه يوم القيامة).

- وفي جامع الترمذي: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**».

- وفي الصحيحين والسُّنن: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفترق من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**».

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار**».

- وفي صحيح مسلم: «**لا يجتمعان في جوف مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم**».

- وفي صحيح مسلم أيضًا: «**من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة**». وأخرى: «**يرفع بها الله العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء**

والأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» (ثلاثًا).

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة تحت ظلال السيوف».

- وفي السير وسنن أبي داود أن رجلاً من الأنصار اسمه عمرو بن أقيش أجل إسلامه إلى أن يجمع ربا له كان على الناس، فجاء يوم أحد فسأل عن أبناء عمه وكثير من أصدقائه، فقالوا له: كلهم في أُحد. فلبس لامته (أي: درعه)، وركب فرسه وتوجه قبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو (أي: أبعد عنا شرَّك)، فقاتل ﷺ حتى جرح جراحًا بليغة، فحمل إلى أهله، فجاءه سعد بن معاذ ﷺ وقال لأخته: سليه أحميةً لقومك أم غضبًا لهم أم غضبًا لله تعالى؟ قال: بل غضبًا لله تعالى ورسوله، فمات فدخل الجنة وما صلى لله صلاة.

- وفي الحديث المتفق عليه: «من جهَّز غازيًا في سبيل الله، فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا».

- وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. جاء في سنن أبي داود وبمعناه في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

**أولاً**: الجهاد في سبيل الله أشرف الأعمال قاطبة دون استثناء، فلو أن مسلمًا مضى يجاهد في سبيل الله ومسلمًا آخر قام للعبادة لا يفتر وواصل الصيام لا يفطر لكان ثواب الأول أعظم من ثواب الثاني؛ لأن مقام الجهاد المخلص المحتسب يحمي به الله حرمات الإسلام وديار المسلمين وأعراضهم، والجهاد يصبح فرض عين إذا هوجم الإسلام أو انتهكت حرماته أو انتقصت أطرافه أو اعتدى عدو على أي قطر من أقطاره، ويكون فرض كفاية في حالة انقطاع

الأعداء عن الدسائس وجنوحهم إلى السَّلم.

**ثانيًا**: والمجاهد في سبيل الله يرجع بأجر عظيم سواء أقتل أم غلب وعاد غانمًا، قال تعالى في سورة «النساء»: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

**ثالثًا**: لا تنتظر روح الشهيد في قبره لتجتاز مرحلة البرزخ، لكنها حالما تخرج تدخل الجنة تشرب من أنهارها وتأكل من ثمارها وتستقبلها الحور المطهرات، ولهذا لا يسمَّى الشهيد ميتًا؛ لأن الذي يعيش في الجنة هو الذي يتمتع بالحياة الحقيقية، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقد وصف الله ﷻ دعوة الحاكم المسلم شعبه إلى القتال بأنها دعوة إلى الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، نعم إنها في ظاهرها قتل وموت، لكنها في حقيقتها طريق العزة والكرامة والحياة الكريمة.

**رابعًا**: لو أن مسلمًا لم يصل لله ركعةً ولم يصم يومًا توجَّه في معركة إلى ساحة الجهاد على نية الجهاد في سبيل الله، فقتل في المعركة مقبلاً صابرًا محتسبًا؛ فإنه ينال منزلة الشهيد، ويكون جارًا لأبي بكر ﷺ مع النبيين والصديقين.

وقد يسأل سائل فيقول: كيف نال كل هذه الكرامة بعمل واحد؟! والجواب أن الله ﷻ يأمر الملكين ألا يقفلا كتاب عمل الشهيد، وألا يختما عليه كما يفعلان عند موت الإنسان، بل يظل الكتاب مفتوحًا، ويهدي ربنا الشهيد إلى عمل الصالحات بعد موته، ويلهمه من الأقوال والأفعال ما يعوض به عن أيام تقصيره، كما جاء في قصة عمرو بن أقيش يوم أُحد، فيكون الشهيد في مقعده بالجنة، لكن تراه عابدًا قانتًا ساجدًا راكعًا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في سورة «محمد»: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

إنَّ للشهيد عند ربنا كرامة لم يجعلها لغيره، ولا غرو فالجهاد أعظم درجات الكرم والتضحية والحرب لإحقاق الحق وأشرف طموحات الأبطال، ومن ثم فالعين التي تحرس في سبيل الله والجوف الذي يؤزُّ أنفاسه غبار الحرب لا تمسهما النار؛ لأنهما أكرم عند الله من أن يعذبا.

## آداب الجهاد والحرب في الإسلام

الجهاد في سبيل الله من أعظم أوامر الشرع الإلهي حتى لقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه ذروة الأمر وسنامه، أي أنه أعلى وأجل ما في أوامر الشرع الشريف.

هذه الحقيقة التقطها أعداء الإسلام ليرجفوا ويغالطوا ويفتروا وليزعموا أن شعار الإسلام هو القتل والحرب وسفك الدماء، وتناسوا أن الإسلام حين شرع الجهاد في سبيل الله شرع في الوقت نفسه آداب الحرب وأهمها أن يكون الجهاد مخلصًا لوجه الله وخاليًا من أطماع الدنيا الفاتنة الفانية وأغراضها الرخيصة، وأنه لا يكتب في سجل الشهداء الزاهر إلا من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

وهذه بعض أحاديث تدور حول آداب الحرب والجهاد في الإسلام نوردها ثم نتبعها – إنْ شاء الله– بنبذة عن أحكام وآداب التزمها المسلمون في الحروب بتوجيهات من نبيِّهم الكريم والخلفاء الراشدين المهديين:

– في الحديث المتفق عليه: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله».

– وفي صحيح مسلم –رحمه الله: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلاَلٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ

أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ».

- وفي سنن أبي داود: «انطلقوا باسم الله ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً صغيرًا ولا امرأةً».

- وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لرجل مشرك تبعه يوم بدر: «ارجع فلن استعين بمشرك».

- وفي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه فأنكر قتل النساء والصبيان.

- وروى أبو داود -رحمه الله- أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف.

- وروى أيضًا أن النبي ﷺ قال: «إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم».

- وفي الصحيحين عن علي ﷺ قال: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم».

- وفي الصحيحين من حديث أم هانئ بنت أبي طالب أن النبي ﷺ قال لها: «قد أجرنا من أجرت».

- وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ أخذها -يعني الجزية- من مجوس هجر.

- وروى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب».

- وفي سنن أبي داود أن أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى أُكَيْدِرِ دُومَةَ فَأُخِذَ فَأَتَوْهُ بِهِ، فَحَقَنَ لَهُ دَمَهُ وَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ.

- وروى أصحاب السُّنن عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: بَعَثَنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ وَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِدْلَهُ مَعَافِرَ (الذي يمشي مع الرفاق لينال فضلهم)، وَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ بَقَرَةً مُسِنَّةً وَمِنْ كُلِّ ثَلاَثِينَ بَقَرَةً تَبِيعًا حَوْلِيًّا، وَأَمَرَنِي فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْعُشْرَ وَمَا سُقِيَ بِالدَّوَالِي نِصْفَ الْعُشْرِ».

- وفي صحيح البخاري -رحمه الله- أن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**».

**وهذه بعض الأحكام المتعلقة بآداب الحرب مستقاةً من الأحاديث النبوية:**

١- الإسلام دين حضاري رسم للجهاد والحرب هدفًا أسمى لا يجوز أن يخالطه غيره، وهو أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا.

٢- قبل البدء في الحرب والقتال على القائد المسلم أن يتصل بالأعداء فيدعوهم أول شيء إلى الإسلام، ويخبرهم أن من يعلن إسلامه ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقد انضم إلى الأمة الإسلامية، وأحرز دمه وماله وعرضه وكل حقوق المسلم، فإذا أبوا إلا التمسك بدينهم، فعليهم أن يدفعوا جزية لبيت مال المسلمين في مقابل توفير الحماية والأمن لهم ولذراريهم، وفي مقابل حريتهم في إقامة شعائر دينهم، وفي مقابل إعفائهم من الجهاد والحرب، والجزية يقدرها الحاكم المسلم على ضوء حرفة دافعها وسنِّه وعائلته، وقد أعفى عمر ﷺ من الجزية عجائز أهل الكتاب، وفرض للمحتاجين منهم عطاء من بيت مال المسلمين، ولا غرو فالإسلام يعتبر الإنسانية عائلة واحدة.

٣- إذا أبى الكافرون دفع الجزية والدخول في الإسلام، فلا يبقى عندئذٍ من وسيلة إلا قتالهم ليظهر دين الله على كل دين، ويكون دين الله هو الأعلى، ويكون الدين كله لله، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ومعنى الآية الكريمة على المسلمين أن يقاتلوا الكافرين حتى لا يقوى الكفر، فيفتن المؤمنين عن دينهم، ويظل دين الله ظاهرًا على كلِّ دين.

٤- إذا دخل المسلمون حربًا، فعليهم أن يلتزموا آداب الحرب كما سنها لهم رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وذلك بأن يخلصوا هجرة جهادهم لله وحده لتكون كلمة الله هي العليا، ثم عليهم أن يكونوا شرفاء في حربهم كما هم عادلون في سلمهم، وألا يقاتلوا إلا كافرًا، وألا يمثلوا بالقتلى، وألا يقتلوا طفلاً ولا امرأةً ولا شيخًا ضعيفًا عن القتال، وهي كما يرى القارئ وصايا تضع دستور الحرب الحضارية التي كفر بها الصهاينة وغيرهم حين لم يرحموا طفلاً ولا امرأةً ولا شيخًا، بل ولا وليدًا في مهده.

٥- وعلى المسلمين أن يحترموا عهد أي مسلم من المجاهدين وغيرهم، فقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب أسيرًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، وإذا أبرم المجاهدون عهدًا للأعداء أصبحوا ذميين، لهم حق صيانتهم في أموالهم وأعراضهم وأبنائهم، ومن قتل من المسلمين ذميًّا معاهدًا لم يشم رائحة الجنة، وما أصدق شوقي -رحمه الله- حين مدح النبي الكريم فخاطبه:

وَإِذا عَفَوتَ فَقادِرًا وَمُقَدَّرًا ... لا يَستَهينُ بِعَفوِكَ الجُهَلاءُ

وَإِذا أَخَذتَ العَهدَ أَو أَعطَيتَهُ ... فَجَميعُ عَهدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفاءُ

الحَربُ في حَقٍّ لَدَيكَ شَريعَةٌ ... وَمِنَ السُّمومِ الناقِعاتِ دَواءُ

## حبُّ الله ورسوله (الجهاد)

الحمد لله الذي رزقنا حبه وحب رسوله والمؤمنين، وأشهد أن لا إله إلا الله، الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضل الرسل وخاتم النبيين، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

**أما بعد؛** إنَّ أعظم أثر تركه الإسلام في شباب الإسلام هو أنه استغل فيهم حبهم للفروسية، فوجههم إلى طموحات الخير وحب الجهاد، وأوجد فيهم عشق العلا وسمو الطموحات، ولقد حبب إليهم معالي الأمور، وكرّههم في سفاسفها، ونقل طموحهم من حبِّ الشهوات وركوب الخيل للغزو والنهب والسلب، فلما جاء محمد ﷺ بالهدى ودين الحق علَّمهم حب الله ورسوله والتضحية في نصرة دينه، وسما بتطلعاتهم حتى أوصلها إلى ما فوق السموات السبع إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، لقد صار حبُّ الله ورسوله أهم عندهم وأغلى من الوالد والولد، ومن كلِّ غالٍ من متاع الحياة.

**وإلى الإخوة القراء هذه المواقف العطرة من تضحيات الخالدين صدر عنها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً:**

- جاء في الصحيحين والسير ما معناه أن أحد فتيان الأنصار واسمه معاذ بن عمرو بن الجموح هجم على أبي جهل في غزوة بدر فضربه بسيفه على ساقه فقطعت قدمه ونصف الساق، فانقض عكرمة بن أبي جهل على الفتى فضربه بالسيف على عاتقه، فقطع يده، لكنها لم تنفصل وظلت معلقة بجلده، فشعر معاذ بن عمرو بن الجموح أن تلك اليد تعوقه عن القتال، ولكي يتخلص من تلك اليد ويستأنف الجهاد بقوة وضع كفه على الأرض، ثم داس عليه بقوة وتمطى إلى الخلف فانفصلت اليد وسط ألم شديد، وقاتل ﷺ سائر يومه.

- وفي الصحيحين أن أنس بن النضر غاب عن يوم بدر فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال مع المشركين؛ لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين)، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد الجنة، ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله أن أصنع ما صنع أنس، فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد مثل به المشركون، فما عرفه إلا أخته بشامة له أو بشكل أصابعه.

- وروى مالك -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال في أواخر أحد: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، وسعد هذا ﷺ كان من السابقين الأولين في الإسلام، ومن نقباء العقبة. فتطوع محمد بن مسلمة ومضى حتى وجده جريحًا وبه رمق، فقال سعد ﷺ لمحمد: ما شأنك؟ فقال محمد: إنَّ رسول الله يبلغك السلام، وقد أمرني أن أنظر ما صنعت، وهل أنت في الأحياء أو الأموات، فقال سعد ﷺ: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ، وقل له: إن سعدًا يقرئك السلام، ويقول لك: جزاك الله خيرًا عن الإسلام، فلولاك بعد الله ما آمنا. ثم قل لقومي: لا عذر لكم إنْ تركتم المشركين يصلون إلى رسول الله ﷺ، وفيكم عين تطرف.

وعلى ذكر سعد بن الربيع، فإن أبا بكر ﷺ رئي وهو يقبِّل طفلة لسعد بن الربيع ويشمها ويرتب رأسها، فقيل له: من هذه الطفلة؟ فقال: هذه ابنة رجل أفضل مني ابنة سعد بن الربيع.

- وفي سيرة ابن هشام أن أبا عزيز (وهو أخو مصعب بن عمير ﷺ) وقع في الأسر يوم

بدر، وكان الذي أسره رجل من الأنصار يقال له: أبو اليسر، وبينما كان أبو اليسر يسوق أبا عزيز مرًّا على مصعب بن عمير ، فصاح به أخوه أبو عزيز: يا مصعب، أنا أخوك، فالتفت إليه ولم يعره انتباهًا، وقال لأبي اليسر: اشدد وثاقه يا أبا اليسر، فإن أمه غنية وهي قادرة على دفع فدية عظيمة. قال أبو عزيز: أتقول هذا يا مصعب وأنا أخوك؟ فقال مصعب: لست أخي؛ لأنك كافر، لكن أبا اليسر هو أخي دونك.

- وفي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حين انكشف عنه المسلمون نفذ إليه المشركون فجرح جراحات بالغة وأشيع أنه عليه الصلاة والسلام مات فبكاه المؤمنون بالمدينة بكاءً عظيمًا، فلما كتب الله له السلامة وعاد هو وصحبه إلى المدينة لقيتهم امرأة أنصاري من بني دينار، فقالوا لها: أحسن الله عزاءك في زوجك وأبيك وأخيك، فقالت: ويلكم ما عن هذا جئت أسأل، ولكن كيف رسول الله ﷺ؟ قالوا لها: هو بخير وعافية من الله، فقالت: أرونيه كي أطمئن، فأخذوها إليه، فلما رأته فرحت وأقبلت عليه وهي تقول: كل شيء بعدك يا رسول الله جلل (أي: بسيط).

**أولاً:** حب الله ورسوله من أرقى مراتب السلوك وأجل ضروب العبادة، يقول الله -تعالى- في سورة «البقرة»: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦]، وذلك لأن هذا الحب الأعظم يهوِّن على المؤمن كل التضحيات في مرضاة الله ورسوله، ويسمو بالعقيدة في نفسه حتى يراها أغلى من ماله وولده والناس أجمعين.

إنَّ أمة تفضل عرض الدنيا على الله ورسوله وجهاد في سبيل الله هي في نظره -تعالى- أمة فسقت عن أمره، يقول ربنا ﷻ في سورة «التوبة»: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[التوبة: ٢٤].

**ثانيًا:** إنَّ حب الله ورسوله لا يكون بالدعاوى التي لا تقوم عليها دليل ولا بالتشدق الذي لا يصاحبه عملٌ جليل، فحب الله ورسوله هو قول وعمل واعتقاد، يقول ربنا ﷻ في سورة «آل عمران»: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

**ثالثًا:** حبُّ الله ورسوله هو سبب النصر الذي أحرزه السلف في معاركهم؛ لأن ذلك الحب كان يحدث في الجيش المسلم سباقًا نحو التضحيات، فيهجم وهو على أتقى قلب رجل غير مبالٍ أن يقدم نفسه لله بأن له الجنة، وهذا ما قدَّمناه في قصص السُّنة التي أوردناها، فقد كان همُّ شباب الأنصار هو التنافس في طاعة الله ورسوله، وحين قتل خمسة من شباب الخزرج كعبًا بن الأشرف ذلك اليهودي المؤذي لم يهدأ لشباب الأوس بال حتى سافر خمسة منهم إلى تبوك ليريحوا رسول الله ﷺ من يهودي آخر كان يؤذيه، وهو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٥، ١٦٦].

اللهم ارزقنا حب الله ورسوله والجهاد في سبيله.

## الثبات والصبر في مواجهة الأعداء

من آداب المؤمن إذا واجه العدو ألا تحدثه نفسه بالفرار حتى ولو رأى الموت عيانًا، بل يثبت ويصبر حين البأس حتى ينزل الله نصره على المؤمنين ويستظلوا عندئذٍ بظلال الآية الكريمة وهي قوله ﷻ في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

ولعل أجمل ما يعين المؤمن على الثبات في البأس ذكر الله ﷻ وطاعته وطاعة القيادة المؤمنة والاندماج في وحدة الإيمان التي تنظم صفوف المسلمين وأخيرًا وأولاً سلاح الصبر

وفي هذا يقول ربنا ﷻ ملخصًا أسباب النصر في سورة «الأنفال» أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

إنَّ المؤمن حين يخوض الجهاد يؤيده الله بصدق عزيمته كما يؤيده الله برسوخ إيمانه، فيوقع الرعب في قلوب أعدائه وينصره بذلك الرعب قبل أن يراه الأعداء.

إذا ذكر المؤمن ربه في القتال تذكر أن حياته من الله وإليه، وأن الموت حق، وأن الأجل مكتوب محدد، وأن الرزق في السماء فتراه عندئذٍ وقد هانت عليه نفسه لما ينتظره من ثواب الشهداء ومصير السعداء، ومن أجل ذلك قال علي رضي الله عنه حين سئل: لماذا لا تفر في القتال:

في أي يومي من الموت أفر ... أيوم لم يقدر أم يوم قدر

ومعنى البيت: متى تريدونني أن أفر من الموت، إذا فررت في اليوم الذي قدر فيه الموت فلا فائدة من الفرار، وإذا فررت في اليوم الذي لم يقدر لي فيه الموت فما فائدة الفرار، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٦].

المؤمن لا يفر من الزحف إلا بناءً على خطة يرسمها القائد يكون فيها مصلحة للمعركة، وذلك لأن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر، والفرار من الزحف معناه أن يخلِّف المنهزم وراءه دينه وشرفه وعزة وطنه، ويولي الأعداء دبره يتحكمون فيه كيف يشاءون، فيحتلون أرض الإسلام وديار المسلمين ويعيثون فسادًا في مقدساتهم، وكما حصل في الحروب التي خضناها حديثًا حين فررنا في عام ثمانية وأربعين ففقدنا خمسة أسداس فلسطين بما فيها من مساجد ومقدسات، وحين فررنا وتخاذلنا في عام سبعة وستين فضاع منا المسجد الأقصى ولزمنا عار لا يمحى إلا بمعركة إيمانية يزينها الثبات والوحدة والصبر.

لقد ضرب سلفنا الصالح مثلاً أعلى في صدق البأس حتى لقد هزموا بثباتهم جيوش الكفر المتغطرس في ديار الأكاسرة وفي عرين القياصرة، وهم لا يدانونهم عددًا وسلاحًا، لكن الإيمان الذي يؤهل العشرين المؤمنين الصابرين أن يغلبوا مائتين، وكان إمامهم في الثبات

رسولهم ﷺ، قال علي ﷺ: كنا إذا احمر البأس وحمي الحديد اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا مَنْ هو أقرب إلى القوم منه.

لقد غاظني منذ يومين كلام أجاب به رئيس الصهاينة الجبناء حين سأله سائل: ألا تخافون الهجومات المستقبلة من العرب؟ فقال: إن العرب هزموا وهم الآن في غمار الهزيمة لا نخشى هجومهم؛ لأنهم انتهوا ولن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا إلا الكلام.

هذا الكافر ما كان ليجرؤ على الاستهانة بالعرب لولا أن كثيرًا منهم في وادٍ والإسلام في وادٍ آخر مع أن التاريخ أثبت بالوقائع أن العرب لا ينتصرون ولا تقوم لهم قائمة إلا إذا اجتمعوا على الإسلام وقاتلوا تحت لوائه.

ولعل أصدق شاهد من الوقائع ما كان من النبي ﷺ وصحبه يوم بدر؛ إذ نصرهم الله وهم قلة حتى إذا جاء يوم حنين بعد حوالي سبع سنوات من بدر أعجبت المسلمين كثرتهم وغفلوا عن أن الكثرة ليست كل شيء في المعارك، وعندئذٍ لم تغن عنهم كثرتهم شيئًا، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين إلا إمامهم الصابر المحتسب فقد ثبت وهو يستنصر ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وكان ما كان من هزيمة هوازن رغم قدرة فرسانها الهائلة في الرماية، لكن الله عذَّب الذين كفروا بسبي ذراريهم وذهاب أموالهم وتشتيت شملهم لولا أن تاب الله عليهم حين خضعوا للإسلام ونزلوا على حكم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولقد اقتدى الصحابة والتابعون بثبات نبيِّهم -عليه الصلاة والسلام، فقرأنا نماذج من صدق البأس في سيرة الخلفاء وفي العشرة المبشرين بالجنة.. برز أحد المشركين على بعير نشيط له يطلب المبارزة فبرز إليه الزبير بن العوام ﷺ فقفز كالأسد فوق البعير، فنزلا معًا وتدهدها، فعلاه الزبير فقتله، فاستقبله النبي ﷺ فقبَّل ما بين عينيه وهو يقول له: فداك عمي وخالي.

ووقف طلحة بن عبيد الله حول رسول الله ﷺ يوم أحد يقاتل عنه حتى أغمي عليه مرات، فيقوم من إغمائه ليستأنف القتال، ورجع ﷺ بأكثر من عشرين جرحًا.

وحتى نساء المسلمين -رضي الله عنهن- كن في ذروة معجبة من صدق البأس، فقد قرأنا أن أسماء بنت يزيد -رضي الله عنها- شهدت اليرموك مع الناس، فقتلت سبعة من الروم بعمود خيمتها.

وقرأنا أن خالدًا ﷺ تكسرت في كفه سبعة أسياف يوم مؤتة، وعبر التاريخ رأى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ بطولات أثبتت أن العرب إذا رفرفت عليه ألوية الإسلام تحوَّلوا قوى ربانية لا تنهض لها الجيوش.

نسأل الله -جلَّ وعلا- عزيمة على الرشد تأخذ بأيدينا إلى أخلاق الإسلام، فننتقم من اليهود والذين ظاهروهم ومن الصليبيين المتآمرين معهم ونعيد تاريخنا الماجد سيرته الأولى.

## اليقظة والحيطة في مؤامرات أعداء الإسلام

من أهم آداب المؤمن أن يكون يقظًا لمؤامرات الأعداء شديد الحذر من مكائد الملاحدة، لا يقف من دسائس الخبثاء موقف المخدوع المتفرج، ولكن يقف منها موقف الذكي الممحص والشجاع المستقل برأيه.

إنَّ مما أثخن أمتنا في هذه الأيام أنها تقف من سموم العدو وأفكار المنافقين والخادعين موقف المقلد تقليدًا أعمى، وأنها لا تبالي أن تتجرع الموت من سمومه، وتتمرغ في أشواك أفكاره، مع أن الله اختارنا لنكون أئمة دعاة إلى الخير والهدى ودين الحق ولم يكرمنا بأنوار الإسلام لنخبط مع أهل الضلالة في ظلمات الإمعية.

المسلمون في هذه الأيام يركضون وراء العدو حتى لو دخل جُحر ضبٌّ لدخلوه، وقد انتهز العدو هذا الداء فيهم فضرب بهم في دروب الهلكة يلقيهم فيها ليعمل بعدئذٍ في أوطانهم نهبًا ولصوصة وفي أفكارهم غزوا مدمرًا موبقًا.

المؤمن لا يقلد الكافرين، ولكن يرشدهم ويهديهم للإيمان ولا يصدر في أعماله إلا عن أوامر دينه، ودين الإسلام كما وصف الله نبيَّه محمد ﷺ أحل الطيبات وحرم الخبائث، ولهذا وجب على أمة محمد إذا أرادت أن تقتبس عن غيرها من الأمم أقول: وجب عليها أن تنظر فيما تقتبسه، فإن وجدته طيبًا أخذت به، وإن وجدته خبيثًا نبذته، وعلى سبيل المثال، فإن رسول الله ﷺ حين طلع نوره على المجتمع الجاهلي أقر مكارم الأخلاق التي اعتادها العرب كالجود والوفاء وحماية

الجار والنخوة وإغاثة الملهوف والفروسية، أما ما شاع في الجاهلية من خبائث، فقد حرَّمها الإسلام ونبذها المسلمون، وكان من تلك الخبائث أنواع النكاح النجس، والزنا الذي كانت تحترفه بعض الجواري، ووأد البنات، وأكل الربا، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وعبادة الأصنام.

وعلى الجملة، فإن المؤمن يقتبس الطيبات مبتعدًا عن الإمعية والتقليد الأعمى الذي لم يرتضيه الإسلام للمسلم.

لقد كان سقوط عرب الجاهلية في عبادة الأصنام ناجمًا عن موقف من مواقف التقليد الأعمى الصادر من رجل يقال له عمرو بن لحي، فقد ذهب عمرو هذا إلى بلاد الشام فوجد قبائل تعبد الأصنام فأحضر معه بعضها، فانتشرت على يدي ذلك الطاغوت وشاعت على إثر ذلك عبادة الأصنام بين العرب، فكانوا ربما اختاروا حجرًا نظيفًا فعبدوه، وربما نصب كل واحد في بيته صنمًا من خشب أو حجر، وكان بعضهم ربما صنع له صنمًا من التمر، فإذا جاع أكل ربه المزعوم.

فلما بعث رسول الله ﷺ نفى كل ما عُبِدَ من دون الله، وأخلص العبادة كلها لله وحده لا شريك له، وأقام للمسلمين قدوة يرونها كل ساعة متى أرادوا ألا وهي أخلاقه ﷺ، وهي قدوة ارتضاها لنا ربنا ﷻ؛ إذ خاطبنا في محكم كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنَّ العرب في هذه الأيام قد توزعتهم قدوات غير صالحات، ففي ميدان السياسة انقسمت الأمة إلى شرقي وغربي، وفي ميدان الدين اختار بعضهم الإلحاد، وفي حقل المذاهب الاجتماعية فأعلن بعضهم أنه شيوعي يفضل ذلك المذهب على شريعة الإسلام، وفي حمأة هذا الخلاف سقطت أمتنا في دركات الشقاء.

ولعل أقرب مثل على فداحة خسارة أمتنا ما حصل لنا في معالجة قضية الإسلام في فلسطين، فالبعض قال: نعالج القضية على أنها إسلامية، وقال آخرون: بل نعالجها على أساس أنها عربية قومية، وآخرون قالوا: بل لا بدَّ من اعتبارها علمانية؛ لأن بعض النصارى يشتركون معنا في المنظمات، وبذلك ضاعت قضيتنا حين احترفنا الكلام، وكنا الراعي الذي نهب اللصوص إبله، فطفق يسبهم، وعاد إلى قومه يقول بإحساس المنتصر: «أوسعتهم سبًّا

وراحوا بالإبل»، وفي هذه الأيام أوغل التقليد الأعمى في قضية الأدب والشعر العربي خاصة، فبعد أن كان شعرنا يزجينا إلى المثل العليا، ويساهم في المعارك وإثارة الحماسة وقع بعض أدعياء الشعراء في تقليد أعمى لأدب الشعراء الملاحدة والكفار بعد أن درسوا أدبهم، فتقطعوا أمرهم فرقًا، وهاموا بكل كافر وملحد، ولما رأوا شعراء الكفار قد تقسمتهم مذاهب الإلحاد والانحلال قصروا شعرهم على دعوات الانحلال، فضاع أدبنا حين وقع في أيدي حفنة من المقلدين الذين لم يفعلوا شيئًا إزاء الفكر المبتدع واللغة الجميلة والعواطف النبيلة، وكل ما فعلوه أنهم عاثوا فسادًا في أوزاننا وقوافينا وحلاوة أدبنا وطلعوا علينا بأدب هزيل تؤزه الوثنية والهدم والانحراف، ثم تكشفت حقيقة طواغيتهم، وإذا هم خونة وملاحدة، ومع ذلك لم يفيقوا فيضربوا بذلك الغثاء المجرم عرض الحائط.

إنَّ عالمنا اليوم مضلل في عقيدته وليس إلا الإسلام ملجأ يمكن أن يأخذ بيد هذا العالم إلى فردوس التوحيد والأخلاق.

إنَّ الصليبية اليوم تلفظ أنفاسها بعد أن سئم شبابها من ترداد تعبيراتها الملحدة وسقوط رجالها في حمأة الشذوذ، وما حدث من تخبطهم حين برأوا اليهود في زعمهم من دم المسيح مع أن هذا الأمر المزعوم هو في صلب كتابهم المقدس حتى لقد نشرت وكالة رويتر في سنة أربع وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد أن قلم استخبارات كان يرشو جهات دينية صليبية بالمال ليخفف وطأة موقف الكتاب المقدس من اليهود، ولقد رأيت بعيني إقبال شباب الصليبية على الفساد واعتناق الشيوعية والوثنية والبهائية في حين يعيش شباب الإسلام -بفضل الله- صحوة مباركة تعطفهم إلى أصول دينهم الحنيف، وتسوقهم إلى كلِّ خلق شريف مهيبة بهم، **«لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت»**، حتى إن معظم أبطال الحجارة جعلوا شعارهم الله أكبر، وحتى لقد أصبحت المساجد ملأى بهذا الجيل من الشباب المؤمن الذي أنكر على أهل هذا الكون من مفاسد الانحراف والمخدرات والتميز العنصري والفساد اليهودي، فحققوا بذلك ما تنبأ به الرسول الله ﷺ عن الفئة المؤمنة التي لن تزال قائمة على الحق منصورة به لا يضرها من ضل إلى يوم القيامة.

اللهم ارزقنا التمسُّك بهذا الدين، وجنبنا تبعية الملحدين والكافرين.

# من أحاديث الآداب

**هذا الموضوع سوف نخصصها -إنْ شاء الله- لنبذة من الثقافية الإسلامية حول السُّنة النبوية أو الحديث الشريف، وقد استفدت في هذه النبذة من كتاب قيِّم لأستاذنا الدكتور محمد مصطفى الأعظمي أستاذ الحديث بكلية التربية بجامعة الرياض، فأقول وبالله التوفيق:**

**أولاً:** السُّنة النبوية والحديث الشريف تعبيران مترادفان، ومعنى كل منهما باختصار كل ما أُثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سجية خلقية أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها.

**ثانيًا:** السُّنة بمعناها اللغوي هي الطريقة، قال لبيد ﷺ من معلقته يفتخر بقبيلته عامر:

**من معشر سنت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سُنَّة وإمامها**

وقد وردت كلمة السُّنة في الحديث الشريف بمعنى الطريقة، ففي صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، وفي (صحيح البخاري) من حديث أنس ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي؛ فَلَيْسَ مِنِّي».

**ثالثًا:** كثيرون من أهل الضلال يستهينون بالسُّنة النبوية، وقد تسمعه يقول كلمة كبيرة محرمة تخرج من فمه، كما يقطر السمُّ من أنياب الأفاعي، يقول لك وهو يوهمك بحسن نواياه الخبيثة: أنا أؤمن بالقرآن.

أما السُّنة؛ فقد دخلها الوضع والرواية الضعيفة من ثم فلا لزوم لها، وقد استشرى هذا القول في حقبة من الزمن فرّوج له المستشرقون، ثم جاء من العرب من هو أوقح من المستشرقين، فجاهر بالنيل من السُّنة المطهرة، وكشف قناعه عن وجه خائن وقاح مما دعا بعض الغيورين إلى إنشاء المركز الدولي للسُّنة النبوية، وهو مركز مبارك -إنْ شاء الله- أنشئ في القاهرة، وأسندت رئاسته إلى عالم عامل من علماء السُّنة هو الشيخ «محمد الطيب النجار»،

وقامت المملكة العربية السعودية بدعمه علميًا وماليًّا، وسوف يعد هذا المركز -إنْ شاء الله- موسوعات متخصصة في تخريج الأحاديث وتبيِّن مدى صحتها، وينسق المركز الآن مع إدارات البحوث الإسلامية في ديار العالم الإسلامي، وتبدو طلائع التوفيق في أعماله مما يدل على صدق نوايا القائمين عليه والمؤيدين له.

**رابعًا**: للسُّنة النبوية مكانة عظيمة في الإسلام، فهي أهم مصدر للتشريع الإسلامي بعد كتاب الله، وقد ترك رسول الله ﷺ في أمته أمرين لن يضلوا ما تمسكوا بهما كتاب الله وسنة رسوله؛ إذ إنهما أمران متصلان لا ينفصلان، إذ كل منهما مكمل لدين الإسلام، ولقد أخبر رسول الله ﷺ أنه أوتي القرآن ومثله معه، ومن ثَمَّ فالمنكر للسنة النبوية المطهرة كافر.

**وهذا ما تقرره الحقائق الآتية:**

أ- إنَّ القرآن الكريم نفسه أسند إلى رسول الله ﷺ وظيفة تبيِّن القرآن بتفصيل إجماله وجلاء متشابهه، يقول الله -تعالى- في سورة «النحل»: ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ب- إنَّ رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة لكل من آمن بالله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، وقد اقتدى به أصحابه والسلف الصالح ونقل التابعون عن السلف سيرة الرسول الكريم وأخلاقه وشئونه، فمن لم يقتد برسول الله ﷺ فقد ارتضى أن يخرج من عقد المؤمنين بالله واليوم الآخر، وقد يقول متقوِّل: إنَّ التابعين الذين سجلوا أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وسيرته قد زادوا فيها ونقصوا وعبثت ببعضهم الأهواء المذهبية والانتماءات السياسية.

ونقول: إنَّ هذا الأمر إذا كان قد حدث شيء منه، فإن علماء التابعين -رحمهم الله- قد تعقبوا المتزيدين ومحصوا الحديث الشريف، وكان الرعيل الأول ممن جندوا أنفسهم لخدمة الحديث أحرص الناس على تحري الصدق ونبذ الزيادة، وقد عاشت تلك النخبة المباركة من جامعي الأحاديث في عصر واحد، وكان إمامهم هو ذلك العالم الموفق وأعني به الإمام البخاري -رحمه الله؛ فلقد عاصره أولئك الأبرار الذين أرسوا قواعد جمع الحديث، وهم الإمام مسلم والأئمة أصحاب السُّنن، وهم على حسب الأقدمية أبو داود سليمان السجستاني

وابن ماجه واسمه محمد بن يزيد، والترمذي واسمه محمد بن عيسي السلمي، والنسائي واسمه أحمد بن شعيب الخراساني، وكان يعاصرهم الإمام أحمد بن حنبل، وسبقهم ببضع سنوات الإمام مالك بن أنس صاحب «الموطأ»، وهؤلاء جميعًا عرفوا بتقوى الله والزهد في الدنيا، وقد جنَّدوا أنفسهم لخدمة الرسول ﷺ، وكانت لهم رحلات ومخاطرات وقصص عجيبة في جمع الحديث الشريف مما جعلهم من أعلام الأئمة والمجاهدين -رحمهم الله.

جـ- الحقيقة الثالثة أن رسول الله ﷺ ما أرسل إلا ليطاع، قال الله -تعالى- في سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول في السورة نفسها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٩٥]، وإذن فمن قال: أنا أعمل بالقرآن ولا أعمل بالسُّنة، فقد ناقض القرآن الكريم الذي أمر بطاعة الله والرسول، ومن ثم فمنكر السُّنة كافرٌ.

د- الرسول ﷺ صاحب سلطة تشريعية ذكرت في القرآن الكريم، وإنه عليه الصلاة والسلام يُحلُّ ويُحرِّم، قال تعالى في سورة الأعراف في وصف رسول الله ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وإذن فمنكر السُّنة هدَّام لسلطة الرسالة التشريعية، وعندئذٍ فهو كافر؛ لأنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

إنَّ السُّنة هي التي بينَتْ كيفية الصلاة وطريقة الحج ونصاب الزكاة، وقد التزم السُّنة الخلفاء الراشدون حتى لقد أحل الصديق ﷺ دم مَن يمنع عقال بعير كان يؤدى لرسول الله ﷺ.. إنَّ التآمر على السُّنة هو مؤامرة على الإسلام.

اللهم اجعل نبيَّك محمدًا ﷺ إمامنا وأسوتنا في الدنيا، واجعله شفيعنا يوم القيامة.

* * *

### من أحاديث الآداب

## علاقات المسلمين مع غير المسلمين

كما أقام الإسلام أكرم العلائق وأقدسها وأوثقها بين كلِّ مسلم وأخيه المسلم، فقد أقام أيضًا علائق المساواة والحق والعدل والإخاء الإنساني بين أفراد الإنسانية.. فالناس كلهم عيال الله، وخير خلق الله أنفعهم لعياله، والناس في الإسلام كلهم لآدم، وآدم من تراب فلا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى، وأكرم الناس عند الله أتقاهم، والإنسانية كلها عائلة واحدة خلقها ربنا من أب واحد وأم واحدة، ثم لما اتسعت وصارت شعوبًا وقبائل أوصاها الإسلام ألا تنسى أصلها ورحمها الموصولة، وأن تتعارف فيما بينها وتتعاون على الخير.

**وهذه أحاديث كريمة تعرض لعلاقات المسلمين مع غيرهم، وهي كما سيتضح من الأحاديث علاقات سبقت في سموها وصايا الحضارات الإنسانية:**

- روى أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن عبد الله ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت النبي ﷺ يقول: «**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

- ومرَّ عمر ﷺ على يهودي كبير السن يسأل (أي: يطلب الصدقة) فسأله فقال: السن والجزية، فقال عمر ﷺ: ما أنصفناك. وفرض له من بيت المال ما يغنيه عن السؤال.

- وفي سيرة ابن هشام أن رسول الله ﷺ استقبل وفد نصارى نجران الذين جاءوا يسألون عن الإسلام استقبالاً كريمًا، وأنزلهم في المسجد، ولما حضرت صلاتهم أذن لهم أن يصلوا في بعض المسجد، وكان عليه الصلاة والسلام أثناء ضيافتهم يخدمهم، ويحمل الطعام لهم بنفسه.

- وروى البخاري ومسلم أن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- قدمت عليها أمها من مكة وهي مشركة، فقالت: فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: قدمت عليَّ أمي وهي راغبة (تعني أن مقدمها كان عن حبٍّ ورغبة)، أفأصل أمي. فقال لها رسول الله ﷺ: «**نعم صلي أمك**». ونزل في ذلك آيتان من سورة «الممتحنة»: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي**

الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

- وروي أن رسول الله ﷺ مرت عليه جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: **«أليس ابن آدم؟!»**، وفي رواية: **«أليست نفسًا؟!»**.

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ أمر عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن ينادي في جيش المسلمين الذي غزا خيبر: **«إنَّ الله لم يحل لكم ضرب أهل الكتاب إلا بإذنه، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم»**.

- ولأبي داود أيضًا من حديث صفوان بن سليم أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن ظلم معاهدًا أو انتقصه وكلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»**.

**أولاً:** لقد علَّم الإسلام أبناءه أن ينصفوا من أنفسهم، وأن يعدلوا في أحكامهم حتى حين يصدرونها على من يبغضون، فما يجوز أن يجرمهم الشنان (أي: أن يحملهم البغض) على ترك العدالة؛ لأن العدل أقرب للتقوى.

**ثانيًا:** كفل الإسلام لمن يقيمون في الدولة الإسلامية من أهل الكتاب من يهود ونصارى حرية العبادة، فقال عليه الصلاة والسلام: **«اتركوهم وما يدينون»**، وجعل للذميين ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ومنع الإكراه في الدين، وما على الداعية المسلم إلا أن يبيِّن الرشد من الغي والحق من الباطل، وبعدئذٍ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

**ثالثًا:** أباح الإسلام لغير المسلمين من المسالمين المقيمين في الدولة الإسلامية أن يسكنوا مدن المسلمين، وأن يبادلهم المسلمون البيع والشراء والزيارات وعيادة المرضى وتبادل الهدايا والصلة؛ لأن عقد الذمة إنما شرع ليكون مقدمة لتألف قلوبهم ومن ثم إسلامهم.

وجاء في نص الآية الكريمة من سورة «الممتحنة» ما يشجع على الإحسان للذميين من أهل الكتاب إذا لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يتآمروا على طردهم من أوطانهم، ولم ينصبوا من أنفسهم عملاء للدخلاء والغزاة الكفرة، كما فعل بعض مراض القلوب من النصارى حين انضموا إلى جيوش الصليبيين، وفعل بعض الخونة من النصارى حين ألفوا جيشًا محالفًا

لليهود الغاصبين، يقول الله تعالى في سورة «الممتحنة»: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، (ومعنى تبروهم أي: تحسنوا إليهم، ومعنى تقسطوا إليهم أي: تعدلوا في معاملتهم).

**رابعًا**: يحاكم الذمي في المحكمة الإسلامية في الجنايات في أصح الأقوال، ويصدر الحكم في حقه بالعدل خاليًا من أي هوى، حتى ولو كان غريمه مسلمًا، وفي سورة «النساء» قصة مسلم اقترف جريمة واتهم بها يهوديًا، فأدان القرآن الكريم ذلك الفعل وحكم ببراءة اليهودي وتجريم المسلم.

**خامسًا**: يمارس غير المسلمين في الدولة الإسلامية عبادتهم، حتى إنه لا يجوز للمسلم أن يمنع زوجة اليهودي أو النصراني أن تذهب إلى الكنيس أو الكنيسة.

**سادسًا**: إذا شرب غير المسلم خمرًا أو أكل خنزيرًا لم يكن للمسلمين أن يمنعوه مادام يفعل ذلك في غير مجاهرة، لكنهم يجب أن يزجروا المسلم ويحدوه إذا شرب الخمر، ومن الأحكام التي تدلُّ على عدالة مطلقة في الإسلام أن المسلم إذا أتلف للمسلم خمرًا أو خنازير، فإنه لا يغرمها؛ لأنه قاوم أمرًا محرمًا، أما إذا أتلف خمرًا أو خنازير لنصراني فإنه يغرمها.

**سابعًا**: لا يجوز للمسلم إذا ناقش ذميًا في أمر الدين أن يتجاوز في الجدل حدود اللياقة، بل عليه أن يبدأ بداية حكيمة فيذكر اليهودي والنصراني بأن الدين يدعو إلى توحيد الله، وأن رب العباد واحد يعبده كل أصحاب الأديان السماوية، ومن ثم يقرب المسافة بين القلوب عن طريق الدعوة الحكيمة والموعظة الحسنة، قال الله -تعالى- في سورة «العنكبوت»: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

إنَّ منهاج الدعوة الإسلامية منهاج منير وطريقتها طريقة مؤدبة، فلا سباب ولا بذاء ولا هوى ولا غوغائية، حتى لقد نهى الإسلام عن سباب معبودات المشركين حتى لا يسبوا الله عدوًا بغير علم.

**ثامنًا**: ولتقريب قلوب أهل الذمة أحل ربنا للمسلمين طعام الذين أوتوا الكتاب وطعام المسلمين للذين أوتوا الكتاب، وأجاز للمسلم أن يتزوَّج كتابية لعلها حين ترى أخلاق المسلمين وما يحملها من العدل والإحسان والتقوى لعلها تؤمن على بصيرة وتفكير..

على أن كلَّ هذا التسامح والنبل وكرم الصحبة وحسن العشرة والمعاملة كل هذه مشروطة بأن يكون غير المسلم ذا نوايا حسنة، وأن يكون شاكرًا لمواطنيه المسلمين ولوطنه الإسلامي الذي يكرمه ويقاسمه لقمة العيش، أما حين تبدر منهم بوادر الخيانة؛ فإذ ذاك تكون العقوبة الشديدة التي تحكم بها كل الأمم في هذه الأيام وتسمى جريمتها الخيانة العظمى.

### من أحاديث الآداب

## الوفاء بالعهود والمواثيق

للعهود والمواثيق في الإسلام حرمة عظيمة، فقد كان رسول الله ﷺ أوفى الناس بعهده استجابةً لقول الله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله تعالى في وصف أهل الهدى والإنابة: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيْثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

ولقد أجاد شوقي -رحمه الله- حين مدح النبي ﷺ فقال:

**وَإِذا أَخَذتَ العَهدَ أَو أَعطَيتَهُ ... فَجَميعُ عَهدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفاءُ**

وهذه أحاديث شريفة حول العهد والميثاق نبيِّنها ثم نذكر الأحكام المستنبطة منها:

- روى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن كان بينه وبين قوم عهدٌ، فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء**».

- وروى أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

- وروى مالك أن رسول الله ﷺ استقبل رسولين لمسيلمة ومعهما منه كتاب فقرأه ثم قال للرسولين: «**ما تقولان أنتما؟**» قالا: نقول ما قال (أي: مسيلمة)، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أما والله لولا أن الرُّسل لا تقتل لضربت أعناقكما**».

- وفي سنن أبي داود من حديث عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: إن كانت المرأة تجير على المسلمين فيجوز.

- وفي السنن أيضًا أن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ما غدر وفسد قومٌ بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو.

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان**».

- وجاء في السنن وكتب السيرة أن النبي ﷺ حين وصل إلى المدينة ارتاع اليهود وكرهوا مجيئه، وطفقوا يؤذونه ويسمعون أصحابه هُجر القول، وكان أشدهم في ذلك كعب بن الأشرف، فدعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ﷺ وأوعز إليه بالتخلص من ذلك المؤذي، فأرسل إليه محمد بن مسلمة في ثلاثة نفر، فقتلوا اليهودي المعتدي داخل حصنه، وفروا إلى النبي ﷺ حيث أخبروه بهلاك ذلك البذيء الباغي، وهنالك ذعر اليهود في المدينة وضواحيها وجاءوا إلى رسول الله ﷺ فزعين وقالوا له: لقد طرق صاحبنا وقتل بالليل داخل حصنه، وأصبح كل منا يحس بالخطر، فأخبرهم ﷺ بما كان من عدوانه وهجائه لرسول الله ﷺ، ودعاهم أن يكتب بينهم وبين المسلمين عهد يحافظ عليه الطرفان، فكتب بينهم وبينه الصحيفة المعروفة، ووفَّى رسول الله ﷺ بذلك العهد إلى أن خانه اليهود في غزوة الأحزاب، وطعنوا المسلمين من الخلف حين وافقوا على فتح الأبواب للغزاة المشركين ليسقطوا على المسلمين من فوقهم، وهنالك نبذ إليهم الرسول عهدهم وغزاهم في حصونهم بالحرة الشرقية وأوقع ببني قريظة؛ حيث أنزلهم على حكم سعد بن معاذ الذي أدانهم بالخيانة العظمى.

**أولاً**: اشتهر النبي ﷺ وسلفنا الصالحون والقادة المسلمون عبر تاريخ الإسلام باحترام العهود والمواثيق والوفاء بها نصًّا وروحًا مستجيبين بذلك لنداءات قرآنهم الكريم في سورة «المائدة»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾، وفي سورة «الإسراء»: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾، وفي سورة «النحل»: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾، وفي الآية التالية لهذه السورة يشنع القرآن على ناقضي عهودهم ويشبههم بامرأة حمقاء من مكة كانت تغزل الغزل جيدًا ثم تنقضه وتقطعه أنكاثًا، ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ**﴾ [النحل: ٩٢].

وقد جاء في سيرة الرسول ﷺ والسلف الصالح مواقف من الوفاء بالعهد يعجب منها التاريخ والمؤرخون ويهتدي بسناها المهتدون، وقد جعل القرآن الوفاء بالعهد دليلاً على سمو العقل ونقاء التفكير، فقال تعالى في سورة «الرعد»: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، ونفر المؤمنين من الغدر، وذكَّرهم بفضيحة كل غادر يوم القيامة حين ينصب على رءوسهم أعلام كُتب على كلٍّ منها كلمة غادر يفضحونه بها على رءوس الأشهاد، ولكي يذكِّر العرب بعمق جذور الوفاء فيهم ذكَّرهم أن أباهم إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد، فقال تعالى في سورة «مريم»: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

**ثانيًا:** يشترط في العهد الذي يجب فيه الوفاء والالتزام ألا يكون قد فرض على المسلمين كُرهًا وابتزازًا، ومن منطلق هزيمة حلت بهم وانتصارًا للعدو عليهم، كما صدر قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) في حمأة هزيمة حزيران، وكما فرض الاستعمار على العرب هدنات ظالمة أثناء قتالهم في فلسطين فتلك عهود لا يجوز الوفاء بها، كما يشترط ألا يكون في العهد أي بند يخالف حكم الله ورسوله، ففي الحديث الشريف: «**كلُّ شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، ولو كان مائة شرط**»، كما لا يجوز الوفاء بالعهد إذا كانت فيه عبارة ملتبسة يؤوِّلها العدو لمصلحته كتلك العبارة التي وردت في قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢)، وفيها أن يجلو العدو عن أراضٍ احتلها عام سبعة وستين بتنكير كلمة «أراضٍ»، وكان المنطق أن يكتب عن جميع الأراضي التي احتلها.

**ثالثًا:** يجب نقض العهد إذا كشف العدو نوايا خبيثة تنبئ عن خيانة وغدر متوقع وتحرش مذل، كما يجب نقضه إذا بدأ العدو في نقضه كما كان اليهود عام ثمانية وأربعين ينقضون الهدنة، ويظلُّ العرب محافظين عليها، وكذلك الحال إذا كان العهد مؤقتًا بزمن، قال الله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾.

**رابعًا:** ومن حضارة الإسلام ونبله شرع ألا يكون نقض العهد سرًّا أو مفاجأةً، بل يجب أن ينبذ العهد على سواء أي علانية، وإذا نبذ المسلمون العهد علانيةً؛ فعليهم ألا يهاجموا العدو بعد الإعلان مباشرة، بل عليهم الانتظار مدة كافية حتى لا يكون الأمر غدرًا، وإذا

بعث المسلمون إلى رئيس الأعداء يعلمونه بنقض العهد فما يجوز لهم أن يباغتوا العدو بالهجوم العاجل إلا بعد أن يتأكدوا أن رئيسهم بلغهم بنبذ العهد، والإسلام بهذا الأمر ينزِّه أتباعه عن الغدر، ويتيح لشعب الأعداء أن يدبر أمره ويفكر في الاهتداء قبل أن يهاجم.

وقد جاء في التاريخ الإسلامي أن سكان جزيرة «قبرص» ثاروا على الحكم الإسلامي في زمن «عبد الملك بن مروان»، وقتلوا كثيرًا من المسلمين الذين عايشوهم في تلك الجزيرة، فاستشار «عبد الملك» -رحمه الله- فقيهي عصره «الليث بن سعد» و«مالك بن أنس»، فقال الليث -رحمه الله: إنَّ أهل «قبرص» قد ثبت غشهم وتواترهم حتى لقد عرفوا دوامًا بالخيانة ومعاونة الروم ومناصحتهم.. أرى أن تنابذهم (أي: تعلن لهم بنبذ عهدهم) وتمهلهم سنة. وأما «مالك» فقد قال مثل «الليث» إلا أنه أفتى أن يعلن لهم نبذ عهدهم، فإذا لم يستقيموا بعدها ويدعوا الغش، واتضح أن الغدر مستقر فيهم؛ فلا بدَّ من الإيقاع بهم حيث لم ينفع معهم الابتزاز والأعذار، والله ناصر المؤمنين.

* * *

## من أحاديث الآداب

## حبُّ الله ورسوله

إذا أردت يا أخي القارئ أن تسلك مدارج السالكين وطرائق الفائزين، فعلِّق قلبك بحبِّ الله ورسوله، وذلك بأن تجعل هواك تبعًا له.. فتحب أحبابه وتلزم أبوابه وتكره أعداءه وتنضم في كلِّ أمورك إلى حزبه، وعندئذٍ ستذوق حلاوة ما ذقت مثلها ألا وهي حلاوة الإيمان في الدنيا ولذة النظر إلى وجه ربك الكريم في الآخرة، يقول رسول الله ﷺ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

هذه المنزلة من درجات أهل السلوك هي التي تسمو بروح المرء إلى ملكوت الله ورحابه، فيصبح حبه ملء قلبه وجوارحه، ويصبح كل حنينه إلى مشاهدة وجهه ونزول مغفرته ورحمته، وتسمو عندئذٍ أهداف عبادته، فتصبح أسمى من رغبة الجنة ومخافة النار.. إنه حينئذٍ

يعبد الله؛ لأنه يحبه، ولقد كانت رابعة العدوية -رحمها الله- وهي من أهل السلوك والرياضة تخاطب ربها ﷻ فتقول في جنح الليل: «إلهي وعزتك وجلالك ما عَبدتك رغبة في نعيم جنتك ولا رهبة من جحيم نارك، ولكنني عبدتك لأني أحبك، أعوذ بنور وجهك وواسع رحمتك أن تعذب أحبابك».

وقال الداراني -رحمه الله: «إنَّ لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله ﷻ خوف النار ولا رجاء الجنة، فقد جعلوا كل همهم رضاه ومحبته، دعاؤهم: اللهم أذقنا حلاوة الإيمان، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم».

ووصف بشر الحافي شيخه معروف الكرخي -رحمهما الله- فقال: «إنَّ معروفًا لم يعبد الله شوقًا إلى جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما عبده شوقًا إليه».

ومثل هذه المرتبة العالية يُرجى لصاحبها أن يرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، وأن يرفع الحجب بينه وبينه.

وأنشد بعضهم يصف نعيم الصلة بالله:

فهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

ولقد تألم رسول الله ﷺ حين انقطع عنه الوحي الذي هو رسول حبيبه، ثم لم يفارقه الهمُّ حتى أقسم الله له بنور الضحى وسجى الليل أن الله ما ودَّعه ولا أبغضه، وأنه كان ومازال يُصنع على عين الله، وستكون آخرته خيرًا من أولاه.

وقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ كيف يستطيع المسلم أن يصل إلى محبة ربه، وبيَّن أن الطريق إلى هذه السعادة يوصل إليه بوسيلتين: أولهما أن يؤدي العبد فرائض الله على أتم وجه وأكمله، فيصلي المكتوبات ويقيم صلاتها على أتم وجه، ويلازم الجماعة في المسجد، ويصوم رمضان صوم بطن وصوم جوارح، ويدفع الزكاة كاملة طيبة بها نفسه، ويحج إلى البيت العتيق كأتم ما يكون الحج، ثم ينتقل إلى الدرجة الأخرى من درجات المحبة، وذلك بأن يتقرَّب إلى الله بالنوافل، فيؤدي مع الفرائض نوافلها، ويصوم مع رمضان نوافل الصوم، ويضيف إلى الزكاة صدقات محتسبة، ويحج مع الحج نافلة، ويتم لله العمرة مبتغيًا بكلِّ هذا وجه الله الكريم وجزاءه العظيم، وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله فيما يرويه عن ربه: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي

بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

نعم بكثرة العبادة يتحوَّل العبد ربانيًّا مؤيدًا مكتوبًا في حزب الله يسمع بسمعه ويبصر ببصره ويبطش بيده ويمشي برجله، وعندئذٍ يستجاب دعاؤه ويضمن عند الله عونه.

وإياك -يا أخي- أن يقودك هذا الكلام إلى شطحات الصوفية وتهويات الدراويش، فتتكلم غير كلام أهل الشريعة أو تدعي علم الغيب أو تشخص ذات الله أو تمثلها، لقد عرفت بعض أهل التصوف كان لا يصلي ويدَّعي أن الملائكة تصلي عن يمينه، ورأينا بعض أهل الدروشة يعجب بالحلاج الذي أعلن أنه أفضل من الأنبياء، حتى لقد سمع وهو يقول: قدمي هذه على رقبة كلِّ نبي، فاستحق عند علماء زمانه أن يقتل بالسيف.

**هذا وإذا رغبت -يا أخي- أن ترقى في مدارج المحبين فعليك بأمرين:**

**أولهما**: أن تقنع من الدنيا بزاد الراكب، وأن تطلبها لبذل المال في الخير، وألا تتعلق بها فتجعلها أكبر همك وكل آمالك ومبلغ علمك، بل تنظر إليها كما كان ينظر إليها رسول الله ﷺ؛ إذ يقول: «**كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان يضرب لنفسه وللدنيا مثلاً فيقول ما معناه: «**ما لي وللدنيا، وإنما أنا من الدنيا كمثل راكب جلس تحت شجرة ثم مضى لسفره**».

**وثانيهما**: أن تستمر في طريق معرفة الله، لعلك ترقى إلى مقامات العارفين، ويكون هذا بألا تفتأ مفكرًا في ملكوت الله متدبرًا لآيات وحدانيته، فتفكر في معجزة خلقك مزودًا بهذا العقل الذي فضلك الله به على كلِّ خلقه.

إنَّ معرفة الله ﷻ تأتي عن طريق التأمل والتفكر في دلائل قدرته وشواهد وحدانيته وطلب العلم الذي يكشف للعارفين أسرارًا عظمى من ملكوت السموات، فإذا امتلأ قلبك بمعرفته امتلأ بإجلاله وخشيته، ومرتبة المعرفة هذه هي التي ذكرها الله في محكم آياته بعد أن ذكر آية المطر ومعجزة إحياء الأرض بعد موتها وإخراج تلك الثمار والأزهار مختلفة الألوان والأشكال، ثم عرض إلى ذكر ألوان الجبال واختلاف تلك الألوان في جددها بين أحمر

وأبيض وأسود غِربيب، ولفت نظرنا إلى اختلاف الألوان في الناس والدواب وهي كل ما يدب على الأرض من مخلوق، والأنعام مختلف ألوانه كذلك، ثم ختم كل ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولا غرو؛ فقد كشف لهم علمهم من ملكوت السموات والأرض ما لم يصل غيرهم إلى معرفته، فيكتبوا في العارفين، وخافوا ربهم على قدر معرفتهم بملكوته، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

إذا أنت وصلت إلى هذه المنزلة أصبحت وليًا لله لا تخاف في القيامة ولا تحزن، ثم إذا أدخلك ربك ﷻ جنته فسوف يكون لك ولأهل المحبة والمعرفة والولاية نعيم من نوع خاص، وهو أن يعد الله لكم نزلاً أو ضيافة في رحاب جلاله، حتى إذا استقر بكم المقام كشف الحجب عن جلاله، فرأى الأحباب وجهه الكريم.. فوالله ما رأى أهل الجنة في نعيمها ما يقارب هذا النعيم حين ينظر العبد إلى وجه ربه الكريم، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، أي: يتمنون ويطلبون.

أذاقنا الله وإياكم أيها الإخوة حلاوة الإيمان، ورزقنا لذة النظر إلى وجهه الكريم.

## من أحاديث الآداب

# فضل العلم

الدين الذي جاء به محمد ﷺ هو أحكامٌ وآدابٌ.. فالصلاة مثلاً لها أحكامها المبسوطة في كتب الفقه، ولها في الوقت نفسه آدابها كما وردت في آيات الذكر الحكيم وأحاديث النبي الكريم ﷺ، وقد ألف في الآداب الشرعية عدد من أشياخنا -رحمهم الله- منهم: أبو حامد الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام ابن القيم، وابن الجوزي، وابن مفلح، والمرداوي، وابن أبي عمر المقدسي، والحافظ ابن رجب، وابن قدامة المقدسي.

هذا إلى جانب ما ورد من الآداب في كتب السير وكتب السُّنن كمصنفات أبي داود السجستاني، وأبي يعلى، وابن عقيل، وأبي بكر الخلال، والطبراني.. فاجتمع من ذلك ما يشكِّل موسوعة في الآداب الإسلامية، وبعض هذه الكتب كبير مثل كتاب «الآداب

الشرعيـة» لابـن مفلـح الحنـبلي؛ إذ هـو في ثلاثـة مجلـدات، و«شرح منظومـات الآداب» للسفاريني؛ إذ هي في مجلدين كبيرين، ومن كتب الآداب «منهاج القاصدين» لابن الجوزي، ومختصره لابن قدامة.

ولهذا رأيت بعد توفيق الله أن ألتقط من كتب الأشياخ ما يجدر بكلِّ مسلم أن يتحلى به من آداب الشريعة الغراء مما يحقق أهداف الإسلام، ويجمع للمؤمن شعب الإيمان.

وقد خصَّصت الحلقة الأولى من هذه الآداب للعلم؛ لأن العلم هو أساس الشريعة المحمدية، وحسبك أن أول كلمة من الفرقان نزل بها جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، وأن أول سورة نزلت من كتاب الله هي سورة «العلق» أو سورة «القلم»، وأن السورة الثانية كانت سورة «نون»، و«نون» معناها في السورة الدواة، وفي سورة «محمد ﷺ» آية تفيد أن العلم يكون قبل القول والعمل؛ لأن أيَّ قول أو عمل يصدر عن النفوس العالمة المستنيرة يكون بإذن الله حقًّا، ويكون مشرقًا متألقًا بأنوار الفطرة النقية والمواهب الجلية، يقول ربنا ﷻ في سورة «محمد»: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وهذه طائفة من الأحاديث الكريمة في آداب العلماء وطلاب العلم وفضلهم عند العليم الخبير ﷻ:

– روى الترمذي بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجلين: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم؛ إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير»**.

وفي حديث آخر رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه: **«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم؛ فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»**.

– وفي صحيح مسلم: **«مَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة»**.

- وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وابن ماجه: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ».

- وفي سنن ابن ماجه: «طلب العلم فريضة على كلِّ مسلمٍ».

- وفي الصحيحين عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

- وفي سنن ابن ماجه: «لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من أبواب العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي مائة ركعة».

- وفي سنن أبي داود وابن ماجه: «مَنْ تعلَّم علمًا مما يبتغي به وجه الله -تعالى- لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة».

- وفي سنن ابن ماجه: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو ليصرف وجوه الناس إليه؛ فهو في النار».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «مررت ليلة أسري بي بأقوام تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار، قلت: «مَن هؤلاء يا جبريل؟» قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون».

- وفي صحيح البخاري: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ، مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

**أولاً:** أشرف ساعٍ في هذه الحياة طالب علم لا يطلبه إلا لوجه الله، ومجاهد يقدِّم روحه خالصة لوجهه تعالى، ولا غرو؛ فالعلم صفة من صفات الله العلا، ومن أسمائه الحسنى العليم وعالم الغيب والشهادة وعلام الغيوب، والعالم كالقمر بينما العابد كالنجم؛ لأن العالم يضيء ويهدي السارين بينما العابد تقتصر هدايته على نفسه، وفي تفسير قول النبي ﷺ: **«إنَّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم»** إشارة إلى تواضع الملائكة للعلماء، وتذكير بأن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام بعد أن علَّمه الله الأسماء كلها.

وأما ما أشار إليه رسول الله ﷺ من أن العالم يستغفر له أهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر، فقد ذهب الأشياخ في تفسيرهم لهذا الحديث الشريف بأن العلم إذا ساد هذا العالم؛ فإن الناس ببركة العلم سيعرفون ما يحل وما يحرم، ويوصون بالإحسان في كلِّ شيء، فإذا اصطادوا من البحر أو البر وإذا ذبحوا فعلوا كل ذلك في غاية الرفق والإحسان، ومن أجل ذلك ألهم الله تلك المخلوقات أن تستغفر للعالم.

**ثانيًا:** ومن أجل رفعة شأن العلم عند الله وجب أن تكون أخلاق العلماء وطالبو العلم على مستوى عظمة أسماء الله وصفاته، ومن أهم آداب العالم أو طالب العلم (أي: المتعلم) أن يطلبوا العلم لوجه الله، وليهدوا بعلمهم عباد الله، وألا يكتموا العلم أو يأخذوا عليه أجرًا، وألا يقصدوا بطلبه حبَّ الظهور والمماراة والمجادلة، وأن يصرفوا أعظم جهدهم إلى تعليم الناس دينهم، وكل ما يحقق لهم خير المعاش والمعاد، وأول ذلك تحقيق التوحيد وعبادة الله ومسائل الدين والذِّكر، وإذا تعلَّموا الحساب والتكنولوجيا وعلوم الطبيعيات والصناعات والاختراعات تعلَّموها ليخدموا بها الإسلام والمسلمين، وأما تعلُّم ما يؤذي الناس كالسحر والفلسفة العقيمة التي تشطُّ بالعقل وتحيِّره فحرام.

ومن آداب العالم أن يتقي الله في تلاميذه ومريديه، وينصحهم ويخاطبهم على قدر عقولهم، وأن يسمو بعلمه عن التذلل للأغنياء وذوي الجاه، وأن يرسم القدوة الصالحة لتلاميذه بحيث تتمثل في أخلاقه، فيجعل أهم محبوب له الحسنات، ويدفع عن أخلاقه أهواء النفس وشهواتها المردية، ويجعل أفضل زاده تقوى الله، وإذا تحاسد الناس على حطام الدنيا جعل غبطته لأهل القرآن والصدقة والدين، وألا يتصاغر فيشغل نفسه بالعدوانية، وألا

تشغله الدنيا فيقصِّر في مطالب الدين، وألا يسرع إلى الفتوى دون تثبت، وأن يعلِّم الناس حكمة الأحكام الشرعية ليعبدوا الله على بصيرة، وأخيرًا وليس آخر أن يحذر المعاصي؛ لأنها تعصف بالعلم وتطفئ نور الفتوح.

## تقدير العلم واحترام العلماء

من آداب المؤمن أن يكون ذا تعامل حضاري نبيل مع العلم وكل ما يتعلق به فتراه يجل العلماء ويحترم المتعلمين ويدعو لطلاب العلم بالفتوح والنجاح، إذا أردت أن تعرف نصيب امرئ من الذوق الحضاري فانظر إلى تعامله مع العلم وأهله، إذا رأيته يجالس العلماء ويحب الاستماع إلى علمهم، ويحرص على الإفادة منهم، ويعاملهم بمنتهى الأدب الرفيع؛ فاعلم أنه متحضر، وإذا رأيت منه صدودًا عن العلم وإعراضًا عن العلماء واستهزاءً بطلاب المعرفة؛ فاعلم أنه همجي بربري بعيد عن ذوق الحضارة ووضاءة الإيمان.

في المدارس اليوم نوعان من طلاب العلم: نوعٌ مُهذب الإصغاء، مُقدِّس لرسالة العلم والمعلم، حريص على صداقة الأستاذ وتقديره، ونوعٌ جاء إلى المدرسة ليلهو مع العابثين، ويعرقل رسالة المعلمين، ثم هو يدخل بالبذاء ثم يخرج به حتى إذا شبَّ وجد حصيلته جَهلاً أعمى، وصداقات موبقة، ولسانًا سليطًا، وسخريات بأهل الكمال، يقول الله -تعالى- في سورة «المطففين»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾.

مثل هؤلاء لا تقبل عليهم فتوحات العلماء؛ لأن العلم نور الله في ملكوته، وصفة من صفاته، وقبس من أسمائه، وطريق إلى معرفته ورضائه وخشيته، يقول الله -تعالى- في سورة «فاطر»: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

لقد شاع في هذه الأيام استهانة بعض طلاب العلم ببعض المتعلمين واقتحام المعلم بالأبصار والخروج على رأيه وأمره وإيذائه في سيارته وفصله، حتى لقد رأينا حثالة ممن لا أخلاق لهم ربما بسط أحدهم يد الأذى والإهانة لأستاذه، والغريب أن يأتي ولي أمر الطالب

إلى المدرسة فيتهجم على الأستاذ ويتهمه بكاذب الأباطيل وظالم الأراجيف، وأحيل القارئ العزيز إلى ما تبثه وسائل الإعلام من صحف ومجلات عما يلقاه أهل العلم من أهل الجهالة والعماية.

والحق أن نفرًا من المعلمين ربما يستحقون تلك الاستهانة حين يرى الطلاب أنه جرى وراء المطامع، وأهمل نداء الضمير، واتبع هواه في تعامله مع التلاميذ؛ فلم يعاملهم بالسوية ولم يتعهدهم بالتربية الإسلامية، وقد كان من نتائج تلك المفارقات أن نشأ من التلاميذ من دأبه الإهمال والأذى والتجرد من ذوق الملازمة وأدب المعاملة، ورأى الناس في أوقات العطلات طلابًا كأنهم الوباء لا يرى الناس منهم إلا العدوان والتخريب وسيئ الفعلات، ولا يجرون على والديهم إلا الويلات.

إنَّ ديننا قد علَّمنا آدابًا إزاء العلم وأهله تسمو بها نفوسنا وأذواقنا وحضارتنا؛ لأن أسمى الحضارات ما يبنى على العلم.

**وهذه بعض آداب تتعلق بموقف المؤمن إزاء كرامة العلم والعلماء:**

١ - يأمرنا القرآن الكريم أن نقدِّر العلماء ونفضلهم على سائر الناس حتى على العباد؛ لأن العابد لا ينفع إلا نفسه أما العالم فينفع الله به وعلمه كثيرًا من خلقه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا﴾ (أي: تفرَّقوا من المجلس ليتسع المكان للعلماء) ﴿فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وإنما أمرنا الله باحترام العلماء؛ لأنهم أشد الناس خشية لله، ولأنهم أعظم الناس معرفةً بجلاله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ويقول -جلَّ شأنه- في سورة «العنكبوت»: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ويقول النبي ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»، وفي الأثر: «**إنَّ العلم لينزل بصاحبه في موضع الشرف والرفعة**»، وفي سنن ابن ماجه: «**لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل خير لك من أن تصلي ألف ركعة**».

٢ - أمرنا ديننا أن نتواضع لأشياخنا، قال رسول الله ﷺ: «**تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم**

السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلَّمون منه»، كما أمرنا أن نأخذ علمنا ممن جمع العلم والدين؛ ففي «صحيح مسلم»: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ؛ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»، وروى ابن مردويه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس وخير من يمشي على الأرض المعلمون، وإذا قال المعلم للصبي: قُلْ: بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة لوالديه وبراء للمعلم من النار»، وفي سنن ابن ماجه يقول رسول الله ﷺ: «إنما بعثت معلمًا».

إنَّ العلم طريق الجنة، والعلماء هم الهداة إلى رحاب الله، والعلماء أمناء الله على خلقه، وهم ورثة الأنبياء، وفي سنن أبي داود: «إنَّ من إجلال الله إكرام العلم والعلماء وذي الشيبة المسلم وإكرام حملة القرآن وإكرام السلطان العادل»، وللديلمي: «من غضَّ صوته عند العلماء كان يوم القيامة مع الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى».

٣- على طالب العلم أن يطلبه ابتغاء مرضاة الله، لا ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء، ولا ليصرف وجوه الناس إليه، فمن فعل ذلك فالنار النار، وعلى العالم وطالب العلم أن ينصحا للمسلمين ولا يكتما العلم، فإن من كتم علمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار، وعلى علماء الدين أن يقرنوا علمهم بالأخلاق حتى يرسموا للناس سبيل الأسوة الحسنة، وعلى المسلم أن يوقِّر علماء الدين والفقهاء ليتعلم منهم أمور دينه، روى أبو حنيفة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تفقه في دين الله كفاه الله همه، ورزقه من حيث لا يحتسب»، وفي الأثر أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم خلفائي الذين يحفظون سُنتي ويعلِّمونها الناس من بعدي».. اللهم ارزقنا حب العلماء العاملين، واحشرنا معهم في عبادك الصالحين.

## التأدُّب في طلب العلم

في هذه الأيام قد تسمع أن طالبًا غاضب معلمًا في فصل الدراسة لسبب من الأسباب؛ إما لأن المعلم لامه على إهماله أو لم يعطه درجة النجاح أو منعه بالقوة من العبث بالنظام أو أخبر أباه بأن ابنه كثير الحركة قليل البركة، وأن الغلام ثارت ثائرته فاستعان ببعض أمثاله من المهملين، ولما خرج الأستاذ وجد زجاج سيارته مهشمًا، فحمد الله على بلائه الملطف وقضائه المخفف.. هذه الحادثة وأمثلها إيذان خطير بزوال العلم النافع من الصدور؛ لأن العلم نور

من نور الله، وصفة من صفاته العلا، ومن أجل ذلك فهو لا يقبل على أهل المعاصي ولا يتألق فتوحه إلا في القلوب الخاشعة والنوايا المخلصة.

إنَّ من أعظم آداب طلب العلم أن يتأدب في مجلس أستاذه ويخدمه لينهل من علمه، رُوي عن الإمام أحمد ﷺ أنه حضر مجلس خلف ليسمع منه حديثًا من أحاديث الرسول ﷺ كان قد التبس عليه، فحاول خلف أن يجلسه على الأريكة إلى جواره، فقال أحمد -رحمه الله- إنما حضرت هذه المرة لأتعلم، وقد أمرنا أن نتواضع لمن يعلِّمنا.

هذا، وليس عيبًا أن تتعلم من أستاذ صغير في السن مادام له فضل ومقدرة، فقد قرأ عبدالرحمن بن عوف ﷺ على ابن عباس -رضي الله عنهما- وهو أصغر من أولاده، وقرأ حكيم بن حزام ﷺ على معاذ بن جبل ﷺ وهو فتى، فقيل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟! قال: إنما أهلكنا التكبر.

ومن آداب المتعلم أن يخفض صوته عند معلمه؛ لأن رفع الصوت في العادة ينافي الوقار.. فكيف إذا كان بحضور الأستاذ؛ إنه عندئذٍ سوء أدب، قال ابن قتيبة: لو كان رفع الصوت شرفًا لما قرنه ربنا بصوت الحمير، قال الله -تعالى- في سورة «لقمان»: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، وفي سورة «الحجرات» يعلِّم الله ﷻ أصحاب نبيِّه ﷺ أن يغضوا أصواتهم في مجلس رسول الله ﷺ، وخصوصًا إذا كان يحدِّثهم علمًا ينفعهم في دينهم، يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

وقد روي عن الإمام أحمد أنه كان مستندًا على جدار، فذكر عنده اسم أحد أشياخه وهو «إبراهيم بن طهمان» فاعتدل جالسًا، وظهر عليه اهتمامه وقال: لا ينبغي إذا ذكر العلماء الصالحون أن نتكيء.

وقال الشافعي: إنَّ العلم لا يقبل على أهل التكبر وشموخ النفس، ولكنه يقبل على من يذلون أنفسهم لمعلميهم، روي أن أحمد -رحمه الله- كان جالسًا في المسجد الحرام عند الإمام الشافعي فجاءه أحد تلاميذه يقول له: إنَّ سفيان بن عيينة يحدث الناس في حلقة درسه، فقال أحمد: سفيان يُعوِّض درسه، أما أستاذنا الشافعي فإن درسه يفوت ويصعب عوده.

ولقد حدَّث ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: توفي رسول الله ﷺ وأنا يافع (أي: صغير)، فلازمت كبار الصحابة أطلب حديثهم، فإن كان ليبلغني الحديث عند الرجل منهم فآتي بابه، وهو في قيلولته، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح عليَّ من التراب حتى يخرج فأسأله عن الحديث.

وجاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ على أبي بن كعب سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال له: «**الله أمرني أن أقرأها عليك**»، وإنما قالها رسول الله ﷺ لأبي ليعلم الناس احترام قارئ القرآن، ولينبِّه الناس إلى فضيلة المعلم عند الله.

ولقد بلغ من تواضع أصحاب رسول الله ﷺ في طلب العلم أنهم كانوا يحضرون حلقات بعض التابعين وينصتون إلى حديثهم، حتى لقد شوهد البراء بن عازب ﷺ وهو يحضر درس التابعي الجليل عبد الرحمن بن أبي ليلى وينصت بين يديه.

ومن آداب طالب العلم أن يتحمل بوادر أستاذه إذا قال (بمعنى افترى) عليه فلا يغضب أو يغاضب فتفوته فرصة التعليم في شبابه، قال أحد الشعراء:

| | |
|---|---|
| **كتاب قد يمتعني نهاري** | **أحب إليَّ من أنس الصديق** |
| **ولطمة عالم في الخد عندي** | **أحب إليَّ من شرب الرحيق** |

لقد كان طلاب العلم يدعون لأشياخهم في صلاتهم، فإذا ختموا دعاءهم قالوا: اللهم اغفر لوالدينا ولأشياخنا، ولهذا كان يبدو عليهم فتوح العارفين، وكنت ترى أحدهم يحضر حلقة شيخه وقتًا قصيرًا فتراه بعد ذلك يتصدر للتدريس في غياب أستاذه، وترى طالب العلم متواضعًا لأستاذه حتى لقد تسابق الأمين والمأمون إلى حذاء الكسائي كل منهما يريد أن ينقله لشيخه، وأخيرًا اصطلحا على أن يقدِّم كل واحد منهما واحدة، وتصالحا على ذلك.

على أنه لا يفوتنا أن ننبِّه أن مهنة المعلمين هي مهنة الأنبياء ومن ثم فعلى أهل العلم أن يربئوا بعلمهم عن طمع الدنيا، ويزينوه بالكلام الطيب والعمل الصالح والقدوة الحسنة والابتعاد عن الريب والشبهات، فما يجوز لمعلم مثلاً أن يدخِّن في حضور تلاميذه أو يتطلع لهداياهم وهباتهم، فإن ذلك يسقط مروءته في أعينهم.

وما أجمل ما قال القاضي الجرجاني -رحمه الله- في صيانة العلم:

إذا قيل هذا موردٌ قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

ولما ذكرت شعر الجرجاني في سلوك المعلم إزاء علمه ألقي على مسامع الطلاب هذه الأبيات في فضل المعلم الذي يحترف أشرف المهن ويظمأ لينهل الناس معين الحياة.

تلقاه طول العلم يغرس جوهرًا ... ومرارة الحرمان كل حصاده
ظمآن توورده الحياة سرابها ... والجيل كل الجيل من وراده
ولقد يجوع فلا ينال كفافه ... وملوك هذي الأرض من قصاده
قالوا عن التعليم حرفة مفلس ... قعدت به النكسات عن أنداده
ونسوا بأن الله علَّم آدما ... جلَّ الإله معلمًا لعباده
والأنبياء معلمون تراثهم ... علم شفى الإنسان من إلحاده

## الحثُّ على طلب العلم النافع

من أدب المؤمن ألا يرضى بالجهالة أبدًا وخصوصًا بالجهالة في دينه، فتراه أبدًا يحرص على أن يتزود بالحكمة يجعلها ضالته، وبالفقه يحفظ به دينه ويعبد به ربه على بصيرة، ولقد طلب الله من النبي والمؤمنين أن يؤسسوا عبادتهم على العلم؛ لأن من عبد الله على جهل فكأنما عصاه، يقول الله -تعالى- في سورة «محمد»: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، فبدأ أولاً بالعلم ثم ثنى بالقول والعمل.

وإنه مما يحزُّ في النفس أن ترى عددًا كبيرًا من المسلمين من أهل الثقافة العالية تسأله عن أدق المعلومات حول الفن في ديار الأجانب وعن المذاهب الفكرية المعاصرة وعن أدباء الغرب والشرق، فتجده بحرًا في تلك الثقافات!! ثم تسأله سؤالاً عن مبادئ دينه وأصول عبادته، فتراه فيها جاهلاً مطبق الجهالة!! مع أن رسولنا ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه

**في الدين»** (رواه البخاري).

ولرب متفقه في دينه تكون عبادته معتدلة أو قليلة لكنها تكون عند الله أعظم أمرًا من عبادة جاهل مجتهد في العبادة، وذلك لأن العالم يعبد ربه على بصيرة ونور، وأما الجاهل فقد تقترن عبادته بجهل يبطلها ويحبط جهدها واجتهادها، وإلى هذا يشير رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري؛ إذ يقول: «قليل من الفقه خير من كثير العمل، والعالم عند الله أفضل من العابد العاكف على العبادة، وذلك لأن العالم يضيء لنفسه وللناس كالقمر المنير، أما الجاهل فكالنجم يضيء لنفسه فقط»، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم»**.

والمؤمن يحرص حين يؤتيه الله علمًا أن يصونه أولاً عن أطماع الدنيا؛ لأنها عندئذٍ ترخصه وتهدر كرامته، وأن يبلِّغه ثانيًا ولا يكتمه، وأخيرًا أن يجنِّده دومًا للحقِّ والخير والفضائل، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«الفقهاء أمناء الرُّسل ما لم يدخلوا في الدنيا»**، أي: ينزلوا إلى المطامع فتجرفهم في تيارات الجهلة والغوغاء.

وقد كان أشياخنا من العلماء ربما ضحَّوا بوظائفهم ومصادر أرزاقهم في سبيل مواقف الرجولة والإيمان تلك التي كانت عقيدتهم، فتراهم واثقين برزق الله وعافيته وستره مهما تجسَّم الخطر وعظم البلاء، روى أبو حنيفة -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: **«من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب»**.

ثم إن العالم المسلم تظهر جهوده في الأوقات التي تشيع فيها البدع وتنتشر المعاصي هنالك تعظم مسئوليته والويل له إذا خبَّأ علمه جبنًا أو خوفًا من الناس، جاء في مسند الربيع أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا ظهرت البدع في أمتي، فعلى العالم أن يظهر علمه؛ فإنْ لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل»**.

إنَّ المؤمن يطلب العلم ويكدح في تحصيله لكي ينير له طريق الجنة، فالعلم نور من الله، وصفة عالية من صفات العلا، ولهذا تجد المؤمن بطلب العلم يبتغي به إلى الله الوسيلة، ويتخذه قربة إليه الله يحميه به من كلِّ شر، يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه: **«من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله؛ فليتبوأ مقعده من النار»**.

إنَّ الذي يقعد عن طلب العلم دون عذر يشك في إسلامه، وذلك لأن العلم يوصل إلى الإيمان، وفي هذا يقول الله -تعالى- في العلاقة بين العلم والإيمان.. في سورة «العنكبوت»: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾، ويقول في نفس هذا المعنى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم النافع الذي يبقي الله نوره في المجتمع الإسلامي ينفع الله به صاحبه حتى بعد موته، يقول رسول الله ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله من الدنيا إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ابن صالح يدعو له»**.

والمؤمن حين يكرمه الله بالعلم يعرف أنه أصبح قدوة، فيحرص جهده ألا يرى الناس منه إلا أجمل سمت وأحلى طريقة، فيصون نفسه عما لا يليق بكرامة العالم، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»**، ويقول: **«ويل لأمتي من علماء السوء»**.

**وبعد**؛ فالمؤمن يربأ بنفسه عن أن يتخلف عن مواكب النور ومجالس العلم ولا يرضى لهمته أن يصحب أهل السفالة واللهو وسقوط المروءة، ولا يرضى لنفسه أن يعيش محدود الإيمان، بل يتخذ من العلم طريقًا يرى فيه آيات الله وملكوت السموات والأرض، وعندئذٍ يجعله الله من أهل اليقين، كما قال في خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وكما قال الشاعر:

بِالعِلمِ وَالمالِ يَبني الناسُ مُلكَهُمُ ... لَم يُبنَ مُلكٌ عَلى جَهلٍ وَإِقلالِ

## فضل العالم العامل

إذا كان العفاف والترفع عن طمع الدنيا لازمين لكلِّ مسلم فهما للعلماء ألزم، وذلك لأن العالم نصب نفسه في مقام القدوة، وأعلن أنه يصدر في عمله من منطلق الكتاب والسُّنة، فيا ويله إنْ أجار الدليل عن الطريقة وأضل المقتدى عن الحقيقة، لوددت لو أن كل عالم حفظ هذه الأبيات المضيئة، وهي للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني يرسم فيها ما يجب أن يكون عليه العالم المسلم من وضاءة السمت وطهارة المذهب وعفاف الضمير وسمو النفس:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
إذا قيل هذا مورد قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنزهها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فيم؟ أو لما؟
وأكرم نفسي أن أجامل ظالمًا وأن أتلقى بالمديح مذمما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولا عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

إذا كان ربنا ﷻ قد أحل المؤمن العالم منزلة أعلى من منازل الملائكة، فلماذا ينحدر بالمطامع الرخيصة إلى دركات الحيوان، وإذا كان ربنا ﷻ أسجد سكان السماء لآدم العالم، فلماذا يمرغ بعض طلاب العلم وجه علمهم تحت سنابك الشياطين؟!

إذا كان العلماء هم مصابيح الدنيا وهداة ركب الحياة، فلماذا تنحدر بهم المطامع الرخيصة إلى دركات الأنعام؟!

ألا ما أجمل العالم حين لا تأخذه في مرضاة الله لومة لائم، فيضيء أنوار الحق في جنح ظلمات الباطل!!

ما أجمل العالم تُعرض عليه الدنيا مفاتنها وتمنيه بهرجها ومطامعها، فيقول لها ما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: يا دنيا إليك عني غري غيري باينتك ثلاثًا لا رجعة بعدها، ثم يبكي متململاً وهو يقول: آه من وحشة الطريق، وقلة الزاد، وطول السفر.

العالم أفضل من العابد حتى ولو كان العابد باكيًا في محرابه، وكان العالم مؤتنسًا بجلسة أصحابه ذلك؛ لأن العابد يضيء لنفسه، وأما العالم فبدر يهتدي به كل سارٍ في الظلام.

- روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**».

- وللترمذي أيضًا ورواه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**».

- وفي الصحيحين أن عبد الله بن مسعود ﷺ طلب منه بعض الصحابة أن يعظهم كل يوم فقال: إني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا.

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله**».

- وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**من طلب العلم ليجاري العلماء أو ليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**».

وله أيضًا: «يكون في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين: ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله -تعالى: «**أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ، فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا**».

- وفي المعجم الكبير للطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل الذي يعلِّم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء ويحرق نفسه**».

- وللقزويني أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرءون القرآن ويقولون: نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يجتني من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتني من قربهم إلا الآثام**».

**أولاً**: العالم أشرف وأفضل وأعلى عند الله منزلة من العابد؛ لأن العابد لا يفيد بعبادته إلا نفسه، أما العالم فيهدي به الله ركب الإنسانية، وتراه كالمصباح يحترق ليهدي بسناه الضاربين في الظلام، ومن ثم شبَّه النبي ﷺ العباد بالنجوم التي لا تضيء إلا بمقدار ما تظهر، بينما شبَّه العلماء بالبدور؛ لأنهم يملئون الدنيا أنوار هداية ومشاعل إيمان وتقوى.

**ثانيًا**: إذا كثر العلماء العاملون في أمة ارتكست دولة الشياطين؛ لأن رسالة العالم هي أن يبدد بعلمه وأخلاقه كيد الشياطين وإغراءهم، ولهذا كان عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.

**ثالثًا**: أعظم علم يفيد المرء في معاشه ومعاده هو فقه الدين، فمن يرد الله به خيرًا يفقهه

في الدين، على أن كل علم يطلبه صاحبه ليخدم به الإسلام هو أيضًا علم مبارك، ومن ثم فمن نبغ مثلاً في الكيمياء الحيوية أو الهندسة الصناعية أو علوم الفضاء، وكانت نيته خدمة الإسلام فهو أيضًا عالم عامل مبارك.

**رابعًا:** على الداعية أن يكون مربيًا وداعيًا معًا، فلا يثقل على الناس بطول خطبه ووعظه، وعليه أن يحدِّثهم عما يهمهم، لا أن تكون مشكلات مجتمعهم في الشرق ويكون وعظه في الغرب، ففي أيامنا هذه مثلاً ونحن نعاني من الضياع والشتات والتمزق والمنازعات والهزائم الأخلاقية وتحطم القوة الإسلامية على صخرة الانقسامات.. ما يجوز للعالم أن يخصص خطبه كاملة أو يخصص وعظه حول ثوب إلى منتصف الساق أو صورة فوتوغرافية على هوية تعريف، بل لا بدَّ من تركيز معظم الجهد على تحقيق كلمة التوحيد وتحقيق توحيد الكلمة والاعتصام المتكاتف حول كتاب الله وسُنة نبيه.

**خامسًا:** على العالم أن ينوي بطلبه العلم هجرة إلى الله وخدمة لدينه وشريعته لا أن يطلب العلم ليقال: عالم، ولا يطلبه للجدل العقيم والوجاهة المصطنعة والمظاهر الزائفة.

**سادسًا:** أخطر ما يحدق بعلم العالم أن يطلبه الدنيا، فتراه ملقي على أعتاب الأغنياء يضحكهم بعلمه لينال من فتات الموائد وفضلات المال.. إنَّ مثل هذا العالم يقال له: عالم سوء؛ لأنه يقوم في مقام القدوة فيضل الله به كثيرًا.

**سابعًا:** إذا علم العالم حكمًا، فإنه أولى الناس أن يطبق عليه هو العالم نفسه ليقتدى بقوله وبفعله، أما أن يأمر الناس بالقسط وينسى نفسه وأهل بيته، فذلك دليل على قلة عقله وسوء رأيه وتعرضه لسخط الله الذي صبَّه على علماء بني إسرائيل يوم اشتروا بعلمهم العرض الفاني، ولم يطبقوا العلم على أنفسهم؛ فخاطبهم ربنا بهذا الاستفهام البلاغي الفاضح المخجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

***

## من أحاديث الأحكام

# أحكام الزواج وآدابه

## بعض من أحكام الزواج

الزواج ركن عظيم من أركان المجتمع الفاضل، به تتكون الأسر المتعاونة المتحابة، وبه تسمو الأخلاق حين تحفظ الفروج وتتلاشى فوضى الجنس، وبه تقوى شكيمة الأمة حين يكثر النسل ويربى على الفضائل، وبالزواج أيضًا تزول الأمراض الجنسية الخطيرة حين يكتفي كل شاب صالح محافظ على نفسه بزوجة صالحة محافظة على نفسها.

وإنها لشهادة عظيمة للإسلام أن يشهد الأطباء كلهم بأن سبب انتشار الأمراض الجنسية الخطيرة هو الشذوذ الجنسي والفوضى الجنسية، وهما أمران حرَّمهما الإسلام فقطع بهما دابر تلك الأمراض عبر العصور.

إنَّ عملية الزواج في الإسلام عملية شريفة ذات قوانين وأنظمة تكفل التعاون والاحترام المتبادل وشتان ما بين أن يولد الطفل بين أبوين كريمين عطوفين رحيمين، وبين أن يولد في ملجأ لا يعرف عطف الوالد ولا حنان الأم.. إنَّ ولاء الأول لدينه ووطنه يكون مستمدًا من رعاية صالحة تشمله في كلِّ ساعات يومه ونهاره، أما الثاني فإن ولادته تكون بداية شؤم وبؤس وحقد على الإنسانية، وما أجمل تلك الأوقات التي تقضيه صغار أفراخ الطير في أحضان الأمهات والآباء.. إنها أوقات من السعادة الغامرة لا يمكن أن تحظى بها أفراخ مكائن التفقيس.

من أجل هذه الحقائق رأيت أن أسرد في حلقات بعض أحكام الزواج مستقاةً من أحاديث الأحكام سائلاً الله -تعالى- أن يزيدنا بصيرة بهذا الدين، ويثبِّتنا منه على حقِّ اليقين، ويهدينا به سبل المؤمنين.

- جاء في الصحيحين والسُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر الشباب!! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم فإنه له وجاء**».

- وفي سنن أبي داود والنسائي: «**تزوَّجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم**».

- وفي صحيح مسلم: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**».

- وفي الصحيحين: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لجابر ﷺ: «**من تزوَّجت؟**»، قال: تزوَّجت ثيبًا. قال له رسول الله ﷺ: «**ما لك والعذارى ولعابها؟ فهلا بكرًا تلاعبك وتلاعبها؟**».

- وفي صحيح مسلم: «**إنَّ المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة؛ فليأت أهله فإنَّ ذلك يرد ما في نفسه**».

- وفي المعجم الأوسط: «**من تزوَّج، فقد ملك نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي**».

- وفي الحديث المتفق عليه: نهى رسول الله ﷺ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له.

- وفي سنن أبي داود أن النبي ﷺ قال لجابر ﷺ: «**إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر فيها ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**». قال جابر: فخطبت امرأة فكنت أتخبَّأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوَّجتها.

- وفي جامع الترمذي: «**أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف**».

- ولأبي داود والنسائي: قولوا ما كان رسول الله ﷺ يقوله: «**بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير**».

**أولاً**: إنَّ الزواج سُنة من سُنن الله في خلقه نلاحظها في عالم الإنسان والحيوان والنبات، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، والزَّواج واجب على كلِّ مَن يستطع توفير مؤنه وسكنًا له ولزوجته، وخصوصًا إذا خاف على نفسه الفتنة، والإسلام يكره التبتل (أي: ترك الزواج) من أجل الانقطاع للعبادة، وقد ردَّ عثمان بن مظعون ﷺ عن التبتل، كما جاء في صحيح البخاري.

والزواج يُقدَّم على الحج، وعلى أمة محمد ﷺ أن تتعاون لتيسير الزواج؛ لأن تلك العراقيل قد يترتب عليها فتنة في الأرض وفساد كبير، والحق أن كل أب أو ولي أمر يسد طريق الزواج على موليته بالعقبات، فقد عرَّضها إلى الفتنة والفساد، وأكثر ما تكون العراقيل غلاء المهور والإسراف في مصاريف العرس وتعداد الولائم.

**ثانيًا**: على الشابِّ أن يتزوَّج ذات الدين، فتلك يقينًا سيجد فيها عونًا على الحياة ووفاءً في السراء والضراء، وتمسكًا به وبولائها له على كلِّ حالٍ، وذلك لأن دينها يأمرها بأداء شعائر الزوجية على أكمل وجه، وبيَّن لكلٍّ من الزوج والزوجة حقوق كل منهما على الآخر وواجبات كل منهما إزاء صاحبه.. «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»، ولا يغررك عند الانتقاء مال الزوجة فهو قد يورثها غطرسة عليك، ولا يغررك افتخارها بنسبها، فإن أكرم الناس اتقاهم، ولا يغررك الجمال الصارخ فكم من نبتة خضراء تكون في مغرس سوء، وعليك بالصالحة الودود الولود لتكون لك أنسًا وسكنًا وسعادةً.

**ثالثًا**: الإسلام ينهي عن التبتل، وهو ترك الزواج انقطاعًا للعبادة، كما يفعل رهبان النصارى الذين ابتدعوا الرهبانية فوجدوها ضد الفطرة، وكان من جراء ذلك أن امتلأت معابدهم بالمتناقضات.

**رابعًا**: يجوز للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، فيرى وجهها وكفيها، وإذا استطاع بطريقة أو أخرى أن يرى ساقيها، فلا بأس ولكن لا يجوز أن يتخذ من هذا الأمر لعبةً وعبثًا، ويطَّلع من خلالها على عورات المسلمات، كما أنه لا يجوز لوالدي العروس أن يسمحا للخاطب بالخلوة بالمخطوبة قبل إجراء العقد؛ لأن هذا أمر قد تزل به القدم، ثم لا ينفع الندم، وخصوصًا إذا عدل الخاطب عن الزواج بعد مخالطة المخطوبة.

هذا، وإن جمود بعض الآباء والأمهات ومنعهم الخاطب أن يرى مخطوبته إنما هو مخالفة للسُّنة، وهو يؤدي إلى خيبة رجاء بين الزوج والزوجة في كثير من الأحيان.

**خامسًا**: الزواج كرامة للرجل والمرأة وفرحة للأمة بنشوء أسرة جديدة فيها، ومن ثم فمن المشروع إعلانه؛ لأن الغموض والتستر يكون من الفاحشة، والزواج طيب حلال ولا بأس بدق الطبول إعلانًا للزواج، وأن تغني النساء للعروس يسلينها، وأن يتبع ذلك وليمة عرس تكون مظهر فرحة بالحادث السعيد، ويقول المهنئ لمن يتزوَّج: «**بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما على خير**». أما قول: «بالرفاء والبنين» فتهنئة جاهلية.

## آداب حول الزواج

هذه بعض آداب حول موقف الشابِّ المؤمن والفتاة المؤمنة من الزواج، وهي آداب إذا التزمها المؤمن جعلته سويًا في سلوكه الجنسي سعيدًا بإذن الله في باله وبيته وذريته وحاطته بسياج من الأمان يصد عنه الشذوذ والمعصية وفوضى الجنس وأمراض العصر ومزالق الشرور.

**أولاً**: على الفتى المسلم والفتاة المسلمة أن يتطلعا إلى الزواج؛ لأنه من أجمل سُنن الفطرة تزكو به النفوس، وتطهر به الأمة، وتتكون به الأسر المسلمة في ظلال التربية الوضيئة الطهور، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «**تزوَّجوا الودود الولود؛ فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة**»، وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**يا معشر الشباب!! من استطاع منكم الباءة** (يعني: تكاليف الزواج ولوازمه) **فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»، أي أن الصوم وقاية من الفاحشة؛ لأنه يكسر حدة الشهوة، ويذكِّر الصائم بالله، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «**اتخذوا الأهل؛ فإنه أرزق لكم**»، أي أن الزواج والإنجاب يكونان سببًا في سعة الرزق.

والزواج أفضل من الانقطاع للعبادة، فلقد ردَّ النبي ﷺ ما عزم عليه عثمان بن مظعون ﷺ حين عرض أن يترك الزواج ويتبتل لينقطع للعبادة.

**ثانيًا**: على المؤمن أن يتخذ الزواج وسيلة مباركة للعفاف والذرية الصالحة والائتناس

بالحياة السعيدة التي يوفرها كل من الزوجين لصاحبه من سكينة وهناء وتعاون وحب وإيثار، وألا يتخذ الزواج وسيلة للظهور أو المركز أو المفاخرة.

إنَّ مَن يتزوَّج ليعفه الله ويرزقه الذرية الصالحة يعينه الله على مسئوليات العائلة، روى الحاكم بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة حقٌّ على الله ﷻ أن يعينهم: المجاهد في سبيل الله، والمناكح ليستعف، والمكاتب يريد الأداء**»، وفي مصابيح السنة: «**مَن تزوَّج لله توجه الله تاج الملك**» أي: جعله في أسرته كالملك الموفق في رعيته.

والمتزوج حين تصفو نواياه ومقاصده يرزقه الله غض البصر واجتناب دواعي الفساد، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الحاكم: «**مَن تزوَّج أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر**».

ثم إن تشجيع الزواج في الأمة يقوي روابطها وينمي عددها ويسمو بمجتمعها، وهذا ما أثبتته الوقائع في المجتمعات الأوروبية، فلقد تقطعت رحم المودة وشاعت عادات الشر واستفحلت مشكلات النساء حين عزف الشباب هناك عن الزواج، واكتفوا بالعلائق الدنسة من اتخاذ الأخدان والخليلات وهجر الطريق السوي.

**ثالثًا:** على الفتى المسلم والفتاة المسلمة أن يتطلع كل منهما إلى الشريك الصالح المتحلى بفضائل الدين، وذلك لأن صاحب الدين لا يمكن أن يظلم، ثم إن الوراثة الصالحة حقيقة، فالعرق دساس، وإذا اختار المؤمن الزوجة الصالحة، فذلك بإذن الله إيذان أن يؤدي كل من الزوجين حقوق الزوجية، وهو أيضًا بُشرى بصالح الذرية؛ لأن كلا من الزوجين يؤدي شعائر الزوجية لصاحبه كما سنها الله، فيكون في هذا البركة والتعاون على الخير والقدوة الصالحة للولد، يقول النبي ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى خيرًا له من زوجة صالحة إنْ أمرها أطاعته، وإنْ نظر إليها سرته، وإنْ أقسم عليها أبرته، وإنْ غاب عنها حفظته في نفسها وماله**».

وعلى أولياء الأمور من الآباء أن يجعلوا الدين رائدهم في الزواج، يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وأحمد: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في**

الأرض وفساد عريض».

إنَّ ولي أمر الفتاة مطالب من الله -جلَّ وعلا- ألا يضع العراقيل في وجه الشابِّ الصالح إذا خطب إليه موليته؛ لأنه إن فعل ذلك فقد عضلها، وربما فتنها، ويكون الولي سبب فتنتها وفسادها، جاء في «مسند أحمد» أن رسول الله ﷺ قال: «يَا عَلِيُّ، ثَلاَثٌ لاَ تُؤَخِّرْهَا: الصَّلاَةُ إِذَا آنَتْ، وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ، وَالأَيِّمُ إِذَا وَجَدْتَ لَهَا كُفُؤًا»، والأيم غير المتزوجة، ولا بأس أن يسمح الولي للزوج أن يرى من مخطوبته وجهها ويديها.

وفي صحيح مسلم أجمل نصيحة للشابِّ والفتاة، يقول النبي ﷺ: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فعليك بذات الدين تربت يداك»**، و«تربت» هنا معناها ربحت.

وفي صحيح البخاري: **«مَن تزوَّج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومَن تزوَّجها لمالها لم يزده الله إلا فقرًا، ومَن تزوَّجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومَن تزوَّج امرأة لم يرد إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه»**.

وعلى ولي الأمر عندئذٍ ألا يغالي في المهر من أجل المباهاة، فهو بذلك يسنُّ سُنة سيئة يتولى كبره فيها، ويتحمل وزرها، ويعين على زوال البركة من الزواج، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني: **«خيرهن أيسرهن صداقًا»**.

ومن آداب الزواج أن يتم برضاء الولي وشهادة الشهود وتحديد المهر، فلا يكون نكاح إلا بولي وشاهدين ومهر مهما قلَّ أو كثر، وإذا تمَّ الزواج تحلى الرجل بالأدب مع زوجته، وبالعدل والاحترام وتعلِّيمها عادات الخير والعبادة وقراءة القرآن، وتكون هي ستيرة متبرجة لزوجها حصانًا محتشمة مع غيره، تسمع قول زوجها وتطيعه، وإذا خلوا بذلت له ما تقر به عينه، وعليها ألا تمنعه مما قد يطلبه؛ لأن ذلك يغيظه منها ويغضب ربها عليها.

وإذا تمَّ الزواج بهذا الوجه الأفضل تجنب الزوجان دواعي الطلاق والحماقة الموصلة إليه والعصبية المثيرة للعداء؛ إذ لا يجوز للزوج أن يطلِّق زوجته فقط من أجل أن يذوق غيرها، فالله لا يحب الذواقين والذواقات.

وعلى الزوج أن يكون حليمًا خيرًا لزوجته اقتداءً برسول الله ﷺ؛ إذ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**».

## المهر في الزواج

المهر شرط من شروط صحة النكاح، فلا نكاح بلا مهر، قال الله تعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾ [النساء: ٤]، ومعنى «نحلة» أي: العطاء الخالص من أي عرقلة أو عوض، ولأنه للمهر في أيامنا هذه مشكلات تنغص الزواج وتنكده، فقد أحببت أن أورد أحاديث تتعلق بالمهر كما كان على عهد رسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الاقتداء بالسَّلف الصالح الذين جعلوا كتاب الله منهاجهم، فنالوا به سعادة الدارين.

– روى البخاري ومسلم وأصحاب السُّنن من حديث طويل أنه قال لرجل أراد أن يتزوَّج امرأة: «**التمس ولو خاتمًا من حديد**»، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتمًا من حديد!! فلما ولى أمر به فدعي، فلما جاء قال له: «**ما معك من القرآن؟**» قال: معي سورة كذا وسورة كذا عدَّدها. قال: «**تقرؤها عن ظهر قلب؟**» قال: نعم. قال: «**اذهبْ؛ فقد ملكتكها بما معك من القرآن**» (يعني أن يحفِّظها السور التي يحفظها).

– وروى النسائي أن أبا طلحة ﷺ خطب أم سليم -رضي الله عنها- فقالت له: «والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد، ولكنك رجل كافرٌ، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحلُّ لي أن أتزوَّجك؛ فإن تسلم فذلك مهري، ولا أسألك غيره»، فأسلم فكان ذلك مهرها.

قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم الإسلام، فدخل بها فولدت له أبر الناس بوالديه.

– ولأبي داود -رحمه الله: «**مَن أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقًا أو تمرًا، فقد استحل**»، وفي رواية: كنا على عهد رسول الله ﷺ بالقبضة من الطعام (أي: نتزوَّج).

– وللترمذي أن امرأة من بني فزارة تزوَّجت على نعلين، فأجازه النبي ﷺ.

وروى أصحاب السِّير أن رسول الله ﷺ تزوَّج عائشة على متاع يساوي أربعين درهمًا،

وتزوَّج أم سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم.

وخطب عليه الصلاة والسلام يومًا فقال: «**لا تغالوا في صدقات النساء؛ فإن ذلك لو كان مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم به رسول الله ﷺ**»، وفي زيادة: «**وإن الرجل ليغلي بصداق امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه**».

**أولاً**: أكرم الإسلام المرأة ففرض لها مهرًا بعد أن كان الرجال في الجاهلية يأكلون مهرها، وقد جعل هذا المهر حقًّا واجبًا لها، فما يكون لأبيها ولا لزوجها أن يأخذ شيئًا من مهرها إلا برضائها والمهر يدفعه الرجل ولا يجوز أن تدفع المرأة أو وليها مهر الرجل، كما يحصل في بعض الدول هذه الأيام، وذلك ليظل الرجل قوامًا على المرأة، وليكون له الحق في الطلاق في مقابل مهرها ونفقتها.

**ثانيًا**: لم يحدد الإسلام المهر، فقد يزيد حتى يبلغ قنطارًا، وقد ينقص حتى يكون خاتمًا من حديد، وذلك على حسب الطاقة والحالة والعادات، لكن الإسلام دعا إلى عدم المغالاة في المهور؛ لأن هذا الأمر يعرقل الزواج، فيكون عندئذٍ في الأرض فتنة وفساد كبير.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**إنَّ أعظم النساء بركة أيسرهن مئونة**»، وقال رسول الله ﷺ: «**يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها**».

**ثالثًا**: بعض الآباء في هذه الأيام يغالون في المهور من قبيل المفاخرة، فالكثيرون منهم يحددون خمسين ألف ريال عدا الهدايا والوليمة الكبيرة، ويضاف إلى هذا جهاز البيت حتى يصل الأمر في النهاية إلى مائة ألف عند أوساط الناس، وهذا غلو وشطط وجهل كان له مردود سيئ هو عزوف كثير من الشباب عن الزواج لعجزه عن هذه المغامرات المعجزة، كما أن بعض الآباء يغالون في مؤجل المهر ظنًّا منهم أن ذلك يكسب المرأة احترامًا ومهابة عند زوجها، وما دروا أنه لا يجر إلا فساد الثقة وغطرسة الزوجة، وينقض الكاهل حتى يحس الرَّجل أن أصهاره أعداء لا رحمة في قلوبهم مع أن الزواج مودة ورحمة ومصاهرة تثمر المحبة والتآلف لو كانوا يعلمون، بل إن من أولياء أمور البنات من يقسو ويظلم فيطلب أن يكتب

أثاث البيت باسم الزوجة حتى إذا خرجت من البيت مغاضبة كنست البيت من كل ما فيه، فيظلُّ الزوج في دوامة من الحقد على أولئك الجهلة.

**رابعًا:** الدخول قبل دفع المهر جائز برضاء الزوجة لكي يمهل الزوج إلى أن ييسر الله له، ويجوز الدخول دون تحديد المهر، وفي هذه الحالة يفرض لها مهر أمثالها، وإذا مات الزوج قبل أن يدخل بزوجته فللزوجة نصف مهرها ولها ميراثها، وإذا عفت أو عف وليها برضائها عن بعض الحقِّ وقدرا ما يلمُّ بأهل الزوج من جراء فقده، فذلك إنْ شاء الله أقرب للتقوى، وليظل الفضل بين أمة محمد والمعروف، وإذا طالبت الزوجة بمهرها فذلك حقها وخصوصًا إذا كان الزوج ذا مال، وكانت الزوجة وأهلها في حاجة.

**خامسًا:** إذا اتضح بعد الدخول أن الزواج فاسد بسبب رضاع أو غيره، فإن هذا لا يسقط حق الزوجة في المهر، وفي هذا برهان على مدى اهتمام الإسلام بمصلحة المرأة، وإذا كره زوج زوجته بعد الدخول بها، وكان قد دفع إليها من المهر والهدايا ما يعادل قنطارًا من الذهب والفضة، فما يجوز أن يسترد منه شيئًا.

**سادسًا:** هذا، ومن المستحب الاقتصاد في الجهاز على حسب حالة الزوج الذي يفرض عليه الشرع أن يقوم بعملية التجهيز كاملة دون أن تكلف الزوجة أي شيء، وقد جهَّز رسول الله ﷺ فاطمة -رضي الله عنها- جهازًا مختصرًا نظيفًا؛ إذ كلَّف نسوة أن يفرشن البيت برمل نظيف، ويبردن الماء في قربة جديدة، ويجهزنها بخميلة (أي: ثوب له لبد)، وحشيت لها وسادة بالإذخر وهو نبات عطري، وكان ذلك كل جهاز فاطمة.

ألا ما أجمل سير السلف، وما أحلى وأجمل أن يقتدى بتلك، فنحرز ما أحرزوه من عزة في الدنيا والآخرة.

## الزواج المثالي

من آداب المؤمن أن يكون زوجًا مثاليًّا يعرف حق المعرفة ما له وما عليه إزاء زوجته، ويكون لها نعم العشير، كما يجبُّ أن تكون له نعم السكن، وتكون لأبنائه نعم الأم والمربية،

ونحن بفضل الله نقتبس أخلاقنا الفاضلة وقدوتنا الصالحة من رسولنا ﷺ ومن كريم سيرته الجميلة.

ولقد كان من حسن حظنا أن سيرته عليه الصلاة والسلام كانت مكشوفة واضحة كأنها محجة الإسلام البيضاء، حتى لقد قرأنا في سيرته الكريمة أخص الخصائص منها وأدق التفاصيل من حياته الزوجية.

أقبل عليه أحد الصحابة يومًا ومعه زوجته أم سلمة فدنا منه وسأله سرًّا: هل تقبِّل زوجاتك في رمضان، فقال له رسول الله ﷺ: اسألها. فقالت: نعم، كان يقبِّل في رمضان، ولكنه يملك إربه (أي: يحكم شهوته).. سيرة نبينا كلها واضحة؛ لأنها نقية مباركة والتكتم إنما يكون في الأمور المريبة، وقديمًا قال الشاعر:

وَالسِّترُ دونَ الفاحِشاتِ وَما ... يَلقاكَ دونَ الخَيرِ مِن سِترِ

وهذه بعض ألوان من المعاملة الكريمة والزوجية الرحيمة التي يلتزمها المؤمن مستقاة من السيرة العطرة التي كان يسيرها في أزواجه ﷺ:

**أولاً**: أن يحترمها احترامًا يليق بأمومتها ويبعث فيها الاعتزاز بنفسها وبيتها وبشرفها، وأن يضاعف من إكرامها ولطف القول معها في حضور أولادها وأرحامها، وألا يجعل علاقته معها علاقة قهر أو مغالبة، فلقد جاء في الحديث في وصف النساء بأنهن يغلبن الكريم ويغلبهن اللئيم، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «**النِّساء شقائق الرجال**» أي: مكملات لهم.

**ثانيًا**: أن يعاونها في تربية أولادها وخدمتهم وبخاصة إذا مرضوا وأسهروها؛ لأن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من شئون الناس عاد إلى بيته، فكان في مهنة أهله يعاونهن ويجاملهن، ويرفع من معنوياتهن، ويقول: «**استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهن عوانٍ لكم**»، أي: أسيرات في بيوتكم، ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن بابويه: «**هيبة الرجل لزوجته تزيد في عفتها**»، ولا غرو فالمرأة العزيزة الكريمة تحترم نفسها كما تحترم من ربَّاها على العزة والكرامة من أب وزوج، وبذلك تربأ بنفسها عن مواطن الريب، وتحرص على شرفها بالعفاف والأدب.

**ثالثًا:** أن يحرص على سمعتها، ويغض عن زلاتها، ويشيد بحسناتها، ولا يتحدث أبدًا بما يدور بينها وبينه من أسرار؛ لأن هذا دأب السفلة والغوغاء.

إنَّ كلَّ بيت لا بدَّ أن يحصل فيه خلافات أو مفارقات، لكن ذوي الكرامات تظل أسرارهم مصونة محفوظة، أما غيرهم فتجدهم مهتوكي الستر لما يتسرب من أفواه الزوج والزوجة والبنين من ثرثرة تجعل البيت مكشوف الستر مفضحًا، ففي الحديث الذي رواه مسلم يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**»، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ أقبل على الناس بوجهه ثم قال: «**مجالسكم: هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره، ثم يخرج فيحدث ويقول: فعلت بأهلي كذا وفعلت بأهلي كذا**»، فسكتوا، فأقبل على النساء فقال: «**هل منكن من تحدث؟**» فقالت جارية: أي والله يا رسول الله، إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثن، فقال ﷺ: «**هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إنَّ مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة، لقي أحدهما صاحبه بالسكة، فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه**».

**رابعًا:** أن يسمو بعملية الجماع عن العبث والشذوذ، وأن يتذكر أن الجماع نعمة ووسيلة إنجاب، فيسمِّي إذا شرع ويدعو الله بحسن العطاء وصالح الذرية، فيقول: «**بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا**»، وإذا أراد أن يعاود فليتوضأ إمعانًا في النظافة وألا يفرغ الرجل من وطره قبل زوجته، بل يلبث وينتظر ليسر كل منهما بصاحبه.

**خامسًا:** إذا أحوجت ظروف قاهرة أن يمد الرجل يده على زوجته للتأديب؛ فعليه ألا يضرب وهو غاضب خوفًا من فلتات اليد، وعليه أن يتجنب الوجه احترامًا لوجه أبينا آدم، وإذا كان متزوجًا بأكثر من واحدة؛ فعليه أن يعدل ويكرم الجميع، قال ﷺ لمعاوية بن حيدة: «**لا تقبح (أي: تسب المرأة بقبيح السباب)، ولا تهجر (أي: تتلفظ بهجر القول) إلا في البيت**».

**سادسًا:** أن يعلم أن الغيرة خلق في جميع النساء حتى إن أمهات المؤمنين كانت بينهن غيرة، كما جاء في سبب نزول سورة «التحريم»، والغيرة المعقولة ظاهرة صحيحة؛ لأنها تصدر عن الزوجة المحبة لزوجها، فلا يغضب الزوج إذا رأى شدة الغيرة في زوجته؛ لأنه لو لم يكن غاليًا عندها لما التفتت إلى غيبته أو حضوره.

وأخيرًا؛ فقد تزوَّج رسول الله ﷺ إحدى عشرة زوجة تزوَّجهن لحكمة واعتبارات تخدم الإسلام، وعلى الرغم من تفاوتهن في السن فقد غمرهن عليه الصلاة والسلام بحبه وعاطفته ووجدانه، وملأ البيت عليهن حيوية فياضة وتربية كريمة جعلتهن من عظيات النساء، ووفى لمن ماتت في حياته وفاءً لم يعرف التاريخ مثله.

اللهم صلِّ عليه واجعله إمام أخلاقنا في الدنيا وشفيعنا يوم القيامة.

## حقوق الزوج

نستطيع أن نسمِّي عصرنا هذا عصر الشكوى؛ إذ قلما تسأل إنسانًا عن خلطائه إلا ويشتكي، تسأل الأم عن أولادها وبناتها فتشتكي، وتسأل الزوج عن زوجته فيشتكي، وتسأل الزوجة عن زوجها فتشتكي، ومثل هذا يحدث لو سألت المعلم عن الطلاب، والطلاب عن المعلمين، والتاجر عن العملاء، والعملاء عن التاجر، والموظفين عن الرئيس، والرئيس عن الموظفين، وأصحاب المعاملات عن الموظف المختص.. يحدث كلُّ هذا بسبب واضح غاية الوضوح ألا وهو (غياب الأحكام والآداب الإسلامية عن ساحة المجتمع)، ولو أن كلَّ مسلم ومسلمة التزما في سلوكهما أدب الإسلام وحكمه لوجد أنه حدَّد الحقوق والواجبات والآداب والأحكام بطريقة لا تبقي في المجتمعات شكوى.

ومن الغريب أن يضرب المسلمون في تخوم الضياع والشكوى وعندهم الدواء الشافي لكلِّ أمراضهم لديهم كتاب الله وسنة رسوله، وهما اللذان رسما حقوق الأب والابن والزوج والزوجة، وكل متعاملين بطريقة كلها عدل، وبمنهاج لا يأتيه العوج من بين يديه ولا من خلفه.

وهذه طائفة من الأحاديث تبيِّن حقوق الزوج، وهي مما لا يحتاج إلى شرح:

- روى الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها**»، وروى من حديث أم سلمة -رضي الله عنها: «**أيما امرأة ماتت وزوجها راضٍ عنها دخلت الجنة**».

- وفي الصحيحين: «**إذا باتت المرأة مهاجرةً فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع**».

- وللترمذي أيضًا: «**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه، قاتلك الله!! فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا**».

- وفي سنن أبي داود أن أبا بكر ﷺ استأذن على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة -رضي الله عنها- عاليًا، فأذن له، فلما دخل قال لعائشة: أسمعك ترفعين صوتك على صوت رسول الله ﷺ، ورفع يده ليلطمها فحجزه ﷺ، وخرج أبو بكر مغضبًا فقال لها رسول الله ﷺ: «**كيف رأيتني أنقذك من الرجل؟**».

وفي سنن أبي داود: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! زوجي صفوان بن المعطل يضربني إذا صليت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي الفجر حتى تطلع الشمس، وكان صفوان عنده فسأله فقال: يا رسول الله، أما قولها: «يضربني إذا صليت»، فإنها تقرأ بسورتين، وقد نهيتها فقال ﷺ: «**لو كانت سورة واحدة لكفت الناس**»، وأما قولها: «يفطرني إذا صمت» فإنها تنطلق تصوم وأنا رجل شاب فلا أصبر، فقال ﷺ: «**لا تصوم المرأة**» (أي: النافلة) **إلا بإذن زوجها**»، وأما قولها: «إني لا أصلي حتى تطلع الشمس»، فأنا أهل بيت قد عرف لنا ذلك لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال: فاستيقظ يا صفوان فصلِّ.

وروى البخاري ومسلم -رحمها الله- عن أسماء بنت أبي بكر هذا الحديث العظيم الذي أود والله لو تقرؤه كل امرأة من رائدات الأسواق ومحترفات التسكع وذرع الطرقات. قالت أسماء -رضي الله عنها: «تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ وَلَا شَيْءٍ غَيْرَ نَاضِحٍ (أي: بعير يستقي عليه الماء) وَغَيْرَ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ (أي: تخيط القربة التي يستقون بها) وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ، وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَأْسِي وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ الله ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَدَعَانِي ثُمَّ قَالَ: «إِخْ إِخْ» (وهي كلمة تقال للجمل فيبرك) لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ، وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ فَعَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ أَنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْتُ، فَمَضَى فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ: لَقِيَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَعَلَى

رَأْسِي النَّوَى وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لِأَرْكَبَ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ: وَالله لَحَمْلُكِ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكِ مَعَهُ!! قَالَتْ: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي».

وروت -رضي الله عنها- أنه جاءها رجلٌ فقيرٌ فقال: يا أم عبد الله!! إني رجل فقير أردت أن أبيع في ظل دارك، فقالت له: أطلب هذا الأمر إليَّ والزبير شاهد، فجاء الفقير والزبير شاهد فقال: يا أم عبد الله!! إني رجل فقير أردت أن أبيع في ظل دارك، فقالت له: ما لك في المدينة إلا داري؟ فقال الزبير: ما لك أن تمنعي رجلاً فقيرًا يبيع، فكان يبيع إلى أن كسب.

وروى الشيخان وبعض أصحاب السُّنن هذا الحديث الذي نهديه إلى المسلمات في هذه الأيام لعل الله يهديهن وإيانا بهدي السلف الصالح.. عن عليٍّ ﷺ أنه قال لأحد الصحابة: «أَلاَ أُحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَكَانَتْ مِنْ أَحَبِّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: إِنَّهَا جَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَّرَ فِي يَدِهَا، وَاسْتَقَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَ فِي نَحْرِهَا، وَكَنَسَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا، (وفي زيادة: وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها»)، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ خَدَمٌ، فَقُلْتُ: لَوْ أَتَيْتِ أَبَاكِ فَسَأَلْتِيهِ خَادِمًا، فَأَتَتْهُ فَوَجَدَتْ عِنْدَهُ حُدَّاثًا، فَرَجَعَتْ فَأَتَاهَا مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا كَانَ حَاجَتُكِ؟». فَسَكَتَتْ فَقُلْتُ: أَنَا أُحَدِّثُكَ يَا رَسُولَ الله، جَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَّرَتْ فِي يَدِهَا، وَحَمَلَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَتْ فِي نَحْرِهَا، فَلَمَّا أَنْ جَاءَكَ الْخَدَمُ أَمَرْتُهَا أَنْ تَأْتِيَكَ فَتَسْتَخْدِمَكَ خَادِمًا (أي: تطلب منك خادمًا) يَقِيهَا حَرَّ مَا هِيَ فِيهِ. قَالَ: «اتَّقِي اللهَ يَا فَاطِمَةُ، وَأَدِّي فَرِيضَةَ رَبِّكِ، وَاعْمَلِي عَمَلَ أَهْلِكِ، فَإِذَا أَخَذْتِ مَضْجَعَكِ فَسَبِّحِي ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَاحْمَدِي ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَكَبِّرِي أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ؛ فَتِلْكَ مِائَةٌ فَهِيَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ». قَالَتْ: رَضِيتُ عَنِ الله ﷻ وَعَنْ رَسُولِهِ ﷺ».

وفي مسند أحمد -رحمه الله- من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

وفي المعجم الكبير للطبراني: «إني لأبغض المرأة تخرج من بيتها تجرُّ ذيلها تشكو زوجها».

هذه الأحاديث الشريفة نقدِّمها إلى نفر من النسوة المسلمات يخرجن كل يوم من بيوتهن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى قد نقصن العباءات إلى الكتفين شغلهن ما بين الأسواق؛ حيث معاكسات المتسكعين إلى بيوت الجارات، حيث ترك الواجب البيتي ومجالس الغيبة والنميمة.

وإني أسألهن: هل هن أفضل من فاطمة بنت أشرف الخلق، ومن أسماء بنت أكرم أصحاب الرسول!! أذكِّرهن بقول ربنا ﷻ يخاطب من هن أشرف منهن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]!!

## حقوق الزوجات

هذه الحلقة أسوقها إلى الرِّجال ذاكرًا لهم حقوق الزوجات على ضوء ما ورد من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ لعل الله يكتب لنا هديه واتباعه في الدنيا وجيرته وشفاعته في الآخرة:

- جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنساء خيرًا**».

- وفي سنن أبي داود من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**»، ومعنى قوله: «ولا تقبح» أي: لا تستعمل معها الكلام القبيح، ولا تقل لها: قبَّحك الله، وقوله: «لا تهجر» معناه: لا تقل لها الهجر، وهو الكلام الفاحش.

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم لعله يضاجعها من آخر اليوم**».

- كان رسول الله ﷺ يسلي زوجاته بقصص لطيفة، وقد رويت عنه في هذا الباب قصص ممتعة حقًّا كحديث أم زرع، وحديث مناسبة سورة «التحريم».

- وروى أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال لي: **«هذه بتلك»**.

- وكان الأحباش يلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد، فأخذ النبي ﷺ أمنا عائشة -رضي الله عنها- لتتفرج، فكانت تنظر من خلف كتفه وتتفرج وهو يشجِّعهم حتى شبعت من الفرجة.

- وفي جامع الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا إن لكم على نسائكم حقًّا، ولنسائكم عليكم حق؛ فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»**.

**أولاً**: الزواج كما أسلفنا شركة حياة ورفقة درب طويل وصداقة مؤنسة في ظروف قد تكون موحشة، وقد تكون مسعفة، وما أجمل أن ينظر المرء فيما حوله في الطريق المخيف، فيرى صديقًا مؤنسًا عظيم الحب صادق العاطفة، يفديه بكلِّ غالٍ ويلازمه في الأهوال، ولا يتخلى عنه مهما جسم الخطب واشتد البلاء، ومن ثم كان الزواج من أعظم نعم الله، ومن أقدس روابط الإنسانية، ومن منطلق هذه النعمة الغامرة وتلك القداسة الوضيئة وجب أن تقوم العلائق الزوجية على الطهارة النيرة والمحبة العميقة والولاء الودود والتعاون المضحي.

وقد أسلفنا قصتين من سلوك سيدتين كانتا من أشرف البيوتات أرومة ومنبتًا، وهما فاطمة بنت محمد وأسماء بنت أبي بكر، وحسبك بهما كرامة حسب وشرافة أصل.

**ثانيًا**: أما عن حقوق الزوجة على زوجها وهو موضوع هذه الحلقة؛ فإننا نلتمس فيه القدوة من سيرة رسولنا ﷺ كان شعاره في بيته: **«خيركم عند الله خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**، وحسبك بسيد المرسلين بشاشة خلق ودماثة طبع ورقة شمائل أن يخوض هو وزوجته سباقًا تسبقه فيه ويسبقها، ثم يقول لصحبه: **«خياركم خياركم لنسائهم»**، يفعل هذا في مقدمة العصور الوسطى وأعقاب الجاهلية حين كانت المرأة مغصوبة الحق مغلوبة الأمر تورث كالسلعة كرهًا، ألا ما أروعها حضارة حقيقية قائمة على المودة الأسرية والرحمة العاطفية والاحترام المتبادل.

**ثالثًا**: حقوق المرأة منها مادي كالمهر والنفقة، ومنها أدبي معنوي أولها حسن المعاشرة

وكرم المعاملة وصدق الاحترام، وذلك لأن هذه الأمور مظاهر من نضوج الشخصية وتكاملها وسمو الخلق وسعة الأفق وعمق الفهم والروح الحضاري، أما إهانة المرأة عمومًا والزوجة بخاصة؛ فمظهر من مظاهر الهمجية والتخلف والبربرية.

ولقد كانت أعظم النساء دلا على الزوج وتمتعًا بمعاملته وتسليًا بقصصه أمهات المؤمنين.. استمع إليه وهو يقول لعائشة حين ذكرت مال أبيها في الجاهلية: «**لقد كنت لك كأبي زرع لأم زرع**»، ومضى يقصُّ عليها قصة إحدى عشرة امرأة جلسن معًا، وباحت كل منهن بأسرار شخصية زوجها، فكانت أسعد امرأة بينهن أم زرع بسلوك زوجها أبي زرع، وفي سبب نزول سورة «التحريم» أن رسول الله ﷺ حرَّم على نفسه العسل أو حرم إحدى زوجاته التماسًا لرضاء عائشة وحفصة وسودة أو صفية، حتى لقد لامه ربه في ذلك التحريم، وخاطبه بقوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

**رابعًا**: ومن حقوق الزوجة أن يحافظ الرجل عليها وعلى سمعتها، وأن يصونها ولا يرضى من حلوها قولة السوء (وهو اسم للفاشي في الناس خيرًا أو شرًّا)، وأن يبصرها بالطرق التي تصون كرامتها وتؤلف سمعتها وشرفها، وأن يغار عليها غيرةً متعقلةً، أما الذي لا يبالي بأهله ولا يهتم بسلوك زوجته ولا يغار إذا رآها في موطن ريبة، فذلك هو الديوث المحتقر الذي يحرمه ربنا ﷻ ريح الجنة.

إنَّ تربية الزوجة على الكرامة والأدب والاحتشام حق من حقوقها على زوجها وواجب شرفي على الزوج، والغريب أن بعض الأزواج يجبرون زوجاتهم على التكشف وجلسات الاختلاط لكي يرضي ذوق بيئة منحلة، وما درى أنه بهذه المجاملات الخطيرة يخرب بيته بيديه، ويقود زوجته وبناته إلى هاوية الهلاك.

**خامسًا**: ومن حق الزوجة أن يحترمها الزوج أمام الناس، وفي حضور نسائها وأقاربه وأقاربها، حتى ولو أخطأت؛ لأن المرأة بشر، وهي عرضة للخطأ، وما يجوز للزوج أن يخاطبها بهجر القول وقبيحه إلا إذا خلوا في بيتها، فإذ ذاك يكون مجال لتأديبها بطرق التربية المختلفة من الكلمة الرقيقة العاتبة إلى العصا الرادعة الضاربة.

**سادسًا**: أما استمتاع الزوجين أحدهما بالآخر، فهو أمر لازم لا يجوز أن يضن به أحدهما

على الآخر، وهذا أمر في صالحها؛ لأن انقطاع الرجل عن هذا الأمر قد يفتن المرأة، فتميل إلى غيره، وامتناع المرأة قد يفتن الرجل فيميل إلى غيرها، ولهذا يرى بعض الأشياخ وجوب الجماع على الرجل في كلِّ طهر مرة، ومعروفة قصة عمر والمرأة التي كان زوجها غائبًا عنها في الغزو حين سمعها تنشد متشوقة إلى زوجها متخوفة على نفسها، فأصدر ﷺ أمرًا بألا يغيب مجاهد عن زوجته أكثر من ستة أشهر، بعد أن استشار حفصة وغيرها.

هذا، وعلى الرجل أن يلتزم آداب هذه المتعة من التستر وعدم تقليد الكفار والشواذ والتسمية والدعاء بالذرية الصالحة لتكون المتعة وسيلة إلى غرس المحبة في القلوب.

## العدل بين الزوجات

أباح الإسلام الزواج بأكثر من واحدة لكنه اشترط العدل، فإذا خاف الرجل ألا يعدل كان عليه أن يكتفي بواحدة، والأجانب الكفار يتخذون من إباحة التعدد مغمزًا على الإسلام، ونسوا بأن العالم في هذه الأيام أحوج ما يكون إلى التعدد، وذلك لكثرة النساء وما يتعرض له الرجال من الموت في الحروب، ثم إن المسلمين بالذات يهمهم التعدد؛ لأن في هذا تكثير لعدد المسلمين وتقوية لهم ضد الكافرين الذين لا يفتئون يكيدون للإسلام ويتآمرون على أهله، ولهذا أوصى رسول الله ﷺ بالحرص على الزواج والتناسل لتكثر الأمة الإسلامية، وليباهي رسول الله ﷺ بهم الأمم يوم القيامة.

هذا إلى أن التعدد الذي يجيزه الإسلام مع العدل هو أطهر وأجل وأعظم فائدة وأقل ضررًا من اتخاذ الصديقات، إن أولئك الذين يغتنمون تعدد الزوجات لا يرون بأسًا باتخاذ الخليلات والزنا بزوجات الغير، ولو استعملوا عقولهم لوجدوا أن التعدد يصون جميع الزوجات عن الفوضى الجنسية، ويشترط على كل حرة ألا تخون زوجها، وبهذا يظل الزواج على طهره بعيدًا عن الرجس الذي به تنتشر الأمراض وتختلط الأنساب.

وإني مورد هنا بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بأحكام العدل بين الزوجات على كلِّ زوج يجمع أكثر من زوجة عنده.

- روى الأربعة أصحاب السنن -رحمهم الله- أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ لإِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ»**.

- وورد أن رسول الله ﷺ كان يقسم فيعدل، ويقول: **«اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»** (يعني بذلك حب القلب وميله).

- وروى الشيخان أن سودة بنت زمعة أم المؤمنين وكانت امرأة كبيرة تزوَّجها رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة -أن سودة قالت: يا رسول الله، جعلت يومي منك لعائشة، فكان يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة.

وروى مسلم -رحمه الله- ما يفيد أن موضوع القسمة كان يثير بعض المفارقات بين أمهات المؤمنين، فقد اجتمع لرسول الله ﷺ تسع نسوة، وكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى الأولى إلا في تسع (أي: تسع ليال)، فكن يجتمعن في كل ليلة في بيت من يكون رسول الله ﷺ عندها؛ ليأنسن برسول الله ﷺ، فاجتمعن ليلة عند عائشة فجاءت زينب متأخرة، فمدَّ رسول الله ﷺ يده إليها. فقالت له عائشة: هذه زينب (تذكره أن الليلة ليست ليلة زينب، فيمد يده إليها)، فكف يده حالاً فارتفع بينهما الصوت والرسول الكريم جالس بينهن، حتى مرَّ أبو بكر ﷺ فسمع صوت ابنته وصوت زينب -رضي الله عنهما- تتقاولان، فقال: اخرج يا رسول الله، واحث في أفواههن التراب.

- وروى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: **«من السُّنة إذا تزوَّج البكر على الثيب أقام عندها سبعًا، وإذا تزوَّج الثيب على البكر أقام عندها ثلاثًا، ثم قسم»**.

**أولاً**: أباح الإسلام للمسلم أن يتزوَّج من واحدة إلى أربع زوجات، واشترط لذلك العدل، قال الله تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ [النساء: ٣]، ويكون العدل في جميع ما يلزم للمرأة من طعام وشراب وكسوة ومسكن دون أن يفرِّق بين متعلمة وجاهلة أو بين صغيرة وكبيرة أو غنية وفقيرة، وعليه أن يقسم المبيت بالتساوي فلكل ليلتها كاملة، أما ميل القلب وما قد يعقبه من لقاء بين الزوج والزوجة؛ فهو أمر يتعلق بالقلب، والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولا يملك الإنسان أن يتصرف في ميل قلبه، ومن ثَمَّ؛ فالزوج لا

يحاسب على ما يحس به من ميل قلبه إلى إحدى نسائه، وما قد يترتب على ذلك من لقاء.

**ثانيًا**: إذا لم يعدل الزوجة في قسمة الطعام والشراب والغرف والثياب، فقد أثم وسوف يحاسبه ربه يوم القيامة، ويراه الناس في ساحات القيامة في شكل غير مقبول؛ إذ يكون أحد شقيه مائلاً، وهو منظر من العيوب الخلقية، والجزاء من جنس العمل، فقد مال في الدنيا عن القسمة العادلة فأمال الله جنبه في يوم الحساب.

**ثالثًا**: إذا كانت إحدى الزوجتين صغيرة والأخرى كبيرة وتنازلت الكبرى للصغرى عن ليلتها من غير ضغط ولا حرج ولا سيف حياء، فلا بأس من ذلك كما فعلت أمنا سودة -رضي الله عنها- حين تنازلت عن ليلتها لعائشة -رضي الله عنها.

**رابعًا**: لا تناقض بين قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وقوله تعالى في سورة «النساء» نفسها: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فالأولى تعني العدل في الأمور المادية كالطعام والشراب والكسوة والمسكن، أما الثانية فتتحدث عن ميل القلب وهو أمر لا يملكه الإنسان، ولهذا فقد اجتهد رسول الله ﷺ في العدل بين نسائه فيما يتعلق بحقوقهن المادية، أما حب القلب فاعتذر إلى الله منه؛ لأن الله ﷻ يحول بين المرء وقلبه.

وفي هذا يقول الشاعر:

**يقولون عوِّد قلبك الصبر والجفا فقلت وهل قلبي لذاك يطيع!!**

**خامسًا**: إذا سافر الزوج لتجارة أو غزو أو انتداب جاز له أن يستصحب من نسائه أيًا شاء، والأفضل أن يجري بينهن قرعة، فمن نجح سهمها صحبها، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ حينما كان يخرج في الغزوات.

**سادسًا**: لا يجوز للزوج أن يعزل عن أي زوجة من زوجاته ليمنعها من الحمل إلا إذا كان العزل برأيها، ومن أجل صحتها ومصلحتها، وذلك لأن من حق المرأة أن تحرص على الإنجاب لكي لا تحرم من الولد.

**سابعًا**: ومع أن الإسلام الحنيف أباح تعدد الزوجات؛ فإنه يعترف أيضًا بشرط تشترطه المرأة عند عقد نكاحها بألا يتزوَّج عليها زوجها، فلو أن زوجة اشترطت على زوجها ألا

يتزوج عليها، ثم فعل ذلك كان لها حق فسخ العقد، وهذا الأمر لم يحرم حلالاً، وذلك لأن المؤمنين على شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به شرط أحل به امرأة لرجل؛ لأن الزواج في الإسلام أمر مقدس محترم.

**ثامنًا:** إنَّ تعدد الزوجات إذا صدر عن بعض الناس عبثًا بقصد التذوق والتنويع دون مراعاة لمشاعر المرأة أو تحقيق لحكم الزواج الجليلة يكون أمرًا مكروهًا، فلقد لعن رسول الله ﷺ الذواقين والذواقات، والمهم في أمر التعدد أن يحقق حكمة أو أكثر من الحكم التي تتحقق بالتعدد كالاستكثار من الذرية على نية أن يعز الله بهم الإسلام وغير ذلك من الحكم الجليلة.

## المغالاة في المهور وآثارها

## شيخ التابعين سعيد بن المسيب

قد تسأل شابًا جاوز العشرين وربما الخامسة والعشرين: لماذا لا تتزوج وأنت في هذه السن المتقدمة؟! فيقول لك: لا أملك ما أتزوج به، ويمضي يعدِّد لك مطالب الزواج وفي مقدمتها مهر باهظ وحفلة عجب وهدايا مفروضة للزوجة وأقاربها وقريباتها، ثم إن بعض الزوجات تشترط خادمة، ومنهن من تشترط سيارة خاصة بها وسائقًا يسوق لها، وقد يمضي فيذكر لك شروطًا حول اختيار الفندق أو القصر فلا يسعك إلا أن تسأل للشباب عون الله ورحمته بعد أن فقدوا عون العبيد من أولياء أمور البنات.

هذه الظاهرة الاجتماعية ترتب عليها ما ذكره رسول الله ﷺ؛ إذ يقول فيما رواه أحمد والترمذي: «**إذا جاءكم مَن ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»، وقد رأينا الفتنة والفساد العريض بأنفسنا حين رأينا شيوع العزوبة والعنوسة وما يترتب عليه من خروج النساء والبنات إلى الأسواق، وما يحدث من جرائم خطف واغتصاب، وجميع هذا ما كان ليحدث لو أقمنا الدين ولزمنا شرع سيد المرسلين.

حقيقة إن المهر من واجبات الزواج لكن النبي ﷺ زوَّج إحدى المسلمات وجعل مهرها أن يقرئها الزوج ويحفظها ما معه من القرآن، وزوَّج أم سليم لأبي طلحة الأنصاري -رضي الله عنهما، وجعل مهرها أن يسلم أبو طلحة؛ لأن مهرها كان الإسلام، وقال ﷺ لرجل أراد

أن يتزوَّج: «**التمس ولو خاتمًا من حديد**»، وتزوجت امرأة من بني فزارة على نعلين مهـرًا لها، وتزوَّج رسول الله ﷺ جميع زوجاته، فلـم يـزد مهر أي منهن على خمسمائة درهـم مـا عـدا أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان -رضي الله عنها، فقد دفع لها النجاشي ﷺ أربعمائة دينار مهرًا نيابة عن رسول الله ﷺ، وتزوَّج أم سلمة على متاع يساوي عشرة دراهـم، وفي صحيح مسلم أن رجلاً استعان رسول الله ﷺ على مهر زوجته فقال له: «**على كم تزوجتها؟**» قال: على أربعة أواقٍ، (أي: مائة وستين درهمًا)، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل**».

ودفع عليٌّ ﷺ درعه مهرًا لفاطمة -رضي الله عنها، وكان أثاث بيت الزوجية الذي زفت فيه فاطمة إلى عليٍّ -رضي الله عنهما- على النحو التالي: دخلت عائشة وأم سلمة -رضي الله عنهما- ففرشتا البيت تراب نظيف من أعراض البطحاء، وحشتا مخدتين بالليف الذي نفشتاه بأيديهما، وعمدتا، القيتاه إلى عود ألقيتاه في جانب البيت ليلقى عليه الثوب، ويعلق عليه السقاء (أي: القربة). أما الوليمة فكانت تمرًا وزبيبًا وماءً عذبًا، قالت عائشة وأم سلمة -رضي الله عنهما: فما رأينا عرسًا أحسن من عرس فاطمة، ولعل الإخوة القراء حسبوا الأثاث والوليمة وعرفوا مقدار التسامح في المهر والوليمة، ولا غرو ففي الحديث الشريف: «**أقلهن مهرًا أعظمهن بركة**».

إنَّ ما شاع في هذه الأيام من تكلف شديد في لوازم الزواج، ومن مغالاة مجنونة في المهور قد نجم عنه أمور تغضب الله ورسوله، فالسفر إلى الخارج في الصيف وما يتبعه من إفساد المال والأخلاق وسمعة العرب.. كلُّ هذه من نتائج غلاء المهور ووجود عدد كبير من العوانس في البيوت، وما يتبع ذلك من مخاوف أولياء الأمور هو أيضًا من ثمار المغالاة.

إنَّ العرض لا يمحى بشدة الرقابة ولا بكبت الرغبات، فمن أرادت الفاحشة فلربما اقترفتها في خدرها الممنع، ومن وراء أسوار حصينة، وقد يقول بعض الأغنياء: نحن ننفق عن ظهر غني، ولدينا من الإمكان ما يمكننا من دفع المهر والولائم والملابس بالملايين، وقد أباح الله لنا زينة الحياة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ونحن نقول لهم: إنَّ الناس يقتدون بسادتهم، فإذا سننتم في الناس سنة الغلاء قلدكم موظفوكم، فكان عليكم وزركم ووزر من

اتبعكم إلى يوم القيامة.

كان لشيخنا سعيد بن المسيب -رحمه الله- ابنة على جانب كبير من العلم والأدب والصلاح وقراءة القرآن، وكانت -رحمها الله- معروفة بفضلها، ولا غرو فأبوها من سادة التابعين، ثم هي قرشية عالية النسب من بني مخزوم، ومن ثم كان يتمناها كثير من علية القوم، وقد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد، فاعتذر والدها الشيخ -رحمه الله- بأنه يعرف ابنته، وأنها لم تتعوَّد عيش ذلك المستوى، وقال: إنه استشارها فلم تبد ارتياحًا، وبعد تلك الخطبة بأيام تفقد الشيخ في حلقة درسه طالب علم شابٌّ فقير، يقال له: ابن أبي وداعة، فقيل له: إنه غاب من أمس؛ لأن زوجته ماتت وتركت له طفلة صغيرة، فهو يتخلف ليعتني بها؛ إذ إن أمه شيخة يصعب عليها العناية بالبنت، ثم هو لا يريد أن يرهق أمه بعد أن عُرِفَ ببرها وعكوفه على راحتها. فقال الشيخ -رحمه الله: قوموا بنا نعزيه، فلما بلغوا بيته وجدوه حزينًا لذلك المصاب الجلل، فأقبل عليه الشيخ -رحمه الله- يهوِّن عليه أمر الدنيا ويذكره الموت، وأن كل ما يصيب المؤمن في دنياه خير إذا هو رضي وسلَّم، فقال الشابُّ: والله ما جزعت للموت؛ لأنه سنة الله التي قهر العباد بها، وجعلها كتابًا مؤجلاً، ولكن الذي أحزنني هو انشغالي عن طلب العلم بهذه الطفلة، ثم إن الزواج له تكلفته، وأنا قد لا أملك درهمين!! قال له الشيخ: سيزوِّجك الناس لما يعلمون من صلاحك إنْ شاء الله.

وخرج الشيخ إلى مسجده، فلم تبرح قصة الطالب الفقير فكره ولا خياله، ولما رجع إلى البيت دعا ابنته وقصَّ عليها مأساة تلميذه، واستشارها في أمر زواجها منه، فقالت لأبيها: إنَّ أمر زواجي قد وكلته إلى الله، ثم إليك، وفي الحال أشهد من حوله على تزويج ابنته من الطالب الفقير، وأمرها أن تستعد، فلبست ما شاء الله لها أن تلبس، وتوجه بها إلى بيت ابن أبي وداعة، وقرع الباب، فقال التلميذ: مَنْ بالباب؟ فقال: أنا سعيد وخرج الشاب، وهو مستبعد أن يكون سعيد بن المسيب.. فلما رأى الشيخ وابنته كاد يغمى عليه، فقال له الشيخ: لا تخف ولا تتكلف، فقد زوَّجتك ابنتي على ما عندك من المهر، وخرجت أمه على الصوت، فعرفت الأمر، وأخذت العروس إلى حجرتها لا إلى حجرة الزوج، فقال الشيخ: لقد كرهت أن يبيت مستوحشًا، فرأيت أن خير البر عاجله.

وسجَّل تاريخ العلم والتقوى أن عالمًا من التابعين زوَّج ابنته على درهمين، ورفض كنوز الأرض، وقال لمن سأله في ذلك: إنها الآن ملكة في بيتها، ولو زوجتها ذوي النعمة لظللت خائفًا عليها فتنة الدنيا ومصير المترفين.

## احترام الولي ورأيه في أمر الزواج

الزواج في الإسلام رباط مقدس طهور؛ لأنه يؤذن ببدء خير جديد للأمة الإسلامية ألا وهو تكوين أسرة مسلمة يرجى منها -إنْ شاء الله- أن تنشئ للمجتمع الإسلامي شبابًا يحملون في الحرب عبء الفداء، وفي السلم عزيمة البناء، ومن ثم فما يجوز بحال من الأحوال أن يستهان بأمر النكاح أو ينقص من شروطه.

قال لي أحد الشباب: أنا أحب فلانة حبًّا طاهرًا (على حد تعبيره)، لكن والدي لا يريدانها زوجةً لي، ووالدها أيضًا لا يرغبان في تزويجها مني، وقد قلت لها في إحدى المرات: هل ترضيني زوجًا لكِ؟ قالت: نعم، فقلت لها: وإذا عارض أهلونا؟ فقالت: ما علينا منهم نتزوَّج رغمًا عنهم!!

إنَّ الإسلام لا يرضى أبدًا بهذا المنطق الأعوج، والطريقة التي يذكرها هذا الشاب هي طريقة همجية؛ لأنها تجعل النكاح قريبًا جدًّا من السفاح؛ إذ من السهل جدًّا إذا كان الأمر كذلك أن تتزوَّج البنات سرًّا ويتزوَّج الشباب سرًّا دون علم الأولياء، وبذلك يتاح الفرصة لأهل الفساد أن يقترفوا الفاحشة، ويسمونها زواجًا.

إنَّ الزواج أسمى من هذا وأطهر، ومن ثم فقد شرع إشهاره؛ لأنه رابطة شريفة تقوى بها أواصر الأمة، ويحترم فيها إرادة أولياء الزوجة اعترافًا بجميلهم في تربيتها والسهر عليها.

وإني موردٌ هنا أحاديث شريفة حول احترام الولي وإرادته ورأيه في أمر الزواج:

- روى الترمذي وأبو داود من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: **«أَيُّمَا امْرَأَةٍ نُكِحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ»**، وزاد الترمذي: **«البغايا (يعني: الزواني) اللاتي ينكحن أنفسهن بغير بينة»**.

- ومن حديث مطول لأصحاب السُّنن: **«أيما امرأة زوجها وليان؛ فهي للأول منهما»**.

- وفي سنن ابن ماجه: جَاءَتْ فَتَاةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ لِيَرْفَعَ بِي خَسِيسَتَهُ. فَجَعَلَ الأَمْرَ إِلَيْهَا. فَقَالَتْ: قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنْ لَيْسَ إِلَى الآبَاءِ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ.

- وفي موطأ مالك: **«لا تنكح المرأة إلا بإذن وليها أو ذي الرأي من أهلها والسلطان»**.

- وفي الصحيحين والسنن: **«والبكر يستأذنها أبوها في نفسها وإذنها صماتها»**.

- وفي سنن أبي داود أن جارية بكرًا أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوَّجها وهي كارهة، فخيَّرها النبي ﷺ (يعني أن تفسخ الزواج أو تقره حسب إرادتها).

- وفي جامع الترمذي: **«إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»**.

- وفي صحيح البخاري أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة تبنى سالمًا (وكان مولى لامرأة من الأنصار) وأنكحه ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عقبة، وكانت -رضي الله عنها- من المهاجرات الأول، ومن أفضل أيامي قريش. فأنكرت قريش فعل أبي حذيفة، وقالوا: أنكح ابنة أخيه مولى. فقال رضي الله عنه: ما أعلم إلا أنه خير منها. يشير بذلك إلا ما كان يتمتع به سالم رضي الله عنه من فقه في الدين وحفظ لحديث الرسول الكريم ﷺ.

**أولاً**: كلُّ زواج يتم بغير علم الولي الأقرب للزوجة، فهو زواج باطل؛ لأن الزواج رابطة محبة تنعقد بين الزوج والزوجة وأهلها، وزواج من هذا النوع يثير الفتنة والبغضاء من أول يوم، ثم إن التستر والتخفي يكون عادة دون الفاحشات، أما الخير فشرف لا يلقاك دونه ستر.

**ثانيًا**: الولي الذي له حق الولاية هو الأب، فالجد، فالأخ لأب وأم، فالأخ لأب، ثم ابن الأخ للأب والأم، ثم ابن الأخ للأب، ثم ابنه، أما غير العصبات كالخال والأخ للأم فلا تكون لهم ولاية، فإذا لم يكن لها أقارب عصبة زوَّجها السلطان.

**ثالثًا**: قد تسمع من بعض النساء شكاوي في الرائي والمجلات بأن ولي الأمر يرد الخطَّاب، ويريد أن يزوِّج موليته كما يحلو له، والواقع أن معظم هذه الشكاوي يكون وراءها أحداث وقصص.. فكثير من الفتيات قد يخدعهن شباب ذوو مظاهر ليس وراءها مخابر،

فتميل الفتاة إلى بعضهم مندفعة بعاطفة غير متعقلة، فيأتي ولي الأمر ويتعامل مع الأمر بالعقل والروية، وقد يكتشف أن ذلك الشاب يخفي أخلاقًا سيئة كأن يكون صاحب خمر وحبوب، وقد يكون صاحب جلسات، أو يكون له ماضٍ من جريمة.

والحقُّ أن الأب لا يمكن أن يرضى لابنته غير الكفء؛ لأنه إخفاق زواجها تقع جريرته على الأب حين تعود إليه ابنته مطرودة من زوجها ومعها بنوها، وهنا لا بدَّ من توجيه كلمة إلى أولياء الأمور بألا يرتضوا لمولياتهم إلا ذوي الدين والأخلاق بغض النظر عن إمكانيات المال ومظاهر الترف والثراء، متبعين بذلك قول رسول الله ﷺ للرجال: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»، وقوله لأولياء النساء: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**».

**رابعًا**: إذا غاب الولي الأقرب أو كان محبوسًا مثلاً ناب عنه الذي يليه في عقد الزواج، وإذا لم يكن للمرأة ولي فوليها السلطان، فإن لم تستطع الوصول إلى السلطان، فلها أن تولي مسلمًا متدينًا موثوقًا من أهل الشرف والسمعة الطيبة، فيقوم بتزويجها حتى لا تضيع عليها فرصة الحلال.

**خامسًا**: إذا أراد ولي الأمر أن يعضل موليته أن يمنعها من الزواج خشية على ميراثها مثلاً أن يتولى إلى غيره أو رغبة في خاطب لا مؤهل له إلا المال، فعندئذٍ يجوز لها أن ترفع أمرها إلى القاضي فيزوِّجها القاضي دون الرجوع إلى ولي آخر من الأقارب، وذلك حتى لا ينشب بين الأقرباء نزاع.

**سادسًا**: الصغيرة يجوز لوليها أن يزوِّجها دون رأيها إذا كان هذا الولي أباها أو جدها وخصوصًا إذا لاحت للزواج فرصة لا تعوض، كما زوَّج أبو بكر ﷺ عائشة -رضي الله عنها- وهي صغيرة دون إذنها، وإنما اقتصر أمر زواج الصغيرة على الأب والجد؛ لأنهما أعطف الناس عليها، ولا يرضيان لها إلا الراحة والسعادة، ومع هذا فالأفضل ألا تزوج الصغيرة حتى تكبر وترشد حتى لا تقع في أسر زوج تكرهه، وإذا زوِّجت الصغيرة ثم بلغت ورشدت، فلها الخيار أن تجيز الزواج أو تبطله على حسب ما يتضح لها من أخلاق الرجل ودينه.

وعلى جميع الأحوال، فإن الإسلام الحنيف حين اشترط الولي في عقد الزواج إنما أراد

زيادة الكرامة للمرأة وللرجل لتظل المرأة على صلة ببيت أهلها وإخوانها، وبذلك تحس بالأنس والسعادة بين أهلها وأهل زوجها.

## الغيــــرة

إني محدِّثٌ إخواننا القراء عن أمر شائع بين الأزواج وخصوصًا بين النساء ألا وهو (الغيرة)، والغيرة أن تغضب المرأة إذا ذكر زوجها جمال امرأة أو سمعته يفضِّل غيرها عليها وخصوصًا إذا كانت المرأة المفضلة هي ضرتها.

والغيرة إذا اشتدت تحولت إلى وسواس مهلك، ومن ثم فالاعتدال وضبط النفس مطلوبان في هذا المجال، والغيرة المعتدلة ظاهرة صحية؛ لأن المرأة المخلصة تحرص على قلب زوجها، وعلى الرجل أن يتقبل غيرة زوجته بصدر رحب؛ لأن المرأة التي لا يهمها أمر زوجها غاب أو حضر تعد مقصرة في حياطة بيتها، وقد طرح العلماء سؤالاً في أمر الغيرة وهو هل تأثم المرأة إذا حصلت في عملية غيرتها غيبة أو نميمة؟ وأساس التساؤل ذلك الحديث النبوي الشريف الصحيح الذي رواه الشيخان عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد على النبي ﷺ، فعرف استئذان خديجة -رضي الله عنها- على رسول الله ﷺ (يعني أن صوت هالة ونغمتها كانا قريبين من صوت خديجة -رضي الله عنها)، فارتاح لذلك (يعني أن الرسول ﷺ بدأ في وجهه ارتياح لذلك؛ (لأنه كان يحب كل ذكر وخبر وصاحبة من صويحبات خديجة) فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم هالة بنت خويلد**»، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين (تعني ليس لها أسنان)، هلكت في الدهر فأبدلك خيرًا منها».

ومن الواضح أن عائشة -رضي الله عنها- حملتها الغيرة على الغيبة، والغيبة معصية لقد ورد الحديث في الصحيحين بلفظه الذي ذكرت، ولم يزد شيئًا، وهذا جعل بعض العلماء - رحمهم الله- يتساهلون في أمر الغيرة، إذا جرت غيبة ونحو ذلك، فقال الطبري -رحمه الله: «الغيرة مسامحٌ فيها للنساء لا عقوبة عليهن فيها لما جبلن عليه من ذلك»، واستدل على ذلك بأن رسول الله ﷺ لم يزجر عائشة -رضي الله عنها- ولم يعنفها حين اغتابت خديجة بعد موتها

-رضي الله عنها، وقال القاضي عياض يبرر صنع عائشة: «وَعِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ جَرَى مِنْ عَائِشَة لِصِغَرِ سِنِّهَا، وَأَوَّل شَبِيبَتِهَا، وَلَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ بَلَغَتْ حِينَئِذٍ»، ولكن هذا الرأي ظني.

وحاول الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أن يجد لعائشة عذرًا، فقال: إنَّ عائشة -رضي الله عنها- قصدت أفضليتها على خديجة بصغر السن وحسن الصورة، فلم يزجرها ﷺ؛ لأنها قالت صدقًا.

على أن نفرًا من العلماء رأوا أن ما صدر عن عائشة -رضي الله عنها- لا يجوز؛ لأنه غيبة، واستدلوا برواية أخرى للحديث أوردها أحمد والطبراني، وجاء فيها أن النبي ﷺ رد على عائشة فقال: «**ما أبدلني الله خيرًا منها: آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس...**» إلى آخر الحديث، واستدلوا بذلك أن الغيرة إذا تخللها معصية من غيبة ونحوها فهي لا تجوز، وإلى ذلك ذهب الإمام أحمد -رحمه الله- وغيره من العلماء.

والحق كما يبدو من أحداث السيرة أن الغيرة لا عقوبة عليها، ولو حصل فيها ما يحصل؛ لأنها تكون بين الزوجة وزوجها في الغالب، وقلما تحدث على ملأ، ولهذا ورد في هذا الأمر أحداث من عيشة النبي ﷺ ترى فيها عجبًا.. ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعائشة -رضي الله عنها: كنت «**إني أعرف إذا كنت راضية عني وإذا كنت عليَّ غضبى**»، فقالت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «**أما إذا كنت عني راضية؛ فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم**». قالت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك» وتعني أن حبه ومنزلته في القلب لا يتغيران.

ومن تكرر حوادث الغيرة من عائشة -رضي الله عنها- ذهب مالك -رحمه الله- من علماء المدينة إلى أن المرأة يسقط عنها الحد إذا قذفت زوجها بالفاحشة، وكان القذف من جهة الغيرة، واحتج بما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما تدري الغيراء أعلى الوادي من أسفله**»، وقال القاضي عياض: ولولا ذلك كان على عائشة -رضي الله عنها- حرج كبير؛ لأن الغضب على النبي ﷺ وهجره كبيرة عظيمة، ولكن الله يغفر إنْ شاء بمنه ورحمته؛ لأن الغيرة في النساء لفرط المحبة.

وقرأنا كما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت

القرعة على عائشة وحفصة، وكان رسول الله ﷺ إذا كان الليل سار مع عائشة يتحدث معها، فاتفقتا أن تركب كل منهما جمل الأخرى ليرين ما يكون من رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ عمد إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلَّم ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة فندمت، وجعلت رجليها بين الإذخر (أي: بين الأعشاب)، وتقول: يا رب سلِّط عليَّ عقربًا أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئًا.

وقد اعتذر عنها النووي -رحمه الله- بأن الغيرة هي التي دعتها أن تدعو على نفسها، ومع أنه شافعي فقد قال: (والغيرة معفو عنها)، وهذا مخالف لمذهب الشافعي.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان في بيت إحدى زوجاته ولعلها عائشة كما جاء في رواية لأحمد وأبي داود والنسائي، فجاءت خادمة بطعام في صحفة من عند إحدى أمهات المؤمنين ليأكل منه رسول الله ﷺ، فضربت عائشة يد الخادمة فأسقطت الصحفة وانكب الطعام، فجعل رسول الله ﷺ يجمع الطعام، وهو يقول: **«غارت أمكم»**، ثم أخذ صحفة عائشة فأعطاها لصاحبة الصحفة المكسورة، وقال فيما بعد: **«من كسر شيئًا فهو له وعليه مثله»** (أي: صحيحًا).

وفي سنن أبي داود أن صفية -رضي الله عنها- مرض بعيرها وكان عند أمنا زينب -رضي الله عنها- جمل فضلة، فقال لها رسول الله ﷺ: **«أعط صفية جملك»** (يعني إلى أن يشفى جملها)، فقالت وكانت تدل بأنها قرشية: أنا أعطي هذه اليهودية، فغضب رسول الله ﷺ وهجرها قرابة شهرين ونصف.

ومعروف أن أمنا عائشة وحفصة -رضي الله عنهما- تعاونتا على رسول الله ﷺ لغيرتهما من زينب حتى حرَّم زينب وعسلها على نفسه، فلامه ربه وقال له: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾**، فكفَّر عن يمينه، كما لام الله عائشة وحفصة في مطلع سورة «التحريم».

وقصارى القول أن الغيرة ظاهرة حسنة إذا كانت معتدلة وبدون غيبة، وأنها تصبح خطيرة إذا زادت عن حدها وتخللها معصية.

***

# التبرُّج والسفور

في هذه الأيام يحلو لكثير من المسلمات أن يعدن إلى عادة جاهلية ذميمة ذكرها ربنا في محكم آياته، ونسبها إلى الجاهلية لينفرنا منها، فقال -تعالى- في سورة «الأحزاب» يخاطب أمهات المؤمنين خاصة ونساء المسلمين عامة: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والتبرج أن تبدي المرأة زينتها لغير زوجها، وهو لا يصدر إلا عن فساد في النفس والقلب، والتبرج من محاسن العيون بأن يكون بياض العين كبيرًا شديد الوضوح من جمال السواد، وكأن المتبرجة بهذا المعنى تبدو دائمًا دون أن تغض طرفها، وهي إشارة للتحديق الوقح، وكان للنساء في الجاهلية ألوان من التبرج تلفت نظر الناس من تلك الألوان أن تضرب برجليها ليرن الذهب والحلي، وإلى هذا يشر قوله تعالى في سورة «النور»: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

كما كان من صور التبرج عند النساء أن يزيح غطاء رأسها عن صدرها، فيبدو نحرها وأعلى صدرها، وكان أكثر ما يصدر ذلك عن الإماء، وكانت بعض الحرائر يقلدن الإماء في هذا، فيظنهن من لا يعرفهن إماءً فيؤذيهن، وفي هذا يقول الله -تعالى- في سورة «الأحزاب»: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾.

أما في هذه الأيام، فقد زادت طين التبرج بلة؛ لأن بعض النساء من لا خلاق لهن استحدثن أزياءً قد يبدو فيها الساق، وقد يرتفع العري إلى قريب من السوءة، ثم هن يكشفن السواعد والأذرع، وقد توسِّع إحداهن فتحة الصدر حتى يبدو ثدياها، وكلُّ هذا لا يجر على المتبرجة وعلى زوجها إلا الشرور؛ لأنها بعملها هذا تغري الشباب أن يلاحقوها، وهنا يغار إخوانها فيقاتلون الناس، ولو أنصفوا لنهوا أزواجهم وأخواتهم عن هذه الدروب الشريرة

بدلاً من أن يحملوا جريرتهم وذنبهم للآخرين.

إن عددًا كبيرًا من المسلمات قد ينطبق عليهن قول رسول الله ﷺ بأنهن لا يرحن ريح الجنة، أولئك اللاتي يخرجن كاسيات عاريات مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البخت، وكأنه يشير إلى تسريحات الشعر التي تحرص عليها النساء قبل خروجهن إلى الأسواق.

**وهذه احاديث كريمة حول التبرج وخلوة الأجنبي بالمرأة نوردها ثم نتبعها بأحكام حول التبرُّج:**

- روى الشيخان والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو (يعني أخا الزوج أو قريبه)، فقال ﷺ: «**الحمو الموت**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم**»، فقال رجلٌ: يا رسول الله، إنَّ امرأتي خرجت حاجة، وإني قد اكتتبت في حبس كذا»، فقال: «**ارجع؛ فحج مع امرأتك**».

- وروى مسلم -رحمه الله- أن نفرًا من قريش دخلوا على أسماء بنت عميس، وكانت زوجة لأبي بكر ﷺ، فدخل أبو بكر وهم عندها فكره ذلك، فذكره للنبي ﷺ وقال له: لم أر إلا خيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله قد برأها من ذلك**»، ثم قام على المنبر فقال: «**لا يدخلن رجلٌ بعد يومي هذا على مغيبة (غائب عنها زوجها) إلا ومعها رجلٌ أو اثنان**».

- وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ سأله جرير بن عبد الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: «**اصرف بصرك**».

- وروى الترمذي أنه ﷺ قال لعليٍّ ﷺ: «**لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى، وليست لك الثانية**».

- وروى الترمذي وأبو داود أن رسول الله ﷺ أمر أم سلمة وميمونة زوجتيه أن يتحجبا عن عبد الله بن أم مكتوم، وكان أعمى، فقالتا له: يا رسول الله، أليس أعمى؟! فقال رسول الله ﷺ: «**أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟**».

- وروى أبو داود أن ابن عمر -رضي الله عنهما- كان ينهى أن يمشي الرجل بين المرأتين.

- وفي (المعجم الكبير) للطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدًا: الديوث، والرجلة من النساء، ومدمن الخمر**». قالوا: من الديوث؟ قال: «**الذي لا يبالي من دخل على أهله**».

وقد ضمَّ الحديث شارب الخمر إلى الديوث والمرأة المستهترة؛ لأن عاقر الخمر لا يبالي ما يفعل ولا يميِّز بين زوجته ومحارمه ولا يهمه وهو في سكره أن تزني زوجته وحرماته.

**أولاً**: إذا زرت صديقًا فلم تجده في بيته، فإن الدين والذوق والأدب كلها يقتضي ألا تدخل مهما كانت الثقة بينكما ومهما كانت ثقتكما في زوجته، وحتى لو كنت أخًا للزوج، أو ابن عم له أو للزوجة؛ لأن في عدم دخولك وخلوتك احترامًا لقول رسول الله ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**»، واحترامًا لصديقك الذي ترعى حرمته، وتحرص على شرفه، ثم احترامًا لقواعد الذوق والأخلاق التي هي شعار المؤمن وميراث الرسول الكريم.

إنَّ قريب الزوج وقريب الزوجة أخطر في أمر الاختلاط من الغريب؛ لأن مِن الأقارب مَن يستغل هذه الثقة استغلالاً سيئًا، وينتهز فرصة القرابة فيتردد على بيت غيره بحرية، أما الغريب فهو لا يجرؤ تلك الجراءة، ولذا فهو أقل خطرًا.

**ثانيًا**: لقد بلغ من احترام الإسلام لشرف المرأة وحرصه على أخلاقها أن فضَّل مرافقة محرمها لها في الحج على جهاده في سبيل الله، فقال لأحد الصحابة: «**حُجَّ مع امرأتك**» أي: أجِّل الجهاد وقدِّم عليه مرافقة امرأتك في حجها.

**ثالثًا**: تبرج المرأة لغير زوجها يحرمها من ريح الجنة؛ لأن العفاف والتستر ولبس الملابس الكاملة هي ميزة الإنسان على الحيوان، والإنسان الذي يعود للتكشف والتهتك والخلاعة يعود إلى البربرية والهمجية.

**رابعًا**: إذا وقع بصرك على امرأة أجنبية، فتذكر قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ**﴾، والله ﷻ بمنه وكرمه يغفر لك النظرة الأولى تلك التي جاءت عابرة، وعن غير قصد، لكن حين تتبع المرأة بصرك بنظرة ثانية وثالثة؛ فذلك هو السلوك الذي يجرُّ إلى الخبث والفاحشة، ويحرم الإنسان من الطهر والزكاة والوضاءة والعفة، وهذا ما عناه النبي ﷺ بقوله: «**لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى وليست لك الثانية**».

**خامسًا:** لا يؤمن أي رجل على الخلوة بالمرأة حتى ولو كان أعمى أو عنينًا، وعلى المرأة المسلمة أن تحترس حتى من الشيخ الكبير ذلك لأن غريزة الجنس امتحان شديد لا ينجح فيه إلا من رحم ربك، والمرأة كانت وما زالت أشد فتنةً يبتلى بها رجل.

**سادسًا:** إذا ارتضى المرء لزوجته أو بناته أن يخرجن متبرجات بزينتهن، ولم يشعر بالغيرة تشتعل بين جنبيه؛ فذلك أمر خطير حقًّا؛ لأنه يخشى أن يتطور هذا الخلق في الرجل، فيرتضي لمحارمه أولاً مجرد التبرج، ثم يرضى بعد ذلك الاختلاط، ثم تكون الطامة حين تشيع لعرضه قالة سوء، فيرضى عندئذٍ بالفاحشة لعرضه، ويتحوَّل بذلك ديوثًا يغضب ربنا عليه ويحرمه ريح الجنة، ولا غرو فلا أحد أغير من الله على حرمات الله وحدوده.

## العـــــدة

لقد شرع الله العدة للمرأة إذا مات زوجها أو طلَّقها لكي تبرأ الأرحام وتصفو الأنساب، ويعرف كل أب ولده دون أي شك أو ريبة، ومن أجل براءة الأرحام تنوعت العدة طولاً وقصرًا، فقد تطول حتى تبلغ تسعة أشهر أو اثنتي عشر شهرًا، وقد تقصر حتى تبلغ بعض ساعة، وهذه بعض الأحاديث الشريفة في أحكام العدة والإحداد نوردها ثم نتبعها بتفصيل لتلك الأحكام.

- جاء في سنن أبي داود أن أسماء بنت يزيد الأنصارية طُلِّقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمرأة عدة في الجاهلية، فأنزل الله تعالى العدة للطلاق، فكانت أول من نزل فيها العدة للطلاق، والمقصود بآيات القرآن التي نزلت في العدة قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩].

- وفي موطأ مالك -رحمه الله- أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: أتدرون ما الأقراء؟ إنها الأطهار.

– وروى مالك أيضًا أن عمر ﷺ قال: أيما امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين ثم رفعتها حيضتها (أي: انقطع عنها الحيض)؛ فإنها تنظر تسعة أشهر، فإن بان بها حمل فذاك، وإلا اعتدت بعد التسعة ثلاثة أشهر ثم حلت.

– وروى الشيخان وأصحاب السُّنن عن أم سلمة –رضي الله عنها– أن امرأة من أسلم يقال لها: سبيعة، توفي عنها زوجها وهي حبلى، فمكثت قريبًا من عشر ليالٍ، ثم جاءت النبي ﷺ فقال لها: «**انكحي**» (لأنها وضعت خلال العشرة أيام).

– وروى الجماعة أن أم حبيبة أم المؤمنين –رضي الله عنها– لما جاءها نعي أبيها دعت بطيب فمسحت ذراعيها، ثم قالت: ما لي بالطيب من حاجة لولا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا**».

وفي الحديث المتفق عليه عن أم عطية: «**كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلَا نَكْتَحِلَ وَلَا نَتَطَيَّبَ، وَلَا نَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْبُوغًا إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ، وَقَدْ رُخِّصَ لَنَا عِنْدَ الطُّهْرِ إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا فِي نُبْذَةٍ مِنْ كُسْتِ أَظْفَارٍ** (نوع من الطيب)، **وَكُنَّا نُنْهَى عَنْ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ**».

– ولأبي داود والنسائي ومالك عن أم سلمة: لا تلبس المتوفى عنها زوجها المعصفر من الثياب ولا الممشقة ولا الحلي، ولا تختضب ولا تكتحل.

– وروى أصحاب السُّنن أن أم سلمة أمنا –رضي الله عنها– قالت لامرأة حادٍّ على زوجها اشتكت عينها: اكتحلي بكحل الجلاء وامسحيه بالنهار، وكانت تقول: تجمع الحاد رأسها بالسدر والزيت.

**أولاً**: العدة هي المدة المعدودة المحصاة التي تنتظر فيها المرأة وتمتنع أثناءها عن الزواج في حال طلاقها أو موت زوجها بقصد إبراء الرحم، وكان الجاهليون يتغاضون في أمر العدة، ويختلفون في عدد أيامها، فجاء الإسلام وبيَّنها وأوضح أنواعها وتشدَّد في تطبيقها.

**ثانيًا**: عدة المرأة تختلف حسب حالها ونوع فراقها لزوجها، فعدة المرأة التي تحيض ثلاثة

قروء أي ثلاث حيضات تتبعها ثلاث أطهار، ومعنى القرء في القرآن الحيض.

أما المرأة التي لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، وأما الحامل فعدتها تنتهي بوضع وليدها، وأما التي مات عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام، وإنما زاد الشارع الحكيم في عدتها شهرًا وبعض شهر احترامًا للميت وتقديرًا لحرمته وتكريمًا للإنسانية التي كرَّمها الله وأعلن تكريمها في محكم آياته.

**ثالثًا:** إذا اعتدت المرأة التي تحيض ثم لم تر الحيض أبدًا، ولم تعرف سببًا لذلك، ولم تحس بأثر للحمل؛ فإنها تعتد سنة، منها تسعة أشهر لاشتباه الحمل وثلاثة هي عدة اليائسة من المحيض، وهذا ما كان يحكم به عمر ﷺ ولم يخالفه فيه أحد.

**رابعًا:** إذا ولدت الحامل بعد طلاقها أو موت زوجها انتهت عدتها، ويجوز لها أن تعقد زواجها على مَن يخطبها إلا أن لا يقربها إلا بعد أن تطهر من النفاس.

واختلف في التي يموت عنها زوجها فتلد بعد وفاته بوقت قصير: هل تعتد عدة المتوفى عنها زوجها، وتحد أربعة أشهر وعشرًا، أم أن عدتها انتهت بالولادة، فتتزوَّج؟

فذهب جماعةٌ إلى ما ورد في حديث سبيعة الأسلمية أنها توفى عنها زوجها، وهي حامل فوضعت، وبعد حوالي عشرة أيام من ولادتها جاءت النبي ﷺ فقال لها: «**انكحي**». أي: سمح لها أن تتزوَّج.

وقال آخرون: بل تنتظر أربعة أشهر وعشرًا أخذًا بعموم حكم الآية الكريمة من سورة «البقرة»: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ويبدو -والعلم لله- أن سبيعة الأسلمية ربما كانت معسرة، فقدَّر النبي -عليه الصلاة والسلام- ظرفها، وبهذا الرأي أخذ كثيرون حتى قالوا: لو مات الزوج وولدت الزوجة بعد وفاته مباشرةً جاز لها أن تتزوَّج، ولعل في هذا -والله أعلم- عدم اكتراث بكرامة الميت، والعدة إنما فرضت للتي يموت عنها زوجها وتلد، إنما هي لتكريم الميت؛ إذ الرحم قد برئ بالولادة، وبالمناسبة فكثيرٌ من النساء إذا مات عنها زوجها ورغبت أن تحدَّ حرمت على نفسها

أشياء كثيرة لا تحرم عليها، مع أن الله ﷻ لم يحرم على المحدة إلا الخروج لغير حاجة ملحة.

كما حرَّم عليها لبس المعصفر والمصبوغ من الثياب والكحل إلا إذا كان دواءً للعين الرمداء، كما لا يجوز لها أن تتطيب إلا إذا اغتسلت من حيضتها، أما الغسل فيجوز أن تغتسل ولو كل يوم، ولا تختضب المحدة ولا تلبس الحلي ولا تتبع الجنائز.

## المحرمات من النسب والرضاع

جاء الإسلام الحنيف وفي الزواج الجاهلي كثير من الفوضى، ومن أنواع الزواج الباطل، ففصَّل القرآن الكريم أحكام الزواج وما يحرم منه بالنسب وما يحرم منه بالرضاع، وسنَّ له من الأحكام الحكيمة ما يطهره وينقيه ويسمو به ويصفيه ويحل طيبه ويحرم خبيثه.

**وإني موردٌ هنا أحاديث من الأحكام ما يجلي أمور المحرمات من النسب والرضاع:**

- روى الترمذي -رحمه الله- عن عليٍّ ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله حرَّم من الرضاع ما حرَّم من النسب**».

- وروى الشيخان وأصحاب السُّنن -رحمهم الله- أن عائشة -رضي الله عنها- استأذن عليها رجل يقال له: أفلح كان أخًا لأبي القعيس، وكانت عائشة -رضي الله عنها- قد رضعت من زوجة أبي القعيس فأصبح أبًا لها من الرضاع، فأبت أن تأذن لأفلح إلا بعد استشارة النبيِّ ﷺ، فقالت للرسول الكريم: يا رسول الله، إنَّ التي أرضعتني هي امرأة أبي القعيس، فقال لها رسول الله ﷺ: «**ائذني له، إنه عمك تربت يمينك**».

- وروى مسلم وأصحاب السُّنن عن عائشة -رضي الله عنها: «لا تحرم المصة والمصتان».

- وروى مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله عنها: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ».

- وروى مالك والترمذي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه سئل عن رجل له

امرأتان أرضعت إحداهما جارية والأخرى غلامًا: هل يحل للغلام أن ينكح الجارية؟ قال: لا؛ لأن اللقاح واحد (يعني بذلك أن الرجل له أثر في لقاح الحليب، فيكون الحليب للرجل زوج الاثنتين، ويكون الولد والجارية أخوين لأب من الرضاع).

**أولاً**: لقد حرَّم الإسلام على المرء أن ينكح أمة زوجة أبيه وابنته وعمته وخالته وبنات إخوانه وبنات أخواته وأم زوجته وابنة زوجته وزوجة ابنه، كما حرَّم الجمع بين المرأة وأختها، وبينها وبين خالتها أو عمتها، أو خالة أبيها أو خالة أمها، أو عمة أبيها أو عمة أمها، كما حرَّم من الرضاع ما حرم من النسب، فأمك من الرضاع وأختك من الرضاع وعمتك من الرضاع وخالتك من الرضاع محرمات عليك، وكذلك بنت أخيك من الرضاع، وبنت أختك من الرضاع، وبذلك أثبت الإسلام أنه دين حضاري يسمو بالإنسانية، ويحفظ عليها نعمة الصحة، ويحوطها من تفاقم عقد الوراثة وأمراضها.

ثم إن الإسلام بهذا التنظيم قد أثبت أنه دين تواصل وتراحم وعفافٍ، وعلى سبيل المثال: افرض أنك رأيت امرأة فأعجبت بجمالها، ثم تزوَّجها أحد أولادك.. إنك عندئذٍ في الحال مطالب أن تنظر إليها نظرتك إلى ابنتك، وتضعها من قلبك في منزلة من المودة الطاهرة التي تحطم هوى النفس، وتحوله إلى أبوة كلها طهر وعفاف وسمو نفس، ولو لم يكن هذا الحكم القرآني العظيم لاضطربت علائق الأرحام، لو لم يحرم الإسلام على المرء زوجة ابنه مثلاً لفسدت الثقة بين الابن وأبيه، وتخوف الابن من دخول أبيه بيته، أما هذا التحريم فيسمو بالرحم فيجعل بيت الابن بيت ولده، ويجعل من زوجة ابنك ابنة جديدة لك تحترمك كأنك أبوها.

لولا نظام التحريم هذا لما اطمأنت الزوجة أن تتردد عليها أختها خوفًا من أن تخرب عليها بيتها وخطف منها زوجها، أما بهذا التحريم فتود الزوجة أن ترى أختها في بيتها كل يوم دونما تخوف أو ريبة أو شكوك، وبذلك يظل نظام الأسرة عظيمًا متماسكًا يقوم على المحبة الطاهرة والتواصل الكريم.

ولقد قرأنا في هذه الأيام أن فئة من حيوانات البشر تشكِّل الآن جمعية تدعو أن يتزوج الإنسان من يحبها دونما أي مانع، فيتزوَّج مثلاً أمه وأخته وزوجة أبيه، وقرأنا بالفعل أن أمًّا منهم أحبت ابنها وتزوَّجته -نعوذ بالله من إخوان الشياطين.

وحينما حرَّم الإسلام من الرضاع ما حرم من النسب، فذلك لأنك حين تدفع ابنك إلى مرضعة كريمة؛ فإنه لا يرضع منها لبنها فحسب، وإنما يرضع منها الحياة والأخلاق وعصارة الروح، فتحس المرضعة شيئًا فشيئًا أن هذا الرضيع أصبح جزءًا من حياتها تضمه إلى صدرها كما تضم ولدها، وحتى حين يتردد هذا الرضيع على مرضعته وهو شابٌّ يحس أن هذه المرأة أمه وأن زوجها أبوه وأن أولادها وبناتها هم إخوانه وأخواته.

إنَّ مشاعره بهذا الرضاع تسمو إزاء هذه العائلة فلا يعود للشهوة الجسدية مكان في هذه البيئة السامية، أرأيت حين جاءت حليمة السعدية وابنتها الشيماء إلى رسول الله ﷺ، فدخلتا عليه بعد غياب طويل تشفعان في سبايا «هوازن» كيف أقبل عليهما رسول الله ﷺ يفرش لهما ثوبه، وينظر إلى أمه حليمة وأخته الشيماء نظرات فيها من الحب العالي والعواطف الراقية ما لا يدع للشهوة الفانية مجالاً أو وجودًا، وبالفعل فقد شفعهما رسول الله ﷺ واستجاب لما طلبتاه.

**وهنا لا بدَّ من إشارة إلى الآباء والأمهات ممن تحوجهم ظروف قاهرة أن يسترضعوا لأولادهم:**

**أولاً**: أن يلتمسوا مرضعة ذات أصل كريم وخلق رفيع وزوج طيب؛ إذ الزوج يلقح الحليب، والحليب يحمل صفات المرضعة وأولادها.

**ثانيًا**: أن يحترسوا فيما بعد، فيحرصوا ألا يتزوَّج هذا الابن أختًا له من الرضاع أو أختًا له من ضرائر المرضعة أو أخت مرضعته أو أخت زوجها؛ فهؤلاء هن بين أخت وعمة وخالة، والرضاع يحرِّم كما يحرِّم النسب.

ومن شروط الرضاع أن يكون في وقت الطفولة حين يكون الجسم في طور النمو السريع، وأن يرضع الطفل على الأقل رضعة كاملة يشبع منها شبعًا مفيدًا، أما المصة والمصتان فليست رضاعًا.

***

# المرأة قبل الإسلام وبعده

## المرأة في القرآن

١- لم تكن المرأة في الجاهلية تخلو من احترام، واشتهر في الجاهلية عقائل أنجبن أبطالاً منهن عاشقة السلام التي جعلت مهرها أن يصلح زوجها بين عبس وذبيان، ويدفع الديات من جيبه، ومنهن تلك التي زوَّجت ابنتها للملك عمرو بن حجر، فأوصتها تلك الوصية الخالدة، وكوالدة عمرو بن كلثوم ووالدة عمرو بن هند، وحسبك أن تقرأ مطلع هذه القصيدة لأحد الشعراء الجاهليين يطلب فيها من امرأته أن تقوم لخدمة ضيوفها:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضُمي إليك متاع البيت والقربا

٢- كانت المرأة الحرة في الجاهلية شريفة حافظة لنفسها، ولما بايع النبي ﷺ النساء المؤمنات على ألا يزنين، قالت له هند بنت عتبة مستنكرةً: وهل تزني الحرة؟ أما الإماء فلم يكن يتحرجن، بل كان البعض ربما أكره جواريه على احتراف الزنا ليكسب مالاً.

٣- ولما كانت تتمتع به النساء من العفاف كان يشتاق الشعراء لهن، فيبدءون قصائدهم بالغزل وحتى قصائد الرثاء بدءوها بالغزل.

٤- كان معظم الجاهليين يتزوَّجون كالزواج الذي أقره الإسلام، فيخطب الرجل ابنة أخيه، وتكون الموافقة، وتخطب خطبة الزواج، ويفرض الصداق، ويتم الإيجاب والقبول، ثم يبني الرجل بزوجته، أي: يهيئ لها بيتًا للدخول بعد حفل بهيج تغني فيه النساء، وكان النساء يبتكرن أراجيز للغناء للزوجين ورفع معنوية كل منهما، كما ارتجزن في عرس عثمان ﷺ على رقية:

أجمل زوجين رأى إنسانُ رقية وزوجها عثمان

٥- وكان من حق المرأة في الجاهلية أن ترفض زوجها إذا اكتشفت فيه معيبة، وتلتمس زوجًا غيره، ومن ذلك أن هندًا بنت عتبة أم معاوية ﷺ كانت متزوجة في الجاهلية قبل أبي سفيان برجل من رجال قريش، فاتهمها أنه رأى رجلاً يخرج من البيت، فأنكرت وغضبت وطلبت منه أن يذهب بها إلى عراف اليمامة ذلك الذي زعموا أنه كان يعلم ويكشف مثل تلك

الحوادث، فلما وصلوا إليه قرأ وسجع وأتى بحركات، ثم قال لها فيما روته الكتب: قومي حصانًا غير زانية، وسيكون تحتك ملك. فالتفت إلى زوجها وقالت: أما وسيكون تحتي ملك، فما أريد أن يكون من نسلك أنت، وخلعت زوجها فتزوَّجها من بعده أبو سفيان وكان تحتها ملك.

٦- وكانت بعض نساء الجاهلية شاعرات كالخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد، وكسلمى أخت كعب بن زهير، وفاطمة بنت طريف، وقبيلة بنت النضر وغيرهن، وكن ينافحن عن القبيلة كما ينافح الشعراء الرجال.

٧- بل إن بعض النساء تبوأن في الجاهلية سُدَّة الملك، فكان منهم ملكات كالزباء وبلقيس تلك التي قال مستشاروها ما رواه القرآن: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

٨- كان أهم ما توصف به المرأة في الشعر الحياء والعفاف والاحتشام وكتمان السر وحسن التبعة للزوج؛ كقول الأعشى في لاميته التي يرى البعض أنها إحدى المعلقات العشر:

كَأَنَّ مِشيَتَها مِن بَيتِ جارَتِها ... مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ

لَيسَت كَمَن يَكرَهُ الجيرانُ طَلعَتَها ... وَلا تَراها لِسِرِّ الجارِ تَختَتِلُ

ويقول كعب بن مشهور المخبلي:

فما أم عمرو حين تمسي ببلدة ... من الأرض إلا مثل غيث يصيبها

يهون عليها أن تبيت على الطوى ... وللضيف أو بعض العيال نصيبها

لزومٌ لإزرار القميص مشيحة ... عليه إذا ما الهوج ضاعت صدورها

ومعنى البيت الأخير أنها تحرص حرصًا شديدًا ألا تنفتح إزرارها في حين ترى بعض النساء تبرز صدورهن.

## شقاوة المرأة في الجاهلية

على الرغم مما ذكرناه من بعض مظاهر الاحترام التي تمتعت بها بعض النساء إلا أن تلك الحالات كانت محدودة، وكانت الغالبية العظمى من النساء يلقين من العسف وضياع الحقوق

شيئًا كثيرًا، وحسبك بالأدلة الآتية:

١- كان أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، فكان إما أن يمسك ابنته على الإهانة والشعور بالمذلة والخوف عليها من الفقر أو السبي أو يعالج الأمر بوأدها في التراب؛ لأنها في نظره لا غناء لها في الحرب، وهي عبء على الأسرة ثم هي للحلية فقط.

٢- كانت المرأة لا ترث بل كانت على العكس تورث كرها، فيعتبرها عمها إذا مات أبوها ميراثًا له ولأولاده، ولا يؤتيها مهرًا إذا زوَّجها من بعض بنيه، وإذا لم يكن من أبنائه من هو مناسب لزواجها حبسها طول عمرها لا تتزوَّج حتى لا ينتقل شيء من إرثها إلى زوجها.

٣- وكان الرجل إذا مات دخل أبناؤه على زوجاته، فيضع بعضهم عباءته على زوجة من زوجات أبيه، ويقول: هذه ميراثي، ثم لا يلبث أن يتزوَّجها رضيت أم أبت، ولا يتدخل في هذه الحال أهلها؛ لأن عرف الجاهلية يقضي أنها ميراث إلى الأبد، وظلَّ الحال كذلك إلى أن جاء الإسلام بأنواره ومعجز آياته، فأعلن تحريم ذلك لما فيه من سوء الأدب في حق الوالد، ولما فيه من قطيعة الأرحام بين الآباء والأبناء حين يرى الأب أن زوجته حلال لابنه وحسبك بهذا مثيرًا للوسوسة وقطيعة للأرحام.

٤- كانت المرأة لا تستشار في زواجها فيزوِّجها وليها بمن يريد كأنا سلعة، ثم يستولي على مهرها، وقد قرأنا أن فتاة زوَّجها أبوها من رجل قبيح رغبة في المال، واسمها «مكرمة بنت الكحيل»، فسمعت في مخدعها وهي تغني بيتين:

سألتكما بالله هل من شريعة ... يحل اختلاط المسك بالقطران
سألتكما بالله هل تعلمانه ... يحل قياد الريم للظربان

والظربان: دويبة في حجم الثعلب خبيثة الرائحة.

٥- كانت بعض أنواع الزواج مهانة للمرأة وفوضى في الذرية.

- فمن ذلك نكاح البدل، كأن يقول رجل لآخر: انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي.

- ومنه نكاح الاستبضاع، كأن يقول لامرأته إذا طهرت من حيضتها: اذهبي فاستبضعي

من فلان لعله يكون لنا ولد ذكي سري مثل أبيه، فتذهب إلى رجل مشهور بالشجاعة والذكاء، فتستبضع منه ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها، وقد ذكر القرآن الكريم أن الوليد بن المغيرة زنيم (أي: ابن زنا)، ولما استخبر أمه أخبرته أنها استبضعت من غير أبيه.

- ومن نكاح الجاهلية أن يجتمع رهط من الرجال دون العشرة على المرأة، فيدخلون عليها وكلهم يصيبها، فإذا ولدت جمعتهم وألصقته بواحد منهم هو الذي تحبه.

- ومن تلك الأنكحة أن يجتمع رجال كثيرون، فيدخلون على المرأة لا تمتنع منهم، وكان أمثال أولئك النساء ينصبن على بيوتهن رايات تكون علمًا عليهن، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن جمعوا لها أهل القيافة الذين يعرفون المولود إلى أي منهم ينتسب، فيلحقون الولد بمن يرون أنه يشبه والده ثم لا يستطيع الأب أن يمتنع عن قبول ولده.

- فلما جاء الإسلام ألغى كل تلك الأنكحة الفاسدة، وأقر النكاح الإسلامي الطاهر الذي تتكوَّن به الأسرة المسلمة نقية وضيئة، فيها ولاء الزوجة، وليس فيها رجس الأخدان وفوضى الجنس، ثم فرض للمرأة حقًّا في الميراث، وفي أداء شعائر الدين، وفي اختيار الزوج، وفي العمل المناسب لفطرتها، وفي استثمار أموالها، وفي التعليم، ومنع إكراه الجواري على الزنا من أجل المال.

***

## من أحاديث الآداب

# غفلة النساء المسلمات عن أوامر الدين

في هذه الأيام نرى في كثير من النساء المسلمات غفلة عن أوامر الدين توشك أن تنسيها رسالتها وتراثها وسلفها من الصحابيات الصالحات -رضوان الله عليهن.

المرأة المسلمة في هذه الأيام تجتاحها تيارات ظاهرها مبهج مزوق يلوح بالحرية والنعيم والأزياء وباطنها الضياع والسقوط والفساد وتدمير الكرامة، والعجيب أن كثير من المسلمات في هذه الأيام قد انجرفن فعلاً في تقليد الأجنبيات حتى لو نبذت الأجنبية ثوب الاحتشام وكشفت مفاتنها للطغام، وهان عليها عفافها الغالي وصونها الوضيء لدخلت المسلمة وراءها جحر الضَّبِّ مخدوعة بحرية مكذوبة تحول المرأة للفساد ألعوبة.

المرأة المسلمة بفضل الله أنصفها الإسلام، وجعل منها إنسانة كريمة تبني الحياة وتخدم المجتمع المسلم في كلِّ ميدان من مجالات العلم والتربية والعمل النافع، حتى إنها لتخوض القتال إذا جد الأمر بالمؤمنين، وحاق الخطر بهذا الدين، هنالك يتاح شرف التضحية للمؤمنين، وتكون تعبئة عامة لهم ولنسائهم.

إنَّ التبرج والتعري واعتياد الأسواق ومخالطة الرجال وارتياد المفاسد ليست إلا معاول هدمٍ تعصف بكلِّ المجتمع وتضعف مقاومة الشباب وشخصية النساء، وعندئذٍ يجد العدو في الصف المسلم ثغرات من الفساد تسهل عليه اجتياح الحمى وإهانة الكرامات، ومن ثم فإن سلاح النصر في المجتمع الإسلامي كان وما زال تلك التربية الإسلامية التي تنظم الأمة رجالاً ونساءً، فتصنعهم على عين الفضيلة والإيمان.

جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ حين خرج لغزو خيبر تبعته بعض النساء إلى إليها، فسألهن عن خروجهن، فقلن: خرجنا نغزل الشعر، فنعين به في سبيل الله، ونداوي الجرحى، ونناول السهام، ونسقي السويق.

وفي كتب السيرة أن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قالت: خرجت أول النهار يوم أحد أنظر ماذا يصنع الناس، ومعي سقاءٌ فيه ماء والريح والغلبة للمسلمين، فلما انهزم

المسلمون أنحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ. قالت: فرأيت ابن قمئة -أقمأه الله- يقول حين ولى الناس عن رسول الله ﷺ: دلوني على محمد لا نجوت إنْ نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ. فضربني هذه الضربة الغائرة في كتفي وضربته على ذلك ضربات، لكن عدو الله كان عليه درعان.

وروى الواقدي أنها -رضي الله عنها- قتلت فارسًا من المشركين، وأن رسول الله ﷺ قال: ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأرى أم عمارة تقاتل دوني.

فلا عجب إذا قال عمر حين وزَّع بعض الثياب النسائية، فرأى ثوبًا جيدًا أعطوه للمجاهدة أمِّ عمارة.

وممن قاتلن في سبيل الله عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب وهي أم الزبير بن العوام كانت ترد الفرسان الهاربين برمح في يدها، ولما كانت في حصن حسان بن ثابت ﷺ مرَّ يهودي فأخذ يدور حول الحصن، فارتابت أنه جاسوس لبني قريظة، وحملت عمود خيمة فانقضت عليه وقتلته به، وجردته سلبه مع أن حسان ﷺ لم يجرؤ أن يقترب منه، ولا أن يستولي على سلبه.

وروى الطبراني أن أسماء بنت يزيد -رضي الله عنها- وهي بنت عم معاذ بن جبل ﷺ قتلت تسعة من الروم بعمود خيمة يوم اليرموك.

ولما رأت خولة بنت الأزور ما أصاب جيش المسلمين من شدة، وتفقدت أخاها ضرارًا، فلم تره، قاتلت كالرجال على جواد، حتى أدركت أخاها والروم يحيطون به، فلم تزل تقاتل دونه حتى نجَّاه الله من الأسر.

وفي صحيح مسلم أن أم سليم زوج أبي طلحة الأنصاري -رضي الله عنهما- شوهدت يوم حنين، وهي تحمل خنجرًا، فقال زوجها لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، انظر أم سليم تحمل خنجرًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» فقالت: اتخذته إنْ دنا مني أحد المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك.

وغزت أم ملحان خالة أنس بن مالك -رضي الله عنهما- غزوة في البحر، وكانت زوجة

لعبادة بن الصامت ﷺ، وغزت معها في الغزوة نفسها بنت قرظة، وكانت زوجة لمعاوية -رضي الله عنها وعنه.

وفي صحيح البخاري عن الربيع بنت معوذ -رضي الله عنها- أنها قالت: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، نسقي ونداوي الجرحى ونرد القتلى.

وفي رواية مسلم عنها أنها قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، وأصنع لهم وأداوي الجرحى، وأقوم على الزمنى (أي: المعوقين).

وفي صحيح البخاري أن أم سليط -رضي الله عنها- كانت من نساء الأنصار، وكانت يوم أحد تخيط القرب إذا انفتقت وتعيد ملأها بالماء، ثم تسقي المقاتلين والجرحى.

وروى البخاري أن عمر ﷺ وردت إليه مروط (أي: ثياب من اليمن)، فزاد منها ثوب جيد، فقال له بعض الحاضرين: أعطه أم كلثوم بنت عليٍّ زوجتك، فقال عمر ﷺ: أم سليط أحق منها به، لقد كانت تزفر لنا القرب يوم أحد.

إنَّ عمر ﷺ يعرف مقياس الكرامة، وهو مقياس يقوم على العمل الصالح والجهاد الصادق.

لقد أنار تاريخنا بأعلام من عظيمات النساء منذ قتلت سمية -رضي الله عنها- تحت التعذيب إلى أن مضت الصحابيات قدمًا يساعدن المجاهدين، ويحتسبن أبناءهن وأزواجهن في سبيل الله، فيا أيتها المسلمة!! إذا دعاك الشيطان إلى ما لا يليق بالمسلمة من أخلاق الجاهلات وأزياء المنحرفات وصنائع المتبرجات؛ فتذكري أمهاتك المجاهدات وجداتك الصالحات واللاتي نصر الله ورسوله، وبايعن رسول الله ﷺ على اتباع الفضائل واجتناب الرذائل، واعلمي أن المؤمنة تحرص على إيمانها كما تحرص على حياتها.

إنَّ المرأة المؤمنة في هذه الأيام تنصب من حولها حبائل يريد ناصبوها أن يطيحوا بها نحو الدمار ليستمتعوا بالحرام على حساب شرفها الغالي، ويدنسوا عفافهم الوضيء، واعلمي أن المؤمنة إذا مسها طائف من إيحاء الشياطين تذكرت سلفها ودينها الغالي، فرأت برهان ربها الذي يردها عن كل سوء، وما أحلى وأجمل وأسمى قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢١].

## من أحاديث الآداب

# أحكام تتعلق بالإنجاب

إني ملخصٌ في هذه الحلقة -إنْ شاء الله- أحكامًا تتعلق بالإنجاب والمولود ذكرًا كان أم أنثى، وقد رجعت في هذه الأحكام إلى كتاب «تحفة المودود في أحكام المولود».

**أولاً**: طلب الذرية من سنن السلف الصالح، قال الله تعالى: **﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٨]، ومعنى الآية: لا تتخذوا الجماع لمجرد الشهوة فقط، ولكن اطلبوا من الله ما قدره لكم من الذرية الصالحة، وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: **«تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: **«إنَّ العبد لترفع له الدرجة، فيقول: أي رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»**.

ومن حديث عائشة -رضي الله عنها- أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«النكاح سنتي ومن لم يعمل بسنتي؛ فليس مني»**.

وفي صحيح مسلم: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**.

**ثانيًا**: كراهية البنات والتسخط بهن من عادات الجاهلية الضالة التي كان أهلها **﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ ساءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾**، وقد لاحظ المفسرون في آية سورة «الشورى» المتعلقة بموضوع الذرية أن الآية بدأت بداية تقطع النقاش وانتهت نهاية تخرس المجادلين، وبدأت بالبنات قبل البنين كتحد لمن يكرهون البنات، **﴿لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾**، هذه هي المقدمة الرائعة **﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾**، وانظر الآن إلى الخاتمة **﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾**، وكان رسول الله ﷺ يحثُّ الآباء والأمهات على حبِّ البنات والتفاؤل بهن، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو**

هكذا، وضم إصبعيه».

إنَّ من يكره البنات قليل أدب؛ لأنه كره ما أعطاه الله وما ارتضاه له، وحسبنا أن محمدًا ﷺ كان أبًا لبنات، وكذلك كان شعيب ولوط -عليهما وعلى نبيِّنا الصلاة والسلام.

**ثالثًا**: يستحب أن يبشر من يرزق ولدًا أو أنثى، وأن يهنأ بالقادم المبارك الجديد، وما أجمل أن تهنئ أخاك الذي ولد له، فتقول له: **«بورك في الموهوب، والحمد والشكر للواهب، اسأل الله أن يبلغ أشده ويرزقك بره»**.

البشارة حلوة تحبِّب القلوب، وحسبك أن ملائكة الله بشروا إبراهيم عليه السلام بغلام عليم، وبشروا مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم، وبشروا زكريا عليه السلام بـ«يحيى» الزكي البر.

**رابعًا**: من السُّنة لمن رزق بمولود أن يؤذِّن في أذنه اليمنى، ويقيم في أذنه اليسرى، كما فعل رسول الله ﷺ حين ولد الحسن، وذلك ليكون أول ما يقرع سمع الوليد ذكر الله والدعوة التامة إلى الإسلام والعبادة والفلاح، ويسن أن يحنِّك بتمرة ممضوغة أو مطحونة ونحوها.

**خامسًا**: ومن السُّنة أن يعق عن المولود شاتين إنْ كان ذكرًا، وشاة إنْ كان أنثى؛ لأن رسول الله ﷺ أوصى بذلك، وعقَّ عن حسن وحسين، وإنما سمِّيت عقيقة؛ لأن العقيقة في اللغة معناها الشعر الذي يكون للطفل حين يولد، وبما أن هذا الشعر يحلق بعد ذبح الشاتين أو الشاة، فقد سميت تلك الذبائح عقيقة، وهي على الأصح سنة مؤكدة على المستطيع، وذهب بعض الأشياخ إلى أنها واجبة على المستطيع؛ لقوله ﷺ: **«الغلام مرتهن بعقيقته، فإن لم يملك الأب عقيقة سقطت عنه إنْ شاء الله»**.

ويعق عن الغلام يوم سابعه، ويماط عنه الأذى، ويسمَّى، فإن لم يتيسر الذبح يوم سابعه عقَّ في الرابع عشر أو في الحادي والعشرين، وإذا عقَّ يوم ثامن أو تاسع أو ثامن عشر أجزأت، ويقول عند الذبح: **«بسم الله، اللهم إنَّ هذا منك ولك، اللهم هذه عقيقة فلان بن فلان»**، ويستحب طبخها دون إخراج لحمها نيئًا، ويسن ألا يكسر عظمًا، بل تقطعه كل عظم من مفصله تفاؤلاً للمولود بالسلامة، ولا يباع لحم العقيقة، وحكمها من حيث الأكل ومن

حيث السن كلحم الأضحية، ولا يصح الاشتراك في العقيقة كأن يقول رجل لجاره: نشترك في ثمن عقيقة عن ابني وابنك، وإذا عقَّ بجزور أو بأكثر من اثنتين لما رأى من كثرة المحتاجين، فهو أفضل؛ لأنه عقيقة وبر.

ومن لم يعق عنه أبوه عند ولادته لظرف أو فقر؛ فيستحب أن يعق هو نفسه، وقد روي ذلك عن رسول الله ﷺ، وروي أنه عقَّ عن نفسه بعد نبوته، أما جلد العقيقة وسواقطها، فإما أن تعطى إلى فقراء، وإما أن تباع ويتصدق بثمنها إنْ أمكن ذلك.

ويستحب أن يحلق رأس الصبي ويتصدق بوزن شعره ذهبًا أو فضة، ويسمَّى يوم سابعه، ويختار الأب لابنه اسمًا حسنًا؛ ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم**»، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمن، وتستحب أسماء الأنبياء، وكل اسم معبد لغير الله؛ فهو حرام إلا عبد المطلب، وكان ﷺ يحبُّ اسم إبراهيم.

ومن القبيح اسم ملك الملوك، وسلطان السلاطين، وحاكم الحكام، وشاهنشاه، وسيد الناس، وسيد الكل، وسيد ولد آدم، ومن الأسماء المكروهة يسار، ورباح، ونجاح، وأفلح، وذلك لأن سائلاً ربما يسأل: أعندكم أفلح؟ وقد يجيبه مجيب: لا أفلح لدينا، ومن الأسماء السيئة تلك التي يسمَّى بها بعض البدو أبناءهم، فتجرحهم هذه الأسماء عندما يكبرون، وقد رأينا موظفين محترمين أحدهما اسمه حنش والآخر طجيمير، ويكره أن يسمَّى الطفل بأسماء الملائكة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وكان -عليه الصلاة والسلام- يتفاءل بالأسماء، كسهيل، وبريدة، وأسلم، وكان ربما غيَّر بعض الأسماء إما لما فيها من شرك، أو ما فيها من قبح، فقد غيَّر اسم حَزْن، وجعله سهلاً، وبدَّل غرابًا باسم مسلم، وغيَّر اسم جعبل إلى عمرو، وتفاءل عبد المطلب باسم حليمة السعدية، فقال: حلمٌ وسعدٌ.

ويجوز أن تسمِّي الولد أبا حمزة، أو أبا عمير، وأبا بكر، وأبا عبيدة، وأبا حفص، وإذا تنازع الوالدان في الاسم فالاسم للأب، وما أجمل أن يسمِّي المسلم ابنه محمدًا، على أن يحترم الاسم فلا يكثر من سبابه، ويجوز أن تسمِّي ابنك اسمًا مركبًا مثل محمد مسلم، ولكن هذا في الوقت الحاضر يحدث التباسًا في الجوازات وغيرها، قال رسول الله ﷺ: «**أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي**».

**سادسًا**: والختان سُنة مؤكدة من سنن الفطرة، وقد اختتن سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو كبير، ولفظ الختان يطلق على قطع قلفة الولد، أما بالنسبة للجارية فيقال له: خفض، وعند مالك أن الأقلف لا تصح إمامته، ولا تقبل شهادته، وجاء في الحديث: «**الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء**»، ويكون الختان قبل البلوغ، وهو في الصغر أسهل وأحسن، وكان بعض النساء يختتن على عهد رسول الله ﷺ، وإذا لم تختتن المرأة، فليس عليها شيء، والله أعلم.

وقد مرَّ النبي ﷺ بخاتنة، فقال لها: «**إذا ختنت فلا تنهكي**» أي: لا تعمقي وتستأصلي، ويسقط ختان الولد إذا ولد بلا قلفة، كما ورد أن رسول الله ﷺ ولد مختونًا، أو ولد ضعيفًا لا يطيقه، أو إذا أسلم وهو كبير وخشي من عواقبه وخاف التلف، ولا يختن الميت، ويجوز أن يختن المحرم، وتثقب إذن الأنثى لتتقبل القرط، وهو مكروه للصبي.

هذا، وريق الطفل طاهر، ولو كثر على ثوبك، كما أن حمل الطفل في الصلاة جائز، ولا تدقق وتتعمق في التأكد من ثيابه، ويستحب أن يقبِّل الرجل طفله لما في ذلك من الرحمة.

أسأل الله أن يصلح لنا ولكم نياتنا، ويصلح ذرياتنا، ويجعلنا وإياهم للمتقين إمامًا.

بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۞ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۞ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾** [الرعد: ١٩- ٢٢].

***

## من أحاديث الآداب

# فضل الذرية الصالحة

لعل أعظم كنز يدخره المؤمن لمعاشه ومعاده الذرية الصالحة؛ لأن الابن البر الصالح ينفع أباه في حياته بأنواع البر، كما ينفعه بعد وفاته بالبر والدعاء وصنائع الخير.

ومن ثم كان الولد الصالح ذخيرة الدنيا والآخرة، قال -عليه الصلاة والسلام: «**إذا مات المؤمن انقطع عمله من الدنيا إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ابن صالح يدعو له**»، وسئل أعرابي: ما أطيب رائحة شممتها؟ فقال: رائحة الولد البر.

ومن ثم كان من آداب المؤمن أن يعتني بولده من بنين وبنات، فيفرغ لهم، ويحسن تربيتهم، ويأخذ بأيديهم إلى التربية الإسلامية، ويجنبهم طريق المعصية ورفقة السوء، مستجيبًا لأمر الله ﷻ في سورة «التحريم»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾، ومعنى الآية الكريمة: احفظوا أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم من المعاصي المؤدية إلى عذاب النار والمفضية إلى غضبه ونقمته.

إنَّ هذا الأمر قد غفل عنه الكثير من الآباء في هذه الأيام، وهو في أيام العطلة يبدو بشكله المجسم وخطره المضاعف حين تمر في بعض الشوارع، فترى صبية وفتيانًا أفسدهم فراغ الوقت وإهمال الولي، فعاثوا في طرقات المسلمين كأنهم الوباء، يتحرشون بالباعة، ويؤذون المؤمنات، ويعتدون على أصحاب الأعمال بالهزء والسخرية تارة، وباختلاس البضاعة تارة أخرى، والأدهى أنك ترى السربة المفسدة متفاوتة الأعمار، فبينما ترى فيها طفلاً بريئًا لا يتجاوز العاشرة إذا أنت ترى فتى خبيثًا قد جاوز العشرين، وتتساءل أين ولاة الأمر من الوالدين والإخوة، فتصطدم بواقع مرير أن أولئك الكبار أهملوا رعايتهم وضيَّعوا أماناتهم وانشغلوا بالعرض، كأنهم بعض من عناهم الله ﷻ بقوله في سورة «المؤمنين»: ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾، هنالك تتساءل في حسرة: أين آباء هؤلاء الضائعين وأمهاتهم؟! وكيف تركوا أغلى كنوزهم نهبًا لهذه الرفقة الخطيرة التي لا تؤتمن؟

وليس من الضروري أن يكون الأب متعلمًا كي يؤدِّب ولده، فقد رأينا بعض الأميين من ذوي التجارب الخيرة قد أدبوا أولادهم أدبًا إسلاميًّا رفيعًا، وأخذوهم بعادات إسلامية سامية، فنشأ أولادهم أحسن تربية وتنشئة من أبناء المتعلمين الكبار، وما أجمل أن يؤدب المؤمن ابنه قبل أن يشرع في تعليمه، قال عمر ﷺ: تأدبوا ثم تعلموا.

والحقُّ أنك لو جلست إلى إنسان متأدب بأدب الإسلام وهو ذو علم قليل، ثم جلست إلى عالم كبير يعوزه التأدب لفضلت المتأدب على العالم، ومن ثم قال بعض الحكماء: إنَّ أدب العلم أكثر من العلم.

وقال عبد الله بن المبارك: إذا وصف لي رجل معروف بأدب نفسه تأسفت على فوت لقائه، وإذا وصف لي عالمٌ معروف بسعة علمه لم أتأسف على فوت لقائه؛ لأن الأدب هو ثمرة العلم والعالم غير المتأدب شجرة لا ثمر لها، أو زهرة لا شذى لها.

وقال أحد الحكماء: فتشت عن العلماء فوجدتهم كثرة، وفتشت عن المتأدبين وإذا هم نادرون، وعلى الآباء أن يأخذوا أبناءهم بالأدب صغارًا لينشئوا نشأة مؤدبة، وألا يتركوهم حتى يمردوا على قلة الأدب، فيصعب عندئذٍ سوسهم، وقديمًا قال أبو الطيب:

**قد ينفع الأدب الأحداث في صغر ... وليس ينفع بعد الشيبة الأدب**

**إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت ... ولا تلين إذا عدلتها الخشب**

وقال الحسن البصري: التعلم في الصغر كالنقش على الحجر.

وسئل نبي الله عيسى ﷺ: مَن أدبك؟ فقال: كنت أرى سلوك الجاهل فأجتنبه.

وقال لقمان: تأديب الولد ولو بضرب خفيف كالسقيا للزرع.

وقال أحد علماء الحديث: نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث.

وقال رسول الله ﷺ: «**مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ** (أي: ما أعطى أب ابنه) **أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ**»، وروى الترمذي أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**لأن يؤدِّب الرجل ولده خيرٌ من أن يتصدق بصاع**».

وقد حثَّ النبي ﷺ أن يكثر الأبوان لزوم بيتهما ليظل الأولاد بأعين والديهم، وليتمكن

الوالدان من مراقبة أبنائهم وبناتهم، قال رسول الله ﷺ لأحد الصحابة: **«امسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»**.

إنَّ ملازمة الوالد لأولاده تعطيه فرصة ذهبية لتفقد أصدقائهم، والتعرف على مستوياتهم، ومراقبة تصرفاتهم، والإطلاع على واجباتهم، وما أجمل أن تهتم الأم بصويحبات بنتها، والتعرف عليهن لتعرف أي لون من الصداقات تمارس ابنتها.

وما أجمل ما قال أحد الشعراء مخاطبًا ولده:

خير ما ورث الرجال بنيهم ... أدب خالص لحسن الثناء
ذلك خير من الدنانير والأوراق ... في شدة أو رخاء
إن تأدبت يا بني صغيرًا ... صرت يومًا تعد في الكبراء

## محاباة الأب بعض أبنائه على الآخرين

هنالك موضوع اجتماعي شديد الحساسية، كثير ما دخل في الأُسر فأفسد علاقاتها، وقطع أرحامها ونشر في أفردها البغضاء والحسد.. ذلك هو محاباة الأب بعض أبنائه بأن يهب لبعضهم من ماله وعطفه أكثر مما يهب للآخرين متأثرًا بحب امرأة من زوجاته أو ضغط صهر من أصهاره أو اختلاف وجهة نظر بينه وبين بعض ولده.

إنَّ الهبة لوارث دون الآخر أمر باطل لا يصدر إلا عن مبطل، وإلى القارئ الكريم هذه الأحاديث الكريمة حول هبة الوالد لبعض ورثته.

- جاء في الصحيحين والسُّنن عن النعمان بن بشير ﷺ قال: تصدق عليَّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ، فانطلق أبي إلى النبي ﷺ ليشهده على صدقتي، فقال له النبي ﷺ: **«أفعلت هذا بولدك كلهم؟** قال: لا. قال: **«اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»**. فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وفي رواية أن النبي ﷺ قال: **«أليس يسرك أن يكونوا لك في البر والعطف سواء؟!»** قال: نعم، فقال: أشهد على هذا غيري؛ فإني لا أشهد على باطل.

- وجاء في السُّنن: «**مثل الذي يرجع في عطيته أو هبته** (أي: يندم عليها ويستردها) **كالكلب يأكل، فإذا شبع قاء ثم عاد في قيئه**».

- وفي سنن أبي داود والنسائي: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها**».

**أولاً**: كثير من الآباء يكون له أكثر من زوجة، فيحب إحداهن أكثر من زميلاتها ضرائرها وعندئذٍ تنتهز المرأة فرصة ذلك الحب، فتستغله استغلالاً لا يلبث أن يتحول إلى ابتزاز ولا تزال تضغط على الزوج حتى يؤثر أولادها وبناتها على إخوانهم، وفي الساعات التي يميل الزوج إليها تطلب منه أن يكتب لها بيتًا ليكون ملكها لها، وتطلب مالاً وذهبًا، فيجزل لها، فإذا راجعته في الأمر سائر زوجاته وأبنائه غضب وعربد وسب وشتم وقابل العتاب بالعناد، حتى تراه وقد تخلى عن الزوجات الضرائر وأبنائهن، وعندئذٍ تستطيع أن تميز بين أولاد الزوجة المدللة وبين إخوانهم، حين ترى الأوائل في أجمل الملابس وألذ المطاعم، وترى إخوانهم في الأسمال البالية والعيشة النكدة.

وقد كنت أشاهد هذا الأمر بنفسي في تلاميذ المدارس التي كنت أعمل بها، فأرى أخوين أحدهما عليه سيما الخضوع والفقر، والآخر له هيئة كأبناء أصحاب الملايين، ومثل هذا الظالم يأتي كما ورد الحديث يوم القيامة في هيئة قبيحة؛ حيث يكون أحد شقيه مائلاً كأصحاب العاهات.

**ثانيًا**: من الفقهاء من يحرم أية عطية تمنح لأحد الورثة إلا إذا وزَّع الأب مثلها على سائر ورثته، ويرى الإمام أحمد -رحمه الله- جواز الهبة والهدية لأحد الورثة إذا كان لهذا الأمر ما يبرره، كأن يكون الموهوب له مريضًا مرضًا مزمنًا أو أعمى أو كثير العيال أو طالب علم يشغله التحصيل عن طلب الرزق، كما يجوز للأب أن يحجب هبته عن ابنه الفاسق الذي قد ينفقها في معصية الله، أما إذا كانت الهبة للوارث صادرة من منطلق الشهوة والأثرة وتأثير الزوجة، فذلك حرام وباطل، كما يفهم من حديث النعمان بن بشير ﷺ حين قال رسول الله ﷺ لوالده: «**أشهد عليه غيري؛ فإني لا أشهد على ظلم**».

**ثالثًا**: إنَّ عدل الرجل في أبنائه وآل بيته وذريته، كما بيَّن الرسول ﷺ يجعل الإنسان سعيدًا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنه ينال البر من جميع رعيته في بيته؛ لأن الإنصاف يكسبه احترام الجميع، وهذا ما عناه الرسول الكريم ﷺ حين قال لوالد النعمان بن بشير: «**أليس يسرُّك أن يكونوا لك في البرِّ واللطف سواءً؟!**»، وهذا استفهام بلاغي عظيم غرضه تقرير الحقيقة، ومعناه أنه لما يسر المرء أن يكون جميع أبنائه بررة بوالديهم، ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا عاملهم أبوهم جميعًا، وعامل أمهاتهم بالعدل والإنصاف، فهنالك يكبر الجميع رجولة الأب ودينه وأخلاقه، ويغرس احترامه في قلوبهم، ويتمنى الجميع أن يخدموه، ثم يأتي يوم القيامة مرضيًا عنه حين يُسأل ما فعل برعيته، فيُرى في كتاب أعماله العدل والإحسان ورحمة ذي القربى.

**رابعًا**: الهبة والهدية والقرض الحسن.. كلٌّ هذه لها عند الله ثواب إذا نوى العبد بها خيرًا وتقريبًا بين القلوب، وما يجوز للعبد أن يعود في هذا الخير أو يفسده بالمن والأذى، وقد صورت البلاغة النبوية من يندم على الهبة، ويحاول استردادها في صورة تشمئز منها الفطرة ألا وهي صورة الكلب يقيء ثم يعود في قيئه، والمهم في صاحب العمل الصالح ألا ينتظر عليه ردًّا عاجلاً من العبد، وإنما يحتسب إحسانه عند الله ﷻ فمن أقرض الله قرضًا حسنًا أو وهب هبةً خالصةً، فلا يكدرهما بانتظار الجزاء العاجل كأن يهدي إليه المقترض هدية، فتلك عندئذٍ ربا؛ إذ كل قرضٍ جر منفعة يكون ربًا، ولكن في الهدية يجوز لمن يهديها لغني أو ذي سلطان أن يتوقع بأن يناله خير عاجل يسد به خلته، ويقضي به دينه، وقد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية، ويجزي عليها بأكثر منها، وكان لا يرد الهدية ولو كانت كراعًا؛ لأن الهدية كما قيل فيها هي أسهل الطرق الموصلة بين القلوب إذا ابتغى بها الصداقة الخالصة، ولم تكن رشوة لتحقيق مصلحة.

**خامسًا**: كان -عليه الصلاة والسلام- إذا أهدي هدية فتحها بحضور مهديها، ثم يأكل منها ويطعم مهديها من هديته، وهذا هو منتهى الذوق الرفيع؛ إذ كثيرًا ما يكون المُهدي على جانب كبير من عفاف النفس، فيهدي الهدية وهو لم يذقها، بل آثر بها المهدى إليه، فما أجمل أن يطعم منها، وينال بطريقة كريمة ما حرم نفسه الشريفة العيوف الكريمة.

## مسائل مهمة تحقق خير الدنيا والآخرة للوالدين والأبناء

**إني ذاكرٌ في هذه الحلقة -إنْ شاء الله- طائفة من المسائل والأمور اللازمة المفيدة لكلِّ والد ووالدة، ولكل ابن وابنة، وفي التزامها -إنْ شاء الله- ما يحقق للأبوين وللذرية خير الدنيا والآخرة.**

١- احرص على ذريتك من عذاب الله أشد مما تحرص عليهم من الموت؛ لأن موتًا وراءه الرضا والجنة خيرٌ ألف مرة من حياة فيها سخط الله والنار، واقرأ في هذا قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾**، ولا تتحقق هذه الوقاية إلا إذا علَّمت أبناءك الخير وأدبتهم وعلمتهم طاعة الله ورسوله منذ نعومة أظفارهم؛ ففي مسند أحمد وسنن أبي داود قال رسول الله ﷺ: **«مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»**.

٢- وعلى الأبوين أن يعلِّما الأبناء والبنات توحيد الله وتقواه ومفهوم لا إله إلا الله، وأن يرغِّب ذريته في حفظ كتاب الله وسنة رسوله، قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما: «أدِّب ابنك، فإنك مسئول عنه: ماذا أدَّبته؟ وماذا علَّمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك».

وعلى الوالدين أن يعلِّما ذريتها عادات الخير والأدب والقصد والاعتدال في المطعم والمشرب والملبس والمجلس والصداقة والضيافة، ففي سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: **«من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوِّجه، فإن بلغ ولم يزوِّجه فأصاب إثمًا، فإنما أثمه على أبيه»**؛ لأن الراعي مسئول أمام الله أن يحافظ على رعيته من دروب الهلاك.

٣- إذا أردت أن يحبك أبناؤك وبناتك وأن يتحابوا فيما بينهم، فاعدلْ بينهم في كلِّ شيء: في العطاء والمنع، وفي المحبة والبر، ففي السنن ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»**.

وفي صحيح مسلم أن والدة النعمان بن بشير قالت لزوجها أبي بشير: امنح ابني غلامًا، واشهد لي رسول الله ﷺ، وذهبت أم بشير وزوجها إلى رسول الله ﷺ ليشهداه على المنحة، فسأل بشيرًا: **«أكل ولدك نحلت (أي: أعطيت) مثل ما نحلت النعمان؟»** قال: لا. قال:

«ارجعه»، ثم قال: «اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم»، وفي رواية: «أشهد على هذا غير، فإني لا أشهد إلا على حق»، وفي رواية أحمد: «لا تشهدني على جور، إنَّ لابنك عليك من الحق أن تعدل بينهم».

وفي سنن البيهقي عن أنس ﷺ أن رجلاً كان جالسًا عند رسول الله ﷺ، فجاء بني له فقبَّله، وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: «ما عدلت بينهما».

وقد أوصى ربنا ﷻ الآباء بأبنائهم كما أوصى الأبناء بآبائهم، وأكثر الأبناء إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم وترك تعليمهم فرائض الدين، وقد عاتب أحد الآباء ولده على عقوقه، فقال الولد: عققتني صغيرًا فعققتك كبيرًا، وأضعتني وليدًا فأضعتك شيخًا.

٤- إذا أردت استرضاع ولدك فاختر له مرضعًا صالحةً، وقد كان العرب يعتنون بإرضاع أبنائهم عند نساء البوادي، كما استرضع النبي ﷺ في بادية بني سعد، وهم بطن من هوازن من قيس عيلان.

وهذه بعض وصايا للآباء أثبتها شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله- في آخر كتابه «تحفة المودود في أحكام المولود»، يقول -رحمه الله- ما معناه:

١- لا تحمل طفلك وتطوف به إذا كان دون ثلاثة أشهر؛ لأنه يكون ضعيف البدن رقيق جلدة الرأس.

٢- لا تغذِّ الطفل بغير حليب أمه أو مرضعته، وذلك لما في لبن الأم من صحة تريح المعدة، فإذا نبتت أسنانه؛ فاعلم أن الله ﷻ ما أنبتها إلا لتستعمل، وعندئذٍ غذه بلطيف الطعام وخفيفه.

٣- تدرَّج في تغذيته، وابدأ باللبن والخبز المنقوع في الماء الحار واللبن الحليب، ثم المرق الخالي من الشحوم الثقيلة، وإذا أطعمته قطعة لحم فاطحنها أو رضها حتى تلين جدًّا.

٤- ادلك لسانه بالعسل، وادلكه ببعض ذوب الملح الخفيف، ففي ذلك ما يسهل نطقه، فإذا بدأ يتكلم، فلقنه لا إله إلا الله، ودرِّبه على هذه الكلمة الجليلة، وعلى الكلام الطيب، ولا

تعوِّده أن يتفل على الكبار، أو يرد عليهم الألفاظ التي يمازحونه بها، وقُلْ له: عيب هذا عملك، فإن كثيرًا من الأصدقاء قد يقولون للطفل مثلاً: أنت كلب، فيردها عليهم ولا يبالي.

٥- إذا بدأت أسنانه تنبت فادلكها بالثوم والزبد، وجنِّبه كثرة الحلوى وقضم المواد الصلبة حتى لا تعوج.

٦- لا تتألم كثيرًا لبكائه وصراخه، وتفقد إذا بكى حوائجه؛ فإن البكاء يروِّض أعضاءه ويوسِّع صدره وأمعاءه.

٧- لا تهمل قماطه ورباطه، ولو رفضه إلى أن يصلب بدنه وتقوى أعضاؤه؛ لأن القماط يدفئه، ويعدل عظامه؛ فإذا بدأ يقعد فخففه عنه ليتدرب على الحركة.

٨- لا تروِّع الطفل بالأصوات المخيفة أو المناظر المزعجة، وإذا تروَّع الطفل لمنظر فآنسه وحوِّل عنه وجهه، ولتلقمه أمه ثديها ليطمئن وينسى المنظر حالاً.

٩- في فترة نمو الأسنان ضاعف عنايتك بالطفل وتدفئته، وخصوصًا في الشتاء والبرد، واعتن بتغذيه بما يريح المعدة، وإذا هَاج به قيء أو حميات أو عصبية فاسقه مغلي الينسون وبعض الأشربة القابضة.

١٠- إذا أردت فطامه؛ فليكن بعد عامين من رضاعه، وأحسن وقت الفطام في الخريف والربيع حين يعتدل الجو، وآنس الطفل في الفطام، واصبر عليه واخرج به إلى الفضاء.

١١- لا تسمح للطفل أن يكظ بطنه بأصناف الطعام والحلوى، ولا تستجيب لكل طلباته، وراقبه أن يأكل عن الأرض ملوثًا.

١٢- إذا بكى من مغص فأسقه ماء مغليًا مبردًا، ولا تمنعه من شرب الماء كلما طلبه.

١٣- جنِّبه لبس الحرير والذهب وكثرة التنعم، ولا تلبسه ثوب الأنثى حتى لا يصبح مائعًا رخصًا متأنثًا.

١٤- تعرَّف هواياته وانظر إنْ كان يميل إلى العلم أو إلى الصناعة أو إلى التجارة، ولا ترهقه بغير ما يسَّره الله له، ثم شجِّعه على الفروسية والرماية والسباحة؛ ليخدم بهذه المواهب والمهارات دينه ونفسه وعرضه.

# آداب المؤمن مع أبنائه وبناته

للمؤمن أدب إزاء كل ولد وكل بنت وبخاصة إزاء أولاده وبناته، المؤمن يرى أبناء المؤمنين جميعًا أبناءً له، ويرى في كل بنت صورة بنته، ويحب لبنيات المؤمنين ما يحبه لبناته من الوضاء والطهر والعفاف، وقديمًا قالت العرب في جاهليتها: «كل ذات صُدار خالة»، ومعناه أن الإنسان الشريف يرى كل امرأة خالةً له، والخالة في منزلة الوالدة هكذا كان حال العرب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أتم مكارم الأخلاق وأقر فضائل الجاهليين.

وإني موجزٌ هنا آداب المؤمن إزاء أبنائه وبناته وأبناء الناس وبناتهم.

١ - من آداب المؤمن أن يختار أم أولاده، ويبحث عن ذات الدين من النساء؛ لأن العرق دساس والوراثة ثابتة، وتكاد المرأة تلد أخاها والأصول الكريمة والأرحام الطاهرة يبارك الله ذريتها ويؤتيها بركتها: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وفي سورة «النور» يقول الله ﷻ: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلْطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

٢ - ثم إذا ولد الطفل أذن والده أو وليه أو أي مسلم في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى؛ لأنها عصمة من الشيطان، ثم عقَّ عنه عقيقة مناسبة يزكو بها -إنْ شاء الله- ويطهر، ثم يختار له اسمًا حسنًا مما عبد أو حمد أو كان ذا مدلول جميل كريم، وعليه ألا يؤخر العقيقة إنْ كان مقتدرًا عن يوم سابعه، وإنْ أجل فأقصاه واحد وعشرون يومًا.

٣ - ثم إذا انتقل إلى مرحلة تربيته أظهر له الرحمة والمحبة، فاستقبله بحمله وبتقبيله وبمداعبته والحرص على إطعامه وهداياه، يقول رسول الله ﷺ: **«من كان عنده صبي فليتصاب له»** أي: يلعب معه ويخاطبه بلغته ولهجته، فقد دخل أحد الصحابة على رسول الله ﷺ وقد حمل على ظهره حسنًا وحسينًا، وهو يقول لهما: **«نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما»**، ثم إذا بلغ السابعة صحبه إلى المسجد وأمره بالصلاة، فإذا بلغ العاشرة آخذه على إهماله الصلاة، بل وضربه عليها وراقب منامه، ففرَّق بينه وبين إخوانه في المضاجع كي تظل نفسه طهورًا زاكيةً عفيفةً بإذن الله.

٤- هذا، ومن تربية الرجل ولده أن يكثر من مجالستهم وملازمتهم، ويظهر أمامهم في أحسن الأخلاق من قول وعمل، ليكون لهم نعم الأسوة، قال عليه الصلاة والسلام: **«أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ، وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ»**.

ثم إن على الوالد ألا يبخل على أولاده بكل لازم لهم من مطعم ومشرب وملبس، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ يقول النبي ﷺ: **«دينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك وأعظمها الذي أنفقته على أهلك»**، وإذا طلب أولادك منك نقودًا لينفقوا كزملائهم أو بناتك ليكرمن زميلاتهن فأعطهم؛ لأنك إنْ لم تعطهم لجئوا إلى طرق الشر، فالولد قد يسرق والبنت إذا حرمتها قد تجد ممن يعطيها، وهو ممنون، وعندئذٍ تزل القدم ولا ينفع الندم.

٥- وعلى المؤمن ألا يفضِّل الأولاد على البنات في مطعم ولا ملبس ولا ميراث؛ لأن شرف الأسرة في سلوك بناتها، وإنك لا تعرف رقي الأسرة بمقياس أجل من مقياس تربية البنات، وحسبك من نماذج تربية البنات بنات النبي ﷺ وبنات أبي بكر وبنات عمر وسائر نساء الصحابة -رضوان الله عليهم وعليهن، يقول النبي ﷺ: **«من عال ثلاث بنات أو ثلاثة أخوات وجبت له الجنة»**، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مسلم تدرك عنده ابنتان، فيحسن صحبتهما إلا أدخلتاه الجنة»**.

وعلى الوالد أن يعلم أن ابنه إذا آمن فله ثواب إيمانه، وإذا كفر فعليه إثم كفره، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«كلُّ طفل يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**.

٦- ثم إن على الوالد أن يعدل في أبنائه بغض النظر عن أن تكون أم الطفل قريبة أو غريبة، صغيرة أو كبيرة، جميلة أو متوسطة، غنية أو فقيرة، فلا يوصي الأب لولد من أولاده أو وارث من ورثته بشيء يخصه به، قال رسول الله ﷺ: **«سَوُّوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ، فَلَوْ كُنْتُ مُفَضِّلًا أَحَدًا لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ»**، وفي الحديث المتفق عليه أن والد النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- همَّ أن يعطي ابنه بشيرًا غلامًا، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليشهده على تلك العطية، فسأله رسول الله ﷺ: **«أكل ولدك وهبته مثل هذا؟»** قال: لا، قال: **«لا تشهدني على جور»**،

وسأله: «أيسرك أن يكونوا في البر سواءً؟»، قال: بلى.

٧- والمؤمن يحب كل طفل ويعطف عليه ويؤنسه ويرحم ضعفه، قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا»، وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان يحب الأطفال ويجاملهم ويسلِّم عليهم، وربما شاركهم رمايتهم وألعابهم، حتى لقد مرَّ على مجموعة من الصبية يرمون فرمى معهم وعلَّمهم، وقال لهم: «من كان منكم راميًا فليرم هكذا»، ومرَّ على صبي هو أخ لأنس بن مالك ﷺ، وكان قد رأى معه قبل ذلك نغيرًا (أي: عصفورًا)، فقال له رسول الله ﷺ: «أبا عمير، ما فعل النغير؟!» لله ما أجمل وأحلى وأعذب أخلاق ذلك النبي الكريم الذي لم تلهه أعباء النبوة عن أن يسأل طفلاً عن عصفوره.

لقد كان رسول الله ﷺ أرأف بني الإنسان بالإنسان وبخاصة بالطفل حتى لقد حدَّث عن نفسه، فقال ما معناه: «إني لأدخل الصلاة وفي نيتي أن أطيل، فلا ألبث أن أقطع القراءة لما أسمعه من بكاء طفل خشية أن تتألم أمه».

ولأمر ما جعل الإسلام حضانة الطفل لأمه؛ لأنه يأنس بدفء حنانها، حتى إذا تزوَّجت انتقلت حضانة الطفل إلى جدته لأمه، ثم إلى جدته لأبيه، وهؤلاء كلهم يأنس بهم الطفل، ثم إذا كبر الطفل وشب وصلب انتقلت حضانته إلى أبيه؛ لأن الأب أقدر على حمايته من مفارقات المراهقة ورفقة العابثين.

اللهم أدِّبنا بأدب القرآن، وأكرمنا بصادق الإيمان.

* * *

### من أحاديث الأحكام

## السحر والحسد

# باب في الحسد والنظر لما في أيدي الناس

من أجمل آداب المؤمن أنه لا ينظر إلى ما في أيدي الناس، ولا يهمه أن يملك إنسان مفاتيح كنوز الأرض، وألا يملك هو كفافه، هو يرجو ما عند الله ويراه قريبًا جدًّا، وهو يرى ما في أيدي العباد قسمةً إلهيةً لها حكمتها ولها قدرها.

ومن الناس من يكسب في يوم مئات الآلاف، ثم إذا جاء المساء بات منكفئًا بائسًا؛ لأن إنسانًا آخر كسب أكثر منه.. إنه عندئذٍ في همٍّ دائم؛ لأن مقسم الأرزاق لا إله إلا هو يقسم بحكمته، وليغضب من الجهلة من يغضب.

إذا أردت -يا أخي- أن تحس فعلاً بلذة الحياة وتخلو فعلاً من هموم أهل الأرض؛ فلا تنظر أبدًا إلى ما عند العباد من الرزق، وإنْ كنت لا بدَّ فاعلاً، فانظر في المال إلى من هم دونك، وانظر في التقوى وصالح الأعمال إلى من هو فوقك، فذلك أدنى أن يخلص قلبك من شوائب الحسد، ويصفيها من درن الحقد، وهناك تحس بالهناء ويبتعد عنك الشقاء.

إنَّ الذي ينظر إلى ما في أيدي الناس، ثم يقابل نعمة الله بالإنكار وبالتغيظ، أقول: إنَّ مثل هذا المخلوق هو أتعس كائن على وجه البسيطة، ثم هو قبل هذا وبعد ذلك أقل الناس أدبًا؛ لأنه ناقم على ربه خانق على قضائه وقدره، وكأنه يريد من الرب ﷻ أن يجعل عطاءه وفق هوى الحاسدين، فلا يعطي ولا يمنع ولا يبسط ولا يقبض إلا كما ترسم أهواء الحساد.

لقد قيل قديمًا: إنَّ الحسد جريمة عادلة، وأنه داء منصف؛ لأنه يبدأ بصاحبه فيشقيه، ويسقم جسمه ويحرمه نومه ويسلبه سعادته وهناءه ويملأ نفسه كربًا يورثها شبه السلال (هو مرض يصيب الرئة يورث صاحبه الهزال ويقتله)، ثم هو في كثير من الأحوال لا يصل إلى المحسود، وفي هذا يقول ربنا ﷻ عن حساد المؤمنين من المنافقين في سورة «آل عمران»: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، ويقول في الآية التي قبلها: ﴿هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

إنَّ أصحاب النفوس الوضيئة والأصول الكريمة إذا رأوا نعمة على إنسان يستحقها من عبقرية أو مال أو بنين، قالوا: ما شاء الله، ودعوا له بظهر الغيب أن يزيدها الله ويباركها، ثم هم يعجبون بالنبوغ والعبقرية ويكبرونها، ويحترمون صاحبها، ويحاولون الإشادة بمواهبه ونشر فضائله، أما ذوو النفوس السوداء؛ فإنهم إذا وقعت أعينهم المسمومة على ذي نعمة شعروا كأنها طعنوا في قلوبهم، فيتمنون في الحال زوالها، ولكن إرادة الله ليست طوع إرادة الحاسد، وهنالك يكتب الحاسد عجزه؛ لأنه لا يستطيع التشفي، وعندئذٍ ينقل العجز حسده إلى باطنه، فينقلب في قلبه حقدًا، ولا يزال ذلك الحقد ينمو في نفسه حتى يصبح قلبه مستودع حقد، ويصبح حقده علامة واضحة على خبث باطنه، فتراه في الناس مستثقلاً بغيضًا ينفر الناس من حضوره، ويتمنون لو يغيب وجهه عنهم إلى الأبد.

وقد أمرنا ربنا ﷻ أن نستعيذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد، والمفسرون يرون في الآيات الكريمة مقابلة لطيفة؛ إذ نحن نستعيذ برب النور المنفلق من الفجر من ظلمة الحسد الكارهة للنور والجمال والنعمة، وقد فسَّر الأشياخ شر الحاسد بأنه منه شرًّا ظاهر وشرًّا خفيًّا، أما الشر الظاهر فهو أن الحاسد حين يمتلئ صدره قيحًا وغيظًا، فإنه قد يتآمر على المحسود، وقد يخطط لإيذائه، وقديمًا حسد قابيل هابيل فقتله، وحسد إبليس آدم عليه السلام فأخرجه من الجنة، وحسد يوسفَ عليه السلام إخوته فألقوه في الجب، وحسد اليهود العرب حين انتقلت إليهم النبوة، فعاشوا على الكيد للإسلام، والحقد على المؤمنين، حتى لقد دسوا السم في ذراع الشاة وهموا بإلقاء حجر من أعلى لقتل رسول الله ﷺ، وحسد أحدهم رسول الله ﷺ فسحره.

أما الشر الخفي، فقد أثبتته التجارب، وخلاصته أن عين الحاسد لها مجال من السُّم كالمجال المغناطيسي، فإذا وقعت بسمها على ذي نعمة، فإنها قد تؤثر فيه، وكلُّ شيء بقضاء الله وقدره، وقد شاع في القبائل حسدة معروفون يسلطون أعينهم على النعمة، فتطرح بقوة شرها البازل من الجمال، والمسوم الملهم من الخيل، وفي كتب الأدب قصص عجيبة عن هؤلاء.

جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب -أو قال: العشب»، وجاء عنه ﷺ أنه قال يومًا لأصحابه: «يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة»، فطلع رجل فسئل عن عمله (يعني ذلك العمل الذي أدخله الله ببركته الجنة). فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا على خير أعطاه الله إياه، وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة، أما إني لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

هذا والحسد المحرم هو أن تتمنى زوال نعمة أخيك أو ترى لظالم نعمة، فتتمنى أن تكون مثله كالذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، أما إذا رأيت غنيًا كريمًا محسنًا، فتمنيت أن تكون مثله كثير المال كثير الإحسان؛ فهذه غبطة وهي حلال، وهذا ما يشير إليه الحديث الذي رواه الشيخان: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة (أي: العلم النافع)، فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق» (أي: أنفقه في وجوه الحق والخير). وأكثر ما يقع الحسد في الجيران؛ لأن الجار يطلع على نعمة جاره، ولهذا كره عمر ﷺ للأقارب أن يتجاوروا، فكتب إلى أبي موسى ﷺ حين خطط البصرة (وأمر ذوي القرابات أن يتزاوروا لا أن يتجاوروا).

هذا وأعظم دواء للحسد هو أن تؤمن بحكمة الله في قسمة الأرزاق، وأن تذكر أن كل حطام إلى فناء، وأن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا، وأن تصرف تفكيرك إلى نفسك بدلاً من مراقبة الناس، وأن تنظر في أمور الدنيا إلى من هم دونك، وفي أمر التقوى إلى من هو فوقك، وأخيرًا أن تثق مما عند الله، وتيأس مما عند المخلوق، وإذا خفت الحاسدين فأكثر من قراءة سورة «الإخلاص» والمعوذتين، واستكثر من صنائع المعروف.

## منهج الإسلام إزاء النجوم والسحر والكهانة

بعث رسول الله ﷺ في أمة كان فيها للعرافة والتنجيم والسحر والكهانة شأن عظيم، وقد ظلت ذيول هذه الأمور تشغل عقول بعض الناس حتى بعد أن محا الإسلام ظلام الخرافة وحل منطق العقل مكان الشعوذة، وقد كان العرَّاف في كثير من الأحوال يُطلبُ عنده معرفة

الحقيقة وجلاء الشكوك، وقد يطلبون على يديه الشفاء من الأدواء، وفي هذا يقول مجنون بني عامر:

أقـــول لعـــرَّاف اليمامـــة داوني فإنّـــك إن داويتنـــي لطبيـــب

ويقول عروة بن حزام:

جعلـــت لعـــرَّاف اليمامـــة حكمـــه وعـــرَّاف نجـــد إن همـــا شـــفياني

وقرأنا في القصص الجاهلي أن هند بنت عتبة وهي أم معاوية ﷺ كانت متزوجة قبل أبي سفيان من رجل آخر، فاتهمها أنه رأى رجلاً يخرج من خبائها في غيبته، فغضبت غضبة عارمة وطلبت منه أن يذهبا إلى عراف نجد ليتأكد من براءتها لديه، ولما وصلا إلى ذلك العراف عقد لهما مجلسًا قرأ فيه ورقى وعزم وانتفض قائلاً لها: قومي حصانًا غير زانية، وليكونن تحتك ملك يملك العرب، فنهضت معتزة وقالت لزوجها: أمَّا وسيكون تحتي ملك، فلن يكون من ذريتك، وطلقته في المجلس، ثم تزوَّجت بعده أبا سفيان، وسواء أكانت القصة صحيحة أم مبالغًا فيها، فإنها تكشف ما كان للكهانة والعرافة والسحر والشعوذة من منزلة عند عرب الجاهلية، وقد ظل التنجيم شائعًا حتى لدى بعض خلفاء المسلمين، فقد جاء في الأخبار أن المعتصم حين اعتزم غزو عمورية جمع المنجمين واستشارهم، فقالوا له: لا تغز في صفر ولا رجب، ولا قبل أن ينضج التين والعنب، لكنه خالفهم وغزاها قبل ذلك، وكان النصر وفتح الفتوح.

وقد عرض أبو تمام في قصيدته البائية تُرَّهَاتِ المنجمين وأضاليلهم فقال:

وَالعِلـمُ في شُـهُبِ الأَرمـاحِ لامِعَـةً بَينَ الخَميسَـينِ لا في السَّبعَةِ الشُّهُبِ

فَـتحٌ تَفَــتَّحُ أَبــوابُ السَّــماءِ لَــهُ وَتَــبرُزُ الأَرضُ في أَثوابِهـا القُشُـبِ

عَجائِبًــا زَعَمــوا الأَيّــامَ مُجفِلَــةً عَـنهُنَّ في صَـفَرِ الأَصـفارِ أَو رَجَـبِ

تِسعونَ أَلفًا كَآسادِ الشَّرى نَضِجَت جُلـودُهُم قَبـلَ نُضـجِ التـينِ وَالعِنَـبِ

إنَّ ديننـا الإسـلامي يقـيم سـلطان العقـل والمنطـق، ويهـدم منطـق الشـعوذة والخرافـة والدجل، ومن هنا فالتنجيم في الإسلام كـذب وحـرام، وفي الأثـر: «كـذب المنجمـون ولـو

صدقوا»، التنجيم في نظر الإسلام كفر والسحر كفر والكهانة كفر؛ لأن كل هذه يدعي أصحابها كشف مخبآت الغيب، والغيب لله، وهو ﷻ عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول، وهو الذي عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو.

وقد كثر في هذه الأيام الكلام عن الجن وإخراج الجن، وأمعن الناس في هذا الكلام حتى رأينا الألوف يفزعون إلى رجل يلتمسون عنده إخراج الجن، ووجد بعض المحترفين وسيلة للرزق حين روَّجوا لهذه الأراجيف؟

إنَّ من يقرأ سورة «الجن» يجدها خطبة رائعة بليغة على لسان نفر من مسلمي الجن، خلاصتها أن من الجن إخوانًا لنا مسلمين، وأن الجن لا ينفعون ولا يضرون بإذن الله، وأن الجن ضعف نفوذهم واستحرت فيهم الشهب الراصدة منذ بعثة محمد ﷺ، وأن الرسل محروسون من الجن برصد من الملائكة أمامهم ومن خلفهم.

وتقتضي التربية الإسلامية ألا يكثر المسلم من ذكر قصص الجن عند صغار أولاده؛ لأن ذلك لم يكن من مناهج السلف، وإذا عرض ذكر الجن؛ فعلى الوالد أن يذكر لصغاره بأن القرآن الكريم هو أقوى طارد يطرد الجن، وخصوصًا تلك الآيات التي تشتمل على كلمة التوحيد.

ومن مناهج التربية الإسلامية أن يتعلم النشء أن كل قضاء لله ﷻ تهيأ له أسبابه ووسائله، وأن الكهانة والعرافة والسحر لا يقع الصحيح فيها إلا بنسبة واحد في المائة، وهي نسبة لا يؤبه لها، يقول الله ﷻ في عجز كفار الإنس والجن عن مواجهة القرآن: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۞ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

[الإسراء: ٤٥- ٤٦].

- جاء في سنن أبي داود عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: **«من اقتبس بابًا من علم النجوم لغير ما ذكر الله، فقد اقتبس شعبة من السحر، المنجم كاهن، والكاهن ساحر، والساحر كافر»**.

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه بعد صلاة الصبح في الحديبية وكانت

قد أمطرت تلك الليلة، قال لهم -عليه الصلاة والسلام: قال الله -تعالى: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالنجوم، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي يؤمن بالكواكب**».

- وأخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**خلق الله هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير هذا؛ فقد أخطأ حظه وأضاع نصيبه، ويكلف ما لا يعنيه وما لا علم له به**».

- وفي الصحيحين أن النبي ﷺ سُئل عن الكهانة، فقال: «**ليس بشيء**». قالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثون أحيانًا بالشيء، فيكون حقًا، فقال: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطَفُهَا مِنَ الْجِنِّيِّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**».

- وفي الصحيحين أيضًا عن عائشة -رضي الله عنها- ما خلاصته أن رسول الله ﷺ سحر **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيءِ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ دَعَا ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ جَاءَنِي رَجُلاَنِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ. فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ أَوِ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قَالَ: وَجُبِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ». قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، والله لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلاَ أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: «لاَ أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ»**.

قصارى القول أن المسلم له أدب نبوي إزاء النجوم والسحر والكهانة؛ فهو أولاً: لا يؤمن بالتنجيم ويعده كذبًا وتخرُّصًا، وهو ثانيًا: يؤمن بالسحر وحدوثه، لكنه يحل السحر بالقرآن وخاصة بالمعوذتين، ثم هو ثالثًا: يؤمن أن الساحر والكاهن كافران، فيحتقرهما، وعلى الجملة فالمؤمن من يعيش ضمن منطق العقل ولا يذهب مع أي دجل أو خرافة، وهو يكل الأمور إلى الله ويرضى بقدره، وأن العبيد لا يضرون ولا ينفعون إلا بأمر الله مشيئته.

## النهي عن إتيان السحرة والمشعوذين

من آداب المؤمن احتقار كل منجم أو مشعوذ أو عراف يدعي علم الغيب، وذلك لأن الغيب لله وهو ﷻ عالم الغيب، مفاتحه بيده لا إله إلا هو، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

المؤمن يؤمن بالقرآن الحكيم، ويعتقد أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والقرآن الكريم أعلنها صراحة أن الغيب لا يعلمه إلا الله، قال الله -تعالى- في سورة «الأنعام» قولاً حقًّا جازمًا استعمل فيه أسلوب القصر أو الحصر: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الإسلام دين العقل يكره الخرافة ويحاربها ويرد الأمور إلى العقل والمنطق والأسباب إلى مسبباتها، ويعلمون أن كلَّ شيء يتم بقدر الله، وإذا قدَّر الله أمرًا هيَّأ له الأسباب.

إنَّ بعض النساء والرجال يضيعون كثيرًا من جهدهم وأوقاتهم في التردد على المنجمين والمشعوذين والعرافين، ويروون قصصًا عن كشفهم للغيب ومعرفتهم في مجال العرافة وكشف السرقات والسحر والعمل الذي يفرق بين المرء وزوجه، وأخيرًا يتضح أن كل أعمالهم دجل، وأن صدقهم إذا صدقوا يكون بالحدس، ولهذا فالمنجمون كاذبون ولو صدقوا.

ولقد حذَّرنا رسولنا ﷺ أن نخرب عقولنا ونضيِّع أوقاتنا في التردد على أهل الكهانة والعرافة والشعوذة والطيرة؛ لأن التردد على هؤلاء شرك لما يحمله من عدم الثقة بالقدر والاعتقاد بأن عبيدًا مقصرين يعلمون الغيب، والغيب لله لا إله إلا هو، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل صلاته أربعين يومًا»**، وفي سنن أبي داود وسائر السُّنن أن رسول الله ﷺ قال: **«من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل الله على محمد ﷺ»**، وفي سنن أبي داود وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: **«من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر»**.

والمقصود بعلم النجوم المحرم ما يدعيه أهل هذا العلم من علم المستقبل زاعمين أن

النجوم أوحت لهم بذلك، فمن تنبأ بمجيء المطر أو هبوب العواصف أو سقوط الثلج مدعيًا أنه علم ذلك بأحوال النجوم، فهو مشرك وكذاب، ومن قبيل هذا ما ينشره في كل عام أحد الأدعياء ويسمِّي نفسه الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية، ثم مدعيًا أنه استقى معلوماته من رؤيا رأى فيها رسول الله ﷺ، ثم لا يفتأ أن يتمخض كلامه كل عام عن أضغاث فاسدة.

أما علم النجوم المبني على مشاهدات علمية وتجارب تطبيقية وأدوات لقياس الحرارة والضغط والرطوبة وحركات الشمس؛ فهذا العلم مفيد قد نعرف به القبلة وإمكانية المطر والفيضان ومواعيد الصلوات، وهذا -والله أعلم- ليس به بأس.

هذا، وقد نهى الإسلام عن الطيرة وهي التشاؤم ببعض حركات الطير وأنواعه، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**الْعِيَافَةُ وَالطِّيَرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجِبْتِ**» (أي أنها من الشرك)، والعيافة الخط في الأرض يزعم أنه يعرف به الغيب، والطرق رمي الطير بالحصا ليعرف اتجاه ميمنة أو مشأمة.

وإنما حرَّم الإسلام السحر؛ لأن الساحر يدعي علم الغيب، كما أن التشاؤم هو استباق لقضاء الله، وربما تشاءم العبد من أمر، و الخير كل الخير فيه، يقول الله -تعالى- في سورة «النساء»: ﴿**فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾.

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يرجع المرء عن سفره إذا تشاءم من تلك السَّفرة، قال رسول الله ﷺ: «**لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع من سفره تطيرًا**».

ولقد حرَّم رسول الله ﷺ الرُّقى والتمائم والتولة، وعدها شركًا، جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الرقى والتمائم والتولة شرك**»، والرقى ما يقرأ على المريض من العزائم ليشفى، والتمائم ما يعلق على المريض من خرز أو حجب، وقد رخَّص بعض الأشياخ في الرقى إذا كانت من القرآن الكريم والدعاء الثابت المأثور، وإنما حرمت هذه الأشياء؛ لأن الإيمان بها يترتب عليه أن يعتقد الإنسان أن هذه الأمور قد تؤثر في مجرى القدر.

كما أن الإنسان إذا ردته الطيرة عن نية سفره، فقد استبق القضاء، واعتمد على ظن لا سند له، يقول رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ**» قالوا: يا رسول الله، وما كفارة ذلك؟ قال: «**أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ، وَلاَ طَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ، وَلاَ**

إِلَهَ غَيْرُكَ»، وفي صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلا وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»، وهكذا يبيِّن رسول الله ﷺ أن الطيرة داءٌ قد لا ينجو منه إنسان، ولكن عظمة التوكُّل على الله تذهبه.

والغريب أن كثيرًا من خلفاء المسلمين كان لهم اعتقاد في المنجمين، فيجمعون حولهم من يدَّعون علم النجوم ويستشيرونهم، فإذا أراد أحدهم أن يشعل حربًا، كما فعل الخليفة المعتصم حين أراد فتح عمورية الظالمة المعتدية، فجمع المنجمين واستشارهم فطفقوا يكذبون، ويفترون على الأبراج، حتى لقد قال كبير أولئك المنجمين: لن يكون فتح في صفر الأصفار، ولن يفتح عليكم في رجب، إلا بعد نضج التين والعنب، لكن الله فتحها على المعتصم في صفر، وخيَّب ظن المنجمين، فقال في ذلك أبو تمام:

عَجائِبًا زَعَموا الأَيّامَ مُجفِلَةً ... عَنهُنَّ في صَفَرِ الأَصفارِ أَو رَجَبِ

ثم قال:

تِسعونَ أَلفًا كَآسادِ الشَّرى نَضِجَت ... جُلودُهُم قَبلَ نُضجِ التينِ وَالعِنَبِ

***

# من أحاديث الأحكام

## آداب عامة

## النظافة والطهارة

اهتم الإسلام بالنظافة والطهارة حتى لقد جعلها عبادة يحبُّ الله من يحرص عليها، فقال -جلَّ من قائل: «**إنَّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**»، بل لقد جعل الوضوء وتنظيف الأعضاء الظاهرة شرطًا لصحة الصلاة، فما يجوز للعبد أن يصلي لربه إلا إذا اغتسل إنْ كان جنبًا وتوضَّأ إنْ أحدث حدثًا أصغر، وسنَّ للمسلمين سنن الفطرة، وهي الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب، وإعفاء اللحية، وإكرام الشعر الغزير الوافر، وترك الشيب (أي: عدم نتفه)، وخضاب الشيب بالحناء والكتم والتطييب بالمسك أو أي طيب ذكي الرائحة يشرح الصدر، وكلها كما يتضح مما يوفر النظافة والجمال.

**وهذه أحاديث شريفة حول هذه الأمور نوردها ثم نستنبط ما فيها من أحكام:**

- جاء في سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**حبِّب إليَّ الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

- وروى الترمذي أربعة أحاديث في هذا الباب:

الحديث الأول: «**إنَّ الله طيبٌ يحبُّ الطيب، نظيف يحبُّ النظافة، كريم يحبُّ الكرم، جوادٌ يحبُّ الجود؛ فنظفوا أفنيتكم، ولا تتشبَّهوا باليهود**».

والحديث الثاني: «**إذا أعطي أحدكم الريحان فلا يردّه؛ فإنه خرج من الجنة**».

والثالث: «**ثلاثة لا ترد: الوسادة، والدهن، والطيب**».

- وروى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ كان يتطيب بالمسك والعنبر.

وفي صحيح مسلم أن أبا هريرة ﷺ لقيته امرأة، فوجد منها ريح الطيب، فقال لها: «**يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟** قالت: نعم. فقال لها: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تقبل**

**صلاة امرأة تطيبت للمسجد حتى تغتسل غسلها من الجنابة»**، وفي رواية: «**إذا استعطرت فمرت على القوم ليجدوا ريحها**».

- وروى مالك والنسائي عن أبي قتادة الأنصاري ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: إن لي جُمَّةً (أي: شعر طويلاً) أفأرجلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم وأكرمها**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ رأى غلامًا قد حلق بعض رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك، وقال: «**احلقوا كله أو ذروا كله**»، وفي الصحيحين أنه ﷺ نهى عن القَزَع.

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم خليل الرحمن بعدما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**خَالِفُوا المُشْرِكِينَ، وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ**».

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**خمس من الفطرة: الاستحداد، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر**».

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان له شعر؛ فليكرمه**».

- وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ قال: «**كنا نكره أن ينتف الرجل الشعرة البيضاء من رأسه ولحيته**».

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اليهود والنصارى لا يصبغون؛ فخالفوهم**».

**أولاً**: يحرص الإسلام على نظافة المسلم بحيث لا يرى منه جليسه إلا ما يراه من الوردة المتفتحة المنظر الجميل والشذا العطر، ومن ثم فالإسلام سنَّ سننًا في النظافة كلها تهدف إلى تنظيف الأعضاء الظاهرة والاعتناء بمغابن الجسد ليكون طاهرًا وضيئًا نظيفًا في ظاهره وباطنه، ولتتناسب نظافة جسمه وأعضائه مع وضاءة قلبه وصفائه؛ فلا يبقى على جسمه درن، ولا يشوه صحيفته ذنب.

**ثانيًا**: الطيب مما يشرح الصدر ويسر النفس ويمتع الجليس، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على التطيب وبخاصة إذا أراد مقابلة الناس أو دخول المسجد، والمرأة المسلمة أيضًا

يسن لها الطيب لتسر زوجها وتمتعه بشذاها، لكن الطيب يصبح إثمًا على المرأة إذا تطيبت وخرجت إلى الشارع ليشم الرجال طيبها هذا، وإذا أهدي إليك طيب أو باقة أزهار فلا تردها.

**ثالثًا**: إذا كان لك شعر طويل؛ فمن السُّنة أن تكرمه بتنظيفه وغسله وتمشيطه، بحيث لا تبدو للناس أشعث وسخ فروة الرأس، فذلك مما يصيب رأسك بالقشرة، وقد يتطور إلى أمراض جلدة الرأس.

**رابعًا**: من سنن الفطرة الاستحداد، وهو إزالة شعر العانة، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، ويمكنك إزالة شعر العانة والإبط بأي وسيلة كالحلق والنتف والنورة أي: مزيلات الشعر المختلفة، وعليك أن تتعهد نفسك بهذه الأمور في وقتها بحيث لا يفحش الشعر، فيمنع وصول الماء إلى البشرة، ويفسد رائحة الموضع.

**خامسًا**: في حلاقة الشعر احلقه كلَّه أو اتركه كُلَّه، وقد كان عرب الجاهلية ربما حلقوا بعض شعر الطفل وتركوا وسط الرأس أو العكس، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وهو ما يسمَّى القزع.

**سادسًا**: لا يقرب الزوج زوجته إذا حاضت أو نفست حتى تغتسل وتتطهر، وهذا في صالح المرأة والرجل؛ لأن الحيض أذى ودمه كريه الرائحة، وربما إذا شمَّ الزوج بقايا الحيض كره زوجته.

**سابعًا**: من سنن الفطرة توفير اللحى وحلق الشوارب؛ لأن الشوارب تحت الأنف وإطالة الشوارب قد يعرضها أن يتسخ بإفرازات الأنف، ولذا يقص من الشاربين ما تحت فتحتي الأنف، أما اللحية فتتعهد بالتخليل والنظافة والطيب.

**ثامنًا**: خضاب الشيب من السُّنن المستحبة، ويكون الخضاب بالحناء والكتم؛ لأن الحناء طيبة الرائحة، ويجوز أن تخضب بالأصباغ المختلفة بحيث يتراوح اللون بين الحنائي والأصفر، أما الأسود فمكروه.

**تاسعًا**: إذا طلع الشيب في رأسك ولحيتك، فلا تنتف الشعرة الشائبة؛ لأنها مظهر وقار،

وجاء في الحديث: «إنَّ الله ليستحي أن يعذب شيبة شابت في الإسلام».

وأخيرًا فالختان من سنن الفطرة؛ لأنه أضمن لنظافة الموضع وتخفيف المتعة، وهو واجب على الذكور ومستحب اختياري للإناث، بحيث لا يوغل فيه، ويسن أن يكون ختان الولد في سابع يوم من ولادته.

## الإسلام دين النظافة

قبل بضعة أيام دعت الدولة المواطنين أن يشاركوا في أسبوع النظافة، ويتعاونوا مع الجهات المختصة في الحفاظ على نظافة الشوارع والأحياء والحدائق، والمملكة تشارك عالميًا في هذه الأسابيع؛ لأنها تراها أساسًا من أوامر الإسلام ومقاصده، تشارك المملكة في أسبوع الشجرة، ومحو الأمية، وأسبوع المرور، وأسبوع الشباب؛ لأن الزراعة والتعليم والتنظيم ورعاية الشباب كل هذه من أوامر شريعتنا الحكيمة، ومن مقاصدها الكريمة، ولكن شيئًا واحدًا أحب أن ألفت نظر الإخوة القراء إلى أن الإسلام أقر هذه الأمور وقرَّرها ودعا إليها منذ أربعة عشر قرنًا، ولم يجعل لها أسابيع مخصصة، وذلك لأنه جعل الفضائل من ضمن حياتنا اليومية.

إنَّ النظافة والطهارة ليس لهما في الإسلام أسبوع معين؛ لأن النظافة أمر مهم من أوامر الإسلام يكرره المسلم خمس مرات في اليوم والليلة.

إنَّ النظافة في لإسلام عبادة عظيمة وشرط لصحة أعظم العبادات (أعني الصلاة) فلا صلاة بدون نظافة أو طهارة، ومن هنا فأسبوع النظافة الذي عند المؤسسات الدولية يذكر الشعوب بالنظافة في العام مرة، أما النظافة في الإسلام فأسبوعها في الإسلام يتكرر كل يوم خمس مرات.

لقد جاء الإسلام كما هو معروف في ظلمات العصور الوسطى، وكانت المجتمعات الإنسانية في أبأس أحوالها الحضارية والعمرانية، والناس كلهم يرزحون في أغلال الإقطاع والاستبداد والطبقية والجهل والفقر والمرض، فانبرى لمحاربة كل هذه الآفات، وحارب

طبائع الاستبداد والتمييز والجهل، وفي حين فاخرت راهبة مسيحية بأن الماء ما لامس جلدها منذ عرفت نفسها.

أعلن الإسلام أنه دين الطهارة ودين النظافة ووصف عمار مسجد قباء بأن الله يحبهم؛ لأنهم يتطهرون، والله يحب المتطهرين.

لقد ربط الإسلام ربطًا وثيقًا بين الطهارة والنظافة، وبين حركات الجهاز الهضمي والجهاز التناسلي؛ فالخارج من السبيلين يجب أن تعقبه طهارة، فهنالك الحدث الأكبر الذي يرفع بالغسل والحدث الأصغر الذي يزال بالوضوء حتى الريح المنبعثة من المعدة إلى مخرج الغائط توجب الوضوء، وذلك لأنها لا تخرج إلا والمعدة متعبة بالغازات، فلا بدَّ إذن أن يتخلص منها، وكان رسول الله ﷺ أحرص ما يكون على نظافته وشذاه، وكان الطيب من أحب ما يحبه، وكان يحثُّ على السواك ليضمن نظافة الأسنان وبياضها، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كلِّ الصلاة**»، ويقول ﷺ: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**».

وقد حثنا -عليه الصلاة والسلام- ألا نكتفي في الوضوء والغسل بغسل ظواهر الأعضاء، بل نتخلل عند غسل الأصابع واللحية والمغابن، وذلك لتزول كل الأوساخ وروائحها من جميع الأعضاء، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني: «**تخللوا؛ فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة**».

وقد جعل الإسلام النظافة حقًّا من الحقوق المترتبة على المؤمن، فقد روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده**»، وفي رواية لأحمد: «**حق على كل مسلم الغسل والطيب والسواك يوم الجمعة**».

ولتكون بيوت الله واجهات أمامية للذوق الإسلامي منع رسول الله ﷺ أن يقربها من أكل بصلاً أو ثومًا، ومنع أن يبصق في ساحاتها، أو أن يمر بها في داخلها من يحمل لحمًا نيئًا، وأمر بتنظيفها وتطييبها ليكون منظر المسلمين في مساجدهم جميلاً، وليكون شذاهم عطرًا.

ولقد أنكر الرسول ﷺ على اليهود ما كان شائعًا من وساخة أحيائهم، فقال للأمة الإسلامية فيما رواه الترمذي: «**إنَّ الله طيب يحبُّ الطيب، نظيف يحبُّ النظافة، كريم يحبُّ**

**الكرم؛ فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»**.

إنَّ سنن الفطرة التي سنها لنا الله وحثنا عليها رسوله ما هي إلا ألوان من النظافة؛ فالختان يقطع القلفة التي يمكن أن تحجب أوساخًا، والاستحداد وحلق العانة يسهِّل تنظيف هذه المنطقة التي هي بيئة مهيئة لتكاثر المكروبات، ومثلها نتف الإبط؛ لأن الإبط مغبن، وأكثر ما يؤذيك ممن لا يصلون روائح آباطهم، ومن سنن الفطرة تقليم الأظافر حتى لا تمسك في داخلها أوساخًا خصوصًا وأن الطعام يلامس الأظافر دوامًا، ومن سنن الفطرة قص الشوارب؛ لأنها فوق الفم وتحت الأنف، وعلى كلتا حالتيها تتعرض لفضلات الأنف وفضلات الطعام أثناء الأكل؛ ففي قصها احتراس من الأوساخ، ومن سنن الفطرة إكرام الشعر بمداومة غسله ودهنه وتسريحه وترجيله، فقال فيما رواه أبو داود: «**من كان له شعر فليكرمه**»، ومن سنن الفطرة كما أسلفنا التطيب حيثما أمكن ذلك، ولعل الأخ القارئ قد لاحظ أن جميع سنن الفطرة احتراسات من الأوساخ الجالبة للأمراض.

إنَّ الوضوء وهو فريضة لا تصلح الصلاة بدونها -من أهم العبادات في الإسلام، قال - عليه الصلاة والسلام: «**إذا توضأ العبد فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع آخر قطرة من الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه حتى تخرج، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشت إليها قدماه**».

وقد فرض الإسلام الغسل بعد الجماع وبعد انقطاع الحيض والنفاس وللكافر إذا أسلم؛ لأن كل أولئك تحتاج إلى إزالة الروائح والنجاسة، وجعل هناك أغسالاً مستحبة كغسل الجمعة والعيدين والإحرام ودخول مكة وغسل الوقوف بعرفة، وعلى الجملة فإن اهتمام الإسلام بالنظافة لا حصر له، فالطهور نصف الإيمان.

وما دمنا في أسبوع النظافة فإني أذكر إخواني بما أنعمه الله على هذه الديار من غنى مكَّنها من صيانة ونظافة الطرق والمرافق والأحياء، وما أجمل أن ينتشر الوعي النظافي بين المواطنين، فلا يرى مواطن يلقي بالقذي في الشوارع، أو يرمي علب الشراب من سيارته، أو يفتح على الطريق مجاريه، أو يقذي العيون والأنوف بمنظر زبالته ورائحتها؛ ليتم التعاون على الخير، ويرى الله عملنا ورسوله والمؤمنون.

## النظام والانضباط

من آداب المؤمن أنك تراه دوامًا نظاميًّا في عمله، يحبُّ النظام ويحترمه، ويكره المخالفات ويزدريها، فلا تراه يومًا متسببًا أو متسللاً من عمله، ولا تراه يومًا متأخرًا عن موعد دوامه، وذلك لأنه يرى الواجب أمانة ومسئولية مقدسة، ويرى نفسه راعيًا مسئولاً عن أصول عمله وعن إنجاز ما يوكل إليه من ولاة أمره، وتراه على كافة أحواله مخلصًا ومتقنًا؛ لأن ربه أمره بالإخلاص ونهاه عن الغش، ولأن ربه ﷻ يحبُّ إذا عمل المسلم عملاً أن يتقنه، ويحبُّ من كل عامل أن يتحلى بالسمع والطاعة، ومعناهما تنفيذ النظام، جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره**»، وفي الحديث المتفق عليه أيضًا عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا (أي أن المسلم يكون سامعًا مطيعًا ولو رأى في المسئول عنه أنانية وأثرة؛ لأن كل إنسان محاسب على عمله بين يدي ربه)، وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

ومن هنا إذا غدوت إلى موظف تراجعه في مصلحة فلم تجده في مكتبه، وقيل لك: إن دوامه في السابعة والنصف، ولكنه لا يحضر إلا في التاسعة؛ فاعلم أن هذا الموظف قد خالف أمر ربه، وباء يوم القيامة بذنبه، وأنه ما قدر الواجب حق قدره، وإذا نصحته سرًّا وبالمعروف، فقال لك: اذهب واشتك إلى المدير؛ فاعلم أنه عندئذٍ ممن قال الله فيهم: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وبهذا المقياس فإن كل مسلم يولع بالخروج على النظام والتهاون بتعليمات المسئولين يعتبر غاشًّا لمجتمعه المسلم، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني**»، ويشير هذا الحديث الكريم أن الحاكم المسلم إذا سنَّ قانونًا مما فيه تنظيم الدولة ومصلحة الرعية كقانون وقت الدوام أو استقدام العمال أو تنظيم المرور يصبح هذا النظام كأنه تشريع من عند الله؛ لأن طاعة أولي

الأمر مطلب يفرضه الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن ثمَّ؛ فالذي يستقدم عددًا كبيرًا من العمال ولا مؤسسة له، ثم يطلقهم في الشوارع خارجًا على أنظمة العمل والاستقدام.. والذي يتولى مهنة التعليم ولا يرسم القدوة الصالحة.. والذي يتصدر للوعظ وهو جاهل يخبط بغير علم.. والذي يطلب وظيفة وهو ليس لها بكفء.. كأن يطلب وظيفة خبير في المقاولات المعمارية وهو لا يتقنها.. والطالب الذي يتسيب من المدرسة ويتسلق الجدران كالقطة المروعة ليفر من المدرسة، وينضم إلى شرذمة مثله ليتسكع في السوق، والطالب الذي يحضر إلى مدرسته، وهو لم يؤد واجباته ولم ينصت إلى شرح أستاذه.. والطالب الذي يعيث في نظام الفصل، وينحاز إلى المشاغبين.. والطالب الذي يتأخر عن الدوام ولا يحضر صفوف الصَّباح.. أقول: كلُّ أولئك ينكر الله عملهم، ويستنكر سلوكهم، ويبيح للمسئولين عقوبتهم وإهانتهم امتدادًا من الكلمة العاتبة إلى طردهم من حرم العلم الطهور الوضيء، كما يطرد الكلب من المسجد، وذلك لأن هؤلاء خالفوا نظام السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام على كلِّ امرئ مسلم يتشرف بالانتماء إلى المجتمع الإسلامي الكريم.

ومثل هؤلاء الجندي الذي يكسر الأوامر النظامية، فلا يبكر إلى تدريباته، ولا يلتزم بواجباته، ولا يراعي آدابه وتنظيماته.. إنه حينئذٍ خارج على فضيلة السمع والطاعة جدير بالعقوبة الرادعة التي فيها نكال وعبرة.

لقد لاحظت أثناء عملي في مهنة التعليم أن الطلاب المجتهدين المؤدين لواجباتهم يكونون دوامًا أصحاب أخلاق ودين وعبادة واستقامة، وأن الطلبة المهملين المقصرين في عملهم العابثين في فصولهم هُم الذين لا خلاق لهم من الرجولة، ولا نصيب لهم من الدين والأخلاق، وأذكر قبل أيام أنني سألت عن عدد ممن علَّمتهم وطال عني غيابهم، فعرفت من مجرى أحوالهم أن أكبرهم جدًّا واستقامةً ونظامًا في المدرسة ظلَّ في حياته أكثر زملائه نجاحًا وتوفيقًا واحترامًا، وأن الذين كانوا يحاولون إفساد النظام وإهمال الواجب ظلوا في الحياة يلاحقهم الإخفاق ويحالفهم الضياع.

هذا، ولعلك لو تفقدت أحوال سائقي السيارات لوجدت أمر النظام في قطاعهم أمرًا خطيرًا تتوقف عليه حركة العباد وحياتهم، وفي هذا الحقل تتجلى لك نقائض وعجائب ومفارقات، فمن سائقي السيارات من تراه ملاكًا حريصًا على أرواح مواطنيه منصفًا لهم محترمًا لحق الطريق، وإذا أخطأ اعترف بالحق وأبى أن يظلم.. مثلُ هذا المواطن النظامي إذا بحثت في أخلاقه وجدت روح الإسلام وروح الإيمان.

أما النوع الآخر من السائقين؛ فتراهم إخوانًا للشياطين همه إفساد الشارع وإزعاج المارة والاستهتار بحياتهم وحياة إخوانهم، وترى بينهم فئة من صغار الشباب ضلَّ سعيه وساء عمله وكثير من هؤلاء من يجر على أهله ويلات حين يرونه لسوء سوقه في غرفة الموتى أو الإنعاش، وقد تكسرت عظامه أو يرونه في غيابة السجن حين قضى على حياة غيره، وفي كل أحواله تراه وقد خسر الدنيا والآخرة.. ذلك هو الخسران المبين.

إنَّ من يكسر أنظمة الدولة، فقد أساء إلى دولته وسلطانه، وهذا عند الله إثم عظيم، جاء في سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**من أهان السلطان أهانه الله**»، وإهانة السلطان هي الخروج على الأنظمة النافعة التي يسنُّها لمصلحة الشعب.

إنَّ من المفروض أن يكون كل مواطن لسلطانه بيعة في عنقه يطيعه بها، ويحرص على خير وطنه، وفي الحديث الذي رواه مسلم يقول رسول الله ﷺ: «**مَن خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة، ولا حجة له**»، وفي الحديث المتفق عليه: «**من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية**»، وفي الحديث الذي رواه مسلم: «**مَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ**».

إنَّ المسلمين يد واحدة وصف متحد على الخير والنظام والحق، والشاذ يشذ في النار؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي: «**يد الله مع الجماعة، ومَن شذَّ شذَّ في النار**»، وفي صحيح مسلم: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية**»، وفي فضيلة أداء الواجب يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني: «**الْعَامِلُ إِذَا اسْتُعْمِلَ فَأَخَذَ الْحَقَّ وَأَعْطَى الْحَقَّ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ**».

## من أحاديث الآداب

# من آداب الطعام والشراب

الطعام والشراب واللباس نعم إلهية جليلة أنعم الله بها علينا، والنعمة تزكو وتزيد بالشكر والاعتدال، بينما قد تزول بالبطر والسرف، والمؤمن له آداب يلتزمها وأصول يتمسك بها إزاء طعامه وشرابه، وهي آداب يستقيها من المنابع الوضيئة الأصلية لشريعتنا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

١- الطعام والشراب وسيلتان وليسا غايتين هما وسيلتان لحفظ الحياة ومتعة الصحة، فمن اتخذهما غاية فهو عندئذٍ كما قال الله -تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

إنَّ الجسم الإنساني أشبه بالآلة الدقيقة المعجزة هذه الآلة لها مضخة وعدة أجهزة فنية عجيبة، المضخمة تعمم الدم النقي على جميع أجزاء الجسم، ثم تقوم بعملية صرفه لينقى مرة أخرى، والأجهزة تنظم حركات الجسم وحواسه كالجهاز التنفسي والجهاز الهضمي والجهاز البولي والجهاز التناسلي والأجهزة السمعية والبصرية والعصبية وغيرها، وتشغيل هذه الأجهزة يحتاج إلى طاقة، والطاقة توفرها الوحدات الحرارية التي تكمن في الطعام والشراب، والمعدة تقوم بهضم هذه الطاقة وإرسالها إلى مصانع الجسد لتكررها، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾.

٢- الطعام والشراب سلاح ذو حدين، فبينما هما سبب الحياة واستمرارها إذا هما سبب الموت ومفاجأته.. إنَّ معظم المرضى جاءتهم أمراضهم وأدواؤهم من إفراطهم في المطاعم والمشارب، وعلى الجملة فإن الإسلام أحل للمسلمين كل طعام طيب مفيد، وكل شراب سائغ هنئ نافع، ولكن الطعام مهما ساغ ولذَّ؛ فإنه مع الإسراف يضر ويؤذي، ولقد يكون مرض التخمة أكثر من مرض الجوع وأمراض القرحة والحموضة والتهاب الغشاء الداخلي للمعدة هي من أشيع الأمراض، بل ومن أشنعها، ومن هنا قال المفسرون: إنَّ آية من كتاب الله -تعالى- أغنت عن الأطباء، ورسمت طريق السعادة والشفاء ألا وهي قوله -تعالى- في

سورة «الأعراف»: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وقال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن ماجه: **«إنَّ من السرف أن تأكل كلما اشتهيت»**، ويقول -عليه الصلاة والسلام- في الحديث الذي رواه الترمذي: **«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**.

ولقد تفنَّن الناس هذه الأيام في صنوف الطبخ والحلوى واللحوم والمشويات، فاكتظت على إثر ذلك المستشفيات والمستوصفات والعيادات بمرضى يعانون من أمراض لم يعرفها من كانوا قبلنا على الرغم من ضآلة مطاعمهم ومشاربهم، وأول ما يفعله الطبيب في هذه الأيام أن يمنع المريض عن أطعمة كثيرة وأشربة، وأن يحدد له نظامًا قد لا يأكل بموجبه ربع ما كان يأكله، وقديمًا قال الشاعر:

**غضال الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب**

٣- هذا، وللطعام عادات يلتزمها المؤمن سواء أكل وحيدًا أو كان ضيفًا أو مضيفًا، وهذه الآداب يلتزمها المسلمون صغارهم وكبارهم، وحسبك أن العرب يسمون الوليمة والدعوة إلى الطعام مأدبة لما يكون فيها من أدب حين يجلس القوم حول المائدة، وكان رسول الله ﷺ من يتولى أمرهم من الأطفال، روى عمر بن سلمة ربيب رسول الله ﷺ ابن زوجته أم سلمة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة (أي: تجول في جميع جهاتها)، فقال لي رسول الله ﷺ: **«يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»**، وفي هذا درس لكلِّ أب ولكل مربٍّ يأخذ ابنه أو تلميذه برعاية تربوية لكلِّ عاداته لينشأ نشأةً إسلاميةً في كلِّ شئونه.

ومن آداب الأكل كما أوصى بها رسول الله ﷺ أن يبدأ من يقدمه من اليمين، وأن يرفق أثناء الأكل، فلا يعجل عند طعام أو شراب؛ لأن الأكل إذا غصَّ بلقمة أو شربة، فقد يموت أو يصبح ضحكة للناس، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ أتي بلبن وعن يمينه أعرابي وعن شماله أبو بكر ﷺ، فشرب ﷺ ثم أعطى الأعرابي وقال: **«الأيمن فالأيمن»**، وفي

الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشرب واحدة (أي: دفعة واحدة) كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث، وسمُّوا إذا أنتم شربتم، واحمدوا إذا أنتم رفعتم».

ومن أجل ذلك كره رسول الله ﷺ أن تشرب الماء من وعاء قد يدفق في فمك دفعًا؛ إذ إن هذا قد يضيق به الزور، فينطلق من الخياشم، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الديلمي: «مصُّوا الماء مصًّا؛ فإنه أهنأ وأمرأ وأبرأ».

هذا، ومن آداب الأكل إذا كان الطعام حارًّا ألا تنفخ فيه؛ لأن ذلك مظهر من مظاهر النهم المنافي للاحتشام، ثم إن هواء الزفير معظمه ثاني أكسيد الكربون إلى جانب كمية من مكروبات الفم، ولقد نهى رسول الله ﷺ عن النفخ في الطعام والشراب، كما جاء في سنن أبي داود.

ومن آداب الطعام إذا كنت ضيفًا أو مضيفًا ألا تقوم عن الطعام قبل أن يشبع من يأكلون معك، بل عليك أن تستمر وتتظاهر بالأكل خوفًا من أن تحرج جارك، قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجه: «إِذَا وُضِعَتِ الْمَائِدَةُ، فَلاَ يَقُومُ رَجُلٌ حَتَّى تُرْفَعَ الْمَائِدَةُ وَلاَ يَرْفَعُ يَدَهُ وَإِنْ شَبِعَ حَتَّى يَفْرُغَ الْقَوْمُ وَلْيُعْذِرْ فَإِنَّ الرَّجُلَ يُخْجِلُ جَلِيسَهُ فَيَقْبِضُ يَدَهُ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الطَّعَامِ حَاجَةٌ».

وإذا حضر العَشاء والعِشاء فقدِّم الأكل على الصلاة خشية أن يبرد الأكل أو يجمد إنْ كان فيه دهن؛ ففي الحديث الذي رواه أبو حنيفة: «إذا نودي بالعَشاء وأذَّن المؤذن؛ فابدءوا بالعشاء».

هذا، وما أجمل أن تستحضر في قلبك وأنت تأكل شكر الله على نعمته؛ لأنه ﷻ هو الذي يطعم ويسقي، ففي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: «من أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني ورزقنيه من غير حول لي ولا قوة غفر له ما تقدَّم من ذنبه».

وأخيرًا فما أجمل أن تذكر ربك عند بدء الطعام وعند الفراغ منه، روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله -تعالى- عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله -تعالى- عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله -تعالى- عند طعامه، قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء».

***

## من آداب الطعام

الأكل ذوقٌ وفنٌ رفيعٌ، والأكل فرصة حمد وشكر وفكر جميل؛ لأنه نعمة رزقنا ربنا إياها بفضله ومنه من دون حول لنا ولا قوة، والأكل بعدئذٍ مدد للجسم وقوة له يعين على العمل وتقوِّي على العبادة، وبهذين يبني المرء شخصيته وأخلاقه، والمؤمن يلتزم في أكله آدابًا وذوقًا، ربما يذكره الناس بها ويحمدون عليها، بينما تجد قومًا بجانبهم ذوق الطعام وأدبه، فيغتمز فيهم ذلك ويعيرون به، ومن هذه الآداب ما يلي:

منها: أن يقبل على الطعام في هدوء وأدب وإفساح كأنه قد أكل لتوه، وأن يمد يده إلى الطعام آخر الناس، ويسمِّي الله للبركة؛ لأن تارك التسمية يأكل معه الشيطان، ويحمد الله إذا فرغ، ثم هو لا يبدأ إلا إذا أذن له رب الطعام، ثم هو لا يكثر الشرب أثناء الطعام، وإذا شرب فليسم الله عند كل نفس، وفي جلسته للطعام يحاول شغل حيز صغير، وذلك بأن يفترش رجله اليسرى وينصب اليمنى، وعليه أن يعلم أن الأكل سلاح ذو حدين، وأن الإكثار يورث الاكتظاظ والمرض، وفي الحديث الصحيح: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، فإن كان لا بدَّ فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**».

قرأنا أنه أصيب ابن للصحابي سمرة بن جندب ﷺ بتخمة، فأخبر سمرة بذلك، فقال: لو مات من تخمته ما صليت عليه، ويبدو أن سمرة قال ذلك؛ لأن المتخم يكون قد أعان على قتل نفسه، فكأنما ساهم في قتلها.

ويلح الضيف على المضيف أن يأكل معه، ثم إنَّ على الآكل أن يتجنب كل قذر من الحديث أو التصرف، فلا تتحدث عن أمور قد يستقذرها الآكل، فيترك الطعام، وإذا أراد أن ينظف أنفه، واستطاع أن يفعل ذلك دون أن يسمع، فلا بأس، وإذا لم يستسغ لقمة وأراد أن يرميها، فلا يشعر من حوله، وإذا رأى في الطعام ذبابة رفعها ولم يشعر غيره، ولا يأكل نصف اللقمة ويغمس باقيها في المرق، وعلى صاحب الطعام أن يباسط ضيوفه ويؤنسهم ويشجِّعهم على الأكل، ويشعرهم بكرامتهم، وعلى الآكل ألا يذم طعامًا أبدًا، بل يشكر أصحاب الطعام ويدعو لهم، ويسن أن يأكل بثلاث أصابع الإبهام والسبابة والوسطى لتظل لقمته صغيرة.

ومن آداب المائدة ما جاء في الحديث الذي رواه البيهقي: «**إذا وضعت المائدة فليأكل أحدكم مما يليه، ولا يتناول مما يلي جليسه، ولا يأكل من ذروة القصعة، فإن البركة تأتي من أعلاها، ولا يرفع الرجل يده وإن شبع حتى يفرغ القوم، وليعذر فإن ذلك يخجل جليسه، فيمتنع عن الطعام، ولعله أن يكون له فيه حاجة**».

وإذا كان يأكل تمرًا ونحوه، فلا يقرن بين حبتين يأكلهما معًا، أما إذا كانت الفاكهة صغيرة الحبات كالتوت والرمان، فيقرن كما يشاء، وإذا بدأ الأكل فوجد الطعام حارًّا فلا ينفخ على اللقمة، وإنما ينتظر أن تبرد، ويجعل نيته وهو على الأكل أن يتقوى على العبادة والتقوى، وأن يستغني بالحلال عن الحرام، وإذا احتاج إلى ماء أثناء الطعام، فلا يعبه عبًّا، وإنما يمصه مصًّا، ففي الحديث الشريف: «**إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصًّا، ولا يعبه عبًّا؛ فإنه من الكباد**»، (أي أن عب الماء يؤلم الكبد).

ثم هو لا يأكل مضجعًا ولا منبطحًا لكي يتسنى للطعام أن ينحدر في يسر وسهولة إلى المعدة، قال -عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد**»، وإنما نهي عن الأكل متكئًا؛ لأن الاتكاء يدل على استخفافه بالنعمة ومخالفته لعادة الناس.

ومن آداب الطعام أن يغض طرفه عن الجليس الذي يؤاكله وألا يتابعه ببصره؛ لأن ذلك محرج ومخجل، فقد أكل أعرابي مع هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: احذر تلك الشعرة أن تدخل فمك، فقال الأعرابي: أوبلغ من مراقبتك لي أن أدركت شعرةً في طعامي!! فخجل هشام.

والحديث على الطعام مستحبٌّ؛ لأنه يسلي الضيوف على أن يكون حديثًا خفيفًا نافعًا، وفي الأثر: «**تحدثوا على الطعام، ولو بأثمان أسلحتكم**»، ولكن لا يجوز أن يتحدَّث صاحب الدعوة عن غلاء الأسعار، ولا عن ضيق الأحوال، ولا عن ثمن بعض ما قدَّمه من اللحم والأرز والفاكهة، ولينس ذلك نهائيًّا ولا يتحدث عن ولائم صنعها أو ضيوف دعاهم؛ لأنه عندئذٍ منٌّ وتفاخر، ولا يتحدث على الطعام عن مهارة زوجته في الطبخ، ويكثر الحديث عن أولاده ويمدحهم، وإذا ذكر شيئًا من هذا؛ فليقل: «نسأل الله لنا وللجميع صلاح النية والذرية».

ومن أدب المؤمن إذا دعي إلى طعام ألا يحضر معه ضيوفًا أو يستتبع قومًا آخرين، ويجوز له أن يستصحب معه خادمه أو سائقه الذي لا يستغنى عنه، وقد دعي رسول الله ﷺ إلى طعام، فاستتبع معه عائشة -رضي الله عنها، ويبدو أن أهل البيت كانوا من محبي أم المؤمنين - رضي الله عنها.

ومن آداب المؤمن إذا أعد لضيوفه طعامًا ألا يخشى كثرة الضيوف؛ لأن الله يبارك في الطعام الذي تتكاثر الأيدي عليه، ويحبُّ الذي تتكاثر الأيدي على إنائه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «**طعام الاثنين يكفي الثلاثة**»، ولا يبد في وجه المضيف ضيق إذا كثر الضيوف، وليشملهم ببشاشته، ويغسل الآكل يديه قبل الأكل عملاً بسنة رسول الله ﷺ، وإذا انتهى من طعامه لعق أصابعه أو مسحها بورقة ونحوه قبل غسلها، حتى لا يتسرب شيء من الأكل إلى الأرض أو مجاري البيت، وقد كان رسول الله ﷺ يلعق أصابعه إذا انتهى، وفي الحديث المرفوع أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وقعت لقمة أحدكم؛ فليأخذها وليمط ما كان بها من أذى، ولا يدعها للشيطان**»، وفي صحيح مسلم: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ؛ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى، ثُمَّ لْيَأْكُلْهَا وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ**».

والمؤمن لا يمد يده إلى اللقمة الثانية حتى يتأكد أنه أجاد مضغ الأولى وبلعها، وما أجمل أن يستحضر آلاء الله ونعمه وهو يأكل، ويقول: «**الحمد لله الذي أطعمنا هذا، ورزقناه من غير حول لنا ولا قوة**»، وأن ينوي بالأكل إعفاف بحسن الخلف والبركة والثواب، وأن ينفع الله بطعامه الأحياء والموتى.

## المحرم من الأطعمة

كما أوضح الشرع الشريف آداب اللباس والزينة، فقد أوضح آداب الطعام والشراب وفصَّل حلالها وحرامها، وعمومًا فقد أحل الإسلام كل طيب من الطعام والشراب، وحرَّم كل خبيث منها.

لقد جاء في القرآن الكريم تحريم الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذكر عليه اسم غير اسم الله، والمتخنقة وهي التي ماتت وسط دخان أو علق برقبتها حبل فخنقها، والموقوذة وهي التي ضربت بقضيب أو عصا في رأسها حتى ماتت، والمتردية وهي تسقط من عالٍ شاهق فتموت، والنطيحة وهي التي نطحتها غيرها فماتت، وما أكل السبع وهي التي افترسها وحش فأكل بعضها وترك البعض الآخر ميتًا إلا إذا ذكيت بأن ذبحت وفيها حياة بعد أن يتركها السبع؛ فإذ ذاك تحل، وما ذبح من الذبائح على الأصنام، فهذه عشرة أشياء لا خلاف في تحريمها؛ لأن فيها نصًّا قرآنيًّا صريحًا في سورة «المائدة» ورد في آخر آية نزلت من القرآن.

هذا، وقد جاء في أقوال النبي ﷺ ما حرم أشياء أخرى، والمسلم يأخذ ما آتاه الرسول الكريم وينتهي عما نهاه عنه، وإذن فلا بدَّ أن نحرم ما صح تحريمه عن رسول الله ﷺ؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحي يوحى، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي من حديث المقداد بن معد يكرب ﷺ: «**أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ. أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِي، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، أَلاَ وَلاَ لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ**»، أي: يأخذ ما يكفيه لطعامه وشرابه ولو بالقوة.

وهذه أحاديث عن رسول الله ﷺ في أشياء محرمة من الأطعمة نذكرها، ثم نتبعها بأحكام حول ما حرم من الطعام:

- جاء في الصحيحين من حديث ابن أبي أوفى ﷺ قال: «أصابتنا مجاعة ليالٍ خيبر، فلما كان يوم خيبر (أي: يوم المعركة) وقعنا في الحمر الأهلة فانتحرناها، فلما غلت بها القدور نادى منادي النبي ﷺ أن أكفئوا القدور، ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئًا»، وفي رواية: «**إنَّ الله ينهاكم عن لحوم الحمر؛ فإنها رجس**».

ولم يأخذ بالحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- وأوَّله أن تلك الحمر لم تكن خمسة (أي: عزل منها الخمس لبيت المال)، أو لأنه خاص بيوم خيبر حتى لا يفقد الناس ركائبهم.

- ولأبي داود والنسائي: «حرام عليكم حمر الأهلة وبغالها، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير».

- وروى أصحاب السُّنن عن جابر ﷺ: «أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمر الأهلية، وأذن في الخيل».

- وجاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ نهى عن أكل الهر وأكل ثمنها.

- وروى أصحاب السُّنن أن النبي ﷺ نهى عن أكل المجثمة التي تصبر للقتل، وعن أكل الجلالة، وشرب لبنها وركوبها.

- وفي الصحيحين والسُّنن أن خالد بن الوليد ﷺ دخل على ميمونة -رضي الله عنها- وهي خالته، فوجد عندها ضبًّا محنوذًا (أي: مشويًّا) قدمت به أختها حفيدة من نجد، فقدمت الضب للنبي ﷺ، وكان قلما يقدم له طعام حتى يحدث عنه، ويسمي له، فأهوى بيده إلى الضب، فقالت امرأة: أخبر رسول الله ﷺ بما قدمتين له، قلن: هو الضب يا رسول الله، فرفع يده. فقال خالد: أحرام الضب، يا رسول الله؟! قال: «لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»، قال خالد: فاجتررته وأكلته، وهو ينظر إليَّ فلم ينهني.

- وفي رواية أنه ﷺ قال: «كلوه؛ فإنه حلال، ولكنه ليس من طعامي»، وفي رواية أخرى: «لا آكله ولا أحرمه».

- وروى مسلم أنه قيل لرسول الله ﷺ: القردة والخنازير هي مما مسخ الله -تعالى، فقال: «إِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا، فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ».

- وروى أصحاب السُّنن مرفوعًا عن ابن أبي عمار قال: قلت لجابر بن عبد الله: الضبع أصيد هو؟ قال: نعم. قلت: آكلها؟ قال: نعم. قلت: أشيءٌ سمعتَ من رسول الله؟ قال: نعم.

ولأبي داود أن عمر ﷺ سئل عن القنفذ فتلا قوله تعالى آية «الأنعام»: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا..﴾ الآية، يعني بحله، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند

رسول الله ﷺ، فقال: «خبيثة من الخبائث». قال عمر: إنَّ كان قال هذا رسول الله، فهو كما قال.

**وهذه بعض أحكام حول الحلال والحرام والمكروه من الطعام:**

**أولاً:** كلُّ ضار أو خبيث من الطعام حرام، فالسم حرام؛ لأنه ضار، والميتة حرام؛ لأنها ضارة وخبيثة، وعلى الجملة فكل ما تستطيب النفس أكله مما سكت عنه القرآن الكريم والحديث الشريف، فهو حلال؛ لأن الأصل في الأشياء الحل إلا ما حرَّمه الشرع الشريف.

**ثانيًا:** حيوان البحر كله حلال إلا ما كان سامًّا يستوي في الحل حيه وميته، قال رسول الله ﷺ يصف البحر: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتة**»، والحيوان البحري لا يحتاج إلى تذكية (أي: ذبح)، وهو حلال سواء صاده مسلم أو غير مسلم، وإذا ملح الحيوان البحري فحفظ ولم يتتن؛ فهو حلال كالفسيخ، وأما البرمائي فسكت عنه، ولهذا فهو حلال إلا الضفدع؛ لأنه نهى عن قتله.

**ثالثًا:** الضب والضبع وحمار الوحش والطيور الداجنة والأرنب والجراد والعصافير حلال؛ لأن أي أحاديث صحيحة لم ترد في تحريمها، وقد جاء تحليلها في الصحيحين.

**رابعًا:** القنفذ -والله أعلم- حلال؛ لأنه طيب اللحم، والحديث الوارد في تحليله ضعيف، أما الفأرة وحشائش الأرض من عقارب وحشرات ودود الجبن وسوس التمر؛ فالأفضل تجنبها لقذارتها، وقد روي أن رسول الله ﷺ جيء بتمر عتيق، فطفق ينقِّيه من السوس.

**خامسًا:** الفواسق الخمس التي أمر النبي بقتلها، وهي الغراب، والحدأة، والفأرة، والعقرب، والكلب العقور.. كلُّها خبيث، ويتجنب أكلها؛ لعموم قوله تعالى: ﴿**وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ في سورة «الأعراف»، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النملة والنحلة والهدهد والصرد، وما دام قد نهى عن قتلها؛ فالمعقول ألا تؤكل.

**سادسًا:** كلُّ مفترس من الوحوش، وكل جارح من الطير يحرم أكله؛ لأن لحومها غير صحية، وقد ورد في تحريمها نصٌّ من السُّنة المطهرة.

**سابعًا**: اللحوم المستوردة يسهل في هذه الأيام الاتصال بالشركات الموردة لها، فإذا ثبت أنها تذكى بالطريقة الشرعية تؤكل حملاً على قوله -تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

**ثامنًا**: لحم القرد نهي عن أكله، وكذلك لحم الثعلب، وأما الضبع فرخص في أكلها بعض الأئمة، وقد حرَّم رسول الله ﷺ لحم الحمير الأهلية والبغال؛ لرداءة لحمها.

**تاسعًا**: علمنا أنه في بعض البلاد الأجنبية يقطعون إلية الخروف وهو حي ويصنعونها شحومًا، وهذا غير جائز؛ لأن ما قطع من الحي يعتبر ميتة، ومثل ذلك ما سمعنا به من أن بعض البدو إذا خصي صغار الضأن أو المعز واستخراج البيضتين منها؛ فإنه يبتلعهما أو يأكلهما، وهذا بالطبع حرام؛ لأن كل عضو أو طرف يقطع من الحيوان الحي يعتبر ميتة.

**عاشرًا**: الميتة لا يحرم منها إلا لحمها أن يؤكل، أما شعرها وصوفها وأسنانها وعظمها وجلدها وأنفختها، وهي التي يعقد بها الحليب ليتحول جبنًا.. فكلٌّ هذه حلال، وكذلك يحل من الدم ما يظل محتسبًا في العروق، كما تحل الكبد والطحال، وكلاهما دم متجمد، ولا يحرم إلا بالدم المسفوح.

نسأل الله أن يحبِّب إلينا كلَّ طيب، ويكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان والحرام، ويجعلنا جميعًا من الراشدين.

***

## من أحاديث الآداب

# من آداب الزيارة

من السُّنن النبوية الكريمة استحباب زيارة الأرحام والأقربين والجيران والأصدقاء، وأن تكون هذه الزيارات خالصة لوجه الله تعالى؛ ليبارك الله -تبارك وتعالى- ممشى الزائر، وليكتب الزائر والمزور في المتحابين بجلال الله الذي يظلهم في ظل عرشه، ويراهم الناس على منابر النور يوم القيامة، حين لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون في الفزع الأكبر إذا فزع الناس.

هذا، وإن للمؤمن في الزيارة مجموعة من الآداب رسمها له رسولنا ﷺ بحيث تجعله هذه الآداب أحلى من العذب السائغ على المهجة الظمأى، وأرق من النسمة العقبة على تيجان الزهر، وأعذب من قطرات الندى؛ إذ تحمل خدود الورد الجني.

فأول آداب الزيارة حسن الاستئذان؛ إذ ليس في كلِّ وقت يكون المزور مستعدًا لاستقبال الزائر، فالإنسان تنقلب أحواله بين صحة ومرض وبين فراغ وشغل وبين انبساط وانقباض، ولهذا فما يكون للزائر أن يغضب ولو قيل لهم: ارجعوا.

وللاستئذان في الإسلام أسلوب لطيف وصيغ حضارية، قال رسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: **«الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع»**، وعلى المستأذن إذا استأذن أن ينحرف عن صورة الباب يمينًا أو شمالاً، وألا يصوِّب بصره في أنحاء البيت، قال -عليه الصلاة والسلام- في الحديث المتفق عليه: **«إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»**.

وصيغة الاستئذان أن يطرق الزائر الباب طرقًا لطيفًا، ويقول بصوت غير مزعج: **«السلام عليكم، أنا فلان أأدخل؟»** فإنْ أُذن له دخل، وإنْ اعتذر إليه بأي عذر رجع راضيًا معتبًا عاذرًا غير حانق ولا عاتب ولا مؤاخذ؛ لأن الكريم يعذر ولا ويلوم، ويخفف ولا يحرج، ثم إذا أُذن للزائر ورحب به دخل في سكينة وغضٍّ للبصر، وسلَّم على مَن يستقبله، فإذا دخل به المضيف إلى مجلسه، فعليه ألا يجلس إلا في المكان الذي يشير به إليه مضيفه؛ لأنه ربما يجلس في مكان غير مناسب، يكشف صحن الدار، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني:

**«من دخل دار قوم؛ فليجلس حيث أمروه، فإن القوم أعلم بعورة دارهم»**.

ومن آداب الزائر إذا لقيه أخوه وجهًا لوجه أن يتصافحا، ويستغفر كل منهما للآخر، وذلك لأن هذا مما يقرِّب القلوب والأرواح، وهل أجمل من مصافحة تستل كل غلٍّ، ومن دعاء صالح ينطق بالإخلاص والحب في الله، جاء في سنن أبي داود: **«إذا التقى المسلمان فتصافحا واستغفر كل منهما لصاحبه غفر الله لهما»**، وفي رواية: **«إذا التقيتم فتلاقوا بالتسليم والتصافح، وإذا تفرَّقتم فتفرَّقوا بالاستغفار»**.

وإذا استقر المجلس بالزائر وأخيه كان على صاحب البيت أن يظهر لأخيه تعطفًا، ويصنع له إنْ وجد متكأ يريحه، روى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مسلم يدخل على أخيه المسلم فيلقي إليه وسادة إكرامًا له إلا غفر الله له»**، وقد فعلها رسول الله ﷺ بنفسه مع عدي بن حاتم ﷺ حين حلَّ عليه ضيفًا.

ومن أدب الزائر أن يستأذن في دخوله كما يستأذن عند انصرافه، وألا يتسلل من البيت دون علم أو استئذان من أخيه صاحب الدار؛ ففي الحديث الذي رواه الديلمي يقول النبي ﷺ: **«إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده؛ فلا يقومن حتى يستأذنه»**.

هذا، ومن آداب الزيارة ألا يقلِّب الزائر بصره في أرجاء بيت أخيه، بل يعطي وجهه لأخيه؛ لأن أجمل الجمال الشرف، وأقبح القبح الخيانة، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن اطلع في بيت قوم بغير إذنهم؛ فقد حلَّ لهم أن يفقئوا عينه»**.

وعلى الزائر أثناء الجلسة أن يُظهر حُسن أدبه وإسلامه؛ فلا يتدخل فيما لا يعنيه، كأن يرى ظرف خطاب، فيحاول أن يطلع ليعرف من أرسله أو ما محتواه، قال -عليه الصلاة والسلام: **«مَنْ نظر في كتاب أخيه بغير إذنه، فكأنما ينظر في النار»**.

هذا، وفي أثناء المجلس ربما يحضر ضيوف وعندئذٍ يكون على الزائرين السابقين أن يُقدِّروا سعة المجلس، فينصرفوا إذا رأوا أنه قد يضيق بالجميع أو يتفسحوا إذا رأوا رغبة صادقة من صاحب الدار ببقائهم في المجلس، وعلى القادمين الجدد ألا يجلسوا في أماكن الزائرين السابقين إلا إذا أصروا، كأن يكون الاحترام للعلم والسن وتقوى الله، وإذا جلس

الزوار ما شاء الله لهم أن يجلسوا؛ فعليهم أن يراعوا في طول الجلسة وقصرها حالة المضيف، فيخففوا إذا رأوه متوعكًا أو مشغولاً، ويطيلوا إنْ رأوا منه شوقًا إليهم، وإذا نهضوا للانصراف استحب أن يدعو بالدعاء الذي تغفر به سقطات اللسان في المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**».

ومن آداب الزيارة والمجالسة ألا ينسى الزائرون والمتجالسون ذكر الله، فيصرفوا كل وقتهم في هذر أو مزاح أو لغو؛ ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله -تعالى- فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة**».

وعلى الجملة؛ فإن أهم أمر من أمور الزيارة أن تكون في الله ولله ولتقوية أواصر الإخاء الإسلامي، ولتأكيد محبة الله للمتزاورين فيه والمتجالسين في مرضاته؛ لأن الله ﷻ يحبُّ لعباده المؤمنين أن يحرصوا على كلِّ وسيلة توثِّق بينهم الإخوة فيه والتحبب في ذاته.

## الصداقة وآدابها

لعل من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه أصدقاء صالحين يعينون على الخير والحق، ويردونه عن الشر والباطل، ويخلصون ودادهم له في الشدة والرخاء وفي الضراء والسراء.. إنَّ مثل هؤلاء هم كنز العمر وهم متعة الحياة، ولا غرو فقد وصف الله أهل الجنة بأن جميعهم فيها إخوان يحبون أن يجلسوا متقابلين ليتمتع كل منهم بمحيا أخيه وإشراق وجهه، قال الله -تعالى- في سورة «الحجر»: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

على أن الصداقة سلاح ذو حدين، فمن الصداقة ما هو نعم عظيمة، ومنها ما هو ويلات جسيمة، ثم إن الصداقة هي واجهة المرء تعرف بها أخلاقه؛ لأن كل قرين يقتدي بقرينه، والخليل يعرف بخليله، والمتآخون بجلال الله على منابر من نور، يغبطهم عليها الأبرار.

ومن السُّنة اتخاذ الأصدقاء، فقد كان لرسول الله ﷺ صحاب وأحباب في الله يضيق بهم الحصر، وكان في مقدمتهم أبو بكر الصديق الذي ذكر في كتاب الله -جلَّ وعلا- بلفظ صاحب: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

وهذه بعض الأحاديث في الصداقة وآدابها نوردها ثم نذكر ما تيسر من آداب الصحبة:

- روى أحمد -رحمه الله- عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده أو يسافر وحده.

- وفي سنن أبي داود والترمذي وموطأ مالك من حديث عمرو بن شعيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**».

- وروى أصحاب السير أن النبي ﷺ حين وصل المدينة آخى بين الأوس والخزرج، وساهم الأنصار ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أصبح المسلمون أصدقاء متحابين في الله، فغاظ ذلك المنافقين واليهود والمشركين.

- وفي سنن أبي داود والترمذي قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب أحدكم أخاه؛ فليخبره أنه يحبه**».

- وفي حديث آخر لأبي داود عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لأُحِبُّ هَـذَا. فَقَالَ لَـهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**». قَالَ: لاَ، قَالَ: «**أَعْلِمْهُ**». قَالَ: فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي الله، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

- وروى مالك أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «**وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ**».

- وفي صحيح البخاري أن امرأة مزَّاحة قدمت من مكة، فنزلت على نظيرة لها كثيرة المزاح بالمدينة، فقالت عائشة -رضي الله عنها- قال ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف**».

- وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»، وفيهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ ذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومن بينهم رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه.

- وفي صحيح مسلم: «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي».

**أولاً**: الأصدقاء الصالحون من أعظم ذخائر الحياة؛ لأنهم نعم المستشار في الحيرة، ونعم العون في الشدة، ونعم المساعد على الطاعة، ونعم الرادع عن المهالك، ونعم النور المؤنس في ظلام الوحشة.

ومن ثم، فالعاقل يتلمس الصديق الصالح والجليس الطيب، فلا يفتأ مسرورًا به كأنما هو عند بائع المسك، وإذا كان الأخلاء الأشرار يتحولون في الآخرة أعداءً، فإن المتحابين بجلال الله يبعثون أصدقاء؛ لأنهم أولياء الله، ومن ثم فلا يخافون في يوم الحساب ولا يحزنون، ﴿أَلآ إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

**ثانيًا**: الصاحب بالجنب هو صديق السفر وصداقة السفر متعة لا تنسى، وخصوصًا إذا كان سفرًا في طاعة الله كالحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ وزيارة المسجد الأقصى والجهاد في سبيل الله، ومثل هذه الزيارة يزكيها ربنا ويزيدها ثباتًا؛ لأنها نمت في ظلال طاعة الله -تعالى- وحبه.

**ثالثًا**: ومن آداب الصداقة ما ذكره أشياخنا ممن ألفوا في الآداب الشرعية -رحمهم الله:

- فمن ذلك أن تكون صداقتك في الله، فتختار أهل الدين وتقرب الصالحين، وألا تخص بصداقتك فاسقًا عاصيًا لربه؛ لأن مثل هذا لا يمكن أن يصدر عن خير، إذ لو كان فيه خير لكان له خير في التعامل مع خالقه الذي وهبه كل النعم.

إنَّ الذي لا يحترم أمر ربه المنعم المتفضل لا يمكن أن يكون لديه أي شرف في المعاملة وأي وفاء للصداقة، وإلى هذا أشار النبي الكريم ﷺ في قوله: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

- أن يكون الصديق عاقلاً راجح الحلم غير نزق ولا أحمق ولا شديد الحرص على الدنيا، فإن الأحمق والبخيل أخطر الأصدقاء إذا الأول لا يزال يورطك بنزقه وحماقته، والثاني يسخرك لمشكلات حرصه وبخله، أما العاقل والكريم فيفيدك أولهما برأيه وصدق مشورته،

ويعلِّمك الثاني كرم النفس وحسن التوكل.

- واختر صديقك ذا نفس منبسطة لا عقد فيها ولا تكلف، ما أجمل أن يزورك صديق فيقول لك: لقد خرجت مبكرًا فلم أفطر، فهل من لقمة عاجلة؟! زار أحد الصالحين صديقًا له فقال لخادمته: أخرجي لي كيس أخي، فإني أحتاج بعض المال، فأخرجته فأخذ منه درهمين ودعا لصديقه بخير، فلما رجع الصديق إلى بيته وأخبرته الجارية قال لها: أنت حرة لوجه الله.

إنَّ الصديق الطيب النفس البسيط السمت يلتمس لك المعاذير بينما المتكلف الكز يبتكر لك الذنوب.

- واحذر من الأصدقاء كثير الجدل والأناني والمعجب بنفسه، فمثل هؤلاء يعرضون الصداقة كل يوم للزوال؛ لأن من أردأ أخلاق الصديق المماراة والأنانية والغرور، إذ هي تعصف بالصداقة في كلِّ حين.

- ومن أجمل صفات الصديق الوفاء الذي يجعله حاضرًا لك في الرخاء والشدة، روي أن رسول الله ﷺ أقبل على عجوز يجاملها ويسألها ويكرمها، وهو يقول لعائشة: «**هذه كانت تأتينا أيام خديجة**».

- فإذا رزقك الله الصديق المؤمن الوفي الدين؛ فاعلم أن له عليك حقوقًا، وهي أن تقوم بحوائجه دون سؤال، وتتفقد عياله بعد موته، وتسكت عن عيوبه، وتدافع عنه في غيبته، فإذا خلوت إليه نصحته خاليًا، وأن تدعو له شاهدًا وغائبًا وحيًّا وميتًا، فإن دعواتك له هي هدايا حسنات.

## الصديق الصالح

ما أجمل أن يهيئ الله لك رفقة مسعفة، وجلساء من الفضلاء تقتبس من آدابهم، وتنالك البركة بصلاحهم، وينفعك الله بدعائهم، إنْ أخطأت سددوك، وإنْ عثرت أقالوك، وإنْ أحسنت أعانوك.. إنَّ صحبة من هذا النوع هي كنز تنال به خير الدارين، نعم إنك بصحبة الأخيار تتزود أكرم الزاد، وتحظى بسعادة المعاش والمعاد.

الصالحون وأهل الفضل لا يشقى جليسهم؛ لأنه لا يفتأ يسمع منهم الكلم الطيب، ويرى العمل الصالح، فيتعلم سمو القول، ويأتسى بصالح العمل، وإذا لم تستطع مناقشتهم في إخلاص العبادة لله وطول السهر في جنب الله، فلا يحملك ذلك على هجرهم خجلاً من قصورك، فإن المرء مع من أحب، جاء في الصحيحين أنه قيل لرسول الله ﷺ: «الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم». فقال: «**المرء مع من أحب**».. ما أروعها من كلمات أربع «المرء مع من أحب» كلمات بليغة من أسمى إيجاز القصر.. حكمة نبوية تؤدي بنا أن نحكم حبنا ونجعله تبعًا لما جاء به رسولنا وديننا وكتابنا، فلا نحب إلا ما يحبه الله ورسوله، وألا نتخذ بطانات لا تألونا خداعًا وخبالاً.

إنَّ عمل الدنيا صورة من مشاهد الآخرة ومجالسة في الدنيا هي صورة من مجالسه في الآخرة، ومن ثم كانت مجالسة الأشقياء في الدنيا حسرات مؤلمة، صوَّرها ربنا في محكم آياته؛ إذ يقول في سورة «الفرقان»: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً**﴾، يتحسر الظالم على أن لم يجعل طريقه هي طريقة رسول الله ﷺ، ويتحسر على أن جعل صداقته ومجالسه لفلان وفلان من الضالين المضلين الذين حرفوه إلى طريق الضلال، ثم خذلوه فيها شقيًا نادمًا.

- «المرء مع من أحب» وصية نبوية كريمة ألا تجالس إلا أهل الصلاح ومخافة الله؛ فهؤلاء يكونون بإذن الله شفعاء يوم القيامة، يرتضي الله لهم أن يشفعوا وهم بحول الله لا يشقى محبهم، ولا يخذلهم جليسهم، جاء في سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

- وقد كنت أنصح بعض أصدقائنا ألا يترددوا على مجالس لهو وغيبة وعبث، فيقولون: نحن نجالسهم لكننا لا نشاركهم في لغوهم، فقط نستمع ونتسلى، وربما عرفنا منهم من أخبار الناس ما لم نكن نعرف، وما دروا أن جلساء المرء في معاشه هم جلساؤه في معاده؛ فكيف إذا حشرهم الله مع أولئك الخاسرين؟! نعم سيرون في الآخرة أن جليس بائع المسك قد نال من نفحات مسكه، وأن جليس نافخ الكير قد نال من لفحات ناره.

إنَّ من يجالس المغتابين لا بدَّ أن يغتاب، ومن يجالس السكارى يخشى عليه أن يسكر معهم، ومن أدمن مجالسة قوم، فقد تنسجم روحه مع أرواحهم وتتعارف الأرواح، وعندئذٍ تأتلف روحه معهم، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**».. فاحذر -يا أخي- على روحك أن تأتلف أرواح الأشرار.

- وإذا جالست العلماء، فاخدمهم وتواضع لفضلهم، أرأيت إلى موسى عليه السلام وهو شيخ أنبياء بني إسرائيل، كيف حرص على لقاء العبد الصالح عند مجمع البحرين، ولما وجده هناك عرض عليه أن يكون تابعًا له، ليتعلم من علمه رشدًا، ثم لما اشترط العبد الصالح عليه شرط قال: ﴿**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾، وكان موسى عليه السلام كلما وقع في الخطأ اعتذر اعتذار التلميذ المؤدب لشيخه الفاضل.

إنَّ تواضعك للعالم وطول صبرك على مجالسة يخرج لك خبايا كنوزه، وينفعك من بركات دعائه، وينفعك بشذا روضه، وحسبك أن مجلسك مع العلماء الأفاضل تحف به الملائكة وتغشاه الرحمة ويذكرك ربك عندئذٍ في ملئه الأعلى، روى مسلم -رحمه الله- أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، وأم أيمن كانت أمة لأبي لهب فأعتقها وصارت حاضنة لرسول الله ﷺ، وكان النبي الكريم يحترمها ويزورها، وقد زوَّجها زيد بن حارثة وولدت له أسامة، وكان ﷺ يقول: «**أم أيمن أمي**».

فلما انتهى أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- إليها بكت، فقالا لها يعزيانها: ما يبكيك، أما علمت أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟! فقالت: لست أبكي لهذا، ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان، وربحا من مجلسهما تلك الدموع التي تحرم بإذن الله أعينهما على النار، قال رسول الله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**».

العاقل يختار في حياته مصاحبة أهل الدين، وإذا أراد الزواج اختار ذات الدين ليحظى بصحبتها وصحبة أهلها الصالحين، وإذا أراد أن يسكن بيتًا سأل عن قربه من المسجد وعن الجيرة المؤمنين، وإذا اتخذ أصدقاء اختار معتادي مساجد الله، وبذلك يضمن بفضل الله أن

يكون في آخرته مع القوم الصالحين، جاء في سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**».

لقد كان رسول الله ﷺ يطلب الدعاء ممن يتوسم فيه الصلاح، ففي الحديث أن عمر ﷺ جاء يستأذن رسول الله ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»، وكان عمر ﷺ يطلب من أويس القرني ﷺ أن يستغفر له، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يرى أحيانًا وهو متوجه إلى مسجد قباء ليرى المسجد وعمّاره الذين يحبون أن يتطهروا.

إنَّ خطواتك لزيارة إخوانك الصالحين حسنات تباركها الملائكة، وهي تقول لك: «**طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً**»، فاحرص -يا أخي- على مجالسة الصالحين ومصادقتهم.. إنك عندئذٍ تذوق حلاوة الإيمان في الدنيا، وستنعم -إنْ شاء الله- بأنس المحبة في الدنيا والآخرة، وحين يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه سترى أصدقاءك الصالحين هم وصاحبته أصدقاءك المؤنسين في هول الموقف لا يخذلونك ولا يتخلون عنك، يقول الله ﷻ يصف هول الحساب في سورة «الزخرف»: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۞ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾.

## الصفح والمسامحة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله العفو الغفور والحكيم القدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله البشير النذير والسراج المنير. اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه من كل ذي عزم عظيم وقلب كبير.

من الآداب النبوية التي حرص عليها رسول الله ﷺ الإغضاء والمصانعة وتجاهل الزلة والتماس العذر، وبذلك كثر محبوه وقلَّ شانئوه، ورسخت في قلوب الناس مودته، وطابت لدى الناس أحدوثته.. كان -عليه الصلاة والسلام- يشرب الناس على القذى، ويتحمل منهم صنوف الأذى، ثم هو لا يكثر المعاتبة ولا يختار المجانبة، وكان -عليه الصلاة والسلام- يعلم أن الكمال لله وحده، وأن العصمة لأنبيائه الكرام، وأن الإنسان من طين وماء، ومن ثم

فهو يصفو ويعتكر، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ عظيم التجمل رائع التحمل يتناسى الإساءة حتى ينساها، وكان قليل العتاب كثير السماح، حتى لقد كان يستغفر للمنافقين إذا اعتذروا متجاهلاً مكرهم وسوء مواقفهم.

لقد كان يعلم أن الاستغفار للكافر المجرم لا يجدي ما دام ذلك الكافر يطوي نواياه الخبيثة على السوء والكفر والإجرام، وإذن فليأخذ بظاهر القول، وليلبس كبير المنافقين قميصه، وليصل عليه ما دام في ذلك جبر لكسر ابنه المؤمن، وما دام ربنا ﷻ يبلو السرائر، ولا تخفى عليه خافية، لقد قال له ربه في سورة التوبة: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، وبخاصة التغاضي وترك التشدد والعتاب ونبذ الجدل العقيم وبلين الجانب وجميل الرد -تألفت من حوله القلوب واستحق أن ينال ثناء ربه في قوله تعالى من سورة «آل عمران»: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

في يوم فتح مكة اغتاظ أحد المشركين واسمه فضالة بن عمرو حين رأى حطام الأصنام، ورأى بلالاً يصعد إلى سطح البيت الحرام؛ لينادي بدعوة الله التامة إلى عباد الله وحده، فخبأ تحت عباءته سيفًا قصيرًا، وتوجه إلى رسول الله ﷺ يريد قتله انتقامًا للآلهة، وأقبل على رسول الله ﷺ وهو يتمتم ليوهمه أنه يسبّح، فبادره النبي ﷺ ونزع ما كان يخفيه، ووضع يده الكريمة على صدره، وهو يقول: «اللهم اهد فضالة، وحبّب إليه الإيمان»، قال فضالة: فوالله ما رفع يده عن صدري، وعلى ظهر الأرض من هو أحب إليَّ منه.. لم يلمه رسول الله ﷺ ولا عنّفه بتوبيخ قاسٍ، فأسلم إسلامًا عميق الجذور ظهرت آثاره حالاً، فلقد روي أن فضالة هذا عاد إلى بيته، ويبدو أنه كان في الجاهلية صاحب مغامرات غرامية، فتعرضت له إحدى صواحبه ليجلس إليها، ويحادثها أحاديث الهوى، فردَّ عليها بأبيات تفيض إيمانًا:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليَّ الله والإسلام

لو قد رأيت محمدًا وصحابه ... والفتح حيث تحطم الأصنام

لرأيت دين الله أضحى مشرقًا ... والشرك يعلو وجهه الإظلام

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ أوذي في الله فما حقد ولا أحصى على قومه أذاهم، وكان لا يلقي الناس إلا باشًّا، وحتى حين استقبل صناديد الشرك من أهل مكة شملهم بالتغاضي ولم يذكرهم بمواقفهم الشرسة من الإسلام.

كان شعاره أن التوبة تجب ما قبلها وتغسل الذنوب، وأن الإسلام يجب ما قبله، ويرجع الإنسان كيوم ولدته أمه، ومن ثم فقد كان -عليه الصلاة والسلام- يحترم التائبين ولا يؤيسهم من رحمة الله.

كان -عليه الصلاة والسلام- أبعد الناس عن الهجر والجفوة والقطيعة، وكان أوصل الناس للرحم وأصفح الناس عن الزلة، ولا غرو فالمؤمن مأمور أن يصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام**».

ولقد علَّمنا رسولنا ﷺ أن نلتمس للصديق أعذارًا كثيرةً قبل أن نؤاخذه ونذينه، ولقد بلغ من حلم الأحنف بن قيس -رحمه الله- أنه قال: لا يسود المرء قومه حتى يوطن نفسه أن يتجرع الذل من أجلهم، ويتحمل الهوان لعزتهم، وما أجمل قول أبي تمام في شروط السيادة:

**لَيسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَومِهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَومِهِ المُتَغابي**

ومن أحلى قول معد بن أوس يصف إغضاءه عن إساءات قريب له، فيقول:

**يحاول رغمي لا يحاول غيره ... وكالموت عندي أن يحل به الرغم**
**فما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الأم**
**لأستل منه الضغن حتى استلله ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم**

وشبيه بهذه الحكمة الجليلة قول المقنع الكندي من أبيات يحسن أن يحفظها كل طموح إلى سيادة قومه

**ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس كبير القوم من يحمل الحقدا**

إنَّ مِن الناس مَن ينسى الإساءة من ساعته، ويدعو للمسيء بالهداية في غيبته، بل إنه ليرد الإساءة بالإحسان، بينما تجد من الناس من لا ينسى الإساءة أبدًا، بل يخزنها في قلبه حتى

يتقيح بالأحقاد، والحق أن الإسلام يكره ذلك، وقد كان رسول الله ﷺ يكره أن ينقل إليه شيء من هفوات أصحابه حتى لا يشغل قلبه بأي حقد؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة كل يوم اثنين وخميس**»، وفي رواية: «**تعرض الأعمال في كلِّ اثنين وخميس، فيغفر الله ﷻ لكلِّ عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا**».

وحدث أن قصد أحد الفقراء رجلاً محسنًا وطلب منه أن يفرِّج كربه، فتأملت زوجة المحسن وجه الفقير، وإذا هو ممن كانوا يسيئون إلى زوجها ويشتمونه لعثاره، ولشدة ما كانت دهشتها حين رأت زوجها يسارع لقضاء حاجة الرجل، ويهوِّن عليه شدته، ولما لامت زوجها على نسيانه لإساءات عدوه قال لها: لقد عوَّدني ربي عادات من كرمه أن يفرِّج عني كل كربة، ويكشف عني كل غمة، وأنا تعوَّدت أن أرد الإساءة بالإحسان، وأدفع الظلم بالمغفرة، وأخشى إذا غيَّرت عادتي مع ربي من الصفح الجميل والإغضاء الكريم أن يغيِّر عادته معي من الستر والعافية وتفريج الكروب وحلال الرزق.

جاء في سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**يطلع الله إلى أهل الأرض ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه**»، وفي أحد مجالسه -عليه الصلاة والسلام- قال: «**يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فدخل رجل من الأنصار وكرَّرها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني والثالث، والأنصاري نفسه يدخل، فتتبعه ابن عمر واحتال حتى بات عنده، فلم ير له زيادة عبادة لكنه علم منه أنه ما بات ليل يبيت في صدره غلاً أو حقدًا أو كراهيةً لإنسان.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

* * *

## من أحاديث الآداب

# المسامحة والمياسرة

من أجمل آداب المؤمن أدب يحببه للنفوس، ويدنيه من القلوب، ويجمع حوله الأصدقاء، ويحميه -بإذن الله- من مكائد الأعداء.. هذا الأدب هو المسامحة والمياسرة؛ فالمؤمن على كافة أحواله سمح القياد للمعروف، تلقاه دوامًا ميسرًا متجاوزًا غير معسرٍ ولا متشدد عاملاً أبدًا بقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى**» (أي: طالب بدينه).

والسمح مبشر -بإذن الله- بالستر والعافية ونماء البركة، جاء في «معجم الطبراني» أن رسول ﷺ قال: «**إذا أراد الله بقوم نماءً رزقهم السماحة والعفاف**»، وقد دعا النبي ﷺ بالبركة للرجل الذي يكون سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**ارفعوا وترافقوا، ولييسِّر بعضكم على بعض، فلو يعلم طالب الحق ما له في تأخير حقه** (أي: من ثواب الله ﷻ) **لكان الطالب هو الهارب من المطلوب**».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة**»، وأوصى رسول الله ﷺ بالزيادة عند الوزن، روى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وزنتم فأرجحوا**».

إنَّ الإنسان اللين المتسامح يبعده الله يوم القيامة عن النار مكافأة له على كرم شمائله وجميل سجاياه، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدًا! تحرم على كل هين لين سهل**».

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا ولسانه صادقًا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل النار.. كل عتل جواظ مستكبر**»، وكلها تعني الإنسان الغليظ الجافي الشرس الطباع.

وفي سنن النسائي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**أدخل الله ﷻ الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا**»، ومعنى (قاضيًا) حين يقضي دينه، و(مقتضيا) حين يطلب دينه.

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**اسمح يسمح لك**»، ومعناه إذا تسامحت مع عباد الله تسامح الله ﷻ في معاملتك.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ؛ فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي**».

وقد حثَّ النبي ﷺ على التيسير والتبشير، فقال في الحديث الذي رواه الشيخان: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**».

والمسامحة جميلة كريمة العواقب سواء كانت مسامحة عن الزلات أو مسامحة في الحقوق، فالأولى تمثل الحلم والرفق والأناة، والثانية تمثل الكرم والمروءة والمعروف وكلتاهما لازمة في هذه الحياة؛ لأنك إن لم تسمح الزلة ظلت طول حياتك تعبًا عاتبًا ناقمًا؛ إذ الإنسان من طين وماء يصفو ويكدر ويصيب ويخطئ، وإذا أنت لم تشرب الناس على قذاهم، ولم تلمهم على شعثهم فلن تظفر منهم برفيق، ولن يصفو لك وداد صديق.

وأما المسامحة في الحقوق؛ فتكون إما عن معسر، وإما عن مماطل، وهي في كلتا حالتيهما جميلة مريحة؛ إذ الصبر على المعسر صدقة في ميزان أعمال المؤمن، أما الصبر على المماطل؛ فإنه يقيك شره، ويريحك من تعقبه، ومصير الحق أن يعود بإذن الله.

والمسامح -بإذن الله- محبوب على جميع أحواله ومعاملاته؛ لأنه يدفع الحق عن طيب نفس، ثم هو لا يكتفي بدفع الحق، بل يزيد إن كان الحق عليه، ويتجاوز حين يكون الحق عليه، ويتجاوز حين يكون الحق لله.. اشترى الحسن البصري -رحمه الله- ثوبًا بستة دراهم ونصف، فأعطى البائع سبعة، فقال للحسن: إنَّ حقي ستة ونصف، فقال الحسن: أعرف هذا، ولكن وجدت عيبًا أن أقاسمك الدرهم.

وقد عرف كثيرون من علماء السلف الصالح أنهم كانوا يعاملون من يسيء إليهم لا بالصفح فقط، ولكن بالإفضال؛ لأنهم بهذا يصونون أعراضهم، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: **«ما وقى به المرء عرضه؛ فهو صدقة»**.

ولقد كان أسلافنا الكرماء يعطون الشاعر البذيء اللسان، وربما أجزلوا له كالحطيئة وجرير والفرزدق وأبي نواس، ولا يرون بذلك بأسًا ما دام في ذلك العطاء صونًا لأحسابهم وأعراضهم، ثم إن الإفضال والمياسرة والتسامح.. كلُّ هذه تبقى للمرء ذكرًا في حياته وبعد موته، والإنسان في هذه الدنيا سيرة حسنة وذكر صالح.

وفي هذا يقول الشاعر:

الَمـــرءُ بَعـــدَ المَـــوتِ أُحدوثَـــةٌ يَفنـــى وَتَبقـــى مِنـــهُ آثـــارُهُ

فَأَحسَـــنُ الحـــالاتِ حـــالُ اِمـــرِئٍ تَطيـــبُ بَعـــدَ المَـــوتِ أَخبـــارُهُ

ولقد تأملت أهل السماحة فوجدتهم عمومًا يتحلون بصفتين: أولهما: أنهم من ذوي الأصول الكريمة التي كانت نشَّأتهم على التجاوز والإيثار، وعلَّمتهم أن قصة الحياة الدنيا قصيرة لا يغتر بها إلا الحمقى، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية؛ حيث الخلود والنعيم لأهل الإيمان والباقيات الصالحات.

أما الصفة الثانية التي يتميز بها أهل التسامح؛ فهي نفوسهم الكبيرة التي تأبى أن تنزل إلى مستويات الطمع الزائل والحرص القاتل والصغار المذل والمهاترة المسقطة للمروءة، فكلما تعارضت مصالحهم الدنيوية مع كرامتهم ضحوا بالمصالح وضنوا بالكرامة، وقد جاء في الأثر وصف للنساء (أي: الزوجات) بأنهن يغلبن الكريم ويغلبهن اللئيم، وذلك لأن الكريم يستحي من الصوت المرتفع والصخب الغوغائي وانتشار القالة، فتراه يفتدي نفسه من كل هذه الأمور ببذل ماله ولطف حلمه، أما اللئيم فلا يبالي بأن يذمه الناس ويتأذى بصوته الجيران وتشيع له ولأسرته أسوأ مقالات السوء، ولهذا فهو يرخص صراخه ومروءته وسمعته من أجل أن يحافظ على درهم أو متاع، ومن أجل هذه الاعتبارات كان رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في التسامح مع أهله وأقاربه والناس أجمعين.

## من أحاديث الآداب

# النهي عن التكبر والمفاخرة

قرأنا في سيرة صالحي السلف أنهم كانوا يتصاغرون ليبعدوا بأنفسهم عن الكبر، ففي حجة من حجات عمر ﷺ وقف في مكان من مشارف مكة، وقال لمن معه في هذا المكان: كنت أرعى غنيمات للخطاب، وكان شديدًا -وهو يقصد بذلك أن يحد من غلواء نفسه، ومن قبل عمر ﷺ كان رسول الله ﷺ يقول: «**إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في شعاب مكة**»، ومن هذا القبيل ما فعله أبو بكر حين تولى الخلافة؛ إذ ذهب إلى ديار قوم كان يحلب لهم غنمهم يريد أن يستمر فيم عوَّدهم عليه، والحق أن النفوس الكبيرة لا تحتاج أن تكبر نفسها بالتصنع، لكنها تتعب أجسامها بالعمل الذي هو مقياس عظمة النفوس.

**وَإِذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا تَعِبَت في مُرادِها الأَجسامُ**

إنَّ الكبر هو أحد العقد النفسية المهلكة وهو لا يصدر إلا عن نفوس مهزوزة ضعيفة المواهب والأعمال، ثم إن أكثر المتكبرين تجدهم ضعاف العقول، وإلا فكيف يتكبر من أصله نطفة وآخره جيفة، وهو لا يدري ما يصير إليه أمره، ولا ما خبَّأه له قدره، ومبلغ علمه لا يتعدى لحظته التي هو فيها.

إنَّ المؤمن لا يمكن أن يداخل نفسه الكبر؛ لأن الكبرياء هي صفة الله التي لا يجوز أن يشركه فيها مخلوق، جاء في سنن أبي داود فيما يرويه رسولنا عن ربه قال الله -تعالى: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم**»، وإنه لمن المضحكات المبكيات أن ترى عبدًا جالسًا على كرسي وظيفته قد أبطره ذلك المركز الفاني، فهو يتكبر على عباد الله ويرهقهم، وهو يرى نفسه بأم عينه أضعف شيء أمام أحداث الدنيا، فهو ينهار إذا ألم به أدنى ألم أو استبد به أي وهم.

إنَّ ربنا يحبُّ لعبده معالي الأمور وأشرافها، ويكره لعبده حقيرها وسفسافها، لكن عظائم الأمور إنما تكون في الباقيات الصالحات التي هي عند ربنا خير ثوابًا وخير أملاً.

إنَّ أوقح الصفات الذميمة هي صفة الكبر؛ لأنها لا تصدر إلا عن إنسان جاهل حقيقة

نفسه وأصل خلقه، ولهذا لا يغفر الله ﷻ من هذه الصفة مثقال حبة خردل، يقول رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح مسلم: «**لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر**».

وفي سنن الترمذي يقول النبي ﷺ: «**بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَطَغَى وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ**».

ولأن الخيلاء خلق الجبابرة، فقد نهى رسول الله ﷺ عن دقه وجله، وعن أي مظهر خارجي يوحي به كالإعراض عن الفقير واحتقاره، وكجر الثوب خيلاء، جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، وحسبك أن يحرم العبد نظرة الله إليه، والنظر إلى الله في الآخرة هو أسمى ما يتمتع به عباد الله الأبرار.

هذا، وإن الكبر هو أقرب الطرق المؤدية إلى الظلم والجبروت، ومن ثم فهو يردي صاحبه في الهالكين، جاء في سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**»، وكما يستقبل المتكبر عباد الله وهو متجهم يستقبله ربه في القيامة وهو عليه غضبان؛ لأن جزاء العبد في الآخرة من جنس عمله، جاء في مسند أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تعاظم في نفسه واختال في مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان**».

كان -عليه الصلاة والسلام- أحسن الناس تواضعًا وأعظمهم مروءةً وأدبًا، كان يكره أن يقوم له الناس كما تقوم الأعاجم لملوكها، ففي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**من سرَّه أن يمثل له الرجال قيامًا؛ فليتبوأ مقعده من النار**».

هذا، وليس من الكبرياء أن يتخذ المسلم له ثوبًا نظيفًا ونعلاً نظيفًا ويتطيب ويتجمل للقاء الأصدقاء، فقد سئل رسول الله ﷺ عن هذه الأمور فقال: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق، وازدراء الناس**»، كما جاء في مسند أحمد -رحمه الله.

هـذا، ولا تحسبن الكبرياء مرتبطة بالغنى والجاه والأرومة، فرب غني عالي المحتد والحسب يلقاك في تواضع عجيب في حين ترى إنسانًا فقيرًا يغمط الحق ويظلم، ومثل هذا تكون عقوبته مضاعفة؛ لأنه لا يملك من مقومات الكبر شيء، وهو مع ذلك يتكبر، ولهذا كان العائل المستكبر ممن لا ينظر الله إليهم يوم القيامة.

هذا، وعلى العبد أن يعلم أن التواضع لا يحط من منزلته، بل إنه -بإذن الله- يزيده علوًا وشرفًا في أعين الخلق، أما الذي يحط من منزلة المرء؛ فهو التعالي على الناس بغير حق، جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**حقٌّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**». هذا، ولرب كبر ضيَّع عمل العاملين وأحبط سعيهم وعصف بحسناتهم على كثرتها، ففي الأثر الذي رواه الديلمي يقول النبي ﷺ: «**إنَّ العجب ليحبط عمل سبعين سنة**».

هذا، وتعظم فظاعة الكبر، فقد جاء في الأثر الذي رواه ابن مردويه أن رسول الله ﷺ قال: «**الفلق سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون، وإن جهنم تتعوذ بالله منه**».

**وبعد**؛ فإن المؤمن يتحلى بالدماثة والأدب ولين الجانب ورقة الشمائل والتواضع للناس، فينال بهذه الفضائل طيب الأحدوثة في الدنيا ورضاء الله في الآخرة.

***

## من أحاديث الآداب

# الحيـــــــــاء

من الآداب التي تلازم المؤمن أينما توجه أدب يحبه الله ورسوله، بل هو أدب يتخلق به الله ورسوله، وذكره رسول الله ﷺ بأنه شعبة من الإيمان، وهذا يعني أن الحياء من شارات المؤمن وسماته، وحسبك أن الله ﷻ يستحي من عبده وهو فوق عباده قاهر قادر، يقول شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» ما خلاصته: أما حياء الرب من عبده، فلا تدركه العقول والأفهام، لكنه حياء يمتزج فيه الكرم والبر والجود والجلال، وقد ورد في السُّنة أنه ﷻ يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا، كما ورد أنه ﷻ يستحي أن يعذب شيبة شابت في الإسلام، وعلى ذكر حياء الله من عبده المؤمن أذكر أن شيخًا من أشياخنا كان إذا قرأ الحديث الشريف: «**إنَّ الله ليستحي أن يعذب شيبته في الإسلام**» كان يبكي، فقيل له: تبكي والحديث يبشرك بكرم الله عليك؟! فقال: أبكي لأن ربي القادر القاهر القوي الجبار يستحي وأنا العبد الضعيف لا أستحي من معصية الله.

ولقد كان الحياء خلقًا لرسول الله ﷺ، فقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها».

وكان الحياء صفة الأنبياء، فقد أخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**إن موسى** ﵇ **كان حييًّا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه بنو إسرائيل، وقالوا: «ما يستتر موسى إلا من عيب بجلده كبرص أو آفة»**.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قمة في الحياء، فقد ذكر رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة –رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ قال عن عثمان بن عفان ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**».

وإنما احتل الحياء هذه المنزلة في سيرة السلف الصالح؛ لأنه الكابح القوي الذي يكبح المرء إذا همَّ بما لا يليق، يقول الشاعر:

ورب قبيحـــة مـــا حـــال بينـــي وبـــين ركوبهـــا إلا الحيـــاءُ

والحقُّ أن الذي لا يستحي يصنع ما يشاء دون مبالاة، ففي الحديث الذي رواه البخاري يقول النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى.. إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

والحياء فطرة إلهية للإنسان، فهو إذا تكشَّف ستر نفسه بفطرته، بينما نبذ الحياء أمر وتصرف شيطاني، فقد طارد الشيطان آدم وحواء حتى نزع عنهما لباسهما الذي يواري سوءاتهما، ولكن بالفطرة طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة استحياءً من التعري، ولهذا كانت كل دعوة إلى العري إنما هي دعوة منحرفة كافرة بفطرة الله التي فطر الناس عليها.

ولقد كان الحياء من آداب الجاهلية العربية، فلما جاء الإسلام أكد تلك الصفة وحث عليها، قال عنترة وهو شاعر جاهلي:

إنّي اِمــرُؤٌ سَــمحُ الخَليقَـةِ ماجِـدٌ لا أُتبِــعُ الــنَّفسَ اللَّجــوجَ هَواهــا

وَأَغَـضُّ طَـرفي مـا بَـدَت لي جـارَتي حَتّـى يُـواري جـارَتي مَأواهــا

ولقد وقف أبو سفيان أيام جاهليته بين يدي قيصر ليسأله عن محمد ﷺ، فاستحى أن يكذب، وقال عن نفسه: لولا حيائي أن يمسكوا عليَّ كذبًا لكذبت على هرقل حين سألني عن محمد، ومما يدلُّ على أن الحضارة الحديثة منافية لفطرة الله ما شاع في بلاد الغرب والشرق من تكشف يندى له جبين الإنسانية، حتى لقد ادعى بعض رجال الفكر الأوروبي أن العري لون من ألوان الحرية، وكان من آثار ذلك الفكر السقيم أن أنشئت أندية للعراة يبرزون فيها كالحيوانات.

والحياء أنواع كلُّها بفضل الله شرف وبركة وأخلاق، فالحياء من الله يعصم العبد عن معاصيه في السر والعلانية، ويوصله إلى أعلى مراتب الدين، وهي مرتبة الإحسان حين يعتقد العبد أن الله يراه أينما كان، فيعبد الله كأنه يراه، أما الحياء من الناس، فهو أيضًا من أشرف الشرف؛ لأن المرء عندئذٍ يربأ بنفسه عن كلِّ ما يسقط مروءتها، وأما حياء المرء من نفسه، فتلك منزلة من منازل الأبرار؛ لأن هذا النوع من الحياء يصدر عن النفس اللوامة التي هي الضمير الحي، وهذه النفس تتعقب صاحبها باللوم على كلِّ صغيرة وكبيرة، مما ينزل بالإنسان عن مستوى الفضلاء.

ولقد أشاد رسول الله ﷺ بالحياء، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء خير كله**»، وفي الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله حيي ستير يحبُّ الحياء والستر**»، وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لكلِّ دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء**».

ومعنى هذا أن الطابع المميز للمجتمع الإسلامي أنه مجتمع تشيع فيه صفة الحياء، وهي صفة تحرس المجتمع من كلِّ عمل يخدش الحياء أو ينافي المروءة، وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء (يعني من الهمجية)، والجفاء في النار**»، وفي صحيح البخاري: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**».

ومما يعينك على الحياء -أخي المسلم- أن تراقب الله ﷻ فتذكر أنه يراك، وإن لم تكن تراه، وتستحضر عظمته وقدرته وجلاله أينما كنت، وتعلم أن الله ﷻ غيور على حرماته وحدوده.

هذا، ومما يعينك على الحياء من الله أن تذكر دوامًا أنه أسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة، وسخَّر لك ما في السموات وما في الأرض لتكريمك، وهذا التكريم يقابله العقلاء بالاعتراف والشكر لا بالمجاهرة بالمعاصي.

ولا بدَّ من الإشارة أن الحياء لا يجوز أن يتحول جبنًا وسكوتًا على المنكر، فليس من الحياء أن ترى مجرمًا يجاهر بالجريمة، فتستحي من ردعه، وليس من الحياء أن تكتم الشهادة وكلمة الحق، وليس من الحياء أن تستحي من سؤال العلماء عن أمور العلم النافعة، فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**نعم نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**»، ولا غرو فالعلم يهرب من المستحي والمستكبر.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الذين يستحون من الله حق الحياء.

* * *

### من أحاديث الآداب

## الرفق بالحيوان

لا يكتفي المؤمن أن يتحلى برحمة الإنسان لأخيه الإنسان، بل إن رحمته تتجاوز ذلك إلى الحيوان، فالرفق بالحيوان من وصايا رسول الله ﷺ، ولا غرو فرسول الله ﷺ وصفه ربه بأنه أرسل رحمة للعالمين، والعالمون كل مخلوقات الله، والله ﷻ رب العالمين.

إنَّ الإنسان ليثاب حين يرحم الحيوان ويرفق به، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**في كلِّ ذات كبد رطبة أجر**»، «**لعن الله من مثل بالحيوان**»، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ نهى أن يقتل شيء من الدواب صبرًا، والقتل صبرًا هو أن تحبس من تريد قتله حتى يموت من الجوع والعطش.

ولقد كان رسول الله ﷺ يكره بل ويلعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرمى إليه، فقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**»، وكان - عليه الصلاة والسلام- يكره أن تضرب الدابة على وجهها أو توسم في وجهها، ففي سنن أبي داود أن أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا**»، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ.

وفي أيامنا هذه يفاخر أهل أسبانيا بلعبة تخصصوا فيها واعتبروها من تراثهم وهي مصارعة الثيران والتحريش بينها أو بين ثور وإنسان، حتى يقتل الثور بطريقة وحشية، جاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ نهى عن التحريش بين البهائم.

هذا، وإن الله سائل كل عبد آذى طيرًا أو حيوانًا عن سبب إيذائه مهما كان شأن ذلك الطير ضئيلاً، فقد روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل عصفورًا بغير حقها سأله الله ﷿ عن قتله**»، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «**أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي بها**».

على أن الضار من الدواب والحيوان يقتل، ويكون في قتله أجر كالكلب العقور والحية، يقول النبي ﷺ فيما رواه أبو داود -رحمه الله: «**من قتل حية كمن قتل كافرًا**»، وفي الأثر أن

عقربًا لسعت رسول الله ﷺ فقال: **«لعنك الله، فما تبالين مؤمنًا آذيت أم كافرًا»**، ثم دعا بالملح فدلكه فهدأت، وبعض الحيوان النافع في الجهاد يحترم ويكرم، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»**، وكان يكبر من يربي أفراسًا للجهاد في سبيل الله.

هذا، وكان رسول الله ﷺ يعلِّم أصحابه ما يقيهم شر العقرب، فقد روى أبو حنيفة – رحمه الله– أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال حين يصبح: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره عقرب حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي لم يضره حتى يصبح»**.

وكان –عليه الصلاة والسلام– يتعوذ بالله إذا سمع نهيق حمار أو نباح كلب أو صوت ديك بالليل، ويقول: **«إنهم يرون ما لا ترون»**.

وكان –عليه الصلاة والسلام– يوصي بالإحسان والرفق في كلِّ شيء، وخصوصًا في موضع الذكاة والذبح، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»**.

هذا، وقد دأبت بعض الدول على تأسيس جمعيات للرفق بالحيوان، لكنها في الوقت نفسه تستهين بدم الإنسان مع أن أعظم المخلوقات شأنًا عند الله هو الإنسان المؤمن، وفي هذا يقول النبي ﷺ: **«لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن»**.

إنَّ احترام الكرامة الإنسانية والدم الإنساني البريء من أعظم الأوامر الإنسانية، وحتى لا تشيع تلك الجريمة الشنعاء، قال الله –تعالى– في كتابه الكريم في سورة «المائدة»: **﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾**، وذلك لأن القاتل يسنُّ في الأرض جريمة القتل ويشيعها، فيساهم في إفساد الأرض وإشاعة هذه الجريمة المنكرة.

هذا، ولبيان فضل الرفق بالحيوان، فقد جاء في صحيح البخاري حديثان حول هذا الأمر فيهما حث على هذه الفضيلة؛ لأن بها ينال العبد مغفرة الله وحسن جزائه، وبعكسها ينال غضبه وناره، جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«دخلت امرأة النار في هرة**

**ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»** أي: حشراتها.

إنَّ مثل هذا الأمر قد يشاهده المرء في ملاعب الأطفال؛ إذ ربما أمسك بعضهم هرة وطفقوا يطاردونها ويعبثون بها دون أن يتفقدوا طعامها وشرابها حتى تموت بين أيديهم، وينالهم بموتها إثم عظيم، وفي صحيح البخاري أيضًا يقول النبي ﷺ **«غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ** (أي: بئر) **يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا** (أي: بغطاء وجهها)، **فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ»**.

وقد نهى رسول الله ﷺ أن تحبس الحيوانات على نزر من الطعام، فتضعف أجسادها، وأنكر على أهل بيتٍ رأى عندهم جملاً قد برزت من الضعف عظامه، فقال لهم: «الله الله في هذه البهائم، اقتنوها صحيحة أو كلوها صحيحة».

قبل أن ينشئ الأجانب جمعيات الرفق بالحيوان بألف وأربعمائة عام ونيف كان رسول الله ﷺ يرسي قواعد الرحمة في الأرض، ويوصي بالحيوانات خيرًا، وينهى عن إجاعتها أو إيذائها؛ ليظل الإسلام دين الرحمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا غرو فربنا من علياء سمواته كتب على نفسه الرحمة، ونبيُّنا -عليه الصلاة والسلام- هو سراج الدنيا ورحمة العالمين.

***

## من أحاديث الآداب

# الحبُّ في الله والبغض في الله

من أنواع العبادة نوعان قلما اتضحت صورتها عند كثير من الناس.. إنهما عبادة الحب وعبادة البغض، فحين يكون حب المرء في الله وبغضه في الله فهو عندئذٍ ممن ذاق حلاوة الإيمان، وأصبح وليًّا من أولياء الرحمن، يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: **«ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**.

والحبُّ أحيانًا يأخذ بيد صاحبه حتى يضعه في مصاف الصديقين، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود: **«إنَّ من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله»**. قالوا: يا رسول الله، ألا تخبرنا من هم؟ قال: **«هم قومٌ تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم النور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»**، ثم قرأ الآية: **﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

وما دام الحب عبادة وتضحية؛ فانظر -يا أخي المسلم- من تعبد، واحرص على أن تجعل عبادتك أسمى السمو وأشرف الشرف. لقد أحب مجنون بني عامر ليلى، وبذل لها عقله وحياته، فمات في سبيل امرأة يمكن أن يغني غيرها عنها، وصرف عبادته إلى شهوة مجنونة عارمة صوَّرت له من المرأة شيئًا غير المرأة، حتى ضيَّع دينه، ونسي ربه وسفه نفسه، واختلطت عليه عبادته، فقال في ذلك:

أَراني إِذا صَلَّيتُ يَمَّمتُ نَحوَها ... بِوَجهي وَإِن كانَ المُصَلّى وَرائِيا

أُصَلّي فَما أَدري إِذا ما ذَكَرتُها ... اِثنَتَينِ صَلَّيتُ الضُحى أَم ثَمانِيا

إنما يكون شرف الحبِّ على حسب سمو مقصده ونبل هدفه، وهذا النوع من الحب هو الذي غرسه رسول الله ﷺ في شباب الإسلام.. كان الشباب الجاهلي قبل طلوع نور الإسلام يعشق ثلاثة أمور من أجلها يعيش ومن أجلها يتمنى الحياة، وقد ذكرها الشاعر الجاهلي في معلقته فقال:

وَلَولا ثَلاثٌ هُنَّ مِن عيشَةِ الفَتى          وَجَدِّكَ لَم أَحفِل مَتى قامَ عُوَّدي

وذكرها بعد هذا البيت، وإذا هي الخمر والنساء والأسفار، فلما جاء الإسلام بسنائه وسناه لم يطمس ذلك الحب في النفوس، ولكنه وجهه إلى الهدف الأسمى، فعلَّمهم بدلاً من تلك الأنماط الرخيصة حبًّا من طراز آخر.. إنه حب الله ورسوله.

في يوم الفزع الأكبر ينقسم الإخلاء والأحبة قسمين أخلاء متحابون، حتى والناس في أشد الفزع، وإخلاء بعضهم لبعض عدو يسبُّ بعضهم بعضًا ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، يقول الله -تعالى- في سورة «الزخرف»: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾.

كان قوم إبراهيم عليه السلام يعقدون بينهم صداقات متجمعين على عبادة صنم يسمرون حوله، فكان إبراهيم عليه السلام يحذِّرهم من محبة ساقطة الهدف قطبها صنم لا يضر ولا ينفع، وفي هذا يقول الله -تعالى- على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

إنَّ من الحبِّ ما يورِّث ندامة يوشك المرء منها في القيامة أن يقطع يديه ندمًا، كمثل ذلك القرشي الذي آمن وأقبل على القرآن ينير به قلبه، لكن صديقًا له كان ضالاً، فلم يزل به حتى شغله عن القرآن، فقسا قلبه وعاوده كفره، وفي هذا يقول ربنا عز وجل في سورة «الفرقان»: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾.

إنَّ من آداب المؤمن أن يجعل هواه وميله وحبه تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ، فيحب أحباب الله وأهل الدين، ويكره أعداء الله وأعداء الدين حينئذٍ يكون الإيمان التام -إنْ شاء الله، يقول رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وإني لأعجب كيف يتعلق قلب المسلم في هذه الأيام بشرار الخلق من أهل الفساد والتضليل، أعرف أدباء من العرب في هذه الأيام إذا ذكر له أديب أجنبي كافر هشَّ له

واستبشر، وإذا سمع الجيد المعجب من أدبنا وتراثنا وسمع أسماء أدبائنا أهل العقيدة والإبداع اشمأز واستكبر، وقد ذكر الله ﷻ أمثال أولئك الأشرار بقوله في سورة «الزمر»: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وقد شاع في هذه الأيام بين المسلمين مصادقة الكافرين لعلاقة تجارية أو مصلحية، فترى المسلم وزوجته وبناته ربما استقبلن الكافر وزوجته في هالة من الإجلال، ثم يتعلمون من ذلك الأجنبي التكشف والاستهتار بالدين، يقول النبي ﷺ: **«من آثر محبة الله على محبة الناس كفاه الله مئونة الناس»**، وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**.

إنَّ كثيرًا من المسلمين في هذه الأيام يشوهون سمعة أهل الدين، ويتهمونهم بشتى الأراجيف، بل لعلهم يخافون من اجتماع المصلين ويعلنون عليهم العداء، وما دروا أنهم بذلك يعلنون الحرب على الله، يقول النبي ﷺ فيما رواه البخاري: **«من عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب»**.

وبيَّن رسول الله ﷺ للمؤمنين أن من أراد أن يحترم الله ويحبه الله؛ فعليه من جانبه أن يحبَّ الله -تعالى، ويحترم أوامره يقول النبي ﷺ: **«من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله؛ فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»**.

ولعل أكبر دليل على حبك لربك هو أن تكثر من ذكره، جاء في الأثر: **«من أحب شيئًا أكثر من ذكره»**، وفي مصابيح السنة يقول النبي ﷺ: **«من أشد أمتي لي حبًّا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»**، ثم إن على المؤمن أن يحب الصالحين والأبرار؛ ليكون من زمرتهم، يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: **«المرء مع من أحب»**، وفي معجم الطبراني: **«كل نفس تحشر على هواها، فمن هوى الكفر فهو مع الكفرة، ولا ينفعه عمله شيئًا»**، وفي سنن الترمذي: قال الله -تعالى: **«المتحابون بجلالي على منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»**.

اللهم اجعل حبنا فيك وكرهنا من أجلك، واجعلنا سلمًا لأوليائك حربًا على أعدائك.

## من أحاديث الآداب

# آداب السَّـــــلام

في هذه الحلقة سنذكر -إنْ شاء الله- جملة من آداب السلام مستقاة من أقوال وأفعال لرسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

- في الحديث المتفق عليه أن أمَّ هانئ بنت أبي طالب -رضي الله عنها- قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره بثوب، فسلَّمت عليه فقال: «**مَنْ هذه؟**» قلت: أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: «**مرحبًا بأمِّ هانئ**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «**إنَّ جبريل يقرأ عليكِ السلام**».

- وفي صحيح مسلم أيضًا أن أبا بكر ﷺ قال لعمر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ: «انطلق بنا إلى أمِّ أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها».

- وفي الصحيحين ما يفيد أن رسول الله ﷺ لم ينكر على أصحابه حين سلَّموا عليه وهو يصلي، وفي سنن الترمذي وأبي داود ومسند أحمد أن النبي ﷺ ردَّ بالإشارة على صهيب وابن عمر -رضي الله عنهما- حين سلَّما عليه وهو يصلي.

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سلَّم عليه رجلٌ وهو يبول، فلم يرد عليه.

- وفي الحديث المتفق عليه أن أبا هريرة ﷺ مرَّ على صبيان، فسلَّم عليهم وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعله».

- وفي مسند أحمد وسنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد**».

**أولاً**: السَّلام سُنة مباركة كريمة من سنن الإسلام شرَّعها ربنا ﷻ لتتحاب بها أمة محمد ﷺ، والسلام هو تحية أمة محمد في الدنيا، وتحيتهم في الجنة، وتحية الله إليهم يوم يلقونه ويشملهم بتجليه، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى معناه أن الله ﷻ يعد بالأمن والسَّلام كل صالح خير

من عباده.. إنه ﷻ السَّلام المؤمن الذي يشمل عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالسلام، ويؤمنهم في الدنيا والآخرة، وإفشاء السلام سُنة كفاية مؤكدة، وردُّه في أصح الأقوال فرض كفاية.

**ثانيًا:** لا يسلِّم أجنبي على أجنبية، ويجوز أن يسلِّم على عجوز، وعلى قريباته اللاتي عرفن بالصلاح، كما رحَّب رسول الله ﷺ بابنة عمه أم هانئ.

**ثالثًا:** الحقُّ أن السلام على المرأة الأجنبية يتوقف على النية، ومن ثَمَّ ذهب أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- يزورا أم أيمن اقتداءً برسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها: «**إنَّ جبريل يقرأ عليكِ السلام**»، ويجوز لرجل أن يزور صديقة صالحة لوالدته ويسلِّم عليها، كما يجوز أن يزور امرأة صالحة تديم الذكر والعبادة، ويطلب منها الدعاء، ففي بقية حديث الزيارة التي قام بها أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- لأم أيمن أنهما عزياها في رسول الله ﷺ، فقالت ما معناه: «أنا ما حزنت لانتقال رسول الله ﷺ إلى لقاء ربه الكريم، ولكنني حزنت لانقطاع الوحي عن هذه الأرض»، ثم بكت وبكيا معها.

**رابعًا:** لا يلقى السلام على من يستحم أو يتخلى أو يبول، ولا يلقى على مشغول كمن يأكل أو يشرب أو يعد نقودًا، ويجوز أن تسلِّم على المصلي، ولكن لا تنتظر منه ردًّا إلا بعد أن يسلِّم، ويجوز للمصلي أن يرد التحية بالإشارة، وإذا سلَّمت على مؤذن جاز أن يرد عليك بالإشارة أو بالسلام أثناء فتراته.

**خامسًا:** من السُّنة السَّلام على الصبيان، ففي ذلك تعليم لهم كما أن فيه إشعارًا لهم بالاحترام ورفعًا لمعنوياتهم.

هذا، وتحية السلام ترد بأحسن منها، فإذا قال لك المسلم: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ولكن إذا قال لك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذ ذاك لا زيادة عليها.. إنَّ من يقول لك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه يكون قد تكلف، والتكلف مذموم.

**سادسًا:** إذا سلَّم من الجماعة واحد سدَّ عن الجماعة؛ لأن السَّلام سُنة كفاية، أما عند الرد

فمن الأفضل أن يرد الجماعة كلهم.

**سابعًا**: إذا سلَّمت على واحد فخاطبه بضمير الجمع، وقل له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فذلك أفضل من أن تقول له: السلام عليك، أما في رد السلام؛ فيجوز أن تقول للمسلم: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وفي كلتا الحالتين استعمل في الرد واو العطف فقل: وعليكم السلام، ولا تقل: عليكم السلام.

**ثامنًا**: الرسالة التي تأتيك من صديق تعتبر تحيةً، فرد عليها بأحسن منها، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله الكريم: «**لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد**»، والرسالة دليل على المرسل، فلتكن مناسبة لحال المرسل والمرسل إليه، وإذا كتبت إلى مسئول أو رئيس؛ فاجعلها مختصرة وافية، وتوخ البلاغة المؤثرة، أما إذا كانت إخوانية خفيفة؛ فلا بأس بالإطالة وإخبار المرسل إليه عن أمور شخصية واجتماعية مما يحلو له معرفته والاستماع إليه.

**تاسعًا**: في حديث أم هانئ حين دخلت والرسول ﷺ يستحم تستره فاطمة -رضي الله عنها- أمورٌ حسنة مستفادة، منها: حسن استقبال القريبات وبنات الأعمام بحضور المحارم، فإذا كنت مع زوجتك مثلاً وزارتكم إحدى بنات أعمامكم فرحِّب بها، وكلمة «مرحبًا» كلمة حلوة ومعناها: «لقد حللت بقدومك إلينا مكانًا رحبًا وسعة في المكان والقلوب».

وفي الحديث ما يجيز أن تعرف نفسك بكنيتك فتقول: أنا أبو محمد أو أبو حسن، وتقول المرأة: أم هانئ أو أم إبراهيم، كما يفيد الحديث جواز الكلام أثناء الوضوء أو الغسل، وأن يلقى السلام ويرد أثناءهما.

**وبعد**؛ فما يجوز أن ينسى الهدف الأعظم من السلام وهو قوله ﷺ: «**ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**».. إنَّ الحكمة العظمى من السلام هي نشر المحبة في المجتمع الإسلامي، فإذا تحاب أفراد المجتمع في الله فقد تحقَّق إيمانهم بإذن الله، وإذا تحقَّق إيمانهم ضمنت لهم الجنة، وهذا ما أشار إليه رسولنا ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»، وقد جزم الفعل «تؤمنوا» لشبه الجملة بالشرطية، والله أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## من أحاديث الآداب

# إفشــــــاء السلام

أقبلتُ ذات يوم على سُربة من صغار الأطفال يلعبون كرة القدم، فلما دنوت بحيث أسمعهم وأرى حركاتهم إذا كل واحد منهم كأنه مُهرٌ عربيد لم يروض، كان لهم مع كل ضربة كرة صيحاتٌ صارخةٌ بين مستنكرة ومبتهجة ومحذرة، لكنها على شتى موضوعاتها لا تخلو من فلتات توشك أن تكون بذاءً، حتى إذا صرت منهم قاب قوسين سألت الله العافية، وألقيتُ عليهم السُّلام فردُّوا التحية بأحسن منها، والغريب أنهم أوقفوا اللعب، وكأن إلقاء السَّلام عليهم قد نفذ إلى قلوبهم، فانتهزت الفرصة وسألتهم عن أحوالهم، ودعوت لهم بالنجاح، وقلت لهم: إنَّ لعبة كرة القدم تقوي عضلات الأرجل، وقد كنت ألعبها فالعبوها لتقويكم، فقط احذروا فيها ثلاثة أمور: ألا يخالطها سباب أو شتائم؛ لأن الله يكره ذلك، وألا تلهيكم عن الدروس والواجبات، وأن تقطعوا اللعب إذا سمعتم أذان المغرب، وتغسلوا من ماء هذا المسجد القريب لتصلوا مع الجماعة.

ولقد كان من بركات إلقاء السلام أن رأيت كثيرًا منهم في صلاة المغرب، وكنت قد قرأت في كتب السُّنة أن رسول الله ﷺ كان يهتم كثيرًا بإلقاء السَّلام على الأطفال، بل لقد كان يعرج عليهم ليلقي السلام عليهم عن قصد، وقد يسأل أحدهم عن لعبه أو عن عصفوره، وربما اشترك في محاولات الرماية معهم وعلَّمهم كيف تمسك القوس ويسدد السهم، وقرأنا أن أبا هريرة ﷺ كان يلقي السلام على صغار الصبية، فلما سئل في ذلك قال: لقد كان يفعله رسول الله ﷺ.

ولأن إفشاء السلام من شعب الإيمان، ولأنه مفتاح الوداد بين القلوب المتجافية، ومزيل الضغائن والكراهية العاتية رأيت أن أبسط القول في هذا الأدب العظيم، وأحدِّث من السُّنة عن مدى ما كان يحرص عليه النبي الكريم ﷺ.

- جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سُئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: **«تطعم الطعام،**

وتقرأ السَّلام على من عرفت ومن لم تعرف».

– وفي صحيح مسلم والسُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السَّلام بينكم».

– وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام.. تدخلوا الجنة بسلام».

– وللطبراني بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام».

– وفي الصحيحين وسنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: ردُّ السّلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»، وزاد مسلم سادسة: «وإذا استنصحك فانصح له».

– وفي سنن أبي داود والترمذي: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام؟ فقال: «أولاهما بالله».

– وللبزار وابن حبان وصححه: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والماشيان أيهما بدأ فهو أفضل».

– وجاء في السُّنن: «مَن قال: السلام عليكم كتبت له عشر حسنات، ومَن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب له عشرون حسنة، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة».

– وروى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس؛ فليسلِّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة».

أولاً: إنَّ أجمل تحية يتبادلها البشر هي التحية المباركة الطيبة التي شرَّعها ربنا ﷻ (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وذلك لأن السَّلام اسم من أسماء الله الحسنى، حلو المدلول، يبشر بأن الله ﷻ أعطى خلقه أمانًا من أن يُظلموا، وحبذا لو يجعل العالم كله تحيته (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)؛ لأن السلام العالمي هو الأمنية الغالية التي تداعب أحلام الإنسانية، فقد

كانت أمنية القرون الأولى ومطمع الأجيال الحاضرة، وتحية السلام في الإسلام لا تكتفي بأنها عهدٌ وأمان للمسلم عليه، لكنها إلى جانب ذلك دعاء بأن يشمل الله المسلم عليه بالرحمة والبركة، وبهذا فهي أنشودة حب إنساني نبيل.

**ثانيًا**: إذا حييت أخاك عند مقابلته فحيه أيضًا عند وداعه؛ ليظل الجو عطرًا بأنفاس المحبة والأمن، وإذا افترقتما ولو دقيقة ثم تقابلتما فأعيدا تلك التحية الإلهية الحبيبة؛ ليظل حبكما في الله موصولاً.

**ثالثًا**: تحية السلام تقترن دوامًا بالأدب والتواضع، فيسلِّم الصغير على الكبير، فهذا هو الأدب، ويسلِّم الراكب على الماشي، وهذا هو التواضع، ويسلِّم القليل على الكثير احترامًا للكثير، كما يسلِّم الماشي على القاعد، ومن آداب السلام ألا تلقيه على مشغول أو على اثنين يتساران بحديث خاص، فإذا مررت مثلاً على مسلمين يتهامسان بحديث، وتبدو عليهما الجدية؛ فلا تدس رأسك بينهما لتقول لهما: السَّلام عليكم.

**رابعًا**: من الأفضل إذا حييت أخاك أن تقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)؛ ليكتب لك ثلاثون حسنة، وتقول له: (السلام عليكم) بلفظ الجمع إظهارًا لاحترامه، ثم حاول أن تكون أنت البادئ بالسلام؛ لأن البادئ أفضل وأولى بالله ﷻ.

**خامسًا**: إذا مررت على مجموعة نساء من قبيلتك جالسات على باب إحداهن في أدب واحتشام، فقل لهن في أدب ووقار: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وليكن قصدك الاحترام ليشعرن بالكرامة.

**سادسًا**: اقترن السلام في الأحاديث بإطعام الطعام؛ لأن السلام كثيرًا ما يكون بداية تعارف، ثم يتلوه تزاور وعيش وملح، ثم إن خصلة الكرم مدخل واسع إلى قلوب الناس؛ إذ الكريم دائمًا محبب، والبخيل دوامًا كريه.

نسأل الله أن يرزقنا حبَّه وحبَّ رسوله وحبَّ الصالحين.

***

## من أحاديث الآداب

# آداب المجالسة

• المجالسة عند المؤمن فن رفيع له أصوله وآدابه وله ذوقه ومعالمه، والإسلام يفضِّل أهل المجالسة على أهل العزلة؛ لأن الأولى سنة الأنبياء والمصلحين، أما الثانية وأعني العزلة؛ فهي سنة الهاربين اليائسين، على أن المؤمن حين يكون اجتماعيًّا محبًّا للمجالسة والمعاشرة ومجالس الرجال يلتزم آدابًا معينة تجنبه -بإذن الله- سلبيات الخوض واللعب ومضيعة العمر.

**وإني موجزٌ هنا -إنْ شاء الله- آداب المجالسة والمخالطة، لعل الله يعطينا وإياكم خيرها ويجنبنا جميعًا شرها:**

**أولاً:** من آداب المجالسة أن تتحلى أثناءها بالسكينة والأدب والوقار، وتلتزم طول الجلسة البشاشة والاستبشار، فمن حكم عليٍّ ﷺ قوله: «من الدهاء حُسن اللقاء»، ومعنى هذا القول أن أبرز صفات السياسي اللبق حسن استقباله لزائريه وخلطائه، والإقبال عليهم بالخبر الطريف والحديث اللطيف.

**ثانيًا:** ومن آداب المخالطة والمجالسة ألا تخالط إلا أهل الأخلاق والفضائل والدين، وألا تتعوَّد استقبال السفهاء في بيتك، وألا تعتاد مجالسهم في بيوتهم؛ لأن ذلك ينقل إليك عدواهم وفسادهم، جاء في سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»، وبهاتين الفضيلتين يصبح بيتك مباركًا وطعامك زكيًا طهورًا، يحسبه الله لك كرمًا وثوابًا، وينفع بطعامك أحياءك والموتى، ويحشرك في القيامة مع الأبرار، قال رسول الله ﷺ: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**» رواه الترمذي وأحمد، وفي قول رسول الله ﷺ: «**ولا يأكل طعامك إلا تقي**» تخريج طريف وهو أنه يجوز أن تطعم طعامك الفاسق والكافر إذا كانا محتاجين، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يحسنون إلى أسراهم وهم كفرة، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨].

وقال الأشياخ: لا بأس أن يأكل طعامك أهل الخطايا، لكن إياك أن تطعم طعامك أهل

العقيدة المنحرفة من المحدثين، فإذا جاءك بعض العصاة ممن أدمنوا بعض الذنوب كشرب الخمر أو لعب القمار وأطعمتهم على نية أن يرزقهم الله الاستقامة، فذلك أمر معقول، أما إذا جاءك بعض دعاة الإلحاد أو دعاة المذاهب المنحلة والمنحرفة مما اعتنقوها ودعوا إليها واطمأنوا بها؛ فأولئك غير جديرين بالاحترام أو الإحسان أبدًا.

وعلى الجملة؛ فالمؤمن يجوِّد اختيار جلسائه، وما أجمل قول عدي بن زيد العبادي:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
وصاحب ذوي الأخلاق تغنم بردهم ... ولا تصحب الأردي فتردى مع الردى

وقد يقول قائل: أنا أصحب الفسقة وأجالسهم لأصلحهم، وهذا كلام طيب، ولكن على المؤمن أن ينظر في آثار مخالطته مبكرًا، فإن لمس أثرها وإلا انسحب من مستنقع الوباء الآسن، يقول الشاعر:

وما ينفع الجرباء قرب صحيحة ... إليها ولكن الصحيحة تجربُ

**ثالثًا:** ومن آداب المجالسة أن تعرف قدر نفسك في المجلس، فلا تجلس في مكان غيرك أولى به منك، أو في مكان ممكن أن تؤمر بتركه عند مقدم غيرك، قال أحد الحكماء: «رجلان ظالمان: رجل وسع له في مجلس ضيق فتربع وانتفخ، ورجل أهديت له نصيحة فاعتبرها ذنبًا»، وإذا وجدت في المجلس علماء فضلاء فاجلس مجلس المستمع، ولا تكثر عرض آرائك، فإن ذلك يسمَّى منك سماجة وحذلقة، ثم هو يبقيك على سابق معلوماتك، ولا يضيف إليها جديدًا، ثم هو يفوِّت عليك ثواب توقير العلماء، يقول ربنا ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ (أي: تفرَّقوا من المجلس، واتركوا مجالسكم)، ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وسبب نزول الآية -والله أعلم- أن رسول الله ﷺ كان يكتظ مجلسه، فيقبل أحد الصحابة الأجلاء أو أحد الحفظة العلماء، فيقف أو يجلس بعيدًا عن رسول الله ﷺ.

هذا، ومن توقير العالم أن تصغي إليه باهتمام، وألا تنازعه الكلام، وألا ترفع صوتك فوق صوته، والمؤمن في المجالس لا يكثر الضحك أو السخرية، ولا يضحك من نكتة جرت على لسانه ولا يقهقه، فقد ذكرت عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ كان ضحكه

تبسمًا، وأنها ما رأته مستجمعًا يضحك حتى تبدو لهاته (أي: زوره).

ثم إن من آداب المجالس أن تلتمس ذوي المعادن الطيبة من الكرماء وأهل المروءات والتسامح؛ لأن هؤلاء تدوم مودتهم، ولا يهجرونك لغلطة أو عثرة، أما ذوو الكزازة والعصبية والتنطع والجدل والشح، فإن مودتهم لا تدوم؛ لأن النفوس تنجذب إلى المعروف والسماح، وتنفر من اللوم والغلظة، وفي الحديث الذي رواه مسلم: «**النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا، وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**».

والمؤمن لا يجالس الفسل الساقط الطموحات ولو كان غنيًا؛ لأن مجالسة مثل هذا تورث الكسل وسقوط الهمة، وتبعد الإنسان المؤمن عن مدارج السالكين وطموحات الشرفاء، فقد ذكر ابن عبد البر من كلام عليٍّ ﷺ: «اصحب مَن ينسى معروفه ويذكر معروفك، وينسى حقوقه عليك ولا يذكر إلا حقوقك، ومَن يحلم عليكم إذا أغضبته، ويعتذر إليك إذا أغضبك».

أما عند مجالسة السلطان؛ فالمؤمن لا ينطق إلا بخير أو شفاعة حسنة، ثم هو يتقرَّب إلى الله بإجلال السلطان، ويترك بينه وبين السلطان فراغًا كافيًا لجلوس أصفيائه والمسئولين، ثم هو يقول خيرًا أو يصمت.

### من أحاديث الآداب

## السماحة والإيثار

الحمد لله الذي شرَّفنا بأكرم الأديان، وأشهد أن لا إله إلا الله، بعث فينا خاتم الأنبياء وسيد بني الإنسان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث رحمة من الله الواحد الديان، اللهم صلِّ عليه ونولنا وجميع أمته واسع الغفران.

**وبعد**؛ كما قسَّم الله للناس أرزاقهم وفضَّل بعضهم على بعض في الرزق، كذلك قسَّم بينهم أخلاقهم، ورفع بعضهم فيها فوق بعض درجات، وفي بيان هذه الحكمة البالغة يقول ربنا ﷻ في سورة «الزخرف»: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا**

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فلقد تدبرت أخلاق الناس، فلم أر فيها أخس ولا أردأ ولا أقبح من شحٍّ مطاعٍ وبخلٍ لئيمٍ، كما لم أر في الأخلاق أسمى شرفًا ولا أحلى طلعةً من كرم سخي يتدفق بالمعروف والسماحة والإيثار. إنَّ أجمل وجه تنظر إليه وجه محسن مؤثر على نفسه، وإن أبشع وجه تطالعه وجه بخيل يكره المعروف، ويزدري صنائع الخير.

أرأيت أجمل صورة من وجه إنسان لا يملك إلا قوت يومه وكفاف أطفاله، يقصده جائع فيؤثره بكلِّ ما يملك، ويطوي بطنه وبطون عائلته على الجوع يومهم ذاك.

ثم أرأيت أقبح صورة من وجه غني فاحش الغنى يملك مخازن أطعمة، يمر عليه محتاج جائع فينهره ويقهره، ويزعم له أنه لا يملك شيئًا.

سبحان مقسم الأخلاق وصنائع الطبائع، كيف يخلق من بني الإنسان ملائكة فوق الملائكة وشياطين دون الشياطين!!

إنَّ أجمل أحاديث الإنسانية ما يدور حول مواقف الإيثار ذلك الخلق الذي مدحه ربنا ﷻ، فقال في وصف الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال في وصف عليٍّ ﷺ والله أعلم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠].

**وهذه بعض أحاديث في هذا الباب روتها كتب السير والتاريخ مما لم أجد مثله في تاريخ غير المسلمين:**

- جاء في الصحيحين والسُّنن أن أبا طلحة ﷺ كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء)، وكانت مستقبلة المسجد ويدخلها رسول الله ﷺ، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة ﷺ: «يا رسول الله، إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها حيث أراك الله»، فقال

ﷺ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

- وقرأنا في كتب السير أن شهداء من الصحابة في (اليرموك) منهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وصل لهم شربة ماء وهم في الاحتضار، فطفق كل منهم ينظر إلى الآخر، وكأنه يدعوه أن يشرب قبله، وما هي إلا هنيهات حتى فارقوا الحياة، ولم يشربوا.

- وأهدي إلى رجل من الصحابة رأس شاةٍ مصلى (أي: مشوي)، فقال: إن أخي فلان أحوج إليه منا، وأرسل به إليه، وفعل الثاني فعل الأول، فأرسله إلى أخ ثالث، حتى تداولته عدة أيدٍ، وإذا بالرأس يعود إلى المحسن الأول -رضوان الله عن الجميع.

- وفي صحيح مسلم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود (أي: شديد التعب) في حاجة إلى طعام، فأرسل إلى نسائه يسأل: هل عندهن طعام؟ فقلن جميعًا: لا والذي بعثك بالحق، ما عندنا إلا ماء، فتطوَّع رجل من الأنصار، فأخذ الرجل وانطلق به إلى مسكنه، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا أرادوا العشاء فنوميهم، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف، وباتوا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال له: «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما».

- وفي كتب الفتوحات حدَّث حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أفتش عن ابن عم لي بين القتلى، ومعي ماء قليل لعل إنْ وجدت به رمقًا سقيته، فلما وصلت الميدان وجدته ملقي بين الجرحى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفيه رمقٌ من الحياة، فأدنيت الماء من فمه، وإذا جريحٌ آخر يتأوه، فأطبق ابن عمي فمه، وأشار أن اسقْ أخي، وذهبت إلى الجريح، وإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص -رضي الله عنهما، فأدنيت الماء من فمه، وإذا بجريح ثالث يتأوه فأطبق هشام فمه، وأشار أن اسقْ أخي، وأذهب إلى الثالث، فلما وصلت إليه مات وعدت إلى هشام فوجدته قد مات، ورجعت إلى ابن عمي فوجدته قد مات، وعدت بالشربة، رضي الله عنهم جميعًا.

هذه القصة وأمثالها من قصص الإيثار تجيب عن سؤال يتساءله مؤرخو التاريخ الإسلامي ألا وهو: كيف تسنى للعرب المسلمين في زمن يسير جدًّا أن تمتد فتوحاتهم من مغرب الدنيا إلى مشرقها؟! وكيف أطاحت جيوشهم القليلة بأعظم إمبراطوريتين على وجه الأرض على ضعف أسلحتهم وضآلة إمكاناتهم؟!

والجواب: إنَّ تلك القلوب الكريمة المؤمنة جعلت من الجيش الإسلامي كتلة متحدة عظيمة تهجم متسابقة إلى الشهادة لتكون كلمة الله هي العليا، فاستحقت بذلك من ربها ﷻ أن ينجز لها وعده الذي وعد المؤمنين؛ حيث يقول في محكم كتابه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، والغريب أن العرب المسلمين كانوا قبل تلك الفتوح بأعوام ذوي قلوب قاسية وأكباد غليظة، كلُّ همهم كسب المال حرامًا أو حلالاً، فكان الغزو والنهب والسلب والغارة، وكانت حياة من الأحقاد والثارات مزقتهم حتى كاد بعضهم يقضي على بعض، ثم كانت معجزة الإسلام الذي ربَّاهم في زمن خاطف على منهجهم الكريم، وإذا تلك الأوزاع المشتتة التي كانت على شفا حفرة من النار تأخذ بحبل الله معتصمة به متآخية في ظلاله مستمسكة بعروته الوثقى، وإذا الأحقاد والثارات تنقلب حبًّا وإخاءً وإيثارًا، وإذا الأعداء إخوان.. أليس في هذا عدة لقومنا الذين يتناحرون وخلف المذاهب المنحرفة يسيرون -أن يعرفوا دواء أدوائهم وعلاج ضياعهم، وأن يستعملوا الدواء الذي استعمله سلفهم الصالح، فشفاهم من جميع الأدواء، ونقلهم من قبائل متصارعة إلى خير أمة أخرجت للناس آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، مؤمنة بالله، يقول الله -تعالى- مخاطبًا أمة محمد ﷺ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣- ١٠٧].

***

## من أحاديث الأحكام

# الذوق الاجتماعي وأدب الملازمة

في هذه الحلقة سنكمل -إنْ شاء الله- ما بدأناه من مواقف رسول الله ﷺ وكلماته الخالدة التي تدور حول الذوق الاجتماعي، وأدب الملازمة وسمو التعامل الإنساني النبيل.

- في أثناء حفر الخندق كان رسول الله ﷺ أشد الصحابة اجتهادًا في الشغل، فكان يرى تارة يضرب بالمسحاة، وتارة يحفر بالكرزين وهي (الفأس الحديدة الرأس)، وأحيانًا يغرف التراب في المكتل، وأحيانًا يحمل الزنبيل على جنبه أو كتفه، وفي يوم بلغ منه التعب مبلغًا شديدًا، فغلبه النعاس فنام متكئًا على حجر بشقه الأيسر، فتأثر بمنظره المنهمك أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما، وقاما عند رأسه خشية أن يزعجه من يَمرُّ قريبًا منه، وفجأة رأوه يثب -عليه الصلاة والسلام- وينتبه فزعًا ويتناول المكرزين أو المسحاة ويضرب حالاً، وهو يقول:

**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة**

ويقول لصاحبيه: «**ألا أفزعتموني؟**» أي: نبهتموني لكي اشتغل.

- ووقع في أسر المسلمين أسير من قريش اسمه «المغيرة بن معاوية» من أقارب عمرو بن العاص، فشدَّ المسلمون وثاقه، وقال رسول الله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها: «**احتفظي بهذا الأسير**»، لكن عائشة -رضي الله عنها- شغلت عن الأسير حين جلست تتحدث مع إحدى زائراتها، ويبدو أن الأسير تخلص من وثاقه فهرب، ولما رجع رسول الله ﷺ قال لعائشة -رضي الله عنها: «**أين الأسير؟**» فقالت: شغلت عنه فهرب قبل قليل، فقال لها رسول الله ﷺ: «**قطع الله يدك**»، وخرج -عليه الصلاة والسلام- فاستنفر الصحابة، فلحقوا بالأسير وأعادوه، ولما رجع إلى البيت وجد عائشة تقلب يديها وتبكي، وكانت تخاف من دعاء رسول الله ﷺ، ولا تشك أن يستجاب ويقع لا محالة، فقالت لرسول الله ﷺ: دعوت عليَّ أن يقطع الله يدي، وإني جالسة انتظر كيف تقطع. فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه ودعا ربه قائلاً: «**اللهم إنما أنا بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر، فأيّما مؤمن دعوت عليه بدعوة، فاجعلها له رحمة**»، فطاب خاطر عائشة واطمأنت بعد أن كانت مروعة.

- ومن المعروف أن عقبة بن أبي معيط كان أفظع قريش إيذاءً لرسول الله ﷺ، وقد أصر على الكفر حتى قُتِلَ مشركًا ببدر، وظلَّ أولاده يكرهون الإسلام، ويكرهون رسول الله ﷺ، ولكن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أسلمت في أعقاب الحديبية، وكانت متخوفة إذا هاجرت أن يردها رسول الله ﷺ، إلا أنها جرأت أخيرًا وهاجرت، وكانت تخشى أن يتذكر رسول الله ﷺ ما لقيه من أذى أبيها، فيعبس في وجهها، فتوجهت إلى بيت رسول الله ﷺ، ودخلت على أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة فارة بإسلامها. فلما جاء رسول الله ﷺ أعلمته أم سلمة، فأقبل على أم كلثوم يرحب بها ويؤهل ويسهِّل، فقالت له: يا رسول الله، أخشى أن تردني إلى الكفار، كما شرطوا عليك في الحديبية أن ترد من يأتيك مسلمًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «**نحن نرد الرجال، أما النساء فنمتحنهن، فإذا علمناهن مؤمنات لم نرجعهن إلى الكفار**»، وتلا عليها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ [الممتحنة: ١٠]، ولم يردها إلى الكفار، وكانت عاتقًا (أي: بكرًا)، فتزوجها زيد بن حارثة ﷺ.

- بعد أن صالح الرسول ﷺ أهل خيبر على شروط معينة جعل بعض الشباب المحاربين يقعون في حرث اليهود، ويأكلون من خضرهم وزروعهم، فاشتكى اليهود إلى رسول الله ﷺ، فأمر عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن ينادي الصلاة جامعة، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إنَّ يهود قد اشتكوا إليَّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمناهم على دمائهم وعلى أموالهم التي في أيديهم وفي أراضيهم، ألا إنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها**»، وأمر المسلمين ألا يأخذوا شيئًا من بقول اليهود إلا بثمن.

- ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءته نساءٌ من قريش اشتهرن وأزواجهن بعداء الإسلام والمسلمين والحقد عليه، منهن هند بنت عتبة التي مثلت بـ«حمزة»، وأكلت كبده، وامرأة عكرمة بن أبي جهل، وامرأة صفوان بن أمية بن خلف، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وكانت هند منتقبة خجلة من فعلتها بـ«حمزة» عرفها رسول الله ﷺ، وقال لها: «**أنت هند؟**» قالت: أنا هند، فاعف عما سلف، فاستغفر لها رسول الله ﷺ ولعشر معها أسلمن، وأقبلت

زوجة عكرمة بن أبي جهل تستشفع لزوجها عكرمة، وكان ﷺ قد أهدر دمه، فقبل وساطتها، فخرجت وجاءت به من مخبئه، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مسلمًا؛ فلا تسبوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ إليه، والبذاء لا يأتي بخير**»، ووصل عكرمة فقال: يا محمد، هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال: «**صدقت**»، فوثب فرحًا فأسلم، وقبل -عليه الصلاة والسلام- إسلامه ودعا له.

وبعد أيام من ذلك أرسلت هند بنت عتبة جارية لها بهدية إلى رسول الله ﷺ، جديين مشويين وسقاء من لبن، فدخلت عليه الجارية وعنده بعض زوجاته، وقالت له: إنَّ مولاتي تعتذر إليك بأن غنمها في هذه الأيام قليلة الوالدة، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**بارك الله لها في غنمها وأكثر والدتها**»، فلما نمت غنم هند كانت تقول: هذه من دعوة رسول الله ﷺ.

- ولما سار رسول الله ﷺ من العَرج متوجهًا إلى مكة إبان الفتح نظر إلى كلبة قد ولدت حديثًا، وهي تهر على كلٍّ من يمر عليها، ثم تعود فترضع صغارها تريد أن تحميهم وتريد أن ترضعهم، ولكي لا تقطع رضاع أولادها أمر أحد الصحابة واسمه «عمرو بن سراقة» أن يحرس حولها، ويمنع أي أحد من الجيش أن يقترب منها أو من أولادها.

ومن قبل ذلك أحضر أحد الجنود المسلمين صغار طائر، فأقبلت الأم ترفرف وتغامر بنفسها، فأمر رسول الله ﷺ أن ترد الصغار إلى عشها، فرجعت الأم مطمئنة، فقال رسول الله ﷺ لمن حضر من أصحابه: «**رأيتكم عجبتم من رحمة الأم بصغارها والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من هذه الأم بصغارها**».. حقًّا لقد كان رسول الله ﷺ كما وصفه ربه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

***

## من أحاديث الآداب

# (٢) الذوق الاجتماعي

هذه بعض آداب وجدتها منثورة في كتب السُّنة النبوية كما تتناثر الأزاهير المونقة في مروج الربيع الطلق، أو كما تتناثر الدر من نظم العقود، وقد تأملتها فوجدتها حضارية حقًّا تستسيغها الأذواق السليمة، وتندرج في الأخلاق الكريمة، ووددت لو يطلع عليها أعداء الإسلام ليروا مدى الظلم الذي يقترفونه في حق الإسلام، والكذب الذي يفترونه على أهله، وهذه الآداب في مجموعها هدفها الكبير هو التقاء القلوب على الولاء وانتظام المجتمع في سلك المحبة والوفاء، ثم هي دروس في الذوق الرفيع الذي لا يصدر إلا عما تصدر عنه طاقات الورد من المنظر الجميل والشذا العطر.

- في مسند أبي يعلى أن رسول الله ﷺ قال: «**تهادوا تحابُّوا**»، والحديث حكمة مجربة النفع، فالهدية تذكار حُبٍّ، ومن أجل ذلك كان ﷺ يقبل الهدية ويطعم منها صاحبها ويكافئ عليها.

- وفي سنن أبي داود والترمذي يقول النبي ﷺ: «**لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بجهنم**»، ومعنى الحديث الشريف تحريم أن يقول المسلم للمسلم: عليك لعنة الله أو غضب الله أو أن يقول له: ألقاك الله في جهنم، وهي إن كانت مكروهة من كلِّ مسلم، ولكنها أشد كراهية حين تصدر من والد على ولده.

- وفي مسند الفردوس للديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**من الجفاء** (أي: من الهمجية والغلظة) **أن يدخل الرجل منزل الرجل، فيقدم إليه شيئًا؛ فلا يأكله، والرجل يصحب الرجل في الطريق؛ فلا يسأله عن اسمه واسم أبيه، والرجل يجامع زوجته ولا يداعبها قبل الجماع**».

- ويكره الإسلام قلة الحياء وكشف العورة، ويحب الاحتشام وبخاصة من المسلمات، يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الربيع في مسنده: «**ملعون مَن نظر إلى عورة أخيه، وملعون من أبدى عورته للناس**»، وفي هذا الأدب أيضًا يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي والنسائي: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدخل الحمام بغير إزار، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدخل حليلته الحمام**»، (وهو يعني الحمام الذي بالأجرة تدخله أخلاط من

النساء، وربما يصفن لأزواجهن المرأة المسلمة العفيفة).

وللحديث إضافة تتضمن أدبًا آخر، وهو عدم مجالسة الأشرار: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة تدار عليها الخمر**».

- وفي رواية للطحاوي: «**عورة المؤمن على المؤمن حرام**».

- ومن ذوق المؤمن وأدبه إذا كشفت عورة لأخيه المسلم أن يسترها، فقد جاء في سنن أبي داود: «**مَن رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة من قبرها**»، وفي موضع آخر من كتاب الترمذي: «**لا تتبعوا عورات المسلمين؛ فإنه من يتتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، فيفضحه ولو في جوف رحلة**».

- من كمال الذوق ألا يرخص المرء عورته، وبخاصة النساء؛ لأن أشراف الرجال وشريفات النساء يصونون عوراتهم أن ترى، ولربما بذلوا أرواحهم صونًا لعوراتهم، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي: «**إياكم والتعري؛ فإن معكم من لا يفارقكم**» (وهو يعني الله ﷻ).

ولعل من أرخص الابتذال وأخس الوقاحة ما فشا في البيئات الكافرة من المناظر الحقيرة؛ حيث تكشف النساء هناك عن مفاتنهن حتى لتوشك المرأة هناك أن تعري سوءتها في الشارع، وهذه الفضائح لا تستنكر من أولئك الحقراء؛ لأنه ليس بعد الكفر ذنب، ولكن مما يثير الإنكار والاشمئزاز أن نرى بعض نساء المسلمين يقلدن الكافرات في التعري!!

- ومن الآداب الاجتماعية التي ارتضاها لنا رسول الله ﷺ هذه الخمسة التي سمّاها حقوقًا للمسلم على أخيه المسلم، وهي ما جاء في الحديث المتفق عليه؛ إذ يقول: «**حقُّ المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»، وهذه المجموعة من الآداب الإسلامية هي التي تجمع القلوب على المحبة والوحدة والصفاء وولاء الروح.

إنَّ المسلم إذا سلَّم على أخيه أو عاده في مرضه أو انبرى يساعد ثاكلاً في جنازة حبيبه أو أجاب دعوة عرسه أو شمته حين يعطس.. أقول: حين يفعل هذه المجاملات الحبيبة ينقش

في قلب أخيه مشاعر وعواطف كلها حب وتقدير وإعزاز وإيثار.

- ففي صحيح البخاري: «**إذا عطس أحدكم؛ فليقل: الحمد لله، وليقل أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم**»، وفي سنن أبي داود: «**إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، وإذا زاد** (أي: عطس على ثلاث مرات؛ فهو مزكوم ولا تشميت بعد ثلاث).

- ومع ذلك، فإذا عطس عندك عدة مرات واستمر به العطاس؛ فلا بأس أن تقول له: هذا زكام، وتدعو له بالشفاء، وتصفه ما تعرفه من ناجع الدواء.

هذا، وعلى العاطس أن يقنع وجهه بيديه خشية أن يصل الرذاذ إلى وجوه جلسائه.

- ومن أدب المؤمن أن يحاول جهده ألا يتثاءب في حضور جلسائه، فذلك مما يكسل المجلس، ويطفئ ألق الأنس، وقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يحبُّ العطاس، ويكره التثاؤب**»، و«**التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ هَا، ضَحِكَ الشَّيْطَانُ**»، ومعنى ضحك الشيطان أن الشيطان يحبُّ الكسل وتقر عينه بمنظر الكسالى؛ لأن الكسل يقعد المسلم عن السعي والعبادة وشهود الجماعة، وهذا ما يُضحك الشيطان من ابن آدم.

- ومن الآداب الإسلامية التي حثَّ عليها رسول الله ﷺ أن يقلل المسلم من المدح، وإذا أراد أن يزكي مسلمًا قال: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا يزكي على الله أحدًا. وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المداحين؛ فاحثوا في وجوههم التراب**».

والحقُّ أن مدح العبد منقصة إلا أن يكون المدح لفت نظر إلى مواضع قدوة حسنة في أخلاق رجل صالح.

- ومن أدب المسلم خفض الصوت واجتناب الضجيج، فقد روى الطبراني أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون، وقد علت أصواتهم فقال: «**إن المصلي يناجي ربه ﷻ فلينظر بما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»، وفي القرآن الكريم من بين وصية لقمان: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾.

والحقُّ أن خفض الصوت واجتناب الضجيج مظهرٌ للذوق الحضاري، فإذا سمعت في السوق أو في مكان عام رجلاً يصرخ في صخب وغوغائية، فاعلم أنه من أصل وضيع؛ لأن ذوي الأصول الكريمة يستحون.

- ومن أجمل الآداب الإسلامية قلة الحلف؛ لأن الواثق من صدقه لا يحتاج إلى حلف، وما يصدر الحلف الكثير إلا عن حقير، وإلى هذا يشير قوله تعالى في سورة «القلم»: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (والمهين هو المحتقر)، والحلف لا يكون إلا بالله، ومن حلف بغير الله فقد أشرك.

هذه -أيها الأخ القارئ- آداب تديم الصداقة والوداد، ويزكو بها الحب والإخاء، وقد جربت فطردت الشيطان من حمى المحبة، وضمنت بإذن الله للصداقة وضاءتها وإخلاصها وصفاءها وخلودها في الدنيا، ويوم يكون الإخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

### من أحاديث الآداب

## (٣) الذوق الاجتماعي

هذه هي الحلقة الثالثة التي نتحدَّث فيها عن صفة (الذوق) في أخلاق رسول الله ﷺ، ونورد فيها قصصًا من مواقف الذوق وأدب الملازمة مستقاة من كلامه ومن سيرته العطرة، وإنما أسهبنا في هذا الأدب من آداب النبوة؛ لأن كثيرًا من المسلمين يعتقدون أن الذوق عند الأجانب رجالاً ونساءً وأطفالاً أكثر منه عند العرب.

- لما هزم رسول الله ﷺ قبيلة هوازن، واستحر القتل في ثقيف، قال -عليه الصلاة والسلام- لأصحابه: «**إنَّ قدرتم على بجاد السعدي، فلا يفلتن منكم**»، وكان بجاد هذا رجلاً من قبيلة سعد التي رضع فيها رسول الله ﷺ، وهي بطن من بطون هوازن، وكان ذنبه عند رسول الله ﷺ عظيمًا، فقد أسر أحد المسلمين فقطَّعه بسيفه وحرقه بالنار، فلما جاءت به الخيل إلى رسول الله ﷺ لم يكن يشكُّ أنه سيقتل شر قتلة، لكنه ولحسن حظه رأى الشيماء بنت حليمة السعدية متوجهة صوب رسول الله ﷺ، فاستجار بها؛ لأنه من بني عمومتها، ومشى خلفها، فلما دخلت على رسول الله ﷺ رحَّب بالشيماء، وفرش لها رداءه، فجلست وأسلمت

وشفعت عنده لبجاد، فشفعها فيه، وأعطاها ثلاثة عبيد وجارية وودَّعها ﷺ وداعًا مؤثرًا.

ومن قبل هذه الحادثة بشهر جاءته إلى مكة المكرمة بعد أن فتحها رسول الله ﷺ جاءته امرأة من قريبات حليمة، وأهدت إليه عُكة سمن وجراب أقط، فعرفها رسول الله ﷺ، فأعلنت إسلامها، فسألها عن أمه حليمة وعن أبنائها إخوانه، وعن ابنتها الشيماء أخته، فأخبرته بوفاة حليمة، فذرفت عيناه فقالت له: أخوك وأختاك محتاجون، فأمر لهم بكسوة وجمل ومائتي درهم، فقالت له: نعم والله المكفول كنت صغيرًا، ونعم المرء كنت كبيرًا، كنت والله ومازِلت عظيم البركة.

- وقرأنا في كتاب السيرة أنه لما كسرت رباعيته وشجَّ وجهه يوم أحد شقَّ ذلك على أصحابه حين رأوا ذلك المنظر المؤلم، ورأوا كمية الدم الكبيرة التي نزفت من خده، فقال له بعض الصحابة: لو دعوت عليهم بعد هذا الذي فعلوه، فقال -عليه الصلاة والسلام: **«إني لم أبعث لعانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة.. اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون»**.

- ولما دست له اليهودية سمًّا في ذراع الشاة وكتفها طلبت منه العفو فعفا، ولما سحره يهودي اسمه لبيد بن الأعصم، ونجَّاه الله من السحر عفا عن لبيد، ولما مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي صلى عليه رسول الله ﷺ، وكساه وهو ميت قميصه، مع أن ذلك المنافق كان يحاول دومًا إغاظة رسول الله ﷺ، وهو الذي أشاع حديث الإفك عن عائشة -رضي الله عنها.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- شديد الحياء أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه من أذى أو غيبة أو غش لم يقل: ما بال فلان يفعل ذلك، ولكن يقول: **«ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»**، وما عرف أنه واجه أحدًا بما يكره، وعن عائشة -رضي الله عنها- أنه ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال له: لبيك، وكان يجيب دعوة الحر والعبيد والأمة والمسكين، ويعود المرضى، ولو في أقصى المدينة، وكان يقبل عذر المعتذر، وكان يبدأ أصحابه بالسَّلام والمصافحة، وكان لا يمد رجله في المجلس حتى لا يضيق على أحد، وإذا دخل عليه زائر أكرمه، وربما بسط له ثوبه وآثره بالوسادة التي يتكئ عليها، وكان يكني أصحابه احترامًا لهم، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، وكان إذا دخل عليه أحد وهو يصلي خفَّف صلاته حتى لا يطول بالزائر الانتظار،

وكان يأتي الصلاة وفي نيته أن يطيلها، فإذا سمع بكاء طفل خفَّفها لما يعلم من جزع أم الطفل.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يحبُّ التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكان إذا وعظ أوجز، ثم هو لا يعظ كل يوم، ولكن يتخول أصحابه بالموعظة خشية إملالهم وسآمتهم، وكان إذا أتي بهدية أطعم منها صاحبها مخافة أن يكون آثره بها، وهو لا يملك غيرها، ولما قدم عليه وفد النجاشي أبى إلا أن يخدمهم بنفسه، وقال: «**كرِّموا أصحابنا، ونحن نحبُّ أن نكافئهم**».

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يكره أن يقوم له أصحابه ويقول: «**لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»، ولقيته امرأة في حاجة لها فقال لها: «**اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت، أجلس إليك حتى أجيب سؤلك**»، وسئلت عائشة عن رسول الله ﷺ: ماذا يفعل إذا كان في بيته؟ فقالت: يكون في مهنة أهله، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه (أي: جمله الذي ينقل له الماء)، وكان يقم البيت (أي: يكنسه)، ويأكل مع الخادم ويعجن معها، ويحمل حاجته أو بضاعته إلى السوق، ويعود بها، ومن ذوقه أنه كان لا يسمع وشاية أحد بأحد.

- وكان يحبُّ في مجلسه وجسده الطيب والرائحة الحسنة ويحض عليها، وكان يصعب عليه تعب المسلمين ومشقتهم، ويحرص أشد الحرص على فوزهم وفلاحهم، فوصفه ربنا ﷻ في سورة «التوبة» بقوله: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، (أي: صعب عليه عنتكم وتعبكم).

- وكان -عليه الصلاة والسلام- أكثر الناس تبسمًا وأحلاهم بشاشة، وكان يمازح بأدب رفيع ولا يقول إلا حقًّا، وما وضع أحد فمه على أذن رسول الله ﷺ يساره إلا أبقى أذنه قريبة من فم المسار إلى أن يكون الذي يساره هو الذي يزيح فمه عن أذن النبي الكريم، وكان إذا مدَّ إليه أحد يده يصافحه لم ينزع يده من يد المصافح حتى يكون المصافح هو الذي ينزع يده أولاً.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يكره أن يركب وخلفه رجل يمشي ليعتني به، وزار ذات يوم سعد بن عبادة، فلما انصرف -عليه الصلاة والسلام- أمر له سعد بحمار على ظهره قطيفة، فركب النبي ﷺ وقال سعد ﷺ لابنه قيس: يا قيس، اصحبْ رسول الله ﷺ. قال

قيس: فلم أمش قليلاً حتى قال رسول الله ﷺ: «اركبْ معي اركبْ أمامي؛ فصاحب الدابة أحق بمقدمها»، فأبيت فقال: «إما أن تركب، وإما أن تنصرف»، ولم يستسغ -عليه الصلاة والسلام- أن يركب ويكون وراءه إنسانٌ يمشي، من أجل ذلك مدحه ربُّ السموات والأرض بعظمة الأخلاق، فقال له -جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٣-٤].

اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

***

## من أحاديث الآداب

# آداب الضيافة

إنَّ للضيافة أدبًا يلتزمه الضيف والمضيف، فيكتب الله لكلٍّ منهما أجرًا، ويخلص عندئذٍ أعمالهما لوجهه الكريم.. إنَّ الضيافة في الإسلام من ركائز المجتمع المسلم لها آدابها وأصولها وذوقها، وإذا كان بعض الناس لا يرى في الضيافة إلا تفاخرًا ورياءً وسمعةً ودعايةً، فإن المؤمن يتخذ من الضيافة فرصة لتوثيق أواصر الإخاء الإسلامي، وإحراز رضاء الله، وما أجمل أن يكون لك صديق تتفقده، فإذا طالت غيبته ذهبت إليه، ونزلت عنده ضيفًا خفيف الظلِّ، يأتنس بك أولاده، ويعرفك إخوانه وأقاربه، ويتجلى لك إخاؤه فتعود من عنده، وقد كسبت لك أخًا لم تلده أمك، وأضأت قلبك بحبٍّ من نوع عالٍ فيه السعادة والإخلاص وحب الخير، حتى إنك لتشعر أن ضيافتك تلك كانت من ألوان التربية الإسلامية السامية.

روى الأديب الإمام المحدث القاسم بن سلام أنه زار أبا عبد الله الإمام أحمد بن حنبل، فرأى عنده من تواضع العلماء ما يبهر العقول، قال القاسم -رحمه الله: نزلت عند الإمام أحمد وكنت خجلاً؛ لأنني لم أكن زرته من مدة طويلة، فلما رآني مقبلاً قام فاستقبلني وعانقني وأخذ بيدي، فأجلسني في صدر المجلس، فقلت: يا أبا عبد الله، أليس يقال: صاحب البيت والمجلس أحق بصدر بيته أو مجلسه؟ قال: بلى، إنه يقعد ويقعد من يريد على تكرمة من أهل الفضل. قال القاسم: يا أبا عبد الله، لو كنت آتيك على قدر ما تستحق من إكرامي لكان عليَّ

أن آتيك كل يوم. فقال لي: يا أخي، لا تقل هذا، فإن لي إخوانًا ما ألقاهم في كلِّ سنة إلا مرة، وأنا أوثق في مودتهم من رجال ألقاهم كل يوم. قلت في نفسي: لله ما أجمل هذا الكلام وأحلى هذا البيان!!

ثم لما أردت القيام قام -رحمه الله- معي يمشي إلى باب الدار، فقلت: يا أبا عبد الله، لا تفعل، فقال لي: يا أبا عبيد، قال الشعبي: من تمام زيارة الزائر تمشي معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه. قال القاسم: لم يكتف -رحمه الله- أن علَّمني من فيض أدبه، حتى راح يفيدني بما يرويه عن الشعبي.

وأساسُ ما دار عليه كلام الإمام أحمد مع القاسم بن سلام حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من السُّنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار**»، وذكر ابن عبد البر أن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إنَّ من السُّنة إذا دعوت أحدًا إلى منزلك أن تخرج معه حتى يخرج.

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على إكرام ضيوفهم، يتخذون التواضع إلى الضيف قربة إلى الله، وفي هذا يقول الشاعر:

**وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دامَ نازِلاً ... وَما شيمَةٌ لي غَيرُها تُشبهُ العَبْدا**

وهو يعدُّ البشاشة في وجه الضيف من شعائر الضيافة الكريمة، يقول الشاعر:

**وَباتَ أَبوهُم مِن بَشاشَتِهِ أَبًا ... لِضَيفِهِمُ وَالأُمُّ مِن بِشرِها أُمّا**

إنَّ خدمة الضيف في عرف المؤمنين شرف عظيم، وما أجمل أن تفتح لضيفك باب سيارته، وتنتظر حتى يسوقها ويمضي في سبيله، وخصوصًا إذا كان الضيف زائرًا في الله ممن لا تخافه ولا ترجوه، يقول النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعًا: «**من أخذ بركاب رجلٍ لا يرجوه ولا يخافه غفر له**».

وكان زيد بن ثابت ﷺ قارئ القرآن عند ابن عباس -رضي الله عنهما- فلما قام مودعًا أمسك ابن عباس بركابه يودِّعه، فقال زيد: أتمسك لي، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟! فقال ابن عباس -رضي الله عنهما: إنا هكذا نصنع بالعلماء.

ويقابل الضيف ذلك بتواضع المؤمن، فلا يبدو منه إدلال ولا يظهر أنه أهل للإكرام المفرط، بل يتواضع ويحاول أن يجلس حيث ينتهي به المجلس ولا يتصدر، وإن عيَّن له صاحب الدار مكانًا لم يتعده إلى غيره؛ لأن الناس أدرى بعورات بيوتهم، ولكن إذا ألح صاحب الدار على الضيف أن يتصدر أو يجلس على تكرمته، فعليه أن يستجيب، نزل ضيف على أبي قلابة فطرح له وسادة فردها الضيف، فقال له أبو قلابة: أما سمعت الحديث: «**لا ترد على أخيك كرامته**».

وقد كان رسول الله ﷺ سباقًا في مفاجأة أصحابه بالكرامة؛ ليشعرهم بمنزلتهم من نفسه، قدم إليه المسور بن مخرمة وفاجأ المسور وهو يعرض عليه محاسن ذلك القباء، يقول له: خبَّأت لك هذا، وصحبه مرة أحد أصحابه، فدخل النبي ﷺ غيضة فيها أراك، ورجع ومعه سواكان أحدهما أعوج والآخر مستقيم، فقدم لصاحبه السِّواك المستقيم، فقال: يا رسول الله، أنت أحق به. فقال: «**كلا، ما من صاحب يصحب صاحبًا إلا وهو مسئول عنه يوم القيامة ولو ساعة من نهار...**» الحديث رواه الجريري في كتابه (الجليس الصالح).

ونعود إلى أدب الضيافة فنقول: إنَّ من أدبها أن يقدم للضيف من أعز ما في بيته من القرى، قيل للأوزاعي: رجل قدَّم لضيفه الكامخ والزيتون، وعنده اللحم والسمن، فقال: هذا رجل لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وبعد؛ فما أجمل أن يعين كل من الضيف والمضيف أخاه على الطاعة، وينبهه إلى صلاة الجماعة، ويجعلان المسجد معتادًا لهما ومترددًا، وأن يزورا أهل الخير والصلاح، وأن يحتفي المضيف بأخيه، ويجعل من تلك الأيام الجميلة ذكريات حلوة، ومن الثابت أن المؤمنين في الآخرة يتذكرون مجالسهم الطيبة في الدنيا، مرَّ ابن عباس -رضي الله عنهما- على ابن مسعود ﷺ وهو جالس في ظل جدار والجو معتدل، فقال ابن مسعود لابن عباس: اجلس نتحدث، فعسى أن نتذكر هذا المجلس في الجنة.

هذا؛ وما أجمل أن يفرح الضيف أولاد المضيف بهدايا من اللعب والحلوى إذا كان قادرًا؛ لتتألف قلوبهم ويحرز برهم وصداقتهم، ومن ثم يشتاقون إلى عودته، ويصغون إلى توجيهه ونصيحته.

***

## من أحاديث الأحكام

# النهي عن العزلة

أذكر أننا منذ ثلاثين عامًا وأكثر كنا نشاهد عددًا من الإخوة الجزائريين يقيمون في المدينة المنورة في رحاب الحرم الشريف، ويتمتعوا كما أخبرونا بصلاة الأوقات الخمسة في المسجد النبوي الكريم، وبزيارة قبر رسول الله ﷺ وقتما شاءوا، وكان يقيم في المدينة المنورة إذ ذاك أحد أجلاء العلماء، فكان إذا لقيهم لامهم لومًا شديدًا، وقال للشباب منهم: إنَّ بلادكم الآن تخوض معركة حاسمة ضد الكفر والطغيان، وشهداء الجزائر أصبحوا مثلاً للدنيا في مواقف البطولات والتضحيات، وجبهة التحرير وسواها من المنظمات القتالية قد عطَّروا ثرى الجزائر بمئات الآلاف من الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد، وعلى ثغورهم ابتسامات البشرى وأنوار الشهادة.

ثم يضيف قائلاً: والله إنَّ موقف بطل منهم على جبال أطلس مجاهدًا في سبيل الله يتحمل البرد والثلوج والقتل ويراها قليلة في جنب الله -موقف واحد من مثل هذا البطل أفضل من عزلتكم بالمدينة سنوات، حتى ولو زرت القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام كل يوم.. عودوا إلى بلادكم حيث الجنة هناك يدخلها الشهداء المحتسبون من أبواب الفردوس الأعلى، واعلموا أن مجاورتكم بالمدينة المنورة تعتبر في المرحلة الراهنة فرارًا من الزحف.

إنَّ المجاهد في سبيل الله قد يكتفى منه بصلاة الخوف يصليها في دقيقتين، لكنها في ميزان الأعمال أفضل من ليالٍ طويلة يقضيها الشابُّ متهجدًا في الحرم الشريف، ويقرأ عليهم ما كتب به الإمام الزاهد المحارب المجاهد عبد الله بن المبارك لصديقه الفضيل بن عياض حين علم أنه لازم المسجد الحرام لا يبرحه:

يا عابدَ الحرمَين لو أبصرتَنا ... لعَلِمتَ أنَّك في العبادَةِ تلعَبُ

من كان يخضِبُ خدّه بدموعِه ... فنُحورُنا بدمائِنا تَتَخَضَّبُ

إلى آخر الأبيات المشهورة.

وقرأنا أن العالم الإسلامي حين دبَّ فيه الانقسام والوهن تعرَّض لهجمتين شديدتين من الكفر الشرس: إحداهما قادتها الصليبية الحاقدة، والأخرى تولى كبرها الكفر المغولي، وفي خضم الدماء التي سالت بها البطاح والأودية انقسم سلوك العلماء إلى نمطين: أولهما سلوك علماء الشريعة الغراء والمحجة البيضاء والسُّنة المطهرة من أمثال عز الدين عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه شيخ الإسلام ابن القيم.. هؤلاء رفعوا لواء الجهاد وتقدموا الجيوش وحثوا الملوك على التضحية في سبيل الله، حتى ولو بملكهم وبأرواحهم.

أما النمط السلوكي الثاني؛ فهو الذي صدر عن المتصوفة الذين اختبئوا في الزوايا يزعمون أن العبادة شيء والجهاد شيء آخر، وأن الذكر من حول موائد الحفلات يغني عن الجهاد والبذل في ساحة المروءات، ثم لما منَّ الله على المسلمين بالنصر وجاء اليسر بعد العسر خرجوا من زواياهم كما تخرج الهوام من الجحور، ولكن بعد أن سقطت أسهمهم، وعرف الناس عجزهم الجبان وعزلتهم المريبة.

خلاصة القول أن الإسلام لا يؤيد العزلة عن الصف والمجتمع والتعارف الإسلامي، حتى ولو كانت عزلة للعبادة، وخصوصًا تلك العزلة في مواسم الجهاد والابتلاء والشدائد، وإنَّ رسول الله ﷺ وصحابته الكرام لم يعتزلوا المجتمع الإسلامي ليقبعوا في المساجد، لكنهم خاضوا غمار الحياة، مساهمين في إسعاد المسلمين وهداية الحائرين، متعاونين على البر والتقوى، مقاومين للإثم والعدوان.

- في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **«خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم»**.

- ونسب رزين إلى الشيخين والترمذي: **«من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام»**.

- وفي الحديث المتفق عليه ما يبيِّن فضل الاختلاط واجتناب العزلة؛ إذ العزلة لا تترك فرصة للمؤمن أن يؤدي الحقوق والواجبات الاجتماعية، قال رسول الله ﷺ: **«للمؤمن على المؤمن خصال: يعوده إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلِّم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد»**.

- وقد كره النبي ﷺ أن يترك العبد الزواج ليعتزل الناس ويتعبد، ففي صحيح البخاري

أن رسول الله ﷺ ردَّ على عثمان بن مظعون التبتل، أي أن عثمان بن مظعون استشار رسول الله ﷺ أن يترك الزواج خشية التبعات الملهية عن العبادة، فلم يأذن له بذلك.

- وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة**»، وفي الأثر: «**لا رهبانية في الإسلام**».

وأما الأحاديث المرغبة في العزلة؛ فتحمل جميعها على أنها تطبق حين تعم الفتن، ويصبح الاختلاط خطرًا على دين الإسلام وأخلاقه، ويكون الإصلاح ضربًا من ضروب المستحيل، وعلى هذا يحمل الحديث الذي في الصحيحين: «**خير الناس رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**»، وما ورد في وصايا الصالحين من اعتزال الناس.

والحقُّ أن مخالطة الناس والصبر على أذاهم وخوض المجتمع في رجولة وثقة يتيح للمؤمن فوائد كثيرة؛ إذ بهذا الاختلاط يستطيع أن يعلم ويتعلم، ويستطيع أن ينتفع وينفع، ثم يتيح له الاختلاط أن يؤدب ويتأدب، وأن يؤنس ويستأنس، ويحل عقدة الوحشة من العزلة، ويهيئ له الاختلاط أن يخالط أهل التقوى، وينال ثواب السعي والتسليم، كما ينيل الناس ثواب مساعدته والتسليم عليه، وكيف يتأتى له بالعزلة أن يعود مريضًا أو يحضر أملاكًا أو يشهد جنازة أو يدعو لقوم أو يدعو الناس له، أو يتواضع لضعيف، وعلى كل حال فالمؤمن الموفق هو الذي يعرف متى يخالط الناس ومتى يعتزل، وما أحلى أن يكون اختلاط المؤمن عبادة، وأن يكون اعتزاله عبادة، وذلك حين يكون اختلاطه بأهل الدين، ويكون اعتزاله لأولياء الشيطان.

## النهي عن العزلة والانغلاق

بعض الناس تعجبه العزلة يرى فيها نجاةً من المشكلات وراحة من القيل والقال واجتنابًا للنميمة وتفرغًا للعبادة وللأهل والولد، على أن هذا الطريق وإنْ بدا أقرب إلى العافية، فإن السُّنة لا تقره، ونحن نقتبس أسوتنا من رسول الله ﷺ الذي هو أسوة المؤمنين وقدوة الأبرار، وقد كان ﷺ ليله ونهاره في مخالطة الناس واحتمال الناس والصبر على أذاهم

وعلاج مشكلاتهم، والإصلاح بينهم وقضاء مصالحهم.

جاء في سنن الترمذي ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»، وللديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**دخول المؤمن على المؤمن نزعة** (أي: سعة وفرحة وسرور)»، وللطحاوي أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفرا غفر الله ﷻ لهما**»، وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم يدخل على أخيه المسلم فيلقى إليه وسادةً إكرامًا له إلا غفر الله له**».

على أن للمخالطة آدابًا يحرص عليها المؤمن، وهذه الآداب كان يلتزمها رسول الله ﷺ ويأخذ أصحابه الكرام بالالتزام بها، وهي آداب تسعد من يأخذ بها، وتجعل له في الناس قدم صدق ولسان صدق، كما تكسبه محبةً في القلوب وجمالاً في الأعين والنفوس، وهي آداب متنوعة وردت في كتاب الله وسُنة رسول الله، منها: آداب مع الضيف والزائر، ومنها آداب مع الشيخ والصغير، فمن آداب الزيارة ألا تتكرر كثيرًا فيسأم المزور ويستثقل الزَّائر، قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن حبان: «**زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا**».

ومنها أن يبدأ الزائر بالاستئذان ثم السلام، قال رسول الله ﷺ: «**من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه**»، وفي صحيح البخاري: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يؤذن له؛ فليرجع**».

ومن آداب الزائر إذا وقف على باب قوم واستأذن ألا يتصدر بوجهه الباب، بل ينحرف يمينًا أو شمالاً، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم؛ فقد حل لهم أن يفقئوا عينه**».

وأما المزور الذي ينزل عنده أخوه؛ فإن له آدابًا في استقبال زائره، منها: أن يكرمه بوجهه وما تيسر من طعامه، كما يكرمه بترحابه وإراحة مجلسه والإقبال عليه والاهتمام بكلامه، قال -عليه الصلاة والسلام- فيما رواه البزار: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»، وقال فيما رواه البيهقي والحاكم: «**واكل ضيفك؛ فإن الضيف يستحي أن يأكل وحده**».

وعلى المزور أن يلقى زائره بالتسليم والمصافحة والاستغفار لذنبه، قال رسول الله ﷺ:

**«إذا التقيتم؛ فتلاقوا بالتسليم والتصافح، وإذا تفرَّقتم؛ فتفرَّقوا بالاستغفار»**.

وعلى المضيف أن يعلم أن ما يقدمه لضيفه بركة وشرف، وأنه لا ينقص من رزقه شيئًا، يقول النبي ﷺ: **«من أكرم أخاه المسلم؛ فإنما يكرم الله»** (رواه ابن بابويه).

وعلى الزائر أن يأكل مما يقدَّم إليه ولا يرده دون أن يذوقه، وعليه ألا يذم أي أُدم ولو كان خلا.

ثم إن على المزور أن يتعهد ضيفه بالاحترام؛ لأن في ذلك مغفرة للذنوب، يقول النبي ﷺ فيما رواه الأصبهاني: **«الضيف يأتي برزقه، ويرتحل بذنوب القوم»** يعني أن قدوم الضيف مبارك يجلب الرزق، ثم إن الضيف إذا ارتحل مسرورًا من كرم المعاملة وحلو البشاشة كفَّر الله ذنوب من أكرمه.

هذا، ومن أدب المخالطة أن تستأذن مضيفك عند خروجك، كما استأذنته عند دخولك.

ومن أدب الاختلاط أن تجالس الصالحين والعلماء، فينالك من صلاحهم ودعائهم وبركتهم، وأن تبتعد عن جلساء السوء.

ومن أدب الضيافة أن تشيِّع الضيف إلى باب الدار، جاء في سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ من السُّنة أن تشيِّع الضيف إلى باب الدار»**، وللطحاوي أن رسول الله ﷺ نهى أن يستخدم الضيف.

ومن أدب المخالطة ألا تشجِّع الفاسقين على زيارتك في بيتك؛ لأنهم شؤم، وربما قلَّدهم أبناؤك؛ ففي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تصحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»**.

**وهذه بعض أقوال الرسول ﷺ في أدب الاختلاط بالناس:**

روى الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: **«من الجفاء** (أي: من الخشونة والهمجية) **أن يدخل الرجل منزل أخيه؛ فيقدم له شيئًا فلا يأكله، والرجل يصاحب الرجل في الطريق فلا يسأله عن اسمه واسم أبيه»**.

وللطبراني أن رسول الله ﷺ قال: **«من دخل دار قوم؛ فليجلس حيث أمروه، فإن القوم أعلم بعورة دارهم»**.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، وإن زاد على ثلاث؛ فهو مزكوم ولا تشميت بعد ثلاث».

وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ ثَلاَثَةٌ فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ».

وفي مصابيح السُّنة أن رسول الله ﷺ قال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

ومن أدب المخالطة أن تحافظ على حرمة المجلس، وإذا استشارك أخوك في أمر سري؛ فلا تحدث بسره، روى أصحاب السُّنن أن سول الله ﷺ قال: «المستشار مؤتمن»، وفي سنن أبي داود: «الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَثَةَ مَجَالِسَ: سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ، أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ، أَوِ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».

ومن آداب المخالطة أن تختار أخلاءك، ففي مسند أحمد: «المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل».

ومن ذوق المخالطة احترام الكبير والصغير، روى الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالكهول خيرًا، وارحموا الشباب».

هذا، ومن تمام الفائدة في أدب المخالطة ألا تفرق بين اثنين إلا بإذنهما، وألا تأخذ قلم أخيك أو عصاه بدون طيب نفسه، كما يفعل بعض الثقلاء، وأن تدخل السرور على قلوب الأطفال، وأن تداوم على الود القديم وتحفظ ود أبيك، وأن تؤنس إخوانك وتصنع معهم المعروف، يقول النبي ﷺ فيما رواه الديلمي: «من خرج مع أخيه في طريق موحش ليؤنسه، فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى أخاه قدحًا من ماء وهو عطشان كأن يعتق رقبة»، وإذا رأيت على ملابس أخيك قذى فأزله، ففي صحيح البخاري: «المؤمن مرآة أخيه إذا رأى فيه عيبًا أصلحه».

***

## فضل الاختلاط بالناس وعدم العزلة

الحمد لله الذي جعل المؤمنين إخوانًا في طاعته، وجمع بين أمة محمد ﷺ على محبته، وفرض عليهم الجهاد لإعلاء كلمته، اللهم صلِّ على محمد وآله وصحبه وعترته، وارض اللهم عن كلٍّ من حكَّم دينه وارتضى حكم شريعته.

وبعد؛ من آداب المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًّا قائمًا بالمسئولية الاجتماعية لا يتهرب منها ولا يعتزل ولا ينسحب من مواقف البناء والرجولة والواجب، ومن هنا فإن دين الإسلام لا يرضى للمؤمن أن يترهب؛ لأن الرهبانية انسحاب من مضمار الرجولة الذي به ينمو المجتمع ويزكو ويمتد، ولا رهبانية في الإسلام؛ لأن الرهبانية اعتراف باليأس من صلاح المجتمع وفقدان للثقة بالنفس، وهي ابتداع نصراني لم يؤيده الإسلام، لما فيه من منافاة للفطرة وإنكار لغريزة الجنس التي فطرت الإنسانية عليها لبقاء النوع وصناعة الطاقات؛ ففي السيرة أن عثمان بن مظعون ﷺ أراد أن يتبتل (أي: يترك الزواج ليتفرغ للعبادة)، فردَّ عليه الرسول ﷺ فكرة التبتل، وقال -عليه الصلاة والسلام- لمن فاخر أنه يعتزل النساء: **«من رغب عن سنتي؛ فليس مني»**.

إذا قال لك مسلم: إنه يحب اعتزال الناس وينبذ مخالطتهم، وأنه من بيته إلى مسجده؛ فاعلم أنه ترك الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- كان أكثر الناس عشراء وأصدقاء وأصحابًا، وكان أجمل الناس صحبة لهم؛ يزورهم في بيوتهم، ويلاعب أطفالهم، ويدعو لهم ولآل بيوتهم، ويدعوهم إلى الألفة والمحبة، جاء في مسند أحمد -رحمه الله- من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: **«المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»**.

ولقد فضَّل رسول الله ﷺ من يخالط الناس، ويلقى منهم أذى فيصبر على أذاهم، أقول: فضَّله على من يعتزل الناس طلبًا للعافية، وهذا هو السلوك النبوي الذي ارتضاه رسول الله ﷺ حين اشتد من حوله أذى المشركين.

وفي صحيح رزين أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أنبئكم بشراركم؟ الذي يأكل وحده،**

**ويجلد عبده، ويمنع رفده»** (أي: يحبس عطاءه عن الناس)، وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ كان يكثر زيارة الأنصار خاصة وعامة، فكان إذا زار خاصة زار الرجل في منزله، وإن زار عامة أتى المسجد، وفي حديث أنس رضي الله عنه: **«ما من عبد مسلم أتى أخاه يزوره في الله إلا ناداه منادٍ من السماء أن طبت وطابت لك الجنة»**.

ومن ثمَّ، فإذا طلبت من رجل ذي جاه أن يشفع لك أو يتوسط لقضاء حاجتك، فقال لك: أنا والله معتكف عن الوساطات، وأتيت آخر فخرج معك في حاجتك، ولم يزل معك حتى عمل جهده؛ فاعلم أن الثاني هو الذي أدرك السُّنة وأحسن القدوة، ففي الحديث الذي رواه رزين عن الشيخين: **«مَن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام»**، وفي صحيح مسلم: **«والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»**، وللطبراني في المعجم الكبير أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ لله خلق خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله»**.

وحسبك دليلاً على أن الإيجابية هي خلق المؤمن، وأن السلبية منافية لروح الإسلام ما حدث في العصور المتأخرة حين هاجم الصليبيون ديار الإسلام، وداهم المغول حضارة الإسلام فقد أقبل العلماء العاملون على الجهاد ووضعوا أيديهم في أيدي حكامهم المسلمين، فتقدَّموا الصفوف، ورفعوا روح المجاهدين، وأسدوا النصح والمشورة للقادة، كما فعل عز الدين بن عبد السلام إبان معركة عين جالوت، وكما فعل قبل ذلك فقهاء المسلمين مع صلاح الدين، وكما فعل بعد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام ابن القيم، مع من أسلم من سلاطين المغول، فهم لم يقبعوا وراء الكتب يخوفون الناس ويزهدونهم، ويجادلون في مسائل خيالية، ولكنهم شمَّروا للأمر عن سواعد الجهاد، وبعثوا في المسلمين روح الاستشهاد، واستشهد كثير من العلماء في المعارك، فكان أولئك العلماء بحق خلفاء النبي ﷺ على دين الله وحوزة الإسلام.

أما المتصوفة الذين كانت زواياهم وتكاياهم تعج بالبطالة؛ فقد لزموا تلك الزوايا، ولم يعبئوا بصرخات الأطفال والصبايا، واكتفوا بالدعاء الخالي من الهم، وبذلك سقطت في الناس أسهمهم، وكثر في الناس محتقروهم؛ لأنهم خالفوا بقعودهم سُنة محمد والمرسلين،

وتشبَّهوا بمن قال لهم الله ﷻ: ﴿رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة:٨٣].

إنَّ الإنسان أليف بطبعه وهو اجتماعي مدني يكره أن ينفرد وحده، وهو ما سمِّي إنسانًا إلا لأنه يأنس بغيره، ويحبُّ أن يعيش منتميًا إلى أسرة، ثم إلى حمولة فبلدة فدولة أو وطن، ثم إلى أمة، أما ما ذهب إليه أبو تمام في بيته الذي يقول فيه:

لا تَنسَيَن تِلكَ العُهودَ فَإِنَّما ... سُمّيتَ إِنسانًا لِأَنَّكَ ناسي

فذلك من تهويمات الشعراء وتعليلاتهم الخيالية.

وإذا كانت مجموعات عظيمة من الطير والوحش تحب العيش في المجتمعات، فإن الإنسان كما يبدو من اسمه أولى بمثل هذا الانتماء الحضاري، والإسلام دين الفطرة النقية، ومن ثم فكلما مال الإنسان إلى التفاعل الاجتماعي كان ذلك دليلاً على سمو فطرته وتألُّقها بسنا الحضارة، وقربه من روح الإسلام ومنهج نبيِّنا -عليه الصلاة والسلام، ومن أجل هذه الإيجابية في السلوك الإيماني شرع الإسلام من السُّنن والآداب ما يزداد به المجتمع الإنساني تقاربًا وألفةً ومحبةً وائتناسًا ووحدة صف، ولعل أركان الإسلام كلها دروس في الحضارة الاجتماعية التي يتحقق بها التحاب التواد والتراحم والتعاطف، فشهادة أن لا إله إلا الله تشعرك أن الإنسانية كلها تنظمها أخوة في محراب العبودية لله.

والصلاة لقاءات يومية تجدد الفطرة الحضارية للإنسان المسلم حين تتيح له مشاهدة أخيه في بيوت الله وأثناء التعبد له.

والصوم درس حضاري ينظم الأمة في سلك نظام واحد يوحِّد المشاعر، ويسمو بها عن شهوات البهيمة؛ ليرقى بها إلى آفاق الملائكة حين يفاخر الرب عباده النورانيين من سكان السماء بعباده الترابيين من سكان الأرض.

والزكاة درس حضاري في غاية السمو يأبى على المؤمن أن يكرس نعمته لشهوات نفسه، ألا ما أجمل الزكاة لفظًا ومعنى.. إنَّ الفعل زكا يزكو معناه طهر يطهر، ومعناه نما ينمو، والزكاة حقًّا تطهِّر النفس من أوضار الشح والأنانية واللؤم والدناءة، وتسمو بها إلى منازل الإحسان ومدارج الكرماء الأسخياء ذوي النفوس المتحضرة الوضيئة، وإلى هذا أشارت

الآية الكريمة في سورة «التوبة»: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أما الحج؛ فحدِّث عن توجيهاته الحضارية ولا حرج حين ترفرف على أهل الموسم أعلام الصفاء ورايات الإخاء، وينتظمون في دورة أخلاقية راقية تستمر أيامًا معدودات، قد تمتد إلى أشهر معلومات لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال، بل كلها حب ومساواة وصلاح بال.

**فيا أخي المسلم:** احرصْ على مخالطة إخوانك، وأشع في أجوائهم النصح والسلام والبشر والإحسان والكرم، وإياك وعزلة تمرضك بالوحشة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

## من أحاديث الآداب

# التواصل والوداد في المجتمع المسلم

يحرص الإسلام على أن يسود المجتمع الإسلامي جو من الصفاء والتواصل والوداد الجميل؛ ليسعد هذا المجتمع الوضيء بالسعادة والأنس، ولتتوثق أواصره بالتزاور المؤنس والصداقة الممتعة، ومن هنا منع الإسلام أن يتهاجر المسلمون أو يتدابروا أو يتعادوا، وأن يستبدلوا بالتقاطع تعاونًا على الخير وترابطًا يحقق جمال الحياة ولذة البشاشة.

يريد الإسلام للمسلمين أن تكون حياتهم كأنها روضة غناء لا ترى فيها إلا مباهج النفس وهناءة القلب، ولا تستروح فيها إلا شذا الزَّهر وحباء الثمر وروح الجمال وريحان المحبة، ولهذا حرَّم الإسلام أن يهجر المسلم أخاه المسلم؛ لأن الهجر يقطع أرحام الولاء، ويشيع في المجتمع الشقاء، وينمي في النفوس أحقادها، ويشعل في المشاعر أضغانها.

مِن الناس مَن إذا قاطعه أخوه أو جاره لم يهنأ له بال حتى يسعى في مصالحته، ويعتذر عن إساءته، ويهوِّن أمر الدنيا في عين صاحبه، ثم لا يرتاح له ضمير حتى يعيد المياه إلى مجاريها والمحبة إلى مغانيها.

ومِن الناس مَن يكون له جلد على المقاطعة والهجر والعداء، كأنما قد قلبه من الصخر الأصم، ثم لا يزال هاجرًا أخاه حتى يأتي إليه معتذرًا، ولو كان أخوه هو المحسن البريء، وكان هو الخاطئ المعتدي المسيء.

إنَّ للمؤمن أدبًا رفيعًا إزاء الحرص على جو الصفاء الذي تجمله الصداقة، ويجمِّل الحياة ويتألف به قلوب معارفه وخلطائه، فهو يسلك على ما رسم رسول الله ﷺ من منهج يجمِّل الحياة العاجلة، ويسعد المرء في الآجلة، ويتحقق هذا المنهج الكريم بالوسائل الآتية.

**أولاً:** أن يصل من قطعه مهما أصر على القطيعة، وألا يسمح أن تدوم المقاطعة أكثر من ثلاثة أيام مهما تكن أسبابها، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام**».

**ثانيًا:** أن يشعر دومًا أن كل مسلم في مشارق الأرض مغاربها هو أخوه، وهي أخوة أبرمها الله من علياء سمواته؛ إذ يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فيدعو لإخوانه المسلمين بظهر الغيب، ويحب كل مسلم سواء رآه أم لم يره، فإذا أشرب قلبه هذا الشعور تمتع بحلاوة الإخاء، وشعر أن كل الدنيا من حوله جنة من الإخاء. إنَّ كل إنسان يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله يصبح له عليك حقوق كثيرة من بينها أن تدعو له بالمغفرة كلما دعوت لنفسك.

**ثالثًا:** أن يلتزم كل مسلم بأجمل ألوان التعامل مع أخيه المسلم، فيعامله في البيع والشراء وسائر المعاملات بالحق والعطف والرحمة، وألا يغشه أو يخدعه، وأن يحترمه على كافة أحواله.

**وإلى الأخ القارئ هذه التوجيهات النبوية النبيلة التي إذا التزمها المسلمون تسنموا قمة السلوك الحضاري، وأظلهم أجمل أنواع الروح الأخوي:**

- يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك**».

- ويوصينا رسول الله ﷺ أن نحترم شعور إخواننا بحيث لا يحسُّون وهم يرافقوننا إلا بأسمى مشاعر المعنوية الرافعة، يقول رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة؛ فلا يتناجى اثنان دون الثالث**».

- ويوصينا الرسول الكريم ﷺ ألا نشغل ألسنتنا كلمة نابية تنال من إحساس أخينا المسلم، فيقول: «**ليس المؤمن بطعانٍ ولا لعانٍ ولا فاحش ولا بذيء**».

- وفي مجال العلائق الاجتماعية يوصينا النبي ﷺ أن تكون العلاقة بين الصغير والكبير علاقة التوقير، وأن تكون العلاقة بين الكبير والصغير علاقة رحمة، يقول رسولنا ﷺ فيما رواه البخاري: «**من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا؛ فليس منا**».

- ويحثُّ رسولنا ﷺ أمته أن يكونوا دائمًا مفرجي كروب وصانعي معروف، وأن يجند المسلم نفسه لقضاء حوائج إخوانه، فيقول -عليه الصلاة والسلام: «**أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف يوم القيامة**».

- ومن السلوك الحضاري الذي يشيع الصفاء المشاركة في الصفاء والكدر، وذلك بأن يظل المجتمع الإسلامي متواصلاً بالحقوق الإنسانية، يقول رسول الله ﷺ: **«حقُّ المؤمن على المؤمن خمس: رد التحية، وإجابة الدعوة، وشهود الجنازة، وعيادة المريض، وتشميت العاطس إذا حمد الله»**.

- هذا، وإن كرم الضيافة وأداء حقوق الضيف وإشاعة جو من السرور من حوله.. كلُّ هذه مظاهر من السلوك الحضاري الذي يؤلف القلوب ويشيع المحبة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه»**، وفي سنن ابن ماجه يقول رسول الله ﷺ: **«إنَّ من السُّنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار»**.

- ومن أجمل السلوك الحضاري أن يتجنب المؤمن الشماتة بأخيه أو تعييره بعيوبه؛ لأن الدنيا تنقلب، وإذا شمت بأخيك اليوم فقد تتحول الأيام فتقع أنت فيما يشمت عدوك، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: **«من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله»**.

- ومن الجرأة الأدبية الحضارية التي تدل على الشجاعة الشريفة ألا تسمح بأي حال أن يذل أخوك المؤمن في حضورك، بل عليك أن تهب لنصرته ورفع الحيف إذا وقع عليه، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: **«من أذل عنده مؤمن، فلم ينصره وهو يقدر على نصرته أذله الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة»**.

- وهذا حديث موجه إلى موظفي الشئون المالية؛ إذ أن كثيرًا منهم قد يجر على نفسه الكراهية بعرقلته وتعقيده أمور المراجعين.

إنَّ موظف الشئون المالية لا ينفق من مال أبيه، ولكنه يعطي الناس حقوقهم من مال الدولة أو المؤسسة، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يكتب له أجر المتصدق إذا هو سهَّل أمور الناس، وأرشدهم إلى أقرب الطرق لأخذ نقودهم، وبهذه يصبح متصدقًا مع أنه لم يدفع شيئًا من جيبه، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: **«الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ - وَرُبَّمَا قَالَ: يُعْطِي - مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلاً مُوَفَّرًا طَيِّبٌ بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ»**.

- ومن التصرفات الحضارية التي تتألف بها القلوب أن تجيب دعوة أخيك إذا دعاك إلى زيارة أو عدم مقاطعة الصلة ثرى؛ لأن دخولك بيت أخيك وأكلك من طعامه يملأ قلبك بحبه وقلبه بحبك، يقول رسول الله ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ»، والكراع : مستدق الساق من الغنم والبقر العاري من اللحم.

### من أحاديث الآداب

## البشاشة والدعابة

تعوَّدتُ في أغلب الأحاديث أن أحدث الإخوة عن زهد رسول الله ﷺ وعن خشوعه لله وبكائه من خشيته، وعن طول عبادته وجلده على الصيام والقيام، وعلى الجملة، فقد كان جلُّ أحاديثي مما يبعث في النفس البكاء على التفريط والخشية من الرب الكريم الجبار والأسف من الذنوب المردية والعيوب المخجلة.

أما في هذه الحلقة؛ فسوف يكون الحديث عن بشاشة رسول الله ﷺ، وعن ابتسامته الجميلة التي لم تكن تفارق ثغره، وعن استجابته للنكتة الحلوة تصدر عن بعض أزواجه أو أصحابه، فلقد روي عنه ﷺ أنه كان من أكثر الناس تبسمًا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة وعظ.

كان -عليه الصلاة والسلام- لا يضحك ضحكة عالية تبدو فيها لهاته، لكنه كان يبتسم حتى تبدو نواجذه.

كان -عليه الصلاة والسلام- يتبسم لزوجاته، ولأصحابه، ولبعض كلام الأعراب، ويديم الابتسام لضيفه، وقد أوصى أصحابه أن يلقى بعضهم بعضًا بوجه طليق، وكان يعد هذا الأمر صدقة، ويقول: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**»، ولا غرو، فرُبَّ ابتسامة بريئة تنطلق من منطلق المحبة والعطف هي أعظم عند الله من ألف دمعة يتظاهر بها صاحبها بالخشية، وهي دموع تماسيح، فليس كل ابتسامة تعد بشاشة وطلاقة وثوابًا، فرب ابتسامة صفراوية كأنها ذوب السم، ورب ابتسامة سخرية أو شماتة تكتب عند الله ذنبًا فاحشًا، والأعمال بالنيات وللمرء ما نوى، وربك على كلِّ شيء حسيب يعلم خائنة

الأعين وما تخفي الصدور، ويقضي بالحق ويحكم بالعدل.

إنَّ في الإسلام ضحكًا مرفوضًا ألا وهو ضحك السخرية بعباد الله، وضحك الشماتة بخلق الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ويخاطب المجرمين، فيقول في سورة «المؤمنين»: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩- ١١١]، وفي سورة «الزخرف» يتحدث عن قوم فرعون واستقبالهم لآيات الله التي عرضها عليهم موسى، فيقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧].

إنَّ الضحك أحيانًا جمال يتجلى في وجوه أهل الجنة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٢٨، ٢٩]، وأحيانًا يكون الضحك إجرامًا كما نسمع في سورة «المطففين»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾.

لقد كان رسول الله ﷺ يضحك، وهذه نماذج من ضحكه، ففي سنن ابن ماجه: «أصبح رسول الله ﷺ بالمزدلفة، فرآه أصحابه يضحك (وقيل: يتبسم)، فسأله أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- بأدبهما المعروف: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك أضحك الله سنك؟ قال: «**إنَّ عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه، ويدعو بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه**».

- ومن دعابته -عليه الصلاة والسَّلام- ما روي عنه أن عليًّا ؓ سأله في ساعة سرور: أيهما أحب إلى رسول الله ﷺ ابنته الزهراء أم زوجها علي، فأجابه -عليه الصلاة والسَّلام- وهو يبتسم: «**فاطمة أحب إليَّ منك، وأنت أعز عليَّ منها**».

- ورآه أحد الصحابة، وقد أردف على ظهره حسنًا وحسينًا، وهو يضحك لهما، ويقول: «**نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما**».

- وخرج في بعض أسفاره بصحبة عائشة -رضي الله عنها- وهي فتاة صغيرة خفيفة اللحم، فأمر من معه أن يتقدموا، فلما رأى نفسه خاليًا، قال لعائشة: «تسابقين؟» فقالت: نعم، فتسابقا فسبقته، ثم بعد أن كبرت عائشة، وحملت اللحم أعاد -عليه الصلاة والسَّلام- السباق، فسبقها لثقلها، فقال لها: «هذه بتلك» في جو من الابتسام الزوجي العطوف، وكان السباق الثاني بعد أن قارب الستين، وهو سباق يدل على فتوة الروح وروح البشاشة وحب الرياضة والسماحة والدعابة الطهور.

- وقد حدثت حادثة له كان ﷺ بعدها كلما ذكرها ضحك، وخلاصتها أن أبا بكر ﷺ سافر إلى الشام ومعه نعيمان بن عمرو (أشهر الأنصار دعابة)، وصحابي آخر اسمه سويبط بن حرملة، ووكل سويبطًا بالطعام، وفي إحدى غيبات أبي بكر طلب نعيمان طعامًا من سويبط، فلم يعطه، فما كان من نعيمان إلا أن ذهب إلى قوم يعرفهم، وقال لهم: عندي عبد أريد أن أبيعه، وهو عبد فصيح شديد الجدل، وقد يقول لكم: إنه حرٌّ، فلا تصدِّقوه، فاشتروه من نعيمان وذهبوا معه، حتى إذا وصلوا إلى سويبط وضعوا عمامته في عنقه، وشدوا بها يديه وهو يصيح أنا حرٌّ، وهم لا يصدقونه، فلما رجع أبو بكر ﷺ سأل عن سويبط، فلما علم بالأمر ذهب إلى القوم، وافتداه ونعيمان يقول له: كدت تقتلني جوعًا، وإنْ عدت إليها بعتك مرة أخرى، ولما رجعوا إلى المدينة أعلموا رسول الله ﷺ، فكان -عليه الصلاة والسَّلام- يبتسم كلما قابل سويبطًا أو نعيمان، وهو يذكر تلك الصفقة.

- وجاء شيخ من شيوخ الأعراب على راحلة سمينة مكتنزة، فلما عقلها على باب رسول الله ﷺ نظر إليها نعيمان، وكان اللحم في المدينة شهوة وأمنية، فأحضر بعض الشباب وقال لهم: كيف أنتم وشبعة من لحم هذه الناقة الكوماء، ويغرم ثمنها رسول الله ﷺ؛ لأن الضيف ضيفه، وفي الحال ذبحها نعيمان، فلما رآها صاحبها صاح (واعقراه)، واختبأ نعيمان ﷺ تحت كومة قش في بيت أحد الصحابة، لكن ذلك الصحابي أخبر رسول الله ﷺ بمخبأ نعيمان، فسحبه من بين القش وجعل يمسح عن وجهه القش والتراب، وهو يبتسم، وأمر للضيف بناقة.

- ورأى نعيمان بالمدينة رجلاً يبيع عَسلاً، فأخذه إلى بيت رسول الله ﷺ، وقال له أهل

هذا البيت: طلبوا مني أن أشتري لهم عسلك، وحمل عسل الرجل وطفق يطعم منه آل بيت رسول الله ﷺ، ويقول لهم: هذا هدية مني لرسول الله ﷺ، ولما خرج قال للرجل: سيخرج لك صاحب البيت، ويدفع لك الثمن، ولما خرج رسول الله ﷺ وجد الرجل في انتظاره يطالبه بثمن العسل، فأدرك -عليه الصلاة والسلام- حيلة نعيمان، وسأله: «**ما حملك على ذلك؟**» قال: حب الخير لك يا رسول الله، لقد أردت أن تأكل عسلاً، فاحتلت لذلك.

وكانت له -عليه الصلاة والسلام- دعابات كقوله لإحدى العجائز «**لن تدخل الجنة عجوز**»، وكقوله لأحد الأعراب، وقد طلب منه أن يحمله على بعير فقال له: «**لا حملتك على ولد الناقة**»، وكقوله لإحدى النساء: «**إن زوجك في عنقه بياض**»، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للصحابة وبينهم بدوي: «**إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ. قَالَ: فَبَذَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: «دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَيْءٌ». فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ لاَ تَجِدُهُ إِلاَّ قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ**.

## من أحاديث الآداب

# الحلم واللين

الحمد لله الذي جعل الإسلام دينه المبين، وأشهد أن لا إله إلا الله، يحب أهل الرفق والسماحة واللين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الدنيا ورحمة الله للعالمين، اللهم صلِّ عليه وسلم وعلى آله وصحبه الأئمة الهداة المتقين.

**وبعد**؛ هنالك فضيلة إذا وجدت في المؤمن أحبته القلوب وصادقته الأرواح واجتمعت حوله العواطف النبيلة والمشاعر الجميلة.. هي خصلة مدح الله ﷻ بها نبيَّه محمدًا ﷺ، وحثه على التمسك بها؛ لأنها هي التي ألفت القلوب من حوله، وجمعت المؤمنين على محبته.. هذه الخصلة هي لين الجانب أو سماحة النفس أو سماحة الشمائل، ولين الجانب فضيلة مركبة من فضائل عدة هي الرفق في كلِّ شيء، والحلم عن المسيء، والعفو عند المقدرة، والتأني قبل

العقوبة.. كلُّ هذه يمتزج بعضها ببعض فيتكون منها مزيج مبارك هو لين الجانب، يقول ربنا ﷻ مخاطبًا نبيَّه ﷺ في سورة «آل عمران»: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

هذا الخلق ألزم ما يكون للدعاة والوعاظ والمتصدرين لهداية الناس، فكثير من الشباب كرهوا الدين بسبب الدعاة؛ لأنهم رأوا كثيرًا منهم أهل تشدد وفظاظة، إذا أفتاك كرَّهك في دينك، وإذا كلَّمته في أمر نفر منك.

إنَّ قدوتنا في الدعوة هو رسول الله ﷺ الذي خاطبه ربه ﷻ فوصفه بلين الجانب، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

من الناس من يكن هينًا لينًا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا تقاضى دينه، وتراه متسامحًا في حقه عفوًا عن زلة صديقه، لا تكاد ترجوه في أمر حتى يقتنع، ولا تكاد تدعوه إلى مصالحة حتى يستجيب، ومن الناس من تراه في كل أموره عنيفًا لا يقبل عثرةً، ولا يعفو عن زلة، ولا يقبل صلحًا إلا أخذ الحق وتجاوزه إلى بعض الباطل، ثم إنك تراه جواظًا مستكبرًا غضوبًا لا يعفو ولا يتسامح ولا يتأنى إذا احتجت إلى مقابلته ذهبت إليه متخوفًا من بوادره، متحسبًا من شدته وشراسته.

إنَّ مثل هذا الفظ يتباعد عنه العقلاء، ولا يخالطه الفضلاء، ولا تستريح إلى مجالسته الخلطاء، وتراه دقيق الحجة والمؤاخذة، غليظ الجدل والمخاصمة، لا يندى له جبين، ولا تجود له كف.. مثل هذا هو الذي تنفض القلوب من حوله، وتشمئز النفس من مقابلته، وتضيق بك الدنيا إذا احتجت إليه، وتفضل أن تقابل الموت الأحمر ولا تقابله.

ولقد كان رسولنا ﷺ أعظم الناس لينًا وحلمًا ورفقًا وسماحة خلق، فما عرف عنه أنه أهان جليسًا أو تجهم في وجه مسيء، روى البخاري أن أعرابيًا بال في المسجد، فقام الناس إليه فوقعوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء (أي: دلوًا) فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»**، وكان من بركات فعلة الأعرابي أن عرف الناس كيفية تطهير الأرض إذا لامسها نجس، وأن هذا يكون بإراقة دلو من الماء على المكان.

لقد عذر رسول الله ﷺ ذلك البدوي، فقد عرف أنه فعلها مضطرًا، وبمثل هذا ملأ حبه -عليه الصلاة والسلام- قلوب الناس، وشبيه بهذه الحادثة قصة الأعرابي الذي دخل الصلاة وهو حديث عهد بالإسلام، فأخذ يلتفت ويسأل جاره، والمسلمون من حوله ينظرون إليه نظرات غاضبة، وهو يتعجب: لماذا يكشرون في وجهه حتى إذا انتهى رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الأعرابي، يقول الأعرابي: فوالله ما نهرني ولا كهرني (معناها قهرني)، بل قال لي: إن هذه الصلاة لا تصلح لكلام الناس، إنما هي التسبيح والذكر.

وكان -عليه الصلاة والسلام- على المنبر يخطب الجمعة، فأقبل أعرابي من بعيد وصاح: يا محمد، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، فعلّمني ديني، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، وأمر بكرسي، فجيء له بكرسي حديد، فجلس عليه، وعلّم الأعرابي من أمور دينه ما شاء الله له، ثم عاد واستأنف الخطبة.

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار، تحرمُ على كلِّ قريب هين لين سهل**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه في شيء قط (يعني أنه كان يعفو عمن يسيء إليه) إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى.

وفي الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بردٌ نجراني غليظ الحاشية (يعني خشن من أطرافه)، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء.

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود ﷺ قال: كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء (يعني عليه شارة النبوة) ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

وكان -عليه الصلاة والسَّلام- ينهى عن الغضب؛ لأن الغضب يقسي القلب، ويشنج الجسم، ويزين للمرء أن يبطش، ففي الحديث الذي رواه البخاري أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «**لا تغضب**»، فردد الرجل السؤال مرارًا، وهو يقول له: «**لا تغضب**».

ولا غرو، فالغضب يخرج الحليم عن طوره، والقرآن الكريم نهى عن الغضب، فقال تعالى يمدح المتقين: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

إنَّ منظر الحسنة جميل ومنظر السيئة قبيح، والمؤمن يدفع القبيح بالحسن، ويدفع الإساءة البشعة بالإحسان الجميل، فيتألف القلوب وتحبه الأرواح، وقرأنا في السيرة أنه -عليه الصلاة والسلام- كان يمشي ومعه عمر، فاعترضه يهودي كان له عليه دين، فطالبه بالدين، وأغلظ له القول، قال له: إنكم يا بني عبد مناف قومٌ مطل، فغضب عمر ﷺ وهمَّ أن يبطش باليهودي، فقال له رسول الله ﷺ: «**كان غير هذا أولى بك: تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب**»، فلم يسع اليهودي، وهو ينظر إلى وجه رسول الله ﷺ مجملاً باللين والحلم إلا أن قال: أشهد أن هذا وجه نبي.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨].

## فضل اللين

لعل من أجمل أخلاق المسلم ومن أحلى سجاياه ذلك الخلق الحبيب الذي امتدحه ربنا ﷻ في محكم آياته، ونسبه إلى صفوة أنبيائه ومخلوقاته، ووصفه بأنه يؤلف حول صاحبه القلوب، ويغرس محبته في شغاف الضمائر، يقول ربنا ﷻ في سورة «آل عمران» والخطاب وإن كان للرسول الكريم إلا أنه أيضًا لكل من يأنس به، ويحب دينه وسيرته: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ما أجمل أن يكون المسلم رقيق الشمائل حلو السجايا دمث الأخلاق خفيف الروح

والظل رفيقًا في تناول الأمور.. إن حدَّثته أصغى كأنه تلميذك المهذب، وإنْ لمته اعتذر، كأنما أخطأ وما أخطأ، وكأنما عناه الشاعر الطائي، وهو يصف الصديق المؤدب:

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم ردَّ جوابه
وإذا ظمئت إلى الحديث نهلت من أخلاقه وشربت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه ولعله أدرى به

من الناس من إذا خالطته حملك من أثقاله وأوزاره ما لا تحمله من الكابوس الخانق، تراه يدعي فهم كل شيء، وهو لا يكاد يفقه شيئًا، وتراه إلى ذلك معجبًا بمواهبه، مغرورًا بنفسه، لا يصغي إلى نصح ولا ينصت إلى بلاغة، ثم هو لا يقبل عذرًا، ولا يقبل عثرة، وإذا اختلفت معه في أمر سهل من أمور الحياة العادية جاء لك حتى تستسلم وتعتذر وتعترف أنه المصيب، وأن أفكاره هي المصيبة، ثم هو بعد ذلك عُتل جواظ لا يكاد يبتسم، وهو أبدًا مخالفٌ لآراء من حوله لا يكاد أحدهم يتكلم أو يقترح، حتى يقول له: كلا، بل أنت مخطئ.

- روي عن رسول الله ﷺ أنه قال من حديث رواه أبو هريرة ﷺ: **«واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلِّمون، ولمن تعلَّمون منه، ولا تكونوا جبابرة»**.

- وقد وصف الله ﷻ عبادًا يحبهم ويحبونه، فقال في سورة «المائدة»: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**.

- وفي الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ مر على صبيان، فسلَّم عليهم، وفي صحيح البخاري قال أنس ﷺ: «كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت»، وكان -عليه الصلاة والسلام- يكون في بيته في مهنة أهله، أي: يخدم ويعاون ولا يستنكف عن خدمة نفسه ومساعدة أسرته.

- وروى مسلم عن صحابي بدوي اسمه تميم بن أسد أنه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليَّ، فأتى بكرسي فقعد عليه، وجعل يعلِّمني مما علَّمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها.

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف**

**مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»**، والعتل معناه الغليظ، والجواظ المختال في مشيته.

- وفي الحديث المتفق عليه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال في مشيته، إذا خسف الله به؛ فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»**.

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس (وكان سيدًا من سادات بكر، واسمه المنذر بن عائذ، وسمِّي الأشج لجرح كان في وجهه)، قال له رسول الله ﷺ: **«إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»**.

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله رفيق يحبُّ الرفق في الأمر كله»**.

- وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الله يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»**.

- وفي صحيح مسلم أيضًا: **«إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»**.

- ورأى شابٌّ في ساحة منى أحد الوعاظ يسبُّ الناس ويتهمهم بالفسوق عن أمر الله، ويوزع لقب كافر بدون دليل ولا حساب، فقال له: يا أخي، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، والله لو كان وعظ رسول الله ﷺ مثل وعظك ما آمن به رجل واحد.

- والكلُّ يعرف الحديث الذي جاء في صحيح البخاري حين بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال لهم النبي ﷺ: **«دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء** (أي: دلوًا)، **فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»**.

- وفي الحديث المتفق عليه الذي لو يحفظه كل داعية إلى الإسلام: **«يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»**.

- وفي صحيح مسلم حديث شريف يبيِّن منزلة اللين عند الله، يقول رسول الله ﷺ: **«من يحرم الرفق يحرم الخير كله»**، ولما تكلَّم أحد الأعراب في الصلاة عنَّفه الصحابة وهموا به، ثم أقبل عليه النبي ﷺ، يقول الأعرابي: فبأبي وأمي رسول الله ﷺ من معلم، فوالله ما كهرني ولا

نهرني، لكنه قال لي ما معناه: إنَّ هذه الصلاة ليست لشيء من كلام الناس، لكنها التسبيح والذكر.

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه.

- وروى الترمذي عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بمن يحرم على الناس أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كلِّ قريب هين لين سهل**».

**وبعد**؛ فإن منهج الدعوة إلى الله كما رسم القرآن الكريم يقوم على اللين والرفق ورقة الشمائل والحلم والصفح الجميل، ويخلو من الفظاظة والغلظة؛ لأن الداعية الذكي المؤمن يعتبر نفسه طبيبًا، وينظر إلى من يهديهم إلى سبيل الحق وكأنهم مرضى، والمريض لا يؤخذ بالشدة، لكنه يؤخذ بالشفقة واختيار الدواء الشافي، ولرب داعية فظ فتن الناس، فكرَّههم في الدين، وهاج فيهم سورة المعاندين، فعاش ومات لم يهد الله به ولو رجلاً واحدًا، وعلى النقيض من ذلك، فلرب هادٍ مرشد رقيق القلب حميد الخلق لين الكلام هدى به مئات بل آلافًا من التائهين حين تألفهم بأخلاق أعذب من الزلال البارد على المهجة والعطشى، وأبهى من قطرات الطل في أكمام الرياحين.

اللهم اهدنا إلى أحسن الأخلاق، واجعلنا من عبادك الذين قلت فيهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ۞ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٣- ٦٩].

* * *

## من أحاديث الآداب

# اللسان بين الكلام الطيب والكلام الخبيث

الكلام هو أسمى الفنون التي اختصَّ الله بها الإنسان، وفضَّله بها على سائر خلقه حتَّى على ملائكة الرحمن، بل ولقد أسجدهم لآدم حين علم الأسماء وأنبأ بها ملأ السماء، ومنذ ذلك الحين أصبح كلامُ الإنسان في مجال التكريم وقربة لله العليم الحكيم.

إنَّ الكلمة الطيبة كالشجرة السَّامقة العلاء، المتفرعة في عنان السماء، الضاربة بجذورها في أغوار الزكاء والنماء، تؤتي أكلها كلّ حين، ويبارك ثمارها ربُّ العالمين؛ لأنها تقع في الأسماع كما ينزل الطلّ في كئوس الزهر، وتنوّر البصائر كما يهتدي السَّاري بنور القمر، ويفوح منها عبير القدوة الصالحة، فتظل محمودة الأثر، ولرُبَّ كلمة ظلَّت لصاحبها ذخيرة في حياته، ثم بقيت له صدقة جارية وعلمًا نافعًا بعد وفاته، فكان الكلام كله حسنات زاكيات وباقيات صالحات.

من الناس من يكون كلامه زَيْنًا للمجالس، وأُنسًا للمُجالِس، ترى فيه حكمة العارف الأريب، وبلاغة المبدع الأديب، فإذا رأى ميزانه يوم القيامة غمرته المسرَّات وتدفقت في مُحيَّاه البسمات، نعم إن من الناس من يعجبك في كل نجواه؛ لأنك لا تراه إلا آمرًا بمعروف، أو ناهيًا عن منكر، أو مصلحًا بين الناس، ثم هو بعدئذ إذا لم يجدْ مجالاً لجليل القول تحلَّى بجميل الصمت؛ فيثاب بكرم الله على الكلام الخَيِّر كما يثاب على الصمت المفكر النيِّر، تراه يجيد الإصغاء إلى الحديث كأنما هو تلميذٌ ظامئ إلى المعرفة، وتراه أغلب وقته صامتًا، فإذا تكلم بَذَّ القائلين:

ومن الناس من إذا جلس في مجلس انطلق يحدث الناس بكل ما يعلم، واحتكر الكلام وهو لا يفهم، فتراه يتصدى لكل جدال، ويتصدر لكلِّ سؤال، ويدعي صنوف المعرفة، فهو تارة حكيم، وطورًا سياسي، وأحيانًا مهرج، فإذا انفض المجلس نال لقب ثرثار، ووصف بأنه مهذار، وهوى سبعين خريفًا في النار، وذلك لما يقع في ثرثرته من لغو الحديث، وغيبة الخلق، وقبيح السخرية، وكل ذلك مكتوب ومحسوب ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

والحقُّ أن عواقب الصمت أسلم من عواقب الكلام؛ لأن الصمت لا يوقع في المآزق بينما ترى أن رُبَّ كلمةٍ أطاحت برأس، وقديمًا قيل: كلُّ مكثار مهذار، وقالوا: من كثر لغطه كثر غلطه. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «**لقد أُمرت أن أتجوز في القول** (أي: أقتصر وأوجز) **فإن الجواز في القول خير**». ولخَّص رسول الله ﷺ ذوق الكلام فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»، وفي مسند الربيع: «**رحم الله من سكت فسلم، أو قال فغنم**»، قال عبد الله بن المبارك:

**واغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت فارغًا مستريحًا**

**وإذا ما هممت بالمنطق الباطل ... فاجعل مكانه تسبيحًا**

**إن بعض السكوت خير من القول ... وإن كنت بالكلام فصيحًا**

ومن كلام عمرو بن العاص ﷺ: زلة الرِّجل عظمٌ يُجبر، وزلة اللسان قد لا تغفر، وقال الشاعر:

**يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل**

**فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرأ على مهل**

وأقبح ما تكون الثرثرة إذا كانت إشاعات لا سند لها مما يحرج أحيانًا ويهدم المعنوية أحيانًا أخرى، وقد نهانا رسول الله ﷺ عن قيل وقال، وخصوصًا في أوقات الأزمات والحروب؛ لأن حرب الإشاعات أحيانًا تعتبر سلاحًا هائلاً، وكانت بعض الجيوش تسخر حرب الإشاعات للقضاء على الروح المعنوية، كما فعل الجنرال (فرنكو) حين أرسل في بعض معاركه خمسة طوابير من الجيش من أربعة للقتال، والطابور الخامس لحرب الأراجيف والإشاعات، ولقد حذَّرنا القرآن الكريم من حرب الإشاعات، وأمر برد الأمر إلى المسئولين إذا سرت في المجتمع أي إشاعة ضارة، يقول الله تعالى في سورة «النساء»: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

على أن للقول مقامات يُعاب فيها الصمت؛ لأن الصمت فيها يكون جبنًا وخسة ولؤمًا. كما إذا عربد الباطل في مجلس ظالم أو مُدح الظلم عند حاكم غاشم، فهناك تكون كلمة الحق

جهادًا في سبيل الله، وشهادة مضحية في مرضاة الله.

والمؤمن يعرف شرف الكلام كما يعرف أدب الصمت، ولقد تكلم حسان ﷺ بأمر من رسول الله ﷺ فوقع قوله على كفار قريش وقع الصاعقة، وأثبت أن كَلْمَ اللسان أنكى من كَلْمِ السنان، وأن القول ينفذ ما لا تنفذ الإبر، وكان سلفنا الصالحون - رحمهم الله- إذا جلسوا في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء نصحوا لهم وقالوا لهم في أنفسهم قولاً بليغًا. يبلغ بصدقه وروعته أعماقهم، فيكتب الله للعلماء أجر الهداة وللحكام أجر المهتدين، ويكون الكلام بركةً على المتكلم والسامع.

وإذا كنا حمدنا الصمت وأوردنا الأحاديث في فضله وتفضيله فإن من الكلام ما هو أعظم ثوابًا عند الله وأجل أثرًا من الصمت. يقول النبي ﷺ فيما رواه ابن ماجه: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوان إلى يوم القيامة حتى يلقاه» وفي الأثر: أفضل الصدقة صدقة اللسان (ويعني بها كلمة الإصلاح الطيبة) تدفع بها الكريهة وتحقن الدم. ولرب كلمة خير من عطاء المال، وذكر عند الأحنف الصمت والكلام وأيهما أفضل فقال الأحنف: الكلام أفضل؛ لأن الصمت لا يعدو صاحبه، أما الكلام فينفع به كل من سمعه، واللسان وإن أوقع صاحبه أحيانًا في الإحراج فهو أشرف أعضاء الجسد؛ لأن الله أنطقه بالتوحيد وألهجه بالذكر والشكر، يقول زهير:

**لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم**

**وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم**

وفي المثل: «المرء مخبوء تحت لسانه».

والحقُّ أن اللسان الفصيح الصادق البليغ تتمتع به الأسماع، وتقضى به الحوائج، وتزول به الضغائن، ويُعزَّى به المصاب، ويرد به الجواب، وتوصف به الغوامض، ويوعظ به الغافل.

وما أجمل أن يلتزم المرء كلمة الخير ليكون في رضًا دائم من الله، سُئل عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- ماذا تقول في دم عثمان وكان يتوقع منه كخليفة أموي أن يخوض في الحديث، لكنه - رحمه الله- قال: تلك دماءٌ نجانا الله منها، فلله الحمد والمنة. وما أجمل ما قال القائل: أزين الجمال للرجل حلاوة لسانه، وروعة بيانه، وأجمل جمال المرأة حياؤها الجميل، ووفاؤها للحليل.

على أن طول الكلام ربما يكون عيًّا إذا كان ترداداً غير مثمر، جلس أعرابي يستمع إلى خطبة جمعة فأطال الخطيب حتى نعس الأعرابي ونام، فلما أوقظ قال: نحن في البادية نعد طول الخطبة عِيًّا، ونرى البلاغة في قلة الكلام وبلوغ المرام.

## من أحاديث الآداب

# الكـــــــلام الطيب

من آداب المسلم أن كلامه لا يكون إلا طيبًا، ومن ثم ترى بين فمه وبين الله طريقًا عبقًا يفوح شذاه بعطر الإيمان. وفي هذا يقول الله ﷻ في سورة «فاطر»: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

إنَّ فَمَ المؤمن وعاءٌ وضيء طهور ينضح خيرًا ومعروفًا وإحسانًا وإصلاحًا كأنك منه في روضة أريضة أو خميلة مزهرة لا تريك إلا المنظر الجميل ولا تنفحك إلا الشذا العطر، ولا غرو فالمؤمن مأمور من ربِّه وقرآنه ودينه ورسوله أن يتجنَّب السوء من القول، وألا يلجأ إلى السِّباب المقذع والفحش المرذول، يقول ربنا ﷻ في سورة «النساء»: ﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۞ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٨، ١٤٩].

وللأشياخ – رحمهم الله– كلام حُلْو في بلاغة هاتين الآيتين، وما تشيعانه من جوٍّ مؤنس حبيب حافل بالعفو من العبد، وما يترتب عليه من عفو الله القادر القاهر.

إنَّ المؤمن مأمور أن يكف عن كل أنواع البذاء حتى إنه لا يجوز له أن يسبَّ الكفَّار ولا أصنامهم؛ لأن السباب لا يأتي بخير، وهو سلاح الضعيف، وقديمًا جاء في أمثال العرب: (أوسعتهم سبًّا وراحوا بالإبل) على لسان رجل ضعيف نهب القوم إبله وهو يسبهم، فلما لامه أهله على قلة حيلته قال ذلك المثل، وفي حقبة من تاريخ العرب الحديث شغلت بعض وسائل الإعلام طاقتها في السباب فاستيقظ عدونا في أثناء تلك الحملات المعيبة وانتهز الفرصة فراح بالإبل، وقتل أصحابها واحتل أوطانها.

لقد نهانا الله ﷻ أن نسبَّ أصنام المشركين ومعبوداتهم؛ لأنهم عندئذٍ سيسبون معبودَنا ﷻ؛ إذ هم يرون في آلهتهم من الجمال والزينة مثل ما يرى المؤمن في ربِّه، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «الأنعام»: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وأجبن ما يكون السباب وسوء القول والغيبة حين يكون في غياب المسبوب؛ لأنه عندئذٍ يكون غيبة ثم إنه لا فائدة منه أما الكلام في الوجه فهو الذي يفيد حتى ولو كان مُرًّا. جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»، ولم يكتف الإسلام أن ينهانا عن سوء القول بل لقد نهانا عن مجالسة أهل البذاء والافتراء والغيبة والخوض في أعراض الناس.

وقد يقول قائل: إنني أخالطهم لكنني لا أشترك معهم في بذاءة أو قول سيء ونسي أن مجرد الجلوس معهم إثم كبير حتى ولو لم يشارك المرء في سوء أقوالهم، وذلك لأن المرء على دين خليله، والمرء مع من أحب، وجليس السوء كنافخ الكير يؤذي وقد يحرق، يقول ربنا في محكم آياته يصف المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾، ويقول في سورة «المؤمنون»: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، وفي سورة «القصص»: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، وفي سورة «الأنعام»: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، وفي سورة «النساء»: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

ولهذا فالمؤمن لا يكتفي أن يتجنَّب سوء القول لكنه يعتزل أهله، ولا يرضى أن توبقه سموم مجالسهم الموبوءة، وقد أفاد الأشياخ -رحمهم الله- أن هنالك حالات ومواطن يجوز فيها للمرء أن يصدر عنه القول السيئ من غيبة ووصف صادق لأهل الفسوق دون أن يكون عليه إثم إن شاء الله، فقد أباحوا من الغيبة الأمور الآتية:

**أولاً:** يجوز للمظلوم أن يغتاب ظالمه أثناء شكواه، فيذكر ظلمه وابتزازه واغتصابه

وتحايله في سبيل قلب الباطل حقًا، يقول الله تعالى في سورة «النساء»: ﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾، وفي الحديث المتفق عليه أن رجلاً (يبدو أنه كان من أهل الظلم) استأذن على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة» يعني أنه من بين عشيرته رديء ظالم.

لقد اغتابه رسول الله ﷺ لظلمه وسوء أخلاقه مع الناس. ولعل في هذا تحذيرًا منه.

**ثانيًا:** إذا استشارك إنسان يطلب نصيحتك بخصوص رجل يريد مشاركته أو امرأة يريد زواجها وكنت تعلم أمورًا معيبة فيها فوضحها للمستشير ولو ذكرت سوءًا واقتضى الأمر أن تذكر الشريك والمرأة بما يكرهان، وفي هذه الحال لا تكون اغتبتهما وإنما نصحت أخاك، والمستشار مؤتمن.

**ثالثًا:** في معرض العلم والتعليم ودروس التاريخ للإرشاد والنصح، كأن تقول عن محدث: إنه كان مدلسًا، أو تصف حاكمًا أنه كان جبانًا أو ظالمًا، ومن النصح مثلاً أن ترى جماعة من الأشرار يتآمرون لسرقة بيت فتخبر عنهم الحاكم وتصف مساوئهم، أو أن ترى بعض المزعجين لشوارع المسلمين يسوقوا سياراتهم فتكتب أرقامها وتصفهم للمسئولين، ولا تكون عندئذ مغتابًا ولكن ناصحًا، وفي هذا الأمر يُلتزم السر والتكتم؛ لأن العبرة بالإصلاح لا بالفضيحة.

**رابعًا:** في الاستفتاء والشهادة، فعلى المؤمن أن يكون دقيقًا يورد الحقائق في صدق وموضوعية ليكون الحكم مطابقًا للوقائع، وذلك لأن المجاملة في الحق قد تضيع الحقوق وتروج الظلم.

**خامسًا:** غيبة المجاهر الذي لا يستحي لينشر ذكره بالسوء فيخزى من نفسه ولعله يتعظ.

**سادسًا:** إذا كان لقب إنسان أو اسمه شائعًا ولا يستحي صاحبه منه فلا بأس أن تذكره به كالأعمش والأصم والأعرج والخدَّام والأحول. والعبرة في كل ذلك بالمقاصد، والأعمال بالنيات.

## من أحاديث الآداب

# عفُّ اللســـــان

من الناس من عوَّد لسانه على الصخب، ومنطقه على الشتائم، فهو يصخبُ بسبب وبغير سبب، وهو يشتم جادًّا ومازحًا، وقد تسمعه في الأسواق يرفع عقيرته صائحًا، وقد تراه شاتمًا حتى وهو يسلم على صديقه مع أن ربنا ﷻ نفَّر من هذه المثالب فقرن بين عادة الصخب في الناس وعادة النهيق في الحمير قال الله ﷻ على لسان لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

المؤمن يعلم أن اللسان من أجلِّ نعم الله، فتراه يحرص على تلك النعمة الجلية، فلا يصدر في كلامه إلا عن الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله، والمؤمن يجعل من لسانه منبعًا طهورًا لا يصدر في نجواه إلا عن أمر بمعروف أو صدقة أو إصلاح أو ذكر لله أو علم نافع أو حكمة مفيدة، فإذا فعل ذلك استبشر بوعد الله -تبارك وتعالى- الذي وعد أصحاب الألسنة النظيفة الوضاءة؛ إذ يقول في سورة «النساء»: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

إن ربنا ﷻ أمرنا بعفة الألسنة حتى في جدال أهل الكتاب، ونهانا عن اللغو والسباب حتى عن سباب الكفار، وحتى عن سباب الأصنام؛ لأن الكافر يكون معجبًا بكفره، فإذا سببت صنمه سبَّ الله ﷻ. وفي هذا يقول الله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، ويخاطب ربنا تبارك وتعالى دعاة الخير فيوصيهم برقة الكلام واستعمال الحكمة والموعظة الحسنة ويقول في سورة العنكبوت: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ولقد كان رسولنا محمد ﷺ آية في حلاوة اللسان وعذوبة المنطق. روى الترمذي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ليس المؤمن بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذيء»، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي سنن أبي داود

والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بالنار**»، ومعنى الحديث: لا يقل أحدكم لأخيه: لعنة الله أو غضب الله عليه أو أدخله الله جهنم.

ولما اشتد أذى المشركين لرسول الله ﷺ عام الحزن قال له بعض أصحابه: ادع الله على المشركين والعنهم فقال عليه الصلاة والسلام كما جاء في صحيح مسلم: «**إني إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعانًا**». وفي رواية البخاري عن أنس أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا ولا فاحشًا كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما تربت يمينه، أو تربت جبينه» وهي دعوة قد تقال في العتاب، وقد تقال ولا يقصد بها وقوع ضرر كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث اختيار الزوجة: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**». وفي الحديث المتفق عليه أنه عليه الصلاة والسلام نفر من السباب فقال: «**سباب المؤمن فسوق. وقتاله كفر**».

وقرأنا في كتب السيرة أن أحد المسلمين لعن أصحاب القليب (وهم قتلى المشركين يوم بدر) فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء**». وفي رواية: «**دعوا السباب فإنه يؤذي الأحياء ولا يصل إلى الأموات**».

والبذاء لا يأتي بخير، وأحيانًا يحلو لبعض الناس أن يرموا بعض المسلمين بالفسوق أو الكفر دون أن يكون لديهم برهان على ذلك، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسُوقِ وَلَا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**»، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلاً وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا**».

ولم يكتف الإسلام أن نهانا عن سباب الناس؛ فقد نهانا أن نشغل ألسنتنا بأي سباب، ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وفي رواية يقول: «**قَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**».

والحق أن هذا يحصل كثيرًا فقد تسمع رجلاً يقول لآخر: تبًا لهذا الزمن أو لهذه الأيام التي جعلت لك مالاً فصرت تتكلم، إن الذي يقول هذا قد سبَّ الله ﷻ وهو لا يدري؛ لأن الأيام ليست هي التي جعلت له مالاً، وإنما الله -تعالى- هو الذي فعل ذلك.

وقد نهانا النبي ﷺ عن سبِّ الريح، ففي سنن أبي داود والترمذي أن رجلاً نازعته الريح رداءه فلعنها فقال رسول الله ﷺ: **«لا تعلنها فإنها مأمورة مسخرة، وإن من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت عليه»**. وفي رواية النسائي: **«إن هذه الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها»**.

ونهانا عليه الصلاة والسلام عن سبِّ المسلم إذا مات، ففي سنن أبي داود والترمذي يقول النبي ﷺ: **«اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم»** وفي رواية للبخاري: **«لا تسبوا الأموات؛ فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»**.

وقد أنكر رسول الله ﷺ على امرأة من الأنصار غضبت من ناقتها فلعنتها فقال: **«خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة»**. وجاء في الأحاديث الشريفة أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن سب الديك؛ لأنه يوقظ للصلاة.

وعلى الجملة؛ فالمؤمن يتجنب كل أنواع السباب والبذاء إلا أن يكون المسبوب مجاهرًا بفسقه أو ظالمًا واضح الظلم أو مبتدعًا، فإنه عندئذٍ يستحق اللعن كما لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه، وكما لعن الراشي والمرتشي والرائش، ولعن بائع الخمر وعاصرها وشاربها.

نسأل الله أن يرزقنا الاقتداء برسوله ﷺ واتباع أوامر دينه.

## مديح من لا يستحق

لعل من أشد المواقف مقتًا وخنوعًا وإذلالاً للكرامة الإنسانية أن ترى شاعرًا أو أديبًا أو متكلمًا أو صحفيًّا يكيل المدائح بلا حساب من أجل هدف رخيص أو عرض دنيء أو دراهم معدودة، ويزداد الموقف سوءًا حين يكون الممدوح من أهل الفساد، والسمعة الرديئة،

والفسوق المسقط للمروءة.

إنَّ المديح الرخيص إذا دلَّ على شيءٍ فإنما يدل على سقوط المروءة، وهوان النفس لدى المادح، كما يدل على لؤم الطبع وسوء التربية لدى الممدوح، يقول الله -تعالى- في سورة «النجم»: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، وألام يكون المرء إذا رأيته يمدح في المجالس نفسه وهو يعلم أن نفسه طافحة بالعيوب مدنسة بالذنوب، يقول ربنا ﷻ في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

على أن هنالك صنفًا من الناس يحبون المديح بما لم يفعلوا، تراه أبخل الناس وهو يحب أن ينسب إليه كرم حاتم، وتراه أنجس الناس وهو يريد أن يمدح بعفة يوسف، وتراه مثلاً خسيسًا في الجشع والرشوة والدَّنس وهو يعشق أن يوصف بكل الفضائل والشمائل والمثل العليا. مثل هذا هو الذي ذكره الله ﷻ في سورة «آل عمران»؛ إذ يقول: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأي ظلم أشد من تصرف مخلوق حقير يفعل كبائر الإثم ويجرُّ على قومه ويلات الشؤم ويغوص في حمآت الهزائم، ثم هو نعرض أن يشاد بصلاحه وتعدد إنجازاته وجلائل أعماله وتنسب له انتصارات وهمية ومآثر مزعومة، وهو لو حاسب نفسه لوجد حياته كلها مستنقعًا آسنًا يفوح بوباء الحرام ونتن الفاحشة وزخم السحت وعار الهزائم.

الإسلام الحنيف يكره التملق والمديح الكاذب، بل إن الإسلام ليأمرك ألا تمدح أخاك بما فيه من صفات الصلاح خشية أن يغتر ويستكثر عمله؛ فيشغله الغرور عن المداومة والاستزادة، وقد علل القرطبي - رحمه الله- في تفسيره نهي القرآن عن التمدُّح بقوله ما معناه: «نهانا الله عن التمادُح خشية أن يدفعنا ذلك إلى الإعجاب والكبر، ونظن أننا بتلك المنزلة فنضيع العمل ونترك الازدياد من الفضل».

- وفي الحديث المتفق عليه من حديث حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا

**أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».**

- وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدح فقال عليه الصلاة والسلام: «**ويحك أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجلٌ خيرًا فقال: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**». وكررها ﷺ مرارًا ثم قال: «**إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك. وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحدًا**».

- وروى مسلم - رحمه الله- في صحيحه أن رجلاً جعل يمدح عثمان بن عفان فعمد المقداد فجثا على ركبته فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المداحين؛ فاحثوا في وجوههم التراب**».

- وفي سنن ابن ماجه أن معاوية ﷺ كان كثيرًا ما يقول في خطبه: إياكم والتمادح فإنه الذبح.

- وكان ابن مسعود ﷺ يقول في المتملقين الذين يأملون أن يقضوا حوائجهم بالمديح والتملق: إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء. يلقى الرجل لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا فيقول له مثنيًا: إنك لكيت وكيت (يعني أنه يمدحه ويتملقه) فلعله أن يرجع ولم يقض حاجة. ولكنه أسخط الله عليه ثم يتلو قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾**.

- وفي صحيح مسلم - رحمه الله- أن أحد الصحابة سمى ابنته (برَّة) فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم على الله أعلم بأهل البر منكم. سموها زينب**». وإنما نهى عن اسم برة لما فيه من مدح.

- وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن المراثي، وهي قصائد يمدح بها الموتى.

لقد جاء على أمتنا حينٌ من الزمن كانت أحوالها فيها من المضحكات المبكيات حين تولى بعض شعوبها نفر من أهل الاستبداد والظلم، خوفوا الناس وسخروهم للمديح والإطراء فما يكاد مستبد يقفز على السُّدة حتى تهيج من حوله المدائح والأناشيد والإنجازات الخيالية

المزعومة، ولما استخف أولئك المستبدون شعوبهم كثرت الانقلابات، فكنت ترى في السنة عدة حكام ينقلب بعضهم على بعض، وبينا ترى في يومك مدائح في فلان إذا بك في غدك ترى له فضائح يندى لها الجبين، ويستحي منها الزمن.

إن الإسلام لا يمنع أن تقول للمحسن أحسنت، إذا أردت بذلك أن تشجعه وتستزيده، ولكنه يمنع أن يُتملَّق الظالم ويمدح الفاسق، وقد فضل الله أمتنا على سائر الأمم لثلاث خصائص ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.

إن سلفنا الصالح ما كانوا أبدًا مداحين لكنهم كانوا على كل أحوالهم متناصحين، ولا عجب فقد لخص لهم نبيهم ﷺ دينهم بقوله: «الدين النصيحة»، ولهذا فقد كانت علاقة المحكوم بالحاكم هي علاقة المحب النصيح الذي يسدد الخطأ، ويرشد إلى الصواب، ويتقرب إلى الله بالسمع والطاعة والانضباط والنظام، فنشأ من السلف جيل لا يدين إلا لله، ولا يعتز إلا بالإيمان، ولا يحني جبهته إلا في صلاته، ولا يتملق مخلوقًا على حساب دينه، أولئك هم الذين أعزهم الله بإيمانهم، فلم يلتمسوا العزة بغيره، وأيقنوا أن الرزق في السماء، وأن الأجل في الكتاب، فلم يرخصوا أنفسهم بالأطماع لكنهم شروها لله بالجنة؛ فصدقهم وعده، ومن أوفى بعهده من الله.

### من أحاديث الآداب

## أثر العبادات في أعمال وأخلاق المسلم

من آداب المؤمن أن تظهر آثار عبادته في أعماله وأخلاقه، فإذا صلّى ظهرت في سلوكه أخلاق المصلين، وإذا صام تألقت في أعماله ومعاملاته شمائل الصائمين، وإذا آتى زكاته زكت نفسه بمناقب المؤثرين المحتسبين، وإذا حج عاد من حجه بفضائل المقبولين، عندئذٍ تكون عبادته كشجرة طيبة مثمرة تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها، أما حين تكون عبادته في وادٍ، وأخلاقه في وادٍ، فتلك هي العبادة التي كشجرة السرو بلا رواء ولا ثمر.

**المؤمن يعلم أن العبادة إنما فرضها الله -تعالى- على عباده لتحقق ثلاثة أهداف عظيمة سامية:**

**أولها:** تحقيق توحيد الله الذي خلقنا من أجل أن نعبده ونوحده، فقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

ومن هنا؛ فإن عبادة الله وتوحيده وإخلاص النية إليه دلائل على أن الإنسان عرف رسالة وجوده وحكمة خلقه فأدى الرسالة وحقق الحكمة وحمل أمانة الله بجدارة، تلك الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، أما الذي يقعد عن العبادة فذلك الذي سفه إنسانيته وخان أمانته وحقر نفسه ورسالته.

**أما الهدف الثاني من عبادة الله:** فهو توحيد الكلمة، وجمع الشمل، وإشراق المحبة في مجتمع المسلمين حين يجتمعون حول مقاصد الخير في صلاتهم وصومهم وزكاتهم وحجهم؛ فتشيع بينهم روح الإخاء، وتجمعهم في الله أعلام الصفاء، وإذا هم صف واحدٌ مرصوص قوي يرد بالعزائم كلَّ عادية، ويهزم بالوحدة المباركة كل غازية، وبهذا تكون كلمة التوحيد مقدِّمة هادية لوحدة الكلمة.

**وأما الهدف الثالث للعبادة بعد تحقيق كلمة التوحيد وتحقيق وحدة الكلمة:** فهو تحقيق مكارم الأخلاق؛ لأن من عبد الله أطاعه بأتباع أوامره الحكيمة الهادية، واجتناب نواهيه الجليلة المنجبة، وأوامر الله لا تكون إلا بالهدى والخير والمعروف، ونواهيه لا تكون إلا عن منكر مُهْلِك مخوف، وبهذا تحقق العبادة للمؤمن صنائع الخير، وتبعد به عن نوازع الشر، وهذان هما أساس الأخلاق.

وإذن؛ فالمؤمن يتفقد عبادته هل حققت له خلوص التوحيد فوثَّقت حبه لله ورسوله؟ وهل بعثت في قلبه حبَّ المؤمنين فوحدت تحت راية الإيمان قلبه مع قلوبهم، وقوته مع قوتهم، وهواه مع هواهم؟ وأخيرًا هل رفعت العبادة مستوى المؤمن في معاملاته وأخلاقه فالتزم الحق والخير ومخافة الله، ودفع الإساءة بالتي هي أحسن وعاش في المجتمع الإسلامي الوضيء كما تعيش الأزاهير في الروضة الندية رفافة في الشذا العطر والمنظر الجميل.

المؤمن أبدًا يتساءل: هل حققت له العبادة أهدافها العظيمة فخلص لله توحيده وصفا للمؤمنين وداده وتألقت بالجمال أخلاقه، فإذا رآها كذلك حمد الله واستزاد وإن رأى غير ذلك سلك طريق الاجتهاد.

إنَّ أخلاق المصلين موصوفة في كتاب الله ﷻ فالمصلي لا يكون هلوعًا شديد الأسى في الشدائد، شرس البخل في الرخاء ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾، ثم تمضي آيات سورة «المعارج» في وصف أخلاق المصلي بأنه كريم يشارك السائل والمحروم في ماله، وأنه أبدًا مشفق من عذاب ربه مصدق بميعاده ولقائه حافظ عن الفاحشة فرجه راعٍ لأمانته وعهده قائم بالشهادة على أصدق أحوالها، ثم هو محافظ على صلاته لا يسهو عنها ولا يرائي بها، وتعلمه صلاته الكرم فلا يمنع ما عونه ولا يحجب عن الناس خيره.. هذه هي الصلاة في المفهوم القرآني أخلاقٌ فاضلة تنهي المؤمن عن الفحشاء والمنكر، وإذا سمع المؤمن نداءها ودعوتها التامة سعى إلى ذكر الله موقنًا أن الله أكبر وأنه لا إله إلا هو وأن الفلاح في طاعته.

والصوم في مفهوم القرآن أخلاق شرعها الله للناس لعلهم يتقون، ونهى رسول الله ﷺ الصائم عن أي مشاتمة أو رفث أو سباب، ومن ثم فالصوم أخلاق فاضلة، ووحدة شاملة ماثلة، وهو فوق ذلك عبادة خالية من الرياء، مخلصةٌ لربِّ الأرض والسماء، فلا غرو أن يكون جزاء الصائم المحتسب يؤخذ من يد الله مباشرة، ومن كرمه الذي لا ينتهي.

والزكاة في القرآن الكريم صدقة مطهرة، وفضيلة للنفوس مزكية ومجلبة لصلاة الله الذي يصلي على المؤمنين وملائكته، والحج أشهر معلومات لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال بل إيمان وتوحيد وأخلاق وأعمال، والعبادة إذا لم تقترن بفضائل النفس ولم تبتعد عن شرور المعاصي تئول إلى الحبوط، فرُبَّ صلاةٍ تلف في الحساب ويرمى بها في وجه مصليها، ورُبَّ صائم لا ينال من صومه إلا الجوع والعطش، ورُبَّ متصدِّق أصاب صدقته إعصار من الرّياء والسمعة فاحترقت، ورُبَّ حاج حجّت إبلُه ولم يحجّ، ذهب إلى الحج وهو قَدوم فرجع وهو منشار.

نسأل الله لنا وللإخوة أن يخلص عبادتنا لوجهه، ويحقق بها لنا صفاء التوحيد وجمال المحبة ومكارم الأخلاق.

### من أحاديث الآداب

## بيان الأهداف النبيلة التي ترمي إليها العبادات

هذه الحلقة سوف نخصصها -إنْ شاء الله- لبيان الأهداف النبيلة السَّامية التي ترمي إليها العبادات، والتي هي لباب العبادة وثمرتها، والتي بدونها تكون العبادة قشورًا بلا لباب، ولعل الإخوة القراء يتدبرون هذه الأهداف الجليلة، ويرون هل حققت عبادتهم شيئًا منها؟ فإن كان ذاك فليحمدوا الله على ما هداهم، وإن لم يكن ذلك فليجتهدوا في مدارج السالكين حتى يحققوا بإذن الله أغلى أمنيات الصالحين.

إن أهم العبادات التي شرعها الله ﷻ لعباده هي أركان الإسلام الخمسة الصلاة والصوم والزكاة والحج، وعماد ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. هذه العبادات العظمة إنما شرعها ربنا ﷻ لتحقق في المجتمع الإسلامي ثلاثة أهداف عظيمة: كلمة التوحيد، ووحدة الكلمة، ومكارم الأخلاق. وإن أحوج ما يحتاجه المسلمون في هذه الأيام هو التوحيد الصافي الذي به تنبذ الأمة كل طاغوت، وتخلع وتترك كل فاجر وتدوس تحت أقدامها كل عبودية إلا لله وحده.

إن الأمة الإسلامية حين تحقق التوحيد ينتزع من قلوبها الخوف وحب الدنيا وكراهية الموت، وإذ ذاك يكون لها في القتال سلوك غير الذي وسمها بالوَهن حين أوهنها حب الدنيا وكراهية الموت، والأمة الإسلامية حين تحقق وحدة الكلمة تبرز في القتال صفًّا مرصوصًا لا يترك في وجه العدو ثغرة ضعف يخترقها فينفذ منها إلى مقاتل الأمة ونقاط ضعفها، والأمة الإسلامية حين تحقق بالعبادة مكارم الأخلاق تبني بالفضائل مجتمعًا متحابًّا آمنًا خاليًا من الرذيلة والجريمة ومن الرياء والكذب والنفاق.

والمتأمل في العبادات الخمس الرئيسية يرى أنها هي التي حققت لسلفنا ﷺ تلك الأهداف الشريفة الماجدة، فكان أن نصرهم الله ودحر أعداءهم وأمد جيوشهم بجيش من الرعب يسبقهم مسيرة شهر.

الصلاة كما وصفها ربنا ﷻ درس أخلاقي ينتهي بـه المرء عـن الفحشـاء والمنكـر ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويقـول ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وهي في الوقت اجتماع قلوب واجتماع أجسـام تـنظم المؤمنين في صفوف متراصة مستقيمة لا ترى فيها ثغرة يستطيع الشيطان أن ينفـذ فيهـا، وفي هـذا تقريـب للقلوب وتوحيد للكلمة وتحقيق للمحبة التي بها يجتمع الشمل ويسود الصفاء. فما أجمل الصلاة توحيدًا لله ووحدة للصف ودرسًا في الأخلاق.

والزكـاة درس في الإحسـان تطهـر الـنفس مـن الشـح المطـاع، والبخـل المقيـت، واللـؤم الدنيء، وتلقى على النفس الإنسانية درسًا يلقنها رحمة العبد للغير وصنائع المعروف والخير، يقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

هذا من حيث الأخلاق أما من حيث تحقيـق وحـدة الكلمـة فالزكـاة -لا شـكَّ- توحـد القلوب وتحبب الفقراء في الأغنياء وتمحو الهوة السحيقة التي تفصل عادة بينهم فتملؤها بدلاً من الحقد حبًّا وولاءٍ تتحقق بها وحدة الكلمة، ثم إن الزكاة قبل هذا استجابة لأمر الله ينفقها العبد خالصة لوجه الله الكريم مخلصة من الرياء والمن والأذى وطلب السمعة، وهـي بهـذا تحقيق لتوحيد الله الخالص الذي به تصرف العبادة له وحده لا شريك له.

والصوم بعدئذٍ درس في التوحيد والوحدة والأخلاق، أمـا أنـه درس في التوحيـد؛ فـلأن العبد يترك طعامه وشرابه وشهوته استجابة لأمر الله، وطلبًا لمرضاته، وسدًّا لمنافـذ الشـهوات التي يقتحم الشيطان منها قلب العبد بالمعاصي، والتي بلا شك تنال من صفاء التوحيد، وأمـا أن الصوم درس في وحدة الكلمة فلأنه ينظم المؤمنين في سـلك نظـام واحـد بحيـث يجوعـون معًا ويأكلون معًا، فيشعر الموسرون بما يعانيه المحرومون من ألم الحرمان، وحسبك بهذا تحقيقًا لوحدة الكلمة، وإشاعة لتضامن المحبة، ألا ما أجمل الصوم توحيدًا ووحدة ومكـارم أخـلاق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

وأما الحج وهو خامس العبادات، وخامس أركان الإسلام؛ فهـو أيضًـا موسـم أخـلاق،

وأشهر معلومات لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال بل عبادة وذكر ودعاء وشكر لله على ما رزق بني الإنسان من بهيمة الأنعام.

نعم في الحج يأتي المسلمون من كل فج عميق ليشهدوا منافع تحقق لهم خيري الدنيا والآخرة، وتهذب أثناء ذلك قلوبهم وألسنتهم، ثم هي تجمع المسلمين في المناسك في بملابس موحدة تذكرهم بأكفان الموتى. وتشعرهم بأن الناس كلهم لآدم إخوة في الإنسانية لا فضل فيهم لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى، وأي مظهر من مظاهر الوحدة أسمى من مظهر الحجاج، وقد أسلموا لله قلوبهم، وبرزوا لله خاشعين، معظمين شعائر الله وحرماته، مجتنبين الرجس والأوثان وقول الزور، وأي إلحاد أو ميل نحو الظلم. إن هذا ولا شك مما يكمل توحيدهم ويخلص مقاصدهم إذ يقول قائلهم: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وبعد؛ فيا أخي القارئ الكريم!! تفقد منذ الساعة عبادتك من ذكر وصلاة وصوم وزكاة وحج. فإذا رأيتها قد أفادتك صفاءً وخلوصًا في توحيدك لله، وإذا رأيتها وقد ملأت قلبك حبًّا للمسلمين وشوقًا إلى وحدة شملهم واجتماعهم، وإذا رأيتها وقد سمت بأخلاقك وملأت قلبك بكل معاني الفضائل -فاعلم أنها إن شاء الله قد توجت بالقبول، وحققت لنفسك تقواها، إنما يتقبل الله من المتقين.

***

## من أحاديث الآداب

# فضل القلب المؤمن

إن في الجسد عضوين صغيرين هما أعظم وأشرف ما في الجسد أولها وأشرفها هو القلب، والثاني هو اللسان، وقديمًا قال الحكماء: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإذا رزق العبد قلبًا حافظًا طهورًا ولسانًا ذاكرًا شكورًا فذلك هو الذي قد حظي بسعادة الدارين وأفضل الحسنيين، وما أجمل قوله -جلَّ وعلا- في سورة «البقرة»: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ والحكمة منبعها القلب المؤمن المستنير، ومصبها اللسان الطاهر المستقيم.

لقد ورد ذكر القلب في القرآن الكريم مفردًا ومثنى ومجموعًا في أكثر من مائة وعشرين موضعًا، وكان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، و«**يا مصرف القلوب اصرف قلبي إلى طاعتك**» والعرب تستعمل كلمة القلب وتعني بها موضع التفكر والتفكير والعواطف والتقوى، فبالقلب يعرف المسلم ربه، ويخشع ويبكي ذنبه، وبه يفكر في آيات الله ومخلوقاته ويحيط بإعجاز كلماته.

- جاء في نهاية الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

- وقد جعل رسول الله ﷺ القلب وإحساسه ميزانًا للعمل الصالح فقال: «البرُّ (أي: الحلال والحسنات) **ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**». ومن هذا يتضح أن القلب المستنير هو المعيار الذي يميز به عن الحسنات والسيئات.

- وفي الحديث الصحيح: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**». قيل: وما

بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**». ومعنى ذلك أن العبرة في الأعمال بنية القلب.

- وفي سنن ابن ماجه: «**إِنَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ بِكُلِّ وَادٍ شُعْبَةً فَمَنِ اتَّبَعَ قَلْبُهُ الشُّعَبَ كُلَّهَا لَمْ يُبَالِ اللهُ بِأَيِّ وَادٍ أَهْلَكَهُ وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَاهُ التَّشَعُّبَ**».

- وروى الحاكم والبيهقي وابن أبي الدنيا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات**».

- وفي صحيح مسلم ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء**».

- وفي مسند الإمام أحمد: «**القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله ﷻ فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله ﷻ لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**».

- وفي صحيح مسلم وسنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**قلب الشيخ شابٌّ على حب اثنتين: حب العيش وحب المال**»، وفي رواية لأحمد والترمذي: «**طول الحياة وكثرة المال**».

**أولاً**: إن أعظم عمل يقرِّب إلى الله وتُرجى به رحمته هو أن يأتي العبد ربه بقلب سليم، إذ في الآخرة لا ينفع المرء ماله وبنوه، ويتخلى عنه أخوه وأبوه، وإذ ذاك يكون أعظم ذخره قلبًا سليمًا من الشرك والرياء، ومن ران المعصية، وسوء الطوية.

**ثانيًا**: ويبدو من اشتقاق القلب أنه يتقلب بين الحسنات والسيئات، وبين الشك واليقين، وبين الأمل واليأس، وعلى العبد ألا يأمن مكر الله الذي يحول بين المرء وقلبه، وإليه يحشر العباد على نياتهم، وأن يسأل ربه مقلب القلوب الثبات على الحق والخير والهدى ودين الحق، وأن يصرف قلبه إلى البر والطاعة والإحسان والحسنات.

**ثالثًا**: القلب بفطرته الإلهية قابل للهدى بما أودع الله فيه من نقاء الفطرة، والمولود يولد على الفطرة ودين الإسلام هو دين الفطرة، ولكن القلب بما أودع فيه من الشهوة قابل للهوى والميل مع الشهوات، وفي سورة «النساء»، يقول ربنا ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ

عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾.

**رابعًا:** وقلب المؤمن كحصنٍ له أبواب ولا يفتأ الشيطان يحاول اقتحامها وينتهز وجود ثغرات في الحصن، ولعل أوسع بابين في حصن القلب هما شهوتا الفرج والبطن، وتأتي بعد ذلك أبواب أصغر من هذين، والمؤمن يحاول سد تلك الأبواب التي منها الحسد والحرص، والغضب والحقد، والشبع والطمع، والعجلة وسوء الظن والكبر والإعجاب والرياء، والمؤمن يوقف على هذه الثغرات حراسًا من مكارم الأخلاق تقف متيقظة على ثغرات الشهوات، ولا تفتأ ترد الشيطان فيخنس متراجعًا.

ولعل من أيقظ الحراس الذين يطردون الشيطان الذكر والصلاة؛ لأنهما يغطيان أوقات الليل والنهار، ولا يكاد الشيطان يحبك مكائده حتى ينطلق صوت المؤذن فتكون الصلاة ناهية مستمرة منظمة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، وفي «شرح السنة» للإمام البغوي يقول رسول الله ﷺ: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح**».

**خامسًا:** كل رذيلة لها عكسها من الفضائل والشيطان حين يهاجم المسلم يتخذ جنودًا من الرذائل ينفذ بها إلى ثغرات القلب كالشح المطاع، وشهوة الجنس، والحسد والحقد والجشع فيأتي المؤمن ويرصد على كل ثغرة خلقًا كريمًا يجندل رذائل الشيطان كأن يصعق الشح بالكرم المحتسب ويصرع الحسد والحقد بحب المؤمنين ويقضي على الجشع بالقناعة فيكتب الله له الرضا والقبول ثم إذا لقي وجه ربه تلقاه راضيًا مرضيًا ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

* * *

## من أحاديث الآداب

# فضل الصبر والشكر

حين يذوق المؤمن حلاوة الإيمان، وحين تخالط قلبه بشاشة الإسلام، تصبح حياته كلها خيرًا وكل أمره عليه بركة ونورًا ولن تقل منزلته عند الله عن إحدى مرتبتين: إما شاكرًا في الرخاء فينال منازل الشاكرين، وإما صابرًا في الشدة فيحظى بمراتب الصابرين، ولا شكَّ أن من أعلى مراتب الجنة والفوز مرتبة الشاكرين، ومثلها منزلة الصابرين، ولقد لاحظ مفسرو القرآن الكريم أن الله ﷻ ذكر كلاً من الشكر والصبر في الكتاب الحكيم في قرابة سبعين موضعًا، وهذا يعني أن المؤمن الذي يقابل النعمة بشكرها ويتجنب بطرها ومفاتنها لا يقل في منزلته عند الله من المؤمن الذي يبتلى فيصبر، ولا عجب فالمؤمن الغني الشاكر قد نجح في امتحان النعمة الذي يكون أحيانًا أشد من امتحان الفقر، بل لقد عرفنا كثيرًا من الناس ابتلوا بالشدائد فصبروا، فلما ابتلوا بالنعمة والغنى لم يتماسكوا لمغرياتها فأخفقوا في امتحان الرخاء.

ومن خصائص المسلم أن له أدبًا ربانيًا رائعًا في شدائده ومحنه كما أن له أدبًا رفيعًا في غناه ونعمته، إنه في كلتا حالتي زمانه عبدٌ رباني يزينه الرضا والتسليم، ويؤدي في كلتا حالتيه ما أمره الله به من الصبر على اللأواء، ومن الشكر في السراء، وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الذي رواه مسلم: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله عليه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا**».

ولقد جرّبت صنوف الناس في هاتين الفضيلتين (وأعني بهما فضيلتي الصبر والشكر)، فوجدت أن منبعهما واحد وإن كلا من الصبر والشكر ينبعان من الإيمان الصادق، ومن العنصر الكريم إن القلوب المؤمنة والأصول الكريمة تكبر المعروف الصغير، وتشكر على النزر اليسير، وحين يقلب لها الزمن وجهه تراها في البأساء عظيمة التحمل والجلد والصبر، وذلك مما يكبت الحاقد الشامت، ويهوّن مصائب الدنيا، أما ذوو العقيدة المتذبذبة الضعيفة والأصول اللئيمة الساقطة فأولئك ربما قابلوا الفضل بالإساءة، واستقبلوا المحنة بالسخط.

والمتأمل فيما نقرؤه عن ديار الكفر وأدعياء الحضارة يرى أن أهل التمدن المزعوم في

أوروبا معظمهم صفرٌ من هاتين الفضيلتين، هناك لا يعرف الأغنياء إلا الإغراق في الشهوات الحيوانية، ولا يعرف المحرومون إلا اليأس والجريمة، وقد أشاد رسول الله ﷺ بالغني الشاكر وبين أنه يُحْسَد، أي: يغبط على ما هو فيه من النعمة والفضل، فقال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»**.

وفي الحديث المتفق عليه ما معناه أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء تفوقوا عليهم في ميادين الأعمال الصالحة؛ لأنهم يصلون ويصومون كما يصلي الفقراء ويصومون ثم يتفوقون بما ينفقون من أموالهم ويعتقون فدل الرسول ﷺ الفقراء على التسبيح والتكبير والتحميد أدبار الصلوات؛ لكي يدركوا بهذه الأذكار درجات الأغنياء الشاكرين، فلما سمع الأغنياء بما دل النبي الفقراء عليه من الذكر فعلوا كما فعل الفقراء، فجاء الفقراء يشتكون إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء رددوا الذكر الذي علمه عليه الصلاة والسلام للفقراء وعندئذ لم يسع النبي ﷺ إلا أن يشيد بالأغنياء الشاكرين فقال: **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»**.

وحسبك أن الشكر من الصفات العلا لله ﷻ فالله ﷻ شاكر عليم وشكور حليم وغفور شكور لا إله إلا هو ما أوسع كرمه وحلمه يلهم عباده الأعمال الصالحة ويهديهم إليها وييسرها لهم، ثم هو يشكرهم عليها مع أنهم ما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله، ألا ما أعظم العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المهيمن، وهو يشكر عبده الضعيف الذي لا حول له ولا قوة.

ولقد كان نبيُّنا ﷺ أعظم الناس شكرًا لله، وأعظمهم صبرًا على البلاء ورضاء بالقضاء، ولا غرو؛ فقد كان ﷺ ملتقى فضائل الأنبياء اقتدى عليه الصلاة والسلام بجميع هدي أنبياء الله حين أوحى إليه ربه: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾، اقتدى بهم في صبرهم وشكرهم، فكان حقًّا سيد أولي العزم من الرُّسل ففي الصحيحين أن عبد الله بن مسعود ؓ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليه- ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: **«اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»**.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يُصبر أصحابه ويعدهم الفرج والنصر والتمكين فيقول: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

وقد روى الشيخان هذه القصة التي تدل على أن الصحابيات - رضي الله عنهن- كن مثالاً في الصبر والاحتساب وعظمة اليقين في قضاء الله وقدره. وخلاصة القصة أن أبا طلحة الأنصاري كان له ولد فمرض واشتد عليه المرض، وخرج أبو طلحة لبعض شأنه فقبض الصبي في غيبة أبيه، فلما رجع أبو طلحة قال لأم سليم وهي أم الصبي: ما فعل ابننا؟ فقالت: هو أسكن ما كان (تعني أنه ما كان في وقت من الأوقات أهدأ منه في ذلك الوقت) ثم قرَّبت إليه العشاء فتعشى وازيَّنت له فكان بينه وبينها ما يكون بين الرجل وزوجه.

فلما فرغ قالت: يا أبا طلحة، إن قومًا استودعوا أمانة، فلما جاء أصحاب الأمانة يستردونها منعوهم. أيجوز لهم هذا؟ قال: لا. قالت له: فاحتسب ابنك، فانطلق أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما كان من أمر أم سليم فدعا لهما رسول الله ﷺ أن يبارك لهما في ليلتهما. فحملت أم سليم من ليلتها تلك ورزقها ربنا ولدًا سماه رسول الله ﷺ عبد الله، وقد حكى أحد الأنصار أنه رأى لعبد الله بن أبي طلحة (ذلك المولود) تسعة من البنين كلهم قرأ القرآن، وقرأنا أن عبد الله بن أبي طلحة كان أبر الناس بوالديه.

إنَّ المؤمن إذا أصابته المصيبة تذكر سير الأنبياء - عليهم السلام- وعلم أن البلاء يسوقه الله للأصفياء من عباده ليعلي به درجاتهم في الجنة، ففي الحديث الذي رواه الشيخان: «**ما يصيبُ المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**».

***

## من أحاديث الآداب

# فضل النوافـــــل

جاء في الصحيحين أن رجلاً من أهل نجد قدم على رسول الله ﷺ ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال له رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**» فقال الأعرابي: هل عليَّ غيرهن؟ قال: «**لا إلا أن تطوع**». فقال رسول الله ﷺ: «**وصيام رمضان**» فقال: هل علي غيرهن؟ قال: «**لا إلا أن تطوع**» وذكر له الزكاة فقال: هل عليَّ غيرها؟ فقال: «**لا إلا أن تطوع**» فأدبر وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقصُ منه، فقال رسول الله ﷺ «**أفلح إن صدق**» وفي رواية: «**دخل الجنة إن صدق**».

أخي القارئ إذا وحَّدت ربك ﷻ فلم تشرك بعبادته أحدًا، وأديت الفرائض فقط متقربًا بها إلى رحاب كرمه، وتجنَّبت ظلم العباد فقد ضمن الله لك ألا يُعذبك بالنار، وذلك لأن حق الله على العبيد هو ما ذكرنا، وحق العبيد على الله ألا يعذبهم بالنار إذا هم فعلوا ذلك، ولكن إذا أحببت أن يحبك الله ﷻ وأن يرفع درجاتك في منازل الجنة؛ فلا بدَّ عندئذٍ أن تتقرَّب إليه بأكثر من أداء الفريضة فقط، وعليك عندئذٍ بنوافل من العبادة وأعمال الخير؛ إذ للصلاة نوافلها من الرواتب والوتر والتهجد والتطوع، وللزكاة نوافل من الصدقة وبذل المعروف وإطعام الطعام وإسقاء الماء، وللصوم نوافل من صوم التطوع، ولنستمع إلى هذا الحديث الشريف في فضل النوافل، ثم نتبعه بما ينبغي للمتنفل أن يتحلى به من الآداب ليكون بإذن الله من المباركين العتقاء، والموفقين السعداء.

- في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قضى أحدكم الصلاة** (يعني: المفروضة) **في مسجده؛ فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيرًا**»، وفي الحديث المتفق عليه: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**».

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛**

فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

– وفي سنن أبي داود ومسند أحمد قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا».

– وروى أبو داود بإسناد صحيح: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة».

– وفي مسند أحمد: «صلاة الرجل في بيته تطوعًا نور، فمن شاء نوَّر بيته».

– وفي صحيح مسلم عن ربيعة الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «سلْ» فقال ربيعة: أسألك مرافقتك في الجنة. فقال ﷺ: «أو غير ذلك؟» قال ربيعة: هو ذاك. فقال رسول الله ﷺ «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

**أولاً:** نعني بالنوافل في الصلاة كل ما عدا الفريضة المكتوبة من سنن ومستحبات وتطوعات، فالسنن من الصلوات: ما كان رسول الله ﷺ يحافظ عليه كالرواتب والوتر.

والمستحبات: ما كان ﷺ يذكر فضله من الصلوات لكنه لا يواظب عليه مواظبته على السنن الرواتب، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه، وكصلاة ركعتين إذا نعس الجالس المنتظر للصلاة.

وأما التطوعات: فهي الصلوات التي يؤديها زيادة حين تلمس في نفسك رغبة في الصلاة كما لو كنت جالسًا تقرأ القرآن فلما فرغت رأيت أن تصلي ركعات تدعو الله فيها بقبول الأعمال وستر الحال وصلاح البال ونجاح العيال وحُسْن المآل.

**ثانيًا:** ونوافل الصلاة هي من أعظم نوافل العبادات أجرًا، ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم كما وصف الله عباده المؤمنين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]. تراهم بالليل منحنية أجسادهم على أجزاء القرآن قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله.

نوافل الصلاة كما جاء في حديث البخاري تصل العبد بربه وتكرمه بحبه، وإذا أحب الله عبدًا جعله من أوليائه، ونظمه في سلك خلصائه من والاه فقد والى رب العباد ومن عاداه فقد تعرض لحرب من الله ومعنى قوله تعالى: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ».

إنَّ العبد إذا أحبه الله بما يقدمه من نوافل العبادة بارك في أعضائه، وهداها ألا تصدر إلا عما يرضيه، فالأذن لا تسمع إلا ما يرضي الله، والعين لا تنظر إلى ما يحلُّه، واليد لا تبطش إلا إذا أمرها الله، والرِّجل لا تمشي أبدًا إلى ما يغضب، وبهذه المنزلة من مدارج السالكين يصبح المؤمن عبدًا ربانيًا لا يشغل حاسة من حواسه ولا جارحة من جوارحه إلا فيما يرضي حبيبه الذي تولاه، فلا غرو إذا شهدت عليه أعضاؤه يوم القيامة أن تكون له كلها شفيعة بين يدي ربه.

**ثالثًا:** من آداب نوافل الصلاة أن تنتهز الساعات التي لا يراك فيها أحد بالليل، ولا يتحدث عن عبادتك أحد، وإذا خلوت بحبيبك فانتهز فرصة التحلي، وقِف بالخشوع بين يديه، وناجه وادعه تضرعًا وخيفة، وأذرف بين يديه دموع الإنابة، فلله ما أجملها دموعًا تجلسك في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، ولا تصلِّ في أوقات الكراهة إلا صلاة لها سبب حتى لا تتشبه بعُبَّاد الشمس الذين يقفون ينتظرونها حين تتوسط كبد السماء، وحين ينحدر بها الأصيل صوب المغيب، وحين تطلُّ أوائل أشعتها مع طلوع الشمس.

وأخيرًا؛ فإياك أن تستكثر عبادتك، فمعروفه ﷻ لا يكافأ ولو قضيت عمرك ساجدًا له، ثم لتكن عبادتك قصدًا لتتمكن من الحفاظ عليها حتى يأتيك اليقين.

***

## من أحاديث الآداب

# الالتزام بالمنهج الإسلامي

من المؤسف حقًّا أن تصبح كلمة (المتطرفين) تعني في بعض الدول الإسلامية: الملتزمين لأوامر الله ورسوله، وقد يسميهم بعض أهل الأغراض والأمراض الرجعيين والمتشددين وهي تسميات يشهد الله أنها ظالمة وعلى نقيض الحق تمامًا؛ لأن الإسلام يكره التشدد والجمود والتطرف، ويحب الوسطية والاعتدال، يقول ربنا ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

ولكن أهل الأهواء لا يقنعهم التوسط والاعتدال في الأمور، بل يريدون أن يفرط الناس في شرفهم وأخلاقهم ومثلهم العليا ليقال هؤلاء قومٌ متحضرون، إنهم يرفضون التطرف نحو الفضائل، ولكن يعجبهم التطرف المنحاز إلى الانفلات.

إذا حجب مسلم ابنته وزوجته عن مخالطة الرجال وعن التعري في المحافل قالوا متطرف، وكذلك إذا صان عائلته عن التسيب والتمزق واتباع الشهوات، وحرص أن يربي أولاده على الاستقامة والصلاة وطاعة الله وصفوهم بالتطرف والتشدد، وأنهم يضيقون على أولادهم، ولقد طار الصليبيون فرحًا في أوروبا حين رأوا عددًا من أولياء الله تسيل أرواحهم على حبال المشانق وأعوادها بتهمة التطرف، ولما قتل في أحد الأقطار العربية صفوة من أعلام المسلمين رقص الصليبيون وعلقوا صور سفاحهم وشمتوا بالإسلام حين رأوا أهل الدعايات والكذب والنفاق والرذيلة يصورون المصلحين من المسلمين على أنهم عناصر إرهاب وتخريب ثم يسوقونهم إلى الموت، ولا ذنب لهم ألا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد، حتى لقد أتى على أهل تلك الديار حين من الدهر قلبت فيه المقاييس فقال الشاعر يصف فوضى المجتمع:

| | |
|---|---|
| ذو الدين في عرفهم تخشى غوائله | فما يقرب إلا كل خمار |
| إذا سكرت ففي أمن وفي دعة | وإن تصل فمحفوف بأخطار |
| حرية الشعب في أبواق دعوتهم | حكم المباحث والإرهاب والنار |

إذا رأوا حانــة طــاروا بهــا فرحًــا    وإن رأوا مســجدًا ثــاروا بإنــذار

إنَّ من يتهمون المسلمين بالتطرف يرون الاعتدال في مجاملة الكافرين، وعندهم أن الملازمين الخمر والقمار والنساء ومراقصة الأجنبيات كل هذا اعتدال وقصد وشطارة يستحق أهلها عليها التقدير، أما من يحارب المسكرات والاختلاط وخسارة الأموال فهو المتطرف الذي يُخشى ضرره وتحارب طريقته.

إنَّ إسلامنا كما تنطق آياته الحكيمات هو الشريعة المعتدلة، وأمتنا هي الأمة الوسط في السلوك والاقتصار والعقدية يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ويقول جلَّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]. وفي الصلاة يكون الصوت وسطًا بين الجهر والخفوت يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠].

– وفي الحديث المتفق عليه أن ابن مسعود ﷺ كان يذكِّر الناس في المسجد كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. وفي سنن أبي داود أن صحابيًا من قبيلة باهلة أتى رسول الله ﷺ فزاره ثم غاب عنه سنة ثم عاد إلى رسول الله ﷺ وقد تغيرت هيئته فقال: يا رسول الله، أنا الباهلي الذي جاءك عام الأول، قال: «فما غيرك؟» قال: منذ فارقتك ما أكلت طعامًا إلا بليل، يعني بذلك أنه كان يداوم الصوم فقال له رسول الله ﷺ: **«لقد عذَّبت نفسك»**، ونصحه أن يصوم ويفطر.

– وذكرنا مرارًا الحديث المتفق عليه وهو حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ وكأنهم استقلوها، وذكر أحدهم أنه يقوم الليل أبدًا، وقال الثاني: إنه يصوم النهار أبدًا، وقال الثالث: إنه لا يتزوج أبدًا.

فلما حضر رسول الله ﷺ قال لهم: **«أما والله إني لأخشاكم لله، واتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**.

– وفي الحديث الذي رواه البخاري قال رسول الله ﷺ: **«إن الدين يُسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»** يعني انتهزوا في العبادة أوقات النشاط.

– وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«هلك المتنطعون»** والمتنطعون هم الذي يشددون على أنفسهم وعلى غيرهم في الدين في المواضع التي يحسن فيها التيسير.

– وفي سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: **«خير الأمور أوساطها»**.

– وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»**.

وللبيهقي أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«الهوا والعبوا فإني أكره أن يكون في دينكم غلظة»**.

ومن أجل هذا كان رسول الله ﷺ يخرج زوجاته وبناته يوم العيد حتى الحُيَّض ليوسعن صدورهن ويشهدن الدعاء حتى لقد سمح لأمنا عائشة – رضي الله عنها– أن تتفرج على لعبة بالسلاح وقال: **«لتعلم يهود أن في ديننا فسحة»**، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **«روحوا قلوبكم ساعة فساعة»**. وفي زيادة: **«فإنها إذا كلت عميت»**.

ولقد رخَّص الإسلام في العبادة رُخصًا كصلاة القصر وكالجمع وكالتيمم والمسح على الجورب والخف، فكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يستمتع المسلمون بهذه الرحمة الإلهية، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال في هذا: **«إنَّ الله يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه»**، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: **«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا»**.

إنَّ المسلمين هم أهل القصد وأهل الاعتدال في معيشتهم، وفي مطعمهم وملبسهم وعبادتهم، أما المتطرفون فهم أهل الفساد والباطل والانحلال.

إن المسلمة المحتشمة الحافظة لنفسها ولأبنائها وزوجها هذه المرأة هي التي تسلك نهج القصد والاعتدال، أما المرأة التي تتبع كل ناعق، وتنخدع بكل بارق، وتبرز للرجال شبه

عارية، وتهمل بيتها لترود الأندية – أقول: هذه المرأة هي المتطرفة التي تقف على شفا جرف هارٍ قد ينهار بها في نار جهنم.

وإنَّ عائلة تطلق لأبنائها وبناتها العنان، ولا تذكرهم بشعائر الإيمان هي عائلة متطرفة منحازة إلى الشيطان، وأما العائلة التي تنشئ أبناءها وبناتها على الحياء والعفاف والصون فتلك هي العائلة المعتدلة المتحضرة الآمنة، هذا وإن الأديب أو الشاعر الذي يدعو أمته لاتباع المضللين، ويزين لهم طريق الشاذين والملحدين مثل هذا الأديب هو الأديب المتطرف الذي يميل بأمته نحو الهوى، ويزين لها طريق الدمار.

أما الأديب الذي يهدي إلى الحق ويحارب الزيغ وينبذ الهدم والإلحاد ويكشف حبائل الفساد؛ فهو الأديب الذي سلك نهج الاعتدال، وصفع وجه الضلال، وأرضى ربه ذا الجلال.

إنَّ المنافقين الذين يتربعون على منصة الحضارة المزيفة هؤلاء هم المتطرفون، أما أولئك الذين وُفِّقوا هدوا إلى كل طيب، ونفَّروا من كل خبيث فأولئك هم حماة الحقيقة، وأعداء الزيف.

***

### من أحاديث الآداب

## دروس من الهجرة النبوية الشريفة

منذ ثلاثة أيام ودَّعنا عام ألف وأربعمائة وثمانية، واستقبلنا عام ألف وأربعمائة وتسعة، وفي تقليب الأيام عبرة أي عبرة، وما أجلها في قول ربنا ﷻ في سورة «النور»: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤]، وما أجدر أمة محمد ﷺ وهي خير أمة أخرجت للناس أن تتخذ من تعاقب السنين فرصة لمحاسبة النفوس، واستعراض الأحداث؛ لأن في اختلاف الليل والنهار عبرةً وآيات لأولي الألباب، ولقد خلوت إلى نفسي وأنا في استقبال عام مُقبل ووداع عام منصرم فطافت في الذاكرة عبر وذكريات أحببت أن يشاركني في استعراضها إخواني القراء؛ لأن فيها ذكرى نافعة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

**أولاً**: يتذكر المؤمن في هذه الأيام مناسبة الهجرة النبوية أيام أُخرج النبي وصحبه من ديارهم وأموالهم، وخرجوا مهاجرين لله لا يلوون على زوجة ولا دار، تاركين وطنهم الغالي مرابع صباهم في أم القرى في منظر يقطع نياط القلوب، ولا غرو فالخروج من الوطن يعدل خروج الروح حتى لقد قرن القرآن الكريم بين فقد الوطن وفقد الحياة إذ يقول ﷻ في سورة «النساء»: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن أهله لابد أن يخرجوه من مكة؛ لأن الإخراج من الوطن سنة من سنن الله في أنبيائه، ولقد أخبر ورقة بن نوفل رسول الله ﷺ في اليوم الأول من نبوءته أن قومه سيخرجونه وقال له: ما من نبي جاء قومه بمثل ما جئت قومك به إلا أخرجوه، وكان رسول الله ﷺ يعلم أن النبوة مركب صعب وأن أشد الناس بلاءً الأنبياء، وخروج المرء من وطنه يفقده مرابع حبيبة تحليها مآرب الشباب وذكريات الصبا، فكيف حين تكون الربوع المفقودة مكة المكرمة بحرمها الآمن ومشاعرها الحسان، كانت حبيبة إلى رسول الله ﷺ؛ لأن حب الوطن من كرم الأصل، ومن مظاهر الوفاء، وهو الذي كان من أكرم الأصول ومن منابع الوفاء، حتى لقد قرأنا أنه -عليه الصلاة والسلام- ألقى على مكة نظرة مودع ليلة

الهجرة وقال: «والله يا مكة، إنك لأحب أرض الله إليَّ، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت».

ولقد قصَّ ربنا ﷻ على رسوله ﷺ من أنباء الرسل ما ثبت به فؤاده، وعرف أن الهجرة شرف ناله أنبياء، لقد هاجر إسماعيل جد نبينا محمد ﷺ إلى وادٍ غير ذي زرع وغير ذي ماء، هاجر وهو في المهد، فتحوَّلت الجزيرة كلها ببركة النبوة إلى جنة غذت جياع الورى من زاد النبوة، وأنهلت عطاش الناس من منهل الهدى ودين الحق، وإذا الوادي غير ذي الزرع فردوس أغنّ.

**أعجب بوادٍ بلا زرع ولا ثمرٍ غَذّى جياع الورى من أكرم الزاد**
**ومَهْمَهٍ ظامئ حار الدليل به سقى الحيارى وأروى غلة الصادي**

فلله درها قفرة روّت غيوثها ظمأ الحياة، وأهدت إلى الإنسانية كلها خيراتها الحسان.

لقد ذكرتني الهجرة والعام الهجري الجديد أن الهموم الكبيرة تساق إلى الهمم الكبار لتصهرها في أتون التضحيات الجليلة، وتخرجها من بوتقة الشدائد عبقرية الصقال متألقة الروح حقًّا إن للهجرة معنى متجددًا يهتف بأمة الإسلام ألا إن طريق البطولة هي طريق الكرامة والمجد الحقيقي هو ما تناله الأمم بأيدٍ قوية خشنة مخضبة بالدماء لا بأكفٍّ رخصة تمتد في ذلة إلى الأعداء مفاوضة على حقها الصريح.

**ثانيًا**: هذا، وذكرني العام الجديد بآماله المعتمة ما كان في زميله المنصرم من آلام مؤلمة، لقد كان العام الذي مضى عامًا حافلاً بالأحزان عانت فيه الأمة المحمدية مرارة انقساماتها، وأثخنتها مؤامرات أعدائها، وسال الدم المسلم متدفقًا في البوسنة والهرسك وبلاد الهند وبلاد الروس وبلاد الفلبين، وشهدت ديار الإسلام في أفريقيا ولبنان والسودان حروبًا داخلية جرى فيها الدم الزكي بلا ثمن.

ثم كانت الطامة الكبرى تلك المذابح التي اصطلى نارها الإخوة المسلمون في العراق وإيران، ثم ما كان في ربوع فلسطين والمسجد الأقصى من إذلال للمسلمين تحت سنابك الكفر، وما كان من قتل الرجال وضرب النساء وتكسير أطراف الأطفال في الأرض المقدسة المباركة يتولى كبر الجريمة فيها أذل شعوب الأرض على مرأى ومسمع من أكرم أمة أخرجت للناس كأنما ماتت عزة الإسلام في قلوب أهله ورضوا لكرامتهم المهدرة أن يُقابل عدوان

الكافرين بالسب والشجب والاستنكار والاحتجاجات المتهالكة يرد بها المسلمون على هجمات الكفر الحاقدة اللئيمة، وقديمًا قال الشاعر:

إنَّ ألفي قذيفةٍ من كلام لا تساوي قذيفةً من حديد
الشكايات والخطابات لغوٌ وهدير السِّلاح بيت القصيدِ

نعم لقد تذكرت محنة المسلمين طول العام الذي انتهى بالأمس، وتساءلت في لهفة ودهشة: لماذا تهون دماء المسلمين في أنحاء الكرة الأرضية؟ ولماذا يوجه الاضطهاد إلى المسلمين بالذات؟ ولماذا يسمى الإسلام في كثير من الدول تطرفًا؟

وجاءني الجواب صريحًا مؤلم الصراحة: إن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وسار على هديه سلفنا الصالحون ذلك الإسلام لم يزل به الكفار والصليبيون والصهاينة والمنافقون حتى غيبوه عن الساحة وحجبوه عن الحكم، فعاد القرآن مهجورًا، وأصبح المقرئ في محطة إذاعة اليهود لا يبالي أن يقرأ القرآن، بل ويسمع المسلمين نداء الحق: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠] يفعل هذا لأنه يعلم أن المسلمين في وادٍ وأن القرآن في وادٍ آخر، لقد أصبح القرآن ترجيعًا مطربًا بعد أن كان نداء حماسيًا باعثًا ملهبًا.

**ثالثًا**: لقد كانت الهجرة النبوية الشريفة دروسًا باهرة وحكمًا بالغة علمتنا: صدق الجهاد وصبر الرجال. وعلمتنا أن لله جنودًا ينصر بهم أنبياءه وأصفياءه، وهم أوهن ما يكونون، لقد حمى رسول الله ﷺ بعش حمامة وبيت عنكبوت، رد بهما حشود الباحثين، ولو نظروا تحت أقدامهم لرأوا رسول الله ﷺ وصاحبه، إنه موقف دل على قدرة الله -جل وعلا، وعلمهم أن الذي حمى الأعزل وصاحبه قادر أن يهزم أحزاب الشرك وحده.

فلا غرو أن جعل ربنا ﷻ من حادثة الهجرة درسًا في الثبات والجهاد ومواجهة الباطل في شجاعة لا ترهب الموت ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤٠، ٤١].

لا عجب أن كان النبي المهاجر أعظم الناس إيمانًا بالنصر وحسن العاقبة، ألم تره عليه الصلاة والسلام وهو يعدُ سراقة بن مالك بسواري كسرى حتى وهو مهاجر يكاد المشركون يتخطفونه وصاحبه، ولبس سراقة بعد اثني عشر عامًا من هذا الموقف سواري كسرى، ألا ما أجمل دروس الهجرة؛ إذ تعلم المؤمنون حفظ الأمانات وردها إلى أهلها، واتخاذ الصاحب المؤمن، ونقل المعركة إلى الموقع الأكثر صلاحية واستراتيجية، صلى الله على ذلك المهاجر العظيم الذي جعل الله غايته فرد عنه كل مكيدة، ووقاه كل شر، وجمع من حوله مواكب المؤمنين، فكن مع الله أخي القارئ وإذا حزبك أمر من الأمور فاعلم أن الله معك. واجعل شعارك في كل ضائقة كلمة مباركة تنبعث من منطلق الأمل والثقة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

وأخيرًا؛ فما أجدر المؤمن أن يدين نفسه ويحاسبها: ماذا كسبت في عام كامل من عمل صالح؟ ثم ماذا اقترفت من معاصي؟ لأن الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

* * *

## من أحاديث الآداب

# نفحات من أخلاق المصطفى ﷺ

الحمد لله الذي أعزنا بدين الإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله، أمرنا أن نقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الدنيا وسيد الأنام، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه أعلام الحق ومصابيح الظلام.

**أما بعد**؛ فشبابنا اليوم كثيرًا ما ينخدعون برجال من الغرب كالممثلين ولاعبي كرة القدم، حتى إن بعضهم ليحفظ أسماء الكثيرين من الممثلين والأدباء الكفار واللاعبين، مع أن القدوة التي رسمها الله لنا وأمرنا أن نأتسي بها هي رسولنا محمد ﷺ.

إنَّ من أعظم آداب المؤمن أن يتدبر سيرة رسول الله ﷺ ويجلس إليها جلسات متفهمة مفكرة ليُحسن القدوة، وينال شرف المؤتسين الذين ذكرهم في محكم آياته إذ يقول في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

لقد اجتبى ربنا رسله خيرة من خلقه؛ ليكونوا أوعية عظيمة للرسالات العظيمة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، ورسول الله ﷺ كان سيد المرسلين وخاتم النبيين، وجاءت شريعته تمامًا على ما أحسنه الأنبياء، وجاء قرآن ربه مهيمنًا على جميع الكتب السماوية، وجاءت أخلاقه خلاصة لكل فضائل الأنبياء.

لقد عدَّد له ربه ﷻ في سورة «الأنعام» ثمانية عشر نبيًا من بينهم أولو العزم، ثم قال الله له بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ويقينًا أنه اقتدى بهم كما أمره الله؛ لأنه ﷺ كان خلقه القرآن.

ولهذا؛ فإن من يقتدي بمحمد ﷺ فقد اقتدى بكل نبي، وتحلى بكل فضيلة، واهتدى إلى أعظم الأخلاق، ولهذا فقد اخترت في هذه أحاديث من كلام رسول الله ﷺ تدور كلها حول أسمى أصول الذوق الحضاري الرفيع أقدمها إلى أبنائي من الشباب المسلم المثقف، ومنهم

أولئك الذين يرون أن الحضارة الاجتماعية الأكيدة هي تلك التي تلتمس عند أهل الغرب وتلتقط من فُتَاتِ موائدهم: في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان من تواضعه يذكر أيامه الصعبة في صباه فيقول: «**كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة**». أي: يرعاها بالأجرة، وكان يقول: «**إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في شعاب مكة**».

ووصفه أبو سعيد الخدري أنه كان شديد الحياء لا يفوه بكلمة تجرح شعور إنسان، ففي الحديث المتفق عليه أنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها. إذا رأى شيئًا يكرهه ارتسم إحساسه على وجهه الكريم. وكان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أخلاقًا كما روى الشيخان، وكان يقول كما روى مالك رحمه الله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وكان كما روى مسلم أرفق الناس بخادمه، قال أنس وكان ممن خدموه: أرسلني رسول الله ﷺ في حاجة فقلت أمر على الأولاد في السوق وهم يلعبون، فوقفت عندهم وإذا رسول الله ﷺ يقبض بقفاي من ورائي فالتفت وإذا هو يضحك ويقول: «**يا أنس، اذهب حيث أمرتك**». ولقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم صنعته. أو لشيء تركته لم تركته. وفي صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام ما رُئي مستجمعًا ضاحكًا حتى يرى لهاته، أي: أنه لم يكن يضحك ضحكة عالية مع أنه كان أكثر الناس ابتسامًا.

وكان عليه الصلاة والسلام يكره التشدد والتنطع فقد روى الشيخان أنه ما خير قط بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه. وكان يأكل عند الفقراء أخشن الطعام فلا يعيبه، ففي الحديث المتفق أنه عليه الصلاة والسلام ما عاب طعامًا قط، وكان إذا حزبه أمرٌ صلى ويقول بين السجدتين ما يرجو به تفريج الغم: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي**».

وكان أعف الناس عن اقتناء حطام الدنيا، وحسبك أنه كما جاء في الحديث المتفق عليه مات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير، وكان يكره المستكبر الغليظ، ففي الحديث المتفق عليه أنه عليه الصلاة والسلام قال يصف أهل النار: «**كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُتَكَبِّرٍ**» وكلها بمعنى الغليظ الجافي، وكان يحب أهل العدالة والتواضع والعمل والعفاف.

جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط**

**موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»**.

أمَّا عن الذوق الاجتماعي الرفيع؛ فحدث عن رسول الله ﷺ ولا حرج، فقد كان أحرص على مشاعر الناس، وأعظم رعاية لحقوقهم، فلكل إنسان عنده حق معلوم من الأدب والاحترام، وهو أمر تعلمه منه أصحابه الأجلاء، حتى إن صاحبه الصديق ﷺ كان يقول لعائشة وهي ابنته: (يا أم المؤمنين) كان أكرم الناس للرحم، فقد فرش ثوبه للشيماء أخته من الرَّضاع، وشفعها في ذراري هوازن، وكان يقول: «**عمُّ الرجل صنو أبيه**»، ويقول: «**الخالة في منزلة الوالدة**»، وكان أرأف الناس بالضعاف، يوصي بإكرام البنات وحسن كفالتهن وبالأيتام، ففي سنن أبي داود أنه ﷺ قال: «**من ابتلى من هؤلاء البنات بشيء كن له سترًا من الناس**». ويقول: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالقائم بالليل والصائم بالنهار**». ويقول: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** (ويضم السبابة إلى الوسطى)»، وكان عليه الصلاة والسلام يحث أصحابه على نصرة الضعيف، جاء في مسند أحمد: «**من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر أن ينصره أذله الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة**».

وكان أكرم الناس معاملة لخلطائه من ضيف وجار وصديق يقول ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك**» ويقول كما روى ابن ماجه: «**إن من السنة أن يخرج الرجل مع الضيف إلى باب الدار**». وفي الحديث المتفق عليه يقول في أدب الصُّحبة: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث**».

وكان يوصي بإجابة الدعوة يعني إلى الطعام ويعدها من حق المسلم على المسلم ويقول: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت**»، وكان يكره السباب ولو وجه إلى صنم أو مشرك، وأنكر على من سب قتلى بدر وهم في القليب؛ لأن السباب سلاح الضعفاء، ولأنك إذا سببت صنم مشرك فلربما سب إلهك، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «**ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء**».

وقد قرأت في سنته عليه الصلاة والسلام أنه كان يكره الشماتة؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقلبات الزمن ومجريات القدر، جاء في سنن الترمذي: «**لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك**».

وأخيرًا؛ فقد أوصى الموظفين أن يسهلوا أمور الناس وبخاصة موظفو الشئون المالية؛ لأن المال أمر مهم، فقد جاء في الحديث الصحيح: «**إن الخازن المسلم الذي يعطي ما أمر به كاملاً طيبة به نفسه يكون كأنه متصدق من ماله**»، ألا ما أجمل أن يعود الشباب المسلم إلى سيرة نبيهم ليروا فيها قدوات تحرز قصب السبق في ميادين الخالدين.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [ن: ١-٤]، ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾، ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح:٢٩].

* * *

## من أحاديث الآداب

# فضل الاهتمام بلغة القرآن

المؤمن يحبُّ الأدب، ونعني الأدب بنوعيه الأدب الذي يقصد به مكارم الأخلاق، وسمو الشيم، وذوق المعاملة، وشرف النفس، والأدب الذي يعني روائع القول من شعر حيٍّ رفيع المستوى، ومن نثر فني شريف المضمون رشيق الصياغة، ولا غرو أن يحب المؤمن الأدب، وذلك لأن الله ﷻ جعل معجزة محمد ﷺ أدبًا رفيعًا وبلسان ذلك الأدب الرائع بلغت رسالة الله وفصلت أوامره ونواهيه، ووقف المشركون إزاء ذلك الأدب عاجزين عن محاكاته مأخوذين بمحكم آياته.

إنَّ الأدب العربي هو أشرف أدب على وجه هذه الأرض؛ لأنه نشأ منذ العهد الجاهلي، ومعظمه مؤدب، وحسبك أن تقرأ جوامع الحكمة، وروائع الآداب في المعلقات العشر ما عدا أبياتًا قليلة في معلقة امرئ القيس.

لقد كان الشعراء في الجاهلية معظمهم حكماء وشيوخ قبائل وسادة وأصحاب رأي، ولهذا كان الصحابة يحفظون أشعار الجاهلية ويروونه ويتمثلون به، وكان رسول الله ﷺ ربما تمثل بشطر بيت فيقول أحيانًا: «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد»، وهو وإن لم يكن شاعرًا لكن أقواله من النثر الأدبي الفني الذي يقتبس من سنا القرآن وبلاغته.

والمسلم في هذه الأيام مطالب بآداب إزاء أدبه ولغته؛ لأن هنالك مؤامرة لئيمة على أدب العرب يحيكها اليهود وأولياؤهم من خونة العرب، وشعار هذه المؤامرة: هدم الفصحى وإشاعة العامية ليباعدوا بين المسلمين وبين قرآنهم، وليضعفوا تفاهم المسلمين حين يتكلم كل شعب بعاميته، فلا يفهم الخليجي عامية السوري، ولا يدرك المصري لهجة المغربي، ولا يستوعب السوداني منطق الليبي، وهكذا تصبح الأمة العربية أوزاعًا مشتتة، ومزقًا متهرِّئة.

إنَّ الأدب العربي سياج اللغة العربية وعاء القرآن وسعته لفظًا ومعنى، ولم تضق ببلاغته وغاياته وظلاله، وحرس الله بها وحيه المنزل وكلامه المعجز، ومن هنا فإن أي تآمر على أدب

العرب ولغتهم هو تآمر على دين الله وكتابه وسنة رسوله من أجل أن يطفئوا نور الله بأفواههم، لكن الله ناصر حزبه وحافظ كتابه أركسهم عبر التاريخ، وهو جل شأنه مذلهم ومركسهم ومتم نوره، ولو كره المجرمون.

وإني موجزٌ هنا نقاطًا فيما يجب أن يلتزمه المسلم إزاء الأدب العربي واللغة العربية.

**أولاً**: أن يتعوَّد المسلم تذوق الأدب المبدع والإعجاب وتعشق القول البليغ؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحبُّ الشعر الشريف الأهداف حتى لقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين سمع قول كعب بن زهير في مدحه:

**إن الرسول لنور يستضاء به          وصارم من سيوف الله مسلولُ**

خلع بردته وألبسها كعبًا مع أنه كان قد أهدر دمه. نعم لم يكتف بالعفو عنه حتى كافأه.

وقدم عليه النابغة الجعدي مسلمًا في وفد قومه فألقى على مسامعه الشريفة رائيته التي مطلعها: سما بك شوق بعدما كان أقصرا. فلما وصل إلى قوله:

**ولا خير في حلم إذا لم تكن له          بوادر تحمي صفوه أن يكدرا**

**ولا خير في جهل إذا لم يكن له          حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا**

فقال ﷺ: «هذا هو السحر الحلال»، واستمر الشاعر يقول:

**بلغنا السماء مجدنا وجدودنا          وإنا لنرجو بعد ذلك مظهرا**

فقال له عليه الصلاة والسلام: «وإلى أين المظهر بعد السماء يا أبا ليلى؟» فقال النابغة: إلى الجنة. فقال له: «قل إن شاء الله» ثم قال له: «لا فض فوك».

وكان -عليه الصلاة والسلام- يعجب بشعر الخنساء ويستزيدها ويدعو لشعرائه وبخاصة حسان بن ثابت فيقول: «اللهم أيده بروح القدس».

**ثانيًا**: ما أجمل أن يحفظ المسلم طائفة حسنة من أبيات الشعر في الأدب والحكمة يجمل بها مجالسه، ويتمثل بها في مناسباته، ويلقيها على مسامع أبنائه، قال معاوية ﷺ: روّوا أبناءكم جيد الشعر، فوالله لقد هممت بالفرار مرات يوم صفين فما ثبت إلا حين ردّدت أبياتًا لعمرو بن الإطنابة الخزرجي:

أبـــت لي همّتـــي وأبـــى بلائـــي وأخـــذي الحمـــد بـــالثمن الـــربيح
وإقـــدامي عـــلى المكـــروه نـــفسي وضربي هامـــة البطـــل المشـــح
وقـــولي كلـــما جشـــأت وجاشـــت مكانـــك تحمـــدي أو تســـتريحي

وكان -عليه الصلاة والسلام- يقول: «إن من البيان لسحرًا»، و«إن من الشعر لحكمة» وكان يسلي أصحابه وهم يحفرون الخندق فيردد معهم أرجوزة لأحد شعرائه:

اللهـــم لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا ولا تصـــــدقنا ولا صـــــلينا
فـــــأنزلن ســـــكينة علينـــــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
إن العـــدو قـــد بغـــوا علينـــا وأن أرادوا ذلنـــــا أبينـــــا

وكان يمد صوته بكلمة أبينا فيرددها بعده الصحابة الكرام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا برزوا لمنازلهم من الأعداء ارتجزوا بما يثيرون فيهم الشجاعة؛ كقول أحدهم:

إنّ ألفـــي قذيفـــةٍ مِـــنْ كَـــلامٍ لا تســـاوي قذيفـــةً مـــن حديـــد

وكقول الآخر:

اللهـــم لا عـــيش إلا عـــيش الآخـــرة فأيـــد الأنصـــار والمهـــاجرة

وهنالك أبيات كثيرة تستحق أن يتمثل بها كقول لبيد:

ألا كـــل شيء مـــا خـــلا الله باطـــل وكـــل نعـــيم لا محالـــة زائـــل

وكقول أبي الطيب:

مـــا كـــل مـــا يتمنـــى المـــرء يدركـــه تجـري الرياح بما لا تشتهي السفن

وكقول عمرو بن معد يكرب:

ولـــو نـــارًا نفحـــت بهـــا أضـــاءت ولكـــن أنـــت تـــنفخ في رمـــاد

وكان أحد الصالحين يقول: هممت أن أسجد لله سجودًا طويلاً أظل أكرر فيه أبياتًا لأبي فراس الحمداني أخاطب بها ربي:

فليتـــك تحلـــو والحيـــاة مريـــرة وليتـــك تـــرضى والأنـــام غضـــاب
وليـــت الـــذي بينـــي وبينـــك عـــامر وبينـــي وبـــين العـــالمين خـــراب

إذا صحَّ منك الود فالكلُّ هين وكل الذي فوق التراب تراب

وأخيرًا؛ فقد نشأ في هذه الأيام شعراء سفهوا لغتهم، وجهلوا بلاغتهم، وساروا وراء شهواتهم ومعاصي أعدائهم، فطلعوا بما سموه الشعر الحر والشعر المنثور والقصيدة النثرية؛ فخربوا الأدب وعاثوا في لحنه العذب، ودنسوا بأشعارهم أدبنا فدعوا صراحة إلى قلة الأدب مثل هؤلاء لا بدَّ للمسلم أن ينبذهم نبذ النواة، ويرمي بشعرهم رمي اللَّقي، ويسقطهم من عداد الأدباء.

* * *

### من أحاديث الآداب

## مؤهلات القيادة والمسئولية

من آداب المؤمن ألا يطلب المنصب إلا إذا آنس من نفسه أنه كفء له، وأنه أمين عليه، وأن ينوي في نفسه أن يخدم الأمة بمنصبه، فلا يتخذ المسئولية سلمًا لقضاء شهواته وتحقيق مكاسبه ونزواته.

لقد طلب يوسف من ملك مصر أن يجعله على خزائن الأرض (أي: وزيرًا للمالية) طلب ذلك بلسانه؛ لأنه كان يعلم أن مصر كانت مقبلة على سبع سنوات عجاف سيأكلن كل مخزون الأقوات. وكان عليه السلام يؤنس من نفسه محافظة على تلك الأمانة وعلمًا بأسرارها ودقائقها ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ولما قال سليمان ﷺ لرجاله وجنوده أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين انتدب عفريتًا من الجن للمسئولية وقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، فطلب مهلة نصف يوم؛ لأنه لم يزد على طاقته ولم يدع فوق قدرته ثم أضاف قائلاً: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، فهو معتمد بعد الله على قوته وأمانته.

وقد عرض الله ﷻ لمؤهلات القيادة في قصة اختيار ملك لبني إسرائيل بحيث يكون صالحًا لقيادة معركة حاسمة ضد الكفر، فجعل مميزات القيادة العلم النافع والجسم السليم،

ولكن بني إسرائيل طلبوا أن يكون الملك ذا مال واسع وعدوا المال مقومًا وحيدًا للقيادة، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، ومع ذلك لم يستسلم بنو إسرائيل لقول نبيهم حتى وعدهم أن ينزل عليهم تابوت تحمله الملائكة ليقتنعوا.

ولعل الإخوة قد لاحظوا من مجموع الكلام أن المنصب القيادي يتطلب علمًا واسعًا وجسمًا قويًا سليمًا وقوة شخصية وأمانة في تحمل المسئولية وحفاظًا على تلك الأمانة.

لقد شهدت مرحلة من حياة الأمة العربية من مهازل الحكم الحزبي، رأيت بعيني أن الحكم كان يتعاوره حزبان إذا حكم أحدهما طرد رجال الحزب الآخر من مناصبهم وولّى كل محسوب عليه وطبّال بمدحه والدعاية له، ثم إذا دارت الدائرة وتغير الوضع تشرد رجال الحزب المهزوم في الشوارع وعاد عزهم ذلاً، وفي أثناء ذلك يضيع الشعب في حمآت الانتهازية، وتضيع الأموال في الأيدي الملوثة، وتضييع المسئولية حين توسد الأمور إلى غير أهلها، ويصبح مؤهل القيادة هو عبادة الأشخاص، والتضرع للعبيد وعلاقات النساء وشراء الضمائر وتضييع الكفاءات، حتى لربما عين عالمٌ مختص بالشئون العسكرية على وظيفة مدير لمسرح، ولربما عين خبير في الطيران على وظيفة مسئولٍ عن مصنع للمعلبات، لقد كان المنصب أيام سلفنا الصالحين عبئًا ثقيلاً، وحسبك أن عمر ﷺ كان يطعم المسلمين في عام المجاعة لحمًا ثم يعود إلى بيته، فلا يجد إلا خبزًا وزيتًا، وكان إذا حصل لديه خير بدأ يوزعه على الناس قبل آل الخطاب، وإذا كان التعب والتكليف بدأ بنفسه وبأقاربه، وكان خير من يقدر حجم المسئولية فيقول: إني لو أعلم أن جَدْيًا سُرق بسقي الفرات لخفت أن يحاسب الله به عمر، وكان يكره أن يطلب الصحابي منصبًا ويحذره أنه ربما لا يطيق أداء حقه.

ومن توجيهات نبيِّنا إزاء الوظائف والمصائب ما جاء في مسند أحمد أنه عليه الصلاة والسلام كان يتخوف على أمته من خصال عدَّ منها: إمرة الصبيان، وكثرة الشُّرط والرشوة في الحكم، واتخاذ القرآن للغناء.

- وفي مسند الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بقوم خيرًا ولى عليهم حلماءهم (أي عقلاءهم) وقضى بينهم علماؤهم، وجعل المال في سمحائهم، وإذا أراد الله بقوم شرًا ولى عليهم سفهاءهم، وقضى بينهم جهالهم، وجعل المال في بخلائهم».

وكان رسول الله ﷺ يكره إمرة النساء لما يترتب عليه من تحكيم العواطف وغياب الفكر المنطقي المسئول، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة».

- وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته»، ولما سمع معاوية ﷺ هذا الحديث خصص رجلاً لحوائج الناس.

- وفي الحديث المتفق عليه تحذير لأهل المسئولية؛ إذ يقول رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة»، وفي الحديث المتفق عليه تحذير من استعمال العنف على الرعية قال رسول الله ﷺ: «إن شر الرعاء الحطمة» ومعناه: أن شر الحكام العنيف.

- وفي الحديث الذي رواه مسلم حثٌّ للموظفين القائمين على مصالح العباد أن يرفقوا بالمسلمين، وألا يعقدوا معاملاتهم بل يسهلوها ويرشدوهم فيها لأقرب الطرق، فإنك لتذهب إلى بعض الموظفين في أمر معين فيعقد عليك ثم إذا ذهبت إلى الموظف الذي يليه سهله عليك وقضاه، وقد دعا رسول الله ﷺ على الموظفين الذين يعقدون معاملات الناس فقال في الحديث الذي رواه مسلم: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ؛ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ».

- وحذَّر رسول الله ﷺ أن نفرًا من حكام السوء يصلون إلى المراكز عن طريق العنف والقتل، وأن المسلمين إذا ارتضوهم سلط عليهم القتل إلى يوم القيامة فقد جاء في مسند أحمد وسنن أبي داود: «إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ نصح أبا ذر فقال له: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ».

# أمانة المسئولية

الموظفون جميعًا من الملك والرئيس إلى المراسل والخادم يقفون على ثغرات من مصالح المسلمين، مكلفين من الله ﷻ أن يحافظوا عليها، مؤتمنين عليها من رب العباد أن يؤدوها على خير الوجوه، ويبذلوا في إنجازها غاية الجهود، فإن هم فعلوا ذلك فقد استبرءوا لأنفسهم وصانوها من عذاب الله، وإن هم تخاذلوا عن مصالح البلاد والعباد؛ فهم عندئذٍ عند ربهم خونة.

وإذا كان بعض الناس قد دفعوا رشوات من أجل أن يتولوا مناصب ليسوا أهلاً لها، فإن كثير من الناس كانوا يرفضون المناصب العالية وهم لها أكفاء خوفًا على أنفسهم من إغراء المنصب وتبرُّج الدنيا وطغيان الشهوات، من أجل ذلك رسم الإسلام للمسلم آدابًا يتبعها إزاء المناصب والوظائف إذا اتبعها أجزل الله له الثواب ونجاه من العقاب.

وأول هذه الآداب: أن يعتبر الوظيفة مسئولية وأمانة وعبئًا؛ لا أن يعتبرها مصلحة ومكاسب وشهرة، فلقد كان عمر ﷺ يأسى غاية الأسى إذا ذكر ثقل المسئولية، ويقول: لو أن جَدْيًا ضاع بسقي الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر، وعلى الرغم من أنه ضحى بنومه وراحته في سبيل المسئولية المقدسة فقد سُمع قبيل وفاته وهو يقول: ويل لعمر وويل لأمه إن لم يغفر الله له. إن الحاكم العادل الذي يحكم بالعدل وينشره ويقدر أمانة المسئولية بالجد والعمل ومخافة الله هذا الحاكم يظلله الله يوم القيامة في ظله، وذلك لأن الرعية استظلت في كنفه الرحيم المنصف فسلمت من حرور الظلم والابتزاز واستغلال النفوذ، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وقد عد في مقدمتهم: «**إمام عادل**».

**ثانيًا**: أن يتذكر فداحة الظلم وسواده واختناق الناس به يوم القيامة، ويخاف أشد الخوف من دعوة المظلوم.

إنَّ بعض الناس يسيرون في ساحات القيامة عميانًا، وبعضهم يتخبط في الظلمات لا يخرج منها. هؤلاء هم الظالمون كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن رسول الله

ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه يقول رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**».

وفي صحيح مسلم يقول رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما والاهم**».

**ثالثًا**: أن يعتبر الموظف نفسه خادمًا لمراجعيه، مرشدًا لجاهلهم، حافظًا لأوراقهم، معينًا لضعيفهم، وألا يبخل عليهم بوقته أو جهده أو نصحه، وأن يوسع صدره لأسئلتهم، فلا يضيق بهم ولا ينهرهم، وأن يسوي بينهم في اهتمامه ووجهه وكل معاملته.

إنَّ بعض الموظفين لا يعرف التواضع ولا الكلم الطيب، ولربما شغل نفسه عن مراجعيه بالرد على مكالمة خاصة حيث يطول الحديث الفارغ عن سهرة الأمس ولعبة الورق وقضاء الليلة المقبلة وطعام العشاء، والويل كل الويل لمن يذكره بطول صف المنتظرين وضياع مصالح المسلمين سيقول الموظف: وهل تعلمني شغلي؟! أنت وحدك أرجع غدًا لن تنتهي معاملتك اليوم.

وإذا قلت له: إن لك رئيسًا ينصفني منك، رمى في وجهك المعاملة، وهو يقول: اذهب إلى رئيسي وانظر هل ينفعك، ولربما تذهب إلى رئيسه فتلقاه على شاكلته، فلا تملك عندئذ إلا أن تذل نفسك للمتغطرسين، وتعتذر إليه محطمًا كرامتك على صخرة الصلف.

إنَّ مثل هذا الموظف توعده ربنا ووعده الحق ألا يشمه ريح الجنة ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد يسترعيه الله ﷻ رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يرح رائحة الجنة**».

وقد دعا رسول الله ﷺ للموظف الميسر كما دعا على المعقد المعسر فقال: «**اللهم مَن ولي من أمور المسلمين أمرًا فيسَّر عليهم فيسِّر عليه، ومَن ولي من أمورهم أمرًا فعسَّر عليهم فعسِّر عليه**».

**رابعًا:** ألا يحتجب دون حوائج المسلمين بل يظل فاتحًا مكتبه ما دام الوقت وقت عمل؛ ففي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من إمام (وينطبق هذا على كل مسئول) يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحجته ومسكنته»**.

إنَّ هذا الأمر مما ابتلى به المسلمون وبخاصة من الموظفين الكبار؛ فكثير ما تذهب لمراجعتهم فيقال لك: إن عنده اجتماعًا أو هو لديه شغل، فإذا وقعت منك نظرة نحو مكتبه حين يفتح وجدته يشرب الشاي مع رجل أو رجلين من أصحابه، إنَّ مثل هذا يلعب فعلاً بالنار؛ لأن الأحاديث الواردة في هذا الباب مخيفة حقًا، ففي مسند أحمد بإسناد حسن: **«من ولي أمر المسلمين ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذوي الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون إليها»**.

ولأحمد ولأبي يعلي أن رسول الله ﷺ قال: **«من ولي من أمر المسلمين شيئًا فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة»**.

**خامسًا:** أن يبتعد في كافة أحواله عن السحت والحرام والرشوة مهما تلونت أساليب الحرام، إن الموظفين في إدارات المناقصات والمشتريات قد يتعرضون إلى تيارات من الحرام تجرفهم إلى نار جهنم، وقد حذرهم رسولنا ﷺ من كل أسباب الحرام، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

ولقد حدثني بعض العاملين في إدارة المناقصات أنه رجع يومًا إلى بيته وإذا بالباب سيارة فخمة تساوي مائة وخمسين ألف ريال، وإذا رجل واقف عندها يسلمه مفتاحها ويقول له: هذه السيارة هدية متواضعة مع تحيات وأشواق من فلان، فقال صاحبنا وكان نزيهًا: ولكن لماذا لم يهد إلي صاحبك شيئًا قبل أن نقلت إليَّ المناقصات، رد على صاحبك سيارته وقل له: هذه ليست هدية وإن سميتها هدية ولكن اسمها رشوة.

وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش (وهو الذي ينسق بينهما لإتمام عملية الرشوة) ما أجمل أن تكون وظيفة المرء عونًا على طاعة الله تسير بصاحبها إلى جنة الله ورضوانه، وما أقبح أن تكون الوظيفة سبيلاً إلى المفاسد والمعاصي فتلقي بصاحبها في جهنم،

أسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين صلاح الأمر وحلال الرزق وفوز الدارين، فإنَّ الوظيفة أمانة إن لم يؤد الموظف حقها كان خائنًا لله ورسوله ومن وظَّفه.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٨- ١١].

## ( ٢ ) أمانة المسئولية

إنَّ ولاية أمر المسلمين أو ولاية قطاع من قطاعاتهم تُعد من الأمانات العظيمة والمسئوليات الجسيمة، يقول النبي ﷺ كما جاء في صحيح مسلم: «**المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، والمقسطون على أهليهم وأولادهم**».

وفي القرآن الكريم صلة بين الأمانة والمسئولية، يقول الله -تعالى- في سورة «النساء»: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.

والعدل في المسئولية من أعظم القربات إلى الله ﷻ جاء في الحديث الذي رواه أبو حنيفة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أرفع الناس يوم القيامة إمام عادل**»، وفي الحديث الصحيح: «**سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وقد عدَّ رسول الله ﷺ أولهم فقال: «**إمامٌ عادل**».

ومقياس العدل في المسئولية أن يحب الناس المسئول عنهم، ويدعوا له؛ فذلك مقياس يدل على نجاح المسئول، والناس كلهم مسئول، وإنما تتفاوت المسئولية كبرًا وصغرًا، يقول النبي ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**».

وجاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم** (أي: تدعون لهم)، **ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»، وقد وضح النبي ﷺ أن سيد القوم لا يستنكف عن خدمتهم ففي الحديث الذي رواه أبو نعيم يقول النبي ﷺ: «**سيد القوم خادمهم**».

هذا؛ وعلى المسلم أن يتقرب إلى الله بطاعة ولي أمره سواء رئيسه المباشر أو إمامه الكبير، يقول النبي ﷺ كما جاء في سنن الترمذي: «**من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله**»، وإهانة السلطان معناها الاستهانة بأوامره والخروج عليه.

هذا؛ ومن دلائل النجاح في المسئولية سواء على المستوى الكبير أو على مستوى الإمامة أن يكون المسئول في البيت هو الرجل؛ لأن الرجل قوام على المرأة، وقد لاحظت أثناء عملي في تعليم الأولاد والبنات أن البيت الذي يكون المسئول عنه رجلاً ترى فيه الولد والبنت في مستوى طيب من الجدية والاجتهاد، أما البيت الذي تتحكم فيه امرأة فإن الخراب يكون باديًا بوضوح في أخلاق أبنائه وبناته، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة**».

هذا؛ ومن أدب المؤمن ألا يلهث وراء الإمارة والسعي إلى الوظائف ذات المسئولية الكبيرة، وإنما إذا جاءته دون يسألها؛ فعليه عندئذٍ أن ينشط لها مستعينًا بالله، جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال لأحد الصحابة: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»، وفي صحيح مسلم: «**لن نستعمل على عملنا من أراده**».

إنَّ كثيرًا من الناس ربما دفعوا رشوات للحصول على المناصب، فإذا أحرزوها؛ فقد تنقلب عليهم غضبًا ووبالاً، وإن المسئول عن جماعة من المسلمين يحمل إزاءهم أمانة كبرى، يقول النبي ﷺ: «**أيما امرئ ولى من أمر المسلمين شيئًا لم يحطهم بما يحوط به نفسه لم يرح رائحة الجنة**».

وفي سنن أبي داود: «**من ولاه الله من أمر الناس شيئًا فاحتجب عن حاجاتهم وخلتهم**

**وفاقتهم، احتجب الله يوم القيامة عن حاجته وخلته وفاقته».**

وفي صحيح البخاري: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة».**

وفي الحديث الذي رواه أبو حنيفة يقول النبي ﷺ: «**الإمرة أمانة، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها من حقها، وأدى الذي عليه فيها».**

وقد دعا رسول الله ﷺ للموظف الذي يرفق بالمسلمين كما دعا على الموظف الذي يشق عليهم ويعقد أمورهم، جاء في صحيح مسلم : «**اللهم مَن ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومَن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارق به».**

هذا؛ وعلى صاحب المسئولية ألا يسند أمرًا أو يوسده إلا إلى الكفء المقسط ففي مسند أحمد: «**مَن استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».**

وفي موضع آخر: «**مَن ولي أمر المسلمين شيئًا فأمَّر عليهم أحدًا محاباة له؛ فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً».**

وعلى مَن ولي أمرًا من أمور المسلمين أن يبتعد برزقه عن الرشوة، ففي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: «**لعن الله الراشي والمرتشي والرائش».**

هذا؛ ومن آداب المؤمن إذا ابتلى بمسئول ضعيف الأمانة أن يحسن معه النصيحة والإرشاد ولا يشغب عليه شغبًا يسقط مروءتها ففي الحديث المتفق عليه: «**من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتة جاهلية».**

هذا؛ ومن آداب المؤمن ألا ينصح رئيسه على ملأ، فإن النصيحة على ملأ قد تأتي بنتائج عكسية، وفي مسند أحمد أن النبي ﷺ قال: «**مَن أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبده له علانية**»، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى ما عليه.

هذا؛ وعلى المؤمن أن يعتبر أموال الدولة حرامًا عليه ففي مسند أحمد أن إبل الصدقة مرت على رسول الله ﷺ فأهوى بيده إلى وبرة من جنب بعير فقال: «**ما أنا بأحق بهذه الوبرة**

من رجل من المسلمين»، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «من أخون الخيانة تجارة الوالي في رعيته» أي يعتبر الوالي الولاية تجارة وفرصة للكسب الحرام.

هذا؛ ولا تجوز بحال معاملة الناس بالقسوة والشدة، ففي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: «**يخرج رجال من هذه الأمة في آخر الزمان معهم سياط كأنها أذناب البقر يغدون في سخط الله ويروحون في غضبه**».

اللهم ارزقنا العدل والإحسان في كل أمورنا، وأبعدنا من الظلم وأبعده منا لنلقاك راضيًا عنا يا رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

### من أحاديث الآداب

## المروءة مقرونة بالفتوة

من آداب المؤمن أدب يعشقه جميع الناس.. أدب يدلُّ على كلِّ الفضائل النفيسة، ويجعل صاحبه أبهى من نوافح الروض وزهر الربيع ومواقع الغيث الرحيم ومقدم الوسمي المبارك في أوانه.. هذا الخلق هو المروءة المقرونة بالفتوة، وإنما قرنت الخلقين؛ لأنهما لا يكونان إلا متلازمين فكل صاحب مروءة لا بدَّ أن يكون ذا حظ من الفتوة والمروءة كما يبدو من لفظها مشتقة من المرء، أي: الإنسان، وبهذا التوجه يكون معنى المروءة: كمال الإنسانية، فذو المروءة هو الكامل الإنسانية، حتى إن نفسه لتكون النموذج الحي لسمو الإنسانية وبلوغها أرقى المدارج في نبل الإنسانية وصفائها وعطفها وكرمها.

صاحب المروءة هو الذي تلقاه دوامًا حاضر المعروف فما يُدعى إلى عمل من أعمال الخير إلا كان أول سامع وأقرب مجيب ثم تراه بعد ذلك سامي النفس عن كل نوازع الشر ودوافع الحقد وسواد الانتقام ولؤم الحسد، وقد لخص رسول الله ﷺ في عبارة حلوة فقال لأحد الصحابة: «**صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك**» وروي أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من ثقيف: ما المروءة؟ فقال الرجل: المروءة سخاء النفس وصلة الرحم

وصلاح الدين وإصلاح المعيشة فقال رسول الله ﷺ: **«هكذا هي عندنا في حكمة آل داود»**.

والحق أني آنس كثيرًا وأتفاءل حين تكون لي حاجة عند موظف أو مسئول وأعلم أنه موصوف بالمروءة، فأذهب والأمل يتألق في وجهي بأني سأعود بحاجتي وبكرامتي وبصداقة جديدة، وعلى النقيض من ذلك حين أضطر إلى رجاء إنسان لا مروءة عنده؛ فإني حينئذٍ أذهب وكلي تخوُّف أن أعود بلا حاجة مقضية ولا كرامة مرعية، جاء في حديث ابن عباس قال: رفع إلى عمر بن الخطاب ﷺ رجل في جرم فأراد أن يعاقبه فأخبر أن الرجل له مروءة، فقال عمر: استوهبوه من صاحبه، أي: اطلبوا من صاحبه أن يعفو عنه ويهب العفو لله ورسوله.

وأما الفتوة المصاحبة للمروءة؛ فلها مظاهر أبرزها نجدة الملهوف والصبر في مواطن الشجاعة والإقدام على المكروه لإحقاق الحق وإبطال الباطل. إذا رأيت امرأة مسلمة يريد أن يعتدي عليها بعض الفسقة فلم تبال بعددهم ولا بقوتهم واندفعت كالأسد تدفعهم بوسائلك فأنت عندئذ من أهل الفتوة، ولو كنت في الثمانين من العمر إنك عندئذ فتى بروحك وأخلاقك ودينك. أما من يرى منكرًا يقترف فيمر كأن شيئًا لا يعنيه فذلك تنقصه الفتوة والمروءة معًا.

سأل معاوية جلساءه عن المروءة، فقال عبد الله بن هاشم بن أبي قاص: المروءة هي بذل المال وصحة الدين والدفاع عن المظلوم، وأما الفتوة؛ فالجرأة في الحق والصبر عندما تزل الأقدام.

إنَّ كلمة الحق والإسراع إلى المعروف وجلوسك على باب بيتك ليراك أصحاب الحاجات... كلها من المروءة، وقد كنت إلى عهد قريب أرى بعض الرجال -رحمهم الله- على أبواب بيوتهم عندهم قهوتهم وشايهم وما يسَّره الله من رطب أو تمر أو لبن لا يمر بهم مسلم إلا قالوا له: تفضل، تُرى أين ذهب ذلك الجيل ذو المروءات، وخلف من بعدهم خلف يقفل بابه ويقول لزوجه وأولاده: إذا سألكم عني سائل فقولوا: غير موجود؟! وبهذه الطريقة يتمكن من أكل حقوق العباد ويحرم من شرف المروءة والفتوة.

إنَّ مواقف المروءة تختلف على حسب الأحوال، فالمروءة في السفر بذل الزاد وسماحة النفس والبشاشة مع قليل من المزاح واجتناب المجادلة، أما في الحضر أن تكثر تلاوتك للقرآن، وأن يُرى بيتك مترددًا للإخوان، ومن تمام المروءة عفاف المرء عن كل حرمة من حرمات الناس، وحسن الخلق مع الضعاف والصبية وتفريح الأطفال وبذل الزاد وخصوصًا لذوي الحاجات. وإتحاف الجار ببعض محبوب الطعام لا من الفضلة ولكن من البداية.

وما أجمل ما سنَّه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حين أمر الأئمة أن يتلوا في خطبهم آية كريمة يمكن أن تسمَّى (آية المروءة) وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾، وكان الناس يقولون: لا دين لمن لا مروءة له، هذا ولعل كسب المال الحلال والعناية به هما أيضًا من المروءة؛ لأن الفقير يعجز كثيرًا عن قضاء حوائج الناس وتحمل تكاليف الكرم.

ولقد حدثني بعض إخواننا أنه احتاج يومًا فقصد ابن أخيه وكان ذا مال فرده ابن أخيه خائبًا، وعلم أحد جيرانه بما حصل له مع ابن أخيه فذهب إليه ليلاً وسمر معه وقال له: يا فلان، سمعت من زوجي أن بعض الأشرار سرقوا بسطتك التي تبيع منها وأنك لم تجد حين رجعت شيئًا من حلواك وبضاعتك، فقال: الرزق بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله. فأخرج من جيبه ما يعادل ثمن البضاعة وأوعيتها من الخصف وأدخلها في جيب صاحبه وقال له: ناشدتك الله لا تخبر أحدًا، وإذا توفر لديك مال فتصدق به عنك وعنا. وانصرف الجار ذو المروءة وصاحبه يقول: رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك.

إن اليهود في هذه الأيام ينصبون للإسلام شركًا ليخلوا أهله من المروءة، إنه يضربون المسلمات على مرأى من المسلمين، ويكسرون أطراف الأطفال على مرأى من العرب، ويسوقون الشباب المسلم إلى غيابات السجن، والمؤمنون ينظرون خالين من دوافع المروءة ونخوات الفتوة، وقد طال الأمد وأخشى أن تقسو القلوب عن حوافز الشرف، وكأني والله بالإسلام في هذه الأيام يرسل صيحاته من أفواه المظلومين صارخًا بكل صوته لأصحاب المروءات أين أنتم من مروءات السلف وفتوات الغر الميامين.

***

## من أحاديث الآداب

# آداب المرض والتداوي

## نعمة الصحة

لعل أجل نعمة ينعمها الله على عبده هي نعمة الصحة، حين يصبح العبد فيرى بفضل الله أن كل أعضائه وسُلامياته وأجهزة جسمه خالية من الأمراض. هنالك يخطر بباله خاطر يملأ نفسه بذكر الله وبشكر نعمته حين يذكر أن ملايين من البشر يعانون من الأمراض ويتمنون لو يُشفون ولو دفعوا للطبيب المداوي أعز ما يملكون.

إنَّ جسم الإنسان كثير الأجهزة معقدها، وأمراض الجسم كثيرة تتناسب مع كثرة أعضاء الجسم، فهنالك أمراض القدمين والركبتين وأمراض الجهاز التناسلي والبروستاتا وأمراض الظهر والحبل الشوكي والقلب والرئتين، وهكذا فمن أصبح وقد سلم من كل هذه فليسجد لله شكرًا. وليدفع زكاة صحته. وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ حين قال في الحديث: «**كلُّ سلامي في ابن آدم عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس**».

ولما استكثر الصحابة تلك الصدقات أخبرهم رسول الله ﷺ أنه لا يقصد بالصدقة مال يدفع، فألفاظ ذكر الله صدقات، والبشاشة، وإعانة المسلم على أي شأن من شئون الحلال، وإماطة الأذى عن الطريق، والكلمة الطيبة، وكل صنيعة من صنائع المعروف كلها صدقات.

**يا أخي القارئ الكريم:** إذا أصبحت معافىً في بصرك فتذكر أن كثيرًا من البشر لا ينامون ليلةً هانئين لما يعانونه من آلام العين، وإذا أصبحت معافًى في سمعك فاعلم أن آلاف البشر حرمتهم النوم آلام آذانهم.

ولقد رأيت بعيني أحد إخواننا الأغنياء كان يعاني آلامًا من داخل أذنه (من الأذن الوسطى) فكان يغمى عليه وهو سائر مع إخوانه، فعلم من الأطباء أن الله تعالى أودع في الأذن الوسطى مركزًا للتوازن به يستطيع المرء أن يقف ويمشي ويمارس الرياضة، وأن هذا المركز إذا تعطل لم يستطع المرء أن يحفظ توازنه إذا وقف، ومن ثَمَّ يقع مغمًى عليه. أقول: كان صديقنا الغني يود لو يشفى من نوبات الإغماء ولو دفع كل أمواله.

وإذن؛ فالصحة تاج إلهي يزين الإنسان أكثر من ماله وولده ورياشه وأثاثه، ومن هنا فإن المسلم يتعامل مع هذه النعمة تعامل الشاكر الذي يقدر نعمة الله حق قدرها، ويشكره عليها حق الشكر؛ إذ بالشكر تدوم النعم وتزكو.

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

**وإني موردٌ هنا طائفة من الآداب التي إذا التزمها المؤمن زكت نعمته وأفلحت مساعيه وكان مرضيًّا عند الله والناس:**

**أولاً:** أول أدب يلتزمه أهل الصحة هو أن يعلم أنها فرصة ذهبية لمضاعفة الحسنات؛ لأن المريض لا يستطيع أن يتعبد لله كالصحيح، ولا أن يمشي في مساعي الخير كما يفعل الإنسان في حال صحته، إن الصيام والقيام يحتاجان إلى جَلَدٍ واحتمال، والمريض قليل الجَلَد والتحمل، فإذا غفل الإنسان عن صالح الأعمال وعجز عنها في حال صحته فهو في حال مرضه أشد عجزًا وأكثر غفلة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»، ومعنى الحديث أن الصحة كنز عظيم القدر، لكن هذا الكنز يُفَرِّطُ فيه الناس ويضيعونه بخسارة فادحة؛ لأنهم لا ينتهزون فرصته المسعفة الجليلة فيبيعونه بيعة وكسٍ وغبن فاحش. إن طاقة الصحيح أضعاف طاقة المريض، ومن ثم فالعاقل يأخذ من صحته لسقمه، ومن شبابه لشيبته، ومن دنياه لآخرته.

**ثانيًا:** كلُّ إنسان عليه حقوق يؤديها وواجبات يحرص عليها، فلربه عليه حق، ولنفسه، ولبدنه، ولأرحامه، ولبيته وزوجته، وعليه أن ينتهز فرصة قوته ليؤدي هذه الحقوق قبل أن يمرض فلا يستطيع أن يؤدي حقًّا ولا أن يقوم بواجب. ففي الحديث الشريف: «**ليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**».

**ثالثًا:** وعلى المؤمن أن يتداوى إذا ألم به مرض؛ لأنه إن لم يتعهد جسمه بالصيانة المستمرة كثرت أمراضه وتشعبت، وفي الحديث الذي رواه الشيخان: «**ما أنزل الله ﷻ من داءٍ إلا وأنزل له دواءً علمه من علمه وجهله من جهله**». وروى أصحاب السنن أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، أفنتداوى؟ قال: «**نعم، يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء**

**غير داءٍ واحد هو الهرم**».

وليعلم المؤمن أن الله ﷻ لم يجعل شفاء أمتنا في المحرمات فالخمر والميتة ولحم الخنزير لا يمكن أن يكون فيها شفاء، ففي (سنن البيهقي) قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم**».

**رابعًا**: وعلى المريض ألا يطلب الشفاء عند الجهلة والمشعوذين؛ لأن هؤلاء كثيرًا ما يؤذون المريض بأدوية لا يعرفون تركيبها. إن المريض العاقل لا يراجع إلا طبيبًا متمكنًا ممارسًا للأمراض والأدوية، وقد جعل الشرع الكريم التطبب جريمة، والتطبب أن يدعي الرجل أنه طبيب وما هو بطبيب، إن الطبيب المتمكن إذا أجرى جراحة فمات مريضه تحت يده فإنه لا يغرم ديته؛ لأنه اتخذ كل الاحتياطات فلم تفد؛ لأن أجل الله لا يؤخر، أما المشعوذ الذي يدعي الطب فإنه يغرم الدية إذا مات مريضه من أدويته؛ ففي سنن ابن ماجه يقول رسول الله ﷺ: «**من تطبب ولم يُعْلَمْ منه طب؛ فهو ضامن**».

**خامسًا**: وعلى المريض إذا أصابه مرض مُعدٍ ألا يخالط الناس وألا يغضب منهم إذا هم لم يزوروه، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال يذكر الطاعون (الذي يشبه الكوليرا): «**إذا سمعتم بأرض فلا تقدموا عليهم، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**» وهذا هو العزل الصحي.

**سادسًا**: وعلى المريض أن يتعهد جسمه بالنظافة؛ لأن المرض ينتقل عن طريق الذباب والحشرات التي تحمل الجراثيم، وهذه لا تعيش إلا في البيئات الوسخة ولحكمة عظيمة جعل الشرع الشريف النظافة شرطًا من شروط صحة الصلاة، فإذا أراد الآباء والأمهات لأبنائهم السلامة من الأمراض فليعوِّدهم على النظافة بأنواعها، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله نظيف يحبُّ النظافة، طيب يحبُّ الطيب، كريم يحبُّ الكرم، جواد يحبُّ الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود**».

### من أحاديث الآداب

## ما يتحلى به المؤمن في حال مرضه

الحمد لله الذي يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، وأشهد أن لا إله إلا الله، الملك الكريم الحليم الوهاب، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الرحيم الرءوف.

**أما بعد:** إنَّ المؤمن قد يمرض فيصبر ويحتسب ويرجو رحمة الله وشفاءه، ويكون له أثناء مرضه أدب يتعلمه من كتاب الله وسنة رسوله. وهذه بعض الآداب التي يتحلى بها المؤمن في حال مرضه فيخفف الله بها عنه لأواءه، ويهون عليه ألمه وداءه، ويبعث فيه أمله ورجاءه.

**أولاً:** من آداب المؤمن في أثناء مرضه أن يلتمس لدائه دواءً، ويأخذ بأسباب الشفاء فيسأل أهل الذكر، ويستشير أهل الخبرة من الأطباء؛ ففي الحديث الذي رواه أصحاب السنن أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: **«نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء غير داء واحد هو داء الهرم»**. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«ما أنزل الله ﷻ من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله»**.

**ثانيًا:** وعلى المؤمن أن يختار لدائه طبيبًا لا أن يختار له متطببًا، أي: مدعيًا بالطب وهو جاهل أو مشعوذ، فالمتطبب والمشعوذ ومدعي الكرامات وهو كاذب كل هؤلاء إذا حصل للمريض على أيديهم أذى أو ضرر؛ فهم عندئذ غارمون ومعاقبون، أما الطبيب الحاذق المجتهد فإنه لا يغرم ولا يعاقب إذا قضى الله شيئًا على المريض إثر عمليته؛ لأن لكل أجل كتابًا لا يؤخر ولا يقدم قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجه: **«من تطبب ولم يعلم منه طب فهو غارم»**.

**ثالثًا:** على المريض ألا يتناول من الأدوية إلا ما جرب نفعه وخلا من الضرر، وإذا ادعى جاهل أنه يركب أدوية فلا يتعامل معه. وقد مدح رسول الله ﷺ بعض الأدوية المأخوذة من الأعشاب كالسنا المكي، وهو دواء من عشب مكة يلين المعدة وربما سموه العامة الحِلَّة؛ لأنه يحل إمساك المعدة، كما مدح العسل ومدح الحبة السوداء، وكل هذه أعشاب جربت وثبتت فائدتها بإذن الله، والأدوية الحديثة المستخلصة من الأعشاب والمواد الكيماوية النظيفة والتي

أجريت عليها دراسات وتجارب، كل هذه تؤخذ إذ أشار بها طبيب مجرب.

**رابعًا:** الطبيب المسلم مطالب بأمور لا يجوز له أن يتجاوزها، فلا يجوز له أن يتجاوز اختصاصه أو يتصدر لعملية فوق مستواه. وقد نصح رسول الله ﷺ طبيب وفد نجران واسمه الشمردل فقال له: «**يحل لك فصد العرق، ومجة الطعنة** -أي: أن تجس أسفلها لترى ما في قرارها من أشياء- **ولا تداو أحدًا حتى تعرف داءه وعليك بالسنا**». وهي نصائح رائعة؛ لأن السنا يريح المعدة، ثم إن الطبيب إذا داوى مريضًا قبل أن يعرف داءه ويشخصه فإنه قد يعطيه دواء ضارًا لمثل حالته وهو لا يدري.

**خامسًا:** إذا كان المرض معديًا فمن آداب المريض أن يعتزل حتى لا تنتقل العدوى، روى البخاري في «صحيحه» أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا وقع ولستم بها فلا تقدموا عليه**»، وفي صحيح البخاري أيضًا يقول رسول الله ﷺ: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**».

**سادسًا:** على الذي يعود مريضًا أن يخفف الزيارة، روى الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**خير العيادة** (أي: زيارة المريض) **أخفها قيامًا**». والتعزية مرة. وإذا عرض عليك أهل المريض أن يعدوا لك طعامًا فإياك أن تسمح لهم؛ لأن لديهم ما يشغلهم من العناية بمريضهم يقول النبي ﷺ: «**إذا عاد أحدكم مريضًا فلا تأكل عنده شيئًا فإنه حظه من العيادة**» يعني: أن يفقد ثواب زيارة المريض ويصبح الأكل الذي أكله هو نصيبه من الأجر والمثوبة، وعلى العائد (أي: زائر المريض) أن يدخل السرور على قلب المريض، وأن يهوِّن من أمر المرض، وينفس له في مرضه يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي: «**إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل؛ فإن ذلك لا يرد شيئًا وهو يطيب نفسه**».

**سابعًا:** لا يجوز أن يتداوى المؤمن بنجس كالخمر ونحوها، ولا بمحرم كلحم الخنزير، ففي سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم**».

**ثامنًا:** وما أجمل أن يكثر المريض وأهله من الصدقة، والدعاء له؛ فإن الله تعالى يجيب الدعاء المخلص ويدفع السوء بصنائع المعروف، يقول عليه الصلاة والسلام: «**داووا مرضاكم بالصدقة**».

**تاسعًا:** لا بأس أن يرتقي المريض بالقرآن الكريم، فالرقية به واردة؛ فلقد رقى ابن مسعود مريضًا بأواخر سورة المؤمنين فأفاق، من قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا...﴾ إلى آخر السورة، وكان عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود إذا أتى المريض يدعو له يقول: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا**»، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ أوصى أحد الصحابة وقد اشتكى إليه وجعًا فقال: «**امسحه بيمينك سبع مرات وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد**». وأوصى أن يرقى المريض فيقول راقيه: «**أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يشفيه**».

**عاشرًا:** ما أجمل أن يتذكر المريض ذنوبه فيستغفر لذنوبه، وما أجمل أن تفيض عيناه إذا ذكرها، جاء في مسند الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليمرض فيرق قلبه فيذكر ذنوبه فيقطر من عينيه مثل الذباب من الدموع** (يعني: دمعًا قليلاً) **فيطهره الله من ذنوبه فإن بعثه بعثه مطهرًا، وإن قبضه قبضه مطهرًا**».

**أحد عشر:** بعض الناس إذا لم يأكل مريضه حزن وغاضبه خوفًا عليه أن يغلبه المرض، وبعضهم قد يحرم مريضه ولو من قطرة ماء، وفي هذا الأمر يكون خيرُ الأمور الوسط.

**اثنا عشر:** هنالك أدواء كداء الحصبة وبعض الأمراض الجلدية في الرأس والجسد تكون أمراضًا معدية فلتحذر الأمهات والآباء أن يأخذوا أبناءهم الصغار إذا أرادوا أن يعودوا أمثال أولئك الأطفال، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ**».

**ثلاثة عشر:** أوصى رسول الله ﷺ ألا تترك الحمى لتستبد بالمريض، وعلى الطبيب والولي أن يبرد جسد المحموم بأي طريقة؛ لأنه يخشى إذا زادت عن حدها أن يفقد المريض وعيه فتنزول مقاومته، ويتهيأ الجسد للضرر، روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**».

**أربعة عشر:** نهى رسول الله ﷺ عن الدواء بالكي؛ لأن أكثر مَن يتصدرون له يكونون جهلة قساة القلوب، روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**الشفاء في ثلاث: في شرطة محجم**

**أو شربة عسل أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي»**.

**خمسة عشر:** على العبد المؤمن ألا يتبرم بالمرض فيسخط وينقم؛ لأنه قد يكون تنبيهًا من غفلات أو تكفيرًا للسيئات أو رفعًا للدرجات، فقد روى أبو حنيفة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مرض العبد وهو على طائفة من الخير (أي: ذو حسنات اعتاد عليها) قال الله تبارك وتعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي أجر ما كان يعمل وهو صحيح**».

## من أحاديث الآداب

# التــــــــداوي

الحمد لله الذي نزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين.

**أما بعد؛** إني موردٌ هنا بعض آداب تتعلق بالتداوي سواء بالأدوية الحديثة أو بالكي أو باستعمال الرقي والتمائم، وقد أوحي إليَّ بهذا الموضوع أن جنديًّا استوقفني وقال في أدب: هل تسمح لي أن نسير على جانب الطريق وأسألك سؤالاً؟ قلت له: نعم. قال: ولكن السؤال طويل، فهل لديك وقت؟ قلت له: نعم. فأخذ يحكي أنه أصابته حالة نفسية من الاكتئاب وضيق الصدر والأرق. ثم تطورت حتى صار يرى زوجته كأنها وحش وإذا خلا بها في غرفة أحسَّ أن عدوًا يريد أن يغتاله، وأنه ذهب إلى بعض من يعالجون الجن فلم يكتب الله له شفاءً على أيديهم، وأخيرًا وصفت له عجوز صالحة قارئة للقرآن تحفظ من الآيات ما يطرد الجن، وأنها كتبت له آيات من القرآن وأذابتها في الماء حتى إذا انمحت شرب الماء ثم كتبتها مرة أخرى على ورقة فطوتها ووضعتها في حرز من الجلد وخاطت عليه، وقالت له: علقه تحت ثيابك واحرص عليه؛ لأنه من القرآن الكريم، وقالت له: إن إحدى كافرات الجن صنعت بك ما صنعت.

قال: ولما علقته شعرت أنه كابوسًا قد زال من فوق صدري، وأخذت أميل إلى الناس وآنست بزوجتي وسكنت إليها على مودة ورحمة، ولكن بعض المشايخ قالوا لي: إن تعليقك التميمة لا يجوز، وقد دعا رسول الله ﷺ على من علق تميمة ألا يتم الله له خيرًا، فنزعت

التميمة ولم تمض أيام حتى بدأت معي مشكلات كتلك التي مررت بها، وكنت قد حرقت التميمة بعد أن قرأتها، وأقسم أني ما وجدت بها إلا آيات من القرآن الكريم ودعوات صالحة بأن تحفظني ملائكة الله بأمر الله من بين يدي ومن خلفي ومن شر الإنس والجن وشر كل دابة يأخذ ربي بناصيتها، فرأيت أن أبحث في كتب الآداب والأحكام عن مسائل التداوي، وإلى الإخوة القراء هذه الخلاصة لآداب التداوي وأحكامه:

١- المؤمن إذا مرض شُرع له أن يتداوى ومن أهمل مرضه فلم يتداو فهو عندئذ مفرط في الهدي النبوي؛ لأن رسول الله ﷺ قال فيما رواه أصحاب السنن: «**يا عباد الله، تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً غير داء واحد هو الهرم**». وفي الصحيحين: «**ما أنزل الله ﷻ من داء إلا وأنزل له دواءً علمه من علمه وجهله من جهله**».

٢- على المؤمن أن يحكّم في التداوي عقله، فيتداوى بالطيب الوضيء ويتجنب القذر والنجس والمحرم، ففي الحديث الصحيح أن رجلاً اسمه الشمردل كان مع وفد نجران فقال: يا رسول الله، إني كنت كاهن قومي في الجاهلية، وإني كنت الطبيب، فما يحل لي؟ يعني ما الذي يسمح لي به الإسلام من مهنة الطب، فقال رسول الله ﷺ: «**فصد العرق ومجسة الطعنة وعليك بالسنا ولا تداو أحدًا حتى تعرف داءه**». قال: والذي بعثك بالحق أنت أعلم بالطب مني.

والحق أن ما أذن له به رسول الله ﷺ من سحب الدم عن طريق الفصد. وأن يجس بالمجسة عمق الطعنة ليتمكن من تطهيرها وأن يحرص على نظافة المعدة باستعمال السنا المكي وألا يشرع في المداواة إلا بعد معرفة المرض أقول كل هذه من أساسيات الطب.

٣- على المريض ألا يتطبب إلا عند طبيب، أما المشعوذون ممن يدعون العرافة ومن الكهنة والذين يدعون السحر واستخدام الجن فما يجوز للمسلم أن يأتيهم؛ لأنهم كذابون ويضيعون الوقت في غير طائل قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل صلاته أربعين يومًا**»، وفي سنن أبي داود: «**من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»، وذلك لأن هؤلاء يدعون معرفة الغيب وعلمه والغيب لله لا يطلع على علمه أحدًا إلا من ارتضى من رسول ومثل هؤلاء إذا تطببوا وعالجوا مريضًا

فأضرُّوه غرموا، يقول النبي ﷺ فيما رواه ابن ماجه: «من تطبب ولم يُعلم منه طب؛ فهو ضامنٌ».

٤- والتطبب من السحر ومن أفعال كفار الجن جائز، فقد جاء في الحديث الشريف والتفاسير وكتب السير أن رسول الله ﷺ تداوى بالقرآن الكريم من سحر سحره به أحد اليهود مستغلاً مشطًا من أمشاطه، ومشاطة من شعره، فأحس رسول الله ﷺ أنه تسلط عليه نسيان شديد حتى لقد كان يفعل الشيء وينسى بعد قليل أنه فعله فتداوى بالمعوذتين وشفاه الله. والحق أن أفضل طب للسحر وضرر الجن هو القرآن الكريم وخصوصًا الآيات التي تشتمل على كلمة التوحيد وآيات القدرة والسور والآيات المنصوص على فضلها كسورة الفاتحة إذ من أسمائها الشافية، وآية الكرسي إذ هي أفضل آية في كتاب الله بنص الحديث الشريف وقل هو الله أحد إذ هي ثلث القرآن والمعوذتين؛ لأن رسول الله ﷺ قرأهما فشفاه الله مما ألم به، والآيات التي فيها «لا إله إلا الله»، أو «لا إله إلا هو» مفيدة في هذا المجال؛ لقوله تعالى يذكر الكافرين: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦].

٥- هنالك أقوال لبعض أئمتنا من السلف تجيز تعليق تعويذة على أن تكون من القرآن الكريم خالية من أي طلسم أو لغة غير العربية، وأن يعتقد حاملها أن الشفاء لا يكون إلا من الله وبأمره، والقرآن وحي الله وكلامه وهو شفاء، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد روي أن الإمام أحمد -رحمه الله- شكت إليه امرأة أنها تصيبها وحشة في بيتها فكتب لها رقعة بخطه: بسم الله وفاتحة الكتاب والمعوذتين وآية الكرسي. ثم كتب: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل اشف صاحب هذا الكتاب».

وكان الأشياخ -رحمهم الله- يجيزون أن يكتب القرآن في إناء ثم يسقيه المريض ويغسل به وجهه، وقال صالح ابن الإمام أحمد: كان أبي إذا مرضت يأخذ قدحًا من ماء فيقرأ عليه ويقول: اشرب منه واغسل وجهك.

والمؤمن يشرب من ماء زمزم على نية الاستشفاء به، وكان أحمد - رحمه الله- ربما كتب شيئًا من القرآن في جام أبيض أو وعاء نظيف لامرأة عسرت ولادتها فتشرب منه وتنضح على

صدرها، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يكتب من القرآن على جبهة الراعف لينقطع الدم، هذا والرقية بالقرآن مستحبة.

٦- ومن آداب التداوي ألا يتداوى بالنجاسة أو بسماع الغناء كالزار ونحوه، ولا يتداوى بالخمر، وما أجمل أن يتداوى المريض بالصدقة، ويدعو بالمأثور في مرضه فيقول: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد، أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يشفيني**»، وأهم ما في الأمر أن يعتقد المريض أن الطبيب والدواء والرُّقى ما هي إلا وسائل لا تنفع ولا تشفي إلا بإذن الله الذي هو الشافي والمعافي ومذهب البأس.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۞ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۞ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۞ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٧٨- ٨٢].

## من أحاديث الآداب

# علاقة العبد بربه

**يستمدُّ المؤمن علاقته العظيمة بالله وإيمانه العميق بالرّب ﷻ من مصدرين عظيمين:**

**أولهما:** الإكبار الذي لا حد له لله ﷻ، وثانيهما: العرفان بجميله ﷻ. أما الأول فينشأ من طول تأمل المؤمن في عظائم خلق الله وعجائب صنعه وجلائل آياته في السموات والأرض، فكلما اطلع على جديد من ملكوت الله زاد إجلاله لله ذي الملك والملكوت وذي العزة والجبروت.

**وأما الثاني:** فيستمده المؤمن من طول تفكره في آلاء الله ونعمة ظاهرة وباطنه كنعمة الخلق في أحسن تقويم، ثم ما سخره للإنسان من نعم لا تحصى يراها المتأمل ماثلة للعيان أينما

أدار بصره، ولا تزال هذه العلاقة الجليلة تنمو في قلب المؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين. هنالك يتخذ ربه حبيبه الأعظم ويذوق حلاوة الإيمان التي أوضحها رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

وعند هذه المنزلة من مدارج السلوك يتحول المؤمن عبدًا ربانيًا مؤيدًا بروح الله، إن سأل الله أعطاه، وإن استعانة أعانه، وهنا يتمتع بولاية الله له حين يكون الله مولاه ينظمه في حزبه ويعلن الحرب على عدوه ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**﴾ [محمد:١١] وفي هؤلاء الأولياء يقول ﷻ: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]. هنالك لا يترك حب الله في القلب فراغًا، ولا يتسع القلب بعدئذ لغيره ﷻ.

روى البخاري أن جبير بن مطعم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب سورة «الطور» فلما بلغ قوله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧] كاد قلبي يطير.

إنَّ المؤمن يحب ربه أشد الحب يقول تعالى في سورة «البقرة»: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥]، جاء في صحيح البخاري أن عمر ﷺ قال: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء ألا نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**». قال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «**والآن يا عمر**» (يعني الآن كمل إيمانك).

إنَّ سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- عبدوا الله عبادة حب، لقد أجلوه خالقًا عظيمًا ينطق بعظمته آياته ومخلوقاته، وأحبوه منعمًا متفضلاً تتجلى نعمه للعيون ظاهرة، وتتجلى للقلوب باطنة، وامتد حب الله إلى رسوله ﷺ لأن ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾

[النساء:٨٠]، ولأن رسول الله ﷺ هو الذي حمل إليهم نور الله، وعلّمهم شريعة الله، فكان أحب إليهم من أنفسهم. روى الترمذي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ لا يكاد يصبر على فراقه، فرآه رسول الله ﷺ يومًا شاحبًا يعرف الحزن في وجهه، ولما سأله قال: ذكرت أني في الآخرة قد لا أراك؛ لأنك تكون في عليين وأكون أنا في منزلة أدنى فطمأنه رسول الله ﷺ وقال له: «المرء مع من أحب». قيل: وفي هذا نزل قوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

لقد أصبح رسول الله ﷺ عند سلفنا الصالح روحًا لأرواحهم، ونورًا لأبصارهم وبصائرهم، وحبيبًا موصولاً بسعادتهم، قال أنس ﷺ: لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيء. فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيء وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

قال حذيفة بن اليمان: رأيتنا ليلة الأحزاب والعدو قد أحاط بنا. أبو سفيان ومن معه من فوقنا وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا والريح كأنها صواعق ولم يكن عليَّ ما يغطي جسدي من العدو ولا من البرد إلا ثوب لامرأتي لا يجاوز ركبتي، فأتاني الرسول ﷺ وأنا جاثٍ على الأرض من البرد، فقال: «من هذا؟» قلت: حذيفة، وتقاصرت في موضعي؛ لأن ثوبي قصير، فقال: «**اذهب يا حذيفة إلى القوم فإنه كائن فيهم خير هذه الليلة فأتي بخبرهم**».

قال حذيفة: فنهضت وأنا أشد الناس بردًا، فدعا لي بخبر، فمضيت لشأني وكأني أمشي من الدفء في حمام (يعني من الحمامات الساخنة التي كانوا يرونها في فارس). ترى من أين جاءه ذلك الدفء؟! لا تفسير لهذا إلا أنها حرارة الإيمان ودفء الإيمان، ومضي حذيفة ودخل معه معسكر المشركين وعاد إلى رسول الله ﷺ بالبشرى أن الله -تعالى- هزم الأحزاب وردهم عن حمى المدنية المنورة.

ولقد نما الإيمان في قلوب سلفنا ونما معه حب الله ورسوله حتى أصبحوا ربانيين، شعارهم إزاء أي أمر إذا دعوا فيه إلى الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا. ولقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى غزوة العسرة، وكانت عسرة بحق، فقد خرجوا إلى تبوك في حر شديد،

وكان الرجلان والثلاثة على بعير واحد وأصابهم في الطريق عطش هائل حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا كروشها ويعصروا ماءها فيشربوه، كانت عسرة في الماء والظهر والنفقة وشدة الحر، ومع ذلك لم يتخلف أحد عن رسول الله ﷺ من المؤمنين الأخيار إلا ما كان من أمر الثلاثة الذين خُلِّفوا فجاءهم من البلاء ما جاءهم فصبروا، ثم تاب الله عليهم ليتوبوا.

قرأنا أن أبا خيثمة ﷺ عاد إلى بيته بعد أن سار رسول الله ﷺ إلى تبوك وكان اليوم قائظًا شديد الحر فوجد زوجتيه وقد أعدتا له طعامًا شهيًا وماء عذبًا باردًا وبللتا له المسكن الواقع في بستان. وقطعتا له من بسر بستانه الخصب بعد أن بدأ يَسْوَدُّ ويرطب، نظر أبو خيثمة ذلك النعيم المغري فتذكر رسول الله ﷺ وصحبه وما يلقون في طريق تبوك من جوع وحر وظمأ فقال: رسول الله في الشمس والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء وهو في ماله مقيم، والله ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش أي منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ومضى يستبدل بالنعيم عسرة شديدة يطلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حالما نزل تبوك.

أذاقنا الله وإياكم حلاوة الإيمان، ورزقنا لذة النظر إلى وجهه الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

* * *

## من أحاديث الآداب

# الحث على تذكر نعم الله

من أهم آداب المؤمن أن يستغرق دوامًا في تذكر نعم الله ليكون هذا الذكر مقدمة للشكر الدائم للمنعم والعرفان المستمر بفضله. المؤمن على كافة أحواله شاكرًا لأنعم الله؛ لأنه يراها سابغة ظاهرة وباطنة، وهي لا تعد ولا تحصى، يراها إذا أكل أو شرب أو مشى أو نام أو نظر فيما حوله؛ لأن ربنا ﷻ سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، ومن ثم فالمؤمن يحس أنه رافل في نعم الله الجليلة وأفضاله الجزيلة، فإذا استشعر ذلك امتلأ قلبه بذكر الله وشكره وأسكن قلبه حب الله وإجلاله وتقديره، ثم تتحول هذه العواطف النبيلة إلى عبادة مخلصة وطاعة عظمية وولاءٍ منقطع النظير.

لقد كان السلف -رضوان الله عليهم- يحبون الله معطيًا ومانعًا، ويشكرونه معافيًا ومبتليًا، قال عمر ﷺ: ما ابتليت ببلاء إلا شكرت الله على أربع نعم:

أنها لم تكن في ديني، وأنها لم تجئ أعظم مما هي، وأن الله رزقني الصبر عليها، وأني أرجو ثواب الله عليها، قال رجل لأحد السلف: إن لصًّا دخل بيتي وأخذ متاعي. فقال له: اشكر الله على أن الذي دخل بيتك لص من البشر، ولو دخل قلبك شيطان فسرق إيمانك لكانت الخسارة أفدح، ثم احمد ربك على أن العقوبة العاجلة هي كفارة لعقوبة الآخرة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له حتى الشوكة يشاكها**».

وقد روي أن أعرابيًّا عزَّى ابن عباس ﷺ في وفاة أبيه العباس فقال:

**أصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية عند صبر الرأس**

**خير من العباس صبرك بعده ... والله خير منك للعباس**

فقال ابن عباس: ما عزاني أحد بمثل ما عزاني به هذا الرجل.

على أن المؤمن مأمور أن يسأل الله العافية في الدنيا والآخرة، وألا يسأله البلاء؛ لأن شكر الله على نعمائه أسهل من الصبر على بلائه، وفي الحديث الصحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ

عاد رجلاً من الأنصار فوجده قد صار مثل الفرخ (أي: لضعفه وهزاله) فقال رسول الله ﷺ: «**هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله؟**» قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه فهلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**». وقال رجل: يا بني الله، أي الدعاء أفضل؟ فقال ﷺ: «**سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة**، وكررها ثلاثًا والرسول ﷺ يقول له: **سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة**» وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء**».

وعلى الجملة؛ فإن المؤمن يفضل أن يعافى فيشكر على أن يبتلى فيصبر، وإذا أردت يا أخي أن تُكتب في الشاكرين فاعلم أن طرق الشكر كثيرة، وكلها - إذا وفقك الله إليها- تحقق جزاء الشاكرين: إذا ذكرت نعم الله عليك فاستحييت من ربك، وخجلت من ذنبك فذلك شكر، وإذا تواضعت للفقراء وأنت في حال نعمتك فذلك شكر، وإذا شكرت الناس على حسن الصنائع فذلك شكر، ففي الحديث: «**لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس**»، وإذا استعملت نعم الله فيما يرضيه وفيما هي له فذلك شكر، وإذا ظهر أثر نعم الله عليك فأطعمت أهلك وكسوتهم في غير سرف ولا مخيلة فذلك شكر، ورُبَّ غني شاكر خير عند الله من فقير صابر؛ لأن كثيرًا من أهل الدثور (أي: الأغنياء) لا تقل عبادتهم عن عبادة الفقراء، ثم يتفوقون على الفقراء بما يتصدقون به من أموالهم، فلا عجب إذا كان معظم العشرة المبشرين بالجنة من الأغنياء؛ لأن ذلك مكنهم أن تكون يدهم عليا، وأن ينصروا الإسلام بأموالهم ويجاهدوا بها كما كان يفعل عثمان ﷺ وطلحة بن عبيد الله ﷺ.

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ تتراوح بين مواقف من الصبر الجميل والشكر الجليل، كان معظم حياته في مكة صبرًا جميلاً حين يحمل من صنوف الأذى ما لا يطيقه عظماء الرجال. ونال في المدينة من نصر الله وتأييده ما لم ينله أعظم الأبطال، فكان بحقٍّ أعظم الصابرين وأعظم الشاكرين، وأراد الله لمحمد ألا يحرمه أجر الصابرين حتى في عهد الانتصارات بالمدينة فقد ابتلي هو والمؤمنون في أحد وزلزلوا زلزالاً شديدًا في الأحزاب، وابتلوا يوم حنين، وذلك ليظل إمام الشاكرين وقدوتهم، وإمام الصابرين وقدوتهم.

إنَّ أكبر هم المؤمن في نعمائه وضرائه ألا تكون النعماء فتنة وألا تكون الضراء غضبًا. إن رسول الله ﷺ حين ابتلي أشد البلاء في الطائف كان يرجو شيئًا هو ألا يكون ربه غاضبًا عليه، ويخشى أنه يسوق إليه ذلك العذاب؛ لأنه غير راضٍ عنه، فقد جلس وهو في أشد حالات الإخفاق والإهانة يناجي ربه ﷻ ويقول له: **«أنت رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو ينزل بي سخطك إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»**.

ولما رأى الله صدق ذلك العبد المنيب والإنسان الكامل طمأنه بعد وقت قصير أنه ليس به عليه غضب، وإن له عليه كل الرضا، فقد أسرى به إلى البيت المقدس ثم عرج به إلى أعلى رحابه، وتجلى عليه بجلاله، وفرض عليه الصلاة وهي العبادة التي هي عماد الدين، وأراه من آياته وعظمة ملكوته ليثبت إيمانه وأراه أنهار الدنيا وأرض دولها إيذانًا منه أن دينه سيظهر على الدين كله ولو كره الكافرون.

وبالصبر والإيمان تحقق له ما وعده الله به من نصر مؤزر فصبر على أشد العذاب إلى أن دخل مكة فاتحًا يدك مجد الأصنام المزيف، دخلها وهو ساجد على راحلته خشوعًا وتذللاً لله يقيم دين الله على حطام الشرك وهو يردد قوله تعالى: **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** [الإسراء: ٨١]، ألا ما أجمل سيرة محمد عبادةً وأخلاقًا ووحيًا وقرآنًا وصبرًا وشكرًا

بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۞ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۞ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۞ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾** [الإسراء: ٧٨-٨٢].

***

## من أحاديث الآداب

# شكر نعم الله تعالى

من أعظم آداب المسلم أن يجعل نعم الله ﷻ ماثلة بين عينيه، لا يزال يذكرها في كل حين فيعظم فضل الله في عينيه، وترتسم آلاؤه الله في قلبه، وبهذا يظل على كافة أحواله عبدًا شكورًا، قيل لرسول الله ﷺ: تقوم العبادة حتى تتورم قدماك وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال ﷺ: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**.

وكان الحسن -رحمه الله- يقول: اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرَّجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالمال والأهل والمعافاة، بسطت رزقنا وأظهرت ديننا وجمعت فرقتنا وأعطيتنا من كل ما سألناك، لك الحمد على قديم نعمك وحديثها وعلى سرها وعلانيتها وعلى خاصها وعامها، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

إنَّ ذكر النعم يوصل إلى شكرها، وشكر النعم مقدمة لزيادتها، إذا أكلت فاذكر كيف رزقك الله طعامك من دون حول لك ولا قوة، ثم كيف أعمل الله في طعامك آلات جسمك فاحتفظت كل بخيره وتخلصت من فضلاته، وإذا شربت فانظر كيف تناول جسمك ذلك العذب الزلال فشربته كما يشرب الورد في كئوسه زلال الندى، حتى إذا بقيت الفضلات الضارة خلصك منها، وأنت في غاية المتعة بخروجها كما كنت في غاية السرور بدخولها.

إنَّ لذة اللذات في العمر أن يظل العبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه، فتظل نظرته إلى الربِّ ﷻ بين منعم متفضل، وبين غفور رحيم.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكبرون في قلوبهم نعم الله ليكون شكرهم لها موافيًا لمزيد نعمه؛ ذهب عثمان ﷺ ليقبض على قوم عاكفين على ذنب، فلما وصل إلى مكانهم وجدهم قد تفرَّقوا من اجتماع معصيتهم قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة شكرًا لله؛ لأنه لم يكتب على يديه فضيحة مسلم.

إذا أردت أن تكون عبدًا شكورًا، فاعلم أن لجوارحك أنواعًا من الشكر تناسبها، فشكر عينيك غضهما عن العورات، ثم إذا رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإذا رأيت شرًّا سترته، أما شكر الأذنين فهو أن تفتحهما لسماع الخير وتعرض بهما عن اللغو والشر، وأما شكر اليدين فذلك بأن تستعملها لإحقاق حق أو أبطال باطل.

وكان بعض السلف يقول: «ما خلوت إلى نفسي إلا تأملت في جسمي، وما أودع الله فيه من نعم السمع والبصر والعقل والحياة، فأشعر أن لو ظللت ساجدًا له ما وفيته نعمة واحدة منها».

وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه خبر يسره أو بُشِّر بخير خرَّ ساجدًا لله على إنعامه، قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: خرج علينا رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة فخر ساجدًا فأطال السجود حتى ظننت أن الله قد قبضه إليه، ثم رفع فقال: «إِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ أَتَانِي فَبَشَّرَنِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَسَجَدْتُ للهِ ﷻ شُكْرًا».

وفي (سنن أبي داود) أن رسول الله ﷺ كان متوجهًا من مكة إلى المدينة فنزل منزلاً فرفع يديه إلى السماء فدعا الله ساعة، ثم خر ساجدًا فمكث طويلاً ثم رفع يديه ساعة ثم خر ساجدًا يفعل ذلك ثلاث مرات، وقال: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي وَشَفَعْتُ لأُمَّتِي فَأَعْطَانِي ثُلُثَ أُمَّتِي، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا شُكْرًا لِرَبِّي، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي فَسَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي فَأَعْطَانِي ثُلُثَ أُمَّتِي، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي شُكْرًا، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي فَسَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي فَأَعْطَانِي الثُّلُثَ الآخَرَ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي».

وجاء في السيرة أن رسول الله ﷺ لما جاءه مَن بشَّره بمقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له فخر ساجدًا، وسجد أبو بكر ﷺ سجود الشكر حين بلغه نبأ قتل مسيلمة الكذاب، وسجد كعب بن مالك ﷺ وهو من الذين خُلِّفوا، فأمر رسول الله ﷺ بهجرهم، سجد ﷺ لما بُشِّر بأن الله تاب عليه.

وعلى المؤمن إذا أصابه شيء أن يذكر أهل المصائب الكبيرة ليهون في عينه ابتلاء الله تعالى، وعلى العبد أن يذكر دوامًا أعظم نعم الله عليه ألا وهي نعمة الإسلام، فإنه إن ذكرها

شكرها فزاده الله إيمانًا وأتم نعمة الإيمان عليه والمنعم المتفضل ﷻ إذا أنعم أتم النعمة.

هذا، وعلى المؤمن ألا يستكثر عبادته، أو أن يمن بها، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦]. قال وهب بن منبه ﷺ: إن عابدًا عبد الله خمسين عامًا فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك. قال: أي رب تغفر لي ولم أذنب، فإذن الله لعرق في رقبته أن يضرب فلم ينم ولم يصل، ثم أمر العرق أن يسكن فشعر العابد بالسعادة، وقام ليصلي، فعلم أن نعمة سكون العروق وحدها لا تعدلها عبادة خمسين سنة. وروى ابن أبي الدنيا أن داود ﷺ قال: يا رب، أخبرني ما أدل نعمك عليَّ، فأوحى إليه: يا داود، تنفس، فتنفس، فقال له الله ﷻ: هذا أدنى نعمي عليك، يعني به التنفس وملء الصدر من الهواء الجميل.

وعلى المؤمن أن يعلم أن جنة الله لا يدخلها أحد بعمله؛ لأن كل عمل الإنسان قد لا يساوي شربة من رحيق الجنة أو نظرة إلى زوجة من الخيرات الحسان، وأن الله إنما يدخل العباد جنته بعفوه العظيم ورحمته الواسعة، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«لن ينجي أحدًا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه»**.

**وقد كان السلف - رضوان الله عليهم - إذا أصيب أحدهم بمصيبة سارع يشكر الله ﷻ على أربعة أمور:**

**أولها:** أن غيرها أكبر منها، والله لم يبتله بما هو أعظم.

**وثانيها:** أنها ليست في دينه.

**وثالثها:** أن الله رزقه معها الصبر.

**ورابعها:** أنه ﷻ كتب له ثواب المؤمن حين يبتلي فيحمد الله.

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا جزاء الشاكرين، وأن يكتب لنا ولكم عاقبة المتقين.

***

## من أحاديث الآداب

# من آداب الكتابة

الكتابة نعمة من نعم الله الجليلة، وهي موهبة من مواهبه الجزيلة، وقد قرن الله أسماء ملائكته الكاتبين بصفة الكرام، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وكان عليه الصلاة والسلام أحرص الناس على اصطفاء الكاتبين يختارهم من الأمناء ليؤدُّوا أمانة الكتابة على وجهها الأتم.

وكان عليه والصلاة والسلام لا تكاد تنزل عليه الآية أو الآيات من كتاب الله حتى يبحث عن كاتب ويلتمسه في كل مكان، فإذا ظفر به كلفه أن يكتب ما نزل من القرآن؛ لأن الكتابة أحفظ للعلم من الذاكرة، وفي المثل الحكيم: قصاصة صغيرة أقوى من ذاكرة كبيرة، ولأن الكتابة نعمة وشرف؛ فإن للمؤمن إزاءها آدابًا يلتزمها يبتغي بذلك وجه الله واستدامة النعمة وصنائع المعروف والخير.

فمن آداب الكاتب: أن يزكي نعمة الكتابة بشكرها، واستعمالها في الخير، ومساعدة غير الكاتبين بأن يكتب لهم وتقضى من كتابته احتياجهم حتى لقد كان عمر ﷺ ربما طوَّف على بعض بيوت المحاربين الغائبين ومعه دواة وقلم فسأل أهل البيوت: هل تريدون أن تكتبوا لفلان فإن البريد ذاهب نحوه، فإن أظهروا رغبة استخرج القلم والدواة ثم أملوا عليه وهو يكتب، والكاتب -والله أعلم- ملزم أن يكتب للأمي إذا قصده في كتابة خطاب أو صك أو نحوها، يقول ربنا ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ﴾.

ثم إن على الكاتب أن يربأ بنعمة الكتابة عما يفسدها من كتابة الباطل والبذاءة والتضليل كما يفعل الكُتَّاب في هذه الأيام ممن أنعم الله عليهم بنعمة الأسلوب الجميل والكتابة الفنية فجردوا أقلامهم للتضليل وأجروها لعمالة الكفر ومهاجمة الحق ونصرة الباطل.

وإن المؤمن ليتحسر في هذه الأيام حين يرى كثيرًا من حملة الأقلام من الكُتَّاب

والصحفيين يسخرون أقلامهم لإفساد العقيدة وقلب المفاهيم ومهاجمة المؤمنين ويتبعون بكتابتهم كل ناعق من الكفار وكل مهاجر من الفجار وكل مسموم دخيل من الأفكار.

لقد ابتليت أمتنا الإسلامية الوضيئة بكُتّاب احترفوا الخداع وتاجروا بسعلة الباطل، فخربوا على أمتنا مُثلها، وهاجموا تراثها، وأغروها بمبادئ الهدم وشعارات الكفر حتى أغرقوها في الأباطيل وأنسوها سواء السبيل، فتداعت عليها الأمم، وطمعت فيها شراذم اللمم حتى عاث في أقداسها الأشرار، وتنكبت شريعة الأبرار، ومن المصائب أن بعض أهل الكتابة من الطلاب يكتب على جدران الحمامات عبارات نابية فيجر على نفسه لعنة الله والناس، ومن أشد ما سمعته أن بعض بنات المدارس يقعن في الأمر حين تنبذ الحياء وتكتب ما يغضب الله.

ولا يفوتني هنا أن أنبه أهل الكتابة أن الله يحصي على كل كاتب ما يخطه بيمينه، وأن بعض الكتابة ستكون على أصحابها حسرة، إن بعض طلاب المدارس قد غفل نعمة الكتابة فكفرها وجلب لنفسه ولوالديه اللعنات حين أغراه الشيطان فاتخذ فحمة أو دهانًا وطفق يدنس جدران الناس، ويشوه منظر العمائر، ويكتب ما يغضب الله ورسوله، وما تنفر منه الأذواق السليمة والطبائع المستقيمة، تارة على أبواب المتوضآت، وطورًا على أسوار المدارس مشوهًا مناهل العلم بيد ملوثة دنسة كفرت فضل ربها، وسفهت كرامة نفسها.

ما أجمل أن يحمل المؤمن قلمه على نية أن يكتب لمن أعوزته الكتابة، فيساعده على قضاء حوائجه من حِسْبة أو طلب أو استمارة أو كتاب، وإذ ذاك يبارك الله علمه ويزكي نفسه ويحفظ عليه ما أنعم به عليه من الثقافة الشريفة، جاء في الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر التجار، ويظهر القلم**».

وإني أخشى أن ظهور القلم معناه انتشار الكتابة الفاسدة المفسدة والأقلام المأجورة الخائنة والصحافة المضللة الداعية إلى شعارات الكفر ومبادئه، وحين رأى سيدنا يوسف عليه السلام قدرته على الكتابة والحساب اللذين كان قد تعلمها في بيت العزيز طلب من الملك ذلك المركز الاقتصادي الشاق الدقيق وهو ولاية خزائن الأرزاق ليخدم مرحلة القحط التي شاهدها الملك في منامه وأولها يوسف بأنها ستستمر سبع سنين ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي**

حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقد خدم كتاب الوحي – رضوان الله عليهم- كتاب الله وكان منهم أبي بن كعب وزيد ثابت وعلي بن أبي طالب، وعثمان وحنظلة الأسدي ومعاوية وعبد الله بن الأرقم، وكان الكاتب المواظب لرسول الله ﷺ زيد بن ثابت ﷺ، وروي أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلم السريانية ليجيب من يكتب له بها فتعلمها ﷺ عنه في ثمانية عشر يومًا. وفي هذا إيعاز للمسلمين أن يتعلموا اللغات الأجنبية؛ لأنهم يقضون بها مصالح بلدهم وينشرون بها دعوة دينهم، وما أجمل أن يجوّد الكاتب خطه في هذا العصر الذي ساءت فيه معظم الخطوط، فقد قيل: الخط الحسن يزيد الحق وضوحًا.

والحقُّ أن كثيرًا ممن يتقدمون للامتحانات خسفت درجاتهم لرداءة خطوطهم، وقد فضل بعض الحكماء الكتابة على الخطابة، فقال: خط القلم يقرأ في كل مكان وفي كل زمان ويترجم إلى كل لسان، أما اللفظ فلا يجاوز الآذان.

أمر الخليفة أبو جعفر بسجن بعض الكُتاب فكتب أحدهم على رقعة نظيفة وبخط جيد ثلاثة أبيات، وأرسل بها من السجن إلى الخليفة، فلما قرأها أعجب بها وبذوق الخط فعفا عنهم، وهذه هي الأبيات:

أطال الله عمرك في صلاح ... وعز يا أمير المؤمنينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا
بعدلك نستجير فإن تجرنا ... فإنك رحمة للعالمينا

وقد كره الفقهاء أن يتخذ الإمام المسلم كاتبًا خاصًا يهوديًا أو كافرًا، ويروى أن أحد الأئمة دخل على المأمون فوجده يقرب كاتبًا يهوديًا قد اصطفاه من بين الكتاب، فقال الإمام للخليفة: يا أمير المؤمنين، حضرني بيت من الشعر في هذه اللحظة، فهل تأذن لي في إنشاده؟ قال: نعم. فقال:

إن الذي شُرِّفت من أجله ... يزعم هذا أنه كاذب

فخجل المأمون واستبدله.

## من أحاديث الآداب

# من آداب اللباس

الحمد الذي أطعمنا وسقانا ورزقنا من الطيبات، وأشهد أن لا إله إلا الله أكرمنا بدين الإسلام، وهدانا إلى الباقيات الصالحات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إمام الدنيا ورحمة الكائنات، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه أهل العزائم والكرامات.

**أما بعد**؛ اللباس من أعظم نعم الله على العباد؛ لأنه يواري السوءة، ويدفئ الجسد، وهو كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ أي: يجمل المرء كما يجمِّل الطير ريشُه، وتصورْ طائرًا أو طاووسًا يتيه بريشه وطائرًا آخر منتوف الريش ترى بَوْنًا شاسعًا بينهما من حيث الصحة والجمال والزينة، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقد أمرنا ربنا أن نتجمل بأجمل ما نملكه من الملابس، وخصوصًا إذا توجهنا إلى الصلاة في المسجد، يقول الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. (أي: البسوا أجمل ملابسكم)، وقد نزلت هاتان الآيتان لأن بعض الحجاج في الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراة اتباعًا لتقاليد بالية فنعى عليهم القرآن ذلك وقال يخاطبهم هذا الاستفهام التعجبي: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. نعم إن هذه النعم لا يمكن أن يحرمها ربنا في الدنيا، وقد جعلها خالصة للمؤمنين يوم القيامة.

إنَّ التستر من فطرة الإنسانية أما التعري فينكره العقل ولا يستسغه الذوق أن المرأة التي تتعري أو تكشف مفاتنها في الشوارع هي امرأة، قد سفهت نفسها وجهلت فطرتها، ألم تر إلى أبينا آدم وأمنا حواء تسبب الشيطان في نزع ملابسهما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، أي: يغطيان أنفسهما بأوراق أشجار الجنة لكي يواريا سوءاتهما.

**والمسلم إزاء هذه النعمة، أعني: نعمة اللباس، يلتزم آدابًا إسلامية مستقاة من معين كتاب الله وسنة رسوله، نوجزها في الأمور الآتية:**

١ - ألا يتشبه الرجل في لباسه بالمرأة، وألا تتشبه المرأة في لباسها بالرجل، فللمرأة ملابسها المحتشمة الساترة، وللرجل ملابسة النظيفة التي تعينه على العمل، يقول رسول الله ﷺ في الحديث: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**».

لقد شاع في هذه الأيام بين شباب الغرب أن يلبسوا ثيابًا مشجرةً مزخرفةً كملابس النساء، وأن تبرز المرأة كالمهرة العربيدة في ملابس الرجال كاشفة عن ساقيها، وربما كتفيها وذراعيها، مما يبعث الفتنة ويفسد القلوب، ثم صدر الكفار تلك العادات الخبيثة إلى الشباب المسلم فاستجاب بعضهم ممن في نفسه غرض وفي قلبه مرض، وصار الشابُّ كما قال الشاعر:

**لهفي على ابن الأكرمين مخنفسٌ ... رخصًا يسابق في الدلال الغيدا**
**مستعبد التفكير خلف عدوه ... كالقرد يقضي عمره تقليدا**
**بسوالف وسلاسل وأظافر ... يعصى الإله لكي يطيع يهودا**
**الشعر منسدل على أكتافه ... يتسلح الأمشاط لا البارودا**
**والضَّيِّقُ الشفاف صور شكله ... أنثى وصير عقله محدودا**
**فالكعب عال والقميص مزخرف ... وغدًا ترى خالاً له ونهودا**
**إن كان يكره للفتاة تَبَرُّجٌ ... أنكون نحن المائسين قدودا**

٢ - إذا استفاد غنى ويسر الله عليه؛ فيجب أن تظهر عليه آثار النعمة، وذلك بلبس الملابس النظيفة الحسنة، فقد جاء في الحديث الذي رواه النسائي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وعليه ثوب دون. فقال له رسول الله ﷺ: «**ألك مال؟**» قال: نعم. من كل المال قد أعطاني الله ﷻ. قال: «**فإذا آتاك الله مالاً؛ فليُر أثر نعمة الله عليك وكرامته**».

٣- إذا خرج في الأعياد والجُمع وملتقيات المؤمنين؛ فعليه أن يلبس أجمل ثيابه؛ ليبدو المسلمون وكأنهم أزهار الربيع منظرًا بهيجًا، وشذًا عاطرًا، يقول رسول الله ﷺ: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَي مِهْنَتِهِ**».

٤ - ألا يلبس الحرير إلا للضرورة القصوى كحساسية الجلد مثلاً؛ لأن للمسلم في هذه الحياة رسالة أسمى من أمور الترف والتنعم والتأنث، ولهذا نهاه الإسلام عن التجلي بالذهب

واستعمال آنية الذهب والفضة كما نهاه عن لبس الحرير، فقد جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تلبسوا الحرير؛ فإن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»، وروى أبو داود عن علي ﷺ أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريرًا فجعله في يمينه وذهبًا فجعله في شماله ثم قال: «**إن هذين حرام على ذكور أمتي**».

٥- هذا، ومن آداب اللباس أن يكون واسعًا وساترًا وخصوصًا للمرأة؛ لأن الضيق يبرز مفاتن المرأة. على المرأة أن تغطي جسدها كله ماعدا الوجه والكفين وحجاب الوجه زين للمرأة يصرف عنها العابثين، وفي المثل: «**لا يخبّأ إلا الغالي**»، ومن المعروف أن المرأة التي تستر جسدها يظل عفيًا ناعمًا بينما المرأة المتكشِّفة يخشن جسدها ويرخص فلا يعود في الأعين جميلاً، وقديمًا كان الشاعر يرى معصم المرأة وقدمها جميلاً وكفيها جميلين، ومن ذلك قول الشاعر:

**أبدت لنا من وراء السجف معصمها ... فلم نكد بحبال الصبر نعتصم**

٦- هذا، ومن آداب اللباس ألا يشذ المؤمن عن اللباس الذي ارتضاه والمؤمنون من أبناء بلده، وألا يلبس ثوب شهرة، وهو الذي يخالف الرجل به مجتمعه المسلم، فيشتهر، ولقد نعى رسول الله ﷺ على مَن يلبس ثوب شهرة، إن كثيرًا من النساء قد تبتكر أزياء غير معتادة في البلد فيكون لها بتلك الثياب شهرة حتى إنه ليعرفها كل مَن يراها.

٧- ويستحب لمن يلبس جديدًا أن يسمِّي الله عندما يلبس ويقول: «**اللهم أعطنا خيره، وخير ما هو له، وأكفنا شره وشر ما هو له**».

وأخيرًا؛ فإن أي لباس يلبسه الإنسان لا يجوز أن يتجاوز الكعبين أو يتخذ للخيلاء؛ لأن الكبرياء صفة من صفات الله العلا التي لا يجوز للعبد أن يتشبه بربه فيها، وفي الحديث الشريف ما معناه: «**لا يدخل الجنة مَن جرَّ ثوبه خيلاء**».

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

## من أحاديث الآداب

# آداب السلوك للرجال والنساء

قد ترى في هذه الأيام شابًّا يعلق في عنقه سلسلة ذهبية، ويلبس قميصًا زخارفه صارخة وسراويل ضيقة تبرزه، وكأنه بلا ملابس، وقد يزيد على ذلك فيمشي مشية النساء، ويضحك ضحكتهن، ويمضغ الكلام، وعلى الجملة، فهو يحاول جهده أن يضيع كل علائم التذكير، ويستبدل بها أساليب النساء، وقد شاع هذا الأمر أول ما شاع في بلاد الغرب ثم ما لبث أن نقله أهل التقليد الأعمى إلى ديار الإسلام، وفي الوقت الذي أقبل فيه خلعاء الرجال على أساليب النساء رأينا رد فعل في النساء؛ لأن الرجل حين يتأنث تحتقره المرأة فتسترجل، وإذا استنوق الحمل استجملت الناقة، وكما اختار بعض من لا خلاق لهم من الشباب طريقة النساء اختارت فواسد من النساء طريقة الرجال، فبرزن في الطريق عاريات، وأفسدت الشوارع والمحال التجارية بالتبرج المزري والاستهتار السافر فانقلبت بذلك مقاييس مجتمعنا حين اتخذ الإسلام وراءه ظهريًا، وشرع يضاهئ سلوك الذين كفروا.

إنَّ دين الإسلام حين حرَّم على شباب الإسلام لبس الذهب والحرير والأكل في صحاف الذهب والفضة لم يرد حرمانهم من زينة الله التي أخرج لعبادة لكنه يشعرهم بهذا التحريم أن الشاب المسلم لم يخلقه للترف المرخص والمتع الرخيصة لكنه اختار لحمل رسالة الهدى ودين الحق ليهيمن الإيمان والتوحيد على كلِّ شرك ولو كره الكافرون.

إنَّ الشابَّ المسلم يحمل في يمينه نور الهداية وينطلق إمامًا للإنسانية يدعوها إلى الخير ويسير بها إلى حيث شطآن الأمن والسعادة والعزة والكرامة، وتلك رسالة تحتل العمر كله، فلا تترك من بعد مجالاً أو فراغًا للنعومة المتأنثة والميوعة الرخصة.

ومن أجل هذه الأهداف النبيلة العظيمة أهاب الإسلام بالمرأة أن تجعل كل همها الأمومة الرحيمة والتربية السليمة، وأهاب بالرجل أن يجعل رسالته خوض الحياة بكل متاعبها وأوحالها ليحقق لنفسه بل وللبشرية سعادة الدارين.

**وهذه بعض الأحاديث الكريمة حول بعض آداب سلوك الرجال والنساء، وهو سلوك**

**يتفق والفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله:**

- جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس، انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر في المسجد**».

- وفي الصحيحين والسنن قال رسول الله ﷺ: «**لا ينظر يوم القيامة إلى مَن جر ثوبه خيلاء**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**».

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «**يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا**» وأشار إلى وجهه وكفيه.

- وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ: «**لا تلبسوا الحرير؛ فإن مَن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»، وفي زيادة: «**إنما يلبس الحرير مَن لا خلاق له**».

- وفي صحيح البخاري عن حذيفة ﷺ قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيه، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليهما.

- وفي صحيح البخاري: «**لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**». وفي رواية للبخاري: «**لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمسترجات من النساء، والمخنث لا تعني مَن تُعمل به الفاحشة، ولكن معناها المتكسر المتمايل المتثني كما يفعله النساء**».

- وروى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ لعن الرجل يلبس لباس المرأة، والمرأة تلبس لباس الرجل.

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ أُتي بمخنث قد خَضَّب يديه ورجليه بالحناء فقال: «**ما بال هذا؟**» قالوا: يتشبه بالنساء. فأمر به فنفي إلى مكان بعيد بالمدينة يقال له النقيع، وهو غير البقيع.

- وفي سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه والديوث، ورجلة النساء»**.

**أولاً**: إن فطرة الله التي فطر الخلق عليها زوّدت الرجل بخصائص وأعضاء توحي برسالته في الحياة كما زوّدت المرأة بصفات وأعضاء تتناسب ورسالتها في الحياة، ففي الذكر قوة وجلد وخشونة، وفي المرأة رقة وحنان وأمومة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.

وإن من مسخ الفطرة وتشويهها أن يغير الإنسان فطرته، وحسبك أن تتحسس فطر الذكورة في الحيوان فتنظر إلى كبش بين قطيع أو ديك بين زوجاته أو فحل من فحول المها أو الظباء بين سربه لترى أن الذكر أعظم قوة وإيثارًا ورعاية للمجموعة، في حين ترى في الإناث وداعة ونعومة، وهي حقيقة تقررها الفطرة رغم أنف الكثيرات من النساء اللائي يردن أن يغيرن صبغة الله.

**ثانيًا**: لا بدَّ أن يكون الرجل هو القوّام الأول على الأسرة، وأن تسلم المرأة له بهذا القيام، وتعينه عليه؛ لأنه أقدر على ضبط الأسرة من المرأة بما آتاه الله من قوة وبما أنفق من كسبه؛ إذ بينما تكون المرأة خضنًا رءومًا دافئًا للأطفال، وصدرًا حنونًا رحيمًا للأبناء والبنات وبينا هي تهدهدهم في الليالي ليهنئوا بنوم صحي هني. ترى الرجل يخوض وحول الحياة سابحًا في البرد والظلام يسعى لرزق الأسرة وإعفافها، ويكسب قوتها من بين ذراعي وجبهة الأسد، وعلى الرغم من قيام الرجل على المرأة؛ فإن رسالة الأم في تربية الأجيال وضعها على عين الفضائل لا تقل قداسة عن رسالة الرجل الذي يحوط الأسرة برعايته ويوفر لها العيش بسعيه.

**ثالثًا**: وقد أثبت الواقع أن الأسرة التي يكون الرجل قوامًا عليها ومصرِّفًا لشئونها تكون بإذن الله أسرة منضبطة يلزم فيها البنون والبنات حدودهم، ويعرفون واجباتهم وحقوقهم، أما الأسرة التي تحكمها المرأة ويخنس فيها الرجل؛ فيغلب أن ترى حبلها منصرمًا، وترى في بناتها وأبنائها انفلاتًا خطيرًا وانطلاقًا مرديًا، ولا غرو فالمرآة تغلبها العاطفة في أساليب التربية فيزول من أطفالها روح المهابة التي تفرضها هيمنة الأب، وقديمًا أوصى الحكيم ولده فقال: إذا أردت الزواج فتزوج ابنة رجل وإياك وابنة المرأة.

**رابعًا**: إن أمتنا العربية الإسلامية في هذه الأيام أحوج ما تكون إلى الرجولة؛ لأننا في عصر عادت فيه الإنسانية إلى شريعة الغاب وطبيعة الذئاب، وقد هتك الكفر حرمات حمانا وعاث فسادًا في أوطاننا وأقداسنا، فإذا اتخذ شبابنا في هذه الظروف سبل الهوى والضعف والرخاوة فقد استحقوا أن تنفذ فيهم سنن الله في أهل الفساد ممثلة في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

## من أحاديث الآداب

# التوبة الصادقة وطلب المغفرة

قرأنا في كتب الإغريق أوصافًا لكثير من آلهتهم، تصور أولئك الآلهة المزعومين جبابرة ظلمة مدمرين، وتصور بعضهم قساة القلوب غلاظًا لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً.

وقرأنا في كتب اليهود أوصافًا لربهم تصوره غضوبًا جارف الغضب لا يُبقي في العقوبة ولا يذر ولا يقبل عذرًا لمن اعتذر، وبخاصة إذا كان ذلك الإنسان من غير بني إسرائيل، فلما جاء محمد ﷺ بالهدى ودين الحق وصفه لنا ربنا ﷻ بأوصاف تملأ قلوبنا حبًّا وإجلالاً وشوقًا وحنينًا له علَّمنا رسول الله ﷺ أن ربنا هو الرحمن الرحيم، وأنه الحكم العدل الذي حرَّم الظلم على نفسه قبل أن حرمه بين العباد، وعلَّمنا أنه ﷻ حليم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، ومع أنه الغني عن عباده فهو يدعوهم إليه ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار كما يبسطها بالنهار ليتوب مسيء الليل، وأنه فتح أبواب التوبة أمام كل العصاة والمجرمين إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

وعلَّمنا رسول الله ﷺ أن ربنا يضاعف الحسنات ويوفي المحسنين أجرهم بغير حساب بينما يجزي على السيئة مثلها فقط وقد يمحوها بواسع عفوه، وأنه لا إله إلا هو يغفر الذنوب جميعًا مهما عظمت إذا لقي المذنب ربه موحدًا له لا يشرك بجلاله أحدًا، وأنه وهو الغني ذو الطول يفرح بتوبة عبده التائب فرحة عظيمة، وبمجرد أن يتوجه العبد نحوه يبسط له كف

القبول، وبمجرد أن يبدأ في السير نحوه يقبل ربنا عليه هرولة، وعلمنا رسول الله ﷺ أن كثرة الذنوب لا يجوز أن تؤيس صاحبها من رحمة الله، وأن العبد لو لقي ربه بملء الأرض خطايا وقلبه صادق التوحيد لا يشرك مع الله أحدًا فإن الله ﷻ يلقى ذلك العبد المسيء بملء الأرض مغفرة. قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وقال في الحديث المتفق عليه أيضًا: «إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»، وفي صحيح مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ قرأ قول الله تعالى من سورة «إبراهيم» على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقرأ من سورة «المائدة» قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه ﷺ وقال: «اللهم أمتي»، وبكى، فقال تعالى: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ شرح قول الله تعالى في سورة «إبراهيم» عليه السلام: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فقال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن الصلوات الخمس وحدها كافية أن تغسل المؤمن من خطاياه كما لو استحم خمس مرات من نهر جارٍ، وأن شهادة المؤمنين للمسلم وقيامهم على دفنه تكفي لأن يغفر الله له ذنوبه؛ ففي صحيح مسلم: «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه»، وفي الحديث المتفق عليه: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ».

لقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن الله ﷻ أرأف بعبده المؤمن من الوالدة بولدها، ومن أم الطير بفرخها، وعلَّمنا أن نحسن الظن بالله، وأن جميع أهل الجنة إنما يدخلونها برحمة الله لا بأعمالهم؛ لأن عمل العبد مهما عظم لا ينهض لثواب في مثل عظمة الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**».

إنَّ هذه الأوصاف العظيمة لرحمة الله لا يجوز أن تنسينا غَضْبة الحليم، ولا أن تؤمننا من مكر المنتقم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنعام:١٦٥].

وعلى أي حال؛ فإن قرآننا الكريم وسنة نبينا المباركة قد وصفا لنا ربنا ﷻ في صورة محببة لها هالة متألقة من الرحمة والنور تجعلنا أشد حبًّا له من كل حبيب، وأعظم احترامًا لله من كل مهيب، ولقد سئل أحد السلف: لو خيرت في القيامة أن يتولى حسابك أبوك بكل ما فيه من عطف عليك أو أن يحاسبك الله ﷻ؟ فقال: والله إني لأختار ربي ليحاسبني لأن لي فيه رجاء أن يكون أرأف بي من أبي وأمي ومن كل ذي رحمة من مخلوقاته.

إنَّ الداعية الذكي تراه في معظم وعظه يبشر ولا ينفر وييسر لا يعسر، ويعطي عن الله ﷻ أحلى الأوصاف وأجمل النعوت لتكون علاقتنا بالله في الدرجة الأولى علاقة حب لذاته العظيمة، وشوق إلى وجهه الكريم، فتلك هي الحكمة والموعظة الحسنة، كما أنها طريقة رسول الله ﷺ الذي أوصانا ألا يموت أحدنا إلا وهو يحسن الظن بالله، ويميل إلى الرجاء في وجهه الكريم غير قانط من رحمته ولا آمن مكره، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

***

## من أحاديث الآداب

# ظاهرة الكروش الكبيرة بين الناس

ترى في هذه الأيام ظاهرة في معظم الرجال والنساء الذين تجاوزوا الخامسة والثلاثين من العمر، وهي ظاهرة ضارة وداء من أدواء الغنى والرفاهية، بل لعلها هي داء العصر.. إنها ظاهرة (الكرش الكبير) وهي أمر خطير يعجل بالشيخوخة ويتعب الركبتين ويشوه منظر الإنسان، وقد كان هذا المنظر خاصًا بالعبيد؛ لأنهم لم يكونوا يجاهدون، وكان بعضهم كثير الجلوس والسرف في الأكل، فكان بعض العبيد يشبهونه بالمرأة الحبلى.

يقول أبو الطيب يصف كافور بكبر البطن:

إِنَّ إِمـــرَأً أَمَـــةٌ حُـــبلى تُـــدَبِّرُهُ ... لَمُستَضـــامٌ سَـــخينُ العَـــينِ مَفـــؤودُ

إنَّ سبب شيوع السمنة في بعض المجتمعات هو شيوع النعمة وسهولة الحصول على أنواع الأطعمة، ومن ثم كان السرف في الأكل واقترن ذلك بقلة الحركة والمشي لتوفر الركائب، فترهلت بذلك الأجسام، وتدلت الكروش حتى إن بعض الرجال والنساء قد لا يجدون في السوق ملابس تناسب أجسامهم.

إنَّ طيبات الرزق حلال، والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده لكن الإسلام وسط والمسلمون أمة وسط والسرف في الإسلام شيطنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقد جمع ربنا ﷻ الدواء بقوله في سورة «الأعراف»: ﴿وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، ونفَّر المسلمين من الإغراق في إشباع الشهوات حتى لا يحرموا طيبات الآخرة، يقول الله تعالى في سورة «الأحقاف»: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

الإسلام لا يمنع المؤمن أن يجمع من طرق الحلال آلاف الملايين على ألا تنسيه هذه النعم حق الله في المال وحق نفسه وأسرته فيه، وعلى ألا يتجاوز الحد المعقول في التمتع بطيبات

الرزق، فلقد حذر رسول الله ﷺ من الإغراق في الطعام والشراب فكان إذا أكل رطبًا جيدًا أو شرب ماءً باردًا قال لمن شاركه: «**والله لتسألن عن النعيم**»، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الإكثار من المآكل والمشارب والإمعان في الشبع.

– جاء في صحيح البخاري أن رجلاً مشركًا كان يأكل كثيرًا، فلما أسلم صار يأكل أكلاً قليلاً فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**إن المؤمن يأكل في معي واحد، وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء**».

– وفي سنن ابن ماجه والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**».

– وفي سنن الترمذي وابن ماجه أن رجلاً تجشأ (أي: أخرج ريحًا من زوره) عند رسول الله ﷺ فقال له: «**كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

– وللبخاري في كتاب (الضعفاء) عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيِّها الشِّبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم.

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**».

– وفي سنن البيهقي أن أحد الصحابة واسمه اللجلاج عاش مائة وعشرين عامًا وكان يقول: ما ملأت بطني طعامًا منذ أسلمت مع رسول الله ﷺ آكل حسبي وأشرب حسبي(أي: على قدر القوت).

– وفي سنن النسائي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة» (أي: كبرياء).

– وفي سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ رأى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها– وقد أكلت في يوم مرتين، فقال لها: «**اتخذت الدنيا بطنك، أكثر من أكلة كل يوم سرف، والله لا يحب المسرفين**».

- وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ حين بعث به إلى اليمن: «إياكم والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين». أي: ليسوا الذين يُغرقون في المطاعم والمشارب والنعومة.

**أولاً**: إذا أنعم الله عليك بمال وفير فلا تنطلق وراء نفسك تطعمها ما تشتهي؛ لأنها عندئذ ستتعود وأنت لا تأمن تحول الحال، ثم إن كثرة الطعام تقسي القلب، ولقد كان من سلفنا الصالح - رحمهم الله- أغنياء لكنهم كانوا يتقشفون ليؤثروا على أنفسهم ويصونوها عن الجشع والأنانية.

إنَّ المرء إذا أقبل على الطعام بنهم رأيته يشبه الحيوان، وفي هذا يقول ربنا جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

**ثانيًا**: الاقتصاد ليس معناه البخل، لكنه التوسط والاعتدال، وهذا خلق مدحه القرآن الكريم فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وعدَّ الله أصحاب الجنة فذكر منهم: السابق بالخيرات والمقتصد.

**ثالثًا**: إن ما نحن فيه الآن هو سرفٌ وأي سرف؛ لأننا نأكل المواد الشحمية كل يوم، ونكبُّ النعمة في الزبالة، ويجلس أحدنا على المائدة حتى لا يكاد يقوم، ويأتي الضيف الواحد فنذبح له الذبيحة الكبيرة ولا نجد من يأكلها، وننوع في المأكل والمشارب بما لا تتسع له معداتنا فيبدو علينا الكسل والميل إلى النوم، والنعمة إذا بُطرت زالت، يقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

فلا بدَّ من الاعتدال والشكر كي لا تزول النعم، وقد أسلفنا أن سلفنا الصالح كانوا أغنياء لكنهم كانوا يتخشَّنون حتى لا يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، وذكرنا أن أمنا عائشة - رضي الله عنها- وزعت سبعين ألف درهم وباتت ليلتها طاوية؛ لأنها نسيت أن تبقي لنفسها ما تشتري به عشاء، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ١٥- ٢٣].

## من أحاديث الآداب

# أمانـــة الكلمــــة

لعل من أعظم الأمانات التي حُمِّلها الإنسان فحملها ما نسميه في أيامنا هذه أمانة الحرف أو أمانة الكلمة، وأعني بذلك أمانة صون اللسان بحيث لا يقول الإنسان إلا خيرًا، ولا ينطق إلا حقًا وصدقًا ولا يكتب أو ينظم أو يؤلف إلا ما ينفع الناس، ويُبقي له ذكرًا في المحسنين، وسنة حسنة في المتقين، ولا شكَّ أن الصحفيين والمؤلفين والشعراء والأدباء هم أشد الناس مسئولية إزاء هذه الأمانة الثقيلة، وأشهد أن جمًّا غفيرًا من هؤلاء حملوا أمانة الكلمة فما رعوها حق رعايتها، ولا أدوها حق أدائها.

والحقُّ أن اهتمام الإسلام بأمانة الكلمة فاق كل تصور، وكتاب الله خير شاهد على ذلك، يقول الله ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١- ٣٢]، ثم يقول بعد ذلك مباشرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وواضح من وحي السياق أن شرف أمانة الكلمة كان سببًا في سجود الملائكة لآدم. إن معجزة محمد ﷺ كانت قولاً كريمًا، وقولاً ثقيلاً، أي: ثقيل المسئولية والتكاليف، وكلمة التوحيد على اختصارها ترجح بالسموات والأرض، وحسبك أن إبراهيم ﷺ أورث ذريته كلمة عظيمة هي كلمة التوحيد، قال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة : ١٣١]، وقال ﷻ في سورة «الزخرف»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]، أي: لعلهم يعودون دوامًا إلى التوحيد الحق كلما مالت بهم عنه الأحوال والظروف.

إنَّ الكلمة الطيبة تصعد إلى مسامع الله، يقول ربنا ﷻ في سورة «فاطر»: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** [فاطر: ١٠]، والكلمة الطيبة كما يصورها القرآن كالشجرة الطيبة الثمار تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتكون بإذنه ثابتة الأصول، سامقة الفروع، لا تزال الأمة تجني من ثمارها ما يبعث القوة والثبات، أما الكلمة الخبيثة فلا أصل لها، ولا فرع ولا نفع ولا ثمار.

- جاء في الصحيحين: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

- وفي الصحيحين أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها** (أي: ما يلقي لها بالاً وتثبت من صحتها) **يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**».

وفي رواية: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا**».

- وروى الترمذي عن ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تكثروا بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب**».

ولمالك -رحمه الله- في «الموطأ»: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم**».

- وروى البخاري ومسلم -رحمها الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**».

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان** (أي: تذكره) **فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**».

- وفي مسند أحمد من حديث أنس: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**».

**أولاً:** الصحافة في أيامنا هذه أبرز المتصدرين لأمانة الكلمة، والصحفيون الآن هم الذين يتحملون أمانة الحرف، ويتبوءون منابر التوجيه، والناس في كل صباح يتلقفون الصحافة ويتتلمذون على رجالها طوعًا أو كرهًا، ومن ثم كان الصحفي ملاكًا من ملائكة الخير والفضائل إن أحسن، وشيطانًا من شياطين الدمار والتخريب إن أساء. ويلي الصحفيين في حمل الأمانة الشعراء فالشعر كان وما زال محببًا إلى النفوس، والشعراء كانوا وما يزالون حداة لقافلة الإنسانية يرشدونها إلى سبل السلام وشطآن الأمان.

ومن الأمانة أن نعترف أن الصحفيين إلا القليل منهم وأن الشعراء إلا النزر السير ضيعوا أمانة الكلمة، وجعلوا شعارهم كسب المتاع الزائل، يتلمسونه من الجهات المشبوهة حتى لقد رأينا صحفًا وصحافيين رضوا لأنفسهم أن يكونوا أذنابًا وعملاء للأعداء، فالعدو يمد الصحيفة بالمال سرًّا وجهرًا، والصحيفة تحترف بث الأفكار المسمومة، وتخريب المُثل الاجتماعية، وترويج الأكاذيب، وهدم التراث، والإطاحة بالمعنويات.

إنني أعرف صحافيين وشعراء بخلوا أن يرطبوا ألسنتهم بكلمة واحدة من ذكر الله، وأعملوا أقلامهم وألسنتهم في هدم ديننا وتراثنا ومعالم حضارتنا، كل ذلك ليرضوا أنصار الشيطان، فينالوا منهم عرضًا رخيصًا من المال، ولو كان ثمن ذلك العرض انهيار أمتهم.

**ثانيًا**: إن المُطالع للكثير من المجلات المصورة والجرائد الشائعة يلمس حرصها الشديد على نشر المعاصي، وتضليل الرأي، وتحسين القبيح، وتقبيح الحسن؛ لتفسد على المسلمين مفاهيمهم، وتلبس عليهم دينهم، ومثل هؤلاء ينسون أو يتناسون أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ لأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه.

**ثالثًا**: يحثنا الإسلام ألا نشغل ألسنتنا بباطل القول، وأن نصون المسلمين من ألسنتنا كما نكف عنهم أيدينا، وأن نجعل نطقنا ذكرًا وصمتنا عبادة وفكرًا، وأن نتجنب الهذر من قيل وقال، وأن نطهر ألسنتنا من الفحش والبذاءة والباطل لتستقيم تبعًا لذلك قلوبنا، وأن نعلم أن علينا حفظة من الله يكتبون ما نقول وما نفعل، وأن نردد كلما تحركت ألسنتنا للقول قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

## (٢) أمانة الكلمة

من أهم آداب المؤمن ما نسميه: أمانة الكلمة، فهو أبدًا يؤديها كما أراد الله لها، ويحرص ألا يخونها مهما تبرج من حوله الرَّغب، وتجهم في وجهه الرَّهب، والمؤمن يعتبر لسانه وقلمه أمانة عظمى من الله ﷻ، يقول الله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [ق: ١٨]، ويقول فيمن يسخِّرون أقلامهم في الكذب والجدل ومسخ

الحقائق: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

لقد كانت أمانة الكلمة أول أمانة أؤتمن عليها أبونا آدم ﷺ فلما أداها على وجهها الأتم أسجد الله له ملائكته، وكرّم نبيه وذريته، يقول ربنا ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١- ٣٣]، ثم يقول بعدها مباشرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].

إنَّ الكلمة في هذه الأيام توجه الدنيا بأسرها حتى إن الأمم في هذه الأيام تخصص وزارات للكلمة تنفق عليها آلاف الملايين كوزارات الإعلام وللثقافة والتوجيه الوطني والتراث القومي، بل بلغ من أهمية الكلمة أن الوزارات كلها لا تخلو من إدارات للشئون الثقافية والتوعية، وتكاد بعض الدول تنفق على الكلمة كما تنفق على السلاح.

من أجل ذلك أمرنا الله ﷻ أن نقدر أمانة الكلمة حق قدرها، وندعوه أن يجعل لنا لسان صدق وأن يثبتنا بالقول الثابت كما يثبتنا بالعمل الصالح. ولأهمية الكلمة وجّه أعداؤنا كل كيدهم وجعلوا أكبر همهم أن يبثوا بيننا الكلمة الخبيثة ليضللوا طريقنا، ويخربوا مفاهيمنا، ويغزوا بالفساد أفكارنا، فحرمونا من الكلم الطيب الذي يؤتي أكله علمًا وأدبًا ونورًا، وعاثوا في حواشينا وأحشائنا وصدورنا يملئون علينا ثقافتنا وإعلامنا زيفًا ودجلاً وأكاذيب، وحسبك أن تلقي نظرة على ما تقذفه الصحافة ودور النشر والإذاعات والرائي من سموم قاتلة وأفكار جاهلة.

وإنَّ المتأمل في تاريخنا الحديث ليستغرب أن تبدأ صحافتنا في العالم العربي بداية نصرانية، وأن يسيطر النصارى على هوية الإعلام في مطالع هذا القرن، وأغرب من هذا أن يكون الإطار الثقافي لإعلامنا إطارًا أجنبيًا، فتنشأ الصحافة في ديار الإسلام غريبة، ثم يكون المسرح والسينما والفن كله غربيًا مريبًا، ومعروف أن الحركة الإعلامية في أكبر دولة عربية مسلمة

بدأت بداية غريبة شبه أجنبية.

ومنذ ذلك الحين جرد الآلاف من رجال الثقافة العرب ألسنتهم وأقلامهم للتجني على الإسلام ومحاولة تشويهه، وتحول قطاع كبير من الأدباء والشعراء إلى الأدب الإلحادي، فخانوا بذلك أمانة الكلمة، وأقروا بتلك الخيانة عيون الأعداء، وابتهجت الصليبية الحاقدة والصهيونية الغادرة بغربة الإسلام، وإبعاده عن الساحة العسكرية والسياسية والاجتماعية.

حتى لقد أصبح الإسلام في بعض الدول شبهة يراقب صاحبها وتشوه سيرته، لقد حوكم الدكتور نجم الدين أربكان بتهمة أنه يحاول السعي لإقامة دولة إسلامية، وطالب المدعي العام بسجنه ستة وثلاثين عامًا بهذه التهمة، ولما بلغ الخبر إلى مسامع البابا بولس الثاني ابتهج، وقال: الآن اطمأننت على هذه الدولة الحديثة التي تترك للمواطن حرية اختيار دينه، وأنا أول بابا ينحني باحترام أمام قبر مؤسسها، ويقصد بذلك الملحد كمال أتاتورك، والجدير بالذكر أن هذا البابا هو الذي برأ اليهود من دم المسيح؛ فباع بذلك دينه بالعرض الأدنى؛ لأن اليهود وإن لم يقتلوا المسيح فقد خططوا لقتله وقتلوا شبيهه. إن أمانة الكلمة في نظر المؤمن يجب أن تؤدى ولو كان في أدائها الموت المحقق.

إنَّ كلمة حق تقال عند سلطان جائر تجعل من صاحبها شهيدًا في رفقة حمزة ومصعب بن عمير وزملائهما ، لقد كان الفقيه والإمام المسلم يضع روحه على راحته ليصدع بأمر الله لا تأخذه في كلمة الحق لومة لائم، وحسبك ما تقرأه في سير أشياخنا -رحمهم الله؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام وغيرهما ممن نذورا أعمارهم لله ، فكان أن نصرهم، وغرس في القلوب مهابتهم بصدق نواياهم.

لقد كان العلم والأدب والشعر في عالمنا الإسلامي يجند كله للتوعية الإسلامية كأنه حمم بركانية يثير الهمم ويبعث الشمم، أما في حربنا مع الصليبية والصهيونية في هذه الأيام؛ فقد انقسم شعراؤنا بين جم غفير يؤيد الآداب الكافرة وبين قلة قليلة تؤيد الأدب الإسلامي، ورأينا في شعرائنا في هذه الأيام من قصر كل شعره على تقديس الرموز الكافرة المشبوهة، والغريب أن يشتغل اليهود بهتك مقدساتنا وانتهاك حرماتنا وتحطيم مثلنا وقتل إخواننا وأخواتنا وأن يشغل الشعراء العرب قرائحهم في أشعار لا تمت إلى واقعنا بشيء، وأن ينبري

الشعراء العرب الشيوعيون ليتحدثوا عن القضية الإسلامية الفلسطينية وهم المشهورون بالانتهاز والهرب.

لقد بايع رسول الله ﷺ أصحابه ألا تأخذهم في الحق لومة لائم، ثم ينبري شعراء مزيفون من العرب فيقدسون أهل الشر والانحلال والشذوذ من شعراء الكفر، وإذا كان الشعراء والأدباء والصحفيون جميعًا ملزمين بأمانة الكلمة فإن السعوديين منهم يتحملون أمانة الكلمة بمسئولية مزدوجة؛ لأنهم ينتمون إلى دولة تتشرف بتطبيق أحكام الله، وهو شرف أعيا كل دول الدنيا، ولهذا فإن الشعراء السعوديين حين تولهم دولتهم المسلمة ثقتها فتوفدهم إلى محافل القوم -أقول: هؤلاء الشعراء مطالبون أمام الله أن يلتزموا بالمبادئ السامية التي تتبناها حكومتهم، فإن لم يفعلوا ذلك وحادوا إلى طريق الفساد والمفسد فهم في نظر الإسلام خونة، يجب أن يحالوا إلى القضاء.

لقد خضعنا -يا أيها الإخوة- منذ نعومة أظفارنا إلى توجيهات صحافة كانت بعيدة عن الإسلام، وفتحنا أعيننا على الجرائد النصرانية الرائدة، وكان منها الجوائب ومحررها خليل مطران، والذمار ومحررها نسيم العازار، والأهرام لسليم وبشارة تقلا، والمقطم ليعقوب صروف، ومجلة المقتطف للرجل نفسه، والهلال لجورجي زيدان، ومصر لأديب إسحاق، والمشير لسليم سركيس، والمرصاد لأنطون سالم، فسمموا أفكارنا وشككونا في ديننا وتراثنا، وبالمناسبة؛ فأحفاد هؤلاء هم الذين انضموا في هذه الأيام إلى اليهود ليدمروا ديارنا، أفما آن بعد هذا لحاملي أمانة الكلمة أن يتقوا الله في دينهم وأمتهم.

***

## من أحاديث الآداب

# التمسك بالدين أغلى ذخائر الحياة

إنَّ من أسمى آداب المؤمن أن يعتبر دينه أغلى ذخائر الحياة، وأعظم حظوظ العمر؛ فيحرص عليه أشد مما يحرص على روحه وجسمه ونفسه التي بين جنبيه، وذلك لأن كل مصائب الدنيا تهون إذا تخطت الدين؛ إذ هي تعوض -إنْ شاء الله- مع الصبر والاحتساب، وينال صاحبها بإذن الله جزيل الثواب، ثم إن مصائب الدنيا تنتهي بالموت حين يفاجئها هادم اللذات فيضع لها نهايتها المحتومة، أما مصائب الدين؛ فتبدأ فداحتها عند الموت حين يرى الكافر ساعة موته مقعده من النار.

من أجل ذلك كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «**اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا**»، ولا غرو فبالدين الخالص تغفر الذنوب جميعًا، وبغير الدين لا يقبل عمل ولا يغفر ذنب، ومن هنا فالمؤمن يقف على ثغرات دينه كالحارس اليقظ ولا يسمح أن ينفذ إلى حماه المقدس ما يفسد صفاءه أو يذهب رواءه، من كسب حرام أو فاحشة مبينة أو ظلم لعباد الله أو معصية تغلف القلوب ران الكفر.

والحقُّ أن حلاوة الإيمان لا يذوقها إلا مَن أخلص دينه لله، وجعله غايته، ورضاء الله أسمى طموحاته، ولم يعدل بدينه غاليًا من الحياة ولا عزيزًا من الأماني يقول النبي ﷺ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

ولقد كان رسول الله ﷺ يمر على المؤمنين وهم يعذبون فإذا قال لهم: «**صبرًا، إن موعدكم الجنة**» استعذبوا نار الدنيا لينجوا من النار الكبرى، وفي صحيح البخاري أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إلا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**».

وإنما ضرب رسول الله ﷺ لأصحابه هذا المثل ليوقنوا أن دين المرء وصدق توحيده هما في نظر المؤمن أغلى من كل تالدٍ وطريف، وأن المؤمن لا ينثني عن دينه حتى لو صبَّ الكفر عليه كل صنوف العذاب. ولقد ابتلي أصحاب الأخدود بالنار ذات الوقود فكان يجاء بالمؤمن منهم فيقال له: تنجو بعافيتك إذا رجعت إلى الكفر وتكون لك عندنا كرامة فإن أبيت فهذه النار مصيرك فينظر إليها وهي تتلظي فلا تبقي ولا تذر فيلقي نفسه فيها محتسبًا عند الله روحه مستنجزًا وعد الله -جلَّ وعلا- مستبشرًا ببيعه الرابح: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، وفي حديث أصحاب الأخدود كما رواه مسلم: **«أنه جيء بامرأةٍ ومعها صبي لها فتقاعست لما رأت النار، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري؛ فإنك على الحقِّ»**.

ولقد كان رسول الله ﷺ يخشى على أصحابه الدنيا حين تقبل عليهم بنعيمها وزخرفها فتنال من دينهم وتفتنهم فتهلكهم كما أهلكت أجيال الكفر من قبلهم، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ لأصحابه: **«وَاللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»**.

وحذَّر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتأثروا إذا تغير الزمان، وآثر ذوو النفوذ أنفسهم على رعيتهم، وبيَّن لهم علاج ذلك إذا شاعت الأثرة والأنانيات فقال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: **«إِنَّهَا سَتكونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»**.

هذا، ومن أراد أن يتعلم التضحية في سبيل الدين فليتخذ قدوته رسول الله ﷺ فقد جاء في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود يروي مشاهدة رآها بعينه فيقول: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**.

ولعل أعظم الطرق في صون الدين والحرص عليه أن يقف عند حدود الله، فلا يسمح للحرام أن يدنس ماله، ولا يسمح للأهواء أن تستبد برأيه، وأن يقهر النفس ويقسرها على الانقياد لحكم الله، وليعلم أن الله لا تخفى عليه خافية من سريرة المرء وعلانيته، فإذا خلا ولم يره أحد؛ فليعلم أن الله ﷻ هو عالم الأسرار الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات

ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ثم ليتذكر فقره إلى غنى الله، وضعفه إلى قوة الله، فإذا دعاه الغنى إلى بطر النعمة أو الإغراء المعصية فليعلم أن الذي حباه النعمة قادر على أن يزيلها، وإذا دعته قدرته على ظلم الضعفاء فليتذكر قدرة الله عليه.

وما أجمل أن يتحلى المؤمن بثلاثة أنواع الصبر فيصبر على القضاء، ويصبر على الطاعة، ويصبر عن المعصية، وبالمناسبة فقد حُذِّر من صِنف من الناس يتمسك بقشور من الصبر ويغفل عن لبابه، ثم يظهر نفسه في الناس بمظهر أهل الإيمان والخشوع وقد تراه مثلاً غارقًا في الغيبة والنميمة والكذب، ومع ذلك ثم لا يستند إلى وسادة حرير لحظة واحدة؛ لأن استعمال الحرير حرام، وقد ذكر أن رجلاً كان مولعًا بالزنا ولكنه يلوم من يطيل إزاره عن منتصف الساق، ومن قبيل ذلك ما رُوِيَ من أن رجلاً اقترف الفاحشة في امرأة لكنه أمرها أن تغطي وجهها؛ لأن النظر إلى الأجنبية حرام، وسأل قوم من الأعراب الذين كانوا يقطعون الطريق عبد الله بن عمر عن دم البعوض والقمل طاهرٌ أم نجس؟ فقال: سبحان الله تقتلون النفس المؤمنة المحرمة وتتحرجون من دم البعوض والقمل.

إنَّ الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وحلاوة الإيمان إذا أشربها القلب فهي ألذ حلاوة في الحياة، ومن أجلها فضل الإمام أحمد -رحمه الله- الضرب المميت على أن يتفوه بكلمة واحدة تخالف كتاب الله وسنة رسوله.

* * *

## من أحاديث الآداب

# الأعمال الصالحة والأعمال الخبيثة

إذا كان يوم القيامة اعتبر كل من في ساحتها موقوفًا كالذي يكون في توقيف المرور متهمًا بعصيان التعليمات أو يكون في توقيف الشرطة متهمًا بجريمة، ومثل هؤلاء لا يخرجون من التوقيف إلا بكفيل، ولا كفيل للعبد يخرجه إلى الحرية إلا عمله، أما النسب والجاه والمنصب والمال والبنون فتلك أمور لا يكون لها في الموقف وجود يقول ربنا ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

والرهائن كما هو معلوم لا يطلق سراحهم إلا بمبرر، وكذلك أهل القيامة يوقفون ليسألوا، أي: ليحقق معهم وهناك لا تنفع الوسائط ولا تقبل الشفاعة إلا بإذن الله يأذن لمن ارتضى ﷻ.

هنالك يرى كل إنسان عمله على الشكل الذي يريده الله فمن الأعمال ما يكون على صورة مؤنسة كأنها ملائكة رحمة ومن الأعمال ما يأتي على صورة قبيحة كأنها أشباح شياطين نعم في القيامة تروج سوق الأعمال وتكسد سوق الأنساب ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وكما يمكث بعض الموقوفين في توقيفهم خمسين ألف سنة فقد لا يوقف آخرون إلا طرفة عين يرون أنفسهم بعدها في جنة الله يستقبلهم رضوانه ليجدوها مفتحة الأبواب كما تفتح بابك للضيف الحبيب العزيز، تحييهم ملائكة الله عند أبوابها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ويرفع ملائكة آخرون من معنوياتهم فيشعرونهم بكرامتهم ويقولون لهم: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وهل أعمالهم تساوي موضع سوط في الجنة أو شجرة من أشجار أو حورية من حورها الحسان الطاهرات؟ لا والله ما دخل الجنة عبد بعمله، لكن الملائكة تقول لأهل الجنة: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣]، كما يقول الكريم لضيفه: «نحن لا نقدم لك إلا من بعض فضلك وحقك»، مع أن الضيف ربما لا يكون قد قدَّم لك شيئًا أبدًا.

أما وللأعمال يوم القيامة هذه المنزلة، فإني محدث الإخوة عن الآداب التي يتبعها أهل الصلاح والسلوك العالي حينما يقدرهم ربهم على عمل صالح وأحب أن أذكر أن بعض العاملين يأخذ الله حسنته فيجزيه بها سبعمائة حسنة، وقد يوفي ربنا بعض ذوي الحسنات أجرهم بغير حساب، وقد يجزي على الحسنة عشر حسنات، وقد لا يقبل الله حسنات بعض الناس إطلاقًا، ويأتي بعضهم يوم القيامة فيرون لهم أعمالاً من أعمال الخير عظيمة الحجم ثم لا يكادون يرونها حتى تتلاشى من أمامهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلا يقدرون مما كسبوا على شيء، أي: لا يستفيدون مما عملوا شيئًا.. أولئك الذين أشركوا مع الله في أعمالهم الصالحة فعملوها رئاء الناس وحبًّا في المديح والشهرة وابتغاء لعرض من عروض الدنيا.

وإذن؛ فإن للأعمال الصالحة أدبًا واحدًا عظيمًا إذا حرمت منه الأعمال انطفأ نورها، وجاء صاحبها يوم القيامة بلا نور، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

إنَّ أدب جميع الأعمال الصالحة هو أن تصدر عن إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له بحيث لا يدنس نية العامل، أي: شرك بالله أو خبيئة من الرياء، وبحيث يكون شعار صاحبها وهو يعملها: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۞ قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٤].

– جاء في الحديث المتفق عليه قصة الثلاثة الذي كانوا في سفر فآواهم المبيت إلى غار، فانحدرت عليهم صخرة من الجبل سدت عليهم باب الغار، فلم ينجيهم من مصيبتهم تلك إلا ثلاثة أعمال عملوها في حياتهم خالصة مخلصة لوجه الله الكريم، أولها: عظمة بر أحدهم بوالديه، والثاني: زهد الآخر في الكسب الحرام وإرجاعه الحق بعد وقت طويل إلى صاحبه، وثالثها: عزوف الثالث عن فاحشة الزنا بعد أن تهيأ له الأمر، وخلا له الجو يفعل ذلك مخافة من مقام ربه.

– وفي الصحيحين هذا الحديث الجليل: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

- وفي صحيح مسلم: «إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا صوركم، ولكن ينظر إلى أعمالكم».

- وفي الصحيحين: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»» ومعنى الحديث الشريف من عمل الأعمال لينال بها سمعة أو عملها ليراه الناس ويمدحونه فإن الله سيفضحه ويفضح نواياه يوم القيامة ويكشف سرائره الخبيثة.

- وفي سنن ابن ماجه: «يقول الله ﷻ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك»، وفي رواية: «تركته وشركه»، أي: تركت المشرك لينال ثوابه من الذي أشركه فيَّ.

- وفي صحيح مسلم ما خلاصته: إن أول من تسعر بهم النار ويقضى عليهم رجل استشهد، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرآ القرآن، ورجل كان لا يترك سبيلاً من سبل الخير إلا انفق فيها من ماله، هؤلاء يسحبون على وجوههم حتى يلقى بهم في النار، وذلك لأولهم قاتل واستبسل ليقال: جريء، والثاني تعلم وعلم ورتل القرآن ليقال: عالم، والثالث أنفق أمواله ليقال: هو جواد.

- وفي الصحيحين: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

- وفي رواية: «ومحاها اللهُ، ولا يهلك على الله إلا هالك».

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۞ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۞ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۞ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٨].

***

## من أحاديث الآداب

## آداب المؤمن إزاء ربه

إن للمؤمن أدبًا إزاء ربه ﷻ، وإزاء أسمائه وصفاته، فمن أدبه إزاء الله ألا يشرك مع الله في عبادته أحدًا ولو كان نبيًّا مقربًا أو ملكًا كريمًا، وأما أدبه إزاء أسمائه وصفات فهو أن يؤمن بكل ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا. وألا يتعرض إلى تلك الأسماء والصفات بأي تشخيص أو تمثيل أو إنكار أو تعطيل، وأن يؤمن أن الله ﷻ له الكمال الأسنى والمثل الأعلى، وأنه هو مالك يوم الدين لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن ارتضى وأنه لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وأن بيده الخير والنعمة وخزائن الرزق والرحمة، وأن الأرض في القيامة قبضته، والسموات مطويات بيمينه، وأنه يقبض الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟!

ثم إن هذا الإله العظيم الواسع لا يمكن أن يُرى؛ لأن الذي يُرى يُحْصَر في جهة، والله ﷻ هو فوق هذا التصور، إنه يعرف بآياته ومخلوقاته، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ثم هو بعد هذا وقبله تُرى عظمته في عظمة خلقه، ويستدل عليه بما خلق وصور وأبدع، فإذا رأيت السماء علمت أن خالقها عليٌّ عظيم، وإذا رأيت البحر علمت أن خالقه واسع كريم.

ثم إن أسماء الله وصفاته نوعان: نوع ينبع من منابع الرحمة والكرم والحلم والجمال، وهذا النوع يمكن أن يتطلع إليه الإنسان ويتخذه مثله الأعلى، ويسمى به رحيمًا كريمًا عادلاً رءوفًا.

أما النوع الآخر؛ فهو الاسم الدال على الجبروت والإبداع والخلق والتصوير والكبرياء، وهذا أمر لا يشركه فيه شريك، ولا يعلم له فيه سمي كالجبار والمتكبر والخالق والبارئ والمصور والمنتقم والقابض ومالك الملك ورفيع الدرجات ذي العرش، والمؤمن إزاء عظمة الله كبريائه، وقدره وقضائه تلقاه خاشعًا مستسلمًا راضيًا بالقضاء صابرًا عليه، يرى في هذا راحة لنفسه وسكينة لقلبه وسعادة لروحه.

ومن ثم ترى المؤمن يحب ربه حب من عرفه بآلائه وشكره على نعمائه. هذا وعلى المؤمن ألا يفتأ صابرًا شاكرًا ليظل بين تلكما المنزلتين الكريمتين إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان صبره خيرًا.

وهذه بعض لقطات من السنة الكريمة المطهرة تزيد المؤمن بصيرة بعظمة ربه وعلو شأنه، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ ﷻ لاَ يَنَامُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَـهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ، عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -وَفِي رِوَايَةٍ: لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**.

والعجيب أن ربنا ﷻ وهو القادر القاهر الجبار والمنتقم يتقرب برحمته ومغفرته وجوده إلى عبده الضعيف، ويتحمل من جهالة الإنسان وكنوده شيئًا كثيرًا، وهذا درس في الحلم عظيم، يقول الله تعالى فيما يرويه عنه نبيه في صحيح البخاري: **«قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»**، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: **«قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»**.

والحقُّ أن هذا يقع فيه كثير من الناس ومن الشعراء، فربما سب إنسان آخر فلعن الزمان الذي يعطي الخير لمن لا يستحقه، وهو وإن كان يسب الزمان أو الدهر فإنه في الحقيقة إنما يسب الله الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع، وفي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: **«لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ ﷻ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ»**.

نعم إن كثيرًا من العبيد يعكف على معاصي الله وهو يدبر رزقه وصحته وستره وعافيته، وفي مسند الربيع أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: يا ابن آدم، أتحبب إليك بالنعم وتتمقت إليَّ بالمعاصي، خيري إليك نازل وشرك إليَّ صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك كل يوم وليلة بعمل قبيح منك»**.

على أن صفة واحدة من صفات الله ﷻ لا يرضاها الله للإنسان بل ويقصمه بها إذا بدرت

منه؛ لأنها من صفات الله التي تفرد بها ألا وهي الكبرياء؛ لأنها من العبد جهالة وعقدة نفسية ووقاحة، والعبد يعرف بدايته ونهاية عمره، يقول الله -تعالى- فيما يرويه عنه نبيه: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم**».

هذا، وعلى العبد المؤمن أن تكون ثقته فيما عند الله كثقته بما تملك يده لأنه ﷻ جواد كريم يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»، وفي مسند أحمد: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك. فقال عليه الصلاة والسلام: «**نور أنى أراه**».

هذا، وإن الرب ﷻ غيور على حرماته وحدوده وعلى العبد أن يكون وقافًا عند حدود الله مبتعدًا عن انتهاك الحرمات، يقول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان: «**لَا أَحَدُ أَغْيَرَ مِنْ اللهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدُ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنْ اللهِ**»، وفي صحيح البخاري حديث يوضح مدى حب الله ﷻ لهداية عبده وعظيم مكافأته للذاكرين، يقول رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**».

وعلى المؤمن أن يعلم أن الله -تعالى- وإن كان لا يُرى في الدنيا فإنه يُرى يوم القيامة؛ لأن طبيعة الناس في البعث تتغير، ففي الصحيحين أن الناس سألوا رسول الله ﷺ: هل نرى ربنا يا رسول الله يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون الشمس ليس دونها سحاب**، فقالوا: لا يا رسول الله. قال: «**فإنكم ترون ربكم ﷻ يوم القيامة كذلك**»، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾.

**وبعد**؛ فإذا أردت أن تكون غاليًا محترمًا عند الله فأَعْلِ أوامره، واحترم غيرته؛ لأن منزلتك عنده كمنزلته عندك، فأعزَّ أمر الله يعزَّك الله، وإياك أن يراك الله في أيامه ومواسم تجلياته عاكفًا على المعاصي. يناديك إلى رحابه فتبتعد عن أبوابه؛ لأن العمر فرص ما يضيع منها قد لا يعود أبدًا؛ فكن مستعدًا للقاء الكريم، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

## من أحاديث الآداب

# الأسرى ومعاملتهم

طلع نور الإسلام على الناس وهم في شريعة غاب، وعيشة ضنك، يسيطر عليها ظلم الأقوياء. تؤكل الأموال فيها بالباطل، وتسفك الدماء بالعدوان، وتغير القبائل بعضها على بعض، فتراهم بين واتر وموتور، وتداس فيها كرامة الضعيف، حتى إذا جاء هذا النور الشافي شرع من الدين ما وصَّى به رسل الله منذ فجر الرسالة، ومدَّ يد العون إلى كلِّ ضعيف ينصره ويقويه حتى ينال حقه، حتى لقد قال سيدنا أبو بكر ﷺ في أول خطبة: «ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه»، وشرع الإسلام الجهاد وهو حرب شعاره إحقاق الحق لتكون كلمة الله هي العليا، وجعل للحرب آدابًا ذكرناها في حلقات سابقة.

**وإني ذاكر هنا -إنْ شاء الله - أحاديث كريمة تتعلق بالأسرى ومعاملتهم ليعلم كل قارئ أن الإسلام سبق كل مواثيق الحضارة الحديثة التي صدرت عن المجتمعات الدولية المتحضرة بأكثر من ألف وأربعمائة عام:**

وما أجمل ما قال شوقي -رحمه الله- وهو يتحدَّث عن مشروعية الحرب في الإسلام:

الحَربُ في حَقٍّ لَديكَ شَريعَةٌ وَمِنَ السُّمومِ الناقِعاتِ دَواءُ

- جاء في صحيح مسلم أن ثمانين مقاتلاً من قريش هبطوا على النبي وصحبه من جبال التَّنعيم عند صلاة الفجر ليلة الحديبية لينالوا من المسلمين غرة ويقتلوهم، وأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا متيقظين فأحاطوا بهم وأسروهم وجاءوا بهم أسرى إلى رسول الله ﷺ فأمر عليه الصلاة و السلام بإطلاق سراحهم.

- وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأهل مكة يوم الفتح: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

- وفي حديث أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«فكوا العاني (أي: أطلقوا الأسير)، وأجيبوا الداعي، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»**.

- وفي السيرة النبوية أن زعيم اليمامة ثمامة بن أثال وقع أسيرًا في أيدي المسلمين، فجاءوا

به إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أحسنوا إساره**»، ثم قال: «**اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه**»، ثم قدم لهم النبي الكريم لقحته الخاصة فكانوا يقدمون إلى ثمامة لبنها في الصباح والمساء.

ثم إن النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام فأبى وعرض الفداء، وقال للنبي الكريم: اطلب ما شئت من المال، لكن النبي ﷺ مَنَّ عليه وأطلق سراحه بدون فداء، فكان ذلك التصرف الحكيم سببًا في دخوله الإسلام، ومنعه بيع القمح للمشركين في مكة، وكانت نجد مشهورة إذا ذاك بقمحها.

وفي غزوة بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في أسر المسلمين فلحقها أبوها ليفتديها بعدد من الإبل، ولما وصل رأى من أخلاق رسول الله ﷺ ما أعجبه، ثم نبأه الرسول ﷺ أنه خبأ من إبل الفداء بعيرين وأمره بإحضارهما، وإذ ذاك أسلم؛ لأن ذلك الأمر حصل منه سرًا ولم يطلع عليه أحد، وأسلم معه ولدان له كما أسلمت جويرية -رضي الله عنها- فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها فصارت من أمهات المؤمنين، ومن بركات زواجها أن رسول الله ﷺ أعتق مائة من أهل بيت قومها. وفي هذا تقول عائشة - رضي الله عنها-: ما أعلم أن امرأة كانت أعظم بركة على أهل قومها من جويرية.

وروى مسلم وأبو داود أن قبيلة ثقيف كانوا حلفاء لقبيلة عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من المسلمين، وأسر الصحابة رجلاً من قبيلة عقيل، وأصابوا معه ناقته وتسمَّى العضباء. فمر عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق. فقال: يا محمد، فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**» فقال: بم أخذتني؟ وبم أخذت سابقة الحاج (يعني بأي حق أسرتموني وغنتم ناقتي السريعة)، فقال رسول الله ﷺ: «**أخذناك بجريرة حلفائك ثقيف**»، ثم انصرف عنه، فطفق الرجل ينادي: يا محمد، يا محمد، وكان عليه الصلاة والسلام رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه وقال له: «**ما شأنك؟**» فقال: إني مسلمٌ. قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**»، ثم إن رسول الله ﷺ فدى الرجل بالرجلين اللذين أسرتها ثقيف.

**أولاً**: شرع الإسلام الرفق بالأسرى وإحسان معاملتهم، بل لقد بلغ الذروة حين أوصى بإيثارهم بالطعام فقال في مدح الأبرار فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

﴿وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]، وانظر إلى معاملة النبي ﷺ لثمامة بن أثال الحنفي، وكيف آثره بلبن لقحته مع أن ثمامة كان فاتكًا.

**ثانيًا:** كانت سنة الجاهلية في الأسرى أن يُسترقوا أو يُحبسوا إلى أن يفتدوا فجاء الإسلام وشرع المن على الأسير بالعتق دونما فدية، قال تعالى في سورة «محمد»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وقد رأينا في الحديث الكريم أن النبي ﷺ منَّ على الثمانين الذين انقضوا على جيش المسلمين ليلة الحديبية كما منَّ على جميع أهل مكة فلم يطلب منهم فدية، فشرع بذلك الحضارة العسكرية وعلم الدنيا رحمة العبد للعبد، ونبذ الكراهية والحقد.

**ثالثًا:** حكم الإسلام في الأسرى أنه يترك أمرهم للحاكم المسلم ليستشير بشأنهم، ويقدر العقوبة أو يقرر المن، وذلك لأن الأسرى تتفاوت مواقفهم من الإسلام وعداوتهم له وبأسهم ضده، ولهذا فقد أمر رسول الله ﷺ بضرب أعناق بعض الأسرى من طواغيت الكفر الذين لا ترجى أوبتهم إلى الحق، والذين آذوا رسول الله ﷺ، ورأيناه ﷺ يقبل الفدية كما فعل بأسرى بدر، وفي كل مرة كان يقدر عقوبة الأسير على قدر عناده، وعلى ضوء مصلحة الإسلام.

**رابعًا:** النساء والصبيان إذا وقعوا في أسر المسلمين. عاملهم الحاكم المسلم معاملة المثل بالمثل، فإن كان قومهم ممن يسترقون أسراهم ويعتبرونهم سبيًا عوملوا بالمثل، على أن الإسلام كان دوامًا مع المن والإحسان كما فعل رسول الله ﷺ بسبي هوازن بعد معركة حنين حين منَّ على جميعهم وسلمهم لذويهم ودفع أموالاً لمن أصروا على الاحتفاظ بهم حتى أعتقوهم. كان ذلك حين قبل فيهم شفاعة أمه من الرضاع حليمة السعدية وأخته من الرضاع الشيماء.

والخلاصة أن للحاكم المسلم عند جمهور العلماء الحق في معاملة الأسرى بإحدى ثلاث: المن والفداء والقتل، وهو في كل ذلك يتحرى مصلحة الإسلام والمسلمين.

***

## من أحاديث الآداب

# تشبُّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال

من الآداب التي يلتزمها المؤمن أن يعتز برجولته في لباسه وكلامه ومشيه، والحرص على بنيته ورياضته، فلا يبدو منه أي تشبُّه بالنساء أبدًا، وهذا الأمر أيضًا من آداب المرأة المؤمنة، فهي تحترم أنوثتها وحياءها وزيها المحتشم الساتر وتبتعد جهدها عن التشبه بالرجال إلا إذا كانت في الجهاد، فإذ ذاك لا حرج أن تتحول فارسًا صنديدًا من فرسان الإسلام.

ويرى الأشياخ أن تشبه الجنس بالجنس الآخر حرام؛ لأن رسول الله ﷺ شدد النكير في هذا الأمر حتى وصل به إلى اللعن، فقال في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**».

هذا الأمر قد شاع في أيامنا هذه، فأصبحت ترى في مجتمعاتنا العربية شبابًا رخصًا مائعًا في كلامه في لباسه وتسريحة شعره وزخرفة ملابسة، وتراه إلى ذلك يكشف عورته ويعلق في رقبته سلسلة ذهب وترى فيه أنوثة في ألفاظه وضحكاته حتى لينطبق عليه قول أبي نواس وهو يصف بعض المتأنثين من غلمانه فيقول:

القد قد غلام ... والدل دل فتاة

ولقد رسم بعض الشعراء صورة لبعض هؤلاء فقال:

لهفي على ابن الأكرمين مخنفس ... رخصًا يسابق في الدلال الغيدا
بسوالف وسلاسل وأظافر ... كالقرد يقضي عمره تقليدا
الشعر منسدل على أكتافه ... يتسلح الأمشاط لا البارودا
والضَّيِّق الشفاف صير شكله ... أنثى وصرر عقله محدودا
فالكعب عالٍ والقميص مزخرف ... وغدا ترى خالاً له ونهودا
إن كان يكره للفتاة تبرُّج ... أنكون نحن المائسين قدودا

**هذا الأمر -أعني: التشبُّه - تترتب عليه أحكام أحببت الخصها فيما يأتي:**

**أولاً**: يحرم على الرجال المسلمين لبس الحرير والذهب. قال رسول الله ﷺ **«أحل الذهب والحرير للإناث من أمتي وحرم على ذكورها»**، وحرم على المؤمن أن يلبس ثوب شهرة وثوب الشهرة (زي غريب يلفت الأنظار من عجابة طرازه)، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه: **«من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة»**.

والحق أن رسالة المؤمن في الحياة أسمى من النعومة والتأنث والإغراق في الترف؛ لأن أمة الإسلام أمة تضحيات وجهاد رسالتها نشر دين الله، والدعوة إلى الله على بصيرة وبذل الأرواح لله حتى يظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون.

**ثانيًا**: كما يحرم على المؤمن أن يجر إزاره أو ثوبه بطرًا أو كبرياء؛ لأن بطر النعمة يزيلها، وشكرها يزكيها، ولا بأس أن تجر المرأة رداءها إمعانًا منها في التستر والاحتشام، قال رسول الله ﷺ: **«ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار»**.

ومن التشبُّه أن يلبس الرجل نعالاً أو حذاءً أو ثوبًا خاصًا بالنساء، وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله الرجل يلبس لبس المرأة. والمرأة تلبس لباس الرجل»**، وإنما حرم الإسلام إسبال الثوب لما في ذلك من شبهة الترف، والإسلام دين الخشونة والرجولة لا دين الضعف والترف والتأنث.

**ثالثًا**: التختُّم بالفضة للرجال والنساء حلال، أما التختم بغيرهم من المعدن من حديد أو صفر فهو مكروه، أما التختم بالذهب فهو على الرجال حرام، ورخَّص رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير في لبس الحرير لحاجة ألمت بهما.

**رابعًا**: لا يجوز الخضاب أي خضاب اليدين بالحناء ونحوها للرجال، ويجوز للمسلمات المتزوجات من قبيل التزين للزوج على ألا يكون نقشًا.

**خامسًا**: وكان عليه الصلاة والسلام ينهى عن المعصفر من الثياب، وعن الأحمر الصارخ منها لما في زخرفة الثياب من تشبه بالنساء، فقد روى أبو داود والترمذي أن النبي علية الصلاة والسلام مرَّ عليه رجل يلبس ثوبين أحمرين فسلم فلم يرد عليه النبي ﷺ، وأما الأحمر المعقول الحمرة فلا بأس بلبسه، وقد شاع في هذه الأيام أن يلبس الفتيان ثوبًا مشجرًا

كثيرًا الزخرفة كأنه ثوب المرأة، وهذا حرام قطعًا لما فيه من التشبه المعيب.

وعلى كل حال؛ فالله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مطعمه ومشربه وملبسه وطيبه وسكنه، لكنه ﷻ يكره السرف والبطر واستخدام النعم في المعصية وذرائعها مما يصرف الرجل عن رجولته والمرأة عن عفافها.

## من أحاديث الآداب

## العزة بالإسلام

الحمد لله الذي خلق كل شيء بقدر، وأشهد أن لا إله إلا الله، إليه المرجع وإليه المستقر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، علَّمنا أن الله هو الأجل الأكبر، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه ذوي التاريخ الماجد الأغر.

**أما بعد**؛ لا يمكن أن يرضى المؤمن بالذل، وأن يعطي الدنية من نفسه، لا تنحني هامته إلا للذي ركبَّها، ولا يعنو وجهه إلا للحي القيوم، وهو إنما يفعل ذلك لأن الله كرمه بالإنسانية وأعزه بالإيمان، لقد سمع قول الله فوعاه واستجاب للحق حين دعاه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]. كان المؤمن يعي ويفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وكان يستجيب لنداء الحق جل علا: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

هذا هو منهج حياة المؤمن عزة بالإسلام واعتصام بالإيمان وثبات كثبات الطرد الشامخ للريح العاتية كلما ألح الخطب وعظم الامتحان وتفاقم البلاء.

وفي هذا يقول الشاعر في مدح أصحاب محمد ﷺ:

كم سقوا موضع السجود دموعًا ... وأعلوا القنا دماءً زكية

فلهم في الدجى بكاء حزين ... ومع الصبح غضبة مضرية

والمتأمل في شجاعة السلف الصالح من أجدادنا وفي عزة أنفسهم وكرامتها يجد لذلك

سببًا واحدًا ألا وهو إيمانهم العظيم بقضاء الله وقدره.. كانوا يؤمنون إيمانًا لا حدود له بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وما دامت الأمور كلها تجري بمقادير فلماذا يذل الإنسان نفسه؟! ولماذا يسقط حرصه كرامته؟! إذا آمنت أن رزقك في السماء، وأن أجلك في الكتاب، وأن أحدًا في كل هذه الدنيا لا يمكن أن ينفعك إلا بإذن الله، ولن يضرك إلا بما كتب الله، إذن؛ فلماذا الحرص المردي والطمع الشحيح والهلع وراء المطالب؟!

لا عجب إذن إذا رأيت الصحابي المؤمن ربعي بن عامر وهو صحابي من أسلافنا يقف أمام ملك الفرس وقائدهم ليقول له حين سأله الملك: ما الذي جاء بكم من صحرائكم إلى ديارنا: جئنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ولما قال له العلج: فإذا قتلناكم قبل ذلك. قال له: إننا عندئذٍ شهداء ننتقل من فانية إلى باقية، ومن دار مكابدة إلى دار مثوبة.. وانظر إلى المعنى الجليل في قول الصحابي: جئنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله.

لقد كان من سُنة السلف الصالح -رضوان الله عليهم- أن يؤمنوا بالقدر خيره وشره دون أن يناقشوا فيه أو يوغلوا في استقصائه؛ لأن الله ﷻ لا يُسأل عما يفعل، وكل من عداه قد يُنتَقد ويُسأل.

**وإني موردٌ هنا هذه الطائفة العطرة من كلام رسول الله ﷺ مما يدور حول القضاء والقدر لعله ﷻ يجعلنا وإياكم ممن يرضون بقضائه رضا لا يخالطه سخط، ويطلبون رزقه في غير حرص مهين ولا شح مطاع:**

- جاء في سنن أبي داود -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»، والقدرية فئة يحمِّلون قدر الله كل مآثمهم وجرائمهم.

- وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: «أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ

عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ».

– وفي صحيح مسلم حديث عظيم يوصي المسلم أن يأخذ للأمر عدَّته، ويستعمل العقل والحزم في تنفيذ عزائمه ثم يرضي بعدئذ بما يقدره الله مهما كانت النتيجة: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

– وفي الحديث الصحيح الذي رواه الجماعة قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا؛ فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» (أي: غلبه في الحجة).

– وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة».

– وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء».

– وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ».

– وفي سنن أبي داود والترمذي عن عبادة بن الصامت ﷺ أنه قال لابنه عند الموت: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب. قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء».

حين آمن السلف الصالح بقضاء الله العظيم لم يعرفوا الفرار ولا الذل ولا الهزيمة، فكان النصر والفتح والتمكين، ثم لما كان حب الدنيا وكراهية الموت والتعلق بالحطام ابتليت أمتنا بالهزائم حتى لقد هزمها أذل أهل الأرض وهم اليهود.

**خلاصة القول:** إن الإسلام ربى سلفنا الصالح على الإيمان بقدر الله وعلى الرضا بقضائه، وبهذه التربية عزت نفوسهم فما دانت إلا لرب السماء والأرض، وأبدوا من صنوف الشجاعة الأدبية والقتالية ما أوقف المؤرخين الأجانب حيارى، قيل لعمر ﷺ حينما زار الشام في طريقه إلى بيت المقدس: إن أهل هذه الديار مردوا على عادات القياصرة فهم يهتمون باللباس وتأخذهم المظاهر، فلو تركت كساءك ولبست حُلة فاخرة لتملأ أعينهم وقلوبهم معًا، ويبدو أنه ﷺ وافق أول الأمر لكنه حين رأى نفسه في الحلة خلعها وقال: أحضروا لي ثوبي، نحن قوم أعزنا الله بهذا الدين فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، رضي الله عن أولئك الغر الميامين، وأرضاهم وألهمنا وإياكم أن نسير على منهاجهم وهداهم.

## من أحاديث الآداب

### النية الصادقة والإخلاص لله

إنَّ أجمل وصف يوصف به المرء أن تقول: إنه مخلص، وإن أقبح وصف تنسبه إلى إنسان أن تقول: إنه غاش أو مراءٍ أو منافق، ولا غرو فالإخلاص هو ملاك الدين وقاعدته وعماده. وهو أمر الله لجميع أنبيائه، ولكل من آمن معهم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، ولأمر ما كانت سورة «الإخلاص» عند الله تساوي ثلث القرآن مع أنها سطر واحد فيه خمس عشرة كلمة.

الإخلاص هو أن تكون صلاة العبد ونسكه ومحياه ومماته خالصة لوجه الله لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا نفاق، والإخلاص هو أساس القبول فيه قد تتحول التمرة إلى مثل جبل أحد، وبدونه تكون الأعمال كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلم تبق منه ذرة.

الإخلاص هو أن تجعل توجهك وكل وجهتك إلى الله غير ملتفت إلى أي شريك من سلطان أو نبي أو ملك، وما أجمل وأورع التعبير عن هذا المعنى في قوله تعالى في سورة

«يونس»: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٥، ١٠٦].

وانظر إلى عظمة العبارة المعبرة عن الإخلاص في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

إنَّ أعظم ما يحرص عليه الملوك من رعيتهم هو (ولاء القلوب) فلو أن مواطنًا عُرف بولاء قلبه لأولي الأمر ثم وقع في معصية مما يغضبهم لكان له من ولاء قلبه ما يشفع له لديهم، وعلى النقيض من ذلك مواطن يقدم للدولة خدمات جليلة ثم يتضح بعد ذلك أنه يعطي ولاء قلبه لغير مليكه أو يعمل عينًا على بلاده.

ولله ﷻ المثل الأعلى فهو ملك الملوك، وهو أغير من كل غيور على ولاء القلوب من عباده، فإذا تحقق للمؤمن ولاؤه لله وحده، وتهيأ له صفاء توحيده من أي شائبة فكل ذنوبه عندئذ إلى مغفرة وليس له عند الله جزاء إلا الجنة.

لقد لفت أنظار الأشياخ -رحمهم الله- ملاحظة وقفوا عندها طويلاً وهم يفسرون قوله في آية سورة «الذاريات»: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فقالوا: إن الله ﷻ قد خلق الإنسان مستخلفًا في هذه الأرض ليعمرها بكافة وسائل عمرانها من زراعة وصناعة وتجارة ورعي وصيد في البر والبحر وإنجاب ذرية وتربيتهم، فكيف نوِّفق بين هذه الحقيقة وبين ما جاء في الآية الكريمة بأن الإنسان ما خلق إلا لغرض واحد ألا وهو عبادة الله، ولكنه ﷻ فتح عليهم بالجواب الصحيح، وهو أن العبادة لا تقتصر على الركوع والسجود والتهجد والنسك والصوم والزكاة، فتلك حقًّا عبادات جليلة، ولكن إلى جانب هذه فإن كل عمل من أعمال ابن آدم إذا أراد به وجه الله، فإنه حينئذ عبادة، ومن هنا يتحول النشاط البشري كله عبادة إذا اقترن بإخلاص النية لله ﷻ.

إنَّ المؤمن المخلص لله يعبده بزراعته وبتجارته وبصناعته وبسعيه في الرزق لإعالة عائلته، إنه يعبد الله حتى وهو يستمتع بزوجته مبتغيًا بتلك المتعة أن يعف عن الحرمات، وأن ينجب الذرية الصالحة، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ في قوله: **«وفي بضع أحدكم صدقة»**.

نعم إن المتعة الحلال تتحول صدقة حين يبتغي بها صاحبها العصمة من المتعة الحرام. وبذلك تجلى تفسير الآية العظيمة حين وسع الأشياخ مفهوم العبادة ولم يحصروها في التركع والتسبيح.

إن الحسنات عند الله بعضها بعشر حسنات وبعضها يتدرج إلى سبعمائة ثم يرقى بعد ذلك ثواب الحسنة حتى تصبح بغير حساب، قال الله تعالى في سورة «آل عمران» وهو يحكي عن الرزق الذي كان زكريا يراه عند مريم: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]، وقال تعالى وهو يتحدث عن عُمّار المساجد في سورة «النور»: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٨]، وفي فضل الصابرين يقول تعالى في سورة «الزمر»: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وإنما تتفاوت الحسنات في ثوابها على قدر ما يصحبها من إخلاص النية لله، وانظر إلى الحديث المتفق على صحته حول ارتباط العمل بالنية، وانظر إلى أسلوب التوكيد والقصر باستعمال كلمة (إنما): «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى...».

– وفي صحيح مسلم ما يفيد أن النية الصادقة والإخلاص لله يحققان للمؤمن فضيلة الجهاد وثوابه حتى ولو لم يخرج للجهاد، فقد قال في إحدى الغزوات لأصحابه: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض**».

– وفي صحيح مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

– وفي أهمية النية يقول النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما، فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**».

– وفي الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**».

- وفي صحيح البخاري ما خلاصته أن أحد الصحابة وضع دنانير عند رجل في المسجد ليتصدق بها عن صاحبها، فجاء ابن الصحابي إلى المسجد فناوله المؤتمن الدنانير يظنه فقيرًا فقال رسول الله ﷺ: «لك ما نويت يا يزيد، ولك ما نويت يا معين»، ويزيد هو الأب الذي دفع الدنانير، ومعن هو الابن الذي أخذها.

- أسأل الله لي وللإخوة القراء أن يصلح نوايانا ويحقق إخلاصنا وينقي قلوبنا من كل رياء وسمعة وأن يجعل كل أعمالنا خالصة مخلصة لوجهه الكريم، وأن ينورها بالتقوى التي يتحقق بها القبول كما جاء في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١، ٢].

## من أحاديث الآداب

# فضل النية الصالحة

من الآداب التي يلازمها المؤمن ويحرص عليها حرصه على المال الصالح والولد الناجح، خلق كان يتواصى به المصطفون الأخيار ألا وهو (نية الخير)، وذلك بأن يظل المؤمن على كافة أحواله جميل القلب والأحاسيس كأنما قلبه طاقة من أزهار الخمائل يتحف العيون منظرًا رضيًا، ويهدي الأنوف شذًا عبقريًا. قال عبد الله بن الإمام أحمد لأبيه يومًا: أوصني يا أبت. فقال: يا بني، انو الخير؛ فإنك لا تزال بخير ما نويته.

ومع أن الوصية كلمتان؛ فهي من أعظم الوصايا؛ لأنها سهلة التنفيذ دائمة الثواب، فما أسهل أن يتحلى المرء بالمقاصد النبيلة والنوايا الجميلة، ولا خلاف بين العلماء أن المؤمن يثاب بنيته، والحديث الصحيح معروف حين قال رسول الله ﷺ لجلسائه يومًا: يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة، وإذا رجل من الأنصار يدخل وكرَّرها رسول الله في اليومين التاليين والرجل نفسه يدخل، وعندئذ أعمل عبد الله بن عمر حيلته فتمكن أن يبيت عند الرجل ورصد كل أحواله فلم يجد له عبادة متميزة ولا قيامًا طويلاً، ثم لما سأله عن عمله الذي هيأه لتلك البشرى التي ذكرها رسول الله ﷺ قال: لا أعلم لي عملاً غير ما يعمله القوم غير أني لا

أعلم أني بت ليلة وفي قلبي غل لمسلم.

وهنا يبرز سؤال وهو: هل يثيب الله عبادة أو يؤاخذهم على ما يجول في قلوبهم؟

والجواب: أن كل ما يهم به المؤمن من قول أو عمل حسن، وكل ما يضمره المؤمن في قلبه من ذكر الله وحب المؤمنين وعشق الخير، أقول: كل هذا يكتب للمؤمن حسنة، ولو لم يتلفظ به، لكن حين يخرج إلى حيز القول أو العمل يكتب عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وقد قيل: نية المؤمن خير من عمله. والنية تسبق العمل فتكون الأعمال بالنيات، وكما يثاب المرء على نواياه الصالحة؛ فإنه -والله أعلم- قد يعاقب على أعمال قلبه الخبيثة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فإذا أسكن الرجل قلبه خبائث الأحقاد وبواطل الهوى والسخط على القضاء والحسد الأسود والطمع والنفاق والرياء والإعجاب.

فإن هذه كلها -والله أعلم- إذا أشربها القلب تكسب صاحبها إثمًا، قال الله تعالى يذكر نبيه يوسف ﷺ: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ فانظر كيف آخذ الله نبيه يوسف ﷺ بعمل لم يعمله، ولكنه جال بقلبه وهو نية الركون إلى غير الله ونسيان ذكر الله.

أما أفعال القلوب التي لا يؤاخذ الله عليها؛ فهي خواطر النفس التي يملك الإنسان ردها بل تفرض نفسها عليه في هواجس صلاته، وقبيل منامه وفي بعض أمنياته وتمنياته وتصوراته وأحلام يقظته، فتلك أمور والله أعلم يغفرها الله بواسع رحمته.

على أن هنالك مواقف وأزمنة وأماكن قد يؤاخذ الله فيها العبد على مجرد نية السوء فيها ففي مشاعر الحج مثلاً وفي مقدمتها المسجد الحرام إذا بيَّت إنسان نية خبيثة كنية قتل أو سرقة أو إفساد ثم لم يتمكن من تنفيذ ما بيته فإن الله يؤاخذه ويعاقبه على مجرد إرادته وعزم قلبه قال الله تعالى يذكر بيته العتيق: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

فانظر كيف أن مجرد إرادة الظلم ترتب عليها عذاب الله حتى ولو لم تخرج إلى حيز التنفيذ، وكذلك من بيت للحجيج مؤامرة أو تخريبًا في مواطن ازدحامهم، فإن لمثل هذا عذابًا أليمًا، وأحبط الله كيده وأبطل ما بيته، وهذا مذهب عدد كبير من الصحابة بأن من بيَّت سوءًا

في رحاب المناسك؛ فله عذاب أليم بمجرد نيته السيئة حتى ولو لم يقدر على إنفاذ السوء، قال ابن مسعود: «ولو أن رجلاً همَّ بخطيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، ولكن لو أن رجلاً بيَّت قتل مؤمن في بيت الله الحرام وهو تعدٍ به؛ أذاقه الله من عذاب أليم».

وينطبق هذا -والله أعلم- على كلِّ مَن يخطط لإفساد ديار المسلمين أو مصادر أقواتهم أو يهم بتسميم زراعتهم أو تفجير مصانعهم، فكلُّ مَن يخطط أو يبيِّت ثم لم يستطع التنفيذ؛ فإن له عذاب الله على مجرد نية قلبه. قال أحد الأشياخ: إنَّ الرجل يهم بالخطيئة أن يفعلها بمكة ويكون هو بعيد بأرض أخرى؛ فيكتبها الله عليه.

وقال أحمد: السيئة بمثلها واحدة بواحدة إلا سيئة تقترف بمكة المكرمة فإنها تضاعف لتعظيم هذا البلد الآمن، وما أجمل أن يجعل المؤمن قلبه مشكاة وضيئة مضيئة وباقة عطرة شذية، فينوره بنور الله ويجمله بنوايا الخير والعدل والإحسان والمعروف.

وما أجمل أن يحمي المؤمن قلبه من النوايا السُّود التي تغلِّفه بران المعصية الآسن، وتقتله بالحسد قبل أن تصل شرور حسده إلى أعدائه.

***

## من أحاديث الآداب

# أوليـــــــــــاء الله

إنَّ أهل السُّنة والجماعة يؤمنون بأن لله أولياء يصطفيهم من عباده، ويعتبرهم من حزبه الغالب المفلح، وينصرهم بنصره، ويؤمنهم بأمنه، ويعادي من يعاديهم، ويكرمهم ربهم بكرامات من عنده، وهؤلاء الأولياء ورد لهم ذكر عالٍ في كتاب الله وسنة نبيه. أما ما ورد من ذكرهم في كتاب الله فآيات كريمة جميلة من سورة يونس هي قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

إذا أردت أن تكون من أولياء الله فانظر ذلك التعريف المجمل الجميل الذي ورد في الآيات الثلاث الكريمات نفسها، إن أولياء الله كما جاء في الآيات هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، أولياء الله لهم صفتان رئيسيتان تحكمان أخلاقهم وحركاتهم وتصرفاتهم وجميع سلوكهم، الإيمان الصادق الذي لا يغيب من قلب الولي نوره، والتقوى التي تنبع منها كرامته.

هذا، ولأولياء الله كرامات ذكر ربنا بعضها؛ ففي سورة «آل عمران» ذكر ربنا ﷻ أنه أكرم السيدة مريم -عليها السلام- بكرامات عظيمة، فقد كان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها غرفة عبادتها وجد عندها رزقًا من وضيء الثمار وزكي الطعام، حتى إنه ليجد فواكه وثمارًا في غير أوانها، فيقول: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾، فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وهذا ما شجَّع زكريا عليه السلام أن يسأل ربه مسألة كان يعلم أن تحقيقها في نظر الخلق مستحيل، لكنه سألها حين نبهته مريم أن الله إذا أصدر أمره وأراد الكرامة لعبدٍ؛ فإنه يرزقه بغير حساب، وهنا تشجع زكريا فطلب من الله أن يرزقه وليًّا يخدم النبوة، فرزقه يحيى عليه السلام من زوجة عاقر وهو شيخ كبير جدًّا، والله غالب على أمره، وكل شيء في العالم بمشيئته وقدره.

وحين أراد الله لمريم الكرامة بشرها بكلمته وأعطاها عيسى، وهي لم يمسسها بشر وبشرتها ملائكة الله بكلمة من الله تحولت بشرًا مكرمًا ولما استغربت ذلك قال لها: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، وأكرمها رضي الله عنها في مخاضها فرزقها طعامًا وشرابًا وقرة عين.

ولا غرو؛ فآل عمران أسرة مصطفاة، اصطفاها الله على العالمين، وذكر الله ﷻ في كتابه الكريم كرامات للعبد الصالح الذي وجده موسى عند مجمع البحرين وتتلمذ عليه، وذكر كرامة أهل الكهف حين نجاهم من الكفار أن يرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم، فضرب على آذانهم وأنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ربط أثناءها على قلوبهم، وحفظ وضاءة أجسادهم حتى أراد أن يبعثهم في زمن النبوة لكي يتوفاهم مؤمنين، وهنا لا بدَّ من تنبيه العامة إلى أمر يتعلق بالولاية بأنها لا يمكن أن تكون في مشعوذ ولا مخبول ولا مهبول ولا دجال ولا مدع يتاجر بادعائه ليكسب عرضًا من الدنيا.

إنَّ أولياء الله كما جاء تعريفهم في القرآن الكريم هم الذين آمنوا بالله حق الإيمان، واتقوه حق التقوى، والإيمان هو ما وقر في القلب من اعتقاد سليم وصدقه العمل الصالح الكريم، وأما التقوى؛ فهي هبة من الله، يزود الله بها عباده المؤمنين تصحبهم في كل مكان، فلا يصدر عنهم عندئذٍ إلا جميل من القول، وجليل من العمل، وشريف من الاتباع، وابتعاد عن كل شرك، التقوى هي ثمرة الإيمان أولها اتباع الحق: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إذا أردت أن تتشرف بتحقيق تقوى الله ومخافته؛ فعض بالنواجذ على اتباع صراطه، ونبذ كل سبيل سواه، ومن هنا؛ فإني أشدد على المعنى الحقيقي للولاية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

أما ما ينتشر في أرجاء العالم الإسلامي من أدعياء ومدعين، وأما الجهلة الذين يأكلون أكل البهائم، ويقومون للرقص والغزل، وأما المتظاهرون بالجذب والخبل والهبل ليجروا مصالح الدنيا، وأما من يدعون علم الغيب لينالوا بدعواهم دنيا يصيبونها -فكلُّ أولئك بينهم وبين الولاية بُعد المشرقين.

إنَّ المؤمن الذي لا يخاف ولا يحزن وتراه مستبشرًا في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو الذي عمَّر الإيمان قلبه، وغمرت التقوى أعماله، هنالك تمتلئ روحه شجاعة وإقدامًا؛ لأنه محروس ومؤيد بالأمن الذي لا يناله إلا من آمن بالله، ولم يلبس إيمانه بظلم، عند هذه المنزلة من مدارج السالكين يكون الله معه، ويكبت عدوه، يقول ربنا ﷻ فيما رواه عنه نبيه الصادق الأمين: «مَن عادى لي وليًا؛ فقد آذنته بالحرب».

إذا آمنت بكرامة جابر بن عبد الله حين أطعم الجيش العامل في الخندق من شاةٍ وبعض شعير فشبعوا، فأنت تؤمن بكرامة حقيقية؛ لأن صاحبها ولي ثبت ولايته إيمانًا وتقوى، وإذا آمنت بكرامة خبيب حين رأته بنت الحارث يأكل قطعًا من العنب وهو مكبل وما في مكة عنب ولا في غيرها في ذلك الموسم.

وإذا آمنت بكرامة الثلاثة أصحاب الغار الذين سدت عليهم المغارة صخرة، ثم انفرجت عنهم بصدق أعمالهم، وإذا آمنت بولاية عاصم بن ثابت حين حمى الله جثته أن يصل إليها المشركون، وإذا آمنت بولاية الغلام الذي يأتي الراهب والساحر، وإذا أمنت بكرامة الرجل الذي سمع الهاتف يقول للسحاب أن يسقي حديقته -أقول: إذا أمنت بهذا؛ فقد أصبت اعتقاد أهل السُّنة والجماعة؛ لأنك تؤمن بكرامات قوم صدقوا الله، فآمنوا بالله حق الإيمان واتقوه حق التقوى.

* * *

## من أحاديث الآداب

# لبس الذهب والحرير للرجال

على الرغم مما يعانيه المسلمون في أيامنا هذه من الهزائم المخجلة والمؤامرات اللئيمة والتحديات الوقحة، فإنك قد تمر على شباب مسلمين وقد بدا عليهم أثر التأنث ترى الواحد منهم وقد لبس حذاء له كعب عالٍ، وقميصًا حريريًا مزخرفًا وسلسلة ذهبية في رقبته وإسورة على هيئة سلسلة من الذهب، وقد مشى ميَّاسًا كالنساء، تلاشت من وجهه وعطفيه علائم التذكير، فما تكاد تميز بينه وبين الأنثى يظن هذا الغافل أن هذه هي الحضارة، وما درى أن سلوكه هذا دعارة استحق عليها لعنة رسول الله ﷺ فيما روى البخاري عن ابن عباس: «**لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**».

- وروى أصحاب السنن عن أبي هريرة: لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة وهي تلبس لبسة الرجل. وقال رسول اله ﷺ: «**مَن لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة**»، وثوب الشهرة هو ما يبتكره بعض النساء والشباب من أزياء تشهرهم بين النساء والرجال.

وحكمة ذلك أن الإسلام يريد من شبابه أن يكونوا على المدى جنودًا للحق والعدل والإيمان مجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمته وإعزاز دينه وإذلال أعدائه، ومثل هذه الرسالة تتطلب صلابة ورجولة وصبرًا وجلدًا، فما يستطيع أن ينهض بها كل رخْص ناعم مائع متأنث.

وحين حرم الله ﷻ على شباب المسلمين وكهولهم لبس الحرير والذهب قصد أن يعطيهم درسًا أن رسالة شباب الإسلام أسمى وأجل من تنهض لها النعومة، وإنما تحققها كل همة لا تعرف الفتور وكل كف مخصبة بدم الباطل والظلم والكفر.

**وإني موردٌ هنا -إنْ شاء الله- ما ورد من الأحاديث الشريفة حول لبس الذهب والحرير للرجال فمتبعها -إن شاء الله- بذكر أحكامها عسى أن ينفع الله بها شباب المسلمين فيتبدلوا بالمطامح الرخيصة همماً إلى ما فوق السماء:**

– روى البخاري ومسلم عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**».

– وفي سنن النسائي أن رسول أن الله ﷺ قال: «**حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم**».

– وفي الحديث المتفق عليه أن حاكم دومة الجندل أهدى رسول الله ﷺ ثوب حرير فأعطاه عليًّا وقال: «**شَقِّقْهُ خُمُرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ**»، ومعناه: قسِّمه أغطية وجوه بين النساء.

– ومن حديث عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول لأهله: «**إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا**»، وحلية أهل الجنة وردت في قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ [الحج: ٢٣]، وفي قوله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾ [الكهف: ٣١].

**– وهذه أحكام مستنبطة من الأحاديث الشريفة:**

**أولاً**: لم يحرم الله ﷻ على الرجال ولا طلب منهم أن يفعلوا ما كان يفعل الكثير من أهل الجاهلية حين كان أحدهم يطوف عاريًا؛ ففي حديث عبد الله بن مسعود أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة فهل هذا كبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»، وفي (جامع الترمذي) أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله الطيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجواد، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبَّهوا باليهود**».

وما أجمل الاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم؛ إذ يقول ربنا ﷻ في سورة «الأعراف»: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣١].

الإسلام يحب اللباس النظيف الساتر الذي يزين صاحبه ويجمله؛ ففي حديث أبي داود أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وهم عائدون من سفر: «**إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ**».

ولقد رأى رسول الله ﷺ صحابيًا اسمه أبو الأحوص وقد لبس ثوبًا رثًا، فعاب عليه ذلك حين علم أنه غني وقال له: «إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً؛ فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ».

**ثانيًا**: اللباس الحرام هو الذي لا يليق برجولة الرجل أو بأنوثة الأنثى، ولهذا فقد حَرَّم الإسلام على الرجال لبس الحرير والذهب ولبس ما يختص بالنساء من الملابس والجلوس على الحرير والديباج، وهذا التحريم حكمته أن يترفع شباب الإسلام عن الترف والنعومة؛ لأن الله ﷻ حملهم رسالة الجهاد وهي تتطلب قدرًا عظيمًا من تحمل المشاق والصمود لها.

وقد كان رسول الله يتعهد أصحابه بالتربية الرجولية المستقيمة، ويعدهم إعدادًا يناسب ما جُندوا له من محاربة الكفر والمنكر، روى مسلم -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيطرحها في يده**»، فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك وانتفع به. قال: لا والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ.. ألا ما أعظم المعلم وما أورع استجابة المتعلم!!

**ثالثًا**: التختم بالفضة جائز للرجال على أن يلبس الخاتم في الإصبع الخنصر أو الإصبع التي تليها وتسمي البنصر أما الوسطي والسبابة والإبهام فلا يتختم فيها، وهنا نشير إلى ما يحدث في الأعراس من عادة أن يهدي كل من الزوج والزوجة لصاحبه خاتمًا، ونقول: ما أجمل أن يكون الخاتم المهدى للزوجة ذهبًا، والمهدى للزوج فضة، وبذلك يكون العرس إن شاء الله خاليًا من كل محرم.

**رابعًا**: يرخَّص في لبس الحرير إذا كان لبسه استشفاء كما لو كان في الجلد حساسية من الخشن، وقد رخَّص الرسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف وللزبير بن العوام في لبس الحرير لحكة كانت بهما؛ لأن الحرير عندئذ لا يكون للترف والرفاهية. كما يرخَّص في لبس ثوب محبوك الأطراف بالحرير بحيث لا يزيد عرض الحبكة على موضع أصبعين أو ثلاثة أو أربعة. وكذلك يجوز لبس ثوب خليط من حرير وغيره على أن تكون نسبة الحرير أقل من النصف.

**خامسًا**: من الأشياخ من يرى أن لبس الحرير للرجال مكروه، ويستدل على ذلك بحديث أبي داود بأن أكثر من عشرين صحابيًا لبسوا الحرير، وكان من بينهم صحابيون أجلاء؛ كالبراء بن عازب وأنس بن مالك، وفي «نيل الأوطار» أن أحاديث النهي تدل على

الكراهية، وهذا الرأي يجمع بين أحاديث النهي وأحاديث الجواز، ويمكن أن يؤخذ به في ظروف معنية كأن يعيش المسلم في بلاد يكون الحرير فيها أرخص من الصوف والقطن.

**سادسًا:** الأكل والشراب في صحون الذهب والفضة وكئوسهما منهي عنهما، ففي «صحيحي» البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر** – أي: يتجرع – **في بطنه نار جهنم**». فإذا رأيت في حفلة دعيت إليها أواني أو ملاعق ذهب وفضة فاهجرها وكل بيدك، ويرى جماعة من أشياخنا أن اتخاذ أواني الذهب والفضة كتحف في البيت للتجميل لا للأكل غير جائز والبعض يجيزه. أما اتخاذ أعضاء من الذهب فجائز كالأسنان والأنف، فقد روى الترمذي عن عرفجة بن أسعد أنه قال: أصيب أنفي يوم الكلاب (وهو معركة دارت بين قبائل قحطانية وعدنانية) فاتخذت أنفًا من فضة فأتن عليَّ فأمرني رسول الله أن أتخذ أنفًا من ذهب.

**سابعًا:** هذا، ويحظر الإسلام على المرأة أن توغل في تغيير خلق الله، بل عليها أن تكتفي بما يجملها في عين زوجها، ومن الإيغال ما تفعله بعض النساء بحواجبهن وشعرهن في هذه الأيام حين تغير شكلها بلبس باروكة شقراء وتكون المرأة سمراء، وقد ثبت أن الإيغال في المساحيق يجعد بشرة الوجه، وقد لعن رسول الله ﷺ -كما جاء في الحديث الصحيح- الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، والوشم: نقش أخضر يتم بغرز إبر وذر كحل عليه، والنمص: نتف الشعر، والتفلج: تفريق الأسنان بمبرد ونحوه.. هذا، والأعمال بالنيات، والله أعلم.

***

## من أحاديث الآداب

# التفكير في البعث والحساب

إنَّ من آداب المسلم أن يطيل التفكير في البعث والحساب يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل. إن الإيمان باليوم الآخر هو الذي صقل المسلمين وأخلص نفوسهم ووجَّه أخلاقهم، وجعل لهم من نفوسهم ضمائر لوامة تهتف به كلما هم بمعصية تقول له: لا تبع باقيتك بفانيتك، وتذكر أنك لم تخلق عبثًا، ولم تترك سدى، واعلم أن وراءك يومًا ثقيلاً تتقلب فيه القلوب والأبصار ويومًا عبوسًا قمطريرًا يجعل الوِلدان شيبًا، فاشتر نفسك من العذاب، وأعتقها من مكابدة الحساب.

إنَّ الإيمان باليوم الآخر صنع من سلفنا الصالح أبطالاً أهون شيء عندهم الموت؛ لأنه في نظرهم ما هو إلا نقلة من دار تزول غدًا إلى دار لا تزول أبدًا. الإيمان باليوم الآخر يوقفك عند كل عمل تريد أن تعمله لتسأل نفسك: أهو عمل يرضي الله تبارك وتعالى؟؟ تنال به عليا الدرجات أم هو معصية لله تطيح بصاحبها إلى مدارج الموبقات، وكثيرًا ما يقتصر القرآن عند ذكر المؤمنين فيصفهم بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك لأن المؤمن حين يؤمن به يمتلئ قلبه بخشية الله ورجاء ثوابه والخوف من حسابه وعقابه، وهناك تغرس في قلبه كل أركان الإيمان.

ومما يعينك يا أخي القارئ على تذكر اليوم الآخر أن تستمع وتقرأ الأحاديث النبوية الكريمة التي كان رسول الله ﷺ يقصها على أصحابه، يذكرهم فيها بذلك اليوم الذي يرجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وتجزى ما أسلفت، وهناك لا يجزى والد عن ولده ولا مولود وهو جازٍ عن والده، وترى الناس من هول الحساب والزلزلة سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد هنالك يرد الأمر كله إلى الله، ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

**وإني مورد هنا بعض ما كان رسول الله ﷺ يلقيه على مسامع أصحابه من أحاديث وقصص عن اليوم الآخر وما يصحبه من ثواب الله الجزيل ومن أخذه الوبيل:**

- جاء في (جامع الترمذي) أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد -أي: لا ينصرف عبد من موقف الحساب- حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه».

- وروي أيضًا أن رسول الله ﷺ قرأ على أصحابه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، فقال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا؛ فهذه أخبارها».

- وروى مسلم -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «تُدْنَي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟! قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

- وفي الحديث المتفق عليه قص رسول الله على أصحابه حديث الشفاعة، وخلاصته ما معناه أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟! أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟! فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ الله، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

- وفي الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وهذا المعنى هو ما تضمه قوله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

- وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. قَالَ: فَقَضَى بَيْنَهُمَا إِنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلاَكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا**».

بمثل هذه الأحاديث البليغة والقصص المشوقة كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على الإيمان بالله واليوم الآخر وعلى رجاء ثوابه وخشية عقابه حتى نشأ -عليه الصلاة والسلام- جيلاً من الأبطال كان أقصى أمانيهم أن يبذلوا أرواحهم لله لينالوا جنته ورضوانه ويظهروا دينه على الدين كله ولو كره الكافرون.

***

## من أحاديث الآداب

# الإخلاص في العمل

إذا كان يوم القيامة حُشر الناس إلى ربهم حفاة عراة غرلاً يُعرضون على ربهم صفًّا كما خلقهم ﷻ أول مرة، فيخاطبهم ربهم منكرًا على من كان ينكر البعث ويقول لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

هنالك يكون أغلى ما على الإنسان عمله الصالح، فهو إذا ذاك ينظر في لهفة إلى موازين الأعمال ليرى بينها ميزان عمله. إنه لموقف عظيم صورة ربنا ﷻ في آية عظيمة من سورة «الأنبياء»: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ويكمل الصورة الرائعة المروعة بآية الكريمة من سورة «يونس»: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

هنالك تبلى سرائر الناس ويعرضون لا تخفي منهم خافية وينادي فيهم منادي الله بما أنزله في سورة «غافر»: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ۞ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٦-١٧].

هنالك لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان خالصًا مخلصًا لوجهه الكريم وهنالك ترى كثيرًا من الناس وقد ذهبت أنفسهم حسرات حين أقبلوا على موازين أعمالهم فوجدوها لأول نظرة طافحة بأنواع الحسنات، ويرون بعض أعمال الخير في موازينهم كالجبال، فما يشكون أول الأمر أنها موصلتهم إلى عليا منازل الجنان، ثم ما هو إلا مثل لمح البصر حتى يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون حين يرون إعصارًا وقد هب في عنف عنيف على تلك الموازين فأطار كل ما في كفة الحسنات، فإذا تساءلوا: ما الأمر؟ قيل لهم: لقد عملتم تلك الحسنات ليرى الناس أعمالكم فأذهبوا والتمسوا مثوبتكم عند الذين راءيتم لهم وطلبتم السمعة لديهم، إن ربكم أغنى الشركاء، وقد أشركتم معه غيره فابحثوا عن شركائكم وادعوهم، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقًا.

- جاء في (سنن الترمذي) أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِذَا كَانَ يَوْمُ

الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

– وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ» (والجب هو البئر) قالوا: وما جب الحزن؟ قال: «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ». قيل: ومَن يدخله؟ قال: «الْقُرَّاءُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ».

– وللترمذي أيضًا: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيُسِرُّهُ (أي: يكتمه أن يراه الناس)، فَإِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ (يعني إذا شاع إحسانه في الناس سره ذلك)، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَهُ أَجْرَانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ».

– وفي صحيح مسلم: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

– وقد عرّف رسول الله ﷺ الشرك الأصغر بأنه الرياء يقوم الرجل فيزين من صلاته لما يرى من نظر رجل إليه، وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ».

– وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**من تعلم مما يبتغي به وجه الله ﷻ لا يتعلم**

**إلا ليصيب به عرض من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»**.

- وفي صحيح مسلم قيل لرسول الله ﷺ: **«أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه. قال: تلك عاجل بشرى المؤمن»**.

**أولاً**: أشد ما يحبط العمل ويبطله ويعصف بثوابه خصلة الرياء، ومعناه أن يعمل الرجل صالحات الأعمال لكي يراه الناس، ويؤدي جلائل الأعمال ليسمع الناس بذكره ويتناقلوا أخبار أعماله، وأكثر من يبتلى بهذا الشرك الأصغر المقاتلون والعلماء وأصحاب التبرعات من الأغنياء، ولهذا جاء الحديث الشريف مبينًا مدى الخطورة التي يحدثها الرياء في أعمال هؤلاء حين تسعر النار أول ما تسعر بنماذج من هؤلاء المضحين، وكيف تنقلب تضحياتهم إلى دمار موبق يذهب بكل الحسنات.

**ثانيًا**: نعرف أغنياء قد يتبرع أحدهم بالملايين على ملأ من الناس، ثم يبخل على أقربائه وأرحامه بأقل القليل؛ لأنه يرى في الملأ من يروج له دعاية ولا يرى في صدقته على الأرحام إلا وجه الله الكريم، ويكون سلوكه عندئذ سلوك من جعل الدنيا أكبر همه، ولم يرج بالصدقة لقاء ربه.

**ثالثًا**: لا يجوز أن يتجاوز بالمؤمن خوف الرياء إلى ترك العمل الصالح. وقد قرأنا عن إبراهيم النخعي أنه قال: إذا قال لك الشيطان وأنت تصلي (صلاتك هذه رياء) فأطلها، وإذا هممت بفعل خير فقال لك هذا رياء فعجله مادامت نيتك منعقدة على فعل الخير، ويجوز للمؤمن أن يتبرع بمبلغ كبير على ملأ أو في حفل إذا كان المشروع خيرًا حقًا وكان قصد المتبرع أن يُقتدى به ويحذو حذوه الأغنياء، يقول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وإذا وسوس الشيطان لبعض طلبة العلم فقال لهم: لا تعظوا ولا تخطبوا في الجمع؛ لأن في هذا رياء، فعليهم أن يخالفوه ولو وجد بعضهم من نفسه تقصيرًا إذ الكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه.

**رابعًا**: لا ينقص أجر المحسن إذا تناقل الناس أمر حسناته وأعماله الصالحة حتى ولو سر بذلك؛ لأن شهادة المسلمين عند الله للعبد مصدقة على ألا يغتر العبد بذلك الذكر والحمد، وألا يسعى هو لترويجه.

اللهم سلِّم حسناتنا وإياكم مما يحبطها، وأخلص أعمالنا لوجهك الكريم، وأخلص قلوبنا بخالصتك.

***

## من أحاديث الآداب

## الزهد والرقائق

## ما كان يتحلى به علماء السلف من آداب

هذا الفصل أخصصه -إنْ شاء الله- لما كان يتحلى به علماء السلف ﷺ من آداب جعلتهم موضع احترام الحكام والأمراء، وأكسبتهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، لقد كانوا أعجوبة عصورهم في الشجاعة لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ملأ الإيمان قلوبهم وعمر الزهد نفوسهم؛ فكانوا ربانيين يمشون في الناس كأنهم مصابيح الظلام، كانوا على يقين أن أجل العبد في الكتاب، وأن رزقه في السماء، وأن كل شيء بقضاء الله، ومن ثم هانت عليهم مصائب الدنيا حتى لقد كان الموت في نظرهم ما هو إلا نقلة يقدم فيها العبد على ما قدم، ويتبدل بوجوه العبيد وجه الكريم الذي يغفر الذنب، ويقبل التوب.

جلس أحد علماء الصحابة واسمه سعيد بن عامر ﷺ في مجلس عمر ﷺ، فقال له عمر ﷺ -وما أحلاها وأعظمها من قولة: أوصني يا سعيد. فقال: إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام: اخش الله في الناس، ولا تخش الناس في الله، ولا يخالف قولك فعلك؛ فإن خير القول ما صدقه الفعل، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحبه لنفسك وأهل بيتك، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته ولا تخف في الله لومة لائم.

فقال عمر ﷺ: ومَن يستطيع هذا يا سعيد؟ قال: يستطيعه من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك. الله أكبر نعم العالم ونعم الحاكم، كم كان سعيد بن عامر عظيمًا في موعظته، وكم كان عمر عظيمًا في استجابته.

إن عمر ﷺ رسم للدنيا كلها كيف يؤخذ على يد القوي المبطل وكيف ينتصر للضعيف المحق. قال قتادة: خرج عمر ﷺ ومعه الجارود؛ فإذا امرأة قوية الملامح على ظهر الطريق فسلم عليها رضي الله عنها فردت عليه ﷺ ثم استوقفته فوقف فقالت له: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تسمَّى عميرًا في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، اتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر ﷺ فقال لها الجارود: قد اجترأت على أمير المؤمنين

وأبكيته. فقال له عمر: أتعرف من هذه؟ إنها خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، فكيف لا يسمع عمر قولها.

وهنا أنقل -أخي القارئ- إلى هذا الموقف الذي دار بين أحد علماء التابعين وبين الخليفة سليمان بن عبد الملك، دخل الخليفة سليمان بن عبد الملك المدينة فأقام بها ثلاثًا زاره أثناءها رجالات المدينة وعلماؤها، فقال سليمان لجلسائه: أما هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ نسأله ويحدثنا، فقيل له: هاهنا رجل يقال له أبو حازم الباهلي، فبعث إليه الخليفة فجاء رحمه الله. ودار بينهما حوار طريف وددت لو قرأه كل عالم ومتعلم بل وكل مسلم.

قال سليمان: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ أتاني وجوه المدينة ولم تأتني. فقال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، ما جرى بينك معرفة آتيك عليها. قال سليمان: صدقت. يا أبا حازم ما بالنا نكره الموت؟ قال: لأننا عمرنا دينانا وخربنا آخرتنا فنحن نكره أن ننتقل من العمران إلى الخراب، قال سليمان: صدقت. كيف القدوم على الله تعالى؟ قال أبو حازم: أما المحسن؛ فكالغائب يقدم على أهله مسرورًا، وأما المسيء؛ فكالعبد الآبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا. قال سليمان: ما الذي لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: لك عند الله ما ذكره في كتابه: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

قال سليمان: من أعقل الناس ومن أحمقهم؟ قال أبو حازم: أعقلهم من طلب الحكمة فتعلمها وعلمها، وأحمقهم من وضع نفسه في هوى رجل ظالم. فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: ما أقرب الدعاء استجابة؟ قال أبو حازم: دعاء المنيبين إلى ربهم.

ثم قال سليمان: ما تقول فيَّ وفيما نحن فيه؟ قال أبو حازم: أعفني من هذا يا أمير المؤمنين.

قال: يا أبا حازم هي نصيحة تلقيها، قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، أما رأيت الجبابرة الذين سفكوا دماء الناس من أجل الدنيا؟ ماذا قالوا عند الله وماذا قيل لهم؟

فقال بعض الجلساء: بئس ما قلت يا شيخ. قال أبو حازم: كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء أن يبينوا للناس الكتاب ولا يكتموه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصحبنا تصيب منا ونصيب منك (أي: تستفيد منا ونستفيد منك) قال أبو حازم: أخشى أن تغرني نعمتكم

فأركن إليكم، ولو شيئًا قليلاً، قال سليمان: أشر عليَّ يا أبا حازم. قال: هما كلمتان؛ إياك أن يراك الله حيث نهاك، وإياك أن يفقدك حيث أمرك.

قال سليمان: ادع لنا يا أبا حازم، فقال: اللهم إن كان سليمان وليك مطيعًا لأمرك فيسره للخير. وإن كان سليمان غير ذلك فخذ بناصيته إلى الخير والطاعة. وهنا قال سليمان: يا غلام هات مائة دينار، وأعطها لأبي حازم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا حاجة لي بها لأني أخشى أن تكون هي كل مثوبتي على كلماتي إليك، وأنا أرجو عند الله ثوابًا لا تنهض له الدراهم.

وكان في مجلس سليمان أحد العلماء الذين يلازمونه فوجه أبو حازم الكلام إليه وقال: إن بني إسرائيل لما كانوا على الحق كان أمراؤهم يحتاجون إلى علمائهم. فلما رأى الناس تلك الحظوة أخذ الكثيرون يتعلمون العلم وكل همهم أن يوصلهم علمهم إلى الأمراء.

فاجتمع القوم على مطامع الدنيا، ثم دخلت بينهم المعاصي فسقطوا وانتكسوا، ولو أن العلماء صانوا دينهم وعلمهم لنجوا ونجا بهم أمراؤهم، ونالوا بصلاحهم وعلمهم مهابة الأمراء، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

* * *

## من أحاديث الآداب

# الترغيب في الإكثار من ذكر الموت

المؤمن يكثر ذكر الموت فيفيده ذكره أخلاقًا وفضائل يظهر أثرها في أعماله ومعاملاته، إذا ذكر المؤمن الموت علم أن قصة الحياة قصيرة لا تغر إلا الأحمق، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية؛ لأنها دار الخلد. ثم إن ذكر الموت يجعل العبد المؤمن مستعدًا للقاء الله، حريصًا على العمل الصالح؛ لأن كل ما في الحياة إلى فناء إلا وجه الله والعمل الصالح، يقول الله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، ويقول النبي ﷺ: **«أكثروا ذكر الموت، فما من عبد أكثر ذكره إلا أحيا الله قلبه، وهوّن عليه الموت»**.

وفي سنن ابن ماجه أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، من أكيس الناس؟ (أي: أذكاهم) وأحزم الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أكثرهم ذكرًا للموت، وأكثرهم استعدادًا للموت، أولئك الأشراف ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»**.

وللمؤمن إزاء الموت آداب يلتزمها، فهو أولاً يعتقد أن أشرف الموت وأسماه موت الشهداء؛ لأنهم قدموا لله أنفسهم وهي أهم ما يحرصون عليه، فكافأهم بحياة لا تزول أبدًا ووقاهم عذاب القبر وعرفهم أماكنهم في الجنة، يقول الله تعالى في سورة «محمد»: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

ومن هذا المنطلق ترى المؤمن حريصًا على الشهادة، يسألها ربه ليتمتع بحياة الشهداء.

ومن آداب المؤمن ألا يتمنى الموت من ضرٍّ أصابه؛ فإن كان لا بدَّ قائلاً شيئًا حول الموت فليقل كما جاء في صحيح البخاري: **«اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**.

ومن أدب المؤمن أن يموت وهو حسن الظن بالله، واثقًا من عظيم رحمته وكريم عفوه على ألا يؤمنه حسن ظنه هذا من مكر الله بل يظل راجيًا رحمة الله، خائفًا من عذابه، ففي

صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: «**لا يموتن أحدكم ألا وهو يحسن الظن بالله**».

هذا، ومما يهون على المؤمن الموت أن يقوي إيمانه باليوم الآخر حتى إذا بعث لم يستغرب البعث ولا يخاف؛ لأنه مؤمن حق الإيمان بلقاء الله، أما مَن هو في شك من الآخرة فيفاجأ وإذا بعث قال: ﴿**تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ**﴾ [النازعات: ١٢]، ويقول منكرو البعث حين يسمعون الصيحة: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**﴾، ثم يجيب بعضهم بعضًا: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس: ٥٢].

هذا، والمؤمن يستكثر من الحسنات ويقلل من الذنوب، فيطمئن بهذا إلى رحمة الله وواسع عفوه وكرمه عن عيوبه؛ لأنه قدم على ما قَدّم، وواجه ربًّا رحيمًا سبقت رحمته غضبه.

جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تذكروا موتاكم إلا بخير**»، ويتفاءل المؤمن لمن يموت صائمًا أو محرمًا، ومن يموت يوم الجمعة؛ فقد روى أبو يعلى أن النبي ﷺ قال: «**مَن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي من فتنة القبر**»، أما من مات صائمًا أو محرمًا؛ فلعل الله ﷻ أن يبعثه على الحال التي مات عليها بمنه وفضله وكرمه.

هذا، والمؤمن يحترم الموت ويقوم للجنازة إجلالاً للذي خلق الموت والحياة ليبلو الخلق أيهم أحسن عملاً، وليجعل الموت مظهرًا من أعظم مظاهر القدرة الإلهية، ففي مسند أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، تمر بنا جنازة الكافر أفنقوم لها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**قوموا لها؛ فإنكم لستم تقومون لها إنما تقومون إعظامًا للذي يقبض النفوس**».

ومن آداب المؤمن حيال الموت أن يعتقد أنه لن يقيم معه في القبر إلا عمله، أما الرزق والحطام والولد فما منهم من ينفعه في قبره، يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**يتبع الميت بعد موته ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله**».

هذا، والمؤمن لا يمكن أن يفكر في التخلص من الحياة؛ لأن الانتحار -والعياذ بالله- أوضح مظاهر اليأس من رحمة الله، ولا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ ففي الحديث الذي رواه الشافعي -رحمه الله- يقول النبي ﷺ: «**مَن قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم**

القيامة»، وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**».

ومن آداب المسلم إزاء الموت أن يخلص الدعاء حين يصلي على ميت، وأن يدعو له بصدق، وإن كان لا يعرفه؛ فقد صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فكان من دعائه كما جاء في صحيح مسلم: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**».

هذا، ولا بأس أن يزور المسلم قبر حميمه، فيسلم عليه ويقعد عنده، ففي ذلك ذكر وتذكار للحي وفيها أنس للميت – إنْ شاء الله.

هذا، وما أجمل أن يدعو الزائر للميت دعاءً مباركًا؛ لأن الميت كما جاء في الأثر شبه الغريق المتغوث ينتظر دعوة من أب أو أم أو ولدٍ أو صديق ثقة، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله ﷻ ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الدنيا أمثال الجبال، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم والصدقة عليهم.

هذا، والمؤمن يصلح نيته ويخلصها لله ﷻ لأن الأعمال بالنيات، وفي مسند أحمد يقول رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم**» وفي مسند أحمد قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله قبض روح عبدٍ بأرض جعل له فيها حاجة**».

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا حياة صالحة وموتة طيبة، ويحشرنا إليه طيبين أطهارًا مسلمين مؤمنين موحدين.

***

## من أحاديث الآداب

# النهي عن حب الدنيا والإغراق في الشهوات

من أجمل آداب المؤمن أنه إذا قدر على نعيم الدنيا وأقبل عليه حطامها وتبرجت له شهواتها لم يندفع وراء شهوات نفسه، ولم يُغرق في طعامه وشرابه، ولم يتبع نفسه كل ما تشتهي حتى لا يكون كمن قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

كان سلفنا الصالح ﷺ يكثرون قراءة آية كريمة من سورة «الأحقاف» يرون فيها لأنفسهم ردعًا عن الشهوات واقتصادًا في تناول اللذائذ مخافة أن تكون ملاذ الحياة على حساب نعيم الآخرة، تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وحسبك أن رسول الله ﷺ قضى طفولته الغراء بين الفقر واليتم، فلما أقبلت عليه الدنيا وأمكنته الملذات طوى على الجوع بطنًا طاهر الأديم واختار على متاع الدنيا خالد النعيم، وكان من مأثور دعائه: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**»، وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه**»، والكفاف كما عرَّفه بعض الأشياخ شبع يوم وجوع يوم، وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من غني ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه أوتي من الدنيا قوتًا**»، أي: كفافًا من الرزق على قدر حاجته وما يقيم أوده، وذلك لما يرى من سوء الحساب في أصحاب الشهوات.

لقد عرف الصالحون منذ القدم بالاقتصاد في طعامهم وشرابهم وشهواتهم مستصغرين شأن الشهوات ودنيا المتاع. روى الطبراني من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثقال حبة من خردل لم يعطها إلا لأوليائه وأحبابه من خلقه**»، وفي رواية للترمذي وابن ماجه: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**».

إنَّ المؤمن لا تستعبده مظاهر الغنى، ولا تتعبده بهارج الشهوات، ولا يربط همه بالحطام الزائل، ولقد أنكر نبينا ﷺ على المؤمن أن يستعبده الحطام والزائل، وأشاد بالمؤمن الذي تسيطر عليه روح التضحية في سبيل الله باذلاً في الله روحه غير مبتغ منصبًا ولا شهرة ولا رتبة من رتب الدنيا، جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ** (نوع من القماش)، **إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ** (أي أن رضاه وسخطه متوقفان على ما يناله من حطام الحياة الزائل)، **تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ** (يعني لا يبالي أن يكون في مقدمة الجيش أو مؤخرته مادام الأمر في صالح المؤمنين)، **إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ** (يعني: أنه لا يبالي أن يكون ذا نفوذ في الجيش يستأذن وقتما شاء وتقبل شفاعته عند المسئولين).

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ نهى أن تكون أقصى أُمنية المؤمن، فقال: «**الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له**».

وللطبراني في (المعجم الصغير) أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أصبح حزينًا على الدنيا أصبح ساخطًا على ربه تعالى**»، وفي زيادة للحديث: «**ومَن تضعضع لغني لينال مما في يديه أسخط الله ﷻ**».

وفي سنن ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه، ويشتت عليه ضيعته، ولا يأتيه إلا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ويكفه ضيعته وتأتيه الدنيا وهي راغمة**».

إنَّ الفقر أشرف بالمؤمن من غنى يبطره ويستعبده، ولقد كان رسول الله ﷺ يتخوف على أمتنا أن تتعلق قلوبها بالغنى وطمع الدنيا والتنافس الشديد على حطامها الفاني ومتاعها الزائل، جاء في الصحيحين أن أبا عبيدة ﷺ عاد من البحرين يحمل مالاً من خراجها إلى المدينة فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة بالمال فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف من صلاته تعرضوا له فتبسم ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟**» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ،**

وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

وللترمذي أنه ﷺ قال: «يُجَاءُ بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ (أي: كولد الضأن المولود)، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَعْطَيْتُكَ وَخَوَّلْتُكَ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْكَ؛ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، جَمَعْتُهُ وَثَمَّرْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ، فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ. فَيَقُولُ لَهُ: أَرِنِي مَا قَدَّمْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، جَمَعْتُهُ وَثَمَّرْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ. فَإِذَا عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّمْ خَيْرًا فَيُمْضَي بِهِ إِلَى النَّارِ».

وروى البزار بسند جيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكاكم».

ولقد كان آل محمد مثلاً أعلى في الصبر على شظف الحياة وخشونة العيش، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ ما شبع من خبز حنطة ثلاثة أيام تباعًا ولو شاء لشبع، ولكنه يؤثر على نفسه وكان يعصب بطنه بعصابة من الجوع. ولما قام رسول الله ﷺ عن حصير إذا هو قد أثر في جنبه، فقال له بلال: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال عليه والصلاة والسلام: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

***

## من أحاديث الآداب

## (١) التوبــــــة

من محاسن الإسلام أنه لا يوصد الأبواب في وجه العصاة، بل إنه ليفتح لهم أبواب الرجاء ويبشرهم أن أبواب التوبة مفتوحة إلى يوم القيامة، وما عليهم إلا أن يبادروا بالتوبة قبل أن يدهمهم الموت وتضيع فرصة الأعمال، يقول ربنا ﷻ في أواخر سورة «الزمر»: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾.

ومن محاسن الإسلام أن التوبة سهلة جدًّا؛ ففي حين نرى النصارى يجعلون للتوبة مراسم وتعقيدات نرى الإسلام يكتفي من العاصي بكلمات قليلة قد يقولها في نفسه أو قد يقولها على ملأ. في النصرانية إذا اقترف المرء ذنبًا وأراد أن يتوب فإن عليه أن يذهب إلى قس معين ويجلس على كرسي معروف ويفضح نفسه أمام القسيس فيحكي بتفصيل مخجل كيف اقترف الذنب، وبغير ذلك لا تتم له توبة في عقيدتهم، في حين أن الإسلام يكتفي من العبد المسلم إذا أراد التوبة أن يخاطب الله كفاحًا بدون واسطة فيهتف باسم أكرم الأكرمين: يا رب تبت إليك ورجعت إليك وندمت على ما فعلت وعزمت ألا أعود إلى ذنب يغضبك فاغفر لي يا رب واقبلني، وإذا أتبع هذا الكلام بدمعة ندامة حفظ الله عينيه أن تمسها النار، وبمجرد هذه التوبة يجب الله ﷻ ما قبل التوبة، ويخرج التائب نقيًّا كيوم ولدته أمه.

ومن كريم العفو الغفور الوهاب أنه يفرح بتوبة عبده العاصي؛ لأن جميع البشر صنع يديه خلقهم ليعبدوه وسخر لهم ما في السموات وما الأرض ليوحدوه ويشكروه، وجعل لدمائهم وحياتهم حرمة حتى لقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه: **«لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن»** (رواه مسلم).

والله ربنا ﷻ لا ينكر على العبد أن يخطئ؛ فكل بني آدم خطاء، وفي الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»**، وفي صحيح مسلم أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي

حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله، أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها». ففعل فأمر رسول الله ﷺ فشدت عليها ثيابها (كي تموت مستورة) ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال عمر ﵁: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت. فقال عليه الصلاة والسلام: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة ولسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ﷻ.

– وروى الترمذي عن ابن عمر ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ سبع مرات يقول ما معناه: (كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا مقابل الفاحشة، فلما هم بها بكت وأرعدت وذكرت له أنه لم تعمل ذلك قط وأنها ما حملها على ذلك إلا حاجة فقال لها الكفل: اذهبي فهي لك، ولا والله لا أعصي الله بعدها أبدًا فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكفل فعجت الناس من ذلك (أي: لما عرفوه من ذنوب ذلك الرجل) .

– وفي الصحيحين حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم أتى راهبًا ليتوب فسدَّ في وجهه باب التوبة فقتله مكملاً المائة، ثم أتى عالمًا ففتح أمامه باب التوبة على أن يرحل عن بلده التي اقترف بها جرائمه؛ لأنها أرض سوء، فتوجه إلى بلد آخر حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأتاهم ملك في صورة آدمي فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيها كان أدنى فهو له، فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها، وفي رواية: **«فأوحى الله لهذه أن تباعدي، ولهذه أن تقربي؛ فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»**.

– وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره (أي: عثر عليه بعد ضياعه)، وقد أضله بأرض فلاة»**.

– وفي معجم البغوي ورواه الطبراني والبزار أن رجلاً طويلاً أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: **«فهل أسلمت؟»** قال: أما أنا فأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله خيرات كلهن»**. قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: **«نعم»**،

فقال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى.

**أولاً**: لو تاب المرء وهو في حال صحته ولو قبل موته بدقيقة فإنه يرجى له المغفرة، وقديمًا تاب أحد أصحاب النبي وأسلم وقاتل حالما أسلم في أحد فقتل فأخبر النبي ﷺ أن الله قد غفر له وكتبه في الشهداء مع أنه لم يصل له ركعة واحدة.

**ثانيًا**: شروط التوبة أربعة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم المؤكد على ترك الذنوب. ومداومة العمل الصالح، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة طه: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾** [طه: ٨٢].

**ثالثًا**: الذنوب نوعان أحدهما ظلم العبد نفسه كشارب الخمر والمتكاسل عن الصلاة وكثير التخلف عن الجماعة، أما الثاني؛ فهو ظلم للعباد بالقتل والسرقة والزنا. والنوع الأول مغفرته سهلة إن شاء الله، أما حقوق العباد فلا يغفرها ربنا إلا أن يستباح صاحبها فيعفو ويسمح.

**رابعًا**: الكبائر خطيرة، ولعل من اجتنب الكبائر وأصاب اللمم في غير إصرار لعله إن شاء الله أن يدخله الله في رحمته ويتوب عليه، يقول الله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾** [النجم: ٣٢]، لكن كثرة اجتراح الصغائر قد تحولها إلى كبائر؛ فمن أدمن النظر إلى المحرمات وتابع ببصره النساء فقد فتح باب ذرائع الزنا، وعندئذٍ تتحول اللمم إلى كبائر، وفي الأثر: **«لا كبيرة مع الإصرار، ولا صغيرة مع الاستغفار»**.

**خامسًا**: والكبائر مختلف في عددها ونوعها، فمن العلماء من عدها سبعًا، ومنهم من أوصلها سبع عشرة، وقال بعضهم: بل سبعين، ولعل أعدل الآراء رأي أبي طالب المكي الذي أوصلها سبع عشرة، وهي: الشرك، والإصرار على المعاصي، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وشهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا، والزنا، وعمل قوم لوط، والقتل، والسرقة، والفرار يوم الزحف، وعقوق الوالدين.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من التوابين بالإقلاع عن الذنب ومن المتطهرين من المعاصي بالحسنات.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

## (٢) التوبة والاستغفار

إنَّ من آداب المسلم إذا أذنب أن يعلم أن له ربًّا غفورًا يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله، ومن ثم فالمؤمن لا تستبد به السيئة أو تطمسه الغفلة أو تؤئسه المعصية من رحمة الله، بل إن بعض المسلمين ربما تأخذ المعصية بيده إلى طريق الإنابة الصحيحة ثم إلى الله ﷻ وإلى رضوانه وجناته. لقد اقتضت حكمة الله أن يخلق الإنسان خطّاءً منذ أودع فيه غرائزه وأعده للحياة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، ويقول النبي ﷺ: «كلُّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابين»، ويقول ربنا ﷻ فيما يرويه عنه نبيُّه: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

العبد يخطئ والرب يرحم ويغفر، ورحمة الله سبقت غضبه، ولو أن العباد لا يخطئون لصارت بعض الأسماء الله الحسنى غريبة المدلولات صعبة المعاني لا تدركها العقول إذ ما معنى الغفور والتواب وغافر الذنب وقابل التوب والعفو وواسع المغفرة إذا كان العباد يخطئون، لقد كان رسول الله ﷺ لا يفتأ مستغفرًا لذنبه، جاء في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه؛ فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»، وفي صحيح مسلم نفسه: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى

**رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»**.

إنَّ الخطيئة أحيانًا تكون بداية صلة بالله؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى في سورة «هود»: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾** [هود: ١١٤]. فأخبر النبي الكريم ذلك المسلم المذنب أن الصلاة التي شهدها مع الجماعة كفارة لما فرط منه، وأن هذا الحكم للمسلمين عامة، وروي في الحديث: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**، وفي سورة «القصص» يبيِّن الله ﷻ مدى سرعة استجابته لعبده المستغفر التائب، فيقول يذكر موسى: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** [القصص: ١٦].

وفي سورة «آل عمران» صورة مؤنسة بديعة لبشرى الاستغفار يقول فيها ربنا: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

ومن أجل فضيلة الاستغفار؛ فإن المسلمين يستغفر بعضهم لبعض بظهر الغيب فيغفر الله لهم بدعاء بعضهم لبعض، يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فيغفر الله لهم، وكان عليه الصلاة والسلام يجعل الاستغفار وردًا يوميًّا ويقول: **«تضرعوا إلى ربكم في الرخاء، فإنه يقول: مَن دعاني في الرخاء أجبته في الشدة، ومَن سألني أعطيته، ومن تضرع إليَّ رحمته، ومَن استغفرني غفرت له»**.

والمؤمن يستغفر له أخوه المسلم، فتقول الملائكة: **«ولك بمثل»**، وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: **«يا ابن آدم، إنك ما رجوتني ودعوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك»**، وفي مسند أحمد: **«إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله ﷻ: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»**.

ومن فضل الله على العباد أنه لا يغلق باب التوبة إلى يوم القيامة ويلاحق العبد بالمغفرة ما لم يغرغر بنفسه، فمن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها غفر الله له، سبحانه يداه مبسوطتان للتائبين ليلاً ونهارًا.

وفي (مصابيح السنة): «أَوَّلُ مَا يَقُولُ اللهُ لعبادِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ يَا رَبَّنَا. فَيَقُولُ: لِمَ؟ فَيَقُولُونَ: رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ. فَيَقُولُ: قَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ مَغْفِرَتِي».

وفي صحيح البخاري: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ».

وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم».

وفي صحيح مسلم: «إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «أمر الله بعبد إلى النار فلما وقف على شفتها التفت فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك حسن. فقال الله تعالى: ردوه فأنا عند ظن عبدي بي. فغفر له».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستر الله على عبد ذنبًا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة».

وفي مسند أحمد ما يفيد أن العبد المسلم إذا لم يظلم العباد فكل ذنوبه سهلة المغفرة بإذن الله، فقد روى أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللهِ ﷻ ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ؛ فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، وَأَمَّا الدِّيوَانُ

الَّذِي لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا؛ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَغْفِرُ ذَلِكَ، وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ».

ألا ما أجمل أن تحدوك خطيئتك إلى رجاء وجه الله وانتظار إحسانه والأوبة إليه، فلقد قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أحب إلى الله من الشاب التائب».

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥- ١٣٦].

* * *

## من أحاديث الآداب

# التسليم المطلق لأمر الله ورسوله

من الآداب العليا التي يتحلى بها المؤمن أنه يسلم تسليمًا مطلقًا لأمر الله ورسوله، ولا يبقي لنفسه أي اختيار إزاء ما يقضي به بالله ورسوله، وإلى هذا تشير الآية الكريمة في سورة «الأحزاب»: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وفي سورة «النساء» يعلن ربنا ﷻ لرسوله ﷺ أن من لا ينصاع لحكم رسول الله ولا يسلم لأمره فهو غير مؤمن ولتأكيد هذا الأمر أقسم الله عليه بذاته العظيمة فقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[النساء:٦٥].

وقد قرأنا في السيرة المطهرة أن عمر بن الخطاب ﷺ بدرت منه بادرة واحدة خالف فيها هذه القاعدة العظيمة فظل نادمًا على موقفه ذلك يستغفر كلما تذكره إلى أن مات ﷺ. كان ذلك الموقف حين أراد رسول الله ﷺ أن يكتب عقد صلح الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو مندوب قريش، وكان المسلمون في جو من الاستياء وخيبة الرجاء؛ لأن رسول الله ﷺ وعدهم أن يدخلوا المسجد الحرام ويعتمروا ويحلقوا رءوسهم أو يقصروا دونها خوف من المشركين، وكانوا واثقين من عهد الله لرسوله، ولهذا كانت الفتنة عظيمة عندما أصر مندوب قريش أن يعود المسلمون في عامهم ذلك ويعودوا في عامهم المقبل.

وكان من شروط المعاهدة شرط رآه المسلمون مجحفًا مذلاً وهو الشرط الذي ينص على أن يرد المسلمون من يأتيهم من مكة مؤمنًا (أن يردوه إلى المشركين)، وأما إذا ارتد مسلم وذهب إلى المشركين مرتدًا فليس على المشركين أن يعيدوه إلى المسلمين، وزاد من عاصفة الفتنه أن مندوب قريش تعنت في إملاء صيغة المعاهدة حين بدأ علي ﷺ يكتبها فرفض كلمة بسم الله الرحمن الرحيم، وقال لعلي: اكتب باسمك اللهم، فإنا لا نعرف هذه الكلمة، فتردد علي فقال له رسوله الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. ورفض كلمة محمد رسول الله، وقال لعلي:

اكتب محمد بن عبد الله، فتوقف علي أكثر من المرة الأولى فقال له رسول الله ﷺ: امسح ما كتبته واكتب محمد بن عبد الله.

ولما توقف علي مسحها رسول الله ﷺ هو نفسه، وهنا أقبل عمر كأنه العاصفة العاتية، وقال لأبي بكر: أليس هو رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر: بلي. قال: أولسنا بالمسلمين وهم المشركون؟ قال: بلي. قال عمر: فعلام نعطي الدنية (أي نقبل الذل) في ديننا؟ فقال له أبو بكر: يا عمر الزم غرزه (يعني أمره) فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم توجه إلى رسول الله ﷺ فأعاد ما قاله لأبي بكر فقال له رسول الله ﷺ في النهاية: «**أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني**».

وزاد من آلام عمر أنه أثناء كتابة المعاهدة أقبل أحد المؤمنين الذين كانوا يعذبون بمكة وقد هرب من سجنه في قيوده الحديدية يرسف فيها واستجار برسول الله وبالمؤمنين أن ينقذوه من العذاب. كان ذلك هو أبا جندل ابن مفاوض قريش سهيل بن عمرو فقال أبوه لرسول الله ﷺ: لقد سرت المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ: صدقت ورده مع أبيه وهو يصيح ورسول الله ﷺ يقول له: اصبر أبا جندل فإن الله جاعل لك وللمؤمنين بمكة مخرجًا.

ويلغ الأمر منتهى الخطورة حين رأى المسلمون أن رسول الله ﷺ لان لمندوب قريش كل ذلك اللين، واشتد مع الصحابة كل تلك الشدة حتى إنه لم يشاورهم في أمر السلم. ولهذا فقد جلسوا بعد المعاهدة ساهمين يفكرون كيف رجعوا دون عمرة، وقد وُعدوها، ورسول الله ﷺ يقول لهم: وعدني ربي ولم يخلفني؛ لأننا سنعتمر في عامنا القابل ثم أمرهم أن ينحروا ما معهم من الهدي فلم يقم أحد منهم لينحر هديه، فدخل على زوجته أم سلمة وهو متألم فقالت له: إن أصحابك لن ينحروا هديهم ويتحللوا إلا إذا سبقتهم إلى هذا الأمر فعندئذ يقتدون بك، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ونحر هديه فاقتدى به كل الصحابة وتبعهم سائر الناس وانتهى الأمر تلك النهاية التي ظنها كل المسلمين جائرة مجحفة بحقهم.

والحق أن رسول الله ﷺ فعل كل ذلك بوحي من الله، وكان واثقًا أن تلك الهدنة ستكون لها آثار عظيمة في تثبيت مركز الدعوة ونشر الدعاية لها، ثم إنه سيفرِّغ المسلمين لقتال كثير من الأعداء الآخرين كأهالي خيبر وبعض المنافقين، وهذا كله أفضل من قتال قريش لأجل العمرة.

رجع المسلمون متألمين مع أنهم عادوا بالخير كل الخير عادوا وقد أمنوا شر قريش لعشر سنوات عادوا وقد اعترفت بهم قريش قوة لها شأنها، وأثبتوا للدنيا أن دينهم بعيد عن الانتقام والتشنجات وأنهم أعظم سياسة ورفقًا من أعدائهم، فلا عجب أن أسلم بعد الحديبية كثير من عقلاء قريش ومنهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

نعم لقد عاد المسلمون فاتحين كما ذكر ربنا ﷻ؛ إذ قال لرسوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وقال في سورة «الفتح» أيضًا: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال أيضًا في سورة «الفتح» التي هي سورة الحديبية: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، يقول الزهري: ما فتح الله على المؤمنين فتحًا مثل فتح الحديبية؛ إذ دخل في الإسلام خلق كثير، ودليل ذلك أن جيش المسلمين في الحديبية كان ألفًا وأربعمائة وبعده بسنتين جاء فتح مكة وجيش المسلمين عشرة آلاف.

أما الشرط الذي رآه المسلمون مجحفًا وثار من أجله عمر وهو إعادة المؤمنين إلى مكة هذا الشرط قد جاء ببركة عظيمة؛ فقد فر من المعذبين بمكة مؤمن شجاع من قريش هو عبيد بن أسد ولقبه: أبو بصير، وهاجر إلى المدينة فأرسلت قريش وراءه فارسين من فرسانها ليرجعاه إلى العذاب فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا بصير، ارجع إلى مكة، فإنا قد عاهدنا القوم ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك وللمؤمنين فرجًا، فحزن أبو بصير لكن الرجلين شدا وثاقه فسار معهما وتظاهر في الطريق بملاطفتهما فغفلا عن حراسته ففك وثاق نفسه واخترط سلاح أحدهما فقتل به صاحبه وفر الآخر خوفًا ورجع إلى رسول ﷺ يخبره بما فعل فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

وفهم أبو بصير من قول رسول الله ﷺ كأنه يوعز له أن يكوِّن فرقة فيها رجال كثيرون ليؤدب قريشًا في طريق قوافلها، وشرع حالاً في الأمر وكون جماعة روعت قريشًا وقوافلها، وكان أول من حضر إليه وانضم إلى فرقته أبو جندل بن سيهل بن عمرو الذي رده رسول الله مع أبيه إلى مكة، حتى جاء رجال من قريش يرجون رسول الله ﷺ أن يقبل من يأتيه مؤمنًا، وقبل رسول الله رجاءهم متفضلاً عليهم وكتب إلى أبي بصير أن يطلق من عنده من رجال

قريش ويرد عليهم أموالهم فوصل الكتاب أبا بصير وهو يجود بأنفاسه فوضع الكتاب على صدره ونفذ أمر رسول الله فرد الرجال ومن بينهم صهر رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع الذي أسلم وعاد إلى زوجته زينب بنت رسول الله، كل تلك البركات حدثت من صلح الحديبية الذي ثار عليه وكرهه عمر لكن أمر الله فوق كل أمر، ولربما كره المؤمن أمرًا والخير كل الخير فيه.

اللهم ارزقنا الرضا والتسليم بكل أمر تقضيه.

## من أحاديث الآداب

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ربما تمر على جماعة من الصبية جالسين على باب مسجد من المساجد يتصايحون أثناء الصلاة وكأن الصلاة لا تعنيهم وكأنهم لم ينشئوا في بيت مسلم يرون فيه الصلاة ويتعلمون آداب الصلاة وحرمتها وقداستها، فإذا نصحتهم أن يصمتوا احترامًا للصلاة أو يدخلوا ويؤدوها سخروا منك، وإذا نهرتهم أسمعوك ضعف ما تسمعهم، وقد يمر بك أحد المصلين فيقول لك: لا تنشب نفسك فيهم؛ فإذا كان آباؤهم لا يهتمون بهم ولا يربونهم، أفأنت أولى بهم من آبائهم، هنالك يثبط عزمك، ويصبح باب المسجد بؤرة صراخ وضجيج يلقى المصلون منها عناءً وتختلط عليهم ألفاظ الصلاة، وقد يكون آباؤهم في المسجد يصلون ويسمعون أصوات أبنائهم فيعرفونها، ولكنهم لا يكلمونهم أو ينصحونهم إما كسلاً وعدم اكتراث وإما خوفًا من أمهاتهم بعد أن أصبح للنساء في البيوت حكم ونفوذ وسلطان.

وقد تمر بك سيارة يسوقها صبي أو شاب وكأنها سهم أو طائرة نفاثة تكاد تحرث الطريق لعنفها، فإذا لقيت سائقها ونصحته احتقر كلامك واندفع بها ليحثو في وجهك ترابها، فإذا رآك أحد معارفك وأنت على تلك الحال قال لك: يا أخي، لا تتدخل في ما لا يعنيك لئلا تلقى ما لا يرضيك، فلا تملك إلا أن تسكت لتخلو الساحة للأشقياء وتتوفر الراحة للسفهاء، ويصبح منكرو المنكر متهمين بالبلادة والحماقة والتطفل وقله الذوق؛ لأنهم يدسون أنفسهم وأنوفهم فيما لا يخصهم، وقد تجد شفيقًا عليك ينصحك عليهم بألفاظ الحديث الشريف:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، ولو أنصف الناصحون لشدوا على يدك ونفخوا من روحهم في عزيمتك، وضموا أصواتهم إلى صوتك ليرهبوا العابثين، والمرء قوي بأخيه، والتعاون على الخير من سيما المجتمع الإسلامي المتناصح، وفي هذا يقول الله تعالى يذكر اللعنة التي حلت ببني إسرائيل على ألسنة أنبيائهم وبين سببها، فيقول في سورة «المائدة»: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩]، وفي صحيح مسلم: «مَن رأى منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، ومعنى قوله ﷺ: (وذلك أضعف الإيمان) أن الذي يمر على المنكر يقترف فلا يهتز قلبه وشعوره إنكارًا واستنكارا؛ فإنه عندئذٍ لا يكون مؤمنًا.

إنَّ من آداب المسلم ألا يخشى في الله لومة لائم، وأن يكون شجاعًا في مواجهة المنكر، وأن يعتقد بملء قلبه أن صاحب المنكر جبان وإن أبدى شجاعة، وأن أهل المعاصي ضعفاء وإن تكلموا من مركز قوة، وأن حزب الله مهما طال الزمن وعربد الفساد هم الغالبون وهم المفلحون، وفي الحديث المتفق عليه عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه شرح للناس تفسير قوله تعالى من سورة «المائدة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ويبدو أن الناس فهموها بأن كل إنسان مسئول عن هداية نفسه ولا شأن له بغيره، فقال ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه (أن يمنعوه من الظلم) أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه» (أي: دون تمييز بين محسنهم ومسيئهم)، وبهذا أوضح لهم الصديق ﷺ أن الآية تعني أن يبذل المؤمن جهده في إنكار المنكر بشتى الوسائل، وبعدئذٍ لا يضره معصية العاصي وظلم الظالم إذا هو اهتدى إلى ربه.

هذا، وإن إنكار المنكر يتطلب من المؤمن لباقة تتناسب ومركز الإنسان الذي صدر عن المنكر، فالإنكار على مسئول كبير ليس كالإنكار على صبي صغير، والناس ينزلون منازلهم،

وفي الحديث الذي رواه الديلمي ما يفيد أن المتصدر للنصيحة يشترط فيه ثلاث خصال: أن يكون رفيقًا بمن يأمر، رفيقًا بمن ينهى، عالمًا بما ينهى عنه، عدلاً فيما ينهى.

هذا، وعلى من يوفقه الله للنصيحة وتغيير المنكر أن يكون جريئًا موقنًا أن التصدي للمنكر لا يقرب أجلاً، وأن المتصدي له هو من الفئة المنصورة التي ورد ذكرها في الحديث الشريف الذي رواه الحاكم قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة**».

هذا، ومن آداب إنكار المنكر أن تراعي مركز من تنكر عليه ففي الحديث الذي رواه أحمد يقول رسول الله ﷺ: «**من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبده له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه**»، وتزداد مسئولية النصيحة على جلساء السلطان الذين يحضرون تصرفاته، ففي الحديث الذي رواه الديلمي قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر الزمان قوم يحضرون السلطان يحكم بغير حكم الله فلا ينهونه، فعليهم لعنة الله**».

هذا، وإذا فشا المنكر فلم يجابهه العلماء والخاصة ومخالط السلطان كان ذلك إيذانًا بعذاب لا يبقي ولا يذر، جاء في الحديث الذي رواه أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ لا يعذب العامة بعمل الخاصة** (أي: لا يعذب الشعب بذنوب بعض المترفين المفسدين) **حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الخاصة والعامة**».

هذا، وما أجمل أن تكون نفس المؤمن لوامة فينكر على نفسه عملها إذا أساءت، وينصب من عقله ومروءته وحيائه واعظًا لنفسه يأمرها وينهاها؛ ففي الحديث الذي رواه الديلمي يقول رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه**».

هذا، وما أجمل أن يستقبل المؤمن كلام أخيه إذا أنكر عليه منكرًا أن يتقبل كلامه شاكرًا لا أن يدعي الكمال ويغضب من النصيحة بل يحمد الله على أن رزقه من يرشده إلى عيوب نفسه، فقد روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة يزيده الله بها هدى أو يرده بها عن ردى**».

## من أحاديث الآداب

# الرضا بالقضاء والقدر

إني محدث الإخوة القراء عن أدب المؤمن إزاء ما يصيبه من أحداث الحياة وما يجري من أقدار الله الحكيمة من غنى وفقر وصحة ومرض وعسر ويسر. إن الكثرة الغالبة من الناس ينظرون إلى ما يجري في الكون نظرة سطحية فهم يئولون قضاء الله وقدره تارة حسب مصالحهم، وتارة أخرى حسب جهالتهم، يقول ربنا ﷻ في سورة «القصص» يتحدث عن موكب قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

وهكذا تستقبل النفوس البشرية أحداث الدنيا وتتناولها بأسلوبين: أولهما: نظرة الذين يريدون الحياة الدنيا، والثاني: نظرة الذين أوتوا العلم.

هنالك النظرة السطحية التي تسيطر على أهل الجهالة الجاهلة والمصالح الزائلة، وهنالك النظرة المتأملة العالمة التي ترى أن كل شيء بقدر وكل قدر بحكمة يقول ربنا ﷻ في النظرتين في سورة «التوبة»: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. هؤلاء هم أهل السطحية والنظرة القصيرة ثم مضى ﷻ يعلمهم النظرة الصادقة المتفهمة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

من الناس مَن إذا آتاه الله مالاً اعتقد أنه راضٍ عنه مكرم له، وإذا قَدرَ عليه رزقه اعتقد أنه يهينه وهو ساخط عليه، ونسي أن العطاء والحرمان عند الله كلاهما اختبار يبلو به الله الناس أيهم أحسن عملاً.

إنَّ ربك ﷻ قد يسوق إلى عبد خزائن الأموال فتورثه سخط الله ولعنته وعذابه، وقد يحرم عبدًا قوت ليلته وهو راضٍ عنه يعد له في آخرته وعقبى دنياه سعادة الدارين، ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ﴾ (أي: اختبره وامتحنه) ﴿رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞وَأَمَّا

إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥، ١٦]، ثم يتبع ربنا هاتين الآيتين بكلمة ردع فيقول: ﴿كَلاَّ﴾ ومعناها: (لا يجوز اعتقاد هذا) فالعبرة بما يترتب على المال من نتائج إذ المال ليس غاية بذاته: ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧- ٢٠].

إذا جرى على المؤمن قضاء يؤلمه علم أن لله حكمة حين يعطي وحين يمنع، والمؤمن إذا أعطى استقبل العطاء بشكر الله والولاء له، فينال منزلة الشاكرين، وإذا جرى على المؤمن قضاء فيه ضراء علم أن كل أمر تسير به هذه الدنيا لا يمكن إلا أن يتم بقدر الله وإرادته، وإذن فما دام الأمر أمره والقدر قدره فلابد من الرضا والتسليم، صحيح أن المؤمن قد تبكيه المصيبة وقد تفرحه النعمة لكن حزنه أو فرحه لا يغير شيئًا من إيمانه بالله وحبه له؛ إذ له الحمد معطيًا، وله الحمد آخذًا؛ إذ الخلق له وكلهم إليه راجعون.

إنَّ وراء أقدار الله ﷻ حكمًا بالغة باهرة، وقدرة عظيمة قاهرة، ولَرُبَّ خواض في مسائل القضاء مثلاً يتأول الأحداث بظاهر من الأمر، فيقول لك مثلاً: إن إبراهيم عليه السلام نفى زوجته الجارية المصرية بوادٍ غير ذي زرع؛ لأن زوجته الحبيبة سارة لم تطق رؤيتها. حاشا لأبي الأنبياء الأمة القانت الحنيف أن يقترف هذا الظلم، إن هاجر نفسها رضي الله عنها حلت الإشكال حين تبعته آخذة بطرف ثوبه تسأله: أأنت فعلت بنا هذا من عندك أم هو أمر أمرك الله به؟ فقال عليه السلام: «بل أمر أمرني الله به»، وكم كانت تلك القسوة الظاهرة رحمة وبركة لقد كانت مقدمة لبناء خير بيت وضع للناس، ولبعثة أكرم نبي من ذرية الزوجة الجارية ألا وهو رسول الله ﷺ.

ومثل هذا يقال في إلقاء يوسف في الجُب فظاهر الأمر قسوة وقضاء مؤلم وحقيقة الأمر أن يعقوب سلم يوسف لأخوته وهو يعلم أنهم سيلقونه في الجُب، لقد كان عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلمون، كان يعلم أن يوسف عليه السلام سيبعث نبيًّا في مصر، يهدي به الله الناس، ويفرج به عنهم ضوائق القحط، وأنه سيكون من ذريته شيخ أنبياء بني إسرائيل موسى كليم الله، كان يوسف نفسه يعلم ذلك: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، ولما جاء البشير بيوسف قال يعقوب لأبنائه: ألم أقل لكم أني أعلم من الله ما لا تعلمون.

لقد ذهب بصر يعقوب لطول مدة الفراق وعظمة البلاء، لكنه ظل واثقًا أن الله ﷻ صادق الوعد، وأنه سيرد عليه يوسف نبيًّا صديقًا مبارك الناصية والحياة مظهرًا من كل ما تعرض له من فتن: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ولقد كان منظر العبد الصالح وهو يخرق سفينة المساكين، ويقتل ابن المؤمنين، ويبني الجدار الذي تحته كنز وهو وموسى جائعان حين أبى لؤماء القرية أن يضيفوهما، أقول: كانت تلك المناظر مذهلة لكن القضاء العظيم والقدر الحكيم كانا يخبئان وراء تلك التصرفات الغريبة خيرًا وبركة.

إنَّ المؤمن يتصف بالرضا والتسليم وينزه ربه أن يكون قدره دون حكمة، تعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم.

* * *

## من أحاديث الآداب

# المؤمن لا يخشى في الله لومة لائم

من آداب المؤمن ألا يخشى في الله لومة لائم، فيكون على كافة أحواله قائمًا بالعدل حتى ولو كان أحد الخصمين أباه أو أمه أو حتى نفسه، يقول ﷻ في سورة «النساء»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي سورة «المائدة» يؤكد الله هذا المعنى وينهى المؤمنين أن يظلموا أي إنسان حتى لو كان أبغض بغيض يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

إنَّ المؤمن لا يكتم الشهادة ولا يزورها حتى ولو هُدد بقطع رأسه، وفي مثل هذا الموقف تكون الرجولة والبطولة ويخلد ذكر المرء في الدنيا ويتحقق ثوابه في الآخرة، إن الإنسان مواقف، فإما موقف شريف يقتدى به وينال ثوابه إلى يوم القيامة، وإما موقف معصية يقتدى ويحمل وزره إلى يوم القيامة، ولقد كنت أرى طالبي علم يدرسان في كلية واحدة ويتخرجان على شيخ واحد، ثم يكون أحدهما عالم خير يقف مواقف الأبرار، بينما يكون الآخر عالم سوء يسلك سيرة الفجار، وذلك لأن الأول طلب العلم لله فأمده الله بروح من عنده، بينما الثاني طلب العلم لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها أو قصر يعمره فوكله الله إلى الحطام ولم يعرف في محافل الأخيار، لقد كانت حياة سلفنا ﷺ مواقف ماجدة وقدوات خالدة.

انظر إلى رسول الله ﷺ والدم يسيل من عقبيه من حجارة السفلة والصبية الجهلة وهو يقول: **«اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون الله، لا تعذبهم بذنوبهم لعلك تخرج من أصلابهم من يوحدك ويعبدك ويسجد لك»**، وبمثل هذه المواقف أحبته القلوب، والتفت من حوله عواطف المحبة، وقال له ربه في سورة «آل عمران»: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال له في سورة «القلم»: ﴿ن وَالْقَلَمِ

وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ - ٤].

وعلى سيرة رسول الله ﷺ سار عدد كبير من خلفاء المسلمين وعلمائهم، فرأينا في تاريخنا أجل مواقف الرجال وأعظم روائع الأعمال.

لقد كان أسلافنا ﵃ ربما تعارض أمامه دينه وقرابته فيفضل دينه على قرابته؛ لأن حب الله ورسوله عنده أغلى من كل حب وأجل من كل غال. جاء في كتب السيرة أن أبا عبيدة ﵁ قتل أباه في بدر وأنه حزن لذلك فيما بعد وخصوصًا بعد أن أرجف المشركون والمنافقون فقالوا: إن أتباع محمد بدلاً من أن يبروا آباءهم فإنهم يقتلونهم، فنزل القرآن الكريم مؤيدًا موقف أبي عبيدة وأمثاله ممن يفضلون دينهم على كل رغائب الدنيا حتى على حياتهم، قال الله تعالى في سورة «المجادلة»: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولقد ضحى كثير من المؤمنين ببيوتهم وزوجاتهم حين هاجروا وحيدين مع رسول الله ﷺ وطلقوهن حين نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

أخي القارئ إذا مررت بحادث سيارة مثلاً فنزلت للإصلاح ووجدت أن أحد طرفي الحادث ابنك أو أبوك أو أخوك فإياك أن يؤثر هذا الاعتبار في شهادتك أو موقفك، وكن يا أخي مع الحق؛ لأن الله ﷻ أمرك أن تجعل قولك وعملك واعتقادك في مأمن من نوازع الهوى، ولو كانت الشهادة على نفسك أو الوالدين والأقربين إن مواقف العبد مكتوبة عند الله فإما هاديته به إلى جنة الله ورضوانه، وإما قاذفة به إلى غضب الله وعذابه.

ولقد كان العالم من علماء المؤمنين يرى الموت عيانًا وتكون نجاته من الموت بكلمة يقولها فيأبى ويفضل الموت في مرضاة الله على الحياة مع موقف الباطل، وهذا الموقف ليس بالهين عند الله؛ لأن السلطان لديه رغبة الأموال ولديه رهب الموت والأهوال، والإنسان بغريزته يحب المال ويحب الحياة، فإذا وقف المؤمن غير مبال يرغب ولا يرهب صامدًا كالسيف نحو

ضريبته فهو عندئذ في أعلى منازل الشهداء مع حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وموكب شهداء الإسلام الكرام.

وقد وقف ذلك الموقف عدد من علمائنا وأئمتنا الأبرار منهم مالك بن أنس مع الخليفة الرشيد، وأبو حنيفة مع أبي جعفر، والأوزاعي مع المنصور، وسفيان الثوري مع أبي جعفر، وأبو حازم مع سليمان، والفضيل بن عياض مع الرشيد، وابن تيمية قازان سلطان التتار، والعز بن عبد السلام مع السلطان قطز، وكثيرون غير هؤلاء علّموا الدنيا أن مواقف الرجولة مقترنة دوامًا بعظمة الإيمان.

## من أحاديث الآداب

# إن أكرمكم عند الله أتقاكم

من آداب المؤمن أن يزن الناس بتقواهم ويكرمهم بأعمالهم، وألا يجعل مقياس الكرامة ما يملكه العبد من جواهر وذهب ولا من جاه ومنصب ولا من نسب ونشب فيكون بذلك كمشركي قريش حين رأوا أتباع محمد ﷺ من المستضعفين ففاخروهم بفخامة ناديهم وحسن أثاثهم، قال الله تعالى في وصف أولئك من أهل البهرج: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، وقد رد عليهم ربنا القاهر فوق عبادة أبلغ رد، فقال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

ولما استنكف أقطاب الشرك من قريش عن مجالسة المؤمنين المستضعفين أمر الله رسوله ﷺ أن يهتم بهم، وألا يفرط في صحبتهم، وأعلمه أنهم أفضل ممن ركنوا إلى بهرج الدنيا، فقال ﷻ في سورة «الأنعام»: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، وفي سورة «الكهف»: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وكان مرتكز الفخر عند عرب الجاهلية هو النسب فجاء الإسلام يقلب ذلك المقياس

المتعسف ويجعل الكرامة بالتقوى، يقول ربنا جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وداس النبي ﷺ عبية الجاهلية وجعلها تحت قدميه ونادي الناس يوم الحج الأكبر: «**أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد الناس، كلهم لآدم وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**».

وبذلك أرسى رسول الله ﷺ بنيان الكرامة الإنسانية على أسس من تقوى الله وصالح العمل وجعله فوق النسب، فقال: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»، وبذلك المقياس السماوي محيت فوارق العرق والعنصر وتسابق الناس بمواهبهم وقدراتهم وأعمالهم فتفوق كثير من المستضعفين على الغطاريف ذوي الأنساب، وبرز إلى ساحة المجد صهيب وسلمان وبلال وابن مسعود وخباب وعداس وتخلف عن مركب الخالدين أبو لهب وأبو جهل وأبناء ربيعة وغيرهم من جهابذة الشرك وسدنة الأصنام.

جاء في الحديث المتفق عليه عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال النبي لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. فسكت رسول الله ﷺ. ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ للرجل الذي عنده: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال إن يُسمع لقوله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**».

وفي الحديث المتفق عليه أيضًا ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»، ومعنى الحديث أن المظهر ليس شيئًا عند الله وأنك ربما ترى رجلاً رث الهيئة لا يضيفه الناس بل يدفعونه عن أبوابهم، ولكنه مع ذلك ولي من أولياء الله لا يرد له دعاء ولا طلب، حتى إنه لو أقسم على الله وطلب منه فإن الله يعطيه طلبه ويبر بقسمة، ولقد كان

رسول ﷺ يدعو أصحابه إلى أخلاق وَمُثُلٍ عُليا ينالون بها الكرامة عند الله، وتكون لهم ببركتها زلفى عنده وحسن مآب.

فمنها: أن يعظم المؤمن أوامر الله فلا يستهين به بل يجعل لها في نفسه إجلالاً واحترامًا عظيمين جاء في مسند الديلمي أن رسول ﷺ قال: **«أعز أمر الله يعزك الله»**، وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد فيه حيث أنزله من نفسه»**، وروى الدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: **«من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده»**.

ومن الآداب التي علَّمها رسول الله ﷺ أصحابه حب الصالحين، فتلك الآداب هي مما ينال بها العبد الكرامة عند ربه جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«المرء مع من أحب»**، ولا غرو؛ فالصديق يؤثر في صديقه وهو أيضًا يقتدي به وتشبه تصرفاته جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن تشبه بقوم فهو منهم»**.

ومن الآداب التي يحبها الله ورسوله وينال العبد بها الكرامة عند الله أن يبكي العبد على خطيئته ويبتهج بالحسنة يهيئها الله إليه بحيث تظل نفسه حية الضمير لوامة تنفره من معاصي الله وتزين له الحسنات، روى الحاكم بسنده أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن سرته حسنته وساءته سيئته؛ فهو مؤمن»**، وهذه الفضيلة في المؤمن تحيي نفسه وتجملها بفضائل القناعة والسريرة الصافية والصدق والأمانة والابتعاد عن الأذى يقول النبي ﷺ: **«القناعة كنز لا يفنى»**، ويقول عليه الصلاة والسلام: **«مَن أصلح سريرته أصلح الله علانيته»**، وفي سنن البيهقي: **«مَن أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث، وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره»**.

إنَّ قناعة المؤمن بالحلال تسمو بنفسه وتبعث فيها الثقة بربه، ففي صحيح البخاري: **«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»**، ويقول عليه الصلاة والسلام: **«مَن أحب أن يكون أغنى الناس؛ فليكن بما عند الله أوثق بما في يده»**.

***

## من أحاديث الآداب

### حبُّ الحلال وبغض الحرام

من آداب المؤمن أن يروِّض نفسه على حب الحلال والتزامه، وأن يؤدبها على بغض الحرام واجتنابه، وأن يجعل أكبر همه اجتناب الكبائر والاستغفار من اللمم، وقد بشَّر رسول الله ﷺ أهل التوحيد بالجنة إذا اجتنبت الكبائر، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «النجم»: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣١- ٣٢]، وفي كتاب الله ﷿ ما يبشر أن من لقي الله موحدًا مجتنبًا للكبائر، فإن الله ﷻ يغفر له ويدخله الجنة، يقول ربنا ﷿ في سورة «النساء»: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

لكن على المؤمن أن يتذكر أن الإيغال في اللمم قد يؤدي إلى الكبائر، فمن أكثر النظر إلى النساء فتح على نفسه ذرائع الزنا، ومَن خالط المجرمين علموه الجريمة، لذلك فإن على المؤمن إذا وقع في اللمم أن يستغفر لذنبه ويتوب إلى ربه وفي الأثر: «لا صغيرة مع الإصرار».

**وإني مورد هنا بعض ما جاء في الكتاب الكريم والسنة المطهرة عن الكبائر لنظل دوامًا على حذر منها ونفرٍّ منها ومن ذرائعها -إن شاء الله- فرارنا من الوباء:**

الكبائر: هي الذنوب الفاحشة التي فيها عدوان على دماء المسلمين أو حرماتهم أو أموالهم، وكذلك الذنوب المنافية للحياء المسقطة للمروءة، والعلماء في عددها وأنواعها يختلفون، لكنهم مجمعون أن الكبائر جميعها لها صفة مشتركة وهي أن فيها ظلمًا للغير وطمسًا للعقل والفطرة، قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» يرددها ثلاثًا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فذكر منها ثلاثًا: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الحديث الذي رواه البخاري زاد اثنين، قال رسول الله ﷺ: «الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»، واليمين الغموس هي التي يحلفها كاذبًا

متعمدًا يطلب بها مصلحة لنفسه.

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«من الكبائر شتم الرجل والديه»**. قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: **«نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»**.

وفي الحديث المتفق عليه: **«اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**، وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: **«لعن أكل الربا ومؤكله»**.

ويلاحظ الأخ القارئ أن الكبائر كثيرة فكل ذنب لعن رسول الله ﷺ فاعله فهو من الكبائر، فإذا لعن رسول الله ﷺ كاتب الربا وشاهديه ولعن الراشي والمرتشي والرائش، فلابد أن يعتبر المؤمن هذه الأمور من الكبائر حتى يبتعد عن لعنة الله ورسوله.

لقد لعن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بالسلاح ويتدرب بذلك على الرماية، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء، ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمشبهات من النساء بالرجل، وقد أصبح هذان الصنفان شائعين في كثير من الوطن العربي مع أننا في هذه الأيام بحاجة إلى بطولات هائلة لا إلى نعومة طريق خاملة، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ لعن الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل.

وفي معجم الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: **«أربعة لعنهم الله من فوق عرشه وأمنت عليهم الملائكة: عدد من بينهم الذي يحصن نفسه عن النساء ولا يتزوج لئلا يولد له»**، وفي الحديث المتفق عليه أنه عليه الصلاة والسلام لعن الواصلة والواشمة والمستوشمة، يعني التي تصل شعرها لتخدع الخاطب والتي تستوشم فتغير خلق الله لتتجمل بذلك، كما لعن المتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، والمتفلجة هي التي تبرد أسنانها ليبتعد بعضها عن بعض، والنامصة التي تأخذ من شعر حاجبها وترققه أو من شعر حاجب غيرها ليبدو قوس الحاجب من كل ناحية متسقًا.

وقد لعن رسول الله ﷺ المسلط على أمة محمد بالجبروت والمستأثر بفيئها، أي: الذي ينهب أموال خزينتها، كما لعن مَن أتى بهيمة وآذى المسلمين في طريقهم، وأكثر اللعن بغير حق، روى أبو داود -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ؛ فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا».

ولعل الإخوة القراء وقد عرفوا الآن من أنواع الكبائر ومن أنواع الملعونين عددًا كبيرًا، ومن الكبائر أن يسب الدين وأن يحرف القرآن وأن يدعو الكاتب المسلم والشاعر والمفسد بكلامه إلى الفساد والإفساد والإلحاد؛ لأن كل ذلك ظلم والله ﷻ يقول في سورة «هود»: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ومن الكبائر قطعية الرحم وأكل أموال الناس بالباطل وغصب حقوق العباد بالقوة؛ لأن كل هذا داخل في الظلم والظالمون ملعونون. إن من آداب المؤمن أن يبتعد عن الكبائر ويستغفر للمم ليلقى الله يوم القيامة مبتغيًا الوسيلة إليه بالتوحيد الخالص ثم بالابتعاد عن الظلم بأنواعه وعندئذ يكون مبشرًا بالأمن والسعادة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ومع أن الظلم فسره بعض الأشياخ بالشرك لكنه أوسع مدلولاً من ذلك، والله أعلم.

***

## من أحاديث الآداب

# آداب المؤمن إزاء أشراط الساعة

لقد أخبرنا نبيُّنا محمد ﷺ وهو الصادق المصدوق بما يكون بين يدي الساعة من فتن، وذلك لنظل على حذر منها، ولنعد لها توبةً وعملاً صالحًا مخلصًا لوجه الله الكريم، والحق أن بعثة رسول الله ﷺ نفسها هي من أشراط الساعة، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت والساعة كهاتين**»، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى.

ولقد حذَّر النبي ﷺ من فتن ستسبق الساعة تكون كقطع الليل والمظلم ليتماسك المؤمن في وجه تلك الفتن، جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ بين يدي الساعة فتنًا كأنها قطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**». والمؤمن له أدب إزاء أشرط الساعة فهو يؤمن بكل ما أخبر به رسول الله ﷺ من أشراطها ثم هو يظل متذكرًا لأهوالها سائلاً ربه أن يجنبه تلك الأهوال يقول ربنا ﷻ في سورة «محمد»: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٨].

والمؤمن إذا رأى من أشراط الساعة شيئًا حداه ذلك إلى عمق الإيمان برسالة محمد وكلامه ﷺ وإلى إعداد نفسه للصبر ومواجهة الفتن بقوة الإيمان وصدق اليقين.

وإننا لننظر في أيامنا هذه فنجد أن ما أخبر به النبي ﷺ من أشراط الساعة تحقق بأمر الله كفلق الصبح، وعلى سبيل المثل نرى في هذه الأيام أصحاب الغنى الفاحش ممن يطلق عليه لقب مليونير أكثرهم حصل أمواله بالاتجار بالحرام واستعمل الغش والاحتكار والختل وفي هذا يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ**»، وفي صحيح البخاري «أن أعرابيًّا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا ضاعت الأمانة فانتظر الساعة**»، فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**».

وإنك لترى في أيامنا هذه أن عددًا من يهود العالم وسدت إليهم أمور فأفسدوا في الأرض

وعاثوا في حقوق العباد، وفي مسند الربيع أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يسود كل أمة منافقوها**»، وفي سنن أبي داود يقول النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى أوثان يعبدونها من دون الله**»، وهو أمر نشاهده في المساجد التي فيها مقامات وقبور.

ومن أشراط الساعة التي تحققت ما جاء في الشهاب أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظًا** (أي: يغيظ أباه) **والمطر قيظًا، ويجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم**»، وهو أمر نراه اليوم في سيرة كثير من الذراري المنفلتة.

وقد ذكر النبي ﷺ أشراط أخرى نعوذ بالله من فتنتها، ففي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»، وللبخاري أيضًا: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**».

وأخيرًا تطبق الدنيا كفرًا فلا تقوم الساعة كما جاء في صحيح مسلم: «**حتى لا يبقى على الأرض مَن يقول: الله الله**»، ويشيع في الناس غدر حتى لا يبالوا حرمة الجوار ولا الأبوة ولا الإخاء، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقتل الرجل جاره وأخاه وأباه**»، وفي سنن أبي داود وعد من رسول الله ﷺ بنصر مؤزر للمسلمين على اليهود، ففي مسند أحمد أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ!! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلاَّ الْغَرْقَدَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**».

ومن أحاديث النبي ﷺ في أشراط الساعة وهي أحاديث تحققت قول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد في مسنده والنسائي في سننه: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَمِ**».

ولعل كلمة (ظهور العلم) تعني ما أحدثته الأقلام المسمومة والكُتَّاب والصحفيون الكذابون في الأرض من فتنة وفساد عريض قلبا موازين الناس وعاثا في مفاهيمهم ودنسا إعلامهم وتوجههم.

ومن الأشراط التي ذكرها رسول الله ﷺ ونراها تتحقق ما جاء في قول النبي ﷺ فيما

رواه أبو داود: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد»، وفي صحيح البخاري: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان».

وفي صحيح مسلم: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا».

وفي سنن الترمذي: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ؛ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرْمَةِ بِالنَّارِ».

وروى البزار والطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها».

وفي سنن الترمذي ومسند أحمد يقول رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ، وَحَتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ». وفي مسند أحمد: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج»، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: «القتل القتل».

أما الأشراط المباشرة التي لا ينفع معها الإيمان الجديد الذي يحدث بعدها؛ فهو ما ذكره الشيخان في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا».

وفي صحيح مسلم: «ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ».

أسأل الله أن يحشرنا وجميع المسلمين إليه غير خزايا ولا مفتونين، وأن يتوفانا برحمته وإياكم مؤمنين مسلمين موحدين.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۞ فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا ۞ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۞ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۞ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦].

## من أحاديث الآداب

# الدنيا ممر إلى الآخرة

من أجمل الآداب التي يتحلى بها المؤمن أنه يتخذ من دنياه ممرًا إلى آخرته، ويعتبر نفسه في هذه الحياة عابر سبيل. إنه لا يجعل الدنيا غاية أمله ولا يرى في نعيمها إلا متاعًا قليلاً وعرضًا زائلاً، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ: **«اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي»**، وكان أعظم ما يرجوه أن يكون ربه راضيًا عنه، ففي مناجاته وقد دميت رجلاه من حجارة السفهاء بالطائف: **«إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله»**.

المؤمن إن أقبلت عليه الدنيا تعامل معها بحذر، وأخذ من نعيمها بقصد، واستعان بغناها على طاعة الله، وتزود منها لطريقه الطويل، فلقد حدث بعض أصحاب علي ﷺ أنه رآه في سواد الليل ماثلاً في محرابه وهو خليفة المسلمين، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الثاكل الحزين، ويقول: يا دنيا إليك عني، باينتك ثلاثًا لا رجعة بعدها، آه من قلة الزاد، ووحشة الطريق وبعد السفر.

ولقد كان رسولنا ﷺ يخشى علينا الغنى وتبرج الدنيا لنا بحطامها الزائل، ويقول: **«وَاللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»**.

وكان يوصينا عليه الصلاة والسلام أن نتذكر في رخائنا أوقات شدتنا، ونتزود في سكنتنا زادًا لرحيلنا ويقول: **«فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب (أي من عذر)، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»**.

ولما فتحت عليه الدنيا ورأى في بيت المال ما يمكن به أن يحقق رغباته ردع نفسه عن كل شهواتها وطوى على الجوع بطن الأديم ونفسًا طموحًا كريمًا، وكان يقول لعائشة: **«إِذَا أَرَدْتِ**

اللُّحُوقَ بِي؛ فَلْيَكْفِيكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلاَ تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ».

وروى الترمذي أن معاوية ﷺ أرسل إليها ثمانين ألف درهم فما أمسى عندها درهم واحد، ولما قالت لها جارتها: لو اشترت لنا بدرهم لحمًا قالت -رضي الله عنها: لو كنت ذكرتني لفعلت. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يدعو ويقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا**».

إنَّ في كتاب الله آيات مخيفة حقًّا يوشك من يتدبرها أن يطلق ملاذ الدنيا إلا ما يقيم أوده ويعينه على عبادته أو جهاده، هذه الآيات توحي أن من يغرق في طيبات الدنيا ويتمتع منها تمتع الأنعام بأعلافها فإن تلك المتع الدنيوية الزائلة تكون كل نصيبه وأنها تحرمه من نعيم الجنة الباقي، يقول ربنا ﷻ في سورة «الأحقاف» في حق من تبطره النعمة فيعبث فيها إسرافًا ومعصية وفسوقًا: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وفي سورة «محمد» ﷺ يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ [محمد: ١٢]، وفي سورة «الحجر» يقول الله تعالى: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الحجر: ٣].

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بما نحن فيه اليوم من مآكل ومشارب وزخرف وستائر وكان يتخوف علينا ذلك، جاء في سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ كان جالسًا مع أصحابه إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكى ما كان فيه من النعمة وما هو فيه اليوم ثم قال: «**كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة، وراح في حلة، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟**» فقالوا: يا رسول الله، نكون يومئذٍ خيرًا منا اليوم؛ لأننا نكفى المئونة ونتفرغ للعبادة، فقال ﷺ: «**بل أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ**».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه كأنه يسليهم عما كانوا فيه من الفاقة: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم، وقد كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**».

وكان عمر ﷺ ربما حرم نفسه من طيبات عادية خشية أن يحرم طيبات الآخرة، جاء في «صحيح رزين» أنه ﷺ طلب عند قوم ماء ليشرب فجيء له بماء قد شيب بعسل، فقال: إنه لطيب، لكني أسمع الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال: ﴿أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، وإني أخاف أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا، ثم رده فلم يشربه.

وذكر عند رسول الله ﷺ رجلان أحدهما كثير العبادة والآخر كثير الورع (الورع هو الزهد في حطام الدنيا وملذاتها)، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يعدل الورع شيء**».

وجاء في الصحيحين هذه المجموعة من الأحاديث التي تبيِّن كيف كانت عيشته عليه الصلاة والسلام، قالت عائشة -رضي الله عنها- لابن أختها عروة بن الزبير: والله يا ابن أختي إنا كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقال لها: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، وما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض، وما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وأحدهما تمر.

وقالت رضي الله عنها: ما شبع النبي ﷺ من خبز وزيت مرتين. وقالت رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير، وكان بعض الشعير غليظًا قد لا يجيزه إلا بجرعة ماء، وكان يلبس الصوف، ويحتذي المخصوف (أي: الحذاء المرقع).

وفي صحيح مسلم: كان ربما ظل يتلوى ما يجد من الدقل (وهو رديء التمر ما يملأ به بطنه).

وكان أنس ﷺ يقدِّم إلى ضيوفه خبزًا مرققًا ويقول: ما أعلم أن النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا ولا شاة سميطة (أي: مشوية) حتى لحق بربه، وحسبك من هوان الدنيا ومتاعها أنه عليه الصلاة والسلام أكل في شعب أبي طالب ورق الشجر حتى تقرحت أشداق أصحابه، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير، وأن عليًّا نزع عشرة دلاء ليهودي بعشر تمرات أقام بها صلبه.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۞ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

## من أحاديث الآداب

# عاقبة الظلم

من الناس من إذا أوتي سلطانًا أو قوة لم يتورع عن ظلم عباد الله وهضم حقوقهم والاعتداء على كرامتهم، يرى في ذلك إظهارًا لقدرته وفرضًا لسيطرته ووسيلة لتنمية أمواله، وتراه مع ذلك مطمئن النفس للظلم لا يلومه ضميره ولا يوقظه عقله يعود إلى بيته فيبتهج بالرزق الحرام والمتاع الزائل لا تهزه دعوة المظلوم ولا يخطر بفكره قول رسول الله ﷺ: «**اتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» مثل هذا التعس هو صاحب النفس الأمارة سيطرت عليه أوامر شهواته فأوردته موارد السفالة والهوى الرخيص وهدر حقوق الناس على صخرة قلبه القاسي.

ومن الناس مَن إذا صدر عن أي خطأ في حق عباد الله انقضت عليه نفسه اللوامة تقرعه وتنكر عليه، ثم لا يزال به ضميره الحي حتى يرده إلى الحق ردًّا شريفًا ثم لا يطمئن ضميره حتى يعتذر إلى أخيه المخطأ عليه أو يعيد إليه حقه الذي دخل ذمته.

هذا المسلم هو صاحب النفس اللوامة التي أقسم بها ربنا ﷻ، وقد جمع الله في قسمه العظيم بينها وبين القيامة وذلك لأنها لا تفتأ تذكر صاحبها بالحساب يوم القيامة يوم لا يضيع الله مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ - ٢].

وإني لأعجب أشد العجب لإنسان يستمرئ حزن عباد الله ويستعذب عذابهم وقهرهم ويرى بعينه المجرمة أخًا له في الإنسانية سبب له ظلم أخيه المسلم تعاسة قاتلة يعاني منها هو وعائلته وأولاده تراهم نجوم الليل على قدم رافعين إلى الله أكف الدعاء وجئير البكاء، يستمطرون الغضب على ظالمهم في جنح الله، فيرفع الله دعاءهم فوق الغمام، ثم يقول ﷻ للمظلوم: «وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»، مصداقًا لقرآنه الكريم: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

إنَّ أفتك مرض يطيح بالصحة ويهزل به الجسم هو أن ترى نفسك مظلومًا وترى ظالمك متحديًا لضعفك متشفيًا بظلمك. ترى نفسك مسهدًا لا تطعم النوم من ألم الظلم وترى

ظالمك يلعب لاهيًا ساخرًا، وفي هذا يقول أبو الطيب:

واحـــتمال الأذى ورؤيـــة جانبـــه    غـــذاء تضـــوي بـــه الأجســـام

ويقول الشاعر:

تنـــام عينـــاك والمظلـــوم منتبـــه    يـــدعو عليـــك وعينـــه الله لم تـــنم

من أجل ذلك الوقع المؤلم للظلم وبخاصة على قلوب الأباة الشرفاء بدأ ربنا فحرَّم الظلم على نفسه، ثم جعله بين عباده محرمًا؛ ففي الحديث الصحيح مما يرويه نبيُّنا ﷺ عن ربه: «**يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته عليكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»، وثمة مشهد من مشاهد القيامة صوَّره رسول الله ﷺ فيه عبرة لكل مَن تحدثه نفسه بالظلم، حشر الناس في فزع شديد هو الفزع الأكبر.

ولا شكَّ أن التائه الخائف إذا مشى في النور أحس بالأنس ولو بصيصًا خافتًا لكن الفزع كل الفزع حين يكون المشي في الظلام. هنالك يكون التخبط والعثار، في ذلك الموقف الهائل يرى في ساحات القيامة قوم يخبطون في الظلام ليس لهم نور يمشون فتراهم في منظر فظيع حقًا بينما ترى للمؤمنين نورًا يسعى أمامهم وعن إيمانهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير. أما أولئك الذين لا نور لهم يوم القيامة؛ فهم أهل الظلم، وإلى هذا أشار النبي ﷺ في الحديث الصحيح؛ إذ يقول: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

ويزيد الله آلام الظالم حين يلتفت حوله فلا يرى له أي صديق من أولئك الذين كانوا يجاملونه في الدنيا خوفًا من ظلمه، يلتفت حوله فيرى أصدقاء يتعارفون من أهل الصدق والعدل ويرى نفسه ولا ناصر له ولا متعاطف، يقول ربنا ﷻ في سورة «غافر»: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر: ١٨]، وفي سورة «الحج»: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ [الحج: ٧١].

لقد زال سلطان الظالم؛ فلا ظلم اليوم وجاء يوم الجزاء العادل: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [غافر: ١٧]، قد لا يرى في كل ساحات القيامة أحقر ولا أكره ولا أذل من الظالم لأن الظلم في الدنيا مقرون بتراث الكراهية وكما عاش الظالم في دنياه كريهًا فإنه يحشر في القيامة أشد ما يكون ممقوتًا كريهًا.

- في الحديث المتفق عليه: «**مَن ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»، يعني أن الله ﷻ يحكم أن يطوق الظالم لشبر مربع من الأرض بتراب ذلك الشبر محفورًا إلى عمق الأرضين السبع.

- وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم (أي: يمهله وقد يسوق إليه النعم) حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية من سورة «هود»: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. والمفسرون لهذه الآية الكريمة لاحظوا ما سبقها وما يكتنفها من وعيد يطير بالعقول، فقد جاءت الآية الكريمة بعد قصص الهالكين أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، حتى إذا استكمل قصص الظالمين ختم القصص بهذه الآيات المرعبة حقًّا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠- ١٠٢]، وفي كلمة أخذ القرى وكلمة أخذه إشارة إلى القضاء الماحق الذي لا يترك لظالم أثرًا فسبحان من هذا كلامه.

- وفي الحديث المتفق عليه من حديث عبد الرحمن بن سعد الساعدي صورة منفرة للظالم وهو يحمل على عاتقه كل ما اغتصبه من مال لا حق له فيه يقول رسول الله ﷺ: «فلا أعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر».

- وفي صحيح البخاري نصيحة للظالمين: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

- وفي صحيح مسلم ترهيب من اليمين الكاذبة التي يؤخذ بها حق مسلم: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا، فقال ﷺ: «وإن كان قضيبًا من أراك».

- وفي أكل أموال الدولة ظلـمًا قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري: إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة.

- وقد كان رسول الله ﷺ يرفض أن يصلي على ميت ينوء في ذمته بدين؛ لأن الدين حق وعلى المؤمن أن يتطهر من ديونه قبل أن يوافيه أجله.

## من أحاديث الآداب

# التفكُّر والتدبُّر

إنَّ من آداب المسلم أن يتحلى بالتدبُّر والتفكُّر، وألا يصدر في أحكامه عن غوغائية يحكمها الهوى، أو سطحية تنقصها الأناة والحكمة، لقد كان رسول الله ﷺ طويل التفكير عميق التأمل حتى لقد كانت عبادته في حراء تفكيرًا باحثًا متأملاً في ملكوت السموات والأرض، وجاء دينه القويم حثًّا على التفكر في خلق الله وعلى التدبر لكلام الله، بل إنه لما رأى سيطرة الهوى على المشركين وأسلوب الغوغائية في المعاندين دعاهم إلى أمر واحد ألا وهو أن يخلوا إلى أنفسهم أو يجتمعوا اجتماعات صغيرة يسهل فيها التفكر ثم يتفكروا في دعوة محمد وكلام الله مؤكدًا لهم أن مجرد التفكر المستنير والتدبر المتأني والتأمل العميق سيوصلهم إلى الحقيقة ويهديهم إلى الإيمان، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «سبأ»: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

والجميل في الإسلام أنه دعا إلى التفكر الحر والتدبر المتأمل في وقت كانت الكنيسة فيه تعتبر التفكر الحر في الدين جريمة، وقد طار صواب الكنيسة في مطلع النهضة الحديثة حين انبرى بعض المصلحين فدعوا إلى تفسير الإنجيل تفسيرًا حضاريًّا عصريًّا.

وحين تساءل بعض المصلحين عن أمور ابتدعها البابوات كبيع صكوك الغفران وعبادة الصور وبلغ من حنق البابوات أن سموا أقطاب الإصلاح الديني هراطقة، أي: كفارًا، وأنشئوا لهم محاكم سموها محاكم التفتيش قتلت الآلاف منهم، واستحلت تمزيق أجسادهم وإزهاق أرواحهم.

لقد دعانا الحق ﷻ أن نقرأ قرآننا في تدبر عميق وأنكر على من يقرأ القرآن قراءة لا تتجاوز الحلوق، يقول الله تعالى في سورة «محمد»: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول في سورة «ص»: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وفي سورة «البقرة» كرر الله ﷻ مرتين قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ولا غرو؛ فالإسلام يجمل في قلبك وعينك كلما تدبرت محاسنه والقرآن يتجلى لك إعجازه كلما تدبرت لفظه ومعناه.

وحسبك أن كتاب الله يدعوك لتتخذ من الكون كتابًا تقرأ فيه دروس الإيمان قال تعالى في سورة «يونس»: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وما أحلى قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤- ١٨٥].

جاء في الحديث الذي رواه عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تفكروا في آلاء الله (أي: في آيات قدرته ومواهب نعمه)، ولا تفكروا في الله (أي: في ذاته العلية).

وقال أبو الدرداء ﷺ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وذلك لأن الرجل قد يقوم ليلة قيامًا آليًّا يتركع ويسجد دون أن يفكر ذلك التفكير الواعي الذي يجعله يقدر الله حق قدره ويخشاه حق خشيته».

ومن كلام وهب بن منبه ﷺ: إذا أطال المرء الفكر فهم، وإذا فهم علم، وإذا علم عمل. وقال بشر الحافي رحمه الله: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وفي تفسير قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. يقول الأشياخ: إن المرء إذا تكبر على خلق الله وتطاول عليهم بغير حق واستشعر الغطرسة والعجب فإن الله ﷻ يقفل قلبه عن التفكر في آيات الله ومخلوقاته ليظل مغرورًا مشغولاً بنفسه غافلاً عن بواعث الإيمان والعمل الصالح.

إنَّ دين الإسلام يعتبر التفكر في بدائع صنع الله تربية إيمانية عظيمة. نظر أحدهم مرة إلى عينيه في المرآة فلفت نظره أن العين تطرف (أي: ترمش) بمعدل مرة في كل بضع ثوانٍ، وكأنه استهان بحركة العين هذه، وسأل أحد أطباء العيون عن هذه الحركة المستمرة من العين؛ فقال له الطبيب: إنَّ هذه الحركة عملية صيانة مستمرة للعين تنظف العين في كلِّ بضع ثوانٍ وتغسلها لتظل نقية من الغبار والأوضار، فاسأل الله أن يحفظ عليك جفنيك وحركتهما التي

تعمل عمل مساحة السيارة في المطر الشديد.

ومن ثَمَّ؛ فإن من أعظم ميادين الاعتبار هو جسمك الذي تتنوع فيه المفاصل والأجهزة وبخاصة أعصاب السمع والبصر والفؤاد ومراكز الدماغ، وفي هذا يقول ربنا -جل وعلا: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

ولله ذلك الشمول المعجز في قوله ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ألا ما أروع هذه الكون معرضًا لدلائل القدرة ومسرحًا لأدلة الوحدانية:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولما للفكر من أهمية في غرس الإيمان وتثبيته يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس -رضي الله عنهما: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»، وذلك لأن الفقيه يصدر عن تفكر في عبادته، في حين قد يتعبد المتعبد آليًّا بعادته.

لقد علَّمنا نبيُّنا ﷺ أن نميز بين الإثم والبر وبين الحلال والحرام بمعيار الفكر، ولما جاء أحد الصحابة يسأله ﷺ عن البر والإثم أفاد السائل أن يعرض الأمر على الفكر السليم المستقيم، فإن رآه بعد التفكر مطمئنًا للنفس والقلب فهو بر، وإن رآه مما تنكره الأمة ولا يطمئن إليه الفكر فذلك هو الإثم.

نسأل أن يجعل صمتنا فكرًا، وأن يجعل نطقًا شكرًا.

***

## من أحاديث الآداب

# محاسـبة النفـس

من آداب المؤمن أنه يعرف قدر نفسه حق المعرفة فلا هو يحقرها ويهمل أمرها ويتبعها هواها ولا هو يطلق جماحها لدواعي الغطرسة ومزالق الردى وإغراء الشهوات. المؤمن يدين نفسه ويشتد في محاسبتها، أما غير المؤمن فتراه غبيًا. عاجزًا. يرخي لنفسه عنان الهوى فتسيطر عليه وتجره إلى الهاوية، وهو في أثناء ذلك يتمنى على الله الأماني.

المؤمن يشتري نفسه من العذاب بعرض من الشهوات ورخيص الهوى فيرديها ويردى بهلاكها، سلّم الفضيل بن عياض على هارون الرشيد وإذا يد الخليفة ناعمة بضة طرية فقال الفضيل: ما أجملها يدًا إذا سلمت من عذاب الله ولم تلفحها نار جهنم.

المؤمن يري نفسه بمقياس مادتها ونعومتها وترفها جيفة حيوانية قذرة، لكنه يراها بمقياس إيمانها وصلاحها وتقواها جوهرة إلهية غالية، أما العاجز الكافر فيذوق لنفسه طعمًا من الإعجاب والعجب، وطعم النفس هو طعم أهوائها وثرواتها فتزين له دروب الهوى والضلال وترديه قتيلاً في بهرج الزينة والمال، ثم إذا كل ذلك هشيم تذروه الرياح، ولا يخلف إلى الحسرة والجراح. هنالك يرن في أذنيه هاتف يكاد يصمها: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٦٤].

المؤمن يعكف على تربية نفسه وسوس غرائزها وترويض شماسها بالعلم والعبادة وصحبة الأخيار، فتتحول نفسه روحًا ترقى في مدارج الإسلام والإيمان والإحسان حتى تسمو إلى مقامات الملأ الأعلى، وأما الكافر الجاهل فيعكف على تربية جسده حتى يكتنز لحمًا ويطبق شحمًا إذا كل ذلك نهب للدود والتراب، ومن بعد هذا مكابدة للبعث والحساب كل هذه المعاني الراقية جمعتها البلاغة النبوية في سطر واحد في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وحسنه؛ إذ يقول رسول الله ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

أخي إذا أردت أن تعتق نفسك من عذاب الله فجاهدها جهادًا كبيرًا، واجعل أسوتك في مجاهدتك رسول الله ﷺ ففيه الأسوة الحسنة كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا. وإذا وجدت نفسك أمارة بالسوء فأدبها وعاقبها عقابًا يناسب سوءها ولتكن عقوبتك لها وسطًا قوامًا لا شطط فيها ولا غلواء، وإذا رأيت منها ميلاً إلى الفاحشة فابتعد بها عن بيئات النساء، إذا رأيت فيها شهوة البطن جامحة فاقدعها بالصوم والاعتدال، وإذا آنست منها حبًّا للسحت فتفقد كسبك واكتف بحلال الله عن حرام واستعن بفضله عمن سواه.

حتى إذا تعودت نفسك الحلال أعانها ربها على هجر الحرام، فإذا هي ترتقي في مدارج السلوك من أمارة إلى لوامة، تلومك على الذنوب، وتذكرك بحساب يوم القيامة، ولأمر ما قرن الله قسمه بيوم القيامة فأقسم معه بالنفس اللوامة؛ لأنها دوامًا تذكرك بيوم القيامة: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ١ - ٤]، وباستمرار رياضتها تتحول إلى نفس مطمئنة راضية عن الله مرضية عنده، وعندئذ تبلغ أعلى مراتب الدين ألا وهي مرتبة الإحسان حين تتقي الله حيثما كنت، وتراه معك أينما كنت، فتعبده كأنك تراه، وتؤمن أنه يراك وإن لم تكن تراه.

إنَّ من أدب المؤمن إزاء نفسه أن يحمل نفسه على ما تكره، ويعودها على خوض الصعاب والصبر عن الشهوات، قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**»، وفي رواية لمسلم: «حفت...»، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا أبا ذر، لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك، فيعلم من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حِلٍّ ذلك أم من حرام**» (رواه الديلمي).

وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن أكثر ما يدخل النار، فقال: «**الفم والفرج**» يعني بذلك شهوات النفس من المطاعم والشهوات.

وقد دعا رسول الله ﷺ بالتعاسة على من يربط رضاءه وغضبه بملاذ الدنيا فقال: «**تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**»، وقد كان أمير المؤمنين عمر ﷺ أقوى الناس في محاسبة نفسه، وكان عليٌّ ﷺ أقدر الناس على قهر شهواته، ولقد رآه بعض

أصحابه في جنح ليلة باردة ماثلاً في محرابه يتململ تململ السليم (الملدوغ)، ويبكي بكاء الحزين، وقد بللت دموعه لحيته وهو يخاطب شهوات الدنيا يقول: «إليك عني غري غيري، باينتك ثلاثًا لا رجعة بعدها، آه من قلة الزاد ووحشة الطريق وبعد السفر». وقال عمر ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا».

إنَّ المؤمن عبد الله أوثقه القرآن عن كل معصية وحال الإسلام بينه وبين كل منقصة وجمله دينه بكل فضيلة وهو يعلم أن الله مؤاخذه وسائله عن سمعه وبصره وجوارحه، وهو مؤمن واثق أن كل أولئك كان عنه مسئولاً، والمؤمن في كل أحواله على استعداد تام للقاء ربه؛ لأنه يتوقع لقاءه كل لحظة، فلا يزال يهتف به هاتف الله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨]، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

* * *

## من أحاديث الآداب

# التخوف من الذنوب

تجتمع في المؤمن طائفة من صفات الخير وسمات الإيمان تجعله في الناس محببا القلوب وتحول بينه وبين العيوب، ولعل أهم تلك الصفات ثلاث هن من أجمل الشمائل:

**أولاها:** التخوف من الذنوب.

**وثانيها:** جمال السمات وحلاوة الطريقة.

**وثالثها:** سمو الذوق في كل عمل وقول.

وقد قلبت كتب السنة المطهرة فرأيت فيها أجمل الحديث عن فضائل النفس من عفاف وذوق ومروءة ومسارعة إلى الخير، فأحببت أن أسجل هنا بعض كلام النبي الكريم حول أدب النفس وذوقها وسمو أهدافها ومروءتها، لعل الله ينفعنا بها والإخوة القارئين ويجعلنا وإياهم ممن طاب ذوقًا ونفسًا وحياةً وأدبًا، يقول النبي ﷺ: «**مَن خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة**».

وفي حديث أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: «**كيف تجدك؟**» فقال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فسر النبي ﷺ وقال للشاب: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**».

وفي صحيح مسلم من حديث حنظلة بن الربيع أحد كُتَّاب النبي ﷺ قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا تَقُولُ؟! قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا

كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً».

ومن حديث مطول للترمذي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثُلثا الليل قام فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

وفي سنن الترمذي أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يعلِّم أصحابه التعامُل مع الدنيا بجمال نفس وإجمال في الطلب، فيقول: «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ».

وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع، ويقول الله تعالى فيما يرويه عن نبيِّه ﷺ: «يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك وأسد فقرك».

وقد دعا رسول الله ﷺ أهل القرآن أن يقرءوه قراءة فقه وتدبر لتظهر حكمته على ألسنتهم وتغرس أخلاقه في قلوبهم، أما مجرد الهذرمة بقراءته دون تفاعل مع مقاصده ومراميه وأخلاقه فتلك قد لا تخدم في بناء الشخصية القرآنية التي تجعل المؤمن قرآنيًّا في أسلوبه وبلاغته، وفي أخلاقه ونزاهته، يقول ابن مسعود ﷺ فيما رواه عنه الإمام مالك -رحمه الله: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ، يُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ، يُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ».

ومما يرقق القلب ويبعث فيه مخافة الله تذكره أبدًا بالموت ليعلم أن قصة الحياة لا بدَّ أن يسدل ستارها على هذه الخاتمة اليقينية، وأن على العبد أن يظل متجدد الصلة بالله مستعدًا للقاء الكريم حتى الدقيقة التي يأتيه فيها اليقين، واليقين هو الموت، وفي مسند الدارمي أن لقمان قال لابنه: يا بني، إنك استدبرت الدنيا منذ ولدت، واستقبلت الآخرة منذ كنت، وإن

دارًا تسير إليها أقرب إليك من دار سترحل عنها».

وكان سيدنا عيسى ﷺ يقول لأصحابه: «**لاَ تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ؛ فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلاَءِ، وَاحْمَدُوا اللهَ عَلَى الْعَافِيَةِ**».

ومما يأخذ بالقلب إلى طريق الحكمة أن تكون عبادته على علم؛ لأنه إنما يخشى الله من عباده العلماء؛ لأن العالم يطلع من ملكوت السموات والأرض على ما يزيد يقينه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وفي الحديث الذي رواه عمر بن عبد العزيز -رحمه الله: «من تعبد بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح».

ومن أحاديث الرقائق الجميلة حديث رواه أحمد -رحمه الله- في مسنده: «يبعد العبد في عبادته عن أن يمن بها ويستكثر، يقول النبي ﷺ: «**لو أن رجلاً يخر على وجهه (أي: ساجدًا لله) من يوم ولد إلى يوم يموت في مرضاة لحقر ذلك العمل يوم القيامة**».

ومن الفضائل التي أوصى بها رسول الله ﷺ أصحابه لترق قلوبهم وتسمو نحوه مسيرتهم خشية الله في السر والعلانية وكلمة العدل في الرضا والغضب والاعتدال في الفقر والغنى، وأن يكون العبد على كافة أحواله مع المعروف والإحسان فيصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، وأن يكون مع الله على جميع تقلباته، فيجعل صمته تفكيرًا في آيات الله ونطقه ذكرًا لرب العزة وأمرًا بكل معروف ونهيًا عن كل منكر. وفي سنن الترمذي طائفة من الأحاديث التي تدعو إلى جمال النفس والطريقة.

وخلاصة هذه الأحاديث أن ينظر في أمور دينه إلى من هو فوقه لتطمح نفسه إلى مدارج السالكين، وينظر في أمور دنياه إلى مَن هو دونه لتعظم نعم الله في قلبه وعينيه، وأن يتحلى بما يحفظه من السقطات، فقد قال ﷺ لعقبة بن عامر: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ**».

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة مَن تركه الناس اتقاء شره**»، وفي رواية: «**اتقاء فُحشه**».

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ دعا إلى المحبة والألفة وحسن العشرة بين المؤمنين فقال: «**المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**».

### من أحاديث الآداب

## تحمُّل الأذى في الله

حين يرتضي المؤمن الإسلام دينًا، يسلم وجهه لله، ويهب حياته ونفسه له، ويقول ما أمر الله نبينا أن يقول: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾، ثم هو بعدئذٍ لا يرهب الشدائد في الله، ومن ثَمَّ لا تأخذه في الحَق لومة لائم.

إنَّ من أعظم آداب المؤمن أنه يتحمل الإيذاء والعذاب في سبيل الله ولا يثنيه ذلك عن دينه العظيم مهما اشتد الخطب وعظم البلاء، بل إن المؤمن ليستعذب العذاب مادام فيه رضاء الله، وعز ومنعة لدينه، قال المقداد بن الأسود ﷺ: «والله لقد بعث رسول الله ﷺ على أشد حال بعث عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية ما يرى الناس فيها دينًا أفضل من عبادة الأوثان».

إنَّ على كل مسلم أن يقوم إزاء إسلامه بأربعة أمور: أن يعلم أمور دينه حتى لا يعبد الله على جهل، ولا يكون عمله تخبطًا واعتسافًا، وأن يتعلم قبل أن يعبده بقول أو عمل؛ لأن من عبد الله على جهل فلربما عصاه، وهو يعتقد أنه يعبده، يقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ (يعني: تعلم حقيقة التوحيد الخالص) ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فانظر كيف رتب الأمر، فقال: ﴿فَاعْلَمْ﴾ ثم ﴿اسْتَغْفِرْ﴾ بادئًا بالعلم قبل القول والعمل)، ولا غرو فالإسلام أساسه العلم وأول آيات قرآنه: ﴿اقرأ﴾.

ومن ثم فالمؤمن يبدأ بتعلم أوامر الدين ويثني بالعبادة وسلوك الصالحين ويثلث بعدئذ بالتزام الحق والدعوة إليه، ولو كان في ذلك قطع الوتين، وأخيرًا يوطن نفسه على الصبر ولو أحاط به كيد الكافرين.

جاء في الحديث الذي رواه الطبراني عن منيب الأزدي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في

الجاهلية وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، فمنهم من ثقل عليه، ومنهم من حثا عليه ترابًا، ومنهم من سبه حتى انتصف النهار أقبلت جارية وضيئة الوجه تحمل قدحًا ومنديلاً فناولته فغسل وجهه ويديه، وفي رواية: فشرب وقال لها: **«يا بنية، خمري عليك نحرك (يعني: غطي مقدمة عنقك)، ولا تخافي على أبيك غيلة ولا ذلة»**. فقلت: من هذه؟ قالوا: هذه ابنته زينب. نعم والله ليس على أبيها غيلة ولا ذلة؛ لأن الإهانة في الله عز، والأذى فيه فخر وشرف.

قرأنا أن قريشًا أرادت قتل رسول الله ﷺ فتطوع من بينهم عقبة بن أبي معيط فجاءه وهو يصلي عند الكعبة، فخنقه بردائه حتى سقط ﷺ على ركبته من الخنق، فركض أبو بكر ﷺ يخلصه من الكافر الفاسق ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

ومن المعروف أن إسلام حمزة كان ردًا على سفالة أبي جهل حين تعمد إهانة رسول الله ﷺ على ملأ من الناس، فما ترك سبة ألا أفرغها حتى تحدَّث الناس بذلك النداء البشع، فهاج حمزة حين عاد من قنصه وعلم بتفاصيل الإهانات، وعمد إلى أبي جهل فضربه بالقوس بين أذنيه وهو يقول له: أتهينه هو أشرف منك، خُذْ هذه بالقوس وستأتيك الثانية بالسيف؟! وأبو جهل يتذلل، ويقول له: يا أبا عمارة، لقد سفه آلهتنا، فقال له حمزة: أشهد أنه لرسول الله رغم أنفك، فما كان يوم أشد على الكافر وقومه من ذلك اليوم، ولما نزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أمر ولديه عتبة وعتيبة أن يطلقا بنتي رسول الله ﷺ أم كلثوم ورقية، وقالت لهما أمهما حمالة الحطب أخت أبي سفيان: طلقاهما فهما صائبتان، ولم يكتف عتيبة بطلاق أم كلثوم، بل جاء إلى أبيها فشق قميصه وتهدده، وأعلمه أنه مسافر إلى الشام، وأنه سيفعل أكثر من ذلك إذا رجع، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فسلَّط الله عليه أسدًا افترسه من بين كل القافلة.

أما أصحابه ﷺ؛ فقد كان صبرهم على الأذى حديث الكتب ومعجزة الأخلاق ومفخرة المثل العليا، وحسب المؤمن أن يتخذ قدوته في الشدائد بلالاً وعمارًا وياسرًا وسمية أم عمار وسلمان وصهيبًا وأبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأبا جندل وأبا بصير والوليد بن الوليد ومصعب بن عمير، وغيرهم.

لقد تحمَّل هؤلاء الأذى والقتل والجوع والبرد، وحسبك أن تعلم أن حمزة ومصعب بن

عمير -رضي الله عنهما- لم يجد الصحابة لهما كفنين، فغطوا سائر جسديهما ببعض النباتات، وأن بعض أصحاب رسول الله ﷺ صلوا جالسين حتى لا تظهر عوراتهم إذا وقفوا، وأن رسول الله ﷺ نفسه استعار ثوبًا من شرحبيل بن حسنة؛ ليتمكن من الصلاة، فتخلف شرحبيل عن الصلاة لعريه.

وإن المرء ليعجب كيف كان أولئك الجياع العراة يملكون تلك الطاقات الجبارة التي غرست مهابتهم في صدور الصناديد، وجعلتهم ينتصرون بالرعب مرغمين أنف الجوع وأنف البرد؟!

والجواب أن صدق الإيمان حين تشربه قلوب المؤمنين يجعل المؤمن عبدًا ربانيًّا ينظر ببصر الله، ويسمع بسمعه، ويبطش بيده، ويمشي برجله، يسأل ربه فيعطيه، ويستعين الله فيعينه، ويقسم على الله فيبره، ويدعوه فلا يرد دعوته، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وإلى القارئ المؤمن هذه الحادثة التي بطلها صحابي لم يجد ثوبًا يلبسه، فلبس مرطًا رقيقًا لامرأته في ليلة ذات ريح باردة عاصفة، حدَّث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه فوقنا، ويهود بني قريظة أسفل منا نخافهم على أزواجنا وذرياتنا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمةً وبردًا وريحًا منها في أصوات ريحها مثل الصواعق، فطفق المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، وهم يتسللون، حتى بقينا نحوًا من ثلاثمائة رجل؛ إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً، حتى أتى عليَّ وما عليَّ ما يحميني من العدو ولا من البرد، إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي وكنت جاثيًا عليهما، حتى لا تضربهما الريح، فلما اقترب رسول الله ﷺ تقاصرت إلى الأرض خجلاً منه، فقال: «مَنْ؟» قلت: حذيفة، فقال: **«يا حذيفة، سيكون في القوم خبر هذه الليلة، فائتني بخبر القوم»**. قالها وما في الأرض أشد مني بردًا وجوعًا وفزعًا، فوقفت وخرجت فقال ﷺ: **«اللهم احفظ حذيفة من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، واجعله رفيقي يوم القيامة»**. فوالله ما أتم دعاءه حتى زال عني كل فزع وكل برد، ثم قال لي: **«يا حذيفة، لا تحدثن شيئًا في القوم حتى تأتيني»**.

ومضيت حتى دنوت من عسكر القوم، وإذا نار توقد ورجل أسمر ضخم يدفئ يديه على النار، ويمسح بها خاصرته، ولم أكن أعرف أبا سفيان، فهممت أن أرميه بسهم، فتذكرت أمر رسول الله ﷺ، فكففت وإذا الرجل يقول: الرحيل الرحيل، وكان أقرب القوم إليَّ بنو عامر، وإذا هم يقولون: الرحيل الرحيل، وإني لأسمع الحجارة تعصف بها الريح فتضرب أمتعتهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملته يصلي، فأحسست بالبرد، فأرسل عليَّ شملته، وبشَّرته أن القوم أخذوا يرحلون، ونزل قوله تعالى في سورة «الأحزاب»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

اللهم أمددنا منك بعزيمة على الرشد والإيمان نعيد بها سيرة حذيفة بن اليمان ﷺ.

***

## من أحاديث الآداب

# فضل النية الصادقة

في كتاب الله ﷻ آية كريمة لا تتجاوز ألفاظها كلمات، وددت لو ينقشها كل إنسان في شغاف ضميره ويجعلها ورده آناء ليله ونهاره. هذه الآية استوقفت الأشياخ -رحمهم الله- فلما وقفوا عندها وجدوها منارًا لسفينة الحياة تضيء لها شواطئ الأمن والإيمان ومرفأ السعادة والسلام إنها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لقد لفت أنظار المفسرين أن أسلوب الآية يسمي في علم البلاغة أسلوب حصر أو قصر، ويصبح بهذا معنى الآية أن الله ﷻ خلق الجن والإنس لعبادته فقط ولم يخلقهم لأي شيء آخر. وتساءل العلماء رحمهم الله كيف خلق الله الخلق لعبادته فقط مع أن هنالك أعمالاً كثيرة يمارسها الناس غير العبادة؟

إنَّ الناس مثلاً يأكلون ويشربون ويمشون في أطراف الأرض ويزرعون ويصنعون ويستمتعون بملذات الحياة فيتزوجون وينجبون ويربون ذرياتهم؛ فيكف نوفق بين هذه الحقائق وبين أسلوب الحصر في الآية الكريمة ذلك الأسلوب الذي يعلن أن حكمة الخلق هي العبادة فقط؟

ثم كان الجواب هو ما فتح الله عليهم به: أن الآية الكريمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وأن كل ما يمارسه الخلق من أكل وشرب ومشي وزراعة وصناعة وتجارة كل هذه ممكن أن تحولها النيات الكريمة إلى عبادات، فالله ﷻ هو من وراء القصد فلربما أثاب العبد حتى وهو يمارس شهوته. قال رسول الله ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»، ومعنى هذا أن المؤمن قد يأتي شهوته ويستمتع بأجمل لذته فيكتب الله له تلك الملذات صدقة حين اكتنفتها النوايا النبيلة وقصد بها الاكتفاء بالحلال عن الحرام، وما يتبع ذلك من إنجاب الذرية الطيبة التي تعبد الله وتتبع سلفها بإيمان.

وبهذا المفهوم يتسع مدلول العبادة حتى تشمل حياة المؤمن كلها عبادة بحيث تكون

صلاته ونسكه ومحياه ومماته عبادة كما تكون تجارته وصناعته وزراعته عبادة وحتى تصبح ملذاته من طعامه وشرابه وشهوته عبادة ويتحقق بذلك المعنى الإلهي العظيم للآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وليعلم العلماء أن أسلوب الحصر الذي فيها هو الأسلوب المقصود وأن لله الحجة البالغة، وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو سميع العليم. إن النوايا المخلصة لوجه الله تحول الشهوات إلى عبادة بينما النوايا الخبيثة الغاشة تحول الحسنات إلى سيئات فرب قائل: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تكتب عليه العبارة الكريمة سيئة مع أنها أفضل كلمة على وجه الأرض، ورب إنسان يسب المسلمين يكتب له السباب حسنة. يقول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

ولقد قرأنا في السيرة أن محمد بن مسلمة حين كلفه رسول الله ﷺ بقتل كعب بن الأشرف ركبه همٌّ شديد، فلم يأكل ولم يشرب بضعة أيام، فسأله رسول الله ﷺ عن سبب همه ونحوله، فقال: يا رسول الله، فكرت في الأمر فوجدت أنه لا يتم إلا إذا قلت فيك، يعني اغتبتك وذممت أعمالك، فقال له رسول الله ﷺ: «قل فيَّ ما تشاء»، وبهذا أذن له رسول الله ﷺ بذمه عند عدو الله كعب بن الأشرف؛ لأن النية الصادقة المخلصة تحول ذلك الذم إلى حسنات في حين أن نوايا المنافقين الخبيثة جعلت كلمة التوحيد العظيمة تكتب عليهم من آثامهم.

ومن هذا المفهوم يكون المؤمن بإذن الله عابدًا لله مثابًا على عبادته حتى وهو يأكل لذيذ الطعام ويشرب سائغ الشراب ويتمتع بالحلال الطيب من الشهوة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

ولقد ذكر رسول الله ﷺ قومًا من ضعفاء المسلمين لم ينفروا إلى غزوة فذكر عليه الصلاة

والسلام أن نياتهم الكريمة الخالصة لوجه الله كتب الله بها ثواب المجاهدين الذين قطعوا مئات الأميال، فقال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا حبسهم العذر**»، والشعب هو الطريق في الجبل.

وفي صحيح البخاري أن رجلاً من الأنصار اسمه يزيد بن الأخنس أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل بالمسجد ليعطيها لمن يحتاجها فأعطاها الرجل إلى ابن الأنصاري المتصدق واسمه معن ولعله رآه محتاجًا فرد معن الدنانير إلى أبيه فأخذها إلى رسول الله ﷺ وأخبره بقصتها فقال عليه الصلاة والسلام: لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن. وبذلك كتب الأجر ليزيد بنيته مع أن الدنانير عادت إلى ولده.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى أعمالكم**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال من حديث عبد الله بن عباس: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**».

وقد جاء في الصحيحين حديث الرجال الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فما فرج الله كربتهم إلا ببركة أعمال صالحة عملوها كانت نواياهم فيها مخلصة لوجه الله، وفي الحديث المتفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ**».

وهذا يعني أن المؤمن بنواياه المباركة يكتب له ربه حسنات حتى في إنفاقه على نفسه وعلى زوجته وعياله؛ ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها (أي: ينوي إخلاصها لوجه الله) كانت له صدقة**».

وقد روى الشيخان حديث الرجل الذي أراد أن يتصدق صدقة مخلصة لوجه الله؛ فكان يخرج بليل لكي لا يراه أحد وهو يتصدق فكان أن وضع الصدقة أول ليلة في يد سارق فأصبح الناس يتحدثون تصدق الليلة على سارق، وفي الليلة الثانية وضع صدقته في يد زانية

فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية، وفي الليلة الثالثة وضع الصدقة في يد غني فأصبح الناس يتحدثون تصدق الليلة على غني. لكن ربنا ﷻ تقبل منه صدقاته؛ لأن نية الرجل كانت احتساب الصدقة ولوجه الله.

وعلى الجملة؛ فإن الإسلام هو دين الحقائق وليس دين المظاهر، والقبول عند الله لا يتعلق بالتزويق والدعايات وزخرف العمل والقول لكن الله ﷻ إنما يتقبل من المتقين الذين يعتصمون بالله ويخلصون دينهم له.

* * *

## من أحاديث الآداب

# التواصي بالحـــقِّ

لا يكفي من المؤمن أن يقيم الحق في نفسه ثم يقول بعد ذلك: ما عليَّ من غيري ولا دخل لي فيهم، بل لا بدَّ للمجتمع أن يتواصى أصحابه بالتزام الحق ونبذ الظلم والباطل، بمعنى أن المجتمع الإسلامي مطالب أن يكون مجتمعًا فاضلاً وضيئًا لا ترى في شوارعه منكرات أو معاصي أو مظالم.

إنَّ قطب المجتمع الإسلامي هو التعاون على الخير حيثما كان ومحاربة الشر كائنًا فاعله من كان، وقد لخصت سورة «العصر» خصائص المجتمع الإسلامي في إعجاز لا مثيل له، وتلك الخصائص أربع يجمعها قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

ومعنى هذا أن صرح المجتمع الإسلامي يقوم على الإيمان بالله، وعلى العمل الصالح، وعلى التزام الحق في كل قول أو عمل، وأخيرًا على الصبر والثبات في وجه أعداء الحق وأهل الباطل، وللرسول الله ﷺ حديث في قمة التصوير البلاغي يوضح فيه أن أمة محمد يجتاحها خطر الهلاك إذا اكتفى كل مسلم بإصلاح نفسه ولم يأبه بردع المجرمين عن جرائمهم، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».

لقد شبَّه الرسول ﷺ المجتمع المسلم بالسفينة، وذكر أصناف الناس، وبدأ بالذي يبدد ماله في الموبقات، والمجاهد الذي يجاهر ويفاخر بالمعاصي، والمفسد الذي يعيث في مجتمعه وقاحة وسوء أدب أقول هؤلاء جميعًا لا بدَّ أن يمنعوا بشتى الوسائل؛ لأن المجتمع كالسفينة

في البحر إذا خرب أي جزء منها حل الدمار بكل من فيها، وقد روى أصحاب السُّنن أن أبا بكر ﷺ حين رأى إحجام الناس عن تغيير المنكر قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]».

وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب**»، وبذلك أفهمهم أبو بكر أن تلك الآية من سورة المائدة معناها: إذا استنفد المؤمن كل طاقاته في تغيير المنكر فلم يستطع تغييره، ورأى المجتمع الإسلامي يسوده شح مردٍ وهوى متبع؛ فليعلم عندئذٍ أن الهدى هدى الله، وأن كل إنسان مسئول عن عمله فقط، وأنه لا يضره من ضلَّ إذا اهتدى هو والتزم بأمر الله.

وفي هذا الباب أحاديث مخيفة تنذر الأمة بمصير مظلم إذا تركت أصحاب المنكرات يخربون المجتمع دون أن يؤدبوا ويؤخذ على أيديهم، قال رسول الله ﷺ: «**لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم**»، أنذر النبي ﷺ أن الأمة المسلمة إذا هابت من الظالم أن تقول: أنت ظالم، فقد تودع منها أي أصبحت وكأنها لا وجود لها.

- جاء في سنن ابن ماجه وروى النسائي نحوه أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دخل على زينب -رضي الله عنها- فزعًا وهو يقول: «**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**».

- وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**يَرَى أَمْرًا لله عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ** (يعني الخوف من العباد)، **فَيَقُولُ اللهُ** ﷻ **لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ. فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**».

- وقد نهانا رسول الله ﷺ أن نصادق الكفار ونتخذهم أولياء وأعوانًا نؤاكلهم ونشاربهم، وحذَّرنا أن بني إسرائيل استحقوا اللعنة من أنبيائهم؛ لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر، ولأنهم كانوا يصادقون الفاسقين، روى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٨١]، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾».

**أولاً:** من آداب من يتصدى للدعوة إلى الله ونشر الصالحات ومقاومة المفاسد أن يخلص العمل لوجه الله ضاربًا صفحًا عن المطامع والشهرة، وأن يبدأ بنفسه فيحليها بكل خلق كريم ويرسم بسلوكه القدوة للمتقين، وألا يكون كمن قال الله فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ [البقرة: ٤٤].

**ثانيًا:** أن يكون الداعية إلى الله عالمًا علمًا يقينًا بالحكم وألا يخبط في الآداب والأحكام بغير علم ولا هدى ولا دليل.

**ثالثًا:** أن يكون الداعية ذكيًا مقدرًا للمواقف منوعًا للأساليب على حسب حال الذين يدعوهم إلى الله، وعلى حسب إمكاناته فقد يدعو باللسان، وقد يغير المنكر باليد إذا كان من أهل السلطة، ولكن إذا رأى الخطر الشديد بدون مردود مفيد فإن الله يعذره إذا أنكر المنكر بقلبه، ولكن إذا ملك الداعي سلطانًا؛ فعليه ألا يخشى في الله لومة لائم.

**رابعًا:** إذا كان من تدعوه إلى الخير حاكمًا ذا سلطان فلا بدَّ أن يكون الداعية عظيم البلاغة، وأن يخلص الدعوة لله دون نظر إلى رغبة أو رهبة، وألا يجعل النصيحة على ملأ بل يسر إسرارًا مؤدبًا حتى لا تتحول الدعوة تشهيرًا، وأن يتوِّج كل ذلك بعفة اللسان وحلاوة الموعظة وسعة الصدر ومكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى لنبيِّه في سورة «النساء»: ﴿فَأَعْرِضْ

﴿عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

**خامسًا**: الرفق في الدعوة هو جماع الأمر، وقد اشتهر الدعاة من السلف بهذا الأمر قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ومن ذلك أن أبا الدرداء ﷺ مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم واسألوا الله العافية، قالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبعض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

ومرَّ أحد السلف على رجل يجر إزاره فهمَّ بعض من كانوا معه أن يأخذوه بألسنتهم، فقال لهم الداعية: دعوني أكلمه ثم دنا منه وقال له: يا ابن أخي، إنَّ لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك، فقال الرجل: نعم، ورفع إزاره، فقال لأصحابه: لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسين ﷺ إلى عرس، فجيء بطبق من فضة فيه خبيص، فقلب الطبق على رغيف وردَّه على صاحب العرس، وبذلك وعظ وهو ساكت.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

* * *

## من أحاديث الآداب

# الحذر من الشيطان

المؤمن في حرب مستمرة مع الشيطان؛ لأن الشيطان أعلن عداءه لبني آدم، وتوعد أن يحتنك ذريته، فهو يستفزهم إلى الشر بصوته، ويجلب عليهم بخيله ورجله، ويشاركهم في الأموال بالسحت والحرام، وفي الأولاد بالفتنة والعقوق، ويعدهم مكذوب الوعود وغرور الأماني، لكن الله ﷻ حصن عباده المؤمنين ضد ذلك العدو الغادر اللدود فهو ﷻ يثبتهم بالقول الثابت والعمل الصالح والكلم الطيب حتى يخنس الشيطان عنهم ويخسأ عن رحابهم، وينهزم أمام قوة إيمانهم تحقيقًا؛ لقوله تعالى مخاطبًا إبليس في سورة «الإسراء»: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وما دامت المعركة خطيرة تهدد أعلى ما يملكه الإنسان ألا وهو دينه وتوحيده؛ فقد أحببت أن أنبِّه إلى أمور حول طبيعة الشيطان ووسائله وأسلحته وطرق مقاومته، وقد استفدت من كتاب لأخينا الشيخ سليم الهلالي سمَّاه: (مقامع الشيطان)، ونشرته مكتبة ابن الجوزي -جزاهم الله جميعًا خير الجزاء.

**أولاً**: يتبع الشيطان مع الإنسان وسيلة الاستدراج خطوة بخطوة، ومن خطواته أنه ينسي الإنسان نفسه، ويغيب عنه ذكره، ثم يزين له المعصية بطرق مختلفة منها الوسوسة والفتنة وأكبر فتنة تأتي المرء من المرأة، يقول النبي ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ رَأَى امْرَأَةً تُعْجِبُهُ؛ فَلْيَقُمْ إِلَى أَهْلِهِ، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا**»، وهي طريقة ناجحة لإطفاء شهوة الحرام التي يزينها الشيطان للإنسان وينسيه عواقبها الوخيمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

**ثانيًا**: ومن سائل الشيطان التخويف والتسويف والحيرة فإذا أوقع الإنسان في مصيدته ختمها بالتبرؤ والشماتة، وكل هذه ذكرها الله ﷻ في محكم كتابه.

يقول الله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويقول في الذين سوفوا إيمانهم بعد أن تجلت لهم الحقائق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، ثم هو يؤزهم إلى المعصية أزًّا، أي: يسوقهم إليها في هياج وسعر حتى إذا عصوا وكفروا تبرأ منهم وشمت فيهم وناداهم وهم في هاوية العذاب: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

**ثالثًا**: وللشيطان وسائل شيطانية وأسلحة يثخن بها عقل الإنسان وعقيدته منها الجدال الذي يقول فيه الله -تعالى- في سورة «الأنعام»: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومنها التحريش بين المسلمين بالدس والوقيعة والوسوسة والغضب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

ومنها التبذير؛ فالمبذرون إخوان الشياطين؛ لأن السرف يفتح أبواب الشهوات على مصاريعها.

ومنها تسميته الأشياء بغير أسمائها كما تسمى الرشوة: هدية، وكما يسمَّى الغلول والاختلاس: ذكاءً، وكما يسمَّى الزنا والرقص: حضارةً وتقدُّمًا، وخلف هذه المسميات يجد الشيطان أخصب مرتع وخيم.

ومن وسائل الشيطان (تعري المرأة وإغراؤها بإبراز مفاتنها) تحت شعار الحرية، وأكثر من يدعو لذلك أهل الزنا والمعاصي من رجال الفكر المنحرف ومن الشعراء وأهل الغوايات، قال الله تعالى: ﴿الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومن وسائل الشيطان الغناء والتمثيل الساقط، وما يكتنف دور اللهو من معاصي الله بالخمر والقمار والتعري واجتماعات الساقطين والمنحلين والمنحرفين.

أما السلامة الوقائية من الشيطان؛ فتكون أولاً: بتقوى الله ومخافته والإخلاص له، يقول

الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

ومن الأساليب الواقية: صلاة الجماعة والحرص عليها، وذلك لأن العبد لا يكاد ينصرف من صلاة حتى يحل وقت الصلاة التالية، وبذلك يظل العبد على صلة بربه فيخزى الشيطان وينقلب حسيرًا.

ومنها: الجماعة في السفر، ومنها: مجالس الصالحين فتلك كلها مقامع للشيطان تهزم مؤامرته وتشيع في المسلمين التحاب في الله؛ ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين حين رآهم يتفرقون خلال السفر في الشعاب: «**إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية من الشيطان**»، فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعض المسلمين لبعض حتى يقال لو بسط عليهم ثوب لعمهم.

ومنها: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في المواطن التي يتدخل فيها في أحوال الإنسان، ويكون ذلك عند تلاوة القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور، وعند السحر يقرأ المعوذتين والآيات التي تشتمل على كلمة التوحيد، وعند دخول المسجد يقول: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**»، وتكون الاستعاذة أيضًا عند الوسوسة في الصلاة وعند الغضب وعندما يرى الإنسان في منامه ما يكره، وعند العين والحسد وكذلك عند احتدام الجدل وخصوصًا إذا كان المجادل ممن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

هذا؛ والبسملة كلمة مباركة تفتح بها الأعمال المباركة كالقراءة ومجلس العلم، كما تسمي عندما تعثر الدابة، وعند خروجك من بيتك، وعند الجماع، وما أجمل أن يحفظ المؤمن سورة «البقرة» ومنها آية الكرسي، وكذلك سورة «الإخلاص» والمعوذتين.

**رابعًا**: ومما يطرد الشيطان ويحسره سجود التلاوة؛ لأن الشيطان أمر أن يسجد فعصى وأمر الإنسان المؤمن فأطاع، كما يطرده الأذان والإقامة وتسوية صفوف الصلاة وتراصها؛ لأنه يدخل من بين الفُرَج، كما أن سجود السهو من طاردات الشيطان

على أن أعظم طارد له هو ذكر الله ولذكر الله أكبر.

ومما يجدر بنا ذكره أن للشيطان أوقاتًا يضعف فيها وتسهل عندئذٍ مهاجمته؛ كشهر رمضان وأيام الجمع، وله أوقات يهيج فيها الشيطان ويحسن عندئذٍ أن نحبس الأولاد والأهل عن الخروج حتى لا يتعرضوا لكيده، قال رسول الله ﷺ: «**قيلوا؛ فإن الشياطين لا تقيل**»، وقال: «**احْبِسُوا صِبْيَانَكُمْ حَتَّى تَذْهَبَ فَوْعَةُ الْعِشَاءِ؛ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ تَخْتَرِقُ فِيهَا الشَّيَاطِينُ**».

* * *

## من أحاديث الآداب

# اتباع الهوى والابتعاد عن طريق الحق

من آداب المؤمن أن يكون دائمًا في صف الحق ومع جنوده من أهل العقل والمنطق والتفكر والعدل، وهو بهذا الأدب الرفيع يمقت الهوى والغوغائية ورعونة العواطف، المؤمن لا يمكن أن يكون غوغائيًا؛ لأن معناها الركض الأعمى وراء الهوى دون انعطاف إلى منطق العقل ونداء الحق، وأصل الغوغائية كما جاء في «لسان العرب»: الجراد حين يخف للطيران، ثم استعيرت للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، وأطلقت أيضًا على اللغط والصياح والضوضاء، ولا تكون الغوغائية إلا من منطلقين من ضعف التفكير وقلة المحصول.

يكون طالب العلم غوغائيًا إذا ضعف تحصيله فيلجأ إلى ستر ذلك باللغط والادعاء الأجوف، ويكون الطالب في مدرسته غوغائيًّا إذا أعجزه الاجتهاد والتفوق فيلجأ إلى الحيل والأعذار والكذب، ويكون الحاكم غوغائيًّا إذا لم تكن لديه إنجازات بالأرقام فيلجأ إلى إنجازات بالأوهام والتصفيق وضوضاء الجمهور ينتزعها بالخطب الطويلة الجوفاء والادعاءات المخدرة المزعومة.

ولقد ابتليت أمتنا الإسلامية في العصور الحديثة بمراحل وفترات من الغوغائية لجأ فيها بعض المتسلطين إلى انفعالات الغوغاء فخاطبوا الهياج ولم يستطيعوا مخاطبة العقول؛ لأنها لا تؤمن إلا بالمآثر الملموسة والأعمال الماثلة والإنجازات المرئية.

والحقُّ أن شيئًا كثيرًا قد ضاع على أمتنا في غياب الفكر الواعي المتبصر والمنطق الإحصائي الدقيق فصرخت كثيرة من جماهيرنا بالحرية وهي في القيود وهتفت بالنصر تحت سنابك اليهود وعربدت بالدخل القومي وهي في مخالب الإفلاس، ولو أخلدت إلى الحق والوقائع والدين والأرقام لما انطلت عليها عربدات الغوغائيين ولا ادعاءات الانتهازيين.

المؤمن لا يغلبه الهوى حتى وهو في أشد حالات الانفعال، فلو دعي مثلاً إلى شهادة حق في قضية، فلما وصل إلى محكمة إذا هي بين خصم من ألد أعدائه وبين أبيه الذي قضى بهجة العمر في تربيته لشهد بالحق دون النظر إلى القرابة أو العداوة لخصمه.

المؤمن في هذه الحال يشهد مع الحق حتى ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين؛ لأن الحق فوق القرابة وفوق كل هوى من أهواء النفس، ولا غرو فالمؤمن منهجه القرآن، والقرآن حرب على الهوى، وكيف لا يحاربه وهو نقيض الحق، يقول الله -تعالى- في سورة «النساء»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

ولما عرض رسول الله ﷺ دعوة الحق على أساطين الشرك رفضوا أن يفكروا ورفع كل منهم عقيرته بصراح غوغائي فمن قائل شاعر، ومن قائل ساحر أو مجنون، ومن قائل كاهن كاذب فدعاهم رسول الله ﷺ إلى واحدة وهي أن يتفكروا فقط وينبذوا الهوى والغوغائية وسيهديهم تفكيرهم إلى أن محمدًا نذير وليس مجنونًا قال الله -تعالى- في سورة «سبأ»: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

المؤمن يأبى عليه دينه وشرف عقله أن يكون عبدًا لهواه ينعق مع كل ناعق، وينخدع بكل بارق، كلما قرأت كتاب الله وقفت مليًا عند كل حوار يدور بين الرسل وأقوامهم وأتأمل في تدبر مقدار الأدب والموضوعية والتعقل في ألفاظ الأنبياء ومقدار الغوغائية والهوى وانعدام المسئولية في ردود القوم في سورة «الشعراء» على لسان نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فيرد القوم على نوح بغوغائية لا منطق فيها ولا مسئولية: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، ويختمون حوارهم بطرح همجي: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، ويقول لهم هود عليه السلام: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٥]، فيردون ردًّا غوغائيًّا لا أثر فيه للمنطق: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۞ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ۞ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، ويقول لهم صالح عليه السلام: ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥١، ١٥٢]، فيردون

عليه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وفي سورة «الأعراف» يقول لهم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠- ٨١].

ولما رأى مشركو قريش أن القرآن يحاورهم بمنطق العقل المستنير ورأوا أنهم لا يملكون من وحي خرافاتهم ما يردون على ذلك الحوار الكريم لجئوا إلى اللغو والصراخ وسد الآذان وأوصى بعضهم بعضًا إذا سمعوا القرآن أن يتصايحوا بأي مهاترة لتعلو أصوات غوغائيتهم على منطق القرآن، وإلى هذا أشار ربنا ﷻ في سورة «فصلت»: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وفي الأثر: «آفة الدين الهوى»، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء».

ومن كلام عمر ﷺ: «اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها؛ فإنها طلعة تنزع إلى شر غاية».

وكان عليٌّ ﷺ يقول: «أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فاتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة».

وقال الشعبي -رحمه الله: «إنما سمِّي الهوى؛ لأنه يهوي بصاحبه».

ومن شعر ابن المعتز:

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى      من الناس إلا حازم الرأي كامله

اللهم جنِّبنا والإخوة القراء دواعي الهوى ومزالق الردى، وأن يجعل العقل لنا قائدًا وإلى الإيمان مرشدًا.

* * *

## من أحاديث الآداب

# التوكل على الله

كثيرون من المسلمين قد لا يميزون بين التوكل على الله وبين الاتكالية، فالتوكل معناه أن تصدق العزم وتتخذ الأهبة وتعد للأمر عدته بالاجتهاد والدأب، ثم بعد هذا تتوكل على الله معتقدًا أن الخير بيده وأن كل شيء بقدره، وأن التوفيق ونجاح المساعي لا يكون ألا بأمر الله وإرادته مهما أعمل المرء حيلته ومهما تذرع بحوله وقوته، وأما الاتكالية؛ فهي أن ينام المرء غارقًا في كسله ويتمنى على الله الأماني، فيقول: أنا رجل متوكل على الله وسيأتيني رزقي.

**ولقد علّمنا رسول الله ﷺ إذا أقدمنا على أي عمل أو مشروع أو أمر مهم أن نتخذ الخطوات التالية:**

**أولاً:** نتأكد أن هذا العمل نافع لنا في المعاش والمعاد، وأنه بعيد عن الحرام.

**ثانيًا:** أن نستعين الله فنتخذ كل الوسائل الموصلة إلى النجاح.

**ثالثًا:** أن نتسلح بالعزم فلا نعجز ولا نكل ولا نكسل، بل نداوم إلى نهاية المسيرة.

**رابعًا:** أن نرضى بما يقدره الله فلا نظهر الندامة أو نقول: «لو».

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»**.

وما أجمل المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي: **«لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»**. هذا المثل من أجمل التشبيهات التي تصوِّر حقيقة التوكل، فقد ضربه النبي الكريم من سلوك الطير وهي كما هو معروف لا تقعد كسلانة في أعشاشها وتنتظر أن يأتيها الرزق، لكنها تستيقظ قبل طلوع الشمس، فتسبح الله بتغريد الصباح، وتخرج من أعشاشها منطلقة في فضاء الله، ثم تمضي النهار تنقيرًا في الأرض وبحثًا عن الحبوب وصغار الديدان والثمار والأعشاب

حتى تملأ بطونها التي كانت قد أصبحت خالية، ثم تعود إلى فراخها وفي حواصلها غذاء الفراخ.

هذا هو حق التوكل إنه السعي الجاد وراء الرزق والعمل المتصل للكسب والنشاط الدائب في عمل اليد، حقًا إن الطير تخرج جائعة في الصباح لكنها تنهض للعمل مبكرة واثقة برزق الله فيرزقها جل شأنه؛ لأن عليه رزق خلقه كما جاء في سورة «هود»: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

إنَّ المؤمن لا يكف عن السعي ولا ينقطع عن الجد ولكنه لا يتجاوز هذا إلى الجزم بأنه سينجح، إن الطالب المتوكل على الله هو الذي يقضي كل عامه جدًا واجتهادًا ثم إذا سئل: هل ستنجح؟ يقول: النجاح أولاً وأخيرًا بيد الله. أما ذلك الطالب الذي يقضي عامه في العبث اللهو والإهمال ثم يقول: الله هو الذي سينجحني؛ فذلك لم يعرف معنى التوكل.

إنَّ لله جل شأنه سُننًا ليس لها تغيير ولا تبديل ولا تحويل، وهي أن من جد وجد، ومن زرع حصد، ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا الله وأنه ﷻ لا يضيع عمل عامل، وهو يطلب من المؤمن أن يبذل كل جهده وينتظر التوفيق والنجاح منه ﷻ.

ولما ذكر رسول الله ﷺ لأصحابه أن سبعين ألفًا منهم يدخلون الجنة بغير حساب سئل عنهم فقال: «**هم الذي لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرون وعلى بهم يتوكلون**»، وإنما حذر من الرقية والاسترقاء؛ لأنها قد تحمل الإنسان على أن يقصد المشعوذين، والشعوذة ضد العمل الجاد والتوكل، كما ذم عليه الصلاة والسلام التطير؛ لأنه ينال من معنوية الإنسان ويقعده عن العمل بحجة أنه لن يوفق، أما التفاؤل فمطلوب لأنه يقوي النفس ويملأها أملاً في وجه الله، وانتظارًا للفرج القريب، وتشجيعًا على الجد والاجتهاد والتوكل.

ولقد كان رسول الله ﷺ دائم الأهبة متصل النشاط والهمة لكنه كان يعلن أنه لا حول لهو ولا قوة إلا بالله، وأن توكله على الله وتوجهه إليه. وأن الحول والقوة والطول إنما تستمد من الله، وأنه تعالى بيده الخير، روى الترمذي أنه -عليه الصلاة والسلام- كان إذا خرج من بيته قال: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**».

إنه عليه الصلاة والسلام عازم على ترك الضلال والزلل والظلم والجهل لكنه سيبذل جهده في تركها ويعلن توكله على الله؛ لأنه لا يهدي لأحسن الأخلاق إلا هو، وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أحب أن يكون أقوى الناس؛ فليتوكل على الله**»، وذلك لأن التوكل عليه يشعر المتوكل أن قوة الله فوق كل قوة، وأن إرادته فوق كل إرادة، وأن كل من في الأرض لو اجتمعوا ما نفعوا ولا أضروا إلا بإذنه، وهذا الشعور يملأ قلب المؤمن ثقة بتوفيق الله ونصره.

وما أجمل أن يقول المؤمن إذا خوف بسطوة العباد وسلاح العبيد أن يقول: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، ولما لحق المسلمون المشركين في غزوة حمراء الأسد لقي المسلمون من خوَّفهم وقال لهم: إن قريشًا قد جمعت لكم جموعًا هائلة، فلم يزيدوا على أن قالوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، ولما أراد المشركون أن يلقوا إبراهيم عليه السلام في النار خوَّفوه من حرها وحرارتها؛ فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، وهذه قمة التوكل على الله.

وكان عليه الصلاة والسلام يحثُّ المسلمين أن يستصحبوا التوكل على الله أينما توجهوا معتقدين أنه الحي وغيره يموت، وأنه إليه المرجع والمآب؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**».

* * *

## كلمة شكر

| | |
|---|---|
| أســـــتاذُنا الشَّـــيخُ الجليـــلُ | عميـــــدُنا أحمـــــد فَـــرَح |
| بكتابـــــه البحــــر الطهـــــور | وبعلمـــــه قلبـــــي انشرح |
| مرحـــــوم أدَّى الاختبـــــار | في جنـــــة المـــولى نجـــح |
| في ذمـــــة الـــرَّبِّ الغفـــــور | ميزانـــــه فيهـــــا رجـــح |
| فاهنـــــأ بمقعـــــدك الكـــريم | بـــــابُ الجنـــــان لـــك انفـــتح |
| وأتـــــتْ ملائكـــــةُ السَّـــما | في موكـــــب تحيـــــي الفـــرح |
| رضـــــوان أقبـــــل باســـمًا | في كفـــــه اليمنـــــى قـــدح |
| اشرب مـــــن النهـــر الزكـــي | خمـــرًا بـــه المـــولى ســمح |
| فـــردوس يـــا مِسْـــكَ الختـــام | لعميـــــدنا أحمـــــد فـــرح |

**نشرف بتدقيق هذا الكتاب ومراجعته**

**- حامد محمد إبراهيم عبد الله**

**- محمـــــد علي إبراهيم**

***

# الفهرس

المقدمـــــــة ........ ٣
تقديـــم ........ ٥
السُّنة النبوية.. تعريفها وأهميتها: ........ ٥
أحكام الصـــــلاة وآدابهـــا ........ ٨
الطهارة شرط لصحة الصلاة ........ ٨
منزلة الصلاة ........ ١١
احترام بيوت الله ........ ١٤
آداب الصلاة ........ ١٨
أهمية الصلاة في الإسلام ........ ٢٠
فضل المساجد وواجبها ........ ٢٣
شروط الصلاة ........ ٢٧
أوقات الصلوات الخمس ........ ٣١
أوقات الكراهة ........ ٣٤
أداء الصلاة في وقتها ........ ٣٧
صلاة الجماعة وفضلها ........ ٤٠
ما كان يقرأ رسول الله ﷺ بعد أم الكتاب ........ ٤٤
الأذان ........ ٤٨
أحكام الصلوات في الأحداث الطارئة ........ ٥٠
ما يمنع وما يجوز من الأعمال في الصلاة ........ ٥٤
صلاة أصحاب الأعذار ........ ٥٨
صلاة الوتر ........ ٦٠
أنواع السجود ........ ٦٤
صلاة الجمعة وفضلها ........ ٦٦
آداب الجمعة ........ ٧٠
أعياد المسلمين ........ ٧٤
الوسوسة في العبادة ........ ٧٨
باب في الأموال والزكاة والمعاملات والحقوق آدابها وأحكامها (الدين المعاملـة) ........ ٨٢
الحرص على طهارة الكسب ........ ٨٥
(١) الحث على العمل والنهي عن التسول ........ ٨٧
(٢) الحث على العمل والنهي عن التسول ........ ٩٠
فضل الإنفاق في سبيل الله ........ ٩٤
السعي إلى طلب الرزق من طـرقه المشروعـة ........ ٩٧
روح التكافل والتلاحم في المجتمع المسلم ........ ١٠١
فضل العطف على الفقراء والضعفاء ........ ١٠٤

أهـــل المعـــــــروف........................................ ١٠٧
أدب التعامُل مع المال ........................................ ١١٠
الزكاة وأهميتها في الإسلام ........................................ ١١٣
نصاب الزكاة........................................ ١١٦
أحكام متفرقة حول الزكاة ........................................ ١١٩
بعضٌ من آداب الصدقة والزكاة........................................ ١٢٢
(١) آداب البيع والتجارة........................................ ١٢٥
(٢) من آداب البيع والتجارة........................................ ١٢٨
فضل الأمانة والحث عليها ........................................ ١٣٢
آداب اليمين والحلف النهي عن كثرة الحَلِف ........................................ ١٣٥
أحكام اليمين والحلف ........................................ ١٣٨
بعضٌ من أحكام المعاملات المتعلقة بالشركات ........................................ ١٤١
أخلاق الدائن والمدين........................................ ١٤٤
القرض الحسن وآداب أدائه ........................................ ١٤٧
الرَّهـــــن... أحكامه وآدابه ........................................ ١٥٠
الوصية حكمها وحكمتها واستحقاقها وشروطها ........................................ ١٥٦
الرِّبـــــا ........................................ ١٥٩
حقوق الإنسان وكرامته ........................................ ١٦٢
الاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع ........................................ ١٦٥
ما يجب على المسلم إزاء مجتمعه وإخوانه ........................................ ١٦٨
حقُّ المسلم على المسلم........................................ ١٧١
احترام المسلم لأخيه ورحمته به ........................................ ١٧٣
احترام المسلم لأخيه المسلم........................................ ١٧٧
الشفقة والتراحم ........................................ ١٨٠
حقوق الإنســـــان........................................ ١٨٣
نظرة الإسلام الإنسانية للتعامل مع الآخرين ........................................ ١٨٦
حقُّ الجـــــار ........................................ ١٨٩
حقوق الضيف........................................ ١٩٢
حقوق العمال........................................ ١٩٦
الإصلاح بين المتخاصمين ........................................ ١٩٩
أحكام العقيقة........................................ ٢٠٢
أحكـــام النـــذر ........................................ ٢٠٤
أحكام الأضحية ........................................ ٢٠٧
كتاب الصيام........................................ ٢١١
فضل الصوم ومنزلة رمضان ........................................ ٢١٤
موسم القبول ........................................ ٢١٧
من فضائل الصيام ........................................ ٢٢٠
من آداب الصيام ........................................ ٢٢٣

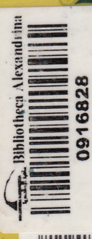
من أحكام الصوم وفضائله ........ ٢٢٦
العشر الأواخر من رمضان وفضلها ........ ٢٣٥
كتـاب الحـج ........ ٢٣٨
حكمة الحـج ........ ٢٤١
العلاقة الوثيقة بين الحج والجهاد ........ ٢٥٦
شرف المؤتمرات بشرف أهدافها ........ ٢٥٩
(١) آداب السفر ........ ٢٦٢
آداب الحـج ........ ٢٦٨
أهداف الحج ........ ٢٧١
أثر الحج في نفوس الحجاج ........ ٢٧٤
مسئولية الحاج بعد عودته إلى دياره ........ ٢٧٧
أحكام في ذبح البهائم ........ ٢٨٠
كتاب الحدود والقصاص ........ ٢٨٤
حَدُّ الخمـر ........ ٢٨٤
حدُّ السرقة ........ ٢٨٨
حـدُّ الزِّنـا ........ ٢٩١
حـدُّ القتـل ........ ٢٩٤
التعزيـر ........ ٢٩٨
ما هو دون القتل من الجروح وإتلاف الأعضاء ........ ٣٠١
القسـامة ........ ٣٠٥
ما لا ضمان فيه من المخالفات والجنايات ........ ٣٠٧
حكم الخوض في أعراض المسلمين ........ ٣١٠
حكم الخلوة بالمرأة الأجنبية ........ ٣١٣
أحكام الجهاد وآدابه ........ ٣١٦
آداب الجهاد ........ ٣١٩
الجهاد والشهادة وأحكامهما ........ ٣٢٢
آداب الجهاد والحرب في الإسلام ........ ٣٢٦
حبُّ الله ورسوله (الجهاد) ........ ٣٢٩
الثبات والصبر في مواجهة الأعداء ........ ٣٣٢
اليقظة والحيطة في مؤامرات أعداء الإسلام ........ ٣٣٥
من أحاديث الآداب ........ ٣٣٨
علاقات المسلمين مع غير المسلمين ........ ٣٤١
الوفاء بالعهود والمواثيق ........ ٣٤٤
حبُّ الله ورسوله ........ ٣٤٧
فضـل العلـم ........ ٣٥٠
تقدير العلم واحترام العلماء ........ ٣٥٤
التأدُّب في طلب العلم ........ ٣٥٦
الحثُّ على طلب العلم النافع ........ ٣٥٩

فضل العالم العامل ........................................ ٣٦١
من أحاديث الأحكام أحكام الزواج وآدابه........................ ٣٦٥
بعض من أحكام الزواج ........................................ ٣٦٥
آداب حول الزواج ........................................ ٣٦٨
المهر في الزواج ........................................ ٣٧١
الزواج المثالي ........................................ ٣٧٣
حقوق الزوج ........................................ ٣٧٦
حقوق الزوجات........................................ ٣٧٩
العدل بين الزوجات ........................................ ٣٨٢
الغيـــــرة ........................................ ٣٩١
التبرُّج والسفور ........................................ ٣٩٤
العـــــــدة........................................ ٣٩٧
المحرمات من النسب والرضاع........................................ ٤٠٠
المرأة قبل الإسلام وبعده المرأة في القرآن ........................ ٤٠٣
شقاوة المرأة في الجاهلية ........................................ ٤٠٤
غفلة النساء المسلمات عن أوامر الدين........................ ٤٠٧
أحكام تتعلق بالإنجاب ........................................ ٤١٠
فضل الذرية الصالحة........................................ ٤١٤
محاباة الأب بعض أبنائه على الآخرين........................ ٤١٦
مسائل مهمة تحقق خير الدنيا والآخرة للوالدين والأبناء ........ ٤١٩
آداب المؤمن مع أبنائه وبناته........................................ ٤٢٢
السحر والحسد باب في الحسد والنظر لما في أيدي الناس ........ ٤٢٥
منهج الإسلام إزاء النجوم والسحر والكهانة........................ ٤٢٧
النهي عن إتيان السحرة والمشعوذين ........................ ٤٣١
آداب عامة النظافة والطهارة ........................................ ٤٣٤
الإسلام دين النظافة ........................................ ٤٣٧
النظام والانضباط ........................................ ٤٤٠
من آداب الطعام والشراب ........................................ ٤٤٣
من آداب الطعام ........................................ ٤٤٦
المحرم من الأطعمة........................................ ٤٤٨
من آداب الزيارة ........................................ ٤٥٣
الصداقة وآدابها ........................................ ٤٥٥
الصديق الصالح ........................................ ٤٥٨
الصفح والمسامحة ........................................ ٤٦١
المسامحة والمياسرة........................................ ٤٦٥
النهي عن التكبر والمفاخرة ........................................ ٤٦٨
الحيـــــــــاء ........................................ ٤٧١
الرفق بالحيوان ........................................ ٤٧٤

الحبُّ في الله والبغض في الله ........ ٤٧٧
آداب السَّلام ........ ٤٨٠
إفشاء السلام ........ ٤٨٣
آداب المجالسة ........ ٤٨٦
السماحة والإيثار ........ ٤٨٨
الذوق الاجتماعي وأدب الملازمة ........ ٤٩٢
آداب الضيافة ........ ٥٠١
النهي عن العزلة ........ ٥٠٤
النهي عن العزلة والانغلاق ........ ٥٠٦
فضل الاختلاط بالناس وعدم العزلة ........ ٥١٠
التواصل والوداد في المجتمع المسلم ........ ٥١٤
البشاشة والدعابة ........ ٥١٧
الحلم واللين ........ ٥٢٠
فضل اللين ........ ٥٢٣
اللسان بين الكلام الطيب والكلام الخبيث ........ ٥٢٧
الكلام الطيب ........ ٥٣٠
عفُّ اللسان ........ ٥٣٣
مديح من لا يستحق ........ ٥٣٥
أثر العبادات في أعمال وأخلاق المسلم ........ ٥٣٨
بيان الأهداف النبيلة التي ترمي إليها العبادات ........ ٥٤١
فضل القلب المؤمن ........ ٥٤٤
فضل الصبر والشكر ........ ٥٤٧
فضل النوافل ........ ٥٥٠
الالتزام بالمنهج الإسلامي ........ ٥٥٣
دروس من الهجرة النبوية الشريفة ........ ٥٥٧
نفحات من أخلاق المصطفى ﷺ ........ ٥٦١
فضل الاهتمام بلغة القرآن ........ ٥٦٥
مؤهلات القيادة والمسئولية ........ ٥٦٨
أمانة المسئولية ........ ٥٧١
المروءة مقرونة بالفتوة ........ ٥٧٧
آداب المرض والتداوي نعمة الصحة ........ ٥٨٠
ما يتحلى به المؤمن في حال مرضه ........ ٥٨٣
التداوي ........ ٥٨٦
علاقة العبد بربه ........ ٥٨٩
الحث على تذكر نعم الله ........ ٥٩٣
شكر نعم الله تعالى ........ ٥٩٦
من آداب الكتابة ........ ٥٩٩
من آداب اللباس ........ ٦٠٢

آداب السلوك للرجال والنساء ........ ٦٠٥
التوبة الصادقة وطلب المغفرة ........ ٦٠٨
ظاهرة الكروش الكبيرة بين الناس ........ ٦١١
أمانـــة الكلمـــــة ........ ٦١٤
التمسك بالدين أغلى ذخائر الحياة ........ ٦٢٠
الأعمال الصالحة والأعمال الخبيثة ........ ٦٢٣
آداب المؤمن إزاء ربه ........ ٦٢٦
الأسرى ومعاملتهم ........ ٦٢٩
تشبُّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ........ ٦٣٢
العزة بالإســـــلام ........ ٦٣٤
فضل النية الصالحة ........ ٦٤٠
أوليـــــــاء الله ........ ٦٤٣
لبس الذهب والحرير للرجال ........ ٦٤٦
التفكير في البعث والحساب ........ ٦٥٠
الإخلاص في العمل ........ ٦٥٤
الترغيب في الإكثار من ذكر الموت ........ ٦٦٠
النهي عن حب الدنيا والإغراق في الشهوات ........ ٦٦٣
(١) التوبـــــة ........ ٦٦٦
(٢) التوبة والاستغفار ........ ٦٦٩
التسليم المطلق لأمر الله ورسوله ........ ٦٧٣
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ........ ٦٧٦
الرضا بالقضاء والقدر ........ ٦٧٩
المؤمن لا يخشى في الله لومة لائم ........ ٦٨٢
إن أكرمكم عند الله أتقاكم ........ ٦٨٤
آداب المؤمن إزاء أشراط الساعة ........ ٦٩٠
الدنيا ممر إلى الآخرة ........ ٦٩٣
عاقبـــة الظلـــم ........ ٦٩٦
التفكُّـر والتدبُّـر ........ ٦٩٩
محاســـبة النفـــس ........ ٧٠٢
التخوف من الذنوب ........ ٧٠٥
تحمُّل الأذى في الله ........ ٧٠٨
فضل النية الصادقة ........ ٧١٢
التواصي بالحـــــقّ ........ ٧١٦
الحذر من الشيطان ........ ٧٢٠
اتباع الهوى والابتعاد عن طريق الحق ........ ٧٢٤
التوكل على الله ........ ٧٢٧
كلمة شكر ........ ٧٣٠
الفهرس ........ ٧٣١


من أحاديث
الأحكام والآداب
للشيخ
أحمد فرح عقيلان
رحمه الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0916828




6 222011 599227